المفكر و الأمير

طه حسين و السلطة فى مصر



مصطفى عبد الغنى

المفكر والأمير

طه حسين والسلطة في مصر

١٩١٩ ـ ١٩٧٣

د. مصطفى عبد الغني

تصدير

هذه أجزاء من سفر ضخم عن طه حسين.

وهي أجزاء تتعدد مناحي النظر فيها وتتحدد عند الجانب السياسي في علاقة المفكر بالأمير أو المثقف بالسلطة في مصر.

ولأن الجانب السياسي يشير إلى كل ما يتصل بالحياة بأسلوب القوة Power على أساس أن أي مجتمع يخضع لعلاقة حتمية قائمة بين الحاكم والمحكوم (من صور العلاقة بين السلطة والمجتمع)، فإنها تستحوذ على مساحات شاسعة في الواقع العربي اليوم في كل الهيئات والجوانب. والأفكار والقضايا والدوافع البشرية.. وما إلى ذلك، وبالتالي تدخل بنا إلى جوهر هذه العلاقة بين من يملك ومن لا يملك، مما ينتهي بالمثقف إلى لون من ألوان التبعية على أساس أن الطرف الآخر في لعبة الحكم هو الحاكم، الذي يمسك بكل خيوط اللعبة حتى أصبح الحاكم هو ((اللاعب)) الوحيد.

مضى الزمن الذي كان يلعب فيه المثقف/ عالم الدين دورًا حيويًا في التاريخ الإسلامي، وهو دور انتهى مع العقود الأخيرة من عصر المماليك وبداية حكم محمد علي، فما كاد يمضي القرن التاسع عشر حتى شهدنا استبدال العلماء كمدرسين ومعلمين وقراء وقضاة شرعيين.. إلخ إلى الأفندية كتكنوقراط ومستشارين وخبراء سياسيين وسماسرة وأصحاب نشرات ومراكز دراسات.. إلخ.

حل الأفندي مكان الشيخ.

واحتل المثقف مكان العالم.

كان المجتمع كله يشهد تطورات شتى.

إذ حلت مناهج جديدة كالقومية مكان مفهوم الأمة الإسلامية كمصدر للموالاة.

وحلت قيمة العدل محل المساواة.

والديمقراطية محل الشورى.

تضاءل النفوذ السياسي لعالم الدين.

وزاد دور السياسي الجديد.

وراجت قضية الوكلاء -وكلاء الغرب- حتى فرضت نفسها وطالت الجميع.

حتى المفكر والأمير.

لقد غاب الجميع في حمى (السوق) والتبعية وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي و(الجات)، ونهاية التاريخ والنظام الجديد الذي ظهر/ أو لم

يظهر، والشركات متعددة الجنسيات.. والصراع بين قوى غربية جديدة قديمة واستعمار قديم جديد.

وفي وسط هذه التغييرات كنا نشهد طرفًا من تطور دور مفكر عظيم مثل طه حسين (١٩٨٩- ١٩٧٣).

وفي وسط هذا كله عرفنا ثبات بعض أدوار طه حسين وتغيرها .. وكيف صعد طه حسين إلى أقصى درجات التمرد.

.. وكيف هبط إلى أقصى درجات المهادنة.

وكان أقصى ما عرفنا كيف كان مثقفًا واعيًا نبيلاً، ثم كيف أصبح - في مرحلة تالية- طه حسين ضد طه حسين.

ونحب أن نشدد على أن طه حسين هنا كان (النموذج) الذي تكرر كثيرًا فيما بعد.

وهو (نموذج) مجرد ينم عن نماذج كثيرة.

وهو نموذج عرفنا أمثلة كثيرة له في عديد من أعمالنا المنشورة سواء تعاملنا مع المثقف:

إما بشكل رأسي (طه حسين - عباس العقاد- عبد الرحمن الشرقاوي- أحمد بهاء الدين- محمد حسنين هيكل ... إلخ).

وإما بشكل أفقي (المثقفون ودورهم السياسي ١٩٤٥- ١٩٦٨)، وقد نشر العنوان الأخير في كتاب (المثقفون وعبد الناصر).

والغريب أنه حين كان طه حسين السياسي هو عنوان أطروحة جامعية لي كان المثقفون والسياسة عنوان أطروحة جامعية أخرى لي أيضًا.

وفي جميع الحالات بدت أنماط المثقف تتراوح بين المتمرد حينًا والمتردد والمهادن والصامت والخبير أحيانًا كثيرة.

على أية حال، كان المفكر هنا النموذج الذي استغرق مني أكثر من خمسة عشر عامًا.

لقد بدأت الكتابة عن طه حسين منذ بداية الثمانينيات -أو قبل ذلك كثيرًا- وها أنا لم أنته منه بعد في نهاية القرن العشرين.

ولا أعرف متى تنتهي العلاقة الدامية بين المفكر والأمير؟

وهل ستنتهي حقًّا في عالمنا الثالث؟

وبعد، فهذه الأجزاء (محاولة) لرصد هذه العلاقة الجدلية، الأجزاء الثلاثة الأولى سبق أن نشرت تباعًا، أما الجزء الرابع (الملحق)، فهو وثائق لم تنشر من قبل آثرت أن أضمها إلى هذا السفر؛ لأنه - من ناحية- تؤكد النتائج التي سبق وأن فصلتها في الأجزاء السابقة، كما أنه - من ناحية أخرى- يعد مادة (خام) غير مسبوقة - قط - لمن يهمه الأمر.

وكان الهدف من نشرها جميعًا في سفر واحد هو تحديد القضايا أكثر، وعدم تجزئتها، فهذه العلاقة الرجيمة بين المفكر والأمير نالت كل شيء، ومن هنا فإنها - بالتبعية- وراء تفسير كل شيء في حياتنا المعاصرة.

د. مصطفى عبد الغني

الجزء الأول

طه حسين والسياسة

مقدمة

يولي الكتاب والدارسون جهدًا كبيرًا للجانب الإبداعي والنقدي في فكر طه حسين دون النفاذ إلى الجانب السياسي.

وعلى الرغم من أن فكر أي إنسان لا يمكن فيه فصل جانب عن جانب آخر، فإنه لا يمكن إغفال الجانب السياسي الذي لعب به صاحبه دورًا لا يمكن إنكاره.

ومما يصعب معه الفصل بين هذا الجانب أو ذاك، من جوانب حياته، أن كثيرًا من مناطق الإبداع لديه وراءها دافع سياسي، كما أن كثيرًا من المعارك السياسية التي أثيرت حوله وراءها أيضًا دافع شخصي أو فكري، لا سيما أن طه حسين ارتدى مسوح السياسة حين شارك في دروس الأدب، وارتدى مسوح أستاذ الجامعة حين شارك في السياسة واكتوى بنارها.

ويمضي في هذا الاتجاه. أن الكتابات التي أشارت إلى بعض مواقفه السياسية، إنما كانت بهدف التأكيد على صلابته وقوة معارضته دون تمثل هذه المواقف في تيار الحياة السياسية المصرية وربطها بالبيئة التي عاشها والعصر الذي عاصره.

هذا أول الأسباب التي دفعتني إلى كتابة هذا البحث.

وأما السبب الآخر، فيتمثل في أن طه حسين هو مثال المثقف الذي ارتبط بعلاقات وثيقة مع المؤسسة السياسية والحزبية، في وقت لم يكن ليستطيع أن يخلص من دواع خاصة به، وبعصره، حددت اتجاهه مع هذا الحزب أو ذاك، ومن هنا فإن دراسة موقف المثقف هي في الحقيقة دراسة (حالة) لابد منها خاصة وأن طه حسين هنا يمثل شخصية ارتبطت في الأذهان بكثير من المعاني، فضلاً عن أنه يظل واحدًا من المثقفين الذين تدور حولهم المعارك من آن لآخر، وتقام المحاكمات وتنصب المشانق في وقت لم تتعرض فيه مواقفه للبحث الموضوعي أو تلمس الوثيقة التي تنير الطريق.

يضاف إلى هذا، أن أعماله أخص منها (الأيام) يمكن إذا تمثلت بوعي كامل، أن تفسر بعض أحداث الربع الأول من هذا القرن تمثلاً صادقًا للظواهر السياسية والاجتماعية فيه.

ويتسق مع هذا ويتوازى معه، أنه لم يلق الاهتمام به كعميد للأدب العربي، كالاهتمام به كوزير في وزارة حزبية إلا بالقدر الذي يرصد به جانب النتاج الفكري، دون تبين إسهام النتاج السياسي، خاصة وأن أعمال طه حسين في الجانب الأدبي منها تدهشنا لكون جهده في الجانب السياسي مفقودًا تمامًا، وتزيد دهشتنا حين نعلم أن كتاباته السياسية تكون أسفارًا من مقالاته التي لم تنقطع في هذا الاتجاه إلى درجة أنه يذكر في معرض الإشارة إليها أنها ((لم تجمع وهي تؤلف كتبًا كثيرة)).

هذه هي أهم الدوافع التي كانت وراء كتابة هذا البحث..

وقد كانت الصعوبات التي واجهتني من نوع الدوافع .. فإلى جانب افتقاد هذه الكتابات التي تفسر موقفه السياسي فقد عانيت كثيرًا من نقص المصادر الأخرى التي يمكن الإفادة منها، فالوثائق البريطانية حتى عام ١٩٤١ تفتقر إلى ملف لطه حسين رغم حرصها على ملفات لشخصيات مصرية أخرى تقترب من مائة وخمسين شخصية، كما أن المراكز العلمية داخل مصر وخارجها لا تملك أية وثائق وقرائن في هذا الصدد، فإدارة البعثات بمجمع التحرير لا تحتوي على ملف البعثات الخاص وتجهل مكان وجوده، ودار الوثائق بالقلعة لا تملك محفظة أو ملفًا واحدًا يمكن أن يفسر كثيرًا من علاقات طه حسين، حينئذ، اللهم إلا بضع وريقات قديمة في أضابير دهاليز الدار، وكذلك فإن د. محمد حسن الزيات زوج كريمته ينفي لي أكثر من مرة وجود أية وثائق هامة بين أوراق طه حسين أو مكتبته، ويدخل ضمن هذا النطاق أيضًا، أن عددًا كبيرًا من أقرباء طه حسين ومعارفه لم يعاونوني فيما انتويته، بل إن بعضهم أشار علي بالانصراف، بل بالاستغناء عن طرق الموضوع كلية لحساسيته، وأذكر أن مؤنس (طه حسين الابن) الذي يقيم خارج مصر لم يرسل إليَّ أية وثائق أو ملاحظات تفيدني، وذلك رغم إلحاحي عليه لموافاتي بما يفيدني في هذا الصدد.

أما عن الدوريات، وقد كانت المعول الرئيس لي على وجه التقريب، فإنني عانيت كثيرًا من نقصانها أو تلفها.. فعلى الرغم من جهد العاملين بقسم الدوريات بدار الكتب الجديدة فإنني افتقدت كثيرًا من هذه الدوريات التي كنت في حاجة ماسة إليها، فكثيرًا ما كان يقال لي في حالة طلب عدد جديد أنه لا يمكن الاطلاع عليها أو يقال أنه في (الترميم) لتهرئته، أو يقال أنه غير موجود في الأصل، فضلاً عن افتقاد بعض النواحي التنظيمية هنا، فكثيرًا ما كان يحدث أن أطلب مجلة أو صحيفة هامة بالتاريخ المدون في (سند الإعارة) فيعود إلي المسئول صفر اليدين بحجة نقصان التاريخ الهجري المؤرخ به هذه الدورية، وهو ما حدث كثيرًا في دورية مثل

(الفتح).

وقد جهدت طويلاً لتخليص البحث من استطرادات الأدب ومصطلحات النقد، التي يتورط فيها الباحث عادة تحت تأثير الإغراء أو الاندفاع، كما بذلت في هذا جهدًا كبيرًا، وفي الوقت الذي استفدت به من الدراسات الأدبية الكثيرة ودلالاتها التاريخية وما أثير حولها، فإنني قمت بوضعها في السياق الذي قصدته وكتبت من أجله هذه الدراسة.

وقد اعتمدت في البحث على مجموعة من المراجع يمكن تقسيمها كما يلي:

أولاً: المراجع المعاصرة، وهي مجموعة من المصادر الأصلية، أي: الوثائق العربية والأجنبية المنشورة وغير المنشورة، والتي أمدت هذا البحث بقدر كبير من الضوء، ومن أهمها وثائق عابدين، وهي على ضآلتها لم نستطع إغفالها.

وأيضًا، ملف طه حسين الوظيفي الذي عثرنا عليه في دار المحفوظات العمومية بالقلعة.

كما كانت مجموعة وثائق وزارة الخارجية البريطانية (مطبوعات سرية بدار الوثائق العامة) خير معين لي في إلقاء الضوء على كثير من جوانب شخصيته.

وأيضًا، فإن أرشيف جامعة القاهرة أمدني بمادة لا أستطيع إنكارها ممثلة في محاضر جلسات الجامعة، في الأوراق الرسمية في المحافظ التي تصور فترة وجود طه حسين وتطوره العلمي في الجامعة، ومواقفه السياسية في كثير من القضايا المعاصرة له.

كما رجعت إلى الصحف والمجلات والدوريات التي صدرت خلال فترة البحث التي تلقي الضوء الكثيف على فكر طه حسين وهي كثيرة متنوعة، ولم نحاول أن نقيد أنفسنا خلالها بحزب دون حزب، فقد اطلعنا على صحف أحزاب الأقلية أثناء وجوده بها أو بعد خروجه منها، وأيضًا على صحف حزب الأغلبية أثناء وجوده فيها أو تغيبه السياسي أثناء فترة الانتماء السياسي.

ثانيًا: البحوث والمؤلفات والدراسات المنشورة التي ارتبطت بعلاقة ما مع هذا البحث، سواء أكان منشورًا منها باللغة العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية، والتي يكفي أن نشير بشأنها إلى أنها أثرت البحث ليس بالمادة الخاصة بطه حسين فحسب، وإنما بالجوانب التي يمكن من خلالها تقديم تحليل وتفتيت كاملين للمادة الأصلية، كما أنها أثرت المادة الأساسية بكثير من تطورات العصر وتفسيراته.

غير أن أكثر المصادر أهمية كانت تلك التي اصطلح على تسميتها بالمصادر الحية ممثلة في بعض الشخصيات التي عملت مع طه حسين أو عاصرته أو التقت به.

وقد عرفت في هذا الصدد باثنين منهم: أحدهما، محب لطه حسين، والآخر معادٍ له..

ومع أنني حرصت على الالتقاء بالنوع الأول، أو الكتابة عنه، فإنني لم أتجاهل النوع الآخر، وإن لم التزم برأيه إلا بعد تحليله في ضوء ما توصلت إليه من حقائق مرجحًا ما يلتقي في هذا مع وجه الحقيقة.

وقد عرفت من النوع الأول: د. محمد حسن الزيات زوج كريمة طه حسين، ود. إبراهيم مدكور رئيس المجمع اللغوي الآن، والأستاذ/ إبراهيم الإبياري سكرتير طه حسين لفترة من حياته، والأستاذ المرحوم/ محمد زكي عبد القادر الكاتب الصحفي، والأستاذ/ حسن يوسف الذي كان وكيلاً للديوان الملكي ورئيسًا له بالنيابة لفترات، كما حرصت على لقاء بعض الأجانب الذين قابلوا طه حسين وعرفوه عن قرب قبل أن يصدروا دراسات أكاديمية عنه ومن أهمهم الأستاذ بيير كاكيا وجاك بيرك.

وقد كانت هذه اللقاءات تأخذ شكل الحوار الصحفي من حيث الأسئلة المثارة، إذ كنت كثيرًا ما أقوم بدراسة الموضوع الذي سيكون عنوان المناقشة مع هذا المصدر أو ذاك، ثم أحاول أن أثير معه مزيدًا من الأسئلة حول الإجابات المطروحة، وأحاول تسجيلها أولاً بأول.

ولا يفوتني أن أشير هنا إلى أن تحديد فترة البحث كانت أهم النقاط التي حرصت عليها منذ البداية، إذ سعيت إلى تحديد القضايا التي طرحت خلال هذا البحث -إشكالية البحث- منذ بدء مشاركة طه حسين في الحياة السياسية المصرية قبل ثورة (١٩١٩) وبعدها وحتى سقوط آخر وزارة وفدية كان وزيرًا فيها في ٢٦ يناير ١٩٥٢.

أي بين ثورتي ١٩١٩، ١٩٥٢.

كما لم أغفل تتبع موقفه بعد قيام ثورة ١٩٥٢ مكتفيًا من هذا بإيضاح الخط البياني في تطور مجمل.

وقد فصلت لموقف طه حسين من ثورة ١٩٥٢ في دراسة أخرى.

كما يجب أن أشير إلى التحديد الزمني الذي التزمت به في هذا البحث عن موقف طه حسين إنما جاء من قبيل اتباع منهج المزج بين الخطين الزمني والموضوعي، وإن لم أغفل التركيز على الخط الموضوعي من التفتيت العلمي للقضايا، إن الاهتمام التاريخي جاء دائمًا في المرحلة الثانية بعد الاهتمام بالموضوع والتركيز على القضايا وتحديدها في الإطار العام.

والحمد لله من قبل ومن بعد.

مصطفى عبد الغني
يونيو ١٩٨٤

الفصل الأول
طه حسين وأحزاب الأقلية

- ظروف تكوين الأحزاب.
- علاقة طه حسين بأحزاب الأقلية: الوطني، الأمة، الأحرار الدستوريين.
- علاقته بسعد زغلول.
- في أزمة الشعر الجاهلي.
- علاقته بحزبي الاتحاد والشعب.
- موقفه من صدقي وحكومته.

تعد الفترة بين ١٨٨٢ (عام الاحتلال) و ١٩٠٧ (عام التكوينات الحزبية الأولى) من أهم الفترات التي أثرت في الحياة الحزبية سواء في النشأة أو التطور أو الاتجاه الوطني.

وقد تميزت فترة الاحتلال الأولى بصراع ظاهري بين الخديو عباس حلمي وقوى الاحتلال الإنجليزي، مما حاول معه كل منهما اجتذاب شباب القوى الوطنية، ولم يمض وقت طويل حتى اتجه الخديو، بعد هزيمته من كرومر، إلى تشكيل لجنة سرية تطورت إلى الدعوة لتأليف (حزب وطني تحت رئاسة الخديو)، وإجراء اتصالات هامة في هذا الشأن.

وتمخضت الاتصالات عن تكون (الحزب الوطني)، أن ضم إلى جانب رئاسة الخديو له مصطفى كامل ولطفي السيد وعددًا آخر، غير أن ثمة تطورًا جديدًا أسهم في تغيير الخارطة الحزبية، فما كاد الخديو يتخلى عن الشباب الوطني حتى كان لطفي السيد يسعى إلى الاتجاه نحو سياسة محمد عبده الإصلاحية، ويحتضنه إلى حد كبير ممثل القوى الأجنبية كرومر.

وعلى هذا النحو، ظهر في الأفق المصري اتجاهان: أحدهما تميز بعدائه للإنجليز والميل إلى تركيا، وثانيهما، يهادن الإنجليز ويرفض الانحياز لتركيا، الأول يدعو إلى الجامعة الإسلامية، والآخر يدعو إلى القومية المصرية، الأول يعرف (بالحزب الوطني) ويمثله مصطفى كامل، والآخر يعرف (بحزب الأمة) ويمثله لطفي السيد.

وقد أسرعت بتبلور هذه التكوينات الأولى ظواهر عديدة من بينها بروز فئة الأعيان وأبنائهم من الموظفين وذوي المهن الحرة، وإثارة عداء قطاعات كبيرة نتيجة لما عرف بمظالم الاحتلال، وما أثاره جنوده بين الأهالي أفضى إلى انضمام قطاعات من الشعب إلى صفوة الحركة الوطنية.

كما يمكن أن نضيف اضطرابات الطلاب الهاتفة ضد سيطرة الإنجليز على التعليم والمطالبة بالدستور، وتشكيل الطلاب للجمعيات السرية والعلنية والكتابة في الصحف، وتكوين نادي المدارس العليا، وأيضًا أسلوب الاعتصام الذي عرف حينئذ بين فئات العمال مما دفع صغار العمال والفلاحين إلى احتضان الحركة الوطنية وإن كان يجب المسارعة بالقول أن عددًا كبيرًا من أولئك العمال لم يكونوا من المصريين وإن لم يمنع وجودهم في حالات ليست كبيرة.

ويضاف إلى هذا أحداث عام ١٩٠٦ التي أسرعت بهذه التكوينات مثل حادث (دنشواي) في يونيو من نفس العام، وربما كانت الأزمة الاقتصادية التي حدثت فيما بعد دافعًا هامًا للأحزاب إلى التهيؤ لبلورة تكويناتها وبلورة أهدافها مهما يكن الاختلاف بينها[١].

وعلى أية حال، فإن المناخ الذي أسهم في تكوين الأحزاب أسهم في بلورة اتجاهاتها ونشأة صحفها، فمصطفى كامل الذي كان قد خاب أمله في أوروبا خاصة بعد حادثة فاشودة عام ١٨٩٨ وبعض الأحداث السياسية التي أكدت له عبث الاعتماد على القوى الأخرى في البحث عن استقلال البلاد. لم يجد أمامه غير الاعتماد على قدرة الشعب وعدم التخلي عن مبادئه الإسلامية في كفاحه ضد المحتل، فبلور هذا كله في إنشاء العديد من الصحف من أمثال صحيفة اللواء، وما لبث أن أصدر عام ١٩٠٧ صحيفتين بالإنجليزية والفرنسية تعكس كل منهما فكر اللواء واسمه، وفي عام ١٩٠٨ وحده ظهرت أربع صحف إلى جانب اللواء تمتد في انتمائها إلى الحزب الوطني، وقد التزمت جميعها بموقف واحد يلخص في (العداء المطلق لسلطة الاحتلال)، ولم تحجم هذه الصحف عن استخدام وسائل الإثارة ضد الوجود الأجنبي.

وعلى العكس من الحزب الوطني، فإن حزب الأمة الذي نشأ في نفس العام، قد اهتم أكثر من سلفه «بتركيز الأنظار إلى المسائل الشرقية والاجتماعية، وهو ما ظهر بوضوح في (الجريدة) لسان حال حزب الأمة وخاصة خلال السنوات الأولى من ظهوره»[٢].

على أن العلاقة بين حزب الأمة وقوى الاحتلال كانت أظهر ما يكون، ولعل من أهم الأسباب ما تؤكده عديد من المصادر من تشجيع كرومر لجماعة الجريدة «بعبارة صريحة وواضحة هذا مع اعترافهم بلقائه

---

(1) قسطاكي الباص: تكوين الصحف المصرية، ص ١٤٥.

(2) يونان لبيب رزق، الحياة الحزبية، ص ١٤٩- ٢٠١.

والتداول معه في دار الوكالة.. كما تدل عليه صلاته القديمة بهم وبأستاذهم ـ عبده ـ، ولما اقتضته ضرورة حصولهم على تأييد رسمي ولم تكن علاقتهم بالخديو لتسمح بذلك، خاصة وقد تلاشت في هذا الوقت سلطته أمام كرومر، فلم يكن أمامهم إلا أن يطرقوا بابه[٣]، ومن المفيد أن نذكر أن المثقفين من أبناء هذه الفئة الذين انضموا إلى حزب الأمة ـ قد تشبعوا بالمبادئ والنظريات الأوروبية الليبرالية التي لعبت دورها في القرن التاسع عشر في ميادين الفكر والاقتصاد والحياة العامة، كما تشبعوا بتعاليم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومن هنا يفسر إيمانهم بالتأني والحيطة والعمل الموطن بمداراة الاحتلال ما دام أنه لا يمكن زحزحته بالقوة»[٤].

وباختصار، فإن نشأة الحزبين تدين بالتطور الطبيعي، وهو ما يبدو في اتجاهات الأحزاب في خط الفكر عند أعضائها النظاميين أو غير النظاميين.

إن اهتمام طه حسين بالمشاركة السياسية في هذه الفترة يتحدد في تيارين رئيسيين، أحدهما، يمثل الحزب الوطني، وثانيهما، يمثل حزب الأمة.. وسوف نحاول رصد علاقة طه حسين بالحزبين: الوطني والأمة في فترتين، وتعد فترة سفره في البعثة إلى أوروبا بين عامي ١٩١٤/ ١٩١٩ فترة مميزة لعلاقاته الحزبية لا للمؤثرات التي عملت فيه ووجهته الوجهة التي عرف بها سواء في أحزاب الأقلية (الأحرار/ الاتحاد) أو في حزب الأغلبية (الوفد).

فما أهم المؤثرات وراء انتماءات طه حسين الحزبية؟

الواقع أن علاقة طه حسين الحزبية تحلقت قبل كل شيء حول خط العلاقات الشخصية سواء ما امتد منها في اتجاه التأثير الشخصي في أول عهده (عبد العزيز جاويش، لطفي السيد) أو في اتجاه الصداقة كما هي الحال بالنسبة لمثقفي حزب الأحرار وقادته أو في انحناءة حادة كما هي الحال بالنسبة لحزب الوفد في الثلاثينيات، فضلاً عن قناعة طه حسين الفكرية، العائد من أوروبا، والحامل لمنهج غربي يتحمس له كثيرًا، وقد سيطرت على كيانه الفكري الليبرالية بكل مكوناتها.

ولنخرج من الإجمال إلى التفصيل..

كان أول الدوافع التي دفعت بطه حسين إلى الوقوع تحت تأثير الحزب الوطني في أول عهده أنه كان في فترة مبكرة من حياته في أشد الحاجة لمن يأخذ بيده ويرضي طموحه، وقد وجد في الشيخ عبد العزيز جاويش خير

---

(3) أحمد زكريا، السابق، ص ٦٠.

(4) أحمد عبد الرحيم مصطفى، تاريخ مصر السياسي، ص ٥٣.

معين، ومن هنا كانت الأسباب كثيرة ليمارس الشيخ الأزهري، العائد من أوروبا، التأثير على الفتى.

لقد كان أول ما فعله جاويش أن دفع به إلى كراهية الأزهريين كراهية شديدة «وكان يحبب العنف إلى الفتى ويرغبه فيه، ويزين في قلبه الجهر بخصومة الشيوخ والنعي عليهم في غير تحفظ ولا احتياط، فهو كان يرى أنهم آفة هذا الوطن يحولون بينه وبين التقدم بما كان يلجون فيه من المحافظة، ويعينون عليه الظالمين بممالأتهم للخديو، ومصانعتهم للإنجليز»(٥)، كما كان للشيخ جاويش عليه فضل كبير، إذ ألقى في روع الفتى «روعة فكرة السفر إلى أوروبا»(٦)، فلم يكد الفتى يسمع هذه الألفاظ حتى «استقر في نفسه أن ليس له بد من عبور البحر على أي نحو من الأنحاء»(٧).

على أن فضل الشيخ جاويش، لم يقف عند حد، على حد قوله، إذ أخذ بيده في أكثر من موضع، فهو الذي «عرف الفتى إلى جماهير الناس ووقفه بين أيديهم ذات صباح منشدًا للشعر»(٨)، وجهر في هذا الحفل الذي لا يقف فيه غير الشعراء الكبار كحافظ إبراهيم أنه سيقدم لجمهوره قصيدة عصماء ولما يجاوز صاحبها سن الحادية والعشرين، وهو ما دفع الشاب، الذي يتوق للارتقاء في مدارج الشهرة في أول عهده بالحياة الأدبية، إلى أن يقع تحت تأثير الشيخ.

وعلى هذا النحو، فإن طه حسين في هذه الفترة تميز في موقفه بمسايرة الحزب الوطني وصحفه سياسيًا، وكتب في صحف (مصر الفتاة)، و(الشعب)، و(العلم)، و(الهداية)، و(ضياء الشرق)، و(الدستور).. كما نظم الشعر ومارس النقد الأدبي في أغراض كثيرة لم تجاوز أهداف هذا الحزب ورغبة ممثليه وخاصة عبد العزيز جاويش الذي كان من أقطاب الحركة الوطنية في الحزب بعد مصطفى كامل ومحمد فريد.

وفي هذه الفترة يمكن تفسير كثير من دوافع طه حسين السياسية.

فهجومه الحاد على سعد زغلول على سبيل المثال، يعود إلى أسباب عديدة، منها، بغض جاويش له إلى درجة أن هجاه هجاءً حادًا(٩)، وإليه

---

(5) الأيام، ج٣، ص ٢٠.
(6) السابق ص ٢١.
(7) السابق ص ٢١.
(8) السابق ص (٢٣-٢٤)، أيضا: الهداية ديسمبر (١٩١٠).
(9) السابق، ص ٢٠.

أيضًا يعود هجومه الشديد على مصطفى لطفي المنفلوطي لما تضمنته (النظرات) من فقرات آلمت قادة الحزب الوطني، فعلى جاويش، كما يعترف طه حسين، يقع «نصيب غير قليل من ثقل تلك الفصول السمجة»(١٠)، كما يسميها صاحبها، وهو ما يفسر في جانب منه أيضًا هجومه العنيف على الشيخ محمد رشيد رضا في صحيفة (العلم) متهمًا إياه بتناول الخمر مع شيخ الأزهر وجماعة آخرين من الأزهر(١١)، إذ أثنى جاويش على الكلمة ثناءً خاصًا وأجازها فقد كان «يمقت من الشيخ رضا لممالأته للخديو».

لقد توزعت كتابات طه حسين في هذا الوقت في دائرة الحزب الوطني، فهي تلتزم بموقف الحزب من العداء المطلق لسلطة الاحتلال، وهو المعنى الذي تردد في شعره حينئذ، ففي قصيدة موجهًا فيها حديثه إلى النيل نجده يلوم المصريين لسكوتهم على الاحتلال في أسلوب رثاء للحالة التي أصبحوا فيها(١٢)، وفي موضع آخر في مناسبة خروج جاويش من السجن ينعي فيها أحوال الاحتلال ويدعو الإنجليز للعودة من حيث جاءوا في أسلوب قوي عنيف إلى حد ما(١٣).

وقد حرص طه حسين - كالحزب الذي انتمى إليه- على الالتزام بخط

---

(10) السابق، ص ٢٠، أيضا مقال في (الفتح) لمحب الدين الخطيب بعنوان (ما أعرف عن طه حسين) يفسر فيه هجوم طه حسين على المنفلوطي من أن رجال الحزب الوطني رأوا في (النظرات) فقرات المتهم «فرأوا أن تعمل صحيفتهم وكانت تنشر حينئذ باسم العلم أو الشعب على انتقاد النظرات والحط من شأنها.. وكان في قلم تحرير تلك الصحيفة الأستاذ محمد صادق أفندي عنبر.. طلبوا منه أن يقرأ ليعرض ما فيها من المفردات والتراكيب على نصوصه الدينية ويعطي هذه الأوراق إلى طه حسين» العدد ٢٣، ١٩٢٦/١١/١٨.

(11) الأيام، ج٣، ص ١٢، ١٣، ٢٤، وأيضا أنور الجندي، عبد العزيز جاويش، ص ١١٢، ١١٣، ١١٤، وأيضا سلمى الكيالي، مع طه حسين، ص ١٤١.

(12) مصر الفتاة (١٩٠٩/٢/١٨) قصيدة (حديث مع النيل) جاء فيها:

ويلاك يا نيل قد عذوت بني مصـ ـ ـ ـر لدن قام كل جيل فجيل
ما عنائي وما عناؤك يا نيـ ـ ـ ـ ـ ل لقوم رضوا حياة الذليل
قنعوا بالصغار واستعذبوا الضيـ ـ م فمالوا إليه كل مميل.

(13) يوجد في شعره حينئذ الكثير من القصائد التي تهاجم الإنجليز مثل قصيدة (هم جائش) مصر الفتاة (١٩٠٩/١١/٥)، كما قال في الاحتفال الهجري، الهداية (١٩١٠/١٢)، قصيدة (ثناء وهناء) في مصر الفتاة (١٩٠٩/١٠/١).

وقد جاء في القصيدة الأخيرة بمناسبة خروج عبد العزيز جاويش من السجن:

إن كان ذكرك للجلاء يسوء فليكن الجلاء.
أو كان صوت الشعب عندهم وهم الداء الحياء.
فليعل صوت الشعب حتى يرجعوا من حيث جاءوا.

الفكر الديني والتمسك بالعقيدة، وقد كان يعتقد أن «سبب اضمحلال المسلمين في كل أنحاء العالم وفقدهم عظمتهم إنما مرجعه انقسامهم وبعدهم عن تعاليمه الدنيوية»[١٤]، وما ترتب على هذا من القضايا الفرعية، ومن هنا دارت كتابات طه حسين في هذا الإطار، فهو يكتب في فترة مبكرة من حياته ما يحث به على التمسك بالعقيدة ويهتم بالقيم الاجتماعية، ولا يتوقف عن أن يدعو الصائم بالتمسك بصيامه مرة، ويدعو المرأة المسلمة إلى التمسك بالدين في عاداتها اليومية ويضرر زواج المسلم بالكتابية مرة أخرى، كما يدعو في شعره بوجه خاص إلى الاهتمام بالمرأة، فالأمة لا ترقى إلا إذا عنيت بتعليم الأمهات[١٥] مرة ثالثة.

والأكثر من هذا كله، أن طه حسين في هذا الوقت كان يدعو الناس إلى ضرورة التمسك بالشريعة الإسلامية وضرورة الحرص عليها من حيث التقاليد المعروفة بها إلى درجة أنه يدعو إلى تطبيق عقوبتي الرجم والجلد دون هوادة في حق الله[16].

وحين تطورت العلاقة بين الحزب الوطني وبين الحاكم فتحولت إلى شيء أشبه بالمهادنة، فإن هذا انعكس خاصة في موقف طه حسين وأشعاره القليلة في هذه الفترة، فهو يهنئ الخديو عباس عقب عودته مباشرة من أداء فريضة الحج، فيتحدث فيها عن الجلاء ويدعو إلى الربط بين الجلاء ونيل الدستور[17].

وإذ يلاحظ أن كتابات طه حسين حينئذ بها مسحة من التحفظ وميل إلى

---

(14) أحمد عبد الرحيم، تاريخ مصر السياسي، ص ٣٢.

(15) الهداية، ١٩١٠/١٢.

([16]) مصر الفتاة ١٩٠٨/٨، وقد جاء في هذه القصيدة:

أنفذوا حكمه على كل جان ... لا ينلنكم من دون هذا فتور.
ارجموا واجلدوا كما أمر اللـ ... ـه يجانبكموا الخنا والفجور.
إن من يهدر الفضيلة يهدر ... ليس كفأ لذنبه التعزير.

«والجدير بالذكر أن الحدود عقوبات وضعها المشرع على جرائم خاصة وأوجب الانضباط في إقامتها حتى لا يكون هناك ظلم، وفي الحديث (ادرءوا الحدود بالشبهات)، أما التعزير فهو عقوبة غير محدودة وضعها المشرع على جرائم فوض ولي الأمر في تقديرها لتكون مناسبة للجريمة».

([17]) الجريدة ١٩١٠/١/٢٦، وجاء في هذه القصيدة:

أنت والدستور في الحب لديها إخوان ... وترى وجهك باليمن لها نعم البشير
كن لوادي النيل حصنًا من عوادي الحدثان ... وامنح الدستور مصرا أنت إن شئت قدير
هل سمعت الصوت يدعوك من القبر الكريم ... إنما أنت على الناس وصي وأمين
لا تذدهم عن صراط الحق والنهج القويم ... أرض بالدستور مصرا يرض رب العالمين.

الهدوء والدعة إذا تعلق الأمر بالإنجليز والدعوة إلى الجلاء، فإن ذلك يدل على أنه في هذه الفترة المبكرة كان ينتهج سياسة الشيخ محمد عبده، إذ كان حرصه على التعليم والنهل من المعرفة واضحًا، وهو ما وجد انتماءً له فيما بعد في انتمائه إلى حزب الأمة.

وما كادت تبدأ حالة التشدد من الإنجليز ضد الحزب الوطني، وانتقل بنشاطه إلى خارج البلاد بهجرة زعامته من مصر خلال عام ١٩١٢ أو إلى العمل السري كما فعلت قواعده، حتى كان طه حسين يتجه إلى حزب الأمة الذي كان قد آثر الاعتدال والروية بعد أن رفض العنف والعداء.

وعلى هذا النحو، فبمجرد أن هاجر الشيخ عبد العزيز جاويش المتشدد، في عام ١٩١٢، انتقل مركز التأثير إلى لطفي السيد، وبهذا يتحول طه حسين من التأثر (السياسي) بالحزب الوطني إلى التأثر (الفكري) بحزب الأمة وممثليه، ففي وقت كان فيه طه حسين قد التقى (بالحزب الوطني) وكتب في صحفه، كان قد التقى فيه بالحزب الآخر، وكتب أيضًا في صحيفة (الجريدة).

والواقع أن تأثير لطفي السيد في أعماق (الفتى) بلغ شأوًا بعيدًا، وهو ما سنصل إليه في المؤثرات التي دفعت به إلى تبني سياسته، وما يهمنا الآن هو محاولة رصد علامات التأثر في أعماقه من الداخل.

إن طه حسين يذكر ظروف التقائه بلطفي السيد، فيرى أنه تم على أثر خلاف وقع بينه وبين أحد شيوخ الأزهر، فبعد أن تجاسر الطالب الأزهري على الاعتراض على مسألة دينية هم شيخ الأزهر بمحو اسمه مع زميلين آخرين من الأزهر، فانصرف غاضبًا إلى لطفي السيد صاحب صحيفة (الجريدة) ومعه مقال عنيف يهاجم فيه الأزهر«وشيخ الأزهر»[١٨]، وقد تمكن لطفي السيد في هذا الخلاف -الفكري لا اللغوي- من أن يخفف من غلوائه ويتوسط لإعادته إلى الأزهر.

وقد كان طه حسين موزعًا -كما يقول- بين «مذهبين من مذاهب الكتابة في ذلك الوقت.

أحدهما مذهب الاعتدال والقصد، ذلك الذي كان الأستاذ لطفي السيد يدعوه إليه ويزينه في قلبه.

والآخر مذهب الغلو والإسراف، وهو ما كان الشيخ عبد العزيز جاويش يغريه به ويحرضه عليه تحريضًا.

([18]) الأيام، ج ٢، الصفحات ١٦٨- ١٧٣.

وكان الفتى يستجيب للمذهبين جميعًا، فإذا اقتصد في النقد نشر في الجريدة، وإذا غلا نشر في صحف الحزب الوطني»[١٩].

ومما سبق، يتأكد أن أسباب الانتماءات الشخصية اختلطت بأسباب الانتماءات الحزبية حتى ليصعب التفرقة بينها، فلنشهد بعض مظاهر هذه العلاقة قبل أن نصل إلى بواعثها الحقيقية، واضعين في الاعتبار أن علاقة طه حسين بحزب الأمة ثم بحزب الأحرار الدستوريين وحتى بداية الثلاثينيات كانت علاقة تأثر أكثر من غيرها.

وسوف نقف عند رصد موقف طه حسين من حزب الأمة عند موقفين اثنين: أحدهما، قوى الاحتلال، وثانيهما: العقيدة وقضاياها.

كما أن جميع المصادر تؤكد على العلاقة الوثيقة بين حزب الأحرار وقوى الاحتلال[٢٠]، كذلك تؤكد على هذه العلاقة بين طه حسين والحزب، وربما كان أبرز الأدلة على ذلك قصيدته التي نشرها في عام ١٩٠٨ على أثر اغتيال حسن عبد الرازق، إذ كان يغلو في رثائه، وقد كان يعرف بالصلة الحميمة القائمة بينه وبين المندوب السامي البريطاني في مصر، فقد كان حسن عبد الرازق من بين المترددين عليه[٢١]، فضلاً عن علاقة المصالح التي كانت تربط هذه الطبقة بقوى الاحتلال.

وما يهمنا هنا أنه في معرض رثائه له، راح يكيل الضربات العنيفة للحزب الوطني الذي كان قد انتمى إليه في فترة سابقة[٢٢]، فهو يهاجم سياسة الحزب الوطني هجومًا ضاريًا متهمًا إياه بالغلو في الحماس في حربه ضد المحتل إلى درجة وصفها بأنها (الطيش). فالحزب الوطني هو (حزب الطيش)، وزعيم الحزب وهو مصطفى كامل كان هو (الزعيم الطائش) كما يراه.

وهو في موضع آخر يطلب من المصريين أن يلزموا السلم بحثًا عن الجلاء، وأن يلزموا الود مع الخديو في مسعاهم إلى ما يريدون من الجلاء، والبحث عن الدستور[٢٣].

([19]) السابق ص ١١/١٠.

([20]) يونان لبيب، الحياة الحزبية في مصر ١٨٨٢/ ١٩٩٤، أيضا: مذكرات لطفي السيد، المصور (١٩٥٠/٩/١٥)، وأحمد زكريا، حزب الأمة ص ٦٠، والجريدة (١٩٠٧/٤/٣٠).

([21]) أحمد زكريا، الأمة ص ٥٦.

([22]) القصدية بعنوان (رثاء حسن عبد الرازق) يقول فيها:

رماه الردى من ود أن بلاده تكون لأهل الغرب نهبا مقسما.

ومن يدعي بالطيش نصرة قومه ورائده الأهواء أنى تيمما.

([23]) الجريدة (١٩١٠/١/٢٦) يقول في القصيدة:

==

والملاحظ على كتابته في هذا الوقت أنها لا تكاد تجاوز الإطار الأدبي أو النقدي إلا لتؤيد سياسة حزب الأمة فقط.

وعلى العكس من كتابات طه حسين في الاتجاه الإسلامي أثناء انحيازه إلى فكر الحزب الوطني، فإنه في فترة انحيازه إلى حزب الأمة راح يوجه شراعه في اتجاه هذا الحزب الأخير، إذ تؤكد مقالاته خاصة أنه كان دائب الهجوم على الأزهر والأزهريين، وهو ما يبدو في فترة سابقة حين قامت بينه وبين الشيخ عبد العزيز جاويش نفسه معركة (حول السفور والحجاب) أبدى فيها بالنسبة للشيخ جاويش تحررًا عصريًا وإن لم يجاوز فيه معسكر جاويش في كثير.

إن أولى مقالاته في (الجريدة) تهاجم الأزهر والأزهريين في عنف شديد، فقد كان رجال الدين من المحافظين قد كتبوا ظلامة إلى رئيس النظار لإلغاء مدرسة القضاء الشرعي وانتخاب القضاة والمفتشين منهم دون غيرهم، فكتب طه حسين مهاجمًا إياهم مجاهرًا أن «وراثة المناصب باطلة في الإسلام»، وأضاف أن «الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن الأزهر الشريف الآن ليس أهلاً لأن يخرج للأمة قضاة أكفاء يشرفون على دخائل الأسرة[٢٤].

وهو لا يتخلى عن نفس الأسلوب العنيف مرة أخرى حين يتعرض إلى امرأة كانت قد كرهت زوجها، منتقدًا موقف رجال الدين بغير هوادة، وقد دعا رجال القضاء إلى أن يثأروا لدين الله، وهو ما يترك انطباعًا مؤداه أنه حاول أن يهاجم ممثلي الدين وليس مظاهره الحقيقية.

ومن هنا، فقد دفع طه حسين أول الأمر تحت تأثير جاويش إلى مشايعة الحزب الذي انتمى إليه ليهاجم الإنجليز، ويغلو في الانتصار للدين، كما دفع في الفترة التالية تحت تأثير لطفي السيد إلى أن يتجنب مهاجمة قوى الاحتلال، أو يخفف من غلوائه نحوهم، كما يخفف من غلوائه على العقيدة وهو ما يتمشى مع الخط الحزبي.

على أن البحث عن المؤثرات الفعالة وراء انتمائه إلى حزب الأمة، ثم حزب الأحرار الدستوريين يستوجب منا التوقف، أكثر عند هذه المؤثرات.

اطلبوا الدستور يا قامـ ـ ـ   ـ ـ ـي ونادوا بالجلاء.
والموا السلم فإن النصـ ـ   ـ ـ ـر للحق المبين
وارفعوا الصوت بإخلا   ص وحب وولاء.
ليعش عباس وليحيـ ـ   ـ ـا أمير المؤمنين.

(24) الجريدة (١٩١٠/٥/٢٢).

تحددت جملة هذه المؤثرات في عدد من الشخصيات التي كانت قبل غيرها ذات أثر كبير في انتماء طه حسين إلى حزب الأمة وامتداده حزب الأحرار الدستوريين لعل من أهمها لطفي السيد الذي لعب دورًا أساسيًا في الحزبين، وأهمية لطفي السيد تعود لدى الفتى إلى أنه كان أول من أخرجه من البيئة الأزهرية التي كان قد ضاق بها كثيرًا باختلافه مع شيوخها أو ضيقه بعلومها التي لم يجد في نفسه صدى كبيرًا لها، ومن هنا، ففي مكتب مدير الجريدة «ظفر الفتى بشيء طالما تمناه، وهو أن يتصل ببيئة الطرابيش بعد أن سئم بيئة العمائم، ولكنه اتصل من بيئة الطرابيش بأرقاها منزلة وآثرها ثراء»[٢٥].

ولم يجد غير الإكثار من التردد على لطفي السيد، بل ولازمه ملازمة كاملة أغلب أيام الأسبوع، إذ فتح له طاقة الفكر الحديث بكل ما فيها من مباهج افتقدها هذا الفتى الآتي من أعماق الصعيد، والكفيف.. فوجهه إلى ألوان شتى من الفكر السياسي لم تكن لتعرض له قط في بيئته الأولى، كما أتاح له فرصة نشر أول مقالة نشرتها له الصحف «فأرضاه ذلك عن نفسه وأطمعه في المزيد منه»[٢٦]، خاصة وقد أضاف إلى طه حسين الحث على طلب المقالات، ومراجعته لكثير من ألفاظها بقصد توجيهه.

ومن هنا بلغ من تأثير لطفي السيد في الفتى الناشئ درجة دفعت بطه حسين إلى أن يصفها بأن لطفي السيد «استأثر بقلب الفتى وعقله»، وهو ما ترك أثرًا كبيرًا في توجيهه السياسي والاجتماعي.

وبمراجعة عدد من أفكار لطفي السيد ومقالاته يمكن أن نعثر بها على أصداء واضحة في أفكار طه حسين ومقالاته المتتابعة، في منهج تفكيره، وتحولاته الرئيسة، وقد كان هذا دون شك وراء انضمامه لحزب لطفي السيد وهو يمثل حينئذ تلك الصفوة الفكرية وصفوة الملاك الزراعيين في آن.

وقد انعكس تأثير لطفي السيد فيه في كل مراحل حياته على وجه التقريب، فقد احتفى بلطفي السيد كثيرًا أثناء حياته، ووجه إليه كثيرًا من

([25]) الأيام، ج ٢، ص ١٩٧٣.

([26]) ويضيف طه حسين في هذا:

(... فجعل يكتب في الجريدة رغبة في الكتابة أحيانًا، وتقربا بها إلى مدير الجريدة أحيانًا أخرى، وجعل مدير الجريدة يرضى عن فضوله، ويغريه بالكتابة، ويحثه عليها حثًا، ويعلمه القصد في اللفظ والأناة في التفكير)، الأيام ج ٣ ص ١٩.

الشكر في مقالاته وكتبه[٢٧]، وقد آثر أن تكون مقالاته في الصحف التي يعمل بها أو التي يشرف عليها واضعًا كتابات أستاذه في الصدارة دائمًا كما هي الحال في مجلة (الكاتب المصري) في فترة متأخرة، كما أهدى إليه كتبه من أمثال (حديث الأربعاء)[٢٨]، في فترة مبكرة من حياته، وظل يذكره طيلة حياته على أنه أستاذه ومعلمه وصديقه[٢٩].

وإذ بدا تأثير لطفي السيد تأثيرًا فكريًا محضًا، فقد اتخذ تأثير من نوع آخر، هو تأثير عائلة عبد الرازق، تأثيرًا عائليًا وشخصيًا بحتًا.. فقد كانت العلاقة بين طه حسين وهذه العائلة تتحدد حول الجوار والزمالة والصداقة.

وتتناقل أخبار كثيرة أغفلها طه حسين في أكثر ما كتب عن مساعدة هذه العائلة المحسنة له ولأسرته، وقد كانت هذه الأسرة تهتم بمساعدة الأطفال الفقراء الذين كانوا يظهرون شيئًا من النباهة.

ويبدو أن هذه العائلة قد قدمت الكثير من المساعدات المالية والمعنوية لأسرة طه حسين، وليس طه حسين فقط، فضلاً عن صلة جوار كانت تدعم هذه العلاقة، وتوثق بينهما، فعائلة طه حسين كانت في المنيا، وعائلة أسرة عبد الرازق كانت في المنيا أيضًا مما يؤكد طبيعة هذه العلاقة بين العائلتين.

والجدير بالذكر أن حسن عبد الرازق (الابن) الذي تولى إرث العائلة في أبي جرج بالمنيا كان هو الذي قد أعلن في ٢٠ سبتمبر من عام ١٩٧٠ تحويل (شركة الجريدة) أي الصحيفة، إلى حزب الأمة، وتم اختياره كوكيل للحزب[٣٠].

وإلى جانب علاقة المساعدة وصلة الجوار، فإن ثمة صلة أخرى كانت قائمة بين الأسرتين، فمصطفى عبد الرازق كان زميلاً وصديقًا لأحمد أخي

([27]) انظر مقالات طه حسين في السياسة أثناء أزمة كتاب (في الشعر الجاهلي)، وكذلك شكره له في كتابه (في الصيف)، الذي كتبه في عام ١٩٣٨ فهو يشير فيه إلى لطفي السيد فيقول (أشكر ما حييت رئيس الجامعة) ص ٢٧.

([28]) ... جاء في المقدمة (إلى الأستاذ الصديق أحمد لطفي السيد تجلة تلميذ وتحية صديق).

([29]) حديث الأربعاء، مقالة (علم الأخلاق لأرسطو) السياسة (١٩٢٤/١١/٢١)، كذلك حديث (١٩٢٧/٧)، كذلك مجلة اللغة العربية، مجلد ١/١١٨ /٦٥.

([30]) الجدير بالذكر أن حسن عبد الرازق، الذي كان قاضيا على بلدة أبي جرج بالمنيا، ورث منصب القضاء عن أجداده، الذين تولوا هذا المنصب في عام ١٧٩٨، وكان يعني تولي أمر ولاية البهنسا كلها ثم نقل إلى أبي جرج وصار إرثًا في العائلة حتى تولاه حسن (الابن) الذي أعلان تحويل شركة (الجريدة) إلى صحيفة حزب الأحرار انظر: علي عبد الرازق، من آثار مصطفى عبد الرازق، من المقدمة ص ٦، أيضا: أحمد زكريا حزب الأمة ص ٩٧، أيضا: مذكرات لطفي السيد، المصور (١٩٥٠/٩/٢٢)، أيضا: يونان لبيب: الحياة الحزبية في مصر، ص ٤٦.

طه حسين، وكان يتردد على حجرتهما كثيرًا كما ذكر طه حسين في (الأيام)، وقد أثمرت هذه العلاقة بين الأخ الكفيف وأفراد عائلة عبد الرازق كثيرًا، وعلى سبيل المثال، فإن قرينة طه حسين تذكر أثناء عودتها مع زوجها من الخارج في عام ١٩١٩ أن حسن عبد الرازق - وقد كان محافظًا للإسكندرية حينئذ - يعانقهما مرددًا «إن طه حسين هو أخي الصغير، فستكونين إذن أختي الصغيرة»[٣١]، كما كان أول من أرسل تلغرافًا إلى الجامعة المصرية بعد عودة طه حسين إلى مصر مباشرة بعد البعثة وعين أستاذًا (عام ١٩١٩) كان حسن عبد الرازق[٣٢]، فضلاً عن أنه كان عضوًا في مجلس إدارة الجامعة[٣٣].

ويمكن أن نرى تأثير هذه العائلة في وجدان طه حسين وأطوار حياته كلها في المعنى الذي يستخلص من واقعة أن أول قصيدة كتبها ونشرها في (الجريدة) حول رثاء حسن عبد الرازق -الأب-[٣٤]، ومن يقرأ كتابات طه حسين في رثاء حسن عبد الرازق -الابن- الذي اغتيل عام ١٩٢٢ مع إسماعيل زهدي لأنهما من حزب الأحرار الدستوريين، يمكن أن يحس نبض حزب طه حسين وغضبه الجارف وألمه الممض[٣٥].

وهذه المشاعر لا نخطأها قط كلما تحدث عن بقية آل عبد الرازق مثلما تحدث عن علي عبد الرازق[٣٦] حين عاش أو رحل، أو عن مصطفى عبد الرازق الذي قال عنه في إحدى مقالاته «وأشهد لقد حزنت على مصطفى كما يحزن الأخ لفقد أخيه والوالد لفقد ولده والصديق لفقد صديقه»[٣٧].

فإذا عرفنا أن حزب الأمة ضم ثمانية عمد من بينهم حسن عبد الرازق والسيد بك أبو علي - والد لطفي السيد- فإنه ضم محمد حسين هيكل الذي

([31]) سوزان ص ٩٥، وهناك الكثير من الإشارات عن ذكر عائلة آل عبد الرازق أوردتها في كتابها، أيضا: الأيام ج ٣ ص ١٤٥.

([32]) دار المحفوظات، الملف، أيضا: ورد تلغراف من عائلة عبد الرازق (حسن) جاء فيه بعد عبارات الثناء (أهنئ الجامعة بحضرته وبما يقدم بها من مجهود وأدعو لها ولطلابها وللأستاذ بخير ما يرجوه مصري من فلاح وتوثيق).

([33]) أرشيف جامعة القاهرة، محفظة ٣، ملف ١٣٨، محضر جلسة (١٩٢٢/١١/٢٩).

([34]) الجريدة (١٩٠٨/١/١)، والقصيدة أول ما نشر له من الشعر في الصحف.

([35]) السياسة (١٩٢٢/١١).

([36]) (١٩٢٩/٦/١٧).

([37]) السياسة الأسبوعية (٤٧/٤/١٥)، الكاتب المصري (٤٧/٣)، الوادي (٤٧/٣/٢٨)، الأهرام (٤٧/٣/٢٨)، السياسة الأسبوعية (٤٧/٤/١٥)، الجمهورية (٥٧/٩/٢٤)، السياسة (٣٦/٩/١٤)، السياسة (٤٥/١٢/٢٨)، المصور (١٩٤٠/٤/٢٦).

كانت عائلته ترتبط مع عائلة لطفي السيد بصلة النسب، وقد كان يحتفي به ـ خاصة- لطفي السيد كثيرًا.

لقد كان هيكل يتمتع لدى طه حسين بتأثير كبير نظرًا للصداقة التي نشأت بينهما، ولكونهما يحملان عقلاً ينتمي إلى الفكر الليبرالي وإن اختلف طه حسين عنه، بأنه نال في صباه تعليمًا دينيًا أكثر من قرينه الذي اقتصر تعليمه على الفرع المدني أو تميز عنه.

ولقد كان للعلاقة التي كانت بينهما تأثير كبير في اتجاهات طه حسين حينئذ، فهيكل يذكر في مذكراته أنه كان يرتاح كثيرًا لرأي طه حسين(٣٨).

كما يذكر أنه حينما عطلت الصحف في فترة الحرب العالمية الثانية، وعطلت (الجريدة)، اتفق كل منهما ـ حسين هيكل وطه حسين- وكان معهما الشيخ مصطفى عبد الرازق ود. منصور فهمي وعبد الحميد حمدي.. على تحرير جريدة (السفور) التي صدرت في مايو من عام ١٩١٥ وقد افتعلت معركة بين هيكل وطه حسين بعنوان (الحرب والحضارة) لتنمية الوعي كما تصورا.

وقد انتهت مقالات طه حسين في السفور بكلمة (تاسيت) وكان يرسل لهما مقالاته من مونبلييه، وكانت أول مرة أرسل فيها في أغسطس عام ١٩١٥(٣٩).

وقد ضم الحزب الكثير من كبار رجال الدولة من أهمهم عبد العزيز فهمي وثروت (باشا)، أما الأول فقد كان يعرف طه حسين منذ أيام دراسته الأولى في باريس، وكان يتمتع بصداقة وطيدة أيضًا مع أسرته(٤٠)، وعبد العزيز جاويش كان هو الذي شجعه كثيرًا على كراهية سعد زغلول، والالتفاف حول حزب الأحرار الدستوريين(٤١)، ومن هنا، كان من الأصدقاء المقربين جدًا على حد قول سوزان التي نقلت على لسان طه حسين ما يفيد تأكيد هذه العلاقة(٤٢).

---

(38) محمد حسين هيكل، مذكرات، ج ١ ص ١٢٧.

(39) السابق، ص ٦٥/ ٦٦.

(40) سوزان، السابق، ص ٣٢.

(تحكي بتأثر كيف صاح عبد العزيز فهمي في وجه ابنة طه حسين وقد كانت تبكي: اسكتي يا أفريقيا.. وهو ما يترك انطباعا حادا لمدى الصداقة التي كانت بين عبد العزيز فهمي وعائلة طه حسين).

(41) الأيام ج٣، ص ١٤٣.

(42) سوزان، السابق، ص ٥٦٥، كما يمكن تحديد قدر هذه الصداقة حين نعرف أن سوزان نقلت على لسان طه حسين أنه قال عن عبد العزيز فهمي أنه: إنسان رائع وأظن أنه يحبني، ==

أما الشخصية الأخرى - ثروت- فإن آثاره في حياة طه حسين قبل البعثة وبعدها مما لا يمكن إغفاله بأية حال، فطه حسين يخصه بالثناء والشكر والامتنان في عديد من المواضع، وقد شجعه في السفر للخارج، وكان بمثابة صديق وفي له كما تؤكد قرينته[٤٣].

لقد كان ثروت أول من أبلغه قرار التدريس في الجامعة - شفويًا- بعد عودته[٤٤]، كما قدمه في أول عهده بالعمل في هذه الجامعة إلى جمهور الطلبة مثنيًا عليه كثيرًا، وكان بمثابة صديق صدوق له، خاصة وقد كان رئيس الوزراء في أزمة نفي سعد[٤٥]، فيقدم له العون المعنوي، وقد بلغت درجة التصاقه به إلى درجة أن اتهمه البعض بأنه لم يكن يستطيع أن يكتب المقالة السياسية إلا بعد اتصاله بثروت (باشا)[٤٦].

ولا يخلو من دلالة سياسية أن يهدي طه حسين إلى ثروت، بوجه خاص، كتابه (في الشعر الجاهلي) الذي أثار ضجة كبيرة[٤٧].

فمن البديهي أن حزب الأحرار الدستوريين الذي انتمى إليه لعب دورًا كبيرًا في حمايته والدفاع عنه خاصة في الفترة الأولى من الأزمة، فلولا حماية ثروت له حينئذ «لكان دفع ثمنًا فادحًا لهذه الجرأة» في ذلك الكتاب[٤٨]، ومن هنا كان لثروت عليه فضل أثناء الضجة التي أثيرت ضد هذا الكتاب إذ نصحه أن يثبت للعاصفة حتى تمر بسلام، ولا يجيب عن خصومه فإن الإجابة والرد إنما هما استفزاز يحط من كرامة الأستاذ

فأنا في نظره عالم مصر.

(43) السابق، ص ٣٢/ ٣٣.

(44) دار الوثائق، السابق، خطاب في (١٩١٩/١١/٨).

(45) سوزان، السابق، ص ٥٣.

(46) أنور الجندي، طه حسين وفكره في ميزان الإسلام، ص ١٠٨- ١٠٩.

(47) جاء في مقدمة (الشعر الجاهلي) التي لم تظهر في الطبعات التالية ما يلي:

(سيدي صاحب الدولة كنت قبل اليوم أكتب في السياسة، وكنت أجد في ذكرك والإشادة بفضلك، راحة نفس تحب الحق، ورضا ضمير يحب الوفاء.

وقد انصرفت عن السياسة وفرغت للجامعة، وإذا أنا أراك في مجلسها كما كنت أراك من قبل، قوي الروح، زكي القلب، بعيد النظر موفقًا في تأييد المصالح العلمية توفيقك في تأييد المصالح السياسية.

فهل تأذن لي في أن أقدم إليك هذا الكتاب مع التحية الخالصة والإجلال العظيم؟ طه حسين ١٢ مارس ٢٦).

(48) Oxford university Press London new york Camal mohammed p.118-119

الجامعي[٤٩].

وحين رحل ثروت لم يبكه أحد بقدر ما بكاه طه حسين، ففي كتاب (في الصيف)، الذي نشر على شكل كتابات متتابعة، رثاه رثاء حزينًا إلى درجة عالية جدًا من الأدب الرفيع[٥٠]، ويكتب في صحيفة (السياسة) على هذا المنوال، وحين يكتب البعض عن ثروت بعد رحيله مباشرة، فإنه يطلب في نهاية مقاله من طه حسين أن (يمتع القراء بمبحث عن وفاء ثروت ووده وصداقته)[٥١]، فإن طه حسين يستجيب في العدد التالي مباشرة، ويكتب مقالة طويلة يختمها بتلك العبارة التي لا تخلو من معنى:

«وأنا لا أكاد أذكر حادثة من حياتي منذ رجعت من أوروبا إلا وذكرت ثروت وأثره فيها، لقد كنت أركن إليه وألوذ به وأستشيره في كل شيء، ولقد كنت أجد منه في هذا كله عطفًا لا يشبهه عطف وودًا لا يشبهه ود»[٥٢].

وأنا هنا لا أدافع عن موقف ثروت من القضية الوطنية وقد بدا في بعض مراحلها متخاذلاً وإنما أبرز تأثر طه حسين به كل التأثر، فإذا كان يقع اللوم عليه لميله إليه، فهذا الميل يعود إلى اتجاه طه حسين حينئذ إلى حزب الأقلية، وإن كان يحسب عليه مهما تكن أسباب ميله إلى ثروت وإهداؤه إليه كتبه، وتبنيه بعض مواقفه أيضًا.

وإذا كان انتماء طه حسين ينتهي دائمًا إلى قادة حزب الأحرار، فقد كان من الطبيعي أن يتأثر بشكل ما بالعلاقة بينه وبين عدلي الذي لعب أكبر الأدوار في تكوين هذا الحزب وتطوره، فقد كانت العلاقة من جانب طه حسين تطوي الإعجاب والإكبار، والعلاقة من جانب عدلي له تحمل التشجيع والمؤازرة خاصة في أزمة (في الشعر الجاهلي)[٥٣]، سواء من الناحية المعنوية أو الرسمية تحت قبة البرلمان، وقد كان يتولى الوزارة حينئذ.

ففي الفترة التي كان فيها طه حسين يدرس في باريس، تمكن سعد زغلول من التأثير في عدد كبير من المثقفين الذين سبق لهم الالتفاف حول

([49]) سامي الكيالي، مع طه حسين، ص ٥٩ وقد ذكر ثروت في أكثر من موضع، كذلك انظر في الصيف، السابق، ص ٣١- ٣٢.

([50]) في الصيف، السابق ص ٣١- ٣٢.

([51]) المقتطف(٢٨/١١) والمقال للدكتور أحمد فريد الرفاعي تلميذه الروحي، وكاتم سره كما جاء في المقال، وعنوان المقال (ثروت باشا).

([52]) المقتطف (١٩٢٨/١٢)، مقال بعنوان (ثروت).

([53]) الأهرام (١٩٢٦/٩/١٢)، أيضا: في الصيف، ص ٣٥.

مصطفى كامل و(اللواء)، كما تمكن من التأثير في الجماهير العريضة، فتحولت الفئات التي كانت تلتف حول حزب الأمة وصحيفته (الجريدة) تلقائيًا، إلى جانب عدلي، الذي كان قد دخل في صراع حاد مع سعد أثناء عرضه لقضية مصر والتفاوض بشأنها مع الإنجليز، حتى إذا ما عاد طه حسين من الخارج، كان لابد من الانحياز إلى جانب قادة حزب الأحرار الدستوريين الذي كان قد تأسس في أكتوبر من عام ١٩٢٢، وقد كان معظم أفراده من المخالفين لسعد، ومن هنا فقد أسهم هذا مع عوامل أخرى سنصل إليها، في إبعاد طه حسين عن سعد زغلول.

ويقول طه حسين عن هذه الفترة بعد أن عاد عدلي من التفاوض بالخارج مخفقًا في تفاوضه، بسبب إصرار الوفديين على التفاوض وحدهم، وجني الثمار كلها، يقول بأنه يزعم «أصحاب عدلي أن صاحبهم قد كان أبيًا كريمًا، فقد ثبت للإنجليز فلم ينزل لهم عن حق الوطن، ولم يقبل منهم الدنية وعاد أشم مرفوع الرأس، ويضيف طه حسين بعد قليل وهو يرصد فكره في هذه الفترة بأن صاحبنا - يقصد نفسه- «يرى... ذات يوم في محطة القاهرة مع المستقبلين لعدلي وهو يصيح مع الصائحين ليحيي عدلي باشا»[٥٤].

ويبدو إعجاب طه حسين البالغ بعدلي، في مقالين كتبهما خاصة بعد رحيله، أحدهما (رحيل)، وثانيهما (وداع)، يظهر فيهما إيثاره لعدلي وحزبه ويظهر ألمه الشديد الذي بلغ درجة بعيدة[٥٥].

وهناك الكثيرون من حزب الأحرار ممن تركوا أثرًا واضحًا وفعالاً في أعماق طه حسين مما دفع به إلى الميل لهذا الحزب لعل من أهمهم كان رشيد أحد رواده، وقد تولى الوزارة في أخطر فترات مصر، كما تولى منذ فترة مبكرة رئاسة مجلس إدارة الجامعة المصرية، ثم كان رئيسًا لها فيما بعد، كما تولى رئاسة لجنة وضع قانون الدستور أوائل العقد الثاني من هذا القرن، ولعب دورًا أساسيًا هامًا.

وليس بد من الاستطراد حول مؤشر آخر التقى فيه مع رواد حزب الأحرار، وهو الانتماء إلى الفكر الليبرالي..

فما كاد يعود من الخارج حتى عايش تجربة هامة أسهمت كثيرًا في هذا الميل، وقد كانت الفكرة الدستورية تسيطر على أفهام ممثلي حزب الأحرار، فقد نصت مبادئه على «تأييد النظام الدستوري» في أول نشأته، وحتى المحاولات التي بذلت لإقرار هذه المبادئ، وكلها كانت تهدف وضع

([54]) الأيام، ج ٣، ص ١٦٠.
([55]) كوكب الشرق (٣٣/١٠/١٣)، أيضا: (٣٣/١١/٧).

دستور لمصر بواسطة جمعية وطنية سياسية.
وقد شهد طه حسين حينئذ كيف اشتد الصراع بين أنصار الديمقراطية، وأنصار الأوتوقراطية داخل اللجنة التي شكلت في وزارة ثروت (أبريل ١٩٢٢) لوضع مشروع الدستور، ثم ضغوط الملك بواسطة أنصاره مما «أفضى في النهاية إلى صدور النصوص المتعلقة بصلة الملك بالوزارة، بشكل أجمل إجمالاً مخلاً، فلم تحل نصوص الدستور مشكلة صلة الملك بوزرائه، ومدى مسئوليتهم أمام مجلس النواب، والتوفيق بين هذه المسئولية ومسئوليتهم أمام الملك، وحقيقة إشرافهم على مصالح الدولة»[٥٦].

كما شهد إعلان قيام الدستور دون صدوره بالفعل، والمطالبة بسرعة صدوره خاصة وأن (السياسة) لسان حال حزب الأحرار «لم تكف عن الكتابة يوميًا تقريبًا، مطالبة الوزارة بإصدار الدستور»[٥٧].

حتى صدر الدستور في وزارة نسيم فتولاها الكثيرون بالنقد، من بينهم طه حسين نفسه، الذي تساءل «كيف ترضى الوزارة خلو الدستور من ذكر السودان؟ أكانت حين فعلت ذلك متفقة مع الوفد عليه؟»[٥٨].

ومن هنا فقد صدر الدستور في ضجة شهدها طه حسين العائد توًا بالفكر الدستوري، كما عرف مظاهره في الغرب، ليلتقي بالفكر الدستوري، الذي ينافح عنه هنا حزب الأحرار الدستوريين.

ومما سبق ذكره، يمكن تفسير صدور كتابه (نظام الأثينيين) في هذا الوقت بهدف توضيح الفكرة الدستورية ونشأتها، خاصة وقد أصبحت من مظاهر الحياة السياسية، فالكتاب هو ((أحسن صورة موجودة تمثل الحياة السياسية اليونانية، وهو مع ذلك صورة حية لنشأة الديمقراطية واستحالتها ورقيها رقيًا قليلاً قليلاً حتى تصل إلى أقصى ما يقدر لها من النمو وسعة السلطان))[٥٩].

وفي نفس الفترة أو قبلها بقليل صدر له كتاب آخر يذكر فيه (الآراء الديمقراطية) و(المذاهب الاشتراكية).. إلى غير ذلك من الأفكار الفكرية والأدبية التي يرى لها، دائمًا أثرًا سياسيًا هامًا، فالخطأ الذي وقع فيه

---

(56) أحمد زكريا، حزب الأحرار، ص ١٨٤ (ويمكن العودة إلى نصوص المادتين ٤٨/٢٩ من الدستور، وتعارضهما في كتاب مجلس الشيوخ: الدستور والقوانين المتصلة به، ص ١٢/٩).

(57) السابق، ص ١٨٥.

(58) السياسة (٢٣/٢/٤).

(59) طه حسين، نظام الأثينيين، ص ٤١.

الفرنسيون، في رأيه هو محاولاتهم ((تحقيق النظم الديمقراطية التي ألفها اليونان والرومان من غير أن يفطنوا إلى ما بين فرنسا وروما وأثينا من القرون))[٦٠].

وقد ظلت الديمقراطية محور اهتمامه لفترة طويلة إلى درجة أنه فكر في وضع كتاب بعنوان (الديمقراطية) وشرع فيه على الفور[٦١].

والأكثر من هذا، أنه قد كتب مقدمته[٦٢]، لولا الأزمة التي واجهها أثناء نشر كتاب (في أزمة الشعر الجاهلي) التي كانت من العنف بحيث إنها ثبطت من عزيمته.

وإذا كانت الفكرة الديمقراطية قد غلبت عليه في المجال السياسي، فإن الفكرة العلمانية قد غلبت عليه في مجال علاقة الدين بالدولة، وهو ما ظهر واضحًا في علاقته بحزب الأحرار في أول فترات (الشعر الجاهلي)، كما ظهر في المنهج العلمي الذي راح يعالج به نصًا دينيًا تراثيًا كالشعر الجاهلي في كتابه، وما نتج عن فكره بوجه عام من اقتناع، مؤداه، ضرورة فصل الدين عن الدولة، فالدين عنده لم يكن ليتعدى إراحة النفوس وطمأنتها، كما لم تكن مشكلته بأية حال هي (التوفيق بين العلم وبين آيات القرآن الكريم)، وهو ما سنصل إليه بالتفصيل في موضعه.

ومن هنا يمكن الاقتراب أكثر من كتاباته في تلك الفترة، لندرك أنه بينما يفصل في إحداها بين العلم والدين، فإنه ينتهي في ثانيتها إلى ما يمكن أن يمثل خطورة شديدة من جراء ((استغلال السياسة لعواطف السواد))[٦٣].

وهذا الفهم الليبرالي الصريح يمكن أن نجده في أعمال كثيرة أخرى من أمثال (فلسفة ابن خلدون/ في الصيف/ الأيام/ أديب..) إلى غير ذلك في هذه الفترة التي التقى فيها فكره المتوثب، الآتي من الغرب، بفكر الأحرار في بداية العشرينيات، وهو ما يفسر مؤثرًا آخر مع بقية المؤثرات التي حددت علاقته بحزب الأقلية.

عاد طه حسين بعد ثورة ١٩١٩ إلى مصر، فإذا هو يميل إلى وزارة الأحرار ورئيسها عدلي، وإذا هو يتبع بقية رواد هذا الحزب وإذا هو يكتب في صحيفتها (السياسة) مقالات يومية كلها هجوم عنيف على الوفديين.

وما كاد يغتال حسن عبد الرازق - أثناء تولي وزارة ثروت- حتى يبدأ

([60]) صحف مختارة .. لطه حسين ص ٦/٥.

([61]) سوزان، ص ٧٨.

([62]) ما بعد الأيام، الزيات، المصور ج ٤.

([63]) من بعيد، طه حسين ص ٢٢١.

موجة عنيفة على حزب الأغلبية، القاتلين كما يسميهم، ويتهم في سخرية ممضة قائلاً: ((أحقًا أن هؤلاء الذين يغرون بالأبرياء ويحرضون على الآمنين ويتهمون الأخيار الأبرار بالإثم والخيانة ويفرقون بين الأخ وأخيه.. أحقًا أنهم من الناس؟ أحقًا أنهم مصريون؟ نريد أن نعتقد ذلك ولكن اعتقاد ذلك عسير))[٦٤].

ولا يلبث أن يتحدث إلى قادة الوفد بضمير المخاطب ((أما أنتم أيها المغرون المغرضون فقفوا وافتحوا أعينكم وانظروا إلى آثار غرائبكم وتحريضكم، وإنها لأكبر منكم، إنها لتسحقكم سحقًا، إنكم أمامها لصغار ضعاف))[٦٥].

وليومين متتاليين، يرفض أن يتحدث إلى القراء حديثًا عاديًا، فهناك هذه (الكارثة)[٦٦]، ولا يلبث أن يرد على الوفديين الذين يدارون التهمة عن أنفسهم، بأنهم ((خائفون ومعتدون في وقت واحد، ولكن خوفهم غير نافع واعتداءهم شديد الخطر فهم لا يخافون الله ولا الضمير وإنما يخافون الناس والسلطان، وليس هذا الخوف بمانع من اقتراف الإثم وآية ذلك أنهم يقترفونه ويبالغون في اقترافه))[٦٧].

وفي أوج الحديث عن الدستور يستبد به الغضب الشديد، الذي اجتاح الأحرار لاغتيال اثنين من أعضائهم، فقد كان اهتمامهم كبيرًا بالدستور، وقد أفسحت (السياسة) صدرها قبل ذلك للكثيرين ليعبروا عن آرائهم بشأن الدستور سواء من طالبوا بالتغيير في بعض نصوصه أو توجيه انتقادات للبعض الآخر[٦٨]، فلما حدث الاغتيال استبدل بالدستور قضية (القتل السياسي)، وتحولت الصحيفة إلى تناول هذا الموضوع الأخير يوميًا على وجه التقريب[٦٩].

غير أنه يلاحظ أن طه حسين سواء هاجم أو دافع فإنه لم يخرج عن الضمير (نحن)، وحين تحدث عن الوفد لم يخرج عن الضمير (هم)، أو (إليهم)، وقد جاء عنوان مقاله عنيفًا حينئذ (نحن والقوم)، وهو ما يعد

([64]) السياسة (١٩٢٢/١١/٢١).
([65]) السابق.
([66]) السياسة (١٩٢٢/١١/٢٢).
([67]) السياسة (١٩٢٢/١١/٢٣).
([68]) السياسة (١٠/٣١، ١، ١٩٢٢/١١/٢) أيضا: السياسة (١٠، ١٥، ١٩٢٢/١١/١٦) أيضا: أحمد زكريا، حزب الأحرار ص ١٥٨.
([69]) السياسة (١٩٢٢/١١/١٩).

انحيازًا تامًا لحزب الأحرار ولرأي أعضائه بما يدع مجالاً للشك أنه دافع عن قضايا السياسة دفاع المنحاز إلى درجة بعيدة.

وتسقط وزارة الأحرار (وزارة ثروت)، وتأتي وزارة ملكية وزارة (نسيم)، ما تكاد تعرف بميلها إلى الوفد، حتى يعاديها الأحرار ويشنون عليها حربًا لا هوادة فيها(٧٠)، وإذا بطه حسين يحمل عليها كما يحمل على الحزب الذي ينتمي إليه، ففي مقالة بعنوان (وزارة بلا ملامح) يبدو الغضب الشديد من سياسة رئيس الوفد الجديد التي صاغها في حديث، فحين يقول توفيق نسيم أن الوزارة تريد أن تعمل لا أن تتكلم، يعلو صوت طه حسين في صحيفة (السياسة) بأن ((الأمة المصرية قد كسبت في هذا العصر حقًا جديدًا، وهي حريصة على أن تحتفظ بهذا الحق وتستمتع به، هذا الحق هو أن تقرأ لكل وزارة جديدة برنامجها الذي تبين فيه آراءها السياسية وخطتها في تحقيق هذه الآراء(٧١)، ولا يتوقف عن المطالبة في كتاباته التالية أن تصدر الوزارة رأيها وخطتها في المشاكل التي تواجهها فهذا ((ينفعها ولا يضرها، وهو يرضي الشعب ويملأ قلبه طمأنينة على آمال دون أن يصمها بهذه الوصمة التي تخافها وصمة العناية بالأقوال لا بالأعمال))(٧٢).

وفي الوقت الذي كانت فيه وزارة نسيم تعرض مشروع لجنة الدستور على لجنة استشارية تابعة لوزارة الحقانية، لتقدم الوزارة العديد من التغيرات والتعديلات التي تكرس سلطة الملك على حساب الأمة، ارتفع صوت طه حسين عاصفًا متسائلاً: ((كيف ترضى الوزارة خلو الدستور من ذكر السودان؟ أكانت حين فعلت ذلك متفقة مع الوفد عليه))(٧٣).

وعلى الرغم من سقوط الوزارة فإن طه حسين يظل يكتب من باريس عن (وزارة الشعب) ليحمل عليها بعنف شديد، فيقول ((لا أعرف وزارة مصرية أصابها ما أصاب وزارة الشعب من سوء الحظ وقبح المصير.

فساء الرأي فيها والحكم عليها واشتد الخوف منها والإشفاق من شرها والحذر من سوء أثرها في الحياة القومية ولما يمض على اعتزالها عام أو بعض عام))(٧٤)، والمقالة طويلة، يتمنى في نهايتها أن تكون الوزارة

---

(70) محمد حسين هيكل، ج ٢ ص ١٠٧.
(71) السياسة (١٩٢٢/١٢/٣).
(72) وقد دارت كتاباته قبل سقوط هذه الوزارة في (٢٣/٢/٩) حول هذا المحور (انظر حديث التصحيح (١٢/٤، ٨، ١١، ١٢، ١٥، ٢٢/١٢/٢٩، ٢٢/١/١٨).
(73) السياسة (١٨، ٢٣/٣/١٩).
(74) السياسة (٢٣/٤/٤).

القائمة- وزارة يحيى إبراهيم- وزارة يجب أن تكون (أول من يعتبر وأول من يتعظ)).

غير أن الوزارة الجديدة (٢٣/٣/١٥- ١٩٢٤/١/٢٧) كانت على خلاف شديد مع الأحرار الدستوريين لأسباب كثيرة لعل من أهمها علاقة هذه الوزارة، كما كانت الوزارة السابقة، بسعد زغلول، فهجومه العنيف على (وزارة الشعب/ نسيم) لا يعود وحسب إلى أنها جنت على الدستور فمسخته وشوهته.. فقط، وإنما لأن زغلول في منفاه إنما (هنأ وزارة نسيم وضمن لها ـ تقدير الوطن-)، ثم كيف كتبت صحف الوفد لتأييد وزارة نسيم ((تطلب بالانتخابات في ظل الأحكام العرفية.. وتهديد أمر النص على السودان في الدستور))، وبيانات الوفد الرقيقة أيام وزارة نسيم ((التي بلغت من العطف والرقة أن قارنت بينها وبين غزل البحتري))[75]، وموقفه من الدستور موقف خاص لا تحكمه نظرة الوفد ((إني لا أنكر سخط الوفد نقد الدستور، فأنا لست أرضى عن هذا الدستور الذي صدر ولم يصدر، الذي صدر ولكنه معلق في الهواء حتى يجتمع البرلمان، لست أرضى عن هذا الدستور الرضا كله، ففيه نقص وفيه تشويه وفيه نصوص لابد من تغييرها وستغير، لست أرضى إذن عن هذا الدستور، ولست أخاصم الوفد دفاعًا عن هذا الدستور، وإنما أذكر الوفد بما كان مستعدًا للرضا به أمام نسيم.. وبأننا مدينون بما أصاب الدستور من مسخ ونقص وتشويه لتواطؤ الوفد مع نسيم))[76].

وهو لا يتردد في العودة أكثر من مرة لمهاجمة نسيم في صراحة أكثر، متناولاً هذه العلاقة بين نسيم وبين الوفد التي كانت مهزلة تقع على مصر ((بأمر سعد باشا!! لأن نسيم كان مقتنعًا بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين الله طبعًا، بأنه إنما كان يحكم مصر ويعذب مصر بالنيابة عن سعد، لم يكن أصيلاً في الحكم وإنما كان وكيلاً عن سعد باشا!))[77].

كما يعيب على سعد باشا رسالة سعد التي أرسلها إلى نسيم أثناء استقالته، وأن نسيم اعترف صراحة بأنه كان يعتمد في وزارته على الملك وعلى الوفد.

وتسقط وزارة يحيى إبراهيم التي طالما تعاونت مع الإنجليز وأصدرت الدستور مشوهًا، لتأتي وزارة سعد زغلول هذه المرة (٢٤/١/٢٨- ٢٤/١١/

(75) السياسة (٢٣/٥/١٠).
(76) السياسة، السابق.
(77) السياسة (٢٣/٥/٢٧).

١٩٢٤)، ليتخذ طه حسين في علاقته مع سعد موقفًا حادًا.

وتتجمع ظروف عديدة لترسم علاقة طه حسين بسعد زغلول.. وهي علاقة كراهية اختلط فيها ـ من جانب طه حسين- العام بالخاص، وتداخلت النوازع الذاتية بالسياسة العامة مما دفع به إلى أن يوجه هجومًا عنيفًا دفع بسعد من الناحية الأخرى إلى أن يبلغ النائب العام للتحقيق معه فيما نسب إليه.

تعود أول أسباب كراهية طه حسين إلى فترة مبكرة جدًا من حياته، إذ كان طه حسين منتميًا إلى الحزب الوطني ومدافعًا عنه تحت تأثير عبد العزيز جاويش، ولأن جاويش كان يبغض سعد زغلول بغضًا شديدًا وصل به إلى درجة أن الناس تحدثت به فقد هجاه في مقالات شهيرة عنوانها (ظلموك يا سعد)[78]، وهجاه هجوًا منكرًا في ((بعض الشعر الذي لم ينشره لأنه كان أعنف مما ينشر))[79]... لهذا كله كان طه حسين يقتفي أثر أستاذه، فراح يهاجم ويلقى استحسانًا شديدًا.

لقد كان عبد العزيز جاويش بالنسبة إليه بمثابة الأب الروحي الذي ((يحبب العنف إلى الفتى ويرغبه فيه)) على حد قوله، فضلاً عن أن سنه لم يكن ليسمح له بالوعي بما يحدث، والتورط، من ثم، في هذه العلاقة الخطرة.

وقد أسهمت ظروف عديدة في تعميق هذا الإحساس لديه.

لقد كان طه حسين يحس بدين له لسعد زغلول حين قدم أحد أعضاء الجمعية التشريعية عام ١٤ (أثناء حصوله على الدكتوراه في أبي العلاء) اقتراحًا يطلب فيه أن تقطع الحكومة معونتها عن الجامعة لأنها ((أخرجت ملحدًا هو صاحب ذكرى أبي العلاء))، وقد كان سعد رئيسًا للجنة الاقتراحات بالجمعية، فلما عرض عليه هذا الاقتراح دعا المقترح وطلب إليه أن يعدل عن اقتراحه، واستطاع بالفعل أن يثنيه عن هذا الاقتراح))[80]، وحين طلب منه لطفي السيد، وكان بمثابة أستاذ له تأثير كبير عليه، في أن يذهب ليشكر سعد، رفض الذهاب ولم يذهب بالفعل.

وقد التقى طه حسين بسعد زغلول فيما بعد مرات قلائل تركت في نفسه أثرًا سيئًا، ففي مرة حدثه في ((فتور وضيق))، وقد كانا يتحدثان في باريس عن القضية الوطنية.

([78]) الأيام، ج٣ ص ٢٠.

([79]) السابق، ص ٢١/٢٠.

([80]) السابق، ص ١٤١/ ١٤٢.

وفي مرة ثانية حين التقيا بعد عام، فإن الزعيم لم يلق طه حسين كما يصف هذا اللقاء، فيقول طه أنه ((لم يلقه لقاء الهاش المرحب به، وإنما لقيه في شيء من الفتور، قال له وسمع منه، ولكنه لم يقل شيئًا ذا بال، ولم يسمع منه شيئًا ذا بال))[81]، على حد قول طه حسين الذي راح يفسر هذا الموقف بأنه حين وقف خطيبًا في إحدى خطبه فيما قبل زعم أن مصر مدينة لما فيها من اليقظة لثلاثة رجال، ولم يذكر أن سعدًا من بين هؤلاء.

وقد كان اللقاء الأخير بينهما في دار الشاعر أحمد شوقي حين التقيا لقاء عابرًا، فصافح أحدهما البعض دون أن يجاوز أحدهما هذا الموقف إلى سواه، وقد كان يمكن لطه حسين، إذا أراد، وبعد موقف سعد من الجمعية التشريعية وموقف فيما بعد في مجلس النواب في أزمة (الشعر الجاهلي)، وهو موقف حميد دون شك.. أن يذهب ليشكر سعدًا كما أشير عليه، غير أنه أبى، كما أسلفنا، وأصر على الإباء، ولم يتردد حين ألح عليه أن يقول عن سعد بأنه ((أدى واجبه وكف سفيهًا أحمق من نوابه عن حمقه.. واشتد الجدال في ذلك بين الأستاذ وتلميذه ولكنهما لم يصلا إلى شيء فاحتكما في المساء إلى عبد العزيز فهمي رحمه الله ولم يلبث هذا أن قضى لصاحبنا في غير مشقة ولا جدال))[82].

ونظن أن طه حسين لم يكن ليعترض على رأي لطفي السيد فضلاً عن طلب طلبه منه أستاذه الروحي، وما أورده في هذا الخصوص جاء من قبيل تضخيم الذات في مواجهة سعد زغلول.

وهنا يلاحظ أن طبيعة طه حسين وآفته أسهمتا كثيرًا في تجسيد موقف سعد زغلول، فقد يكون من الطبيعي بالنسبة إلى زعيم مثل سعد، ألا يتوقف كثيرًا أمام طالب يدرس في الخارج أو يفرغ إليه في محفل بالقدر الذي يطلبه منه، وقد راح طه حسين يجسد موقفه فراح يصور، وبشكل متعال، مما يضخم من ذاته أمامنا على ما انطوت عليه طبيعته من عناد ركب فيه لظروف عديدة.

وقد يكون هذا الإحساس، بشكل آخر، هو ما دفع بطه حسين شعوريًا – أو لا شعوريًا- إلى أن يلفت النظر إلى موقف سعد، وهو ما يترجمه لنا حين يردد في سيرة حياته هذه الجملة ((وأين هو من سعد))؟

والسؤال الآن هو: هل كان موقف سعد زغلول بالفعل ينبئ عن هذا الرأي الذي انتهى إليه طه حسين، وهو قد اتسم بالتعالي الذي يومئ إلى

---

(81) الأيام، ج ٣، ص ١٤١/ ١٤٢.

(82) السابق، ص ١٤٣، أيضا: مجلة الثقافة (١٩٤٠/٨/٢٧).

الطغيان أو ما يدفع إليه؟

وهنا نقترب أكثر من موقف سعد زغلول أو طبيعته التي حسبت له أو عليه.

فلنتريث قليلاً عند موقف سعد زغلول بشكل خاص من أزمة (في الشعر الجاهلي) قبل أن نخلص إلى بقية المؤثرات التي أسهمت في استفحال القطيعة بينهما.

بينما انحاز سعد زغلول لطه حسين في الجمعية التشريعية قبل ذلك بسنوات، فقد انحاز ضده في هذه الأزمة في مجلس النواب، لاسيما وقد رأى المجلس ضرورة فصل مؤلف الكتاب من وظيفته وإحالته للنيابة العامة لتقديمه إلى المحاكمة في وقت رأت الحكومة الاكتفاء بعدم توزيع الكتاب ومصادرة نسخه[83]، وقد كان سعد زغلول رئيسًا للمجلس وعدلي رئيسًا للحكومة، وقد وقف سعد في أول الأمر بتعنت واضح أمام رئيس الحكومة بقصد إحراجه والنيل من المؤلف، وقد دارت بينهما مناقشة حادة كادت تؤدي إلى أزمة لولا تدخل البعض مقترحًا تأجيل الجلسة حتى سوى الخلاف[84].

وعلى الرغم من أن التقارير البريطانية تفسر موقف سعد بأنه يعود إلى رغبته في أن يثبت لحكومة الأقلية الدستورية التي كان يرأسها عدلي حينئذ، أنه قوي لدرجة يتمكن معها من مواجهة الحكومة[85]، فإن طه حسين كان قد أسرها في نفسه.

وقد أسرع بهذا الغضب وغذاه مؤثرات عامة أخرى لعل من أهمها أن طه حسين كان ينتمي فكريًا إلى حزب الدستوريين في مواجهة حزب سعد، حزب الوفد، وقد أسهمت الظروف في توسيع الهوة بين الحزبين في فترة تالية.

ومصادر هذه الفترة تؤكد على انحراف وزارة سعد زغلول عن كثير من المبادئ التي نادت بها وهي خارج السلطة، إذ تورطت في ((اضطهاد الموظفين من خصومها السياسيين ومحاباة أنصارها فجعلت تفصل وتعين وترقي في أجهزة الدولة ما شاءت لها الحزبية.. بل إن سعد اعترف في

([83]) انظر مضابط مجلس النواب: الهيئة النيابية الثالثة، مجموعة مضابط دور الانعقاد الأول العادي، مضبطة جلسة ٥٥ في ٢٦/٩/٢٣ ص ٩٥٣، ٩٥٦.

([84]) السابق، أيضا: عبد الخالق لاشين، سعد زغلول ج ٢ ص ٤٨٨/٤٨٩.

([85]) Fo.407/203/Hnob 1925- 11929.

من تقرير نيفين هندرسون المندوب السامي البريطاني في هذا الوقت.

مذكراته متجاهلاً قوى المعارضة التي كان ينظر إليها على أنها طائفة هزيلة تكونت ممن تنكبوا حظيرة الوطنية))[86].

لقد اعترف سعد زغلول في مذكراته، صراحة، أنه فكر أثناء تشكيل وزارته في الانتقام من رجال الإدارة، وهو ما أطلق عليه عبارة (تطهير الإدارة من الأدران)[87]، فالانتقام هنا إنما اتخذ ثوب التطهير للتذرع للإحاطة بالخصوم.

ومن ناحية أخرى، أصدرت وزارة سعد زغلول ((كثيرًا من الاستثناءات الصارخة التي كانت موضع محاسبة البرلمان من ناحية، ومثار هجوم الصحف المعارضة من ناحية أخرى))[88].

وبينما تلاحظ بعض المصادر[89] أن وزارة سعد كانت تحتوي على عناصر غريبة، كما شجع الوفديون نظام (الغنائم) بالنسبة لمن يرعاهم الحزب، فإن المصادر الأخرى تعدد ((المآخذ على وزارة سعد)) فتذكر حقيقة خطيرة هي أنه لم ((تكن وزارة سعد واسعة الصدر بإزاء المعارضة البرلمانية، وكان يضيق صدرها أيضًا بالصحف المعارضة، فتعقبتها بالاضطهاد والتحقيق والمحاكمة، وأخلت بينها وبين المظاهرات الصاخبة))[90]، كما زادت التحقيقات مع الصحف المعارضة، ووجهت تهمة القذف في حق سعد زغلول والحض على كراهية النظام.

وفي تلك الفترة صادرت الحكومة بعض أعداد صحيفة السياسة ـ صحيفة الأحرار- يومي ١٠/١٢ يونيو ٢٤، وتقديم محرريها للمحاكمة من أمثال حافظ عفيفي وتوفيق دياب وحسين هيكل وطه حسين.

ومما سبق ذكره، فقد كان موقف طه حسين، من وجهة ذاتية، يدفع بها دفعًا إلى مهاجمة سعد زغلول، لقد انتهت صلته به، كما يقول، إلى صلة ((يسيرة كل اليسر في ظاهرها، عسيرة أشد العسر في حقائقها ودخائلها))[91]، وقد كان موقفه في حزب معارض يضطره إلى الهجوم

([86]) السياسة (١١، ٢/١٤) لاشين، السابق ص ٣٦٩، أيضا: أحمد زكريا: الأحرار ص ٢٨٧.

([87]) مذكرات سعد زغلول، كراسة ٤٧، ص ٢٧٧.

([88]) لاشين، السابق ص ٣٧١/٣٧٠، مجلس النواب دور الانعقاد الأول ١٩٢٤، الأخبار ١٩٢٤/٥/٤.

([89]) عفاف لطفي، التجربة الليبرالية ص ١١٩، ١٢٢، ١٢٣.

([90]) الرافعي، في أعقاب الثورة ج١، ص ١٥٩/ ١٦٠/ ١٦١، أيضا: محمد حسن الزيات، المصور، الجزء الثاني.

([91]) الأيام، السابق ص ١٤٣.

والإيغال في الهجوم، إذ انتهى إلى أنه لا يجب أن يلتزم بموقف الحيدة فيما يدور حوله في ذلك الصراع بين الأقلية الديمقراطية والأغلبية الديماموجية[92]، فشرع، من هنا، يوجه سهامه إلى الزعيم- الطاغية.

وقد تبلور هذا الموقف في كل الصحف التي هاجم فيها سعد زغلول: السياسة والاتحاد والأهرام والاستقلال... إلى غير ذلك من الصحف التي كانت تتخذ موقف العداء من سعد ورجاله.

ويمكن رصد هجوم حاد في فترة مبكرة جدًا، ففي منتصف عام ١٩٢١، يكتب في الأهرام مقالاً بعنوان (أديموقراطية أم طغيان)، موجزًا فكرته في العنوان في الفرق بين الديمقراطية والطغيان، بين عدلي وسعد، يقول بعد أن يعدد أوجه الخلاف طويلاً بينهما:

(ثم وقع بينهما الانقسام، ووقع لمسألة شخصية لا يستطيع أحد مهما يبلغ من المهارة السياسية وقوة الحجة أن يجد بها صيغة سياسية حقيقية. ولكن سعد كان الزعيم فما كاد يعلن خلافه لخصومه وانشقاقه عليهم حتى اجتمع عليه الجمهور فأيده ونصره، وعلى غيره منشقًا، ووصف خصومه بالمروق، وليس ما يقع في مصر الآن من جدال ومناقشة وليس فيما وقع في مصر منذ أسابيع من اضطراب ومظاهرات إلا حربًا بين مبدأين مختلفين: أحدهما مبدأ قيادة الجمهور إلى منفعته المحققة من طريق النظام والقانون أي من طريق الديمقراطية المعتدلة المنظمة، والآخر مبدأ الاستئثار بما للجمهور من قوة وسلطان، والاستبداد باسم هذا الجمهور وسلوك الطرق المعقولة وغير المعقولة إلى إكراه الخصوم على الإذعان، أو كم أفواههم وعقد ألسنتهم))[93].

ويظل يحمل على سعد زغلول بهذه الحدة، ففي جريدة ((الاستقلال)) يكتب مقالتين تحتويان على أعنف ما يمكن أن يوجه إلى زعيم أغلبية شعبية، ففي العنوان الذي اختاره ليومين متتاليين يمكن أن نجد هذه الجرأة، العنوان يقول صراحة (ويل للحرية من سعد)، يستطرد في عبارات تبلغ أقصاها من العنف الشديد، لعل من أهمها:

سعد باشا رجل حر. يعشق الحرية ويكلف بها، ويبذل فيها حياته وماله وما أنعم الله به عليه من خير، ولكن ذلك لا يمنعه أن يكون عدو الحرية وقاتلها مرتين، لا نمزح ولا نتفكه ولا نختلق القول جزافًا. إن ما نقول حق

([92]) السابق ص ١٦٣.

([93]) الأهرام (١٩٢١/٦/٢٥).

لا شك فيه[94].

وعلى هذه النغمة تتوالى مقالات طه حسين في جريدة (السياسة) لسنوات، كأعنف ما كتب في الأدب السياسي في العصر الحديث[95]، أغلبها بدون توقيع، وبعضها بتوقيع ساخط غاضب يتحدى بعنف شديد وفي لهجة لاذعة إلى درجة أن يطلب سعد زغلول من النائب العام التحقيق معه، مع صاحب المقالات التي تنشر بدون توقيع، وهي من لهجتها وأسلوبها مقالات لطه حسين، ويكون التبليغ بتهمة (إهانة رئيس الوزراء)[96].

على أنه بتحليل مضمون مقالاته التي تحمل اسمه أو التي لا تحمل، وحتى فترة استقالة سعد من رئاسة الوزراء في ١١/١٣ ثم قبولها في نفس الشهر من عام ١٩٢٤ بعد كارثة السردار، يمكن العثور دائمًا على أسلوب طه حسين الساخر في الهجوم، بل وامتد هذا الهجوم بعد رحيل سعد ووزارته إلى الوزارة التي أعقبته - هي وزارة زيور- ونحن لا نستطيع مقاومة إغراء نقل فقرة من كتاباته حينئذ، يقول فيها:

((وأقسم لقد بغى سعد وأصحابه على إخوانهم فأسرفوا في البغي، وأقسم لقد طغى سعد وأصحابه على إخوانهم، فأسرفوا في الطغيان.. (و).. يجب على كل مصري أن ينهض لهذه الطائفة الباغية الطاغية فيردها إلى طورها وينزلها منزلتها ويأخذها بالإذعان لكلمة الحق والخضوع لأمر الجماعة والنزول عند إرادة الوطن))[97].

وهو بينما يذكر في موضع آخر أصحاب سعد (بالأذناب)، فإنه يسخر من غرور سعد الذي هيأ له مكانة خاصة ودفعه في نهاية المطاف إلى الهروب[98]، كما أن طه حسين في هذا المقال يتحين أية فرصة ليحمل على

([94]) الاستقلال ٩، ٢١/١١/١٠، ويقول فيه (كان سعد محاربا لأمته، فأصبح الآن محاربا للحرية من حيث هي حرية، وأصبح الآن محاربا لكل هذا النصر الحديث/ سعد وكيل الأمة في كل شيء، حتى في قراءة الصحف، أيتها الأمة المصرية، طيبي نفسا، وقري عينًا، اهدئي واطمئني، فقد قيض الله لك رجلاً يريحك من كل شيء. لا تطالبي بالاستقلال فسعد يطالب به، لا تعشقي الحرية فسعد يعشقها، لا تؤمني فسعد يؤمن به، ولا تقرئي الصحف فسعد يقرأها).

([95]) أغلب مقالات السياسة في النصف الأول من عام ٢٤.

([96]) وثائق عابدين، السابق، محفظة ١١ عين ١٢ مخزن ٤٢.

وبالفعل، يفتح محضر التحقيق في ٧ يونيو ١٩٢٤ وتوجه أسئلة التحقيق إلى طه حسين الذي يظل مرددا، على مدى ساعة كاملة، أمام المحقق، عبارة واحدة (لا أجيب).

وتواصل لجنة التحقيق بحثها في حياة طه حسين وكتاباته الأخرى لعلها تجد خطأ يحسب عليه، فلا نجد شيئًا، اللهم إلا موافقة الجامعة له للكتابة في الصحف بعد أن طلب هو ذلك.

([97]) السياسة ٢٤/١٢/٢٥.

([98]) السابق، وجاء في المقال (إلى من أراد الاتحاد فليستظل بلوائي يجد ما يشاء من نعمة ==

سعد والسعديين[99]. وهو ما يحمل الغلو في التعبير عن رأيه السياسي في زعيم حزب الأغلبية ما لا يمكن تجاهله قط، إذ لا يمكن مهما تكن درجة العداوة أن يصل الأمر بطه حسين إلى اختطاط هذا الخط العنيف جدًا في هذا الهجوم.

على أن موقفه الحزبي كلفه ثمنًا غاليًا حين أخرج كتابه (في الشعر الجاهلي)، فلنر صورة أخرى من صور علاقاته الحزبية في الأزمة التي تعرض لها عام ١٩٢٦.

لم تكن الخصومة الحزبية وحدها هي التي أثارت الضجة التي دارت حول كتاب (في الشعر الجاهلي)، لكنها كانت أهم هذه الأسباب التي دفعت بصاحبها إلى طريق الخصومة الحزبية ومهاتراتها.. في مايو ١٩٢٦ صدر كتابه (في الشعر الجاهلي)، وبدأت تتنامى ردود أفعال عنيفة سواء من المحافظين أو عند الصحف المعادية له في الجانب الحزبي[100].

ونحن لا يهمنا هنا ردود الأفعال الدينية أو الحزبية، أو مناقشة أفكار الكاتب التي عدت من قبيل الكفر أو الإلحاد أو الطعن في الدين، خاصة وأن رئيس النيابة انتهى من التحقيق في القضية إلى نتيجة هامة تقضي بحفظ

وثراء.. حتى كانت هذه الكارثة فأسلم سعد وولى مدبرا).

([99]) الجهاد ١٩٢٥/٧/٢٥، جاء فيه الكثير من مظاهر الهجوم العنيف على الوفد والوفديين (أبطال سيشل وأبطال ألماظة وأبطال المحاريق..إلخ).

([100]) قرار في كتاب (في الشعر الجاهلي) محمد نور رئيس نيابة مصر ص ١، دار الوثائق القومية، التماسات جماعية محفظة ٦، الاتجاه ٢٦/٥/١٦.

(في البداية يقدم الشيخ خليل حسنين الطالب بالقسم العالي بالأزهر للنائب بأن طه حسين ألف كتابا له ((طعن صريح في القرآن الكريم حيث نسب الخرافة والكذب لهذا الكتاب السماوي الكريم))، أعقبه أن أرسل عددا كبيرا من رجال الدين إلى الأزهر مطالبين ((بوضع حد لهذه الفوضى الإلحادية خصوصا التي تبث في التعليم لهدم الدين بمعول الزندقة كل يوم)) فأرسل شيخ الجامع الأزهر إلى النائب العام ليبلغه عن كتاب كتب فيه صاحبه على حد قوله ((القرآن صراحة وطعن فيه على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى نسبه الشريف))، وقد طالب فيه تقديم المؤلف إلى المحاكمة.

وتحول رد الفعل العنيف من الأزهر إلى البرلمان، ففي أول سبتمبر من العام نفسه أعلن الشيخ القاياتي عضو مجلس النواب عن عزمه على استجواب رئيس الوزراء –عدلي باشا في هذا الوقت- بشأن الكتاب فبذلت عدة مساع لحمله على الاستبدال بالاستجواب سؤال يكون الرد عليه كتابة، ولم يرد رئيس الوزارة، فتقدم في نفس الشهر عبد الحميد البنان عضو مجلس النواب ببلاغ إلى النائب العام ذكر فيه تهمة طعن في الإسلام ((بعبارات صريحة واردة في كتابه)).

وقد صحب هذا كثير من هياج الصحف في لهجة أغلبها معارضة ضد طه حسين وكتابه.

الأوراق[101]، ولكن ما يهمنا هو الاتهام الذي وجهه إليه خصومه من الحزب المضاد ـ حزب الأغلبية ـ ولعبت فيه الأهواء السياسية دورًا كبيرًا.

دارت معركة عنيفة في الصحف استمرت أكثر من ثلاثة شهور متوالية وتجددت بعدها مرات كثيرة كلما سمحت الظروف الحزبية بذلك، كما أثيرت الأزمة في مجلس النواب أكثر من سبع مرات بين عامي (١٩٥٠/٢٦) وتعددت المواقف بالنسبة إلى الجامعة أو إلى الوزارة، وخرج على أثرها عديد من الكتب التي تهاجم الكاتب وتفند آراءه، وإن كان يلاحظ أنها جميعًا لم تستطع أن تتفهم النتائج التي توصل إليها، كما أنها ـ في أغلبها ـ لم تقترب من مادة الكتاب الأصلية[١٠٢].

وتفصل ذلك أنه بمجرد أن نشرت صحيفة (السياسة الأسبوعية)، لسان حال الأحرار في عددها الأول مقدمة الكتاب وأبانت أن الكتاب سيصدر في الأسواق قريبًا[١٠٣]، حتى هاجمت الكتاب وصاحبه كل الأقلام التي كتبت فيما بعد[١٠٤]، ولم يدافع عن المؤلف في الأمر قط غير صحيفة السياسة في

([101]) قرار الاتهام، السابق ص ٣٢، وقد جاء في نهايته ما نصه.
((.. وحيث أنه مما تقدم يتضح أن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدي على الدين بل إن العبارات الماسة بالدين التي أوردها في بعض المواضع من كتابه قد أوردها في سبيل البحث العلمي مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها.
وحيث إنه من ذلك يكون القصد الجنائي غير متوفر (ولذلك) تحفظ الأوراق إداريا.
([102]) قدم طه عديدا من الاستنتاجات والنتائج التي لم يستطع المحافظون قبولها: انظر:
The Middle East Journal (1950) Kitchen, H.A.AI
Ahram p.157- 158Charhes Rdams c., Islam and Morernism, P. 258.
أيضا د. عفاف لطفي، السابق، ص ١٥٤، ٣٤٠، ٤٣١، وقد كان منهج طه حسين كما صرح هو (إنني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المتحدثين من أصحاب العلم والفلسفة الذي استخدمه (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث.
والناس جميعا يعلمونه أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما..) الشعر، ص ١١ وقد صدر للرد عليه عديد من الكتاب من أمثال: نقد الشعر الجاهلي لمحمد فريد وجدي، نقض الشعر الجاهلي للشيخ الخضر حسين، تحت راية القرآن لمصطفى صادق الرافعي، الشهاب الراصد على الشعر الجاهلي لمحمد لطفي جمعة، النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهلي لمحمد أحمد الغمراوي، وقد هاجمته كل الصحف عدا (السياسة) وإن كان يحمد لبعض الكتاب مثل العقاد وفكري أباظة ومحمود عزمي وسليمان فوزي أن دافعوا عنه بشكل غير مباشر حين دافعوا عن حرية الرأي في وقت كانوا ينتمون فيه إلى أحزاب أخرى.
([103]) السياسة الأسبوعية، ٢٦/٥/١.
([104]) هوجم من كثيرين من أمثال: الشيخ علام المدرس بدار العلوم في السياسة الأسبوعية ٢٦/٥/٨، الشيخ محمد عبد المطلب في أهرام ٢٦/٥/٢، عبد المتعال الصعيدي أهرام ٢٦/٥/١٢، شكيب أرسلان في كوكب الشرق ٢٦/٦/٢، عبد القادر حمزة ومصطفى الرافعي ==

مواجهة كل صحف الوفد التي أفسحت صفحاتها لنشر كل المقالات التي لم تكن ردًا على الكتاب بقدر ما كانت هجومًا عنيفًا عليه، فصحيفة (الأهرام) التي كانت تعرف بميلها الواضح للوفد وجهت هجومًا عنيفًا على الكاتب والكتاب حين كتب فيها محمد عبد المطلب وعبد المتعال الصعيدي، كما تتصدى (كوكب الشرق) الوفدية لقيادة الهجوم فتضيف إلى عامل الخلاف السياسي عامل استيعاب الرأي العام المعروف بتدينه ومحاولة استغلال لعواطف السواد على اعتبار أن ((الوفد الحزب الجماهيري المعبر عن الأغلبية[١٠٥]، وهو ما يؤكده أن طلبة الأزهر حين قاموا بمظاهرة توجهت إلى البرلمان وهي تهتف بسقوط طه حسين، فإن سعد زغلول - وقد كان رئيس البرلمان وزعيم الأغلبية الوفدية- يقف خطيبًا فيهم ويقول ضمن ما يقول:

((إن مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر في هذه الأمة المتمسكة بدينها، هبوا أن رجلاً مجنونًا يهذي في الطريق فهل يضير العقلاء شيئًا من ذلك: إن هذا الدين متين وليس الذي شك فيه زعيم ولا إمام حتى نخشى من شكه على العامة: فليشك ما شاء: ماذا علينا إذ لم يفهم البقر))[١٠٦].

وتنشر كوكب الشرق العديد من المقالات التي تهاجم المؤلف وحزبه، وهو نفس الموقف الذي تتخذه جريدة (البلاغ) ورئيسها عبد القادر حمزة[١٠٧]، كما تفسح صدرها للكتاب من خارج الجريدة الوفدية لمصطفى صادق الرافعي أشد أعداء طه حسين وأكثرهم غلوًا في كراهيته له ليتهمه بأنه أشد الناس على العرب والإسلام.

وقد دافع طه حسين عن نفسه أول الأمر وهاجم جمود الشيوخ[١٠٨]، وما لبث أن أحس خطورة الموقف بعد اتهامه في دينه من أعلى سلطة دينية في البلاد، وخشي هياج الرأي العام، فبدأ تراجعه بأن أرسل إلى رئيس

في البلاغ الأسبوعي ٢٦/٦/١٦، ومحمد رشيد رضا في المنار أكثر من عدد.
وقد استمر الهجوم عليه فيما بعد لسنوات، يغذي هذا الهجوم الخلاف السياسي: كوكب الشرق ١٥- ٩، ١٨- ١٠، ١٤-١١/ ٢٦، روزاليوسف ٢٢-٩- ٢٦، الأهرام ١٦- ٩- ٣- ١١/ ٢٦، السياسة الأسبوعية ٢٦/١٠/٢٣، السياسة ٢٦/٩/١٤، الكاتب المصري ٤٧/٣، والوادي ٤٧/٣/٢٨، الأهرام ٤٧/٣/٢٨، السياسة الأسبوعية ٤٧/٤/١٥، الجمهورية ٥٧/٩/٢٤.

(105) مختار التهامي، السابق، ص ١٥٧.

(106) كوكب الشرق، ٢٦/٥/١٧.

(107) البلاغ الأسبوعي ٢٦/٦/١٦، كوكب الشرق ٢٦/٦/٢، ٢٧/٦/١٧، البلاغ ٥، ٩، ١٩٢٦/٥/١٦.

(108) السياسة الأسبوعية ٢٦/٥/٨، ٢٦/٥/١٦.

الجامعة - لطفي السيد- بتاريخ ٢٧ مايو برسالة يعلن فيها بأنه قرر وضع النسخ الباقية من كتابه (في الشعر الجاهلي) تحت تصرف الجامعة(١٠٩)، وهو ما تم عنده، بالفعل، فاتخذت الإجراءات اللازمة لمنع طبع نسخ أخرى فيما بعد، فضلاً عن أنه أرسل إلى مدير الجامعة أيضًا خطابًا يثبت فيه إسلامه وينفي تعمده إهانة الدين وقد حاول فيه أن يقدم استقالته وإن رفضت الجامعة(١١٠)، غير أن المعركة لم تكن قد حسمت بعد.

ويبدو أن صحيفة حزب الأحرار الدستوريين لم تواصل دفاعها عن طه حسين، فقد كان الحزب الذي ينتمي إليه يواجه أزمة فورية مع الوزارة القائمة حينذاك (وزارة زيور)، ويمكن تلخيص بواعث تخلي صحيفة حزب (الأحرار) عنه في ثلاثة بواعث رئيسة.

الباعث الأول: أن حزب الأحرار كان قد تدخل من قبل في أزمة علي عبد الرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) أغسطس من العام الماضي ودفع ثمنًا غاليًا لهذا، فبعد حكم هيئة كبار العلماء التي تكونت من الأزهر ((بإخراج علي عبد الرازق أحد علماء الأزهر والقاضي الشرعي بمحكمة المنصورة الشرعية.. من زمرة العلماء))(١١١)، كانت صحيفة (الأحرار) قد قامت بهجوم عنيف على الأحزاب الأخرى، وأخذت تدافع عن علي عبد الرازق ولم تجد من يقف إلى جانبها غير صحيفة (كوكب الشرق) في مواجهة الصحف الأخرى خاصة صحف (الاتحاد)، و(اللواء)، و(الأخبار)، وقد حدث أن عبد العزيز فهمي وكان رئيس حزب الأحرار ووزير الحقانية قد اعترض على الحكم فيما كان من يحيى إبراهيم إلا أن ذهب إلى القصر وعاد بإقالة عبد العزيز فهمي من الحقانية مما دعا بحزب الأحرار إلى أن يثور لكرامته ويعلن الثقة التامة برئيسه(١١٢).

وعلى هذا النحو، أحجم حزب الأحرار هذه المرة أن يواصل تأييده لأزمة كتاب (في الشعر الجاهلي) كي لا يعاني مما سبق أن عانى منه.

ويرتبط هذا بالباعث الآخر: من أن جوهر الأزمة كان يقترن بمعاداة الملك نفسه، فإن أزمة (الإسلام وأصول الحكم) أثارت حقيقة أن صاحب الكتاب حاول أن يدلل به على أن الخلافة نظام ليس من صميم الإسلام في

---

(109) مضابط مجلس النواب، جلسة ٢٨/٢٤، مارس ٣٢ ص ٣٥٤.

(110) السابق، جلسة ٢٦/٩/١٣ ص ٩٥٤- ٩٥٥، أيضا خطاب طه حسين بدار المحفوظات (ملف طه حسين الخاص).

(111) السياسة ١٩٢٥/٨/١٣.

(112) أحمد شفيق، الحولية الثانية ١٩٢٥ ص ٨٠٧.

شيء ((وفكرة كهذه ظهرت في وقت كان فيه مصير الخلافة لا يزال يشغل المسلمين كان لابد أن تثير الرأي العام المصري، وأن تحدث حدثًا في السياسة المحلية، خاصة وأن الملك فؤاد كان يطمع في الخلافة لنفسه وأن صاحب البحث من أسرة بارزة في حزب الأحرار الدستوريين))[١١٣].

وحدث ما حدث من خروج الوزراء الدستوريين من وزارة زيور التي اقتصرت على الاتحاديين والمستقلين وكانت ذات ميول وفدية معادية للأحرار، ومن هنا، فإن أزمة (الشعر الجاهلي) جاءت مرة أخرى لتهدد السياسة الملكية في وقت لم يكن ليسمح الملك فيه بتطور الأزمة في غير صالحه خاصة إذا جاءت الأزمة الثانية من داخل الأحرار أيضًا.

أما السبب الأخير: فهو يعود إلى طه حسين خاصة، إذ مال بعض النواب الدستوريين إلى ((التبرؤ من طه حسين لما كان يكتبه مؤخرًا في حزب الاتحاد))[١١٤]، وعلى الرغم من أن طه حسين في موقفه من حزب الاتحاد لم يكن يريد سوى أن يأمن جانب الملك ويهاجم الوفديين هجومًا عنيفًا، فإن ارتباط هذا الحزب بالملك في وزارة ملكية هي وزارة زيور جعل حزب (الأحرار) يتردد كثيرًا في تأييد صاحب (الشعر الجاهلي)، وهو ما يفسر تقاعس نواب الحزب في الدفاع عنه حين أثيرت الأزمة في مجلس النواب، وإنما اقتصر الدفاع على قادة الحزب فقط.

وقد ترك مثل هذا الموقف في فكر طه حسين ندوبًا عميقة أثرت في موقفه من الحزب فيما بعد وإذ بدت المعركة في الصحف تحسم لصالح الوفديين، فإنها كادت تحسم لصالحهم أيضًا في مجلس النواب لولا أن الائتلاف كان قائمًا بين الأحرار والوفد ضد وزارة زيور التي حاولت بدونما اعتبار للكرامة الوطنية إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فأخذت المعركة خطًا آخر.

أثار بعض النواب في أول الجلسة القضية، فالكتاب المثار تضمن طعنًا صريحًا في الدين، وإن تصرف صاحبه يعد ((مخالفًا للذوق فإنه مدرس بالجامعة المصرية وهي معهد أميري يعيش من أموال الحكومة الممثلة للأمة فهو يتقاضى مرتبه من هذه الهيئة التي دينها الإسلام))[١١٥]، إلى جانب التنديد بشراء الجامعة للكتاب، فهو مال الأمة لا يجوز أن يدفع أجرًا،

---

(113) أحمد عبد الرحيم مصطفى، السابق ص ١٧١.

(114) أحمد زكريا، حزب الأحرار ص ٣٦٨.

(115) مضابط مجلس النواب، الهيئة النيابية الثالثة، مجموعة مضابط دور الانعقاد الأول، العادي، مضبطة الجلسة ٥٥ في ٢٦/٩/١٣ ص ٥٩٣.

وهو ما أيده عدد كبير جدًا من النواب، وقد رد وزير المعارف على الاستجواب برأي آخر مؤداه أنه يطمع ((أن تكون الجامعة معهدًا طلقًا للبحث العلمي وليس معنى هذا أن تكون كراسي الأساتذة منابر تلقى منها المطاعن في أي دين من الأديان))(١١٦).

وقد زادت هوة الخلافات في المجلس بين عدلي الذي كان رئيسًا للحكومة وبين سعد الذي كان رئيسًا للمجلس، فبينما رأى المجلس ضرورة فصل طه حسين وإحالته إلى النيابة للتحقيق معه فيما نسب إليه، رأت الحكومة الاكتفاء بعدم توزيع الكتاب ومصادرة نسخه، وقد شهدت قاعة المجلس مناقشة حامية جرت بين سعد وعدلي تمسك كل منهما برأيه إلى درجة أن كادت تطرح الثقة بالحكومة لولا تدخل البعض مقترحًا فض الجلسة إلى موعد آخر(١١٧).

وعلى أثر انصراف سعد قصد عدلي ومعه عدد كبير من أعضاء حزب الأحرار إلى بيت الأمة، وظل الجميع هناك مع سعد إلى ما قبل منتصف الليل بقليل أمكن خلالها تسوية المسألة لصالح طه حسين(١١٨).

وقد خلفت الأزمة مسألتين هامتين: إحداهما، تتعلق بموقف سعد زغلول من صاحب الكتاب، وثانيتهما: تتعلق بموقف حزب الأحرار من طه حسين وحرصهم عليه.

أما المسألة الأولى، فقد ظهر أن موقف سعد من مؤلف الكتاب لم يكن في المقام الأول كما تصوره طه حسين، فلم يعد إلى موقف خاص، وإنما إلى أن علاقة سعد زغلول مع حكومته كان يحكمها ظروف خاصة، فسعد زغلول، كما تؤكد التقارير البريطانية على لسان مندوبها في مصر، لم يكن يحس في هذا الموقف- بعد أزمة السردار واستقالته- أنه قوي إلى درجة يتمكن معها من مواجهة الحكومة، لقد تصور أنه لم يكن من القوة بحيث يستطيع التحاشي للاشتباك مع رئيس الوزراء -عدلي))(١١٩)، لقد حاول أن يظهر لخصومه أنه يستطيع مواجهتهم في أية صورة وفي أي مركز اضطر

([116]) السابق ص ٩٥٤.

([117]) الهيئة النيابية الثالثة، السابق، ٩٠٧/ ٩٥٩، أيضا مذكرات سعد زغلول، دار الوثائق، ص ٣٠٧ كراسة ٥٣، أيضا راجع تقرير هندر.Foruiz office FO. 407 أيضا: أحمد شفيق، الحولية الثانية السابق ٢٦ ص ٥٢٤، ٥٢٦، أيضا: لاشين، سعد زغلول ج٢، ص ٤٨٨/ ٤٨٩.

([118]) أحمد شفيق، السابق، أيضا: كوكب الشرق ٢٦/٨/١٥، البلاغ ٢٦/٩/١٥.

([119]) Foreign office - pullic record office - Keue Gordens, FO. 407 (203 Hnob 195)

إليه.

فبينما تؤكد العديد من المصادر أنه وقف ضد طه حسين لاعتقاده في عدم صحة ما وصل إليه المؤلف من نتائج[١٢٠]، يعتقد طه حسين نفسه أنه وقف منه هذا الموقف لأنه كان يواصل الهجوم عليه ليل نهار إلى درجة محاكمته بإيعاز من سعد في وزارته الأخيرة، أو على حد قول طه حسين أنه أغفل اسمه أثناء ذكر عديد من أسماء كانت وراء نهضة مصر كما أشرنا.

أما مسألة من وقف بجانبه، فقد كان واضحًا أنه لم يؤيده غير (الصفوة) التي رضي الانتماء إليها من زمن بعيد، فلطفي السيد أستاذه كان رئيسًا للجامعة وقتئذ، وألمع أعضاء حزب (الأحرار)، وعدلي باشا وكان رئيسًا للوزراء رفض توقيع جزاء عليه أو فصله أو إلغاء وظيفته، وسعى معه رشدي حتى تمكن أحمد ماهر من رفع جلسة مجلس النواب ضده بعد عشر دقائق من تأزم الموقف، وما أعقب ذلك من مصاحبة عدلي لسعد حتى انتهت الأزمة.

وثروت، وقد كان عضوًا بمجلس إدارة الجامعة طلب منه أن يثبت للعاصفة حتى تمر بسلام، وألا يجيب خصومه حفاظًا على كرامة أستاذيته للجامعة وكرامة العلم الذي يمثله[١٢١] خاصة وقد أهدى إليه هذا الكتاب، ولولا حماية ثروت لطه حسين فيما بعد ((لكان دفع ثمنًا فادحًا لهذه الجرأة))[١٢٢]، كما أن على الشمسي وقد كان وزيرًا للمعارف أثناء الأزمة قد وقف بجانبه لإيثار الرأي الحر كما يقول، ويبدو أنه كان ضعيف الوفدية رغم أنه كان وفديًا، وهو الموقف الذي شاركه فيه عدد آخر من الكتاب الذين وإن لم يكونوا من حزب الأحرار إلا أنهم كانوا من أنصار الفكر الحر مثل عباس العقاد الذي كان كاتب الوفد الأول[١٢٣].

ومما سبق ذكره، إذا كان عدد من أعضاء حزب الأحرار قد آثروا الصمت، فإن عديدًا من الصفوة الفكرية والأرستقراطية من كوادر الحزب وقفت بجانبه حتى انتهت الأزمة.

---

(120) الجزيري، سعد زغلول، ص ٣٧، وأيضا: كوكب الشرق ٩/١٥، ١٠/١٨، ٢٦/١١/١٤، روزاليوسف ٢٦/٩/٢٢، الأهرام ٩/١٦، ٢٦/١١/٣، السياسة الأسبوعية ٢٦/١٠/٢٢، السياسة ٢٦/٩/١٤، أيضا: لاشين، ص ٤٨٨.

(121) سامي الكيالي، ص ٥٩.

(122) Oxford university press, London New York, Jamel Mohamed Taronty 1960, P. 118.

(123) عبد العزيز شرف، طه حسين، ص ١٦٥.

وقد أثيرت مسألة (في الشعر الجاهلي) أكثر من مرة فيما بعد خاصة في عهد وزارة صدقي، وهو ما سنصل إليه في حينه، غير أن أهم ما يمكن الإشارة إليه هنا أن أزمة (في الشعر الجاهلي) أحاطتها الخصومة الحزبية أكثر من الحيدة والغيرة الدينية وأعمال العقل الحر.

ومهما يكن لا يمكن أن نجاوز أزمة (في الشعر الجاهلي) دون أن نقف عند سؤال هام يرتبط بطبيعة طه حسين ومدى قدرته على إثارة القضايا، وهو:

هل كان طه حسين يدرك أن كتابه سيثير زوبعة سياسية؟

هذا سؤال هام يجب الإجابة عنه خاصة وأنه كان يضع إمكاناته العلمية في خدمة أفكاره السياسية بوجه دائم.

نعتقد أن طه حسين كان متيقنًا مما يمكن أن يثيره مثل هذا الكتاب من أزمة تهتبلها الخصومة الحزبية وتستفيد بها، وهو ما عمل له طويلاً.

واعتقادنا مبني على الدوافع الآتية:

لم تكن العلاقة بينه وبين سعد، كما رأينا، لتسمح له بإخراج مثل هذا النوع من الدراسات، ومع ذلك، فهو لم يستنكف عن إخراج هذا العمل.

ولقد كان بينه وبين سعد أكثر من موقف سواء منذ اتهم من قبل أحد أعضاء الجمعية التشريعية بالاتحاد وطلب من رئيس قسم الاقتراحات، وكان سعد زغلول، قطع الحكومة معونتها عن الجامعة، ثم هذا الهجوم الذي كان يصعده ضده منذ بداية العشرينيات والذي أشرنا إليه من قبل إلى درجة أنه حقق معه بناء على طلب رئيس الوزراء أثناء وزارته.

وهذا المناخ الخاص والعام لم يكن ليخفى على طه حسين قط، وقد كان يدركه تمام الإدراك، وقد وصفه فيما بعد، أثناء رحيله بعد هذه الأزمة مباشرة إلى فرنسا بقوله:

(كنا يومئذ أشد ما نكون في مصر فرقة وانقسامًا، وكانت الخصومة السياسية عنيفة منكرة، وكانت الحكومة قائمة قد أمرت بالتحقيق مع السياسة وكتابها، وكانت النيابة قد دعتني وسألتني فأبيت أن أجيب واضطررت إلى وقف التحقيق)[١٢٤].

لم تكن الفترة على المستوى الحضاري لتسمح بإثارة مثل هذه القضايا، فالفترة التي أعقبت ثورة ١٩١٩ كانت ثورة ارتفاع المد الغربي الذي سماه أحد أقطاب السلفية حينئذ (موجه الإلحاد والإباحية في مصر)[١٢٥]، فإذا كان

([124]) في الصيف السابق، ص ٣١، ٣٣.

([125]) حسن البنا، مذكرات الداعي والداعية، ص ٥٤.

من رواد هذه الموجة لطفي السيد وهيكل وطه حسين، كان يقف في المعسكر الآخر عدد كبير جدًا من السلفيين من أمثال الشيخ حسن البنا والسيد محب الدين الخطيب، ومحمد خضر حسين، ومحمد أحمد الغمراوي، وأحمد تيمور، وعبد العزيز محمد، ورشيد رضا.. وكثيرين، بل إن عبد العزيز جاويش أستاذه، صاحب التأثير الفكري عليه كان ينتمي لهذا التيار الأخير.

وقد كان طه حسين أكثر من غيره معرفة بهذا المناخ، وما يمكن أن يثيره كتاب مثل كتابه من موجة من العداء والهجوم.

ويؤكد هذا ويؤيده، أن هذه الفترة التاريخية شهدت كثيرًا من الأحداث التي التقت في التيار السلفي، من أهمها، كان إلغاء مصطفى أتاتورك في تركيا الخلافة(١٢٦)، ومن هنا، محاولة الملك فؤاد الإفادة من هذا المناخ، وهو ما سنصل إليه بشكل أعمق فيما بعد.

وعلى هذا، يمكن أن ننظر إلى صدور كتاب (في الشعر الجاهلي) في فترة تاريخية مضطربة، أراد فيها الملك أن يستحوذ على الخلافة، ولهذا، أراد أن يحتفظ بالأشكال التقليدية في السلطة خاصة المسائل الدينية منها وهنا، يمكن أن ننظر إليه من وجهة نظر داخل إطار أوسع في سياق المعركة الكبيرة بين قوتين (السلطة بين الملك الذي أراد أن يحتفظ بالمميزات الملكية العادية التي شغف بها، وبين السلطة التقليدية للسياسيين الغربيين)(١٢٧)، الذين كانوا يدينون بالفكرة الغربية التي تعارض سلطة الملك وأحلامه.

وقد كان هذا قمينًا بأن يدفع الملك إلى خط مضاد لطه حسين وكتابه الجديد، كأحد رموز الفكر الغربي الذي يحاول تحديد الملكية من وجهة نظره.

ومما يؤكد على استحالة صدور كتابه وتيقنه من ذلك، أنه عرف وعاين من وقت طويل تلك الضجة التي ارتفعت بعد إثارة قضية على يد علي عبد الرازق، وشاركت فيها كل الصحف الحزبية والأجنبية، وتصدرت صحيفة (السياسة) خاصة المقالات التي تدافع عن الشيخ علي عبد الرازق، ومراجعة هذه المقالات يؤكد أن عددًا كبيرًا منها كتبه طه حسين وإن لم يوقع عليه صراحة، دفاعًا عن حرية الرأي طورًا، وعن حرية الحزب في

([126]) Middle East Journal (1951) Zidden, J. pp. cent looks on interpretation of Islam , pp. 505- 506.
([127]) Vatikiotes. p. y the modern history of Egypt, 1909, p. 302.

تغيير أحد أعضائه طورًا آخر، وإن كان الشيخ عبد الرازق نفسه ينفي أنه يخدم مصالح حزب سياسي بعينه، لست عضوًا في أي حزب وقد لبثت دائمًا بعيدًا عن المعارك الداخلية وعن كل نشاط سياسي))(١٢٨).

وقد ذكر طه حسين ما جرى لعبد الرازق في مقالة خاصة له في دفاعه عنه أثناء أزمته بما يعني وعيه بما حدث، ووعيه بالصلة الوثيقة التي كانت بين الكتابين (الإسلام وأصول الحكم)، و(في الشعر الجاهلي)(١٢٩)، ومن هنا بالتبعية، لما يمكن أن يحدثه هذا الكتاب الأخير.

ويؤكد هذا أنه حينما صدر كتابه وأثار ما أثاره، يكتب في صحيفة (السياسة الأسبوعية) ضاربًا المثل بما حدث للشيخ علي عبد الرازق بنفسه عندما أصدر كتابه(١٣٠)، وفي مقارنة يظهر صدق هذا الرأي.

وإذن، كانت تجربة الشيخ علي عبد الرازق في وعيه بشكل كامل.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن طه حسين كان يعلم تمامًا مدى ما سيواجهه، من الفئات المحافظة وخاصة من الأزهر حين ينشر كتابه.

وتفسير هذا أن الصلة بينه وبين الأزهر صلة تعود إلى فترة دراسته بالأزهر، ففي الجزء الأول من الأيام، يعايش فترة انتمائه نحو الجامعة في أول نشأتها، وهو لم يزل ينتمي إلى الأزهر، وهو يلخص هذه الفترة بأنها فترة (الصراع بين القديم والجديد)، وهو المعنى الذي يترجمه لنا في أعماله الأخرى متوقفًا كثيرًا عند خلافه مع شيوخ الأزهر إلى درجة أن رسب في (عالمية)(١٣١)، هذا الجامع العتيد.

وهذا المعنى نجده في عديد من أعماله حتى (في الشعر الجاهلي) الذي راح فيه يصور هذا الصراع بين القديم والجديد على أنه صراع بين مذهبين: الأول يدع كل شيء حيث تركه القدماء لا يناله بتغيير ولا تبديل ولا يمسه في جملته وتفصيله إلا مسًا رقيقًا، المذهب الثاني فيقلب العلم القديم رأسًا على عقب، وأكثر إن لم يمح أكثره أن يمحو منه شيئًا

---

(128) أحمد شفيق، السابق ص ٧٥٧، أيضا: السياسة ٨/١٤، ٩/١٨.

(129) توجد مقارنة فريدة للكتابين وأثرهما السياسي في كل من:

Middle East Journal, 1951, p. 506 Oxford university, Ibid, p. 118.

(130) السياسة الأسبوعية ٢٦/٧/١٧، يقول (وما نسي أحد أن قاضيا شرعيا فصل من منصب القضاء وأن وزيرا أقيل من الوزارة في سبيل كتاب لم يرض عنه رجال الدين، وما نسى أحد أن كاتب هذا الفصل قد كاد يلحق به القاضي الشرعي لأنه كتب كتابا لم يرض عنه رجال الدين فأملوا على الحكومة إرادتهم فيه وكانت إرادة قاسية مضحكة).

(131) انظر أكثر من موضع في (الأيام)، ج٢ ص ١٧٢، ج ٣ ص ١١، ج ٣ ص ٢٠.

كثيرًا[١٣٢].

وإذا كان المذهب القديم هنا هو مذهب علماء الأزهر، فإن المذهب الجديد هو مذهب علماء الغرب كما تأثر به هذا الوقت.

وليس من المصادفة في شيء أن يكتب الجزء الأول من (الأيام) عقب رحيله إلى فرنسا مباشرة على أثر الضجة التي أحدثها كتابه (في الشعر الجاهلي)، فقد كانت الأيام ((استجابة للهموم الثقال التي كان يحس بها وقتذاك إبان الاضطهاد الذي وقع عليه من أجل تحرير لفكر باصطناع الشك في الروايات القديمة التي جعلها المحافظون في كل مكان المسلمات والمقدسات والبديهيات))[١٣٣].

لقد كانت آراؤه تثير هذه المدرسة المتدينة داخل الأزهر وخارجه، فبينما هاجمته الفئات المتدينة في الجامعة، فإن هذه الفئات من الكتاب خاصة استطاعت نقل آرائه الأدبية تلك داخل البرلمان كما فعل كاتب مثل مصطفى صادق الرافعي الذي استطاع نقل أثر كتاب (الشعر الجاهلي) إلى الصعيد الرسمي في البرلمان والوزارة مما انتهى الأمر بطه حسين إلى سحب كتابه من السوق وكتابة (توبة) نشرت في الصحف))[١٣٤].

ويمكن أن يضاف إلى الموقف العام موقف الحزب الذي انتمى إليه، فالمعروف أن موقف الأحرار الدستوريين كان دائمًا بالنسبة للأزهر ورجاله موقفًا متشددًا. وهو ما نجده في صحف الحزب ومشاركته في البرلمان من القضايا التي تتعلق بعلاقة الأزهر والملك على سبيل المثال، ففي إحدى الجلسات صاح أحد النواب الدستوريين وهو يشير إلى القصر (لا نريد أن يكون الأزهر تحت إدارة إنسان كائنًا كان)[١٣٥].

([132]) في الشعر الجاهلي (ط ١ ص ١١).

([133]) كانت أزمة (الشعر الجاهلي) عام ٢٦ وقدم أول بلاغ إلى النائب العام ٣٠ مايو ٢٦ بينما نشر الجزء الأول من (الأيام) مسلسلاً اعتبارا من ٢٦/١٢/١ وهو ما يعني أن الشعر الجاهلي يحتوي على هجوم حاد على المحافظين الذين كانوا السبب الرئيس في الهجوم عليه، يقول د.عبد الحميد يونس بأنه (تعبير عن موقف نفسي خاص استتبع بالضرورة تداعي صور الطفولة وبواكير الصبا، فانتزعها من أعماق الذاكرة، وصورها بما يناسب الموقف النفسي، وهو الإكبار من شأن الفكر الإنساني والإلحاح على حريته والاستخفاف -بل الاستعلاء- على المحافظة والسلفية والجمود) وهو ما يصلح للتفسير على أساس اقترانه بأزمة الشعر الجاهلي. (انظر د. عبد الحميد يونس، طه حسين كما يعرفه كتاب عصره، ص ٦٤).

([134]) انظر على سبيل المثال: ج٣ من (حديث الأربعاء)، وهو ما نجد انعكاسا له في (في الصيف).

([135]) جلسة مجلس النواب (٢٦/٨/١٤) ص ٤٤١/ ٤٥٦، أيضا: أحمد زكريا، الأحرار ص ١٩٩.

ثمة دافع آخر يتعلق بالصحافة السياسية.. فهو حين يزعم أنه (سيرضي هذه الطائفة من المستنيرين) كما قال في بداية كتاب (الشعر الجاهلي)، إنما كان يتذرع بالمنهج العلمي ليرضي طموحه وذلك بالاستفادة من الصحافة خاصة السياسة.

وخلال عمله بالصحافة كان واضحًا تمامًا أنه كان حريصًا على الدخول في ثوب الأدب كلما عن له أن يقول شيئًا في السياسة، دائم التردد إلى البحث العلمي كلما عن له أن يعلن عن نفسه ويثير حوله من الضجيج، وهو، ما دفع البعض للقول أن ((صلة طه حسين بالصحافة السياسية إنما كانت بمثابة الاحتماء بمؤسسة تدفع عنه الخطر، وقد دفع عنه حزب الأحرار الدستوريين خطر كتابة الشعر الجاهلي))[١٣٦].

ويمكن تفسير ذلك بأن هناك فرقًا كبيرًا بين الأديب والأديب الذي يتلمس السياسة، فرسالة الأول تنبع من داخله، بينما رسالة الآخر تنبع من خارجه، بمعنى أن التطورات الخارجية للأحداث هي التي كانت تدفع بطه حسين إلى فرض نفسها عليه، وقد فرضت عليه أهم عناصر هذه الأحداث: الصحافة سطوتها فلم يتمكن من السيطرة عليها، فمضى في تيار كل حزب انتمى إليه في هذا الوقت: الوطن، الأمة، الأحرار.. والأكثر من هذا راح يغلو في الانتماء للتعبير عن هذا الانتماء.

ويبدو أن طه حسين في أول حياته الأدبية لم يجد مناصًا من الخضوع لضرورة السياسة منذ علمه جاويش (الكتابة في المجلات)، فإذا صحيفة الهداية ((لم تخل من جدل عنيف دفع إليه الفتى دفعًا))[١٣٧].

وما لبث أن انتقل ولاؤه إلى لطفي السيد حين نشر له أول مقالة في صحيفة سيارة فجعل يكتب في الجريدة رغبة في الكتابة أحيانًا، وتقربًا بها إلى مدير الجريدة أحيانًا أخرى، وجعل مدير الجريدة يرضى عن فضوله ويغريه بالكتابة[١٣٨]، فإذا به يعتنق أفكار لطفي السيد السياسية وينافح عنها طويلاً.

وصفوة القول، أن الصحافة السياسية دفعت به إلى أن يستفيد بها في خدمة أفكاره، ومن هنا، فقد كان يدرك جيدًا أن كتابًا مثل (الشعر الجاهلي) لابد وأن يثير موجة سيمتد أثرها إلى بعيد، وحين تنحسر تكون قد تركت خلفها تاجًا ناصعًا فوق رأسه، ومن ذلك، يمكن القول باطمئنان شديد، أنه،

([136]) أنور الجندي، طه حسين في ميزان الإسلام.
([137]) الأيام ج ٣ ص ٢٤.
([138]) الأيام، السابق ص ١٩.

كان يحتمي دائمًا بمؤسسة جامعية حين يواجه السياسيين، وهو في هذا لا يهتم بحقيقة هامة هي أنه ما دام قد خلع رداء الجامعة فإنه أصبح سياسيًا يجري عليه ما يجري على السياسيين الآخرين.

واستكمالاً لعلاقاته الحزبية في أحزاب الأقلية، فإن ثمة موقفًا من حزب آخر- حزب الاتحاد- لابد أن نقف عنده قبل أن نقف عند فترة تحوله الحزبي، ففي العام الذي قدمه فيه سعد زغلول إلى المحكمة في القضية المتعلقة بإهانة رئيس الوزراء، كانت الأحداث تتنامى بين سعد زغلول والملك فؤاد مما يشير إلى أن القطيعة في طريقها إلى الاستفحال(١٣٩).

وإذن، لقد كانت هناك أسباب عديدة دفعت بطه حسين إلى التورط في الانضمام لحزب الاتحاد، منها، أنه وقع فريسة دعوة الملك إلى حزبه من أن الولاء للاتحاد يعني في الوقت نفسه الولاء للملك، والذي يعني بشكل ما، التصدي لطغيان سعد زغلول وديكتاتوريته، وقد كان هذا من أول أهداف الأحرار(١٤٠).

إن محمد علي علوبة على سبيل المثال، وهو أحد الوطنيين ينتمي إلى الحزب الجديد لسبب واضح يبرره في كتاباته من أنه كان ((لمنع طغيان

---

(139) .. في ١٥ نوفمبر، تمت القطيعة ويبدأ الملك في هذا الوقت في تكوين جبهة مناهضة للوفد، فقرب إلى القصر عددا من كبار شخصيات أحزاب الأحرار والوطني، كما أنشأ القصر من خلال حسن نشأت رئيس الديوان الملكي بالنيابة حزب الاتحاد في يناير من عام ١٩٢٥ (وبذلك أصبح الملك وحزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطني، وحزب الاتحاد في جبهة معارضة للوفد ولسعد زغلول).

وقد دفع الملك لاتخاذ هذه الخطوة أن كان الإنجليز يؤيدونه ليستطيع مواجهة سعد والتدخل في الحكم من آن لآخر.

وتتفاوت الآراء حول تكوين هذا الحزب (الاتحاد)، غير أنها تتفق جميعا على أن الحزب وليد إرادة السراي، وقد جعل مسوغًا لتأسيسه وسيلة لرعايته ((الولاء للعرش))، ويروي محمد حسين هيكل أنه حين ذهب إلى حسن نشأت ليستفسر منه عن نشأة الحزب أجابه أن الغرض منه هو إحداث موازنة ((في البرلمان يستطيع القصر به أن يغاب أحد الحزبين على الآخر - الأحرار والوفد- فيما يرى فيه مصلحة البلاد من غير حاجة إلى حل مجلس النواب بإجراء انتخابات جديدة)).

انظر: حسن يوسف، القصر ودوره في السياسة المصرية ص ١٨٢، أيضا:

Marlow J., Anglo - Egyptian relations, p. 273.

أيضا: عبد الرحمن الرافعي، أعقاب الثورة ج٣ ص ٢١٣- ٢١٥.

أيضا: مذكرات، ص ١٨٨، أحمد شفيق، السابق ص ٥، ٢٨، ٢٩.

(140) عثرنا ضمن محافظ عابدين، ملف (حزب الاتحاد) رقم ٢١٨ على تلغرافين عن دفع تأمين للحزب أحدهما بتوقيعه (طه)، وثانيهما بتوقيع (حسين)، ولا نعرف بالتأكيد ما العلاقة، إذا كانت ثمة علاقة، بين دفع تأمين حزب الاتحاد واسم طه حسين.

سعد؛ ذلك الطغيان الذي أثر في إدارة الحكم وبسبب انحراف سير الحركة الوطنية..(و) اتفقنا مع الاتحاد والمستقلين مؤملين أن نحيط بالملك فؤاد ونزين له السير في الطريق السوي))[١٤١].

ومما سبق ذكره، فإن هدف الملك لإنشاء حزبه انطلى على كثير من السياسيين، إذ يستنتج من رأي علوبة وسواه أن انضمامه هو وغيره من أعضاء الأحرار أو غير الأحرار كان نكاية في سعد أولاً، وتقربًا من الملك ثانيًا.

ولم يكن غريبًا أن يحظى هذا الحزب في أول نشأته بكل هذا التشجيع في وقت كان فيه زعماء الأحرار الدستوريين راضين عنه تمامًا وكذلك عدد من رجال الوفد على الانضمام له بل كانوا من (أول المنضمين)[١٤٢].

وقد قرب طه حسين من الاتحاد، وجعل دخوله إليه أو تأييده له ميسورًا أن الحزب نفسه الذي راح يصرخ بأن ((غايته هي (الولاء للعرش) متهمًا الوفد وقادته بتهمة عدم الولاء والاحترام لمليك البلاد))، وهي سياسة ذكية من الوفد دفعت كل الأحزاب الأخرى إلى التسابق إلى إعلان ولائها للملك[١٤٣].

إذن، تأييد الملك الذي كان يعني في الوقت نفسه، كراهية سعد.. كان السبيل الأول، أما ثاني الأسباب التي دفعت بطه حسين إلى التورط في الانتماء لحزب (الاتحاد) ما شهده من تأييد حزب الأحرار الدستوريين له تأييدًا مطلقًا.

وتفصيل ذلك أن السياسة راحت تنقل قول صحيفة (التايمز) حينئذ بأنه لا فرق بين الاتحاد والأحرار إلا من حيث الأشخاص، فإذا نجح أعضاء حزب الاتحاد في الانتخابات، فإن الحزبين سيتحدان معًا.. والأكثر من هذا أن عبد العزيز فهمي أحد أعضاء الأحرار البارزين قبل العضوية الشرفية التي عرضها عليه حزب الاتحاد وأعلن أن وجود حزب الاتحاد لا يمس مطلقًا الحزب الدستوري، فإن ((مبادئه معقولة ونحن ـ الدستوريين ـ نسلم بها وهي واردة صراحة وضمنا في برامجنا.. ولا شك أن الفريقين يمتزجان

---

(141) علوبة، ذكريات ص ٣٦٤.

(142) يونان لبيب، تاريخ الوزارات، ص ٢٨٤.

(143) عبد الخالق لاشين، سعد زغلول، ج ٢ ص ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، أيضا: الأهرام ٦- ١، ٧- ١- ٢٥- ٢٦- ٣- ١٩٢٥، والسياسة ٨- ١- ١٩٢٥، أيضا: كوكب الشرق ٢-١، ٦-١، ٩-١، ٢٤- ١، ٢٣-٢- ١٩٢٥، أيضا: أحمد شفيق، السابق، ص ٢-٦.
أيضا: السياسة ١٥-٢-١٩٢٥.

عاجلاً أو آجلاً)).

ويمكن أن يضاف إلى جانب أن هيكل أحد أعضاء الأحرار البارزين هو صاحب القول أن ((من زعماء الأحرار الدستوريين من ينصحون بعض رجالهم بالانضمام لهذا الحزب الجديد))[١٤٤].

ومما سبق ذكره، يبدو تمامًا أن المناخ العام السياسي في هذا الوقت لم يكن ليتخذ موقفًا معاديًا للحزب الجديد، فقد كان لتأثير الملك وللجهود الكبيرة التي بذلها بواسطة رجاله أثر كبير في توطيد أركان الحزب الجديد.

وعلى الجانب الآخر، فقد شهد طه حسين أن الكثيرين من رجال الوفد يتخلون عنه ويعلنون استقالاتهم من الهيئة الوفدية بحجة أن الوفد ((غير موال للعرش))، وإن كان السبب الحقيقي غير ذلك[١٤٥].

وإذن، فثمة تشابه كبير بين موقف طه حسين وموقف حزب الأحرار الذي انتمى إليه، إذ تورط هذا الحزب منذ البداية لإرضاء الملك، معتمدًا على أنه بهذا يمكن أن يكسب الانتخابات الجديدة التي كان ينتظر نتائجها غير أنه ما لبث أن أدرك، بعد فوات الأوان، أن الملك أراد بحزبه الجديد الوقوف موقفًا وسطًا بين هذا الحزب وحزب الوفد وإن سمح له بالاشتراك في وزارة زيور الجديدة بشكل مؤقت.

صفوة القول أن طه حسين انتمى إلى حزب الاتحاد بدوافع عديدة منها أن خط حزب الأحرار كان يسير في اتجاه تأييد الحزب الجديد، كما كان يحرص على رضاء الملك الذي تبنى الحزب وربما كان الإغراء المادي الذي رأى أنه سيحصل عليه من الانضمام لصحيفة حزب جديد سببًا ثالثًا [١٤٦] دافعًا به إلى الانضمام إليه، وأخيرًا ما خيل إليه أنه سيتمكن بهذا الموقف الجديد من تدعيم موقفه ضد طغيان سعد زغلول، وإن كان التحليل الأخير يؤكد على أن طه حسين كان في هذا الانضمام انتهازيًا استطاع بذكاء كبير أن يعرف متى ينضم إلى هذا الحزب، ومتى يتراجع عنه.

وعلى هذا النحو، تحددت مهمة طه حسين داخل صحيفة حزب الاتحاد، أول الأمر، في أن راح يهاجم سعد زغلول والوفديين على صفحة

([144]) محمد حسين هيكل، مذكرات ص ١٨٨.

([145]) انظر مظاهر الاستقالات والاحتجاجات في الأخبار ١-١، ٣-١، ٤-١، ٥-١، ٧-١، ٨-١، ١٠-١ ، ١١-١، ١٣-١، ١٤-١، ١٧-١، ١٨-١، ٢١-١، ٢٤-١، ٢٥-١، ٢٦-١، ٢٨-٢-١٩٢٥، أيضا: المقطم ١٥- ١- ٢٥، أحمد شفيق، المصدر السابق ص ٧، أيضا: مذكرات سعد، كراس ٥١، ص ٢٨٩٣، ٢٨٩٤.

([146]) السياسة ٢٣- ٥- ٤٥.

الصحيفة إما بتوقيعه[١٤٧] وبعناوين مثيرة (ضعاف بغاة..) وإما بعديد من مقالاته التي تحمل روحه العنيفة وهجومه الحاد على زغلول بدون توقيع مما يتأكد معها الهدف الذي أراده حين انتمى إلى الحرب (فكرًا) لا (تنظيميًا)، وإما بعديد من القصص التمثيلية المترجمة عن الفرنسية لتعزيز كتاباته الصحفية كما كان يفعل دائمًا، ممهورة باسمه[١٤٨]، مما يقطع بأن ثمة علاقة أكيدة كانت بينه وبين صحيفة هذا الحزب.

ويمكن أن نجد تشابهًا كبيرًا بين موقف حزب الأحرار، وموقف طه حسين عن التطور الذي تم، فكما أفاق حزب الأحرار الدستوريين على نوايا الملك حين فرغ من التعاون مع حزب الأحرار لتحقيق هدفه للهجوم على سعد، وبدأ العمل مع حسن نشأت لطرد وزراء الأحرار من الوزارة وجعل الوزارة القائمة اتحادية بأكملها، فدبر مؤامرة أطاحت برئيسه عبد العزيز فهمي فدفع الأحرار ثمن تعاونهم مع الملك.. كذلك، فإن طه حسين أفاق هو الآخر ليجد نفسه متورطًا في حزب الاتحاد، وما لبث أن تحول عنه ثانيًا إلى حزب الأحرار وجريدته (السياسة)، وقد دفع الثمن غاليًا من برود الأحرار من الثواب في تأييده أثناء أزمة (الشعر الجاهلي)، ويبدو أن إحساس طه حسين بقدر هذا التورط هو الذي جعله يهاجم حزب الاتحاد وحتى بعد فترة طويلة جدًا من الانسحاب منه[١٤٩].

وسوف يكون علينا في هذا الوقت وحتى فترة تحوله إلى حزب الأغلبية (الوفد) البحث عن المؤثرات الجوهرية التي دفعت به إلى هذا التحول.

وعلى المستوى الخاص، فإن طه حسين لم يشارك كثيرًا في الفترة التي سبقت الثلاثينيات في السياسة المصرية، وإذ خمدت ضجة الشعر الجاهلي وحفظ التحقيق فقد حرصت القوى السياسية حينئذ على ألا تهدم الائتلاف القائم بين الأحرار والوفد، ولم يمض وقت طويل حتى عاد طه حسين إلى الجامعة مرة أخرى في عهد وزارة محمد محمود ١٩٢٨.

---

(147) يوجد العديد من الألفاظ الحادة النابية التي وجهها طه حسين لسعد زغلول على صفحات (الاتحاد) لسان حال الاتحاد، انظر الاتحاد ١١ يناير ١٩٢٥، أيضا: أنور الجندي، طه حسين في ميزان الإسلام، السابق ص ١١٠.

(148) الاتحاد ٢٥/٣/١٨.

(149) الوادي ١٢- ١٠، ١٥- ١٠- ٣٤ حيث هاجم صحيفة الاتحاد وزكي الإبراشي ممثل القصر.

وقد اختير عميدًا لكلية الآداب مرتين، إحداهما، عام ٢٨[١٥٠]، ولم يلبث في المنصب غير يوم واحد لظروف السياسة حينئذ ليقدم استقالته مضطرًا، وثانيتهما، اختارته الكلية عميدًا لها بالإجماع في عام ١٩٣٠ أي في بداية عهد وزارة إسماعيل صدقي ليحدث أكثر من تحول في حياته في الجانب السياسي من حزب إلى حزب أو في الجانب الفكري من اتجاه إلى اتجاه.

وهنا يختلط المستوى الخاص والعام في هذا التحول ودرجته.

لم تكد تسلمه السياسة إلى الجامعة حتى واجه عنت إسماعيل صدقي وطغيانه، فتعيده الجامعة إلى السياسة ثانية فيفصل ويعمل طويلاً، بمفرده، للهجوم على صدقي الذي نقله من الجامعة إلى وزارة المعارف بقرار وزاري[١٥١]، فنفذ النقل ولكنه رفض العمل فحدثت ضجة في الصحافة وفي الجامعة على السواء، مما دفع بإسماعيل صدقي إلى فصله من الجامعة ومحاربته في كل مكان يعمل به.

وقد استغلت الفرصة أحزاب المعارضة لتثير الرأي العام ضد الحكومة، فما كادت وزارة إسماعيل صدقي تسقط في ديسمبر ٣١ حتى بدأت الصحف تلمح إلى عودته للجامعة من جديد حتى إذا ما جاءت وزارة نسيم أصدر مجلس الوزراء قرارًا وزاريًا بإعادته أستاذًا في كلية الآداب، أنه حين أعيد كانت فترة هامة من حياته توشك أن تطوى لتبدأ فترة أخرى.

وعلى أية حال، فإن الفترة من بداية الثلاثينيات تثير تساؤلات هامة جدًا في حياة طه حسين لعل من أهمها:

ما أهم المؤثرات التي أدت إلى خروجه من الجامعة؟

ولماذا رفض العمل لصحيفة الشعب بناء على رغبة صدقي؟

وما أهم البواعث وراء تحوله من حزب الأقلية إلى حزب الأغلبية؟

لقد كانت الفترة بين تاريخ الفصل - مارس ٣٢- وتاريخ العودة - ديسمبر ٣٤- أهم الفترات في حياة طه حسين قاطبة، فبينما قبض صدقي على زمام الحكم عانى طه حسين كثيرًا من رئيس الوزراء الذي عصفت وزارته بكل القيم الدستورية.

تتعدد المؤثرات الأولى التي كانت وراء إخراج طه حسين من الجامعة أو فصله، ومن هنا، اتخاذ موقف حاد من رئيس الوزراء، يرى البعض أنه طلب من طه حسين منح درجة الدكتوراه الفخرية من كلية الآداب، وقد كان

---

(150) دار المحفوظات، السابق، ملف طه حسين، انظر قرار وزير المعارف ٣- ١- ٢٨.

(151) السابق، قرار رقم ٣٧٦٢ في ٣- ٢- ٢٢.

حينئذ عميدًا لها، إلى بعض السياسيين، غير أن طه حسين رفض أن يجيب ((طلب الحكومة حفاظًا على كرامة العلم والدكتوراة))[١٥٢].

بينما تؤكد الوثائق البريطانية إلى أن السبب الحقيقي يعود إلى اعتراضه على خطاب وزير المعارف، إلى ((الملك فؤاد عند زيارته للجامعة لتوزيع تلك الشهادات الجامعية على أصحابها مما أحدث حرجًا لوزير المعارف وجعله يحس بصعوبة التعامل معه))[١٥٣].

ويرى البعض الآخر أن سبب الخلاف كان لاتهام طه حسين بأنه أغرى طلاب معهد التربية بالإضراب أو حثهم عليه بسبب تعديل فترة الدراسة به من سنتين إلى سنة[١٥٤].

وربما لأن رغبة قدمت إلى مجلس الجامعة بشأن خريجي كليتي العلوم والآداب الذين لا عمل لهم، أو، لأنه لا يجامل بعض الجنسيات في الجامعة دون البعض الآخر، أو للظن بأنه ألغى عقد مدرس فرنسي[155].

كما يعزو البعض السبب في أن طه حسين، رفض التعاون مع وزارة صدقي منطلقًا من رفضه لهذه الرجعية الفكرية الواضحة التي كانت تتميز بها هذه الحكومة إذ كانت قد أغلقت معهد التمثيل والرقص التوقيعي وحاربت الاختلاط بين الشباب والفتيات في الجامعة كحرب قاسية شعواء، أثارت العديد من المعارك والحروب ضد حرية الفكر وضد التجديد[156].

كما ترصد بعض المصادر سببًا آخر يعود إلى ديكتاتورية صدقي إذ هاجم طه الاعتداء على الدستور واستبداله بآخر، وكذلك لرغبة إسماعيل صدقي حينئذ مدفوعًا من الملك فؤاد من الانتقام من طه حسين لموقفه المعادي للقصر[157]، وإن كان الاعتداء على الدستور بإسناد الحكم إلى أحزاب الأغلبية عام ١٩٢٤ كان أكثر بشاعة من اعتداء صدقي له كما أسلفنا.

على أن السبب الرئيس، السياسي، في اعتقادنا، لنقل طه حسين توطئة لفصله، يعود، إلى رفض طه حسين لرغبة رئيس الحكومة في المشاركة في تحرير صحيفة حزب الشعب الذي رأس أعضاءه[158].

([152]) السياسة ٣٠/٣/١٨، أيضا ٣٤/٢/٦ مرافعة محمد علي علوبة.

([153]) Public Record office: FO. 407/ 214 Sir Percy Coraine to sir simon: March. 3, 1932.

([154]) السياسة ٣٢/٣/١٨.

([155]) السابق.

([156]) الهلال ٦١/٢.

([157]) سامح كريم، معارك طه حسين الأدبية والفكرية، ص ٤٧، مختار التهامي، السابق ص ١٥٢.

([158]) السياسة ٣٤/٦/٦، أيضا: انظر حيثيات الحكم في قضية طه حسين من (مرافعات محمد ==

وهو ما يجب أن نتوقف عنده أكثر.

إن مرافعة محمد علي علوبة في القضية التي رفعها موكله ـ طه حسين- على الحكومة المصرية تؤيد هذا الرأي وتزكيه، إذ تبدأ محاولات استقطابه للكتابة في صحيفة حزب الحكومة الوليد (الشعب) يوم اعتماده عميدًا للآداب، فيعرض عليه الاستقالة من الجامعة ورئاسة صحيفة الشعب وتوفير الأجر الذي يطلب.

وتتوالى محاولات صدقي التي لا تتوقف لحظة بواسطة أطراف عديدة دون جدوى لكي يكتب طه حسين مقالة افتتاحية على أن يكون موضوعها كما حدده صدقي: إن وجود حزب الشعب ضروري لتحقيق المصالح المصرية.

يرفض طه حسين، ويعود من يعرض عليه أن يكتب (بدون إمضاء) فيرفض، ثانية، لأنه، على حد قول محاميه (لا يعرف المقالات المستترة) ولما فشل صدقي، لم يكن أمامه غير أن يحاول إثارة قضية (الشعر الجاهلي) بواسطة رجاله في مجلس النواب[159] قبل أن يتخذ إجراءات أشد بأن يعمل على نقله إلى وزارة المعارف بقرار، ثم يلحقه بقرار آخر يقضي بفصله من وزارة المعارف أيضًا.

وإذا كانت المؤثرات العامة فيما مضى دفعت به إلى أن يأخذ موقف الصدام مع سعد زغلول، فإن المؤثرات العامة في هذه المرة الأخيرة لم تكن كافية لتدفع به إلى تحديد موقف عنيف من رئيس حزب الحكومة –صدقي- فعلى الرغم من أن حزب الأحرار الدستوريين تحين الفرصة طويلاً لإعلان موقفه العدائي الصريح من وزارة صدقي وما لبث أن سحب تأييده للوزارة وإصدار قراره في أكتوبر عام ١٩٣٠، أو حتى استقبال حزب صدقي الجديد بالدهشة وتشبيهه بحزب الاتحاد قبل ذلك إلى غيره من أوجه الخلاف بين الأحرار وصدقي[160]... على الرغم من هذا كله، فقد كان موقف طه حسين هنا لا يرتبط بحزب الأحرار.

ويمكن أن نلاحظ أن طه حسين كان يبتعد في هذا الوقت عن حزبه القديم في الوقت الذي كان فيه يغير قناعاته الفكرية بشكل عام.

وإذا كان طه حسين قد دفع ثمنًا غاليًا لرفضه الانضمام إلى حزب صدقي في (الشعب) ممثلاً في كتابته في صحيفته، فقد يكون من المناسب التعرف على الدافع الحقيقي لهذا.

كانت الأسباب التي قيلت في القطيعة التي تمت بين طه حسين وصدقي كثيرة، بعضها يعود كما أسلفنا، لرفض الأول منح الدكتوراة الفخرية للسياسيين، وبعضها الآخر يعود إلى تحريضه لبعض الطلاب، غير أن السبب الحقيقي، كما صوره، يظل لاختلافهما حول صحيفة الحزب، ففي الوقت الذي تأكد فيه صدقي أن تحرير طه حسين في صحيفته من شأنه تقوية نفوذها، رأى طه حسين ألا يزج بنفسه في صحيفة

علي علوبة).

([159]) مجلس النواب ٣٣/٣/١٦ جلسة ٢٢ ص ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٣، أيضا: سامي الكيالي، السابق، ص ٦٧/ ٦٨.

([160]) أحمد زكريا، السابق، حزب الأحرار، ص ٢٩٠/ ٢٩٢.

لا تنتمي لحزب يستند إلى إرادة حرة، بل كانت تستند إلى سلطة الحكومة ومساندة القصر أيضًا.

وقد اصطدمت الإرادتان بعنف شديد، يطلب صدقي في أول الأمر، ثم ((يلح ويريد حتمًا فيعتذر طه بأسلوب هادئ طورًا، ويلجأ إلى مدير الجامعة -لطفي السيد- طورًا آخر- ويلين صدقي قليلاً فيطلب مقالة افتتاحية بدون توقيع، ويرد طه بأنه لا يعرف المقالات المستترة.

وعلى هذا النحو، كان لابد أن يصل غضب صدقي إلى ذروته، فإذا أمره بنقل طه حسين يظهر في المقطم في ٥ مارس ٣٢ فجأة، أي، في نفس اليوم الذي حدد لتسليم أعماله فيه.

ويبدو أن رفض طه حسين كان رفضًا ذاتيًا، لم يرتبط بموقف حزب بعينه وإنما يرتبط بوعي شخصي، فرفضه يعود إلى اقتناع في رأي وخلاف في النزعة[161]، فعلى الرغم من أن تقارير البوليس السري حينئذ أشارت إلى أن ((طه حسين أصلح العناصر التي يمكن أن تتولى رئاسة الشعب فهو من الأحرار وكان يكتب في الجريدة من قبل وهو صديق لعدد كبير من الأحرار))[162]، وما أعقبه من محاولات صدقي معه، وراحت تعزو موقفه إلى حزب الأحرار في المقام الأول.. فإن رفضه عاد في الواقع إلى اقتناعه الداخلي بألا يتورط مع حزب مهزوز الهوية والمستقبل.

ويفسر هذا ويؤكده أن حزب الأحرار كان في نهاية عام ١٩٣٠ متأهبًا ليسحب اعترافه بوزارة صدقي، كما أنه في ٢٢ مارس عام ٢١ عقد ائتلافًا بين الوفد والأحرار سمى عهد الله والوطن ((اتفق فيه الحزبان على إعادة النظام الدستوري لتتولى الأغلبية الحكم))[163]، غير أن هذا لم يكن ليترك أثرًا كبيرًا في طه حسين الذي أراد أن يستعيد تجربته السابقة مع حزب الاتحاد فرفض الاشتراك في حزب يرأسه صدقي حاول على شاكلة حزب الاتحاد الذي اندمج فيه في النهاية ليكون مظهرًا خارجيًا لقد كانت مهمته الوحيدة مساندة الحكومة في حكمها، ولم يكن له أتباع حقيقيون -مجرد تأييد وهمي من أعضاء مأجورين وأناس لهم مصالح معينة في حكم صدقي[164].

إلى جانب أن تأثير الأحرار لدى طه حسين لدخول هذا الحزب كبير، إذ كان أعضاؤه قد بدءوا ينفضون حول صدقي، كذلك لم يكن تأثير الوفد كبيرًا، ومن هنا، فإنه يمكن الجزم بأن رفضه للانضمام إليه لم يأت بإيعاز من الوفد.

ومهما يكن، فإن صدقي، أعقب محاولة نقله وفصله بأن دفع بعض النواب التابعين له في مجلس النواب إلى إثارة قضية الشعر الجاهلي من جديد، وبدأت

([161]) سامي الكيالي، السابق، ص ٦٧.

([162]) جمال سليم البوليس السري يحكم مصر، ص ٨٣.

([163]) أحمد زكريا، الأحرار، ص ٢٩٠.

([164]) عفاف لطفي، السابق، ص ٢١٧.

محاولة تأليب الرأي العام ضده[165]، في وقت كان طه حسين يعاين فيه رياح التحول التي انتهت بشراعه إلى شاطئ الوفد.

ويمكن أن نجد انعكاسًا لموقف طه حسين السياسي من صدقي ووزارته حينئذ في الصحف، فقد كانت هي الأداة الوحيدة التي حاول بها تكريس جهده ووقته بين عامي ٣١/ ٣٤ لهذا الهجوم، ولم يكن على صدقي أن يتريث قليلاً كسلفه -سعد- قبل أن يحاكم طه حسين لقد بدأت المعركة حامية بينهما، حين فصل طه حسين هاجم خصمه فأدلى بأحاديث عنيفة، حديثين، في يومين متتاليين في جريدتي الجهاد والأهرام.

لم يكد ينشر الحديثين حتى فتح محضر التحقيق مع دكتور الجامعة المفصول، يستدعي مرات كثيرة ليدلي بأقواله، فيما نسب إليه، يحضر مرة ويرفض مرات.

فماذا جاء في أحاديث طه حسين؟ وماذا دار في التحقيق؟

في حديثين متتاليين (١٨/ ١٩ مارس) رد الدكتور المفصول على كلام وزير المعارف بمجلس النواب متهمًا إياه بعديد من الاتهامات كتحريضه على الأحزاب، واتهامه بالاتصال ببعض الهيئات الأجنبية، فراح طه حسين، بدون حذر، يهاجم وزير المعارف في وزارة صدقي بعنف شديد بلغ درجة بعيدة من الغضب والمرارة الشديدين[١٦٦].

ويستدعي طه حسين للتحقيق فلم يزد على أن يقول عبارة واحدة لا يعود بعدها للتحقيق رغم الإلحاح الشديد لحضوره: ((لست أرى أن لوزارة المعارف أن تحقق معي في أي شيء، وإنما الشرط لكل تحقيق أقبله راضيًا هو أن أعود أستاذًا في الجامعة وأن يحقق معي على هذا النحو وبهذه الصفة وإن الهيئات التي تملك سؤال الأساتذة والتحقيق معهم))[١٦٧].

ويذكرنا التحقيق بعبارة رددها أثناء وزارة سعد، فقد أرسل كثيرًا إليه للحضور للتحقيق، فلم يذهب، ولم يغير عبارته التي لا يتخلى عنها قط ((لن أجيب على شيء)) وقد ضرب بكل محاولات عودته، لإدانته في التحقيق

---

(165) جلسات ٣٠/٥/٥، ٣١/٣/٧، ٣٢/٣/٢٨.

(166) كنت أريد لوزير المعارف أن يسمو بنفسه عن المنزلة الخلقية التي تليق بمن كان قاضيا مع أن قواعد اللياقة الأولية كانت تقتضي أن يسألنا، ولست أخفي عليك أني تلقيت تصريحات الوزير بقهقهة عالية، أنا لم أقبل ما عرضه الوزير، كنت أحب أن يرتفع السائل والمسئول عن هذه الصغائر، وليس يسوؤني أن يغضب حلمي باشا إذا رضي ليتمان أرسنوك، وليصدقني حلمي باشا أن أعوانه ليسرفون في غشه وتضليله، وأنت تستطيع أن تلتزم للوزير ما شئت من المعاذير عن هذا الكذب - (الجهاد ١٨، ٣٢/٣/١٩).

(167) دار المحفوظات، ملف طه حسين، السابق.

خارج الجامعة، عرض الحائط.

وقد كانت آخر محاولة معه حين أرسلت إليه الأسئلة كتابة، فلم يزد على أن يكتب للجنة التحقيق قائلاً: ((أنا مستعد للمناقشة أمام الهيئة الجامعية المختصة لأني أعتقد كما أبلغتكم غير مرة مشافهة وكتابة أن تصرف الوزير معي كان خطأ))، وهو ما يفهم منه رفض الأسئلة التي كانت ترسل إليه، هي أسئلة كان يضعها وزير المعارف بنفسه للجنة التحقيق لعرضها على طه حسين ليجيب عنها))[١٦٨].

ويلاحظ أن اللهجة التي تحدث بها إلى وزير صدقي سواء على صفحات الصحف أو في محاضر التحقيق كانت نفس اللهجة التي ظل يرددها قرابة ثلاث سنوات حين تصدى للهجوم على رئيس الوزراء مباشرة.

ويتتالى هجوم طه على صدقي، فيهاجمه في أكثر من مناسبة، يهاجمه حين ((ألف دستورًا وأقام دستورًا وأعرض عن كثرة ومال إلى قلة، وأعمل أمة، واعتزم بأجنبي))[١٦٩].

يهاجمه في الفضيحة التي تعكس قضية تعذيب المتهمين تعذيبًا غير أخلاقي[١٧٠].

كما يهاجمه في قضية بناء خزان جبل الأولياء الذي كلف مصر كثيرًا بدون مبرر[١٧١]، وأيضًا يتحدث عن اصطدام مصطفى النحاس بالشرطة منددًا بسوء الإدارة[١٧٢]، وهو يسخر كثيرًا من الموقف المتعاون مع الإنجليز[١٧٣]، ويغضب من إعلان الحكومة لتأكيد نيتها للإشراف على الجامعة[١٧٤]، ويظل يدعو صدقي بإلحاح شديد أثناء مرضه ليستقيل[١٧٥]، وهو لا يتورع فوق هذا من أن يهاجم الائتلاف الحادث: ((فلا تقل إذًا أن في مصر الآن وزارة ائتلافية، لأن مثل هذه الوزارة لا تقوم إلا إذا وجد حزبان أو أحزاب تستطيع أن تأتلف وتستطيع أن تختلف وتستطيع أن تسير سياسة

([168]) السابق، محضر ٣٢/٣/٢٧.

([169]) السياسة ٣٢/٧/٨.

([170]) كوكب الشرق، ٣٣/٤/٣٠.

أيضا: انظر يونان لبيب، تاريخ الوزارات، ص ٣٦١.

([171]) كوكب الشرق، ٣٣/٣/٢١، ٣٣/٣/٣٠.

([172]) السابق، ٣٣/٣/٢٣.

([173]) السابق، ٣٣/٤/٣، وأيضا: ٣٣/٣/١٩.

([174]) السابق، ٣٣/٤/٢١.

([175]) السابق، ٣٣/٤/١٢، أيضا: ٣٣/٤/١٩.

الدولة، وتستطيع أن تنزل رئيس الوزراء على حكمها، لا أن تنزل هي على حكم رئيس الوزراء))(١٧٦).

وكما يهاجم هذا الائتلاف، كذلك لا يتورع عن الهجوم على الحزبين الهزيلين (الاتحاد والشعب) في كل فرصة، فتلك الجماعات التي تؤلف الحزبين ((إنما هي جماعات تتألف من أفراد لهم مآرب ومنافع يتحقق بعضها من تولي مناصب الحكم، ويتحقق بعضها الآخر من الاتصال بالذين يتولون مناصب الحكم، فكل امرئ سمحت له الظروف أن يشرف على تدبير الأمور في مصر، ووجد من الإنجليز رضا وتأييدًا، وإهمالاً وإغضاء فهو قادر على أن يؤلف هذه الجماعات))(١٧٧).

وتتميز لهجة الهجوم بالسخرية الممضاة من رئيس الوزراء، أنه على سبيل المثال، حين يرحل صدقي إلى روما في إحدى سياحاته، وكان قد تنازل وهو ممثل مصر لإيطاليا عن بعض المناطق الصحراوية المصرية، يكتب في الهجوم عليه مقالة طويلة يأتي فيها: ((لن تجني مصر من رحلة رئيس الوزراء الأخيرة، لئن فاتته مفاوضة الإنجليز، فسيفاوض الإيطاليين، أهدى إليهم جغبوب أمس لأنها لم تكن مصرية قط وسيهدي إليه الإيطاليون أريتريا غدًا لأنها لم تكن إيطالية قط))(١٧٨).

وفي منتصف عام ٣٢ كان يودع هيكل وهو يسافر إلى لبنان، فدعا في مقاله رئيس الوزراء بأسلوب لاذع جدًا، أن يستقيل قال: ((إنما يستقيل رئيس الوزراء يوم يكره على الاستقالة إكراهًا.. (و) .. الوزراء إنما يطالبون بالاستقالة إذا كانوا قد نهضوا بالحكم وسيلة من وسائل الحياة العامة لا غاية تطلب لنفسها))(١٧٩).

ولا يكاد يمضي عام ٣٢ حتى تزيد لهجة السخرية وتتضاعف في مواجهة رئيس الوزراء، إن أول كتاباته في كوكب الشرق يتحدث عن المناخ الذي تعيش فيه البلاد في ظل ديكتاتورية صدقي إنه يقول على سبيل المثال: ((الأيام التي قصت فيها الأجنحة، وشدت فيها الألسنة فلا تقول إلا بحساب، وعطلت فيها الأقلام فلا تجري إلا بمقدار، وضيق فيها على الناس فهم مضطرون إلى أن يقولوا ويكتبوا، وإلى أن يفدوا فيطلبوا التقدير قبل أن ينظروا لأمر من الأمور.. (و) .. كل شيء ضيق حولنا فقد استكشفت

---

(176) السابق ٣/١٩، ٣٣/٣/٢١.
(177) السابق ٣/١٩، ٢٣/٤/٣.
(178) السياسة ٣٢/٧/٤.
(179) السياسة ٣٢/٦/٢٨.

الوزارة منذ نهضت بالحكم أو منذ همت أن تنهض بالحكم، إن الدستور أوسع مما ينبغي فضيقته وبالغت في تضييقه.. لم تكد تعلن إلينا هذا التضييق وتأخذنا بتصغير عقولنا وتصغير ألسنتنا والكبح في أحلامنا والحجر على آمالنا لتلائم حياتنا بالدستور الجديد حتى استكشفت أن هذا الدستور الجديد هو نفسه يكفل لنا حريات أكثر مما ينبغي وإذا هي تضيق هذه الحريات بألوان التشريع مرة وبسلطانها الإداري مرة أخرى))[١٨٠].

والفترة الأخيرة من وزارة صدقي تشهد وصول طه حسين إلى قمة الغضب، فهو لا يكف عن التطرق إلى كل ظاهرة في هذا العصر، وهو لا يكف عن مهاجمة كل مسئول في هذه الحكومة، التي تدين إلى (الطاغية) في كل شيء، إن تلك الحكومة سعت إلى ((تضييق التعليم ومراقبته والسيطرة المحرجة عليه في جميع فروعه وألوانه))[١٨١]. وهي ترتكب كل جريرة في حق الحرية، فهذا هو صحفي يسجن ويعذب طويلاً لأنه جرؤ على أن يقول كلمته[١٨٢]، وهاهو صدقي نفسه تحالف مع أعداء البلاد -الإنجليز- ليحكم ((بأمرهم)) في مصر وعلى أن يرعى مصالحهم، ولو عرض ذلك مصالح مصر للخطر والضياع، ومعنى ذلك أن بقاء صدقي باشا في الحكم خطر على حقوق مصر ومصالحها))[١٨٣].

كذلك يهاجم سياسة إسماعيل صدقي الذي وضع على الجامعة ((قيدًا عنيفًا ثقيلاً))، ثم يوجه كلامه إلى بعض من يشاركه في الحديث فيما يجري في البلاد ((ولكن صفة الأشياء قد التوت في مصر والمنهج الذي تجري عليه قد فسد واعوج.. إن الأمور ستصبح كما هي، حتى يولي الله أمور هذه الأمة قومًا لا يتخذون الحكم وسيلة إلى التسلط والقهر))[١٨٤].

وحين يفكر رئيس حزب الأغلبية -النحاس- في زيارة للأقاليم ليتحدث إلى الناس، فإن عنت الحكومة يصل إلى درجة تضييق الحصار حول رئيس حزب الوفد، ومنعه من السفر، والضغط على أهل البلاد التي يزمع السفر إليها كيلا يستقبلوه، في وقت لا يزال الإنجليز يسيرون دفة الحكم على هواهم.. حين يحدث هذا تطالعنا نبرة طه حسين الغاضبة في عديد من المقالات التي كتبها في هذا الوقت، لعل آخرها تلك المقالة التي يردد فيها

([180]) كوكب الشرق ٣٣/٣/٩.
([181]) السابق.
([182]) السابق ٣/١٣.
([183]) السابق ٣/١٧.
([184]) السابق ٣/١٨.

لهجته فيقول: ((الشيء الوحيد الذي لابد منه لأي حل لابد أن ينظر فيه نظر جد وتفكير، هو أن يتنحى رئيس الوزراء عن سياسة الدولة الآن))(١٨٥).

وهنا، فإن ثمة ملحوظة ذات دلالة هامة يمكن رصدها من كتابات هذه الفترة، وهي، أنه بينما كان طه حسين يهاجم الوزارة القائمة، كان يبتعد رويدًا رويدًا عن حزب الأحرار الدستوريين بالقدر الذي كان يقترب به من حزب الوفد.

فضلاً عن أن هذا الاقتراب كان يركز لا على مبادئ الوفد، وإنما قبل كل شيء على زعمائه وأصحاب الكلمة العليا فيه، فهو مرة يندد بخطف الرئيس وصاحبيه - يقصد النحاس ومكرم- وقد وقع هذا الحل البديع من غير شك موقع الغرابة في نفوس الطلاب من المديريين وحكام الأقاليم فقد كانوا يعلمون أن الضروريات السياسية تبيح طائفة من المحظورات يأباها الدستور، وينكرها القانون ويتحرج منها النظام، تبيح الحرب على أيدي الناس بالحق وبالباطل، وتبيح التحرش بهم، والتنمر لهم، تبيح إلقاءهم في السجون من غير تحقيق، تبيح إخضاعهم للعذاب بغير حساب، تبيح تسخير أموالهم لمعونة الأحزاب، وتسخير أشخاصهم للاحتفاء بالوزراء، والتوقيع بأسمائهم على ما يحبون وما يكرهون))(١٨٦).

وفي مرة أخرى، يرى أن خطة الحكومة هي ((لا ينبغي أن يتكلم الزعماء، ولا أن يتحركوا ولا أن يسافروا لأن الأمة ما زالت لهم محبة، وبهم واثقة، وحولهم ملتفة، ولدعائهم مستجيبة. وإذن ففيم بذلت القوى. وفيم أنفقت الجهود، وفيم بعثرت الأموال؟..))(١٨٧).

وعلى هذا، يرصد خطوات زعيم الوفديين سواء كان عائدًا من ((سنون)) بلدته أو في رفضه عددًا كبيرًا من الضباط(١٨٨)، خوفًا منهم، واستغرابًا من هذا الحشد الضخم من العسكر الذي يحرس الزعيم وهو يصلي(١٨٩) إلى غير ذلك من المرات التي إذا ذكر صدقي أصحابه يذكرهم بالهجوم الحاد حتى إذا ما ذكر النحاس وأصحابه ذكرهم بالتبجيل والإكبار إليها، وأن يمتحنها وأن يحقق فيها النظر، ويلح عليها بالامتحان مؤكدًا على أن ((الوفد قوة حقيقية قائمة يستطيع كل إنسان أن ينظر هذه القوة لا تقوم

---

(185) السابق ٣٣/٣/٢٤.

(186) كوكب الشرق ٣٣/٣/٢٧.

(187) السابق ٣/٢٥.

(188) السابق ٤/٨.

(189) السابق ٤/٢٥.

على الخيال، ولا تعتمد على الوهم، وإنما تقوم على الناس الذين يكونونها ويجعلونها حقيقة واقعة ملموسة، تراها كل عين، وتلمسها كل يد، وتغص بها كل وزارة لا تريد أن تعمل لمصر، ولمصر وحدها))[١٩٠].

وهذه اللهجة نجدها في كل كتابات طه حسين في هذه الفترة كان فيها المد الوفدي يغطيها رويدًا رويدًا.

---

[190]) السابق ٤/٢٩، ٧/٣٠.

الفصل الثاني

طه حسين وحزب الوفد

- أسباب التحول
- علاقاته بحزب الأغلبية.
- في وزارتي الأقلية (٣٢/٣٩، ٤٤/٥٠).
- في وزارتي حزب الأغلبية. (٤٤/٤٢، ٥٠/ ٥٢).

في الوقت الذي كانت فيه وزارة إسماعيل صدقي تتهيأ للغروب عن مسرح الأحداث نتيجة لظروف عديدة، حدث تغير كبير في موقف طه حسين.. ومع أن هذا الموقف لم يأت طفرة، فإن ظروفًا عديدة عملت على إنضاج علاقات طه حسين وتوجيهها الوجهة التي اختارتها، فإن موقفه كان من الوضوح بحيث كان التحول يمضي في اتجاهه الجديد مع تغير الأحداث.

ففي هذه الفترة نلحظ انحياز موقف طه حسين انحيازًا تامًا للوفد، ففي ٦ مارس عام ١٩٣٣، أي قبيل رحيل وزارة صدقي بعدة أشهر، ولمدة ثلاثة أيام، فإن ضجة كبيرة تحدث تثيرها صحيفة (كوكب الشرق) على وجه الخصوص، وهي صحيفة وفدية، إعلانًا بانضمام طه حسين إلى هيئة تحريرها، ويبدو أن ذلك تم بإيعاز من مصطفى النحاس رئيس الوفد، وذلك بشكل مباشر حين طلب من طه حسين الانضمام إلى حزبه، ويبدو أن ذلك تم بشكل أكثر عملية بمبادرة رئيس تحرير هذه الصحيفة[١٩١].

وتتتالى الأحداث في هذا الاتجاه.

في ٦ مارس تظهر (كوكب الشرق) معلنة ومبشرة بانضمام طه حسين إلى الهيئة الوفدية مهنئة نفسها، فلن ((تقتصر آثار الدكتور على ما تفيض به موهبته من الفصول السياسية الرائعة، بل ستعم أيضًا الصفحات الأدبية والفنية والاجتماعية))، وفي اليوم التالي -٧ مارس- تكتب مقالة طويلة بعنوان (إلمامة صديق عليم) كلها إشادة بطه حسين وبنزعته السياسية، فقد عاد مشبهًا إياه بتوفيق دياب الذي ((أصبح وفديًا مع أن الوفدية كانت مصيره المحتوم)) ولا تلبث أن تنشر الجريدة في نفس العدد والأعداد التالية كمًا هائلاً من الكتابات التي تهنئ طه حسين بانضمامه إلى الوفد وتشجيعه

([191]) كوكب الشرق، ٣٣/٣/٩، أيضا: د. بدوي، إلى طه حسين، المقدمة.

عليه، وقد كانت أهم هذه الكتابات ما كتبه حافظ عوض رئيس تحرير صحيفة (كوكب الشرق) في ٨ مارس حيث يمدح الكاتب ويثني عليه.

على أن أهم كتابات الترحيب بطه حسين، قاطبة، كانت الكلمة التي كتبها مصطفى النحاس رئيس الوفد بخط يده، ونشرتها كوكب الشرق في ٩ مارس بعنوان (تصريح الرئيس الجليل) وجاء فيها:

(.. وإني لمغتبط باشتراك النابغة الكبير الدكتور طه حسين في تحريره على المبدأ الوفدي الذي دلت الحوادث على أنه مبدأ الحق ودين الأمة الذي قامت عليه في نهضتها نحو غايتها السامية في الحرية والاستقلال).

وفي العدد نفسه توالت أهم مقالات طه حسين، فبعد أن يعلن إخلاصه للمبدأ الوفدي يقول ((وأي شيء يستطيع العاملون أن يقدموه إلى مصر في هذه الأيام التي قصت فيها الأجنحة))[١٩٢]، ويتطرق إلى أساليب التعليم الرديئة التي تلجأ إليها وزارة صدقي وتضيق مراحلها، وينتقل إلى ألوان الضيق التي ترين على العقول والأفهام ليعاهد الذين يقرءونه في نهاية المقال الطويل بعهد أنه سيسير على درب الوفد والعمل من أجله[١٩٣].

وتبدأ مرحلة جديدة في العلاقة الطيبة بين طه حسين والهيئة الوفدية، وقد انهالت الدعوات الوفدية حينئذ على طه حسين، وكثيرًا ما كان يتحدث أثناء وجود النحاس ((في بلاغة مؤثرة عن مآثر الوفد والرئيس الجليل، ومن عطف عليه منذ ترك الجامعة.. في وقت لم يكن النحاس فيه ليفوت فرصة دون أن يبدي ((اغتباطه باشتراك الدكتور في تحرير كوكب الشرق))[١٩٤].

وفي هذه الظروف تمضي الشهور الباقية، وتحتم الظروف السياسية على صدقي الاستقالة، ويهتبل طه حسين الفرصة ليتحدث عن هذه الاستقالة التي طالما دعا إليها، مشيرًا إلى أن الملك سوف يقبل ((استقالة هذه الوزارة التي آتت مصر بالهم، والغم، ومن الحزن واليأس ألوان))[١٩٥]. ويضيف ((اعلموا أيها المصريون أن أموركم راجعة إليكم مهما تكن الظروف، لأنكم تريدون ذلك وتصممون عليه))[١٩٦].

ومن هذه الفترة يمكن الخروج بعدة استنتاجات أولية منها أن أكبر عدد

---

(192) كوكب الشرق ٣٣/٣/٩.

(193) السابق.

(194) السابق ٣٣/٣/١١.

(195) السابق ٣٣/٩/٢٢

(196) السابق.

من المقالات التي كتبها في حياته تدين إلى هذه الفترة، فأغلبها (افتتاحيات) تحمل عنوانًا عبارة عن كلمة واحدة، لاذعة، ومحتواها يحمل مضمونًا عنيفًا ربما كان أعنف من لهجة الغضب التي كان يوجهها إلى سعد زغلول في العشرينيات وهو ما ينم عن درجة الغضب الجارف الذي تولى صاحبه حينئذ إلى درجة أن يستعدي الملك على صدقي وعهده بعد استقالته(١٩٧).

والملاحظ أنه بعد استقالة وزارة صدقي، فإن هجوم طه حسين على خليفته، كما سنرى، تميز بهذا الكم الكبير في الهجوم على سياسة صدقي بعد أفولها، والإسراف في استرجاع أحداثها وسيئاتها، لدرجة يمكن القول معها أن عدد مقالاته في هذه الفترة فاقت مثيلاتها في أية فترة أخرى.

وثمة استنتاج آخر هو أن طه حسين في هجومه لم يستثن أهم الكوادر الحزبية لخصمه، أي الحزبين (الاتحاد، الشعب)(١٩٨) وقد كان صدقي يتحمل جزءًا كبيرًا من مسئولية تحرير الصحيفة الثانية، وهو ما يؤكد على أن طه حسين كان مدركًا تمام الإدراك مدى الأهمية السياسية لحزب الشعب، من حيث ضآلة تأثيره لاسيما وقد طلب منه في فترة هامة من حياته الانضمام إليه أو التحرير في صحيفته.

أما الاستنتاج الأخير، والأكثر أهمية، أن هذه الفترة شهدت أن طه حسين أخذ يتأرجح بين نقيضين، بين مد وجزر.

لقد نضجت إرادة التحول عنده على نار صدقي العنيفة، وشدة الحاجة المادية التي تركه يعاني منها محذرًا كل الصحف من التعامل معه، محاولاً طرده من مسكنه الذي كان يقيم فيه، بل ولم يتردد، قط، عن إهانته بقسوة محاولاً أن يحول بينه وبين أسباب الحياة، فقد حرم عليه، على سبيل المثال، أن يبيع جريدة (الوادي) التي أخرجها في ديسمبر من عام ٣٤، كما وجه إنذارًا للبعثات الأجنبية في البلاد للكف عن تقديم عروض العمل له، وقد بلغ العنف إلى درجة أن ظل يطارده شبح صدقي حتى بعد إقالة صدقي بزمن طويل.

وفي الوقت الذي حاول فيه أن يميل إلى حزب الوفد، فقد كان رئيس حزب الوفد يتجاوب معه بشكل سريع، كتب مصطفى النحاس بخط يده في صحيفة (كوكب الشرق) بانضمام طه حسين إلى الصحيفة الوفدية(١٩٩)، كما أجزل له في العطاء إلى درجة أنه قيل أنه دفع إليه قرابة ثلاثمائة جنيه ثمنًا

---

(197) الوادي ١٢، ٣٤/١١/١٣.
(198) سوزان ص ٩٨.
(199) كوكب الشرق، بخط يد النحاس ٣٣/٣/٩.

للمقال الواحد، كما كان دائم الحضور إلى محاضراته التي يقيمها(٢٠٠)، ولم يحجم عن زيارة قرينته - سوزان- في أي مكان تتواجد فيه(٢٠١)، وأيضًا لم يكن ليتحدث عن طه حسين، أو إليه، إلا وأطلق عليه لقب (الشيخ طه) للثناء عليه.

ومن هذا كله، ففي الوقت الذي عاش فيه طه حسين فترة ((المجاعة))(٢٠٢)، على حد قول قرينته، وجد من يمد إليه يده هاشًا له، وهو ما يفسر في جوانب كثيرة تجاوب طه حسين في الكتابة إلى الصحيفة الحزبية حين طلب منه ذلك من حزب الأغلبية.

ولتكتمل دائرة علاقة طه حسين بالوفد لابد من التوقف، أكثر، في الفترة بين عامي ٣٢/ ٣٦ وهي الفترة التي تنازعته فيها عاطفتان:

الولاء لأحزاب الأقلية.

الولاء لحزب الأغلبية.

قد انتصرت عاطفة الانحياز نهائيًا إلى حزب الوفد.

فما أهم البواعث وراء هذا التحول؟

يمكن تلخيص هذه البواعث على النحو التالي:

لم يكن طه حسين في بداية الثلاثينيات يعيش قط نفس ظروف العشرينيات، ففي العشرينيات كان قد فقد جزءًا كبيرًا من أسباب مساندته. فقد كان حزب الأحرار الدستوريين قد فقد جزءًا كبيرًا من عناصره الحيوية التي وقفت طويلاً بجانب طه حسين، كان عائلة آل عبد الرازق قد فقدت جزءًا كبيرًا من أفرادها، كما أن ثروت وعدلي كانا قد رحلا ففقد بهما مراكز تأثير قوية كانت تقف إلى جانبه، كما لم يكن طه حسين قد نسي بعد أن حزب الأحرار لم يصمد طويلاً في الوقوف إلى جانبه أثناء أزمة كتاب (في الشعر الجاهلي)، فلم يطل دفاع السياسة عنه بين ٧ يوليو، ٣٠ أكتوبر ٢٦ في وقت كانت القضية فيه قد دخلت مجلس النواب، وقد دفع به هذا إلى أن ينضم إلى القوة التي تستطيع أن تؤازره وتنافح عن فكره إذا ما تعرض لضغوط سياسية.

ولعل طه حسين أراد بالانضمام إلى الوفد حينئذ الانتقام من وزارة المعارف بما تخوله له من نفوذ لا تستطيع قوى أخرى أن تخوله إياه.

---

(200) حضر النحاس لطه حسين في أكثر من محاضرة، انظر: كوكب الشرق ٣٣/٣/١١، ٣٣/١٢/٢٨، وقد كان يهتف في المحاضرة في حضرة النحاس ومكرم بحياة (بطل الجامعة).

(201) سوزان ص ١١٢.

(202) السابق ص ١١٦.

وعلى أية حال، فقد رأى أن يتحول من قوة آفلة، أوفي طريقها إلى الأفول، إلى قوة صاعدة، أو في طريقها إلى الصعود، من (علية القوم) الذين كانوا ((في العشرينيات))، إلى (الظهير) الذي أصبح في الثلاثينيات.

وثمة موقف عام يطوي موقفًا خاصًا ويخفيه.. فقد آلمه أن محمد محمود حين أصبح رئيس الوزراء بين عام ٢٨/ ٢٩ تخلى عن مبادئ حزب (الأحرار) القديمة إلى استصدار مرسوم للحكم من خلال مجلس الوزراء حتى سميت حكومته بحكومة (اليد الحديدية)[٢٠٣] لما اتخذت من إجراءات صارمة عنيفة.

وتفصيل هذا أن محمد محمود قام بحل مجلس النواب والشيوخ وأيضًا تطبيق بعض مواد الدستور لمدة ثلاث سنوات، على أن يعاد النظر فيها عند انقضاء المدة لتقرير الانتخابات أو التأجيل زمنًا آخر. إلى آخر النص الملكي الذي استصدره محمد محمود في وقت تنافى هذا تمامًا مع مبادئ حزبه، وفي وقت لم يلق فيه داخل حزب الأحرار نفسه تقريبًا أي اعتراض أو خروج بسبب تعطيل الحياة النيابية وإقامة حكم ديكتاتوري أو قريب منه رغم أن هذا الحزب كان أول الداعين للمبادئ التي تخلى عنها أحد أعضائه السابقين ورئيسه الحالي محمد محمود.

وقد كان هذا من البواعث التي دفعت بطه حسين إلى إضمار الانفصال عن الحزب، فمع أن محمد محمود كان صديقه كما صرح حينئذ للشيخ مصطفى عبد الرازق، فقد كان ((لا يقبل الديكتاتورية أبدًا ويستنكر أشد الاستنكار تعطيل الدستور الذي جاهدت الأمة لإصداره مقررًا أنها مصدر كل السلطات))[٢٠٤].

هذا هو الموقف الظاهري، والواقع أن طه حسين برغم تصريحه بهذا الرأي، فإنه كان ينقم أشد النقمة في داخله على محمد محمود، فقد حدث أن أعلنت الجامعة عام ٢٨ عن تعيين طه حسين عميدًا لكلية الآداب فيها مكان عميد فرنسي آخر، فإذا بالحكومة القائمة ترفض هذا التعيين وتعلن ضرورة تنحيته وبدون أسباب[٢٠٥].

ومهما يكن السبب من أن الوفدين كانوا يبغضونه بشدة حينئذ، فتدخلوا

([203]) نص الأمر الملكي في كتاب ((اليد القوية))، ص ٣٨، ٣٩، أيضا، السياسة ٢٨/٧/٢٠، أحمد زكريا، الأحرار ص ٢٦، هيكل، مذكرات ج١ ص ٢٤٢، عفاف لطفي السيد، ص ١٧١.

([204]) محمد حسن الزيات، السابق ج ٥.

([205]) عبد الرحمن صدقي، عميد الأدب، الهلال فبراير ٦٦.

لإقالته بواسطة علي الشمسي الوزير الوفدي في الوزارة الجديدة في وقت رأى فيه بأم عينه أن لطفي السيد يتخلى عن مبادئه السابقة فيخضع لضغط محمد محمود وإيثارًا لصداقته فيقبل وزارة المعارف[٢٠٦]، ومهما يكن، فإن طه حسين لم يجد أمامه غير الرضوخ وإن كان طلب، حفاظًا على ماء وجهه، أن يعتمد تعيينه أولاً، فيقضي يومًا في المنصب لم يلبث بعدها أن قدم استقالته في مساء نفس اليوم ليعود العميد الفرنسي من جديد.

لقد كان سلك محمد محمود، وهو رئيس لحزب الأحرار ورئيس للوزارة القائمة قد ترك في أعماقه ندوبًا عميقة لم تندمل بعد.

ولعل التأثير المادي لعب دورًا متعاظمًا في هذا التحول.. ففي فترة كتابته في صحيفة الاتحاد لسان حال حزب (الاتحاد)، كان عليه وخاصة في البداية لأسباب أسلفناها، أن ينصرف إلى الكتابة فيها خاصة وأنها كانت تقدم إليه (ما يزيد قليلاً)[٢٠٧]، عما كانت تقدمه له صحيفة حزب (الأحرار الدستوريين).

كما كانت المحنة التي دفع إليها بين عامي ٣٢/ ٣٤ من القسوة بحيث دفعت بقرينته إلى وصفها بأنها (السنوات العجاف) وسنوات (المجاعة)[٢٠٨]، فقد ضيق صدقي فيها عليه كثيرًا مما دفع به إلى محاولة البحث عن مصادر مالية يستطيع الاستمرار بها في الوقت الذي كانت تنتظره جريدة الوفد (كوكب الشرق) وتجزل له في العطاء، وحين غضب طه حسين من رئيس التحرير - حافظ عوض- لامتناعه عن دفع غرامة عن أحد الكتاب[٢٠٩]، لم يتردد عن الاستقالة، غير أنه أمام الإغراء المادي وجد نفسه عائدًا ثانية.

ويبدو أنه في هذه الفترة طلب إليه أحد أصدقائه القدامى من الأحرار العودة إلى صحيفة (الأحرار) والكتابة فيها من جديد، وقد وعد طه حسين، لكنه ما لبث أن حنث بوعده، فقد كان الوفد في هذه الفترة يجزل له العطاء.

واعتقادنا أن الحاجة المادية وإن لم تكن الباعث الوحيد في تحول طه حسين، فإنها كانت أحد البواعث الهامة التي كونت هذا الموقف أو دفعت إليه دفعًا.

كما لا يمكن إغفال تطوره الفكري، فقد كان له أثر كبير في هذا

---

(206) عفاف لطفي، ص ١٧٤.

(207) السياسة ٤٥/٢/٢٣.

(208) سوزان، الصفحات ٩٨، ١١٣، ١١٦.

(209) نعمات فؤاد، قمم أدبية، عالم الكتب ٦٦ ص ١٤٠/ ١٤١.

التحول، لقد كان تحوله إلى الوفد من منطلق أنه شهد أن قوى الوفد الوحيدة، يمكن أن تيسر له تطبيق أفكاره الذي كان يبشر بها منذ انحاز لأحزاب الأقلية، وهي أفكار جلها علمانية، تحتفي بالقومية المصرية والقيم الديمقراطية الغربية إلى غير ذلك، فقد كانت علاقاته الحزبية في خدمة أفكاره دائمًا.

وعلى أية حال، فمن العسف التوقف عند عامل دون عامل آخر لتوجيه الاتهام إليه بأنه السبب الذي دفع بطه حسين إلى الانضمام إلى حزب الأغلبية، فقد تحالفت كل هذه البواعث السابقة في دفعه إلى هذا الاتجاه سيما وقد كان من أذكى سياسيي عصره وآثرهم للفرص المتاحة له.

وعلى أية حال، فبمجرد أن سقطت وزارة صدقي زاد ميل طه حسين إلى حزب الوفد، في الوقت الذي انتهج فيه مع الوزارة التالية نفس النهج الذي انتهجه مع وزارة صدقي، ومن هنا، يمكن اعتبار الفترة التي تلت وزارة صدقي امتدادًا لاتجاه طه حسين إلى حزب الوفد وتحوله إليه تحولاً تامًا.

وعلى هذا يمكن فهم علاقة طه حسين بالوزارات التي أعقبت هذه الفترة، قبل أن تتولى الحكم وزارة وفدية خالصة، وتعينه عميدًا لكلية الآداب فيما بعد.

على أنه قبل أن نصل إلى طه حسين وقد أصبح جامعيًا، ورصد علاقاته بحزب الأغلبية حيث انعكست خطوط انتمائه السياسي، يجب أن نرصد موقفه في هذا الاتجاه، تجاه الهجوم على الوزارة القائمة من وجهة نظر وفدية.

أولاً: يمكن اعتبار الوزارة التالية مباشرة لوزارة صدقي، وهي وزارة عبد الفتاح يحيى، امتدادًا طبيعيًا لوزارة سلفه، وهو ما أدركه طه حسين منذ أول مقالة كتبها بعد استقالة صدقي مباشرة، فما كاد يعلن عبد الفتاح يحيى عن تصريح يبين فيه بداية وزارته، حتى يكتب طه حسين أن ((كل شيء في أعمال الوزارة وأقوال أنصارها لا يدل على ثقة صادقة، ولا يصور اطمئنان النفوس، ومن أشد الخطر أن يرى الناس رأي العين عجز الوزارة حتى أن تثق بنفسها))[٢١٠]، ولا يمضي وقت طويل حتى يهاجم الوزارة والقائمين عليها بسبب قضية التبشير التي أثيرت حينئذ فتصدى لها في عدة مرات تالية.

---

(210) كوكب الشرق ٣٧/٩/٢٥

وحين تتعرض الوزارة لعديد من قضايا الفضائح التي تلصق بها حينئذ لا يتردد في الهجوم على هذه الوزارة والإيغال في إلصاق الاتهامات بها(٢١١)، كما يواصل هجومه عدة مرات على وزير التعليم في هذه الوزارة للتخطيط السيئ(٢١٢)، ويمتد هذا الهجوم إلى ((مدير الدقهلية))، ومأمور بني مزار ووزير التقاليد ووزير المالية ووزير الداخلية))(٢١٣)، وهو في هذا كله يذكر كل مهازل عصر صدقي ومفاسده بدءًا من قضية (الكورنيش) إلى حادثة (البدراوي) إلى مشكلة (الدين العقاري)، و ((موقف صدقي في هذه المخزيات التي تثار حوله ولا يسأل عنها)) مثل فضيحة مدرسة الهندسة التي تطلب تعيين أستاذ مصري فترفض الوزارة وتطلب أستاذًا إنجليزيًا بدلاً منه فترضى.

على أن السخرية من صدقي تحتل حيزًا كبيرًا من كتابات طه حسين، بوجه خاص، فصدقي هو الذي دافع عن حزب الشعب كثيرًا وما لبث أن استقال عنه وهوجم منه(٢١٤)، كما تمتد موجة السخرية إلى عبد الفتاح يحيى(٢١٥)، وكثرة الخلافات بين صدقي وعبد الفتاح يحيى(٢١٦)، كما يلوم الوزارة القائمة لمعاملتها القاسية للمتظاهرين ممن خرجوا ليعبروا عن شعورهم القومي ضد الإنجليز(٢١٧)، وهو في تناوله لأمور عديدة لا يجاوز قط إدانة وزارة عبد الفتاح يحيى كان يكتب عن الحياة السياسية المصرية فيصفها بأنها ((خليقة ألا ترضي أحدًا))، وأن مصر في حاجة إلى الإصلاح حقًا، وأن هذه الوزارة القائمة وهؤلاء الذين ينصرونها ويؤيدونها، ليسوا رجال الإصلاح المنشود، ولا يقدرون عليه لأنهم لم ينهضوا له، وإنما نهضوا لشيء آخر كانوا غارقين فيه إلى آذانهم، فمن العسير بل من المستحيل، أن ينقلبوا فيصبحوا رجال الإصلاح الذي تريده البلاد(٢١٨)، وهو إلى هذا يعجب من فصل السنهوري بقرار من مجلس الوزراء دونما

---

(211) السابق ٣٧/١٠/٢٩.
(212) السابق ٣٣/١١/١
(213) السابق ٣٣/١١/٥
أيضا: كل مقالات شهر ١٢ عام ١٩٣٣، وفي هذا انظر أيضا ٢٤/١/١٦، ١٩٣٤/٦/١١.
(214) السابق ٣٣/٦/١١
(215) السابق، انظر كل مقالاته بين سبتمبر ٣٣ حتى أبريل ٣٤، وفي الوادي بين أبريل ٣٤ إلى نوفمبر ٣٤ تاريخ سقوط وزارة عبد الفتاح يحيى، أيضا: كوكب الشرق ٣٣/١٢/١
(216) السابق ٣٣/٢/٥
(217) الوادي ٣٤/٣/١٨
(218) السابق ٣٤/٦/٨

تحقيق[219] بالقدر الذي يعجب به من الديكتاتورية التي في الجامعة[220].

ثانيًا: ومن دلائل اتجاهه الجديد ما لوحظ من أنه بقدر الهجوم على الوزارة القائمة، بقدر ما كان انحيازه إلى الوفد والتقرب إليه، فما أن رضي التحرير في الصحيفة الوفدية على مبدأ الوفد (٩ مارس ٣٣) كان دائب الخطى إلى الوفد.

فالوزارة القائمة لم تكن لتكف قط عن مضايقة أعضاء الوفد من قياداته خوفًا من شعبية هذه القيادة والاضطراب الذي قد ينشأ نتيجة لمواقفهم، فلا يكاد رئيس الوفد يمضي إلى القليوبية مدعوًا حتى ترسل الوزارة القائمة قوة لمنعه فينبري طه ليهاجم هذا الأسلوب[221]، في الوقت الذي يظهر تأييده المطلق لرئيس الوفد وحزبه[222]، وفي موضع آخر يظهر السخرية الشديدة من الحكومة حين يكتشف أنه حينما ذهب النحاس لزيارة المرضى في إحدى المستشفيات، فإن الحكومة تقوم بنقل المرضى جميعًا إلى مكان آخر كيلا يروا النحاس.

وهو بعد أن يكتب في ذكرى سعد زغلول في الجريدة الوفدية في عهد وزارة صدقي مقالات كثيرة لتعظيمه والإشادة به، يعود في الذكرى السابعة ليكتب مقالات كثيرة أخرى في جريدة (الوادي) المسئول عنها وصاحبها مشيدًا به ومعليًا من قدره[223].

وقد كان ينتهز أية فرصة للإشادة بالوفد وبزعمائه حتى من بين الراحلين منهم، فهو مرة يشارك في تأبين محمد زغلو (باشا)، ويلوم السلطة التي تصادمت مع حاملي النعش في اضطراب عام [224]، وفي مرة أخرى يهاجم من هاجم المشتركين في جنازة ضخمة لمرقس (باشا) المعروف بميوله الوفدية ((فإن المصريين والإنجليز لا يزالون يشكون في أن مصر كلها للوفد والوفد كله لمصر))[225]، وهو في مرة ثالثة يقوم بتأبين سينوت باشا أحد أعضاء الوفد البارزين مشيدًا به[226].

---

(219) الوادي ٨، ٨/١٨، ٢٠، ٢١، ٣٣/٨/٢٣

(220) الوادي ٣، ٣٤/٢٢/٤

(221) كوكب الشرق ٣٤/١/٢٠.

(222) السابق ٣٤/١/٣٠

(223) الوادي ٣٤/٨/٢٣

(224) كوكب الشرق ٣٤/١٠/١٤

(225) الوادي ٣٤/٦/٢٠

(226) السابق ٣٤/٧/١٩

ويظل طه حسين يهاجم وزارة عبد الفتاح يحيى حتى إذا ما استقال، فإنه يصف عهده في أول مقالة كتبها بعد هذا مباشرة بأنه (عهد الذل والهوان) مما فيها ((نعم، كان عهد ذل وهوان هذا العقد الذي ضمنته استقالة عبد الفتاح يحيى..))[٢٢٧]، مرددًا هذه النغمة لفترة بعيدة، مؤكدًا على أن العهد الآتي لابد وأن يسود فيه حكم الوفد وزعامته.

وقد بزغ فجر العهد الجديد أو كاد مع قدوم وزارة نسيم، فتوفيق نسيم وإن لم يكن عضوًا في حزب الوفد، فقد كان يميل إليه ميلاً ظاهرًا[٢٢٨]، فضلاً عن أن نسيم منذ البداية كان قد رفض تأييد دستور صدقي وهو ما يعني أن توليته الوزارة يحمل النية على إنهاء هذا العهد، وهو ما التقى فيه مع الوفد، كان يرى أن نسيم يمكن أن يمثل فترة التحول إلى دستور ٢٣ الذي كان قد ألغاه صدقي قبل ذلك.

وقد انعكس هذا واضحًا في موقف طه حسين، إذ لم يهاجم الوزارة الجديدة في وقت لم يستطع فيه إخفاء موقفه من الوزارة القديمة بعبارات تقترب من الشماتة إلى حد كبير، مبديًا فرحه بهذا التغيير الذي ((قضاه الله عز وجل لمصر بعد أن قضت عليها المحنة أكثر من أربعة أعوام))[٢٢٩].

ولم ينس من غمرة سعادته أن يبدي إعجابه برئيس الوفد في كلمات موحية ذكية ((الحمد لله الذي أتاح لهذا الرجل الضعيف أن يكون أقوى المعاصرين من مواطنيه بعزمه وحزمه))[٢٣٠].

والواقع أن ثمة تفاهمًا مسبقًا كان قد جرى بين الإنجليز والحزب الكبير، ففي ٥ أكتوبر، وفي لقاء بين مكرم عبيد والسكرتير الشرقي المندوب السامي اقترح الأول فرض حكومة برئاسة توفيق نسيم على الملك، وبعد هذا بأسبوع وفي أول لقاء بين النحاس والمستر بيترسون ((كرر زعيم الوفد أن حزبه لن يعترض على تدخل بريطاني لتشكيل حكومة برئاسة توفيق نسيم))[٢٣١].

وعلى هذا النحو، كان مقدرًا على طه حسين أن يحجم عن الهجوم على الوزارة الجديدة، على الأقل يصمت مؤقتًا حتى ينجلي الموقف الجديد.

إن صمت طه حسين استمر فطال، فما كاد يمضي أقل من شهر على

([227]) السابق ٣٤/١١/٧

([228]) عبد الله العزباوي، رسالة مخطوطة ص ٣٠٢، أيضا: عفاف لطفي ص ٢٥٩

([229]) الوادي ٣٤/١١/١٥

([230]) السابق.

([231]) يونان لبيب، الوزارات ص ٣٧٢

تولية نسيم لوزارته -١٤ نوفمبر ٣٤- حتى أعيد طه حسين في أقل من شهر في ١٢ ديسمبر إلى الجامعة، وتتالت المحاولات لإرضائه وإعادة ميزانية المالية إليه، يعاد إليه مرتبه الذي عين به والذي كان يحصل عليه قبل فصله(٢٣٢)، ثم يتم تثبيته على الدرجة التي كان يعمل بها.

لقد كان من أثر ذلك كله أن تنازل طه حسين عن القضية التي كان قد رفعها على الحكومة المصرية، وكوفئ على هذا الموقف بأن سويت له حالته المالية في محاولة لاسترضائه(٢٣٣)، وإذن، ففي الوقت الذي كان يتحدث فيه عن فضائح صدقي وعهده بنبرة هجومية عنيفة رد إلى الجامعة، وما كاد يفرغ من مظاهر الترحيب ببطل (الجامعة) داخل الجامعة وخارجها حتى كان قد دخل لمرحلة جديدة من حياته.

إن مراجعة الصحف في هذا الوقت ترينا أنه لم يجاوز في كتاباته فصولاً عن الشعر القديم(٢٣٤)، ومقالات عن التمثيل الغربي، وأحاديث في (الحب الضائع) الذي شغل بها.. وما إلى ذلك مما يعكس ابتعاده عن المشاركة السياسية واقترابه إلى عوالم أخرى سينتهي إليها حتى ديسمبر ٣٦، العام الذي عين فيه عميدًا للجامعة.

على أن عام تعيينه عميدًا ٣٦/٥/٢٧(٢٣٥)، شهد موافقة على ماهر، الذي كان قد اختير في نفس الشهر تعيينه رئيسًا لوزارة (مؤقتة) يكون الغرض منها إجراء مفاوضات قوية مع الحكومة البريطانية فينضم أعضاؤها إلى مصطفى النحاس لتشكيل وفد تحت رئاسته لإجراء المفاوضات.

وهنا، فإن عام ١٩٣٦، له أهمية خاصة بالنسبة إليه، إذ أجريت فيه المفاوضات مع الإنجليز، وما إن انتهت إليه من اتفاقية ٣٦، حتى لعب

([232]) دار المحفوظات، قرار مجلس الوزراء عن طه حسين في ٣٤/١٢/١٥

([233]) السابق، خطاب رئيس مجلس الوزراء ٣٥/١١/٢٤، أيضا وقرار من مجلس الوزراء في مذكرة مرفوعة بتاريخ ٣٥/٥/١٣ أيضا في ٣٥/٥/٣٠ (بعد تنازل طه حسين عن القضية تتوالى القرارات لإرضائه فيقرر مجلس الوزراء في ٣٥/٢/٢٧ صرف مرتب ٩ شهور للدكتور مع إعفائه من رد مكافأة قد استلمها، ثم قرار بوضعه بدرجة أستاذ مع منحه مربوطها، وقرار بأن تحسب له مدة الانفصال على المعاش بعيدا عن الجامعة).

([234]) تتميز هذه الفترة بمقالاته الأدبية التي راح يجمعها في كتب فيما بعد من أمثال: حديث الأربعاء، من أدب التمثيل الغربي، أحاديث، فصول في الأدب والنقد، من حديث الشعر والنثر، الحب الضائع، من لغو الصيف إلى جد الشتاء.

([235]) دار المحفوظات، السابق، خطاب كل من شفيق غربال ومدير الجامعة إلى رئيس الجامعة بهذا الخصوص.

الوفد دورًا هامًا في الحكم، وبالتبعية، يدخل طه حسين مرحلة جديدة.
من عام ٣٦ يكون على طه حسين أن يلتزم بموقف الوفد في كل القضايا المثارة، من المعاهدة حتى تشكيل آخر وزارة وفدية عام ١٩٥٠.
ويلاحظ أن ثمة علامتين مميزتين كانتا تفرضان فرضًا على علاقاته الحزبية خلال هذه الفترة، يمكن تفصيلهما على النحو التالي:
الأولى: أنه تبنى وجهة نظر حزب الوفد تبنيًا كاملاً، وما ترتب على ذلك من عداء الأحزاب الأخرى.
الثانية: أن مشاركته السياسية في هذه الفترة شهدت فترة ازدهار الوفد ثم سقوطه، فكان طه حسين يؤثر عدم التورط في التيارات السياسية المتصادمة بأن يعمد إلى الابتعاد عن السياسة وعن الأحزاب وصحفها والاقتراب من قضايا الأدب كلما حانت الفرصة إليه.
وإذا كان طه حسين قد عرف باتجاهه السياسي في العشرينيات والثلاثينيات ومشاركته في كثير من الخصومات السياسية، فإنه في الحقبة التالية عرف باتجاهه الفكري مكرسًا جهده في جانب المجتمع، وهو ما يفسر تحوله الحثيث في اتخاذ موقف معين باتجاه الحزب الذي انتمى إليه، أو الحزب المعارض له، كما ترصد هذه المواقف مع تحوله من هذا الحزب أو ذاك.
وعلى أية حال، يمكن رصد علاقة طه حسين بحزب الأقلية أو الأغلبية في عدة محاور، يمكن إجمالها في الفترات الزمنية الآتية:
١- في عهد وزارة النحاس ٣٧/٣٦
٢- في حكومات الأقلية ٤٢/٣٩، ٥٠/٤٤
٣- في حكومات الوفد ٤٢/ ٤٤، ٥٠/ ٥٢
وتفصيل ذلك أنه على أثر رحيل الملك فؤاد تمخضت التطورات السياسية عن فوز وزارة وفدية جديدة يترأسها مصطفى النحاس، ومن هنا، فما كادت سنة ٣٦ تشرف على نهايتها حتى كانت معاهدة تسوية إنجليزية مصرية - أو معاهدة تحالف- قد أبرمت بين الدولتين[٢٣٦].

[236] نص المعاهدة في (القضية المصرية) ١٨٨٢- ١٩٥٤، أيضا: عفاف لطفي ص ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، أيضا: عبد الرحمن الرافعي ج ٣ ص ١٦، ١٧.
أيضا فإن استقراء نصوص المعاهدة يرينا أنه كان من أهم موادها -المادة رقم ١٣- سريان التشريع المصري على كل الأجانب المقيمين في مصر، وفي نهاية فترة انتقال تكون الحكومة المصرية حرة أيضا في الاستغناء عن المحاكم المختلطة.
وفي ١٢ أبريل ١٩٣٧، اجتمعت الدول ذات الامتيازات، في مونترو، ووقعت ميثاقًا ألغيت بموجبه (الامتيازات الأجنبية)، وقد اقر البرلمان هذا الاتفاق في يوليو من عام ١٩٣٧.
==

وعلى أية حال، فإنه لا يعنينا هنا مناقشة بنود الاتفاقية، بقدر ما يهمنا موقف طه حسين منها، من الاتفاقية التي كان الوفد من أول الساعين لها، فقد أكد زعيم الوفد أنها أحسن ما يمكن الوصول إليه في هذا الوقت، وعند عودته بعد توقيعها أعلن أنها معاهدة (شرف واستقلال).

وهذا الموقف هو ما دفع النحاس إلى السعي للالتزام بتنفيذ الاتفاقية، فإن هذا التغيير ((سيكون لصالح مصر خاصة بعد النجاح الذي أحرزه بالمعونة البريطانية في التخلص من الامتيازات الأجنبية في المفاوضات التي أجريت في مرنترو سنة ١٩٣٧))، وهو ما اختلف فيه النحاس مع غيره من القوى الحزبية الأخرى بل والقوى الحزبية داخل حزب الوفد، كما هي الحال في الخلاف الذي وقع بينه وبين أحد زعماء الوفد وهو النقراشي.

ومدى تأييد طه حسين للزعامة الوفدية نجده في كتابات هذه الفترة، ففي كتاباته الدورية القليلة، وصف عصر وزارة النحاس بأنه ((عصر جديد قوامه النهضة والنشاط والحرية))[٢٣٧]، وحين يسأل عن الواجب الأدبي فلا يزيد على أن يقول هو ((أن نكون أحرارًا))[٢٣٨].

وهو في آخر كتبه وأشهرها - مستقبل الثقافة في مصر- يصرح بأن مصر ((تبدأ عهدًا جديدًا من حياتها ...و .. ردت إليها الحرية بإحياء الدستور، وأعيدت إليها الكرامة بتحقيق هذا الاستقلال))[٢٣٩]، وأنه من الخير أن ((نفكر فيما أتيح لنا من الفوز، ونبتهج بما كتب لنا من الظفر، في هذا الجهاد الطويل الذي انتهى بنا إلى أن نسترد الاستقلال))[٢٤٠]، كما لم يكف لحظة عن ترديد أن مصر تعيش في عصر الاستقلال والحرية، وأن ما يحشد جهده له في هذا العصر الجديد هو الثقافة على أن يكون الهدف الأكبر فيها هو البحث عن المستقبل.

ووثائق هذه الفترة ترينا أن طه حسين يكتب رسالة طويلة إلى مصطفى النحاس قبل أن يفرغ من كتابه -مستقبل الثقافة- أو قبل أن يدفع به للنشر، فيهدي إليه الكتاب أملاً أن يجد في عهد الزعيم مستقبل مصر.

وقد دفعت الظروف السياسية كل الأطراف من أجل هذه المعاهدة، فقد دفعت المظاهرات الضخمة التي اندلعت احتجاجا على تصريحات السيد صمويل هور الوزير البريطاني فاعتبرت تصريحاته تدخلاً في تاريخ مصر، ومن هنا، دفعت الأحزاب إلى التوصل لاتفاقية جديدة.

(237) المجلة الجديدة ٣٧/١/١٣

(238) السابق.

(239) مستقبل الثقافة، ص ٥- ٩

(240)السابق ص ١٠

وهو لا يتخلى عن هذا الموقف من المعاهدة التي أبرمها الوفد إلى ما بعد سنوات عشر، فهو لا يتردد وهو يهاجم حكومة النقراشي من التصريح بأن مصر ظفرت بحقوقها كاملة على يد الوفد وذلك في معاهدة ٣٦[٢٤١].

والأهم من هذا كله، أن طه حسين لا يشايع فكرة الوفد وحسب، وإنما يغلو من ذلك، فهو لم يكتف بتأييد وجهة نظر الوفد أو زعامته حينئذ وهو النحاس، وإنما حرص على تأييد الرأي الذي يذهب إلى أن الإنجليز إنما هم (أصدقاءنا)، وهو ما يعني أنه لا يشير أو ينتبه إلى هذه الأفكار التي كانت تعارض سياسة الإنجليز في مصر، والتي ((كانت ألمانيا وإيطاليا تبشران بها في ذلك الحين، وهذا لا يميز تفكير طه حسين وحده، بل يميز أيضًا مبادئ الوفد القومية، وقد كان الوفد مرتبطًا، من الناحية الثقافية، ارتباطًا عميقًا بفرنسا، كما أن النشوة التي أحدثتها معاهدة ٣٦ لم يتخللها أي شعور لإنجلترا، إنما كان هناك خوف من مطامع إيطاليا غرب مصر وجنوبها))[٢٤٢].

وقد التزم طه حسين بوجهة نظر الوفد، كما سنرى، في كل ما كتبه سواء أثناء الحرب الثانية أو بعدها وحرص عليه إلى حد كبير.

ولم ير طه حسين في النحاس الزعيم الوحيد فقط أو في الإنجليز (أصدقاءنا) وحسب، بل اختار في تأييده وجهة نظر الوفد وترديد نبرة صداقة الإنجليز حتى لو كان هذا في موقف مضاد للملك في خلافه مع الوفد.

وتفصيل ذلك أنه في عام ١٩٣٧ حدث خلاف حاد بين القصر والحكومة بسبب الرغبة التي أثارتها بعض دوائر القصر لإقامة حفل ديني لتتويج الملك فاروق إبان فترة توليه، غير أن الوفد أبدى رفضه الشديد لهذه الفكرة.

وقد دارت معركة عنيفة بين صحيفة (البلاغ) الناطقة بلسان القصر وصحيفة (المصري) الوفدية، حول هذه المسألة استمرت طيلة شهر يونيو ٣٧، البلاغ تذكر أن الدوائر الدينية تدافع عن الفكرة، بينما عباس العقاد الذي كان قد خرج على الحزب الكبير وأصبح من كتاب الصحيفة الموالية للقصر، يدافع عن الفكرة أيضًا في وقت كانت فيه صحيفة (المصري) تدافع عن حكومة الوفد.

في ذلك الوقت، كان طه حسين لا يزال عميدًا لكلية الآداب، فاتخذ

([241]) البلاغ ٤٥/٩/١٦

([242]) ألبرت حوراني، ص ٣٩٢

موقفًا صلبًا إلى جانب الوفد، ومع اعتقادنا بأن فكره كان مخالفًا لقضية الخلافة، فإنه لا يمكن أن نقلل قط من تأييده لموقف الوفد تأييدًا تامًا، إذ يذكر شاهد عيان أنه قد خرج الطلبة في مظاهرة ضد الوفد، وانتهوا فيها إلى الجامعة بإيعاز من القصر، واجتمعوا في البهو الفسيح أمام مكتب المدير، في وقت كانوا يهتفون فيه بهتافات ضد الوفد وضد طه حسين(٢٤٣)، وجاءت قوة لتواجه الطلبة فأوسعت أحدهم ضربًا، وأرسلت به إلى حيث لا يعلم، وحين خوطب طه حسين في إمكان إنقاذه رفض التوسط له، أو حتى العمل على إعادته بأية حال(٢٤٤)!!

وإذا كان طه حسين قد آثر الانحياز للوفد كلية، فقد كان من الطبيعي وبمجرد أن يقدم النحاس استقالته إلى الملك أثر خلاف حاد بينهما، أن تبدأ الوزارة التالية (وزارة محمد محمود) في اختلاق المشاكل للتضييق على عميد الأدب، ومن هنا، بدأت مرحلة جديدة من مراحل علاقات طه حسين بوزارات الأقلية.

لقد وصل التضييق عليه إذ ذاك إلى درجة أنه حوصر في مكتبه من جراء مظاهرة عنيفة ضده، وهجم عليه بعض الطلبة بهراوة عنيفة كسرت بها النجفة الكريستال الموجودة في حجرة العميد، وحين اتصل بمدير الأمن أكثر من مرة لحمايته، كان مدير الأمن يعتذر تباعًا بحجة عدم وجود بوليس.

وقد بلغ من ضيق طه حسين أنه حاول كتابة استقالته.

لقد كانت وزارة محمد محمود ائتلافية، حاول فيها أول الأمر أن يكون نوعًا من التحالف بين الأحزاب ضد الوفد، فإذا بالأحزاب تختلق المشاكل لإهانة (كلية العواهر)(٢٤٥)، كما أطلقوا على كلية العميد وذلك لتوسعه في قبول ثلاثمائة طالبة.

وقد انتهت سياسة محمد محمود إلى الخروج به من الجامعة، فبعد أن ضيقت كثيرًا على الوفد بإيعاز من الملك، فأصدرت مرسومًا ملكيًا يحل

([243]) عبد الرحمن الرافعي، ج ٣ ط١ ص ٥٣، وفي الأزمة يمكن العودة أيضا إلى د. هيكل، ص ٤٢، أيضا: حسن يوسف: مذكرات ص ٨٩، يونان لبيب: تاريخ الوزارات ص ٤٠١، عبد العظيم رمضان: تطور الحركة الوطنية في مصر ج١ ص ١٣٦، وأيضا مقالة هامة لحافظ محمود في صحيفة الجمهورية ١٩٦٧/١/١٨، أيضا من لقاء خاص مع حافظ محمود ٨٤/٤/٣٠.

([244]) دار المحفوظات، السابق، أوراق جلالة الملك، محفظة رقم ٦٤٤، أيضا: أوراق طه حسين.

([245]) السابق ص ٧٦- ٨٢.

البرلمان الوفدي في ٣ يناير، ثم قامت بعمليات فصل واسعة للموظفين الوفديين وإحلال موظفين معروفين بولائهم لها محلهم، كما لم تأل جهدًا في هدم الوفد على أيدي المنشقين عنه وإظهار أن الحزب الكبير قد انقسم على نفسه، بعد هذا كله، لم يكن أمامها غير أن ترفض بقاء طه حسين عميدًا لكلية الآداب حين رشح للمرة الثالثة، فحين عرض على محمد محمود أوراق تعيينه وقع بالاستغناء عنه، وإن ظل أستاذًا بالجامعة.

وهكذا خرج طه حسين من العمادة مرة أخرى، ولم يعرف له موقف سياسي واضح في وزارات الأقلية حتى إقالة الوزارة السعدية في منتصف الأربعينيات على وجه التقريب.

ويبدو أن العلاقة بينه وبين السعديين في أول الأمر لم تكن لتصل إلى درجة القطيعة بعد، وهو ما يفسر تعيينه في هذا المنصب بما عرف عنه من ميول وفدية خالصة، وتؤكد العديد من الدلائل أنه آثر الهيئة السعدية في تكوينها متعاونًا مع النقراشي (باشا) تعاونًا وثيقًا بما عرف عن هذا الوزير، وقد أصبح وزيرًا للمعارف حينئذ، في وزارة علي ماهر، من قوة تستطيع حماية أي من العاملين معه.

إذن، كان تأييده لها واضحًا أشد الوضوح، وتفسير هذا يعود إلى أنه في الوقت الذي راح يكتب فيه في الصفحات الأدبية بدا واضحًا تأييده للوزارة القائمة فيما مثلته سياستها التي كانت تلتقي مع فكره في عدم مسايرتها للسياسة الإنجليزية، ومن هنا، رفض الدخول في الحرب.

وهذه الفترة لم تخل من كثير من المضايقات التي واجهت طه حسين من رجال الدين المحافظين أو أولئك النواب الذين لم يتوقفوا منذ عين مستشارًا للثقافة عن الهجوم عليه، غير أن النقراشي استطاع حمايته لأكثر من مرة، كما أن طه حسين تقدم باستقالته إلى الوزير السعدي الذي لم يقبلها منه، قد تكررت هذه المحاولة في نهاية تلك الفترة من جراء المضايقات التي كان يواجهها فقرر تقديم استقالته إلى وزارة المعارف ((أنه رأى في بعض التصرفات تجاوزًا لاختصاصه، وقد بذلت الكثير من المحاولات لإثنائه عن رأيه))[٢٤٦].

كما أن سياسته التي تنحو إلى الهدوء انسحبت على موقفه من أحزاب الأقلية التالية أيضًا من مثل وزارتي حسن صبري وحسين سري، خاصة وأنهما اتخذا سياسة علي ماهر من ضرورة الالتزام بعدم تجنب مصر

([246]) الأهرام ٤١/٩/٢٥، أيضا: انظر دفاع الوادي عنه في ١٩٤٠/٣/٢

الحرب وهو ما سنصل إليه في موضعه.

ويتحدد موقف مصر من الحرب العالمية الثانية منذ وزارة السعديين عام ١٩٣٩، فعلى الرغم من أن السفير البريطاني طالب مصر بدخول الحرب، فإن علي ماهر قد تريث في هذا بحجة أنه يجب كسب الوفد ومسايرة الرأي العام إلى غير ذلك من الأسباب التي تذرع بها كيلا تزج البلاد نفسها في الحرب(٢٤٧).

وقد انعكس مناخ الحرب جليًا في التضييق على الصحف وكبت الحريات وإحكام الرقابة على الأقلام.. إلى غير ذلك، وعلى هذا لم يشارك طه حسين بغير كتاباته التقليدية كأن يقرر أن ((الشجاعة والصبر وضبط النفس هذه هي الصفات التي يجب أن نتحلى بها في هذه الأزمة))(٢٤٨)، كما يرى في ضرورة الحرب أن ((الشعب الديمقراطي يحارب لحرصه على الحياة الحرة والشعوب المستعبدة تساق إلى الحرب كارهة(٢٤٩).. إلى غير ذلك من الموضوعات محاولاً أن يتفرغ لبعض قضايا التعليم، ويؤكد العلاقة الوثيقة بين التعليم وبين الديمقراطية.

على أن رأيه الواضح من الحرب يمكن أن نجده في أهم كتبه وأخطرها التي صدرت في تلك الفترة وهو (أحلام شهر زاد)، إذ حاول باستدعاء التراث وتلمس الرمز أن يدلي برأيه في الحرب وبعض القضايا المعاصرة وهو ما سنصل إليه في حينه.

لقد كان موقف طه حسين من تجنيب مصر ويلات الحرب في أحد وجوهه هو ترجمة لموقف الوفد الذي لم يقطع بدخول الحرب أو يشير إليه، وإنما دعا إلى التأني كما عبرت صحيفته إذ ((ليس في الصبر بلا شك أي خسائر، وإنما الخير فيه ضمين مكفول، وقد رأينا الأمم المحاربة ذاتها استأنست به قبل الاعتزام))(٢٥٠).

ومهما يكن، فإن ميزان النصر مال إلى جانب إنجلترا مما دفعها إلى

([247]) .. مع أن موقف الأحزاب يتفاوت بين السعديين الذين نادوا بضرورة دخول الحرب، والوطنيين والأحرار الدستوريين والمستقلين الذين نادوا بعدم اشتراك مصر في الحرب، فإن الوفديين كانوا ممتنعين عن إعلان رأيهم.. مطالبين بانسحاب إنجلترا بمجرد عقد الصلح ولم يتعرض رئيس حزب الوفد لمسألة الحرب.. كما أن وزارة ٤٢ لم تتخذ رأيا حاسما في الحرب بل وتبنى النحاس خطًا واضحا مع بريطانيا من التعاون.
(حسن يوسف، ص ١١٧، أيضا: عبد العظيم رمضان، السابق، ج ٢ ص ١١٥.

([248]) المصور ٤٠/٥/٣١

([249]) المصور ٤٠/٩/٢٠

([250]) السابق ٤٠/١١/٨، ٤١/٢/٧

تخفيف قبضتها على الشئون الداخلية في مصر، فاستطاع الملك إقامة وزارة الوفد عام ٤٤، ومن ناحية أخرى، فإن الفترة بين ٤٤/ ٥٠ هي التي تحدد علاقة طه حسين بأحزاب الأقلية، وبشكل أكثر وضوحًا، فقد عاش أزمة الخلاف ين زعامات حزب الأغلبية، فعرف الصدام على المستويين الفردي والعام مع السعديين، ثم (الكتلة)، ثم وقف وجهًا لوجه في مواجهة إسماعيل صدقي الذي عاد إلى وزارة ٤٦. وأخيرًا لم تكن علاقاته تسير سيرًا حسنًا مع الملك ومع الإنجليز.

وباختصار، بمجرد سقوط الوفد، كان أول أهداف الوزارات التالية هو القضاء على مناطق نفوذه، فما كاد يمضي قرابة أسبوع حتى أحيل طه حسين - ضمن من أحيلوا- من منصبه مستشارًا لوزارة المعارف، فعاش، بالتبعية، مأزق تغيير الوزارات حتى بداية الخمسينيات تاريخ آخر وزارة وفدية.

وقد كان من أثر التضييق الذي بدأ ضد الوفد أن حاول حزب الأغلبية الإفادة من كل الظروف لاستعادة شعبيته، وقد اتخذ خطة في مواجهة حكومة السعديين في كل مجال من المجالات السياسة.

وقد تحددت مواقف طه حسين من خلال موقف الوفد إزاء هذه الأحداث.. لم يستطع إخفاء بغضه وهو يحكم، إذ شبه وهو يحكم مع حزب الحكومة بقصة السندباد الذي استغل طيبة أحد الشيوخ فدفع بساقيه لتلتف حول رقبته، ((وسيبقى الشيخ على كتفيه وسيشبع عنقه ضغطًا وصدره ركزًا وجنبيه ركلاً حتى يفتح الله له بابًا من أبواب الفرج. ويخفف غيره من الذين يرمقونه مشفقين حينًا وساخرين حينًا آخر فينقذه من هذا المكروه ويضع على كتفيه هذا الحمل الثقيل، ويرد إليه حريته))[٢٥١]، كما أنه لا يتردد في القول في موضع آخر أن مذهب العقاد السياسي، السعدي، إنما هو مذهب يبغضه)) فأنا أمقت المذهب السياسي للأستاذ العقاد مقتًا شديدًا أو أزدريه ازدراءً لا حد له، ولا أقر للأستاذ العقاد فصلاً من هذه الفصول السياسية التي يكتبها في البلاغ))[٢٥٢].

وقد كتب عددًا من المقالات يهاجم فيها النقراشي، فحين كان الشعب يسأل عن سياسة الوزارة في مفاوضاتها مع الإنجليز وسر بطئها كانت الحكومة في غيابة طويلة ((طلب الشعب المصري على اختلاف هيئاته وأحزابه أن يعرف ما صنعت الحكومة)) ولا يقارن بين التصريحات

([251]) البلاغ ٤٥/٧/٢٩

([252]) السابق ٤٥/١٠/١٨

الإنجليزية الصريحة والتصريحات المصرية الغامضة[253]، وهو يسخر من مدة الشركة التي يعرضها السفير البريطاني على رئيس الوزراء ((ستكون مصر نفسها موضوعًا لهذه الشركة، وإذن فلن تخلص مصر لنفسها بل سيشاركها البريطانيون في أمورها إن وفق المستر بيفين إلى ما يريد))[254].

وحين يشاع أن الوزارة القائمة ستقدم مذكرة إلى الحكومة الإنجليزية تطلب الجلاء وحل مشكلة السودان، يهاجم الوزارة مؤكدًا على أن مصر ستظفر ((بحقوقها كاملة على يد الوفد كما ظفرت بمعاهدة ٣٦ لسبب بسيط، وهو، أن الوفد إذا أراد أن يكتب مذكرة إلى الحكومة الإنجليزية لم يتردد في كتابتها ولم يتردد في تقديمها[255].

كما يسخر ممن يعرض قضية مصر في الأمم المتحدة في وقت عرضت فيه قضايا دول أقل من مصر شأنًا بكثير، نالت قدرًا أكبر من الذي نالته مصر من الحرية والاستقلال[256].

كما لا يتردد في السخرية من السياسة الداخلية للوزارة، ففي مقالة بعنوان (أمن) يكتب مستعرضًا أحداثًا ثلاثة سائلاً كيف تمت؟ وكيف فلت زمام الأمن ممثلاً في اغتيال أحمد ماهر وإلقاء قنبلة أمام الناس ومحاولة اغتيال أمين عثمان حتى تم اغتياله بالفعل؟[257].

ويظل يهاجم سياسة الحكومة سواء فيما يتعلق بالتعليم المجاني عاقدًا مقارنة بين الوزارة القائمة ووزارة الوفد قبل ذلك[258]، أو مناهج التعليم وأساليبه[259]، أو في التضييق على الحريات والتوسع في الأحكام العربية التي تتبعها هذه الوزارة[260].

وهو في الوقت نفسه لا يصمت عن مهاجمة حزب (الكتلة الوفدية) الذي مثله مكرم عبيد بعد خلافه مع النحاس وخروجه عليه، إذ كان هذا الحزب في وزارة النقراشي، هو على سبيل المثال، يهاجم مكرم كرئيس

---

(253) السابق ٢٥/ ١٠/ ٤٥

(254) السابق ١٨/١٠/٤٥

(255) السابق ١٦/٩/٤٥

(256) السابق ٢٠/١/٤٦

(257) الوادي ٦/١/٤٦

(258) السابق ٢/٩/٤٦

(259) السابق ١١، ١٤/١٠/٤٥

(260) البلاغ ١٤/٦/٤٥، السياسة ١٥/٨/٤٥

لهذا الحزب حين قبل أن يشتط على وزارة النقراشي ويطالبها بنوع من الجلاء ((لا تبقى بعده مطارات ولا قواعد بحرية للإنجليز، كأن الوزارة مستعدة لقبول جلاء تبقى بعده المطارات والطائرات والقواعد البحرية للإنجليز))[٢٦١].

وهو في تتبعه للمذكرة التي قيل أنها كتبت للحكومة الإنجليزية بقصد المفاوضة معها، يسخر من مكرم الذي يقول شيئًا ثم ينقض قوله بقول آخر، فهو يكتب هذا بعده بقرابة شهر فيقول ((نسي مكرم باشا ما قاله في سبتمبر من أن كرامة مصر تأبى عليها كتابة المذكرات إلى الإنجليز وأعلن في هذه الأيام أن كرامة مصر تفرض عليها كتابة المذكرات إلى الإنجليز))[٢٦٢].

وقد حاولت وزارة السعديين التي احتوت على عناصر من حزب الأحرار الدستوريين التضييق على طه حسين، وحاولت النيل من مكانته في جامعة الإسكندرية، آخر المناصب التي كان حريصًا عليها تمامًا، فلم يجد مفرًا من الاستقالة، واستقال بالفعل، ليشتغل في إخراج عمل آخر هو مجلة (الكاتب).

غير أن دائرة التضييق حوله كانت محكمة، فأغلقت مجلة (الكاتب)، ورحل إلى الخارج، ملمحًا بعدم العودة قط إلى البلاد إلا بعد تغيير الحكم.

ويمكن أن نجد أقصى درجات غضبه في هذه الفترة ممثلة في الكتاب الذي شغل به أثناء رحيله، فقد ترك وزارة في مصر يراها ((شرًا ونكرًا دائمًا))، كما أن الكتاب زاخر بالغضب السياسي على كل شيء، كما تزخر كتابات هذه الفترة في الصحف أيضًا بالعديد من الأشياء من أمثال الأحكام العرفية ومراقبة الصحف ومهاجمة النواب والوزراء والحزن على الدستور، مازجًا في هذا كله بين ((قيمة العدل الاجتماعي المفتقدة وقيمة الاستقلال الضائعة))، ضائقًا بالهجوم الذي كان يوجه إليه من الكتاب السعديين والأحرار الدستوريين خاصة.

ومهما يكن، كان ولابد أن يعود، وقد حانت الفرصة للعودة بعد تولي صدقي الحكم من جديد، فارتبطت عودته هذه المرة بغضبة سياسية عنيفة جدًا، لعلها كانت تمثل آخر ومضة في علاقاته الحزبية، فما كاد صدقي يتولى الوزارة حتى بدا واضحًا رفض الأحزاب وخاصة حزب الوفد التعاون معه.

([261]) البلاغ ٤٥/١١/١١ (٦) الوادي ١٢/٢٠/ ٤٥

([262]) وهو ما نجده خاصة في المقالات التي كتبها في الأربعينيات وجمعت في كتاب (بين بين)، كما يتوزع هجومه الحاد في صحف السياسة، البلاغ بين عامي ٤٥/ ٤٦.

وقد بدأ موقف الوفد أكثر عداء بعد أن أعلن زعيمه موقفه، وهو موقف رسمي يقضي بعدم التعاون معه إلا بشرط انتخابات جديدة وهذا يعني رفض التعاون معه فإجراء انتخابات جديدة من شأنه أن يقذف به بعيدًا عن الحكم، ومن هنا، بدأ صدقي حكمه بحركة قمع عنيفة جدًا، مركزًا فيها على صحف الوفد ومحاصرة دورها، بل وأصدر بيانًا - وقد كان وزيرًا للداخلية- هدد فيه بأن الحكومة ستمنع كل تظاهر أو تحرك بكل شدة، إلى غير ذلك من المصادمات التي جرت بينه وبين الوفد[٢٦٣].

وقد كان المحك الرئيس الذي يؤكد قدرة صدقي أو فشله هو إجراء التفاوض مع الإنجليز، وقد واجه في هذا صعوبتين: ضغط الإنجليز لموقفهم لصعوبة موقف صدقي وتكسر المفاوضات على صخرة السودان[٢٦٤]، واندلاع المظاهرات التي تعرف لها أول الأمر مثيلاً، فلم يتعرض لها أول الأمر وما لبث أن هاجمها بعنف شديد فاتهم بمساندة الإنجليز الذين أخذت سياراتهم تدهم أعدادًا كبيرة من المتظاهرين.

وتكررت هذه الصدامات بعنف مما أثار طه حسين كأحد الكتاب المنحازين للوفد، أولاً، وأحد الموتورين القدامى وبشكل شخصي من صدقي، ثانيًا..

لقد كان طه حسين أول من أعاد إلى الأذهان ذكريات البطش والعنف الشديدين اللذين مارسهما صدقي في الثلاثينيات وذلك في ضوء سياسته الجديدة، وقد دلل على طبيعة صدقي الطاغية بقصة الأمير الذي حاول وزيره أن يؤكد له أن العادة طبيعة ثانية دون أن يوافقه، وقد أثبت له ذلك بأن أقام حفلاً أحضر فيه حاملات الشموع -قطط- وبمجرد أن ألقى فأرًا أمامها حتى جرت القطط وألقت شموعها ((فهذا صدقي يعود إلى طبيعته المتأصلة في داخله))[٢٦٥]، وهو ينتقل من هذا الوضع إلى الوضع الطبيعي المترتب عليه، فيذكر أن ((الصحف المصادرة والأخبار المحرفة والأخبار المنقوصة وصحف المعارضة تقرأ قبل أن يؤذن بنشرها فإن امتنعت على ذلك واحتجت بالقانون واحتجت بالدستور صودرت بعد طبعها))، كما يعرج إلى تهاون صدقي في التفاوض مع الإنجليز ويحمله مسئولية اعتداء الإنجليز على المتظاهرين أو (الدهماء) كما يصفهم صدقي، واصفًا إياه بأنه

---

[263] انظر: طارق البشري ص ٩٩، ١٠٦، ١٠٧، أيضا: يونان لبيب، الوزارات ص ٤٨٢، عبد الرحمن الرافعي، في أعقاب الثورة المصرية ص ١٨٤، ١٨٧.

[264] القضية المصرية، ص ٤٩٤، أيضا: حسن يوسف ص ٢١٨

[265] البلاغ ٤٦/٣/٧، ٤٦/٣/٣٠

تعود الحكم ((على أساس أن الصوت البريطاني يجب أن يكون أرفع من الصوت المصري مع أنه أمضى مع الذين أمضوا معاهدة ٣٦ فإن عقليته ما زالت عقلية التسلط الإنجليزي وعقلية التلطف مع الإنجليز))[٢٦٦].

ومع أنه ظل يهاجم صدقي كثيرًا في قضية المفاوضات مؤكدًا في أكثر من موضع أنه ((يفاوض لنفسه لا لوطنه))[٢٦٧]، وأنه يتهاون في حق السودان[٢٦٨]، فإنه لم يحجم عن التذكير خاصة بسياسته التي تقوم على التضييق على الصحافة، فصدقي كما يراه تقدم إلى البرلمان ((بألوان من التشريع تحد من حرية الصحافة))[٢٦٩]، وتقوم على مصادرة الصحف ومراقبة الناس والاستهانة بالدستور فقد قصد ((أن يرد الناس إلى ذلك العهد السعيد بالبعيد الذي كادوا ينسونه منذ ستة عشر عامًا))[٢٧٠]، كما أن حكومة صدقي التي تمثل صدقي ولا تمثل الشعب مفاوضاتها للإنجليز تكون كذلك لأنها ((لم تنشأ عن برلمان انتخب انتخابًا حرًا ولأنها تقيد حرية الشعب والاجتماع والخطابة والصحافة))[٢٧١].

ومهما يكن، فعلى الرغم من جهد صدقي لإنهاء التفاوض مع الإنجليز لصالح مصر، فإنه لم يكن يستند على قوى شعبية مثل قوى الوفد يمكن الإنجليز الاطمئنان إليها، ومن هنا، تجمعت ظروف عديدة لتفشل المفاوضات فيستقيل صدقي.

وبمجرد تنحي صدقي تتالت الوزارات، وعاد السعديون ثانية بوزارة النقراشي التي احتدمت في أثنائها القضية الوطنية فانتهت الاضطرابات واغتيل النقراشي نفسه، ولم تكن وزارة إبراهيم عبد الهادي التالية بأفضل حظًا منها، فاستقالت في ظروف صعبة؛ خارجيًا حوصر فيها الجيش المصري في فلسطين، وداخليًا، بالحملة ضد الإخوان والشيوعيين وانتهى بها الأمر إلى تسليم مقاليد الحكم إلى وزارة حسين سري التي كانت، إلى حد ما، معتدلة في رأي الوفد، إذ مثلت وزارة انتقالية تحتوي على أربعة وفديين، وعملت على مساندة حزب الأغلبية ليفوز، وقد مهدت هذه الوزارة بالفعل لعودة حزب الوفد في بداية الخمسينيات.

---

(266) ٤٦/٢/٢

(267) ٤٦/٤/١١، ٤٦/٣/١٤

(268) السابق ٤٦/٤/١١

(269) السابق ١١، ٤٦/٤/١٤

(270) السابق ٤٦/٣/١٠

(271) السابق ٤٦/٣/١١

ويمكن القول أنه بسقوط وزارة صدقي، فإن طه حسين لم يعد يوجه سهامه إلى أية قوى أخرى، وإنما تحولت علاقاته السياسية إلى مبادئ اجتماعية اكتسبت من الواقع الاجتماعي دوافعها الحقيقية، إذ كانت الفترة فترة غليان اجتماعي حاد، ومراجعة كتاباته وكتبه حينئذ يمكن أن يرينا أنه باستثناء بعض الأعمال التي احتوت في مضمونها على رمز سياسي وهي قليلة من أمثال: (جنة الحيوان) عام ٤٥ التي احتوت على كائنات كاريكاتورية لشخصيات سياسية معروفة، و (رحلة الربيع) ٤٨/٤٦ الذي راح يتحدث فيه عن قيم الديمقراطية والحرية والمساواة.. باستثناء هذا، فإن بقية أعماله لم تجاوز الرمز الاجتماعي، فهي تدعو إلى المساواة والعدل مثل (المعذبون في الأرض)، و(ثورتان)، و(ما وراء النهر) التي نشرت جميعها في عام ٤٦ ثم (جنة الشوك) ٤٥ أو (القدر) ٤٧ أو (الوعد الحق) ٤٩ أو (مرآة الضمير الحديث) ٤٣/ ٥٠، فهذه الأعمال جميعًا تعني بالفقر والجهل والمرض والوباء الذي اجتاح مصر وضرورة وجود العدالة الاجتماعية والتركيز على قيم التعليم والدعوة إلى التعليم المجاني إلى غير ذلك من القيم التي ترى كموجة ثانية في فكره السياسي.

ويلاحظ أن موقف طه حسين في وزارات الوفد (٤٤/٤٢) (٥٢/٥٠) لم يزد على أن يكون انحيازًا ظاهريًا - لا سياسيًا- بمعنى أن طه حسين لم يتبين قضايا الوفد أو يدافع عنها بالقدر الذي تفرغ فيه لاتجاهه الفكري ومحاولته التجديد في الجانب الاجتماعي، ففي الفترة الأولى (٤٤/٤٢) وكان مستشارًا لوزارة المعارف فضلاً عن رئاسته لجامعة الإسكندرية، فإن مراجعة كتاباته ترينا أنها لم تجاوز الإطار الأدبي والثقافي فضلاً عن قلتها بشكل ملحوظ، فإذا استثنينا رواية مثل (دعاء الكروان) وهي تدخل في المجال الاجتماعي، وترجمة سوفوكليس وهي تدخل في مجال (يونانياته٩) .. فإن هذه الفترة لم تعبر عن كتابات حزبية واضحة، وإنما مثلت اجتهادًا على المستوى الشخصي العام.

أما الفترة الثانية ٥٢/٥٠، وقد كان طه حسين فيها وزيرًا في وزارة وفدية لم يزد على أن راح يشغل الناس بقضايا وهمية وخصومات ليس من ورائها طائل..

وتفصيل هذا أنه حين جاءت وزارة النحاس الأخيرة، أبدى رئيس حزب الأغلبية فيها جهدًا كبيرًا للحيلولة دون رفض الملك لاشتراك طه حسين في تشكيلها كوزير للمعارف، ففي الوقت الذي أبدى فيه الملك

اعتراضه فقد بلغ النحاس أنه في حالة رفض اسم طه حسين يتنحى عن تأليف الوزارة(٢٧٢).

وقد كان هذا تتويجًا لكل جهود طه حسين في مساندة الوفد وتأييده لسنوات.

والذي حاول رصد علاقة طه حسين بحزب الأغلبية في هذه الفترة يلحظ أن ثمة تشابهًا كبيرًا بين السياسة التي اتبعها وهو في جانب الوفد، وبين السياسة التي انتهجها هذا الحزب من القوى السياسية حوله.

وباختصار، فقد كانت سياسة حزب الوفد تتردى في مهاوي الاستسلام ومهادنة كل القوى المتربصة حولها، وهي المضادة للحركة الشعبية بهدف واحد، هو، حماية نفسها والعمل على البقاء بأي ثمن(٢٧٣).

فماذا كان موقف طه حسين في الوزارة الوفدية؟

إن مراجعة موقف طه حسين وعلاقاته الحزبية حينئذ يمكن أن تضع أيدينا على عدد من النقاط كالآتي:

في الفترة التي تمتد بين (١٣ يناير ٢٧/٥٠ يناير ٥٢) وهي فترة بقاء وزارة الوفد، انقطعت كتابات طه حسين أو كادت، اللهم إلا، من بعض الشذرات المتقطعة التي لا تدور إلا في إطار التعليم ومناهجه والتعليم ومجانيته، فهذه هي القضية التي كان قد نذر نفسه لها منذ وقت بعيد، وجاءت الفرصة الآن ليطبق ما سبق أن صرح به في (مستقبل الثقافة..) منذ أكثر من عشر سنوات.

وإذا استثنينا كتاباته الاجتماعية التي كانت لا تزال تثير ضجة عالية مثل (المعذبون في الأرض) إلى درجة أن الملك ضاق بها.. يمكن القول،

([272]) الجمهورية ١٩٥٥/٦/٢٦

([273]) ... وتفصيل هذا أنه على المستوى الحزبي، اتفق كل من كتب عن حزب الوفد أن (وفد الخمسينيات ليس هو وفد العشرينيات أو الثلاثينيات أو حتى الأربعينيات.. ففي الوقت الذي اعترى الوفد ظاهرة الانشطار بين اليمين واليسار) وهي (ظاهرة تفشت في الحزب الكبير على مختلف المستويات.. مستوى الوزارة أو مستوى التنظيمات الحزبية)، فقد اعتراه أيضا (ظاهرة المهادنة الكاملة للقصر مما جعل الكتاب المعاصرين يطلقون على وزارة الوفد الأخيرة أنها وزارة الاستسلام للملك).. وعلى هذا النحو تعددت مظاهر الإخفاق التي ترددت إليها آخر وزارة وفدية سواء من المشكلة الدستورية التي كانت تتجسد خاصة في استبداد الملك واستفحال نفوذه، أو من الفساد الذي استشرى وتبلور إلى استغلال النفوذ واتخاذ الوظائف مصدرا للثراء وعلاقة الإدارة الحكومية بالشركات وكبار الملاك وانخفاض الأجور والمرتبات وارتفاع نفقات المعيشة واختفاء الحريات السياسية وحتى موقف الوزارة من قضية الجلاء.

(يوجد شرح واف لمظاهر إخفاق الوزارة ومظاهر الاستخذاء أمام الملك ومطالبه بين صفحتي ٣٠٨/ ٣٢٦)، أيضا ص ٥٠٣/ ٥٠٩ من كتاب (الوزارات).

أنه، لم يبد في وزارة الوفد أي موقف سياسي يكون من شأنه الخروج بها من دائرة الحزب أو متأثرًا بعلاقات حزبية خاصة، فارتدى مسوح الوزير مستعيضًا به عن مسوح الجامعة أو مرددًا موقف المثقف ودوره ومواقفه من السلطة أو النظام كما قال ذلك أو كان وراء قوله في عديد من الأزمات التي أثارها من قبل.

موقف طه حسين من الملك كان موقف حزب الوفد، فكما اتخذ الوفد سياسة ((المهادنة الكاملة للقصر)) كذلك حرص طه حسين على اتخاذ نفس السياسة، فخطبه أمام الملك تسجل في أكثر من مناسبة الحرص الشديد على إرضائه سواء في نفي تهمة اتخاذ موقف مناهض من الملك السابق - فؤاد- وهو ما كان الملك فاروق يغضب منه كثيرًا كلما ذكر اسم طه حسين أو في اتهامه بتهمة الشيوعية التي كان الملك يرددها كلما جاء ذكر اسمه أيضًا.

وقد استحق طه حسين لهذه السياسة التي اتبعها مع الملك أن يمنح رتبة (الباشوية) وإن كان موقفه من القصر له موضع آخر.

شغل طه حسين بعديد من القضايا التي فرضت عليه فرضًا حينئذ، فعلى سبيل المثال، أثيرت قضية مشايعته - وهو وزير معارف- لدار المعارف التي يطبع فيها أعماله، كما افتعل خلافًا حادًا مع وزير الداخلية - فؤاد سراج الدين- في هذا الوقت[٢٧٤].

ومما سبق ذكره، فنحن لا نجد لطه حسين تأثيرًا بارزًا في السياسة التي اتبعها الحزب الذي انتمى إليه، ويمكن القول، أنه، كما كانت وزارة الوفد، بما أطلق عليها (وزارة الاستسلام للملك، كذلك، فإن وزير المعارف فيها كان وزير استسلام لكل الظروف من حوله بقصد الإبقاء على وزارته.

---

(٢٧٤) الأساس ١٢/١٥/ ٥١

(ففي القضية الأولى، عرف أنه يعمل على نشر سلاسلها (الأعداد) في محاولة بيعها إلى الوزارة لتقرر على المدارس، فتشتري الوزارة أربعة آلاف نسخة بما يصل إلى ألف جنيه، كما يتهم بشراء كتب له، إذ تشتري وزارة المعارف وهو وزير للمعارف أربعة كتب من تأليفه ليحصل على أثمانها بأسعار عالية، والعمل على طبع سلسلة دار المعارف إلى غير ذلك مما دفع به إلى تبليغ النيابة ضد الصحيفة، أما القضية الأخرى، فقد أثارتها بعض الأجنحة الرجعية في حزب الوفد نفسه، وتفصيل هذا أنه افتعل خلافًا حادا مع وزير الداخلية لقراره بعدم التعيين في الوزارات الحكومية فيغضب ويشكو إلى (رفعت رئيسه الجليل وهدد بالاستقالة إذا لم يستثن من القيد المشار إليه.. ورغم أن وزير المالية وسط عنده .. فإنه أصر على تهديده)، وينتهي الأمر ظاهريا، بأن يرضخ وزير الداخلية لطلب طه حسين ويبيح له التعيين، وإن اختلق له المشاكل وهو ما فعل في زيارة وزير المعارف للمنصورة في فترة تالية مما دعاه إلى التهديد ثانية بالاستقالة).

ويمكن أن نوجز أهم النتائج التي أثيرت حول علاقة طه حسين بالأحزاب -الأقلية أو الأغلبية- فيما يلي:

خضع طه حسين في علاقاته الحزبية لجملة مؤثرات لعل من أهمها وقوعه تحت تأثير مباشر لعبد العزيز جاويش ولطفي السيد في مقتبل حياته فكتب في خط حزبي: الوطني والأمة، ثم تحت تأثير الانتماء الشخصي لأغلب ريادات حزب الأحرار الدستوريين، كما كتب في خط الأحرار الليبرالي.

وكما وقع تحت تأثير الفن الليبرالي في مقتبل حياته، كذلك، وقع تحت تأثير الحاجة التي أسهمت مع غيرها في انتمائه إلى فكر الوفد وصحفه وزعيمه في فترة لاحقة، وقد تباينت درجات هذا التأثير قبل الثلاثينيات وبعدها..

ففي الفترة الأولى كانت أفكاره في خدمة علاقاته، وهو ما يفسر دفاعه عن الأحرار الدستوريين وهو أستاذ جامعي قبل أن تضم الجامعة إلى الحكومة، حتى إذا ما ضمت الجامعة إلى الحكومة، واسترضى من قبل القوى السياسية القائمة.. أعيد إلى الجامعة وانقطع عن الكتابة السياسية، غير أنه اضطر للعودة إليها ثانية في بداية الثلاثينيات حين تقطعت علاقاته مع حزب الأحرار، في وقت كانت فيه علاقاته في خدمة أفكاره في المقام الأول، ومن هنا، تحددت علاقاته مع حزب الوفد فحرر في صحيفته.

أيضًا كان تواقًا للمشاركة في السياسة في مقتبل حياته، فأوراقه الخاصة تؤكد أنه، بعد عودته مباشرة من الغرب في بداية العشرينيات، تقدم إلى مجلس إدارة الجامعة المصرية للتصريح له بأن يشترك في تحرير جريدة السياسة وقد صدر قرار مجلس الإدارة بالموافقة، وهو ما يؤكده موقفه من ثورة ١٩ الذي كان موقف الحيدة كما حدده بقوله (جبنًا ونفاقًا.. فقد غرق في السياسة واحترق بنارها، ولم يكن له بد من أن يحتمل تبعات هذا الغرق أو هذا الحريق، وهل كانت كلها منذ تلك الأيام إلا نتيجة طبيعية لإقدامه على السياسة وغرقه فيها) على حد قوله في سيرته الذاتية.

والرغبة الجامحة للمشاركة في الحياة الحزبية تفسر كثيرًا من الأمور من أمثال أنه رغم عدم اعترافه بسعد أو بحزب الأغلبية في ثورة ١٩ اعترف بالثورة بعد أمد بعيد من نشوبها، كما كان يحرص على المشاركة السياسية بعد أن يرتدي رداء أستاذ الجامعة أو مسوح المثقف، وهو ما يلقي أضواء كثيرة على كثير من علاقاته الصحفية وخصوماته السياسية.

كما يحمد له، أنه، في أشد فترة من فترات ارتباطه بأحزاب الأقلية لم يناصر الإقطاع أو الرأسمالية إذ كان مخلصًا دائمًا لمناطق التأثير التي

عرفها في أول حياته، فحاول تأييد الحزب التي انتمى إليه حتى بعد انتمائه إلى حزب آخر (حزب الاتحاد) على سبيل المثال، كما ظل مخلصًا لمناطق التأثير التي عرفها في نهاية حياته (انتماؤه إلى حزب الوفد) على سبيل المثال، إذ حاول أن يترجم مشاركته السياسية في خطه الاجتماعي في الفترة الأخيرة.

وكان من العوامل الجوهرية التي أسرعت بطه حسين إلى الانحياز لحزب الأغلبية هذه المحنة التي عانى منها في فترة صدقي الأولى.

وعلى أية حال، فقد كان التحول يتمشى مع خط الجماهير التي كانت تعاني أزمة العدالة الاجتماعية وهو ما يتمثل في كتاباته الاجتماعية في الأربعينيات.

ويرتبط بهذا، أن الفكرة الاجتماعية التي تركز عليها جهده في العقد الرابع لم تكن نبتًا شيطانيًا، فكثيرًا ما كان يقال أن خطه السياسي تأثر بموقفه الفكري، وهو ما يمكن أن يكون صحيحًا لو أنه لم يع الظروف التي بدأت تتكشف حينئذ عن أزمة طبقية حادة لا تخفى على أحد.

وإذا كان الواقع التاريخي يؤكد على أن الوفد شهد جناحًا تقدميًا رأى في الحزب ((تجمعًا سياسيًا عريضًا يقوم على أساس تحقيق الاستقلال والحرية والدفاع عنهما، ويرى في هذين المطلبين الأساس الذي يجب أن تبدأ به أي من خطى التقدم الاجتماعي)).. إذا كان ذلك كذلك، فإن الجناح الذي يقف يسار الوفد دون أي تصنيف يمكن أن يرى فيه طه حسين بفكره الراديكالي الجديد.

فارتباط طه حسين بالوفد، إذن، جاء ارتباطًا ملحًا فرضته الظروف، ووعاه طه حسين بحاسته وغريزته في التغيير وإن كان عديد من الظروف الشخصية أسهم فيه..

على أن الارتباط بالوفد فكريًا قابله الانعزال عنه سياسيًا.. فإلى جانب الفكرة الاجتماعية جهد ليفرغ لأفكاره التعليمية والثقافية، وعلى هذا، فما كاد يأتي عقد الخمسينيات، ويصبح طه حسين وزيرًا وفديًا، حتى كان دائرة العزلة قد أكملت دورتها في الجانب السياسي.

ولم تكن علاقة طه حسين بالأحزاب بوجه عام هي علاقة ارتباط حزبي خالص، فلم يعرف الارتباط (التنظيمي)، كما لم يمارس نشاطًا سياسيًا لخدمة مصالح الحزب بشكل مباشر، وإنما تحددت كتاباته حول الدفاع عنه بأفكار تنتمي إلى انتمائه الحزبي.

وقد تحدد علاقاته الحزبية حينئذ حول الصحافة والعلاقات الشخصية المميزة، إذ احتفظ لنفسه بمرونة الحركة بين المنابر الثقافية للأحزاب، وهو

الأمر الذي يفسر، في كثير، انتقاله بين صحف أكثر من حزب، وأيضًا عدم ارتباطه بشكل تنظيمي بأي منها.

وعود على بدء، أن موقف طه حسين الحزبي حال بينه وبين الضياع السياسي، فإلى جانب رفضه الانغماس في حركة أي حزب انغماسًا سياسيًا (وهناك محاولة حاول فيها حزب الأحرار دفعه للترشيح عام ٢٥).. فإن علاقاته الحزبية لم تصل إلى درجة (الكادر) التنظيمي قط وإنما ظلت، في الغالب، في خدمة أفكاره التي تحددت طورًا حول مصالحه الشخصية وطورًا آخر حول تطوره الفكري الذي شهد أكثر من مرحلة في الفترة التي سبقت ثورة ١٩٥٢.

الفصل الثالث

موقفه من الوجود الأجنبي في مصر

- المؤثرات الشخصية والحزبية الأولى.
- الهجوم على الإنجليز ٢١/ ٢٢.
- موقفه من قضية السردار ٢٤/ ٢٥.
- في أزمات سياسية ٢٦/ ٣٠.
- الهجوم على الإنجليز ٣٠/٣٤
- موقفه من معاهدة ٣٦
- موقفه من الحرب العالمية ٣٩/٤٤
- المؤثر الفرنسي وراء موقفه.
- الهجوم على الإنجليز بعد الحرب ٤٤/ ٤٦
- القضية الوطنية ٤٦/ ٥٠
- القضية الوطنية والمطلب الاجتماعي.
- اختفاء دور طه حسين في وزارة ٥٠
- نتائج أخيرة.

لم تعمل المؤثرات الشخصية/ الحزبية بمعزل عن المؤثرات الوطنية أو الثقافية في تحديد موقف طه حسين من قوى الوجود الأجنبي في مصر، إذ تداخلت جميعًا، بشكل يصعب معه تحديد المؤثر الفعال - الوحيد- في هذه العلاقة، ومن هنا سيكون علينا رصد هذه العناصر وتحديدها على النحو التالي:

أولاً: تحليل موقف طه حسين الخاص من قوى الاحتلال.

ثانيًا: الإشارة إلى أن هذا الموقف يرتبط بتواجده في معسكر هذا الحزب أو ذاك.

ثالثًا: الإشارة إلى أنه يرتبط، سيما بعد عودته من البعثة مباشرة، بثقافته الفرنسية والملابسات التي عملت على دفعه إلى تبني علاقة ضد الوجود الأجنبي في البلاد.

وكما أن قوى الاحتلال، كما عرفنا، من أهم الأسباب التي دفعت بالقوى الوطنية إلى إقامة الأحزاب، كذلك، فإن قوى الاحتلال هي التي دفعت بالأحزاب إلى تحديد دوافعها وتياراتها، وهو ما يعود إلى الخلافات التي تنشأ عادة بين القوى الوطنية في مواجهة القوى الاحتلالية.

وباختصار شديد، ففي عام ١٩٠٧ الذي تم فيه إعلان قيام الأحزاب

وتحديد مواقفها من قوى الاحتلال، فإن جملة من التطورات دفعت بالحزبية إلى السير في اتجاهات متناقضة لمواقفها الأولى، بينما يظل الحزب الوطني سادرًا في هجومه على المستعمر، فإن حزب الأمة يتخلى عن أسلوب المهادنة إلى أسلوب الهجوم بسبب العديد من الأحداث الطارئة منها التقارب بين الخديو والسلطة الاحتلالية وتصريحات اللورد جراي في مجلس العموم المناهضة لمصر[٢٧٥]، وقد انتهى اختلاف الطرق بينهما إلى رفض كل منهما مبادئ الآخر لتعدد الولاءات حينئذ.

وهنا، نخلص إلى عدة ملاحظات بالنسبة لوجود طه حسين وعلاقاته بالمستعمر في هذا الوقت نفصلها كما يلي:

إن نشأة الأحزاب وتطورها عاصر فترة تطلع طه حسين إلى الجامعة وارتيادها، وإيثاره للفكر الجديد الوارد من الغرب.

كما أن زعماء الأحزاب كان لهم تأثير كبير في توجيهه، فقد كان يختلف إلى الشيخ عبد العزيز جاويش من زعماء الحزب الوطني فيسمع له صوتًا عذبًا، وحديثًا لينًا رقيقًا، ويرى وراء هذا اللين، وتلك العذوبة، عنفًا أي عنف، إذا ذكرت السياسة، وقد كان جاويش يحبب العنف إلى الفتى ويرغبه فيه، ويزين إلى قلبه الجهر بخصومه الشيوخ، فقد كان يرى أنهم آفة هذا الوطن يحولون بينه وبين التقدم بما كانوا يلجئون فيه من المحافظة ويعينون عليه الظالمين بممالأتهم للخديو ومصانعتهم للإنجليز[276] أضف إلى ذلك تأثير عائلة عبد الرازق أكثر من غيره، ثم هذا التشجيع من لطفي السيد الذي علمه ((اللفظ والأناة في التفكير)).. ويمكن أن نفهم العلاقة بين عائلة عبد الرازق والإنجليز، حتى نعلم أن كرومر كاشف أخصاءه المترددين عليه أمثال حسن باشا عبد الرازق فأطلعوه على ((فكرة الشيخ محمد عبده لنشأة حزب الأمة فوافق عليها))[277].

وخلاف الأحزاب انعكس على موقفه.. فقد بلغ النفور بين الأحزاب إلى درجة أن مصطفى كامل لم يتردد عن إنزال أقصى الاتهامات للأحزاب الأخرى المنافسة، وبالذات (حزب الأمة) والذي ألصق بهم تهمًا عديدة، من بينها، أنهم جواسيس وخدام المحتلين والخونة والأشرار وما إلى ذلك[278]، وهو ما يتمثل في تنقل طه حسين بين هذا الموقف أو ذاك بما له من تأثير

([٢٧٥]) يونان، السابق ص ١٩٤.

([276]) الأيام ج ٣ ص ٢٠

([277]) الشعب ١٩١٢/٥/٢٦.

([278]) يونان لبيب، السابق ص ٨١

في موقفه من قوى الاحتلال.

وقد أشرنا سلفًا إلى اختلاف طه حسين إلى هذا الحزب أو ذاك، وهو ما يصل بنا أكثر إلى تحديد موقفه من الوجود الأجنبي، ففي حزب الأمة قد تعرف على ممثليه مبكرًا، كما أشرنا، تحدد موقفه من موقف الحزب من قوى الاحتلال، وهو لم يهاجم الإنجليز هجومًا عنيفًا قط، بل لم يتحدث عنهم حديث الذي يطلب الاستقلال بالدرجة الأولى، وهو ما يصوره اتجاه الحزب(279).

وبدلاً من مهاجمة سياسة الإنجليز في مصر، راح يوجه هجومًا حادًا على الحزب الوطني الذي كان قد أطلق عليه من جانب المعتدلين في حزب الأمة (حزب الطيش) مصرحًا وملمحًا في عديد من المواقف هذا الموقف(280)، وربما يكون هذا الموقف وراء السبب الذي جعله لا يهتم بموت مصطفى كامل زعيم الحزب الوطني أو يكتب عنه رثاء.. إذ تشير كثير من الدلالات إلى موقفه غير المنصف من مصطفى كامل حينئذ.

غير أنه بدخول الأحزاب عام ١٩٠٨ وما اتضح خلاله من الصدام بين القوى الوطنية وقوى الاحتلال حيث تأكد لحزب الأمة عدم جدوى اتباع سياسة تأجيل قضية الاستقلال.. فإن خط حزب الأمة بدأ ينحرف إلى اتجاه آخر متقدم، فبدلاً من انتظار الاستقلال والانشغال بغيره، بدأ الاهتمام به والمطالبة بإنجازه لسبب اكتشفه، هو، أن الاحتلال لن يسمح لأية قوة وطنية، مهما تكن من سياستها الصادقة أو المهادنة مع الإنجليز الاستعداد لنيل الاستقلال.

ومن هنا، ترصد التطورات السياسية أمرين:

أحدهما: تحول خط حزب الأمة إلى خط الحزب الوطني بالنسبة إلى مواجهة الاحتلال.

وثانيهما: أن هذه المواجهة تحددت في الصحف التي أخذت الحزب الوطني فيها نصيب الأسد، إذ كان له وحده خمس صحف استخدم فيها وسائل الهجوم الحاد ضد وجود الاحتلال، فتناولت في هذه الفترة الكثير من الموضوعات التي كان لها حساسية كبيرة بالنسبة للإنجليز.

وهو ما يفسر أن هذه الفترة التي امتدت بين عامي ١٩٠٨/ ١٩١٠

---

(279) الجريدة ١٩٠٧/٤/٣٠

(280) الجريدة ١٩٠٨/١/١

وفي قصيدة رثاء حسن عبد الرازق جاء هذا البيت:

ومن يدعي بالطيش نصرة قومه ورائده الأهواء أنى تيمما

امتلأت صحف الحزب الوطني بقصائد طه حسين الشعرية التي تترجم اتجاهه وتصوره في خط الحزب الوطني وحده.

ففي صحيفة (مصر الفتاة) يكتب قصيدة يهاجم فيها ظلم الإنجليز لمصر[281]، وفي قصيدة تالية يهاجم المحتل هجومًا عنيفًا في مناسبة خروج عبد العزيز جاويش من السجن وكان السبب الوحيد هو كتابته لإحدى المقالات التي هاجم فيها الإنجليز بعنف[282]، داعيًا إلى أن يعلو صوت الشعب من أجل الجلاء مهما تكن التضحيات، وفي مرة أخرى، وكانت الحكومة المصرية تنوي مد الامتياز لشركة قناة السويس، وما إن عارض الرأي العام، حتى أعلنت الحكومة أنها ستعرض الأمر على الجمعية العمومية[283]، فإنه راح في قصيدة يهاجم بعنف هذا المشروع الذي عارضته كل صحف الأحزاب[284]، وهو موقفه أيضًا في عديد من الموضوعات الأخرى من أمثال قضية إغلاق الصحف التي أصدر فيها قانون المطبوعات لتقييد حرية صحافة الحزب الوطني بوجه خاص.

وبمجيء عام ١٩١٤ حدثت تطورات عديدة أنهت اهتمام طه حسين بالسياسة، فقد كانت سلطات الاحتلال انتهت من قمع الحركة الوطنية باستخدام أساليب البطش، فإذا بزعامات الأحزاب تتخذ مواقف جديدة، إما الهجرة إلى الخارج (الحزب الوطني)، أو العودة إلى حد الاعتدال (حزب الأمة)، فضعفت الحركة الوطنية.

في هذا الوقت كان طه حسين يتجه إلى الخارج في بعثته الدراسية لينتهي بعد سنوات، ويعود إلى مصر عام ١٩١٩ في الوقت الذي كان الوفد فيه يلعب دورًا وطنيًا للعمل على حصول مصر على استقلالها.. كما تحولت الفئات التي تلتف حول بقايا حزب الأمة إلى جانب عدلي يكن وهو ما انتهى بهذه الفئات إلى الخروج عن الوفد فيما بعد في تكوين حزب الأحرار الدستوري الذي أعلن عن نفسه في أواخر أكتوبر ١٩٢٢.

وحينئذ بدأت مرحلة جديدة لكفاح مصر ضد الوجود الأجنبي.

بعودة طه حسين من البعثة في أكتوبر عام ١٩١٩ أسهم في تحديد موقفه عامل ثالث، فإلى جانب تأثير زعماء حزب الأحرار الدستوريين الذين كانوا في الوقت نفسه أساتذة وأصدقاء، كانت الثقافة الفرنسية قد

---

(281) مصر الفتاة ١٩٠٩/٢/١٨

(282) السابق ١٩٠٩/١٠/١

(283) مذكرات هيكل ج ١ ص ٤٠، أيضا: ٥٠ عاما على ثورة ١٩ ص ٣٨

(284) مصر الفتاة ١٩٠٩/١١/٥

تركت خطوطًا عميقة في فكره.

سوف نتعرض لعنصر الثقافة الفرنسية لنرى إلى أي مدى أثر ولاء طه حسين الثقافي في تحديد اتجاهه وموقفه من قوى الوجود الأجنبي سواء في فترة العشرينيات أو في فترة اشتعال الحرب العالمية الثانية.

إلى جانب تحديد المصدر الأول في ولائه الثقافي أثناء بعثته في فرنسا لسنوات، وهو ما ظهر في كتاباته الفكرية منها والإبداعية وهي كثيرة[285]، طيلة حياته فقد لوحظ الميل الحاد في كل ما كتب فيما بعد إلى فرنسا حيث كان يقضي فيها شطرًا كبيرًا من حياته كل عام..

لقد تتالت كتاباته من باريس وعن باريس في صحيفة (السياسة) خاصة، أثناء هجومه على وزارة يحيى إبراهيم التي تعاونت مع الإنجليز[286]، كما أكمل في باريس كتاباته بعد أزمة (في الشعر الجاهلي) التي جمعت فيما بعد وأرسلت من هناك لتنشر هنا[287]، وقد دافع فيها كثيرًا عن مظاهر الحياة الفرنسية، فدافع فيما دافع عن المدرسة الفرنسية في معاركه[288]، فضلاً عن حزنه العميق لهزيمة فرنسا في الحرب العالمية الثانية وقد ملأ في هذا فصولاً كاملة متناسيًا كثيرًا من المجازر والمهازل التي ارتكبتها فرنسا في أنحاء العالم العربي خاصة المغرب العربي وحوله وبشكل لا يمكن إغفاله مهما يكن التأثر بهذه الحضارة أو المدنية الغربية فقد كان طه حسين قد جاوز الخمسين في هذا الوقت، ولم يكن يشفع له سن الشباب وتسرعه أو انقطاع الأخبار عما يفعله المستعمر الفرنسي حوله بأي شكل مما لا يمكن معه إعفاؤه حينئذ من تهمة الانحياز للفرنسيين بغير مبرر كاف.

وقد تحددت علاقاته بالفكر الفرنسي في أكثر من ثلاثة عناصر:

- المشاركة الوجدانية: فليس أحب إليه من (الحديث عن باريس)[289]، كما أن باريس تختصر العالم الإنساني باختلاف أزمنته وأمكنته، وهو لا يكف عن إبداء إعجابه بالأدب الفرنسي والفن الفرنسي ورجل الدين هناك

---

(285) انظر الفصل الأول، المصدر الفرنسي.

(286) السياسة ٢٣/٤/١٥، وقد نشرت في السياسة والهلال والحديث بين عامي ٢٤/ ٣١، وجمعت فيما بعد في كتاب (صوت باريس).

(287) جمعت فيما بعد في كتاب (في الصيف).

وجمعت في كتب كثيرة أهمها (من أدب التمثيل الغربي)، و (فصول في الأدب والنقد)، و(من بعيد)، و(رحلة الربيع)، و(حافظ وشوقي)، و(ألوان).. إلى غير ذلك.

(288) مقالات بعنوان (لاتينيون وسكسونيون) بين ١/ ٢، ٣٣/٢/١٥ بصحيفة الجهاد.

(289) من بعيد ص ١٧٣ وما يليها، أيضا كمال قلته ص ٤٧.

إلى غير ذلك من المظاهر الفرنسية المحببة إليه..
-المقارنة الأدبية.
- الترجمات.. وهذان العنصران يمثلان أهم العناصر لديه، فهو قلما تحدث عن شاعر أو كاتب عربي دون أن يذكر شاعرًا أو كاتبًا فرنسيًا، وهو لا يقارن جنسًا من الأجناس العربية دون أن يجد له شبيهًا في الأدب الفرنسي، وكتبه المترجمة عن الفرنسية تناهز السبعة أتمها بين عامي ٢٠-٥٩ على وجه التقريب فضلاً عن الترجمات لأساطين الأدب والفكر الفرنسي التي تتناثر هنا وهناك في أعماله.

ويمكن أن يضاف إلى ذلك كله علاقاته الخاصة بفرنسا، فزوجته فرنسية، وقد كان يحمل لها، لظروفه الخاصة إحساسًا ((أثيرًا))[290]، وأبناؤه عرفوا التعليم والثقافة الفرنسية، كما أن أغلب أصدقائه سواء من مصر أو خارجها ممن ينتمون إلى فرنسا أما بالجنس أو بالثقافة بدءًا من عائلة آل عبد الرازق وانتهاء بأستاذه أوجست كونت لما له من تأثير كبير في مذهب التفكير في النظر إلى الفلسفة، أو صديقه أندريه جيد الذي تعد شخصيته نموذجًا مثاليًا لعقد دراسة مقارنة مع نموذج طه حسين سواء في الشخصية أو الطباع أو النتاج الفكري.. إلى جانب أن التقدير الكبير الذي لاقاه في حياته كان من فرنسا، إذ حصل منها على وسام الليجون دونير[291]، ونال كثيرًا من الشهادات العلمية كالدكتوراة من جامعات ليدن ومونبلييه وباريس، كما اختير عضوًا أجنبيًا في المجمع العلمي الفرنسي إلى غير ذلك من الاحتفاء الذي وجده في المراكز الفرنسية.

وسوف نحاول رصد موقفه من الإنجليز بشكل أكثر عملية حين نصل إلى الحرب العالمية الثانية، لنرى، إلى أي مدى يلعب مؤثر الثقافة الفرنسية دورًا كبيرًا في تحديد موقفه من قوى الاحتلال الأجنبي.

على أنه مهما يكن من تحديد مؤثرات عديدة وراء علاقاته بالوجود الأجنبي، شخصية كانت أو حزبية، فإنه لا يجب إغفال مؤثر آخر أرجأناه حتى الآن، وهو المؤثر الوطني، فطه حسين، وهو ما لا يمكن إنكاره، لم يتخل في كل مراحل حياته عن المشاعر الوطنية، وأنى له أن يتخلى مع وطأة المستعمر واشتداد سياسته، فقد ولد في بداية العقد التاسع في القرن الماضي حيث كان الاحتلال البريطاني قد وطد سيطرته على البلاد بعد هزيمة أحمد عرابي عام ١٨٨٢.

---

(290) الأيام ج١ ص ١٥٢

(291) دار المحفوظات، خطاب وزارة الخارجية، إدارة المراسيم ١٩٠٨/٧/١٩.

وقد ظهر شعور طه حسين منذ فترة مبكرة من حياته، فقصائده الأولى نطقت بإحساس بشع من (أهل الغرب)[292]، و(ظلم الإنجليز لمصر)[293].. إلى غير ذلك من القصائد التي تقتصر في أغلبها على الهجوم على المحتل الأجنبي والمستعمرين[294].. ولا يكاد يرحل بعدها إلى باريس في العشرينيات حتى يجد نفسه أمام رجل من رجال الأمن الغربيين يسأله عن جنسيته، وحين يجيب (مصري)، يعود الصوت بعد فترة تحير (أنت رعية مصري، وحماية إنجليزي) ويعلق طه حسين على هذا الصوت الذي أتى مسرعًا وكأنه وجد شيئًا ضائعًا، فيقول (خرجت ممزق القلب منكسر النفس)[295].

وبعد أن يعود إلى أرض الوطن بعد ثورة ١٩، فإن مشاعره ضد الإنجليز تبلغ أقصاها، وحين يضطرب الأمن العام على أثر إطلاق النار على الإنجليز وتطبيق الحكم العرفي على البلاد متسائلاً في ضيق شديد، لماذا لا يطبق الحكم العرفي على الأجانب أيضًا؟[296].

ومع أنه لم يتوقف عند انتقاد ظلم المستعمر قط[297]، والمنافسة الأوروبية والظلم الأوروبي وهو ما حال بيننا وبين التقدم والرقي[298]، فإنه لم يتوقف لحظة عن التفرقة بين حضارة الغرب وهيمنته الاستعمارية، ووضع حدًا فاصلاً مرئيًا وغير مرئي بين جشع الدول الغربية وبين ثقافتها.

ومع أن القضية الوطنية تتقلب في أدوار مختلفة بين يدي الأحزاب المصرية، وقد كان كاتبًا في صحف هذا الحزب أو ذاك، ومع أن ممارسة الحكم في مصر تتأثر بمدى هيمنة قوى الوفد أو القصر أو الإنجليز على أداة الحكم.. فإن إحساس طه حسين الوطني لم يتغير قط.

وسوف تكون أغلب عناصر هذا الفصل برهانًا على وطنية طه حسين التي لم تتأثر بالميل إلى قوى من القوى الثلاثية بوجدان وطني لم يجد بدًا، قط، من الالتزام بمصر ومصلحتها.

وقد يكون من المناسب أن نبدأ الآن بموقفه من الوجود الأجنبي بعد

---

(292) الجريدة ١٩٠٨/٨/١.
(293) السابق ١٩٠٩/٢/١٨
(294) مصر الفتاة ١٩٠٩/١١/١٥.
(295) كوكب الشرق ١٩٣٣/٣/١٥
(296) سوزان ص ٤٨
(297) فصول في الأدب والنقد.
(298) مستقبل الثقافة في مصر.

عودته من فرنسا مؤثرًا أن يلعب دورًا حيويًا مع حزب الأقلية.

المعروف أن تأثير الإنجليز في الحياة السياسية المصرية لم يقتصر على الفترة التي سبقت صدور دستور ٢٣ وحده، وإنما امتد هذا التأثير في مسألة تشكيل الوزارات وإسقاطها خاصة في الثلاثينيات والأربعينيات، وهو ما نستنتج منه درجة تأثير هذا الوجود الأجنبي في إدارة شئون البلاد، وهو ما يتأكد معه أن أي أمر من الأمور إن لم يقرره الإنجليز، فهم على الأقل على علم وثيق به.

ومن هنا، يفهم دور الوجود الأجنبي خلال محاولة الأحزاب لإجراء الجلاء أو خلال تناوب الأحزاب السلطة أو –حتى- خلال علاقة الأحزاب بعضها ببعض وتأثير هذا في القضية الوطنية، وهو ما نستطيع الإشارة إليه بوضوح عند تحديد موقف طه حسين من هذا الوجود أولاً، ثم تحديد موقف حزب الأحرار الدستوريين من هذا الوجود ثانيًا.

لم يكن الإنجليز راضين عن برنامج حزب الأحرار الدستوريين(299)، لما تضمنته مبادئه من دعوة للجلاء بمعناها العسكري والأجنبي، وقد نصت المادة الأولى منه، وهو من أربع نقاط، على (الاستمرار في العمل لاستكمال الاستقلال الفعلي التام، وإنهاء الاحتلال البريطاني)، وعلى هذا النحو، فمهما قيل من إيثار الإنجليز لهذا الحزب حينًا أو لوزارة من وزاراته حينًا آخر، فإن قضية الجلاء كانت قد فرضت نفسها على الأحزاب والوزارات في مصر جميعها مما لم يعد معه فكاك عن الانشغال عن القضية الوطنية أو تأجيلها بأية حال من الأحوال.

وقد كان موقف طه حسين من الوجود الأجنبي هو صدى لموقف حزب الأحرار في كثير من الأمور، فما كادت تتم لجنة الدستور عملها في ٢١ أكتوبر ١٩٢٢ حتى كانت وزارة صدقي تعاني من خلافات حادة مع الإنجليز نتيجة لسببين:

الأول: الأزمة التي أثيرت حينئذ حول النصوص الخاصة بالسودان في مشروع الدستور، والتي لم يرتح لها المندوب السامي.

الثاني: الخلافات التي كانت تنشب بين ثروت واللنبي حول تعيين الموظفين الأجانب.

أما أزمة الدستور فهي تبدأ على أثر خلاف بين الإنجليز والحركة الوطنية حول نصوص الدستور، فبينما نصت المادة ١٩٢٩ على أن (الملك

(299) أحمد شفيق، حوليات ج ٣ ص ٣٣٩

يلقب بملك مصر والسودان)، والمادة الثانية ١٤٥ على أن (تجري أحكام هذا الدستور على المملكة المصرية جميعها عدا السودان، فمع أنه جزء منها تقرر نظام الحكم فيه بقانون خاص)[300]، فإن الإنجليز رأوا في هذين النصين ما يتعارض مع احتفاظهم بتصريح ٢٨ بمسألة السودان، وأن يشار إلى أن نظام الحكم في السودان يقرر بعد الاتفاق بين مصر وإنجلترا.

ومع الضجة التي أحدثها حزب الأحرار، والرفض الذي أبداه الملك، لم يجد الإنجليز غير توجيه إنذار عنيف إلى الملك في ٢ فبراير ٢٣ مستندين إلى عرض قوات عسكرية[301]، بقصد الترهيب وإرغام الملك على القبول.

وفي هذا الوقت، كان يحتدم الخلاف بين ثروت واللنبي أيضًا على تقرير مبلغ التعويضات اللازمة للموظفين الأجانب، ممن تقرر أن يتركوا خدمة الحكومة المصرية إلى الحد الذي دفع الجانب البريطاني في التفكير في وقت ما بفرض إشرافه على مصدر من مصادر الدخل المصرية، فضلاً عن بعض الخلافات الأخرى مثل الاعتداء على بعض الشخصيات البريطانية.

وقد كان موقف طه حسين واضحًا من هاتين القضيتين بحيث أغضب الإنجليز منه غضبًا شديدًا، وقد تحدث بسخرية مرة عن إهمال لقب مصر والسودان في دستور ٢٣، كما اعترض بشدة عنيفة على التعويضات الضخمة التي كانت تطالب بها إنجلترا لموظفيها (المستغنى عنهم بعد الاستقلال)[302].

وعلى الرغم من أن هذه الأزمات انتهت باستقالة ثروت خاصة وأن الملك كان يعمل على المساس بحق الأمة في الدستور، فإن نسيم لم يعمل بعده على استصدار الدستور كما هو وإنما عرض المشروع على لجنة استشارية تابعة لوزارة الحقانية، فقدمت هذه عددًا من التعديلات التي تكرس سلطة الملك على حساب الأمة المصرية مما دفع (السياسة) إلى أن تعمل على تحريض الأمة على الاحتجاج، وهنا، تساءل طه حسين أحد كتاب صحيفة السياسة) المعروفين حينئذ، يقول ((كيف ترضى الوزارة خلو الدستور من ذكر السودان؟ أكانت حين فعلت ذلك متفقة مع الوفد

---

(300) الرافعي، في أعقاب الثورة ج١ ص ٩٢، أيضا: تطور الحركة الوطنية ٥، عبد العظيم رمضان ص ٣٨١،هيكل ج١ ص ١٣٠/ ١٣١، الرافعي ص ٩٢، حسن يوسف ص ١١.

(301) الرافعي، السابق ص ١٢٨، أيضا: أحمد شفيق، الحوليات ج٣ من التمهيد ص ٧٠٧، أحمد زكريا، الأحرار ٢٣٦.

(302) الزيات، ٢٢ يناير ٨٢ ج٢.

عليه))[303].

وما كاد السردار يلقى مصرعه، حتى يصدر حزب الأحرار احتجاجًا ونداء ذكروا فيه أن الإنجليز انتهزوا الفرصة لجعل المسألة سياسة واعتداء بجبروت القوة على استقلال مصر وسيادتها ولتغيير المسائل المعلقة للمفاوضات بين الدولتين[304]، ورغم هذا، يصدر الحكم في ٧ يونيو ١٩٢٥ في هذه القضية على ثمانية بالإعدام شنقًا وحبس الآخرين[305]، وهنا يستشيط طه حسين غضبًا سواء من مطالب الحكومة الإنجليزية عقب الاعتداء مباشرة، أو من قسوة هذا الحكم سيما من محكمة إنجليزية كان أحد أعضائها إنجليزيًا وهو المستر كيرشو ((برغم اقتناعه التام من أنه كان لا مناص من ذلك))[306].

وتمضي وزارة نسيم وتأتي وزارة يحيى إبراهيم ثم وزارة سعد زغلول ليشغل طه حسين في معركة عنيفة ضد هذا وذاك، ويشغل بدرجة أقل بالتطورات السياسية، ولا يلبث أن يسوده السكون، فيصمت مؤثرًا أن يظل بعيدًا عن الأحداث[307].

ويبدو أن الإنجليز قد ضاقوا ذرعًا بمواقف طه حسين المتتالية المعادية لسياستهم على طول الخط خاصة في الأزمات الأخيرة، ومن هنا، تحول الاتجاه في الفترة التالية إلى النيل منه، واهتبال أية فرصة للتضييق عليه.

يمكن رصد المواقف التي حاول الإنجليز الاستفادة بها للنيل من طه حسين على النحو التالي:

١- أزمة كتاب (في الشعر الجاهلي) عام ١٩٢٦.
٢- أزمة عمادة كلية الآداب عام ١٩٢٨.
٣- أزمة الشهادات الفخرية عام ١٩٣٠.

وعلى الرغم من أننا أشرنا لبعض هذه المواقف، فإننا نحاول هنا رصد موقف الإنجليز منها في علاقاتهم بطه حسين في هذه الأزمات لما لها من تأثير كبير في تحديد موقفه من الوجود الأجنبي ومواجهته في فترة لاحقة.

بالنسبة إلى أزمة كتاب (في الشعر الجاهلي)، فما كادت تبدأ الأزمة

---

(303) السياسة ٢٣/٢/٤، أيضا ٥، ٢٣/١/٧، وظل يرسل من باريس هجوما عنيفًا على وزارة نسيم في فترة وجودها.

(304) السياسة ١١/٣٠ /٢٤.

(305) الرافعي، في أعقاب الثورة ج ١ ص ٢٣٦.

(306) سوزان ص ٧٥

(307) سامي الكيالي ص ٥٢

حتى تظاهروا بعدم المبالاة، وأن الأمر لا يهمهم في شيء بقدر ما يهمهم حرية الرأي، ففي الوقت الذي كان فيه السفير البريطاني يدخل إلى مكتب رئيس الوزراء المصري، مندهشًا من (حكاية طه حسين دي)، فإن المندوب السامي البريطاني في هذا الوقت راح يسجل كل ما يحدث من تطورات الأزمة وملابساتها ويرسل بها إلى حكومته، وقد كانت الحكومة الإنجليزية على خلاف تام مع وزارة عدلي.

والواقع أن اهتمام الإنجليز لم يعكس موقفًا حادًا إزاءه، فإن دورهم حال دونما اتخاذ موقف نظرًا لوجود ائتلاف بين الأحزاب، ومن هنا، لم يكن موقفهم من القوة بحيث يمكن أن يؤثر في أزمة مثل أزمة (الشعر الجاهلي) بشكل مباشر، وهو الأمر الذي يمكن أن يقال معه، إن عدم التدخل الإنجليزي حال دون هدوء الأزمة. ومع أن عدم التدخل يمكن أن يترجم ضد طه حسين، فإن الإنجليز ما كانوا ليترددوا في التأثير في القضية ضده وفي غير صالحه.

على أن ثمة موقفًا آخر بدأ فيه الإنجليز أكثر عداء في مسألة تعيين عميد لكلية الآداب عام ٢٨، فما كاد يعين طه حسين عميدًا للكلية عام ٢٨ بدلاً من العميد السابق كيرشو، حتى أجبر على الاستقالة مرة أخرى، وقيل ضمن ما قيل في تفسير هذا أن الإنجليز كانوا وراء ذلك.

والأحداث تقول أنه ما كادت تتم عملية الانتخابات حتى نجح طه حسين، وما كادت ترفع نتيجة الانتخاب إلى وزير المعارف وكان في هذا الوقت علي الشمسي حتى أصدر قرارًا بتعيينه عميدًا، ولم تمض ساعات حتى طلب منه الاستقالة قبل أن يتولى مهام منصبه الجديد، وإذا كانت علاقة علي الشمسي به علاقة طيبة منذ وقف إلى جانبه في أزمة (الشعر الجاهلي)، فإن طه حسين هذه المرة راح يشترط للتنحي أن يعين ويستقيل في نفس اليوم (٤ يناير ٢٨)، [أي يعين لمدة يوم واحد فيكتب بعده استقالته].

وقد كتب بالفعل هذه الاستقالة بعد توقيع بعض الأوراق، طالبًا في نهاية الفترة الوجيزة أن (يتم نقلي في عمل آخر غير كلية الآداب)[٣٠٨].

ويبدو أن استقالة طه حسين جاءت نتيجة لضغط الإنجليز، فإلى جانب أن العميد السابق كان إنجليزيًا، فإن الإنجليز كانوا في هذا الوقت يعتبرون أنفسهم ((مسئولين عن الأجانب حسب التحفظات الأربعة الشهيرة، وهم

---

(٣٠٨) السابق، خطاب استقالة طه حسين إلى وزير المعارف في الملف الخاص بطه حسين.

على هذا الأساس يهتمون بمناصب العمادة في الجامعة إذ أصبحت حكومية ويريدون أن يحتفظوا بها للأجانب))[٣٠٩]، وعلى هذا فإن كراهية الإنجليز لطه حسين فضلاً عن مصلحتهم كانت كافية للعمل على استقالته.

وقد رضخت الجامعة ووزير المعارف بالفعل للأمر الواقع، وقد كان هذا، بشهادة الكثيرين في هذا الوقت، ومنهم مدير الجامعة، يحول دون الاختلاف مع سياسة الاحتلال و((منع اصطدام الإنجليز بالحكومة))[٣١٠]، وهو ما يؤكد موقف الإنجليز منه وتدخلهم في شئون الجامعة حين يتعارض ما يجري فيها مع مصلحتهم.

على أن المرة الثالثة التي حاول الإنجليز فيها النيل من طه حسين كانت في وزارة صدقي.. فعلى الرغم من أن هناك أسبابًا كثيرة تفسر إبعاد طه حسين من الجامعة، فإن الوثائق البريطانية تقدم لنا شيئًا مختلقًا لا يمكن إغفاله.. تؤكد الوثائق أنه حين طلب منه الموافقة على منح درجة الدكتوراة الفخرية لقائمة من الأساتذة والسياسيين وبعضهم إنجليز، فإنه رفض.

وعند زيارة الملك فؤاد إلى الجامعة لتوزيع الشهادات الجامعية على أصحابها في فبراير ٣٢ فقد جاء في خطاب وزير المعارف حينئذ أن النية متجهة إلى منح عالم بلجيكي درجة فخرية دون أن يستشير المسئولين في الجامعة، فإن طه حسين عارض واعترض على ذلك.

وقد كتب المندوب السامي البريطاني سير برسي لورين مركزًا على ما ترتب على هذا من إحراج للوزير مؤكدًا أن ((طه حسين هو المسئول عن هذا الإحراج))[٣١١]، مما يستشم معه أنه غير راض عن موقف العميد الجديد المعروف بعدائه للإنجليز بوجه خاص.

فإذا كان الإنجليز قد لاحظوا موقف طه حسين، فمن البديهي أنهم كانوا وراء إجراءات صدقي في قرار إبعاده من الجامعة، فقد كان صدقي من بين السياسيين المعروفين بولائهم للإنجليز بقدر ولائهم للقصر والميل إلى ((الارتماء في أحضان أي منهما لنجدتهم إذا ما بدت لهم أبسط مشكلة)).

وقد أدرك طه حسين أن موقف صدقي كان بإيعاز من الإنجليز، فقد كان السائد حينئذ، هو أن ((صدقي باق في منصبه لا لشيء، إلا لأنه قد يلقى

---

(٣٠٩) الزيات ٢٢ يناير ٨٢ ج ٢

(٣١٠) السابق.

(٣١١) public Record: Fo. 407/214 from sir Percy Lorain sir John simon, march. 3, 1932.

تأييدًا من بريطانيا، وإذا سحب هذا التأييد مرة فسيسقط لا محالة))[٣١٢]، وقد استطاع صدقي بالفعل، الحصول على تأييد سير بيرسي لورين المندوب السامي البريطاني، لذلك ((كان قادرًا على أن يبقى حتى عندما سئم منه الملك، وفي النهاية سقط عندما نقل سير بيرسي لورين)) ورأت الحكومة البريطانية أنها في حاجة إلى تغيير سياستها كما سنرى.

وعلى هذا النحو، جاء موقف طه حسين من صدقي في الفترة التي تولى فيها الوزارة بين عام (٣٣/٣٠) نتاجًا لحقيقتين انتهى إليهما ودفعتا به إلى اتخاذ موقف عدائي من وزارة صدقي لا لأنها الإدارة التي عملت على إبعاده من الجامعة أولاً، وإنما لكونها رمزًا للوجود الأجنبي الذي لولاه لما استمرت هذه الوزارة ثانيًا، فقد تكفل النفوذ الأجنبي بأن يضمن البقاء للوزارات مثل وزارات زيور ثم وزارة محمود وصدقي ثم وزارة عبد الفتاح يحيى التي جاءت بعد ذلك والتي رضيت أن تتعاون مع الإنجليز (حكومة صديقة.. خضعت لنا في كل المسائل الكبرى)[٣١٣].

هذا يفسر كثيرًا هجوم طه حسين في هذا الوقت على وزارة صدقي وامتدادها وزارة عبد الفتاح يحيى متخذًا من دائرة الهجوم محورين اثنين:

- إما الهجوم على صدقي ثم عبد الفتاح يحيى مباشرة.
- وإما الهجوم على الإنجليز بشكل مباشر وحاد أو من مثلهم كرمز للوجود الاحتلالي، وهو ما سنراه فيما بعد على أرض الواقع.

تميزت هذه الفترة بين عامي ٣٠/ ٣٤ بعدة أمور حددت كثيرًا من الأحداث في هذا الوقت، فعلى الرغم من سيطرة القصر ويعاونه أحزاب الأقلية على إدارة الحكم في وزارتي صدقي وعبد الفتاح يحيى، فإن الإنجليز كانوا أكثر الأطراف سيطرة على سلطة الحكم بمساندة الوزارة، وقد تعددت مظاهر التدخل والاستعلاء في أمور الحكم من قبل الإنجليز أكثر من مرة.

كما أن هذه الفترة شهدت نقل مندوب بريطاني وإرسال آخر (نقل السير برسي لورين ومجيء السير مايلز لامبسون) وهو ما انعكس في سياسة الحياد أو التدخل المباشر أو في معالجة الكثير من المشاكل المعلقة بين الدولتين.. ومن هنا يمكن تفسير علاقة طه حسين بالوجود الأجنبي في هذا الوقت.

لنر مظاهر هذه العلاقة..

---

(٣١٢) الرافعي، أعقاب، ج٢ ص ٢٢٨ وما بعده، أيضا: عفاف لطفي ص ٢٢٠ وما بعده.
(٣١٣) محسن محمد، عندما يموت الملك ص ١٢/ ٢٤/ ٣٤.

لم يدع طه حسين أية فرصة للنيل من الوجود الأجنبي في هذه الفترة ومهاجمته إلا واهتبلها، فهو في ذكرى شهداء ثورة ١٩ يسترجع الفترة التي عانى فيها الأمرين في بعثته حين كان يكشف عن نفسه من أنه مصري فيرد عليه بأن رعية مصري وليس مصريًا[٣١٤] فيصاب بالحزن الشديد.

ويعرض بوضوح إلى الشيء الذي كان يحكم العلاقة بين صدقي والإنجليز فيصفه بأنه ((صدقي باشا قد تحالف مع الإنجليز على أن يحكم بأمرهم في مصر وعلى أن يرعى مصالحهم، ولو عرض ذلك مصالح مصر للخطر والضياع، ومعنى ذلك أن بقاء صدقي باشا في الحكم خطر على حقوق مصر ومصالحها))[٣١٥]، وعلى هذا، يخلص في اليوم التالي إلى نتيجة مؤداها أن مذهب صدقي في الحكم هو أحد مذهبين ((أحدهما مذهب الذين يحكمون الشعب للشعب، والآخر مذهب الذين يحكمون الشعب لأنفسهم قبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء))[٣١٦].

وتثار في هذا الوقت قضية (التبشير) فيحمل طه حسين على الإنجليز ومكاتبهم التي ترى أن الهدف من التبشير هو الاعتداء على الأنفس والأموال، وتكون فيها الفرقة بين المسلمين وغير المسلمين، ويضطرب فيها النظام إلى أقصى غايات الاضطراب، ويلجأ فيها الأجانب إلى دار المندوب السامي مستغيثين ومنجدين، فيتسرع إليه بالغوث))[٣١٧].

وهو يشتم أن الإنجليز يحاولون الإفادة من قضية التبشير بالتدخل في شئون مصر الداخلية، حين يخرجون بهذه المسألة إلى موضع آخر فبدلاً من ((شعب يطالب بحرية حماية العقيدة، وحكومة تعمل ما استطاعت لتحقيق بعض ما يريد الشعب، ولكن الإنجليز أسرعوا فأخرجوا هذه المسألة من هذا الطور إلى آخر فقال وزير خارجيتهم في مجلس النواب منذ أسابيع أنه قد أذن للمندوب السامي بأن يتحدث إلى الحكومة المصرية في مراقبة التبشير والمبشرين. ومعنى أنه أمام إنجلترا قام الكفيل بحقوق الأجانب المدافع عنها وأبى على الحكومة المصرية أن تقضي كما تشاء في أحد التحفظات التي اتفق فيها مع مصر))[٣١٨].

وقد تركز هجوم طه حسين على صدقي من محور هام، هو أن اعتماده

---

[٣١٤] كوكب الشرق ١٥ مارس ٣٣.
[٣١٥] السابق ١٦ مارس ٣٣.
[٣١٦] السابق ١٧ مارس ٣٣.
[٣١٧] السابق ٢٧ يوليو ٣٣.
[٣١٨] السابق ٢٢ يوليو ٣٣.

على الإنجليز واعتماد الإنجليز عليه إنما هو نقصان من استقلال مصر أو النيل منها، ورصد مقالاته الطويلة في هذه الفترة وقد كان المقال لا يزيد في عنوانه عن كلمة مركزة على الإنجليز كقوة تتحكم في الوزارة تحكمًا مطلقًا(٣١٩).

وعلى الرغم من سقوط وزارة صدقي في سبتمبر ٣٣، فإن السياسة البريطانية في تأييد رجالاتها تسعى لإنجاح عبد الفتاح يحيى.. وقد تمخض عن هذا التغيير الشكلي استمرار السياسة البريطانية في مساندة الوزارة، ومن هنا الاستهانة بالوزارة القائمة، والتدخل بشكل مزرٍ في شئون مصر الداخلية كما هي الحال دائمًا في عهد صدقي.

وحدث أن صحب سقوط الوزارة نقل المندوب السامي من مصر وإرسال غيره في أغسطس ١٩٣٣، فواكب تغيير الوزارة تغيير المندوب السامي البريطاني أيضًا، وهنا واجه طه حسين عددًا كبيرًا من مظاهر التدخل الأجنبي، فما كاد ينتشر خبر نقل المندوب السامي حتى أخذ يبين في كتاباته كيف أن المندوبين الساميين السابقين فشلوا في مصر حين أراد أحدهم أن يأخذ مصر بالبطش، والآخر بالدهاء ((فلعل المندوب الجديد أن يلهمه الله أخذ مصر بالصراحة والصدق))(٣٢٠)، ولا يلبث في اليوم التالي أن يهاجم هؤلاء الإنجليز ((المقيمين في الندرة والقابعين بوزارة الخارجية))(٣٢١).

ويظل يعلق على نقل المندوب السامي مهاجمًا الإنجليز في استعراض سياستهم قبل أن يرحل مندوبهم(٣٢٢) مسترجعًا حال الإنجليز التي لم تتغير بعد ((فما زالوا كما كانوا لم يفاوضوا، ولم يعاهدوا ولا أظهروا تأنيًا في المفاوضات أو المعاهدة، وإنما غلوا في التسلط على مصر سواء جهرًا فحققوا ما أرادوا من المشارب وردوا مصر إلى مكان البقرة الحلوب من الشره النهم))(٣٢٣).

ولا تكاد تمضي أيام حتى يعود التدخل البريطاني ويعود هجوم طه حسين. فقد تبدى التدخل البريطاني هذه المرة ممثلاً في تصريح أحد أعضاء

---

(٣١٩) وكل مقالاته حينئذ تدور في هذا المحور، انظر على سبيل المثال: كوكب الشرق ٣٣/٣/١٥، ٣/١٩- ٣/٢٨- ٣/ ٤- ٤/٢٨- ١٩٣٣/٦/١٦.

(٣٢٠) كوكب الشرق ١٤ أغسطس ٣٣.

(٣٢١) السابق ١٥ أغسطس ٣٣.

(٣٢٢) السابق ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٨.

(٣٢٣) السابق ٣٠ أغسطس ٣٣.

لجنة ملنر السابقين وهو المستر سبندر منكرًا حقيقة استقلال البلاد، مؤكدًا أن سبندر ينسى، وتنسى الصحيفة التي نشرت في إنجلترا، والصحف التي تنشر له في مصر وتفسر كلامه في مصر أن مصر بلد مستقل استقلالاً لا نظير له في بلد من البلدان ((وأن هذا الاستقلال لا يبيح في يوم من الأيام للإنجليز أن يتدخلوا في شأن من شئوننا الخاصة، وأن يؤيدوا وزارة أو يخذلوها أو أن يقاوموا الشعب أو يعينوا على مقاومته))[٣٢٤].

وحين يدرك طه حسين أن وزارة عبد الفتاح يحيى هي صورة وزارة سلفه يجدد هجومه على الوزارة الجديدة سواء لأنها تؤيد الإنجليز وتلاينهم أو لما يراه من مظاهر التدخل الأجنبي في الشئون الوطنية دون أن تحرك له ساكنًا أو تبدي اعتراضًا.

وقد تمثل موقف طه حسين في هذه الوزارة في أهم مقالاته حينئذ بعنوان (طاعة) إذ أخذ يشير إلى افتتاح الوزارة القائمة سياستها بمثل ما كان يمضي به عهد الوزارة الميتة[٣٢٥]، ثم أشار بعدها، بسخرية ممضاة، إلى الإنجليز قائلاً: ((يجب أن نهنئ الإنجليز بقبول الوزارة لنصحهم وإنفاذ الوزارة لرأيهم، ويجب أن نهنئ الوزارة منذ اليوم بحب الإنجليز لها، وعطفهم عليها، ويجب بعد هذا وذلك أن نهنئ المصريين لأن الله قد حرمهم تقديم هذه الوزارة لهم وعطف الإنجليز عليهم))[٣٢٦].

وهو بعد هذا كله لا يترك فرصة إلا ويهتبلها للنيل من الإنجليز، ففي أثناء الاضطرابات بين العرب واليهود يتعجب ويكتب ((إن الإنجليز يريدون فلسطين لأنفسهم، وهم يتخذون الصهيونية سبيلاً إلى ما يريدون وهم لا يكرهون أن يقيموا بالعرب، وأن يقيموا بالصهيونية في سبيل الظفر بفلسطين))[٣٢٧].

وهنا لابد أن نشير إلى أن ما حدث هو العكس، فإن الصهيونية هي التي اتخذت الإنجليز سبيلاً إلى تحقيق أحلامهم، وإذا كان هذا الرأي من طه حسين يعكس قصر النظر السياسي، فهو يعكس كيف أن كثيرين من الكتاب والأدباء في هذا الوقت كانوا يقعون في قصر النظر الذي يبرر في عدم تبينهم لأيديولوجية الصهيونية وأطماعها حينئذ فضلاً عن أن الصهيونية لم تكن قضية ملحة تشغل الأذهان وتبرز خطورتها كما بدت بعد ذلك ويشترك

---

(٣٢٤) السابق ٢٧ سبتمبر ٣٣.
(٣٢٥) السابق ٢ أكتوبر.
(٣٢٦) السابق.
(٣٢٧) كوكب الشرق ٨ يناير ٣٤.

في هذا طه حسين وعباس العقاد وغيرهما ممن لم يستطيعوا أن يضعوا أيديهم على هذا الخطر كما يجب، وسوف نفصل هذه القضية خاصة في موضع آخر.

وفي يناير ١٩٣٤ يأتي المندوب السامي الجديد، فيلقى طه حسين تحذيرًا شديدًا يعقبه هجوم شديد يتتالى لفترة طويلة، فهو يلحظ رحيل مندوب ومجيء آخر واستمرار هذه الطقوس التي لا تتوقف في مثل هذه المناسبة حين تتكرر ((فالأمة المصرية لا تستقبل مندوبًا ساميًا إلا تمنت صادقة من أعماق نفسها أن يكون هذا المندوب آخر الممثلين الإنجليز الذين يصلون إلى مصر على هذا النحو، وبهذا الاسم، وبهذه الصورة)) موجهًا حديثه إلى المندوب السامي متمنيًا أن يكون ((المندوب السامي الجديد أكبر في نفسه وفي نفس أمته من هذا الغرور، ومن هذا الانخداع بالمظاهر الكاذبة التي لا تنفع الإنجليز ولكنها تؤذي المصريين))[٣٢٨].

وهو يترقب التقاليد البريطانية وعسفها في الحكم مؤكدًا ((لسنا في حاجة بالطبع إلى أن نقول أن هذه التقاليد التي يفرضها الإنجليز على مصر فرضًا ومنافية أشد المنافاة لكرامة مصر واستقلالها، مناقضة أشد التناقض لما ينبغي لمصر من العزة والسيادة، والذين يقرءون هذا الحديث كل يوم يذكرون من غير ذلك أننا كتبنا يوم مقدم المندوب السامي نذكر هذا كله، وتصور هذه المظاهر التي يحاط بها مقدم المندوب السامي ويختار بها من يقدم غيره من الممثلين السياسيين وتصور حزب المصريين))[٣٢٩]، مستطردًا أن نص المعاهدة التي تمت من قبل تمثل النص الوحيد الذي لم يعترف ((لممثل بريطانيا في مصر بأي امتياز يقدمه على غيره من الممثلين السياسيين))[٣٣٠].

وهو يتوقف في موضع آخر أمام ما نشرته ((التايمز)) من أن المندوب السامي الجديد إنما يمثل ((دور الإله الهابط من السماء))، متعجبًا بالتدخل الأجنبي في شئون مصر الوطنية فيهاجم الصحف منتهيًا إلى الإنجليز الذين ((يخدعون أنفسهم إن صدقوا مثل هذا الكلام))[٣٣١].

ولا يتوقف هجوم طه حسين على هجوم الإنجليز الذين لم يتوقفوا بالتدخل في شئون مصر، فحين تشير (المقطم) إلى أن المندوب السامي

---

(٣٢٨) السابق ٦ فبراير ٣٤.
(٣٢٩) السابق.
(٣٣٠) السابق.
(٣٣١) السابق ٣ مارس ٣٤.

تخلف في باريس يتحدث مع الفرنسيين في مسألة الدين يقول طه حسين ((فأنكرنا ذلك أشد الإنكار))، ومعنى هذا، يضيف، ((ومعنى هذا إن كنا نفهم اللغة العربية التي تتحدث بها (المقطم) أن الإنجليز يريدون أن يتولوا بأنفسهم مسألة الدين))[٣٣٢].. وتتكرر قضية الدين العام كمظهر من مظاهر التدخل في شئون مصر ويتكرر هجومه على الوجود الأجنبي[٣٣٣]، ولا يكاد يعود يوم الاستقلال في ١٥ مارس في ثورة ١٩١٩ حتى يجد طه حسين فرصة نادرة ليستعيد فيها أحداث هذه الثورة فيما انتهت إليه البلاد من الاستقلال ((تستطيع أن تسأل عنه، أي الاستقلال، أولئك الإنجليز الذين كانوا يصبون الموت على مصر صبًا ويحصدون رؤوس المصريين حصدًا ويظهرون من القوة والجبروت، ما يقدر عليه التسلط الظافر، وقد بسطت يده على شعب أعزل إلا من الحق، ضعيف لولا ثقته بالله))[٣٣٤]، ثم يكتب تحت عنوان (الاستقلال) لعدة أيام بعد ذلك مهاجمًا الإنجليز هجومًا عنيفًا، ((فإنهم ليعلمون حق العلم أن المصريين قد ضاقوا بهذا الهزل حتى سئموه، إنهم ليعلمون حق العلم أن المصريين قد ضاقوا بهذا الظلم حتى ضجوا منه))[٣٣٥].

وكتب في هذه الفترة مقالاً طويلاً نشر على مدى خمسة أيام بعنوان ((الآن)) واصل فيه هجومه على الإنجليز واعيًا بالدور الذي يقوم به الإنجليز في مساندة الوزارات الضعيفة وهو ما يعلمه المصريون جيدًا ((أن هذا الظلم الذي يريد الإنجليز أن يخدعوهم بما يتكلفون من رفع بعضهم عنهم إنما صدر قبل كل شيء وبعد كل شيء عن الإنجليز، فلولا الإنجليز ما كان صدقي باشا، ولولا الإنجليز ما نهضت الوزارة القائمة بما تنهض به من أعباء الحكم، ولا بقيت في منصب الحكم))[٣٣٦].

وأغلب كتاباته في هذه الفترة تدور في هذا المحور، كراهية الإنجليز والوعي لدورهم في التدخل الدائم وإضعاف النظم الدستورية والنيابية.

وعلى هذا النحو، تستمر كتابات طه حسين في مناسبات كبيرة تضرب على هذا الوتر: فهي تراقب كيف تطلب مدرسة المهندسخانة أستاذًا فترفض

---

(٣٣٢) السابق.
(٣٣٣) السابق ٣ مارس ٣٤، الوادي ٩ يونيو ٣٤.
(٣٣٤) السابق ١٥ مارس ٣٤.
(٣٣٥) كوكب الشرق ١٧ مارس ٣٤.
(٣٣٦) ١٥ أبريل ٣٤.

المصري وتطلب الإنجليزي[٣٣٧]، وزيادة عدد المشتغلين من الإنجليزفي المرافق المصرية[٣٣٨]، وتهاجم الوزير المسئول لاهتمامه بتعليم الإنجليز[٣٣٩]، وتنتهز فرصة مجيء ذكرى احتلال البلاد (٨٢) في ١١ يوليو فيندد بالاحتلال الإنجليزي البغيض[٣٤٠] ويهاجم تعيين الإنجليز في كلية الهندسة أكثر من مرة[٣٤١]، ويتصدى لهذا الأسقف الإنجليزي الذي يهاجم مصر والإسلام[٣٤٢]، وأولئك الإنجليز الذين يهاجمون جنازة أحد المواطنين لأسباب واهية[٣٤٣]، وأيضًا تعسف المواطنين الإنجليز في شئون البلاد[٣٤٤]، مهاجمًا (التايمز) أكثر من مرة فيما تبعث به وتنشره من أخبار خاطئة عن رحلة إلى الأقاليم المصرية[٣٤٥]، غاضبًا من إنجليزي يحطم علم مصر على مرأى من قوى المحتل[٣٤٦]، وتتوالى حركات الهجوم على المحتل في جميع أدواره وتحركاته في البلاد[٣٤٧].

وفي نوفمبر ٣٤ كان تدخل الإنجليز في شئون الحكم قد بلغ مداه مما دفع بعبد الفتاح يحيى إلى الاستقالة[٣٤٨]، فقبل الملك استقالته في ١٤ نوفمبر ٣٤ وقام بتسليمها إلى نسيم لتبدأ مرحلة جديدة عاش فيها طه حسين دورًا جديدًا من حياته بالنسبة لعلاقته بالإنجليز.. فقد عملت الوزارة الجديدة على إعادته إلى الجامعة ليعمل بها أستاذًا بكلية الآداب، وقد اختير عميدًا (من مايو ٣٤) واستمر في العمادة ثلاث سنوات أخرى (من مايو ٣٦).. ويلاحظ أنه في الفترة الأولى التي تقع بين عام ٣٤/ ٣٦ أقلع طه حسين عن المشاركة السياسية فلم يتعرض بشكل ما للسياسة الإنجليزية في مصر، وهو ما يعود، على ما يبدو، إلى أن رأيه تأثر باتجاهات حزب الوفد الذي كان وراء سياسة نسيم في وقت كان يواجه فيه مشاكل داخلية حالت بينه وبين التصدي للإنجليز.

---

(٣٣٧) الوادي ١٣ مارس ٣٤.
(٣٣٨) السابق ٢٢ نوفمبر ٣٤.
(٣٣٩) ١٠ يونيو ٣٤.
(٣٤٠) السابق ١١ يونيو ٣٤.
(٣٤١) السابق ١٥ يونيو ٣٤.
(٣٤٢) ٢٠ يونيو ٣٤.
(٣٤٣) ٢١ يوليو ٣٤.
(٣٤٤) ٣٤/٨/١.
(٣٤٥) ٣٤/٨/٥.
(٣٤٦) ٣٤/٨/٢.
(٣٤٧) الوادي ٧، ٩، ١٦، ٢٦، ٩/٢٧، ٢/٣٤/١٠، ١١/٥ /٣٤.
(٣٤٨) الرافعي، السابق ص ٢١٥، ٢١٦، وأيضا: عفاف لطفي ص ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩.

كما أن الفترة بين نهاية ٣٤ حتى ٣٦ حين عقدت المعاهدة مع بريطانيا خلت تمامًا من أي موقف معاد للإنجليز، فقد شغل طه حسين بمظاهر الترحيب التي أقيمت له في الجامعة، كما شغل بكتابات تتالت إما في سلسلة أدبية بعنوان (أحاديث الأربعاء) وإما في سلسلة فنية بعنوان (من أدب التمثيل الغربي) مما يحول بينه وبين التورط بالنسبة للوجود الأجنبي، وهو ما يعني ابتعاد طه حسين برغبته الخاصة في المشاركة فيما يحدث حوله.

دفعت مقدمات معاهدة ٣٦ الأحداث إلى ذروتها، ففي نهاية عهد نسيم اندلعت المظاهرات الضخمة شملت العمال كما شملت الطلاب في يوم ١٣ نوفمبر ذكرى اللقاء التاريخي بين الوفد وسير ونجت، وفي اليوم التالي قتل عدد من الطلاب برصاص الشرطة، وفي ٢٨ نوفمبر قام إضراب دعت إليه الأحزاب حدادًا على الطلاب الذين استشهدوا في حوادث التظاهر، وأغلقت الأعمال في العاصمة واستمر الطلاب في التظاهر طوال شهر ديسمبر وهكذا انتهى كل شيء بإعلان كل الأحزاب السياسية نفسها (جبهة متحدة) وصاغ ممثلوها إعلانًا قدموه للملك في ١٢ ديسمبر ٣٥ طالبوا فيها بمطالب منها تسوية مع بريطانيا.

وتطورت الأحداث باستقالة نسيم وتوقف الصراع الحزبي بتقدم (الجبهة المتحدة) إلى المندوب السامي البريطاني بطلب عقد معاهدة مع الحركة المصرية، واستمرت المباحثات حتى انتهت في ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ بتوقيع معاهدة تحالف بريطانيا ومصر.

فأين كان طه حسين من معاهدة ٣٦؟

يمكن الإجابة على هذا السؤال باستبعاد الفترة التي سبقت المعاهدة (عامي ٣٥/ ٣٦) فهي لا تحفل بأي دور لطه حسين لا على المستوى السياسي أو الإسهام في مقدمات المعاهدة..

وهنا، يبقى أن نبسط موقف حزب الوفد الذي انتمى إليه، قبل أن نصل إلى موقفه لنرى مدى درجات المقارنة أو الموافقة بين رأي طه حسين ورأي حزب الأغلبية في أحداث هذه الفترة.

وعلى الرغم من أن معاهدة ٣٦ كانت الموضوع الذي تذبذبت حوله مواقف حزب الأقلية بين التطرف والاعتدال، فإن حزب الأغلبية أبدى ارتياحه ببنود المعاهدة ووصفها النحاس بأنها أحسن ما يمكن الوصول إليه وقت توقيعها، وعند عودته من إنجلترا، أعلن أن المعاهدة المتفاوض عليها هي معاهدة (شرف واستقلال) وحين بدأ يقدم كتابه بتأليف الوزارة الثالثة له (١٠ مايو ٣٦) ذكر أن وزارته ستقدم إلى البرلمان ببرنامجها جاعلة نصب عينيها تحقيق استقلال البلاد بإبرام معاهدة مودة وتحالف مع الدولة

البريطانية الصديقة، كما يلاحظ أن النحاس في المذكرات التفسيرية للمعاهدة التي يرسلها إلى لندن وصف المعاهدة بأنها (معاهدة الصداقة)[٣٤٩].

ومما يلفت النظر، أنه على الجانب الآخر.. فإن السفير البريطاني حين اجتمع بأعضاء مجلس الوصاية على الملك، قال أن (صوت السفير سيكون صوت صديق أكثر من صوت سيد آمر...) ... واستطرد (بأنه يتصور أن أية حكومة في مصر تفقد ثقته أو لا تستجيب للنصيحة البريطانية، تستطيع أن تبقى في الحكم زمنًا طويلاً)[٣٥٠].

والذي يهمنا، هنا، هو حزب الوفد الذي انتمى إليه طه حسين ممثلاً في تصريحات زعيمه النحاس من الاحتفاء بالمعاهدة وبأصحابها من ((الأصدقاء)) وهو ما يصل بنا إلى موقف طه حسين من معاهدة ٣٦.

إن الكتابات القليلة التي تركها طه حسين في تلك الفترة لا تحمل غير احتفائه البالغ بالمعاهدة على غرار احتفاء الوفد ودفاعه عنها، مسميًا إياها بهذا الاسم، مضيفًا إليها جملة ترددت كثيرًا في كل ما كتب في هذا الوقت من أنها (واجبنا الأدبي)[٣٥١]، وكيف يجب أن تكون أول محاولة رصد الأديب العربي في الثقافة الحديثة حينئذ[٣٥٢]، متناولاً التطورات الثقافية التي يجب أن تكون بدءًا من هذا الاتفاق.

الشيء الملحوظ الذي يمكن أن يرصد موقفه من المعاهدة في هذا الوقت هو كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) الذي صدر في عام ١٩٣٨ حاملاً نظرية كاملة لما يمكن أن يكون عليه الثقافة المصرية لربع قرن قادم من خلال موقفه من هذه المعاهدة.. ففي المقدمة يقرر أن مصر ((تبدأ عهدًا جديدًا من جانبها))[٣٥٣]، ولا يلبث بعد ذلك أن يشير وهو يدور في الحديث حول مستقبل الثقافة في مصر ((عن مصر التي ردت إليها الحرية بإحياء الدستور وأعيدت إليها الكرامة بتحقيق الاستقلال..))[٣٥٤]، فمن الخير أن ((نبتهج بما كتب لنا من الظفر، في هذا الجهاد الطويل الذي انتهى أي أن نسترد الاستقلال))[٣٥٥]، ويجب ألا نقف معجبين أمام ((الاستقلال

---

(٣٤٩) القضية المصرية ص ٤٧٧

(٣٥٠) F.O.407 Ibid.

(٣٥١) المجلة الأسبوعية ٣٧/١/١٣

(٣٥٢) السياسة الأسبوعية ٣٧/٤/١٣

(٣٥٣) مستقبل الثقافة، مقدمة ص ٥

(٣٥٤) السابق ص ٩

(٣٥٥) السابق ص ١٠

والحرية))[٣٥٦]، ولا يلبث أن يضيف خشيته من أن ((ما أعرف أني أشفقت من شيء كما أشفق من الاستقلال بعد أن كسبناه، ومن الحرية بعد أن ظفرنا بها))[٣٥٧]، وهو بعد هذا وقبله يخشى أن ((يعود الاستقلال والحرية علينا بالشر))[٣٥٨].

فإذا خلص من آثار المعاهدة، كما تخيلها انتهى إلى الإنجليز، وقد وصفهم من دون الأجانب كلهم بأنهم ((أصدقاؤنا الإنجليز))[٣٥٩]، خائفًا منهم أن يقولوا ((طالبوا بالاستقلال وأتعبوا أنفسهم وأتعبوا الناس في المطالبة به حتى إذا انتهوا إليه لم يذوقوه ولم يستسيغوه ولم يعرفوا كيف ينتفعون به))[٣٦٠].

ومما سبق ذكره، يمكن تلخيص موقف طه حسين من المعاهدة على النحو التالي: يلحظ التطابق التام بين موقف مصطفى النحاس وطه حسين إلى درجة استخدام نفس الكلمات التي رددت في تأييد المعاهدة، فبينما جاءت كلمات مثل: (استقلال- الصديقة) في تصريحات مصطفى النحاس، جاءت كلمات مثل (استقلال- أصدقائنا) في كتابات طه حسين.

وأن هذا الموقف يحمل تأييد معاهدة ٣٦ لديه واعتبارها صوتًا وطنيًا هامًا، وهو ما يعني أن موقف طه حسين من الوجود الأجنبي كان قد سقط في وهدة الأحلام وطور الصداقة.

كما لم يعكس موقف طه حسين حينئذ أية إشارة للأفكار السياسية المخالفة التي كانت ألمانيا وإيطاليا تبشران بها حينئذ، وهذا لا يميز عقيدة طه حسين وحسب، بل عقيدة الوفد أيضًا، الذي كان مرتبطًا ((من الناحية الثقافية، ارتباطًا عميقًا بفرنسا))، وهو ما يفسر التعاطف الصريح مع عقيدة الحلفاء وحضارتهم، ويضيف إليه أن اقتناع طه حسين بالمعاهدة تحددت أولى النتائج في هذا الصدد حول فقدان النضال المصري لأول مبرراته، فقد اعترفت المعاهدة بشرعية الاحتلال البريطاني في منطقة القناة وبعض المناطق الأخرى وهو ما لا يمكن إلقاء اللوم معه على طه حسين.

وقد كان من نتائج المعاهدة في درجتها القصوى وصول فكر طه حسين إلى الذروة (العلمانية) الغربية، فراح يتحدث من تولية مصر وجهها

---

[٣٥٦] السابق ص ١٠
[٣٥٧] السابق ص ١٠
[٣٥٨] السابق ص ١١
[٣٥٩] السابق ص ١١
[٣٦٠] السابق ص ١١

صوب أوروبا مؤكدًا ((هل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزامًا صريحًا قاطعًا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع))[٣٦١]، وأيضًا في الفكر الاجتماعي والأخلاقي[٣٦٢] إلى غير ذلك.

غير أنه ما كادت الحرب العالمية الثانية تعلن عن نفسها حتى تحول طه حسين، إلى اتجاه آخر، لم يكن هو دخول الحزب، كما لم يكن الإحجام عن تأييد إنجلترا في الحرب، فقد كان العامل المسيطر على الوفد مثل إعلان الحرب العالمية الثانية عامل العداء لبريطانيا الاستعمارية.

وقد كان لطه حسين أثناء الحرب الثانية سياسة تحددت وتوزعت في أكثر من اتجاه فبينما كان يتحدد موقف الأحزاب بين مؤيد لدخول الحرب العالمية الثانية (السعديين)، رافضًا الاشتراك فيها (الوطنيون والأحرار المستقلون) كان الوفديون ((ممتنعين عن إعلان رأيهم))[٣٦٣]، في وقت كانوا حريصين فيه على ((التمسك بالمعاهدة تمسكًا تامًا والدفاع عنها ضد من يحاول النيل منها بأي شكل من الأشكال وهو ما دعاهم للالتزام بالمعاهدة)).

وعلى هذا النحو، فإن سياسة الوفد التي حرص عليها تقريبًا طيلة الحرب كانت هي السياسة التي ميزت موقف طه حسين، فقد حرص في كتاباته القليلة المتأثرة التي كتبت أعوام ٣٩/ ٤٤ على تبني وجهة نظر الوفد من ضرورة توحيد الصفوف والبعد عن الحزبية التي تزيد الشقاق ولا تضيقه بقصد مواجهة الأخطار الناتجة من هذه الحرب وأن تغير موقفه من الإنجليز في نهاية فترة الحرب فراح يعلن سخطه على المعاهدة.

غير أن موقفه الخاص أثناء الحرب كان مستمدًا من موقف الوفد.. فهو يكتب متسائلاً (هل الحرب تنفع الإنسانية أو تضرها؟)[٣٦٤]، ولا يلبث أن يذكر في موضع آخر الصفات التي يجب أن يتحلى بها هذه الأيام ملخصًا إياها في الشجاعة وصبر النفس[٣٦٥]، مؤكدًا بعد قليل أن ((الشعب الديمقراطي يحارب لحرصه على الحياة الحرة))[٣٦٦]، ويشغل قليلاً في

---

[٣٦١] مستقبل الثقافة في مصر ص ٣٥، ٣٦، ٣٧
[٣٦٢] السابق ص ٤٥/ ٤٩، ٥٠، ٦٥، ٦٦
[٣٦٣] حسن يوسف ص ١١٧
[٣٦٤] الهلال ٣٩/١٢
[٣٦٥] المصور ٤٠/٥/٣١
[٣٦٦] المصور ٤٠/٩/٢٠

قضايا التعليم والديمقراطية[٣٦٧] حتى إذا ما وصل إلى عام ٤٣، يكون قد تبنى تمامًا الحقيقة التي ترى ضرورة تجنب هذه الحروب القائمة.. فمع أن الوفد كان حريصًا على العلاقة الطيبة مع الإنجليز طيلة فترة الحرب كي ((يسود بين الحليفتين جو من الإخلاص الحقيقي فإن طه حسين كان يدخل مرحلة جديدة، يقترب فيها من القضايا الاجتماعية رافضًا دخول مصر الحرب مؤثرًا الإحجام عن رأي القادة في التورط فيها فإن ((أثرة الملوك والسادة والزعماء هي التي تثير الحرب دائمًا وهي التي ترهق الشعوب دائمًا))[٣٦٨] مبديًا رأيه في الحرب وأهوالها ومسئولياتها[٣٦٩].

غير أنه كان يتوازى مع خطه في توحيد الصفوف ومحاولة تجنب الحرب خطًا ثالثًا من الهجوم على الإنجليز كلما حانت الفرصة، وهو الخط الذي تبلور منذ نهاية الحرب واكتشاف المصريين مراوغة المحتل ونكث وعوده لاستقلال البلاد، فما كادت تدور دورة الفلك بتوافق عيدي وفاء النيل وعيد الاستقلال (معاهدة ٣٦) حتى يكتب ساخرًا ((فالمصريون سعداء اليوم قد قرت عيونهم، طابت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم لأن النيل قد وفى لهم بما عاهدهم على أن يمدهم به في كل عام من الري والخصب والثراء، ولأن حلفاءهم الإنجليز قد وفوا لهم بما عاهدوهم عليه من احترام الاستقلال، والاعتراف بالكرامة، والاحتفاظ لهم بالمودة والحب على أساس من الحق والعدل والمساواة))[٣٧٠]، ساخرًا من أن يكون هذا اليوم عيدًا في الوزارات والدواوين، ثم ينتهي بعد سطور كثيرة إلى نتيجة مؤداها أن ((المصريين كانوا يظنون أن حكومتهم ستطالب بهذا الحق وستجد في الظفر به لا تريح ولا تستريح، فإذا رئيس حكومتهم يعلن إليهم أنه ينتهز الفرصة ولن يقصر عن انتهازها حين تسنح.. كانوا يظنون أن السلام سيحل إليهم أمنًا وعدلاً ورضًا، فإذا السلام يمثلهم فيما كانت الحرب تفرض عليهم من الخوف والجور والظلم))[٣٧١].

ولا يمكن أن نغفل أن نرصد، ونحن بصدد تحديد موقف طه حسين من الحرب العالمية الثانية، دافعًا آخر غير انتمائه للوفد، ونقصد به درجة ولائه لفرنسا سواء لموقفه الثقافي أو للملابسات التي صحبت هذه الفترة، ففي

---

(٣٦٧) الوادي ٤٠/١٠/٦، أيضا: المصور ٢٢/١١/ ٤٠، ٢/٧، ٤١/١٢
(٣٦٨) أحلام شهرزاد ص ٦٦، ٦٧
(٣٦٩) السابق ص ٧١، ٩٣، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٠
(٣٧٠) بين بين ص ٤٤
(٣٧١) بين بين ص ٤٤

الحرب العالمية الثانية أصيبت فرنسا بهزيمة اضطرتها إلى عقد هدنة تم بمقتضاها احتلال جميع الأراضي الفرنسية الواقعة شمال وغرب ومن جنيف إلى تور، ومن هناك جنوبًا إلى حدود أسبانيا، وباختصار شديد، فإن فرنسا قد هزمت في هذه الحرب هزيمة نكراء.

لقد عاش طه حسين أثر هذه الهزيمة حالة من الحزن الممض، ((وانكمش داخل نفسه، ولم يكف عن الألم حتى نهاية الحرب))[٣٧٢]، وهو في ذلك كله لم يأل جهدًا في تأييد الفرنسيين في محنتهم بأية صورة، فقد استقبل شارل ديجول في أبريل عام ١٩٤١ حين جاء إلى القاهرة، كما عمل مراقبًا لإذاعة فرنسا الحرة في دار الإذاعة المصرية[٣٧٣]، وقد بلغ دفاعه عن الثقافة الفرنسية إلى درجة هدد فيها من إذاعة ألمانيا بالاغتيال.

وهو مع ذلك كله لم يتردد في كتابة مقالاته في الدفاع عن فرنسا كلما حانت له الفرصة، ففي ثلاثة لقاءات متتابعة بعنوان (صراع الحضارة)[٣٧٤]، يحاول المقارنة بين أثينا وباريس في درجات الحضارة، منتهيًا من العرض والتدليل الطويلين إلى سؤال واحد هو: ((هل ما يحدث في باريس الآن هزيمة أم ثورة؟)) نظرًا للتطورات التي أشارت إلى خروج البعض للدفاع عن فرنسا رافضًا الهزيمة.

وفي مقالة أخرى يصف ما يحدث في فرنسا أثناء الحرب من أنه ثورة مبررًا للهزيمة التي أحاقت بفرنسا، ففرنسا ثائرة من وجهة نظره مهاجمًا الجنرال ((بيتان)) الذي تعاون مع الألمان، مدافعًا عن الفرنسيين الوطنيين[٣٧٥].

محاولاً في موضع ثالث تحديد مسئولية المثقفين عن هذه الكارثة التي أحلت بفرنسا، فيقول ((أن الذي أخفق في هذه الحرب إلى الآن ليست فرنسا وحدها، وليست الديمقراطية وحدها، وإنما أخفقت أوروبا، وهي لم تخفق بانهزام فرنسا، وإنما أخفقت بإعلان الحرب، بل أخفقت قبل إعلان الحرب، .. و .. فتبعة الإخفاق إذن ليست على فرنسا وحدها، ولا على نظام الحكم فيها، ولا على ثقافة رجال الحكم فيها، إنما هي على أوروبا كلها))[٣٧٦].

---

(٣٧٢) بين بين ص ٤٩/ ٥١

(٣٧٣) سوزان، ص ١٣٩، ولطه حسين رواية كاملة تصور حال العرب والآثار التي انتهى إليها الفرنسيون من جراء هذه الحروب، هي رواية (الحب الضائع).

(٣٧٤) السابق.

(٣٧٥) الثقافة ٤٠/٤/١٦-

(٣٧٦) الثقافة ٤٠/٨/٦

وقد بلغ تأثير الهزيمة الفرنسية في طه حسين إلى درجة يرى معها جاك برك حين يحدد الكوارث التي ألمت بطه حسين أن كارثة فرنسا ١٩٤٠ كانت ((أولى الكوارث أو المحن التي كانت وراء تدهوره النفسي بوجه خاص في هذا الوقت))(٣٧٧)، إذ كانت هذه الكارثة ذات تأثير كبير في حياته، كما حددت كثيرًا من الأمور في هذا الوقت ـ متسائلاً ـ ولنا أن نتخيل بعد ذلك ما سوف يكون حال الرجل الذي نشأ في ظل تلك المبادئ ومن خلال إعجابه بدولة أضاءت بحضارتها ومبادئها السياسية في أوروبا؟ ومن يعلم مدى الإحساس القاسي الذي شعر به طه حسين خاصة تجاه تلك المبادئ التي عرفتها فرنسا والتي عرفها وتأثر بها طه حسين ((وهو ما نشارك فيه جاك بيرك، إذ لا يجب أن تكون هذه المبالغة تصور حال كاتب واع كطه حسين)).

ومهما يكن، فإن حضارة فرنسا عند طه حسين كانت مشفوعة بدرجتها القصوى في تأييد الحرية والذود عن قيم العدالة والمساواة، في وقت كانت حضارة إنجلترا التي لا تقل في درجتها الحضارية أيضًا(٣٧٨)، في موقف تسعى فيه إلى تبني وسائل الاستبداد وإعانة الطغيان ضد كل قيم الحرية والاستقلال، وهو ما فسر الإحساس بالألم تجاهه كلما عرف موقف فرنسا العدواني فيما بعد في هجومها على شعب الجزائر وتورطها في حروب أخرى، وإن كان هذا الإحساس لم يصل منذ فترة مبكرة إلى درجة الاحتجاج والغضب المكشوف.

هذا وغيره يفسر موقفه من الإنجليز كقوات احتلال خاصة، وهو يفصل بين قوى الاحتلال ومظاهر الحضارة، إذ كان إحساسه بالاحتلال منذ فترة مبكرة يشوبه الضيق الشديد إلى درجة أنه تهيأ لإنجاز كتاب حول (حرية الاستقلال المصرية)(٣٧٩)، وموقفه الغاضب من الإنجليز بلغ أقصاه في الحرب العالمية الثانية وفي كل كتاباته حينئذ.

كان طه حسين يتوزع في أكثر من خط، فهو يتحاشى الهجوم على الإنجليز أثناء الحرب، وهو في الوقت نفسه لا يستطيع إخفاء كراهيته الشديدة لهم ولوضعهم الاستعماري، وهو أيضًا لا يخفي كراهيته للاتجاه الفاشي مدركًا مدى الخطر الذي يحيق بمصر لو انتصر خاصة، وقد كان

---

(٣٧٧) ردد جاك بيرك بقية المحن التي تعرض لها طه حسين فيرى أنها (كارثة فرنسا، فقدان البصر، موقفه من الأزهر)، انظر goque Berque. Ibid

(٣٧٨) مجلتي ٣٥/٤/١

(٣٧٩) مجلتي ٣٥/٤/١

يعم الجميع حينئذ شعور بالخوف من مطامع إيطاليا في غرب مصر وجنوبها.

وقد تتابعت الأحداث التي حولت طه حسين في موقفه بين التأييد والسخط إلى موقف الساخط تمامًا، ففي ١٨ أكتوبر ٤٤ تمكن الملك من إقالة الوزارة الوفدية فأحيل طه حسين ضمن من أحيل للتقاعد، ولم يمض وقت طويل حتى أعلن انتهاء الحرب الثانية فعاد الوفد إلى موقفه التقليدي من مهاجمة الإنجليز بعنف، وكان طه حسين يشايع هذه السياسة.

والفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية تصور موقف طه حسين وقد أحيل إلى التقاعد بمراسيم وزارات أقلية تحكم سيطرتها على إدارة الحكم بتأثير من الإنجليز.. وهي الفترة التي ستتحول فيها سياسة طه حسين إلى الهجوم العنيف على الوجود الأجنبي وممثليه.

ويلاحظ في الفترة التي تمتد بين عام ٤٤/ ٥٠ تغلب عليها سمتان اثنتان ساهمتا في تحديد موقف طه حسين من الوجود الأجنبي.

إحداهما، كان الحكم يتم بواسطة أحزاب الأقلية وبموافقة الإنجليز.

وثانيهما، ظهور ظاهرة استنزاف الموارد البريطانية في الحرب وهزال (الأسد البريطاني)، وهو ما دفع مصر مع غيرها للخروج للثورة.

وعلى هذا النحو، تأهبت وزارات تشكلت بمصر حينئذ للمطالبة بالاستقلال الوطني، وقد كان أول من تحرك في هذا الصدد أحمد ماهر حين أسندت إليه الوزارة في ١٨ أكتوبر ٤٤.

وكان أحمد ماهر قد أعلن بيان الوزارة في ٢٤ فبراير ١٩٤٥ لإعلان الحرب على ألمانيا واليابان تمهيدًا للاشتراك في مؤتمر (سان فرانسيسكو) وانضمامها لهيئة الأمم المتحدة بعد إعلان الحرب، غير أن الوفديين استغلوا هذا الموقف لإثارة النفوس ضد أحمد ماهر موهمين الناس أنه يسعى للزج بالبلاد في أتون الحرب وإرسال المصريين إلى الخارج ليحاربوا في ((ميادين مصر البعيدة))[٣٨٠]، غير أن طه حسين سعى للسخرية من هيئة الأمم مسميًا إياها (عصبة سوء)[٣٨١]، وأيضًا من تصرف أحمد ماهر مدفوعًا بهذه الإجراءات التي قام بها رئيس الوزراء الجديد لإحالة عديد من الوفديين إلى المعاش، وقد كان طه حسين ضمن أولئك الذين أحيلوا إلى المعاش بناء على مرسوم وقعه أحمد ماهر من منصب المستشار الفني

---

(٣٨٠) الرافعي، في أعقاب الثورة ج ٣ ص ١٥١، ١٥٢

(٣٨١) البلاغ ١٩٤٥/١/٧

لوزارة المعارف العمومية[٣٨٢].
ولم تسنح الفرصة طويلاً لطه حسين، فقد اغتيل أحمد ماهر وحل محله النقراشي في الوزارة التالية.
وبعد إعلان مصر الحرب تلقت الدعوة لحضور مؤتمر ((سان فرانسيسكو) في ٢٥ أبريل ١٩٤٥ فقبلت في محاولة لتعديل كثير من أحكام الميثاق المقترح لتقريب الشقة بين الدول الكبرى من سلطة، وما ترجوه الدول الصغرى من مساواة، ويكتب طه حسين ساخرًا من سفر الوفد إلى أمريكا ((الذي أستطيع أن أحققه هو أن أم قويق لم تدع للاشتراك في المؤتمر))[٣٨٣].
ويلاحظ هذا الهدوء الذي يحدد المناخ بين النقراشي رئيس الوزراء وبين المسئول البريطاني، فيقول ((طلب الشعب المصري على اختلاف هيئاته وأحزابه أن يعرف ما صنعت الحكومة لحقوق مصر، أطلبتها من البريطانيين أم لم تطلبها))[٣٨٤]، وحين سمع في مرة أخرى وجهة النظر المصرية والإنجليزية يتحير متسائلاً ((فأي الحقيقتين نصدق، الحقيقة المصرية التي تتخذ كل يوم ثوبًا جديدًا وزينة جديدة، وتتبرج تبرج الجاهلية الأولى في بلد يعاب فيه التبرج، أم الحقيقة البريطانية البسيطة الساذجة الصارمة التي تثير الغيظ وتشيع الحقد وتملأ النفوس حسرة وألمًا))[٣٨٥].
ويتردد أنه حدث لقاء مشافهة بين رئيس الوزراء والسفير البريطاني بيفن بشأن الاستقلال، طالب فيه بيفن كما صرح لمجلس العموم بصلات بين مصر وبريطانيا من نوع خاص، فيكتب طه حسين ((ليس في الآراء ما يدعو إلى ... ابتهاج فهو قبل كل شيء لا يريد سيطرة على مصر وإنما يريد شركة بين بريطانيا العظمى التي تقوم على المساواة .. فإذا سألت الشركة ما موضوعها لم تظفر بجواب أو ظفرت بجواب يملأ قلبك غيظًا وضيقًا فلن تكون أمور بريطانيا العظمى وإمبراطوريتها موضوعًا لهذه الشركة كما قال أحد نقادنا السياسيين ولن تكون البلاد الأخرى المستقلة أو المحررة موضوعًا لهذه الشركة وإذن فلن تخلص مصر لنفسها بل سيشاركها البريطانيون في أمورها))[٣٨٦].

---

[٣٨٢] المحفوظات، مرسوم ١٦ أكتوبر ٤٤
[٣٨٣] أخبار اليوم ٤٥/٣/٧.
[٣٨٤] البلاغ ٤٥/١٠/١٨
[٣٨٥] البلاغ ٤٥/١٠/٢٥
[٣٨٦] البلاغ ١٨ نوفمبر ٤٥

وهو لا يتعب من ترديد ذلك في الأيام التالية[٣٨٧]..

فهو بعد أن يسخر مما يريد بيفن يختم مقالته بأن ((هذه الشركة التي يديرها مستر بيفن قد نريدها نحن وقد لا نريدها))، وهو يسخر من مكرم عبيد الذي أعلن، قد كان رئيسًا لحزب الكتلة الوفدية في الوزارة، ضرورة المذكرات إلى الإنجليز، متتبعًا سير المذكرة التي قيل أنها أرسلت ولم ترسل ((بأن الحكومة البريطانية قد لا تكون مستعدة للمفاوضة قبل أن يحول الحول ويقبل شهر نوفمبر من العام الجديد إن شاء الله. ثم جاءت الأخبار صباح اليوم التالي بأن المقامات السياسية في بريطانيا العظمى حائرة لا تدري أرسلت المذكرة أم لم ترسل لأنها لا تدري (وصلت أم لم تصل)))، ولا يلبث في نهاية المقال أن يبلغ في سخريته من موقف الإنجليز، وموقف الوزراء المصريين المفاوضين إلى درجة بعيدة، فهو يقول ((وقد تسألني آخر الأمر عن حقوق مصر ما خطبها وما مصيرها، ومتى نتناقش فيها ومتى نصل إليها؟ فأجيبك بأن هذا كله جد، وبأن هذه ليست أيام الجد وإنما هي أيام دعابة ومزاح))[٣٨٨].

وهو لا يتردد في الهجوم على الوزارة التي تستأثر فيها أقلية منحازة إلى الإنجليز بأمور الشعب من دون الشعب ظاهرة متناقضة لطبيعة الأشياء وخصائص العصر الذي تعيش فيه، وهي أشبه بالسحاب الذي يتكاثف ويتراكم ويركب بعضه بعضًا حتى يملأ الجو ظلمة وتخوفًا ثم تهب ريح الجنوب فما هي ساعة أو بعض ساعة حتى يصحو الجو.. يسترد الشعب حقه كاملاً))[٣٨٩].

وتتبادل المذكرات ويبين للرأي العام بعد نشرها سوء نية الإنجليز نحو مصر فتعم البلاد مظاهرات صاخبة من أشهرها مظاهرة كوبري عباس في ٩ فبراير ٤٦ وتستمر في كل أنحاء البلاد وحين يتهم الإنجليز الوزارة بأنها لا تستطيع الحفاظ على الأمن يكتب ((ولست أفهم من الأمن والنظام ما يفهمه حلفاؤنا البريطانيون، فحلفاؤنا البريطانيون يفهمون من الأمن والنظام ألا تحدث المظاهرات وأن تجري أمور الشارع على ما تعودت أن تجري عليه، وألا يحدث هذا القلق الذي يذكر فيه الإنجليز بما لا يحبون))[٣٩٠].

وقد كتب في هذه الفترة قطعته الأدبية التي جمعها فيما بعد في كتاب

---

(٣٨٧) ٢٢- ٢٥ نوفمبر ٤٥

(٣٨٨) الوادي ٢٠ ديسمبر - ٢٧ ديسمبر ٤٥.

(٣٨٩) الوادي ٣ يناير ٤٦، ٣١ يناير ٤٦

(٣٩٠) الوادي ٦ يناير ٤٦

بعنوان (جنة الشوك) مشيرًا في كثير من خاطراتها إلى الإنجليز وخاصة إلى إجراءاتهم المتعسفة في الحرب العالمية بالرمز والتلميح والتصريح.
وقد بلغت المظاهرات ذروتها في يوم ٢١ فبراير ٤٦ حيث حدد هذا اليوم الذي سمي (يوم الجلاء) لإضراب جميع الطوائف في القاهرة، وحين بدأت المظاهرات تتجول في أكثر من مكان في العاصمة ظهرت سيارات مسلحة للجيش البريطاني في ميدان قصر النيل، واخترقت الجموع فجأة ودهمتهم فاشتعلت المظاهرات في الإسماعيلية والزقازيق، والمنصورة وغيرها.. وأسفرت الحوادث فيها عن قتل وإصابة عدد كبير، وإذ أعلن صدقي، وقد كان رئيسًا للوزراء، في المساء، ما معناه أن المظاهرات تحولت بفعل الأيدي التي لم تعد خافية واندس فيها عنصر الدهماء في صفوف الطلبة، فإن كلمة (الدهماء) أثارت الكثيرين ومنهم طه حسين الذي راح يكتب تحت عنوان (الدهماء) غاضبًا لتصدي الإنجليز لما يسمونهم بالدهماء وتحديهم لهم باقتحام السيارات العسكرية لصفوفهم))[٣٩١].
ويلاحظ أنه مع كراهية طه حسين لصدقي وحكومته فإن كراهيته للإنجليز وإعلانه الهجوم عليهم وغضبه من أسلوبهم في الاعتداء على المظاهرات فاق الحد.
وغضب أكثر طه حسين لهذا الاحتجاج الذي قدمه الإنجليز، إذ إنه فور وقوع هذا الحادث قدموا احتجاجًا للحكومة طلبوا فيه منع المظاهرات والمحافظة على الأمن ومعاقبة المسئولين عن الحوادث، وسلموا الاحتجاج إلى الملك متجاهلين صدقي[٣٩٢] رئيس الوزارة، فلم يكن أمام صدقي غير تكتم خبر الاحتجاج وخبر قبوله حتى لا يزيد أمره سوءًا بين الناس لولا تصريح أحد المسئولين في مجلس اللوردات البريطاني.. فشارك طه حسين في الغضب العارم والدهشة من هذا الإجراء غير الدستوري الذي تجاهل رئيس الوزراء، مندهشًا من موقف صدقي المتقاعس بالنسبة للإنجليز، ((والظاهر أن الإنجليز لا يبغضون شيئًا كما يبغضون المظاهرات، فهي تنغص عليهم حياتهم))، ثم تصدى لإنذار الإنجليز بالدهشة، معقبًا عما حدث بقوله ((فقد يكون من واجب المصريين لأنفسهم وحقهم وكرامتهم ألا يحفلوا بهذه النذر التي تأتيهم من لندن صريحة مرة وخفية مرة أخرى إنهم ينذرون بفساد العلاقة فقد فسدت هذه العلاقة وشبعت وكانوا هم الذين أفسدوها حين نقضوا العهد وأخلفوا الوعود وأظهروا الطمع والكبرياء بعد أن كانوا لا

---

(٣٩١) البلاغ ٤٦/٢/٢٤
(٣٩٢) الأهرام ٢٤ فبراير ٤٦، أيضا: طارق البشري ص ١٠٤.

يظهرون إلا مودة ورياء))، ولا يلبث أن يضيف في نفس المقالة ((وهم ينذروننا بتأخير المفاوضات ونحب أن نعلم الإنجليز أن تأخير المفاوضات يضرهم أكثر مما يضرنا فنحن ممتحنون بهم منذ أكثر من نصف قرن وقد أخذنا نجاهد منذ أكثر من عشرين عامًا جهادًا عنيفًا وليس عنيفًا لا بأس أن يتصل هذا الجهاد وأن يزداد قوة وبأسًا وأن نحتمل فيه ألوان الهول وإنما البأس كل البأس على الإنجليز))[٣٩٣].

وهو لم يتوقف في الفترة التالية عن الهجوم على الإنجليز والهجوم على صنيعتهم صدقي باشا فليس الشعب المصري حرًا، ولا يمكن أن يكون حرًا وصدقي باشا يسوسه بسياسته التي تلائم طبيعته الأولى.

وإذا تهيأت الأذهان إلى المفاوضات بين مصر وقوى الوجود الأجنبي يخيل لطه حسين أن إنجلترا تقع في تناقض في سياستها، فهي في الوقت الذي يعلن فيه وزير خارجيتها في ١٤ مارس ٤٦ بأن الحكومة السوفيتية تحاول إجراء تسوية مع إيران ((بينما تحتل جزءًا من أراضيها))، إنها، أي الحكومة البريطانية، تبعث وفدًا رسميًا للمفاوضات مع مصر في وقت لا تزال قواتها فيه تحتل مصر ((الحكومة البريطانية تستعد لمفاوضة مصر في تعديل المعاهدة أو في عقد معاهدة جديدة والاحتلال البريطاني قائم يفرض على مصر أن تكون مؤدبة مهذبة مضيفة لا تقول إلا بمقدار ولا تتحرك إلا لتطلب الطعام والشراب وتنعم بما قدر لها من اللهو واللعب[٣٩٤].

وهو في مقالتين متتاليتين يحذر من خداع الشعب المصري، فقد خدع مرتين في الحربين العظميين، ومن هنا فيجب أن يأخذ حذره ألا يخدع في المرة الثالثة))[٣٩٥].

وفي الوقت الذي يصدر فيه الوفد نداء يعلن فيه أنه لن يتغير بنتائج المفاوضات بين صدقي والإنجليز، يظل طه حسين يوجه سهام هجومه على الإنجليز سواء بالسخرية من وزير خارجيتهم[٣٩٦]، أو من زعمهم أنهم يريدون التفاوض بنية حسنة بينما لا تزال جيوشهم في البلاد في وقت ينكرون فيه على الروس أشد الإنكار أن يفاوضوا إيران وجيوشهم تحتل أرض إيران))[٣٩٧].

---

[٣٩٣] البلاغ ٢٨ فبراير، ٧ مارس ٤٦

[٣٩٤] البلاغ ١٧ مارس ٤٦

[٣٩٥] البلاغ ١٧ مارس، ٢١ مارس ٤٦

[٣٩٦] البلاغ ٢٤ مارس، ٤ أبريل ٤٦

[٣٩٧] البلاغ ١٤ أبريل ٤٦

واستمرت المفاوضات بين مصر وإنجلترا قرابة عام كانت الصعوبة الرئيسة فيها تتركز حول إصرار الجانب البريطاني في اتخاذ مصر قاعدة حربية لبريطانيا، وكانت الحكومة المصرية ترفض احتواء المعاهدة الجديدة على أي شروط من شأنها أن تجعل الدفاع المشترك بين مصر وإنجلترا يسري على الأحوال السابقة على حالة خطر الحرب أو الحرب ذاتها، وكان الإنجليز يذكرون صدقي في كل مرة بهذه المعاهدة أو (الشركة) كما يسميها طه حسين، هذه الشركة التي تقوم على ((المساواة بين الند والند، والاستقلال الذي يظفر به السودانيون بعد الاستفتاء، والجلاء الذي يمكن أن يتحقق بشرط أن تستبقي المطارات والقواعد))[٣٩٨]، ممعنًا في السخرية من الإنجليز ومن أولئك المصريين الذين ((لا يصبرون على هجر الإنجليز))[٣٩٩].

على أن قطع المفاوضات بين صدقي وبيفن وفشلها واستقالة صدقي، أدخلت القضية في عهد سلفه محمود فهمي النقراشي، دخلت إلى دهاليز مجلس الأمن.. أما بالنسبة لطه حسين، لم نعثر على كتابات ذات قيمة عالية في موقفه من الإنجليز إنما تداخلت في دائرة اهتمامه بالوجود الأجنبي دوائر أخرى.

غير أن السمة البارزة التي يمكن رصدها في هذه الفترة أن الكتابات القليلة حول الاستقلال كانت تمتزج امتزاجًا خالصًا بالقضية الاجتماعية وتبدو في إطارها، ففي الوقت الذي يصر فيه بأن ((نفس الأمة مريضة منذ الاحتلال عرض يفسد عليها حياتها كلها)) كما لا يتوقف عن ذكر كثير من مظاهر هذا المرض ((شعبًا جاهلاً مريضًا فقيرًا))[٤٠٠]، وهو يؤكد على هذا أن ((الذين يريدون الإصلاح ويتلمسون إليه الوسائل، والذين يختصون في تعديل الدستور..و .. كل هؤلاء خليقون أن يراجعوا أنفسهم، وأن يفكروا أن لا سبيل إلى الإصلاح حتى يقر في نفوس المصريين عامة، ونفوس القادة السياسيين خاصة، أن الاستقلال والدستور ونظم الحكم والوزارات والمصالح.. كل هذه وسائل لا تقصد لنفسها، وإنما تتخذ أدوات لشيء آخر هو الذي يجب أن نفكر فيه، ونحرص عليه، وهو سعادة الشعب، أو على أقل تقدير تخفيف ما يلقى الشعب من الشقاء))[٤٠١].

([٣٩٨]) من لغو الصيف إلى جد الشتاء ص ١٤٧

([٣٩٩]) السابق ص ١٤٥

([٤٠٠]) المصور ٤٧/١١/٧، أيضا: بين بين ص ١٠٨

([٤٠١]) السابق، بين بين.

وهو في موضع آخر، يكتب تحت عنوان (جوع وأحاديث) ينتقد انشغال المسئولين وذلك أثناء الاحتفال بعيد الجلاء.. عن الموت والمرض والفقر والجهل إلى غير ذلك من الآفات التي كانت تستشري حينئذ في وقت كان الجيش البريطاني في أماكنه المقسومة له، لا يحتفل بعيد الجهاد، لأن الجهاد لم يزرأه فتيلاً))[٤٠٢]، وتختلط في هذه الفترة صور الجوع والفساد والأعباء الجسام و(النفوس القلقة) في وقت ينظر فيه الشعب فيرى استقلاله ما زال في درج من أدراج الخارجية البريطانية سجينًا، قد حيل بينه وبين الحرية التي تتيح له أن يعود إلى وادي النيل، فيملأ نفوس أهله وقلوبهم بشرًا وبهجة واغتباطًا ثم هو ينظر فيرى القوى البريطانية، ما زالت تأخذه من جميع أقطاره، تحتل أرضه في الشرق والجنوب، وترابط على حدوده في الغرب، وتأخذ عليه مسالك البحر في الشمال، فلا يكاد يرى هذا كله حتى تمتلئ نفسه قلقًا، على حاضره ومستقبله))[٤٠٣].

وإذ امتزج المطلب الاجتماعي بالمطلب الوطني وأصبحا قضية واحدة، فإن الصدمة الحادة من حضارة الغرب، والتأكد أن مضمونها تحول إلى هراء فارغ، دفع به أكثر إلى نتيجة هامة خاصة في عقد الأربعينيات، وهي، أن معاهدة ٣٦ لم تسفر عن شيء، وأن الاستعمار الغربي كشف عن نواياه ومخططاته تجاه حلفائه بإصراره على أن يخلف وراءه قواعد عسكرية، وقد انعكست هذه الصدمة خاصة في كتاباته في هذه الفترة بدءًا من ((أحلام شهرزاد)) عام ١٩٤٣ وحتى آخر أعماله المطبوعة قبل ثورة ٥٢ ((بين بين)) فقد شهدت هذه الفترة بين عامي ٤٣/ ٥٢ تنامي المطلب الاجتماعي في حياته منذ تنبه إليه في الحرب العالمية الثانية فكتب ((المعذبون في الأرض))، كما تبلور هذا المطلب أكثر حيث طرحت بعنف المشكلة الاجتماعية أكثر من ذي قبل فتتابعت أعماله: ((ما وراء النهر)) ٤٦، ((ألوان)) ٤٥/ ٤٨، ((من لغو الصيف إلى جد الشتاء)) ٤٣/ ٤٩ ثم تتابعت أعماله في هذه الفترة فأخرج ((الوعد الحق))، و((بين بين))، و((نفوس للبيع)).. إلى آخر هذا الكتابات التي راحت تصور الوجه الآخر للهجوم على المستعمر إلى كشف الهوة الحضارية التي كنا قد تردينا بها باسم الحضارة الغربية التي جاءت على أسلحة الغرب ونواياه الاستعمارية.

وبتأليف مصطفى النحاس لوزارة وفدية جديدة، واختيار طه حسين وزيرًا للمعارف فيها، لم يعثر له في هذه الفترة - فترة الوزارة الوفدية- على

---

(٤٠٢) المصور ٢١/ ١١/ ٤٧، بين بين ص ١٤٢.
(٤٠٣) المصور ٢١/ ١١/ ٤٧، بين بين ص ١٤٢.

أي موقف من الإنجليز يترجم لنا تشدده السابق وهجومه المتواصل، اللهم إلا، بعض المواقف القليلة الداخلية مثل فصل بعض المدرسين الإنجليز من المدارس المصرية في فترة وزارته[٤٠٤]، وعدا ذلك، فإن رصد موقف فعلي حاسم في علاقته بالوجود الأجنبي أو من إلغاء معاهدة ٣٦ التي أعلن عن عدم شرعيتها من قبل الوفد.. نقول أن رصد موقف فعلي حاسم من علاقته بالوجود الأجنبي ينفي تمامًا دوره المؤثر في خارطة الحياة السياسية، وإن كان هذا ينفي أن الموقف العام له من قوى الاحتلال الأجنبي كان دائمًا موقفًا معاديًا سواء فيما يتعلق بظروف خاصة به أو ظروف حزبية.

وقد استمر هذا الموقف حتى سقوط الوزارة الوفدية في ٢٧ يناير ١٩٥٢، وجاوزها فيما كانت البلاد تعانيه بعد ذلك من قوى الاحتلال سواء في داخل البلاد أو خارجها.

ويمكن أن نرصد أهم نتائج هذا الفصل في موقفه من الوجود الأجنبي فيما يلي:

لم يقتصر موقف طه حسين من الوجود الأجنبي على المؤثرات الشخصية (أساتذة - أصدقاء)، أو الحزبية (الأحزاب: الوطني، الأمة، الأحرار)، أو - حتى- مؤثرات وطنية بحكم مصريته، وإنما أضيف إليها جميعًا مؤثر جديد (ثقافي)، يتمثل في الميل إلى الثقافة الفرنسية في تحديد موقفه من القوى الأجنبية حيث درجة العداء للوجود الأجنبي، وهذا الموقف الثقافي أصبح جزءًا من مكوناته الشخصية.

وبلغ هذا العداء أقصاه قبل الحرب العالمية الأولى لأسباب كثيرة، من بينها، تأثر طه حسين الشخصي والحزبي معًا، في وقت كان رد الفعل فيه ضد الوجود الأجنبي قد بلغ مداه لبواعث كثيرة بعضها خارجي (الوفاق الودي ١٩٠٤) وبعضها داخلي (التقارب بين الخديو عباس وجورست - تطور أساليب الأحزاب المصرية) .. إلى غير ذلك مما بدا معه دور طه حسين محدودًا، فهو لا يستطيع الانتماء الشخصي في النظر إلى قوى الاحتلال، كما أصبح دوره مرتبطًا بهذه القوى، كما أصبح دور طه حسين مسايرًا لكثير من القوى السياسية السائدة واتجاهاتها.

تعد الفترة بين الحربين العظميين أقل عداءً بالنسبة إلى الوجود الأجنبي، إذ خفف هذا الغلو كثيرًا خاصة بعد معاهدة ٣٦.. فمن ناحية أثمر ترويض الإنجليز للقوى العاملة والتدريب الوطنية فتتبعته وهدأت ودفعت

---

(٤٠٤) الرسالة ١٠ مارس ٥٢

المعاهدة التي تقترن بشرعية وجود قوى الاحتلال البريطاني في منطقة القناة وبعض المناطق الأخرى..

ومصداق هذا أن موقف طه حسين من معاهدة ٣٦ كان هو موقف الحركة الوطنية الممثلة في الوفد خاصة، هذه القوى التي خدعت وتحركت بعد ذلك بقوى القصور الذاتي، وهو ما بدا أكثر وضوحًا في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر)، الذي صور فيه أقصى درجات التأييد للغرب والحضارة الغربية.. إذ هبط المنحنى خاصة في الأربعينيات مع صدمة فقدان الثقة في أوروبا حين تركزت الكتابات على المطلب الاجتماعي.

وقد تركزت انعكاسات الصدمة، خاصة في الحرب العالمية الثانية وبعدها في تمرد القيادات المثقفة على القيادات السياسية (الغربية)، التي فشلت في حل قضايا المجتمع، وهي الفترة التي عرفت فيها على المستوى الفردي موقف طه حسين من الإنجليز، فقد اقترن هجومه على الإنجليز الذين أصروا على إبقاء قواعد عسكرية بتسجيله لصور المطلب الاجتماعي الذي كان من أهم مظاهر المناخ السياسي حينئذ، فصورة الاحتلال وصورة الاستغلال، صارتا جنبًا إلى جنب، فما زال جيش الاحتلال (في أماكنه المقسومة له)، ورئيس الوزراء المصري ما زال ينبئ البرلمان في هدوء ودعة بما سيفعل (لإنقاذ الشعب من الموت والمرض، ومن الفقر والجهل، ولتمكين مصر الخالدة المجيدة، من أن ترفع رأسها العزيز الكريم).

وقد كانت هذه هي الفترة التي عرفت (أحلام شهرزاد) و (المعذبون في الأرض) و(ألوان).. وكتابات كثيرة أخرى اختلط فيها المطلب الوطني بالمطلب الاجتماعي حتى جاءت ثورة ٥٢.

الفصل الرابع
موقفه من القصر الملكي

- مكانة القصر من القوى الوطنية.
- المؤثرات الأولى في علاقته بالملك.
- المؤثرات الشخصية والحزبية.
- (الشعر الجاهلي) والملك.
- التقرب من الملك وحزب الاتحاد.
- أزمة الجامعة وعداء الملك له.
- فترة التردد في موقف طه حسين.
- التحول إلى اتجاه القصر.
- تراجع طه حسين.
- نتائج أخيرة.

لا يكفي رصد الموقف الذاتي لدى طه حسين بتحديد علاقته بالقصر، وإنما يضاف إليه الموقف الشخصي المرتبط بالمؤسسة الحزبية.

لقد كان عبد العزيز جاويش من أهم العوامل التي دفعت به إلى الإقبال على الحزب الوطني والنشر في صحفه، كما كانت علاقته بعائلة عبد الرازق قد دفعت به -على أثر إعلان حسن عبد الرازق بإعلان حزب الأمة- إلى المشاركة في حركة هذا الحزب للمدى الذي يسمح له فيه أن ينشر قصائده في فترة مبكرة.

وحين عرف الحزب الوطني خلافًا حادًا كان قد نشأ بين الخديو عباس الثاني واللورد كرومر فبادر إلى الانحياز إلى الخديو، فإن طه حسين اقتفى أثره كتب عن علاقة الحزب الودية بالخديو، أو الإشارة إلى موقف الخديو الطيب من الحزب الوطني، وما لبث أن شهد النصف الأول من عام ١٩٠٨ التقارب الذي تم بين الخديو والإنجليز، أو ما سمي بين السلطة الفعلية والسلطة الشرعية، ولذا أصبح حقيقة اعترف بها طرفا التقارب، فيما عرف بسياسة الوفاق بين الخديو عباس والمعتمد البريطاني في البلاد وهو السيد الدوق جورست، فلم يعرف لطه حسين موقف موافق لغير موقف الحزب الوطني الذي رأى أن هذا تم على حساب المصلحة الوطنية.

وقد تمثلت كتابات طه حسين في صحف الحزب الوطني في قصائده التي تناولت مواقف عامة، كأن يهنئ عبد العزيز جاويش بمناسبة خروجه من الحبس عام ١٩٠٩، أو أن يتحدث إلى النيل أكثر من مرة دون أن يصل

لموقف محدد مع القصر.

وإذا كان علاقته بالحزب الوطني اتخذت سمة (النشر)، فإن علاقته بحزب (الأمة) لم تجاوز هذا بكثير، فتحول من المتفرج إلى المعبر عن اتجاه الحزب الجديد.

ويكون هذا آخر لقاء بين طه والسلطان قبل أن يرحل إلى فرنسا، ولا يعود إلا بعد أن يكون قد رحل السلطان، وجاء سلطان آخر، حيث تدخل مصر مع السلطان فؤاد مرحلة جديدة بتاريخها بثورة ١٩.

وقبل أن نتتبع العلاقة بين طه حسين والقصر في إطار الواقع السياسي الجديد، ينبغي التوقف أكثر عند المؤثرات التي حددت هذه العلاقة ورصدت دوافعها، وسوف يكون ذلك على مستويين:

(أ) الصراع بين أوتوقراطية الملك وديمقراطية الاتجاه الليبرالي.

(ب) الصراع على الوقع السياسي والزمني.

وإذا تحددت علاقة طه حسين بالملك على مستويين رئيسيين، فإن ثمة مستوى ثالثًا تبلور أكثر في عقد الأربعينيات وهو يتمثل في اتجاه طه حسين الحثيث إلى البعد الاجتماعي وهو ما سنصل إليه في موضعه.

لقد تبلور خاصة، بعد الحرب العالمية الأولى في مصر اتجاهان: إسلامي وتحديثي، وقد انتمى طه حسين إلى الاتجاه التحديثي، إذ إن الأفكار الليبرالية يجب أن تسيطر على الأذهان، وبالنسبة إلى علاقة الحاكم بالدين كانت تتحدد حول عديد من المحاور من أهمها، بالنسبة لطه حسين، أن استخدام منهج الشك الديكارتي كان للدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، وأن يحول بين الحاكم وبين الاحتفاظ بأية ميزات يمكن أن تقلل من سيادة المسألة الدستورية.

وقد ظهر هذا الاتجاه لديه منذ فترة مبكرة، فقد أكد أنه لا ينكر حق الخليفة في الرئاسة الدينية ولكنه أنكر معه ممارسته السياسية بموجبها، أو دون أن يكون بينه وبين الرعية دستور[٤٠٥]، وهو ما تعارض مع رغبة الحاكم، فإن هذا الاتجاه قابله من جانب الملك سواء كان فؤاد أو فاروق، فيما بعد، البحث عن مبررات لزيادة سيطرته على الحكم في إطار النظام الدستوري المستورد من الغرب، ونظرة خاطفة إلى سياسة القصر يمكن أن تدلنا على هذا.

كان الملك يتمتع بسيطرة طاغية على كل شيء في البلاد، فانتقال أي

---

(٤٠٥) الجريدة ١٩١١/٤/١٦

موظف بالدولة كان بموافقة القصر، الأمر الذي دفع بالنحاس في أحد مطالبه من السفير البريطاني عام ٣٧ إلى أن يطالب بجواز (عزل موظفي الحكومة بقرار من مجلس الوزراء دون حاجة إلى استصدار مرسوم ملكي بعزلهم) وكتب السردار إقبال شاه والرافعي وقلليني فهمي وغيرهم مليئة بهذه الممارسات.. كما جهد الملك، من ناحية أخرى، للسيطرة على النياشين ومنح الرتب كما يشاء إلى درجة أن النياشين التي كانت تمنح من خارج مصر لم تكن لتجاز في الداخل، اللهم إلا، بموافقة الملك، وطه حسين نفسه لم يستطع قبول نيشان فرنسي إلا بعد الإذن له من (المنطق السامي)، وهو ما حدث بالنسبة إلى نيشان أسباني آخر[٤٠٦].

إلى جانب أن جميع الترشيحات للمناصب الحكومية من درجة مدير عام إلى ما يعلوها كانت تعرض أولاً على القصر، إما شفوية وإما كتابة لقبول الملك ذلك، وكثيرًا ما كان القصر يعارض في بعض الأسماء أو يراجع فيها، أو يطلب بيانات إضافية عن أصحابها[٤٠٧].

وقد كانت سيطرة الملك تمتد إلى درجة أن المستشار الصحفي له، كريم ثابت، يذكر أن الأمور التي كانوا يعرضونها على الملك أو يستأذنونه فيها كانت (لا تحصى ولا تُعد) وأن (الحكومة لم تكن تعمل عملاً واحدًا يستحق خبرًا في الصحف بدون أن ترجع فيه إلى القصر مقدمًا).

إن مراجعة موقف الملك من الحركة الوطنية ترينا أنه لم يكن ليهتم كثيرًا بالدستور والوزارات الدستورية، حتى لو تحالف في ذلك مع قوى الاحتلال، فالوثائق البريطانية تذكر رأي الملك فؤاد لدافيد كيللي المستشار بمقر المندوب السامي من أن المصريين لا يناسبهم الحكم البرلماني.. ومصالح الإنجليز في مصر الاستراتيجية ((فلم لا تتركوني أحكم مصر كما أريد لأني أعرف وأتقن هذه المهمة.. ولا تتدخلوا في شئون مصر الداخلية.. وأنا مستعد أن أترك لكم جميع المصالح الاستراتيجية والموصلات الإمبراطورية)).

وقد تمكن الملك - بالفعل بمساندة الإنجليز من السيطرة على نظام الحكم سواء بين عامي ٢٥/ ٢٦ حتى حكم القصر بوزارات أقلية (زيور)، أو منذ عام ٢٩ حين حكم القصر منذ الثلاثينيات في ظل تعطيل الدستور (محمد محمود)، أو إجراء انتخابات حرة كما يرد (عدلي يكن)، أو الالتزام بالدستور (مصطفى النحاس)، أو تغييره للدستور بدستور آخر (إسماعيل

---

(٤٠٦) دار المحفوظات، ملف محفظة ١١١

(٤٠٧) ذكريات كريم ثابت، الجمهورية ٥٥/٦/١٣

صدقي)، وهو ما فعله أيضًا في عهد خليفته (عبد الفتاح يحيى) معتمدًا على تأييد الإنجليز له أو محايدتهم.

وقد كانت نزعة الحكم المطلق هي نفسها النزعة التي ترسمها فاروق، وهو ما تردده كل مراجع هذه الفترة.

ويمكن باستعراض الخط الليبرالي الذي آثره طه حسين وعاد به من أوروبا منذ بداية العشرينيات أن نقف عند أول مؤثر حدد طبيعة العلاقة بينه وبين القصر.

لقد تبدى هذا الاتجاه عنده في مرحلة اليونانيات خاصة، في أول أعماله التي كتبها في فترة مبكرة (صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان) عام ١٩٢٠، فعلى الرغم من أن مقدمة الكتاب تضمنت إهداء للملك، فإن نفس المقدمة كانت تشي بالاتجاه الليبرالي الذي عرفته مصر منذ تبلور ثورة ١٩، وهو هنا لا يذكر الفن والعلم، وإنما على حد قوله (أذكر السياسة والحياة الاجتماعية فيما نشأت الحياة الديمقراطية، بل والمذاهب الاشتراكية في أوروبا إلا حين انتشر هذا التاريخ القديم فيها، وعرف الناس ديمقراطية اليونان)[٤٠٨].

كما أن طه حسين في فترة إثارة مواد الدستور والقضايا النيابية عهد إلى ترجمة كتاب آخر سماه (نظام الأثينيين) عام ١٩٢١ محاولاً فيه تقديم مفهوم واضح لمعنى الديمقراطية فالكتاب كما يقول في مقدمته هو (أحسن صورة موجودة تمثل الحياة النيابية وهو مع ذلك صورة حية لنشأة الديمقراطية واستحالتها ورقيها قليلاً قليلاً حتى تصل إلى أقصى ما يقدر لها من النمو والسعة والسلطان)[٤٠٩].

ولا يلبث طه حسين عام ٢٤ أن يبدأ في كتابه (قادة الفكر)، الذي يعبر فيه من خلال عدة تراجم عن فكرة مؤداها أن شخصية القائد ليست منفصلة عما حولها، بل قبل كل شيء مثل لعصره، فالآداب والآراء هي (اجتماعية أكثر منها ظاهرة فردية، أي منها أثر من أثر الجماعة والبيئة كثر منها من آثار الفرد الذي رآها وأذاعها)[٤١٠].

وقد خصص في هذا الكتاب بعد ذلك أكثر من فصل متحدثًا فيه عن الديمقراطية وأصولها وتطورها التاريخي[٤١١].. وهذه هي الفترة التي يتردد

---

(٤٠٨) مقدمة (صحف مختارة .. ص ٦/٥
(٤٠٩) المقدمة (نظام الأثينيين).
(٤١٠) قادة الفكر، ص ٦
(٤١١) السابق ص ١٢٣، ١٣٣

فيها أنه بصدد تأليف كتاب جديد يحمل موضوع الديمقراطية.

ولا تكاد تمضي سنتان أخريين حتى تبدأ ضجة كتاب (في الشعر الجاهلي) ترتفع، وهي ضجة لابد وأن ننظر إليها من داخل إطار أوسع ((السلطة بين الملك الذي أراد أن يحتفظ بالميزات الملكية العادية التي شغف بها، وبين السلطة التقليدية للسياسيين المتأثرين بالغرب الذين كانوا يبحثون عن مميزات ومزيد منها في إطار النظام الدستوري المستورد من الغرب في هذا الوقت)).

لقد كان منهج طه حسين يهدد الملك، أو على الأقل خيل للملك أنه يهدده، للتناقض بين فكر الغرب (الليبرالي)، وفكر الشرق (الأتوقراطي)، مما يجسد الخلاف، ومن هنا، القطيعة بين فكر المثقف والحاكم.

وفي هذا الإطار يمكن النظر إلى كتاب مثل (مستقبل الثقافة في مصر) والذي صدر بعد ذلك بسنوات، والذي كان من زاوية معينة يحمل أفكارًا هامة يمكن أن تعد تحديًا للملك أو مناوئة له ولسياسته، فقد حاول طه حسين فيه أن يدافع عن الفكر الغربي، فإذا أضفنا إلى هذا أن أفكار الكتاب في هذا الوقت عرفت في مناخ وفدي كان طه حسين قد انحاز إليه، لتصورنا المدى الذي دفع بالملك إلى أن يعتقد، أنه يحمل مضمونًا مناهضًا لنظام الحكم المطلق.

وقد تمثل اتجاه طه حسين الليبرالي، المناهض للاتجاه الأوتوقراطي في الثلاثينيات والأربعينيات أكثر من ذي قبل، سواء ما تمثل منه في الخط الاجتماعي، أو كتاباته التي أثارت أفكاره، ومنذ نشأة حزب الأمة لم تكن علاقته بالخديو عباس الثاني علاقة طيبة، قد تعقدت هذه العلاقة في فترة وجود جورست وإن لم تعلن عداءها للخديو صراحة[٤١٢]، حتى إذا ما سافر الخديو للحج في عام ١٩٠٩ عاد حزب الأمة لمراجعة نفسه، خاصة وقد كانت أسباب الاستقالات تدور حول تهجم الجريدة على السلطة الشرعية، في الوقت الذي كانت هناك حركات تعيينات وترقيات في مناصب الإدارة، الأمر الذي قد يتيح للخديو فرصة جديدة لضرب ذوي المناصب من أبناء الأعيان الذين ينتمون لحزب الأمة، وعلى ذلك، بدأت الجريدة تراجع مواقفها، وقد شرعت في هذا الخط منذ بداية عام ١٩١٠، بإنشاء المقالات والقصائد في مدح الخديو واستقباله من رحلة الحج وأسهبت في وصف رحلة عودته، فإذا بطه حسين يشارك مع من شارك في مظاهرة حزب

---

(٤١٢) الجريدة ١٩٠٨/٩/٦

الأمة وينظم عنه قصيدة ويهنئ بها الخديو عقب عودته مباشرة لتنشرها الجريدة الناطقة بلسان حزب الأمة بطلب الدستور[٤١٣].

وعلى الرغم من أن موقف الحزب الوطني من الخديو لم يكن ليصل إلى درجة العداء إلى الحد الذي وصل إليه حزب الأمة في فترة من الفترات، فموقف طه حسين هنا وهناك، في هذا الحزب أو ذاك، لم يجاوز غرض النشر أكثر من فرض الرأي والذود عنه، مما حتمت عليه العلاقات الشخصية التأييد الذي لا يصل بصاحبه إلى مكانة خاصة متميزة.

ولم يكد يرحل الخديو عباس الثاني وتولى مكانه السلطان حسين كامل حتى كان طه حسين يقف أمام لجنة من الجامعة المصرية لامتحان علني للحصول على درجة الدكتوراه في مايو ١٩١٤، فيرسل مجلس إدارة الجامعة المصرية إلى الخديو لكي ((يسمح وقته الثمين الإذن السامي بحظوة الطالب المذكور بالمثول بين يدي سموه))[٤١٤]، وتخبره الجامعة بيوم المقابلة، فيلتقي به أكثر من مرة فيما بعد قبل سفره إلى الخارج[٤١٥]، محدثًا طه حسين نفسه حينئذ ((أين هو من صاحب العرش؟)).

ويقف مرة ثالثة بين يديه عام ١٩١٥ متحدثًا عن بعثة الجامعة، مؤكدًا أنه ليس لدى أولئك المبعوثين من غاية غير أن:

(نخدم وطننا العزيز وسلطاننا المحبوب خدمة علمية صادقة، فباسم الجامعة المصرية نرفع إلى عرشكم الكريم تحية العلم طاهرة صادقة تمثل شكره لك ورجاه منك.

ولقد أحسنت يا مولاي إلى العلم، ورفعت قدره، فليزد الله قدرك نعمة، وليحسن جزاءك عن العلم والمتعلمين)[٤١٦].

وراح يعيد هذا في عديد من كتبه التي راح يشير إلى الملك في أغلبها بالتلميح[٤١٧].

هناك أمر آخر حدد العلاقة بين طه حسين والقصر..

توازى مع خط الاستئثار بالسلطة المطلقة من جانب الملك محاولة التدخل في العقيدة في محاولة استخدامها إلى صالحه، وهو ما يبدو واضحًا في مواقف القصر منذ فترة مبكرة، سواء لتأييده لكل دعوات الرجعية مثل

---

(٤١٣) الجريدة ١٩١٠/١/٢٦

(٤١٤) أرشيف الجامعة، محضر جلسة الإدارة ١٤/٤/٢٥

(٤١٥) الأيام ج ٢ ص ٦٥/ ٩١

(٤١٦) وادي النيل ١٩٦١/١/٢٠

(٤١٧) انظر: المعذبون في الأرض، وجنة الشوك.

الالتزام بالحجاب ولبس الطربوش أو ضد الدعوات العصرية، أو لموقفه الخاص من مسألة (الخلافة) إلى غير ذلك من المسائل.

لقد حاول الملك فؤاد منذ فترة مبكرة التعبير عن رغبته في أن يكون مرشحًا للخلافة، فإن علماء الأزهر وجماعة مصر الفتاة والإخوان المسلمين كانوا وراء ذلك بإيعاز منه، غير أنه أمام المعارضة الشديدة التي ووجه بها[٤١٨]، تحول عن هذا الموقف خاصة وقد وقف محمد محمود ممثل الأحرار الدستوريين قائلاً: مشيرًا إلى الملك: ((يجب ألا يكون (زعيمًا) إسلاميًا، لأن معنى ذلك أن يتحكم تمامًا في مسائل الأوقاف وتعيين الرؤساء الدينيين))، وهو ما دفع الملك إلى التراجع.

على أن المهم هنا، هو أن الملك حرص عند وضع دستور ٢٣ على الاحتفاظ بحقه كاملاً في مباشرة سلطته في شئون الأزهر وهو ما انتهى فيه إلى صدور نص المادة ٣٥ من الدستور[٤١٩]، وقد حاول ذلك وفشل في بسط سلطته على القضاء الشرعي ومدرسة دار العلوم بالأزهر، كما كان أهم شروط تعيين عضو ((جماعة كبار العلماء، المعاونين لشيخ الأزهر أن يعين العضو بأمر ملكي بناء على ما يعرفه شيخ الأزهر وبعد ترشيحه من أغلبية أعضاء الجماعة))[٤٢٠].

ومن يقرأ مذكرات الظواهري (شيخ الأزهر بين عامي ٢٩/ ٣٥) يدرك طبيعة هذه العلاقة التي حرص الملك فؤاد عليها، واستخدم شيخ الأزهر إلى جانبه إلى درجة انحيازه له تمامًا، كما ظهر هذا واضحًا في درجة ميل الأزهر إلى القصر في تلك الفترة.

ويروي الشيخ الظواهري كيف أن الأزهريين أشفقوا من أن يكون انضمامهم للحكومة في النظام النيابي الجديد معروضًا لهم ولمعهدهم القديم لشيء من هذا التصادم والتدافع بين الأحزاب فمالوا إلى سلطة الملك مما نتج عنه أن اهتبل الملك الفرصة في إدارة الأزهر وتعيين رؤسائه إلى غير ذلك.

وقد كان الملك فؤاد، كما أكد الظواهري رجله، حريصًا على أن يعرف كل شيء عن الأزهر والمعاهد الدينية، وقد كان يعتبر هذه الناحية من الأمور المصرية، الناحية الخاصة به، يديرها دون وساطة أحد من الوزراء، كما لم يكن الملك فاروق أقل من والده في استخدامه للدين

---

(٤١٨) عارضه عباس العقاد، على سبيل المثال، الهلال ٣٢/٣، أيضا: غمر طوسون.

(٤١٩) حسن يوسف، ص ١٣٠

(٤٢٠) السابق ص ٢٣١

ولممثليه لتدعيم مركزه المطلق، وهو العنصر الذي كان يقع عنده الخلاف دائمًا مع حزب الوفد، الذي كان يمثل، في الاتجاه الآخر، الحزب المناهض للثيوقراطية فكما وقع أكثر من صدام بين الملك فؤاد وممثلي حزب الأحرار الدستوريين من قبل، كذلك توالت الصدامات بين فاروق وممثلي حزب الوفد بعد ذلك، فمنذ فترة مبكرة من توليته نشب خلاف بينهما فيما اقترحه الأمير محمد على رئيس مجلس الوصاية على فاروق من أن ((تشتمل حفلات تولية الملك فاروق على حفلة دينية.. على اعتبار أنه الإمام الذي ينوب عنه الأئمة وتصدر باسمه أحكام الشريعة. وقد رحب علماء الأزهر بهذا الاقتراح وأرسلوا إلى الأمير يؤيدون اقتراحه ويشكرونه عليه))(٤٢١).
فكان هذا الصراع يمثل أول أسباب الصدام بين التيار الأوتوقراطي الذي يمثله الملك وبين التيار القومي الليبرالي الذي يمثله الوفد.

وكما أن موقف طه حسين من غلو التيار الأوتوقراطي كان واضحًا منذ البداية، كذلك فإن موقفه من التيار الثيوقراطي كان من الوضوح بحيث أنه لم يجد مناصًا من الاصطدام بسياسة القصر.

وعلى هذا، لم يكن غريبًا أن ينهال عليه الهجوم العنيف ولما يمض شهران على صدور كتابه (في الشعر الجاهلي) عام ٢٦ مما دفع به ليكتب تحت عنوان (خطران) يقول عنهما:

((أولهما الجهل، وثانيهما الجمود.. وكلاهما عقبة كئود في سبيل الحياة الدستورية الصالحة بل في سبيل الحياة الصالحة من حيث هي.. (و).. وأريد أن أصارح البرلمانيين والذين لهم أمور مصر في هذه الأيام بأن في مصر شرًا عظيمًا هو جمود الشيوخ))(٤٢٢).

كما لم يكن غريبًا أن يثير في كتابه التالي (مستقبل الثقافة في مصر) عام ٣٨، في المناخ الذي ظهر فيه حينئذ، كثيرًا من الاضطراب في وقت كانت تتأثر فيه الأزمة الدينية عند اعتلاء فاروق العرش وذلك بين القصر والوزارة القائمة، فهذا الكتاب، فضلاً عما فيه من أفكار هامة، يمكن أن يعد تحديًا للملك أو مناوئة لأفكاره، إذ حاول أن يدافع فيه عن الأفكار الليبرالية ضد الهيمنة الدينية إذ ينتمي فكر صاحبه ومعتقده إلى الهيئة الوفدية التي كانت تدين في كثير إلى الثقافة الفرنسية، وهو ما يفسر موقفه من محاولة

---

(٤٢١) عبد العظيم رمضان، تطور الحركة الوطنية ج ٢ ص ٦١ وما بعدها، أيضا: حسن يوسف، ص ٨٢، ١٩٠

(٤٢٢) السياسة ٢٦/٧/١٦، ويتابع الهجوم على رجال الدين (انظر على سبيل المثال: ج٣ ص ١٧٢، ج٣ ص ١٢، ٢٠).

الدفاع عن فكر الوفد ضد فكر الملك الثيوقراطي بهدف ضرب القصر وأنصار الخلافة من الأزهريين وغيرهم[٤٢٣].

من ناحية أخرى، فإن (مستقبل الثقافة..) يحمل مضمونًا غريبًا، يدافع عن الفكر الليبرالي، ويهاجم الحكم المطلق للملك وهو ما يرفض من جانب القصر في هذا الإطار.

ولم تنجح إسلاميات طه حسين أو كتبه التي كان يهديها للملك، أو، كلمات الإطراء التي كثيرًا ما كان يلقيها جزافًا في المناسبات الملكية، كما سنرى، في التخفيف من حدة مواجهته للنظام الملكي سواء فيما دعا إليه من مفاهيم ليبرالية أو من مواجهة للسيطرة الدينية.

وهنا، نجاوز أهم المؤثرات التي ترسم محددات الصراع الفكري إلى أرض الواقع السياسي وملابساته..

تردد موقف طه حسين في علاقته بالقصر بين ثلاث دوائر متداخلة.

فبينما تميز موقفه في الدائرة الأولى، بالعداء المطلق للقصر أو تبني الأفكار المناهضة له.

راح في الدائرة الثانية التي تداخلت فيها الحزبية بالذاتية يمزج بين الثابت والمتحول، فتميزت علاقته بعدم الثبات مع الملك.

حتى إذا ما كانت الأربعينيات بدا أن الفراق واقع لا محالة بين محاولة الإقبال على الملك وترضيته، والإعراض عنه ومعاداته بالدخول إلى دائرة التحول، نهائيًا، في وزارة الوفد عام ١٩٥٠، فقد عرف طه حسين قبل دخوله الوزارة وبعدها مباشرة بالإسراف في الثناء على الملك والإشادة به وبأجداده دونما تحفظ.

فلنحاول الإشارة إلى كل دائرة على حدة، مع ملاحظة، أن هذه الدوائر كانت دائمة التماس دائمة التداخل.

على الرغم من أن طبيعة طه حسين منذ كان في الأزهر تؤكد على التصادم مع القصر، خاصة حين كانت سياسة القصر تنحاز إلى هذا الشيخ أو ذاك[٤٢٤]، فضلاً عن ارتباطه بالحزب الوطني أو صداقته بآل عبد الرازق[٤٢٥].. فإن هذا الموقف لم يثبت طويلاً خاصة بعد عودته من البعثة منذ عام ١٩١٩.

وتفصيل هذا، أنه، في لقاءين متتاليين مع الملك تحددت العلاقة بينهما

---

(٤٢٣) Smith p.408.

(٤٢٤) الأيام، ج ص، الصفحات ١٥١، ١٥٢، أيضا: أديب، ص ١٩

(٤٢٥) خدوري، السابق ص ٢٢٣

أكثر حين حاول الملك أن يستميله إلى جانبه، والإفادة منه في صراعه مع القوى الحزبية الأخرى.

المرة الأولى أنه ما كاد يعود إلى الجامعة حتى التمس له مقابلة السلطان، وفي القصر ((خف السلطان للقائه، كأحسن ما يكون اللقاء، ثم أجلسه غير بعيد عن المائدة التي كان يجلس عليها وتلطف له في الحديث وشمله بعطف كثير))[٤٢٦]، ثم راح يسأله ظاهرًا الرضاء عنه مثنيًا عليه مترفقًا به حتى انتهى اللقاء، فمضى طه حسين وهو يشعر باضطراب شديد مبعثه موقف خاص كما يبينه هو فيقول عنه، أنه حين كان السلطان رئيسًا للجامعة قبل أن يرسل إلى البعثة والتقى به في الجامعة طالبًا فأخذ بمجامع جبته طالبًا منه أن يلقي خطبة في مؤتمر يبحث في شئون العيان، وكان رفض طه حسين حادًا فلم يكن يعرف من يطلب منه ذلك.

على أن لقاء السلطان به متلطفًا هذه المرة أيضًا رده إلى شيء كثير من الهدوء.

أما المرة الثانية حين طلب من الجامعة رفع مرتبه إلى المستوى الذي يستطيع اصطحاب قارئ يفيده في ظروف عمله بالجامعة وانتهى به الخلاف الحاد مع مجلس إدارتها إلى تقديم استقالته وما لبث أن استردها راغمًا معتذرًا إلى الجامعة[٤٢٧].

وما كادت تنتهي هذه (الخصومة) بينه وبين الجامعة حتى فوجئ بمقابلة أخرى أعدت له مع السلطان الذي تلقاه هنا ((لقاء حسنًا وتحدث إليه فأطال الحديث ثم قال له فجأة:

ـ لقد بلغني نبأ استقالتك من الجامعة، وقد أحسنت بالعدول عن هذه الاستقالة، ولابد من صبر طويل واحتمال كثير من الجهد، فبين هؤلاء الناس وبين حسن الذوق وقت ما زال طويلاً، ولكن أذكر دائمًا ما قلته لك حين لقيتك في المرة الأولى))[٤٢٨].

ومن هذا الوقت فقد شعر طه حسين، كما يؤكد، أن ((عليه منذ بداية اليوم للسلطان دينًا يجب أن يؤديه))، ولما لم يكن يعلم دخيلة السلطان وطبيعة الطلب الذي أراده منه، فإنه سعى سعيًا متواصلاً حتى أتم كتابًا بعنوان ((صحف مختارة من الشعر التمثيلي اليوناني))، مرجحًا بأنه بإهداء هذا الكتاب للسلطان يكون قد أدى دينه عليه، فيرضى عنه، وهو ما يظهر

---

(٤٢٦) الأيام ج٣، ص ١٥٣

(٤٢٧) المحفوظات، محفظة ١١١، أيضا: أرشيف جامعة القاهرة، محفظة ٣.

(٤٢٨) الأيام، ج٣، الصفحات ١٥٥، ١٥٦

في كلمات الإهداء[٤٢٩]، ثم التمس لقاءً بالسلطان فأجيب إلى طلبه ظانًا بأنه قد ((أدى للسلطان حقه وشكر له عطفه عليه وبره به))، على أن السلطان على حد قول طه حسين كان يريد ((شيئًا آخر، وينتظر شكرًا آخر غير إهداء كتاب مهما يكن موضوعه))[٤٣٠].

وهنا، كان بداية التوتر الحاد بينه وبين القصر، فعلى الرغم من أن علاقته الخاصة بالسلطان كان يراد منها، من وجهة نظر السلطان، فيما يبدو، مساندته ضد أية قوى أخرى تحاول النيل من سلطاته كملك أوتوقراطي، فإن تكوين طه حسين الفكري فضلاً عن علاقته الحزبية بحزب الأحرار، حينئذ، شاءت له موقفًا آخر.

لما كان طه حسين محسوبًا على حزب الأحرار منحازًا إليه، فقد اضطر إلى اتخاذ مواقف الحزب بشكل مباشر وغير مباشر في أحيان كثيرة، فإلى جانب القناعات الفكرية التي أشرنا إليها سلفًا، من حرص الملك على الحكم المطلق، وتبني الثيوقراطية باستحواذه على شيوخ الدين ومؤسساتهم، فقد أضيف العامل الحزبي كأهم عامل في هذه الفترة خاصة بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، فإذا كانت علاقة طه حسين قبلاً ترتبط بالشخصيات التي تنتمي إلى التيار الفكري الذي آثره، فإن شخصيته بعد ذلك ارتبطت أكثر بالمؤسسة الحزبية التي انتمى إليها، والتي كانت تدخل في علاقة مع القوتين اللتين حكمتا مصر: القوى الشرعية/ الملك، القوى الفعلية/ الإنجليز، مما اضطر معها القوى الثالثة/ الحاكم إلى الدخول في صراع محتم مع القوى الأخرى.. خاصة وأن الوزارة بعد تصريح ٢٨ فبراير ((أصبحت طرفًا أصيلاً في العمل السياسي، وقد تمخض عن هذا التسليح نتيجة هامة، هي، أن الوزارة لم تعد بالضرورة، وبصورة مبهمة، إرادة الاحتلال أو سياسة القصر، كما كان الحال من قبل، بل وجب عليها أن تكون ذات لون سياسي محدد وكان هذا اللون في الغالب حزبيًا)).

وقد دخل حزب الأحرار في خلافات حادة مع القصر منذ تولي

---

(٤٢٩) جاء في الإهداء: (إلى صاحب العظمة ((فؤاد الأول)) سلطان مصر/ مولاي/ يحفظ التاريخ ما لعظمتك من أثر محمود في إنشاء الجامعة وإحيائها، وأحفظ أنا ما تفضلت به من عطف علي وتشجيع لي على درس ((الأدب القديم)) وإذاعته، فمن الحق أن أرفع إلى مقامك الجليل أول كتاب أنشره في ((أدب اليونان))، وأنا سعيد كل السعادة أن ارتاحت إليه نفسك الكريمة، وانتفع به أبناء هذا الوطن العزيز).
انظر صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان، الإهداء.
(٤٣٠) السابق، ص ١٥٦

الوزارة عدلي ممثل الحزب ورئيسه[٤٣١]، ثم ثروت الذي لم ينضم للأحرار رسميًا وإن كان يمثل جزءًا من تيار المعتدلين الذين تزعمهم عدلي باشا فيما بعد وكون معهم حزب الأحرار، كما كانت وزارة توفيق نسيم وزارة ملكية دخلت في صراع حاد مع حزب الأحرار وهو ما عرفت به، فيما بعد وزارة يحيى إبراهيم قبل أن يتولى سعد زغلول وزارة ٢٤.

وفي الوقت الذي كانت فيه علاقة عدلي بالسلطات علاقة سيئة عبر عنها السلطان للمندوب السامي البريطاني في أحد المواقف بأن عدلي يريد ((أن يفرض نفسه علي))[٤٣٢]، فإن ثروت بدأ خلافات حادة مع القصر أيضًا نتيجة لأزمة نصوص الدستور الخاصة بسلطة الأمة، ووقوف الوزارة ضد رغبات القصر وعدم تصريحها بعدم الاجتماع لتأييد الملك، وتعطيلها لصحيفة ((الليبرتية)) التي كان القصر يستخدمها في أغراض الدعاية.

وقد ترتب على هذا أن علاقة ثروت بالملك وصلت إلى مدى سيئ، سواء بتجاهل ثروت لرغبات القصر أو فيما ارتآه القصر من أن لجنة الدستور التي شكلتها الوزارة قد ذهبت حدًا بعيدًا في تقييدها لسلطانه، وهو ما يتم برعاية ثروت وتشجيعه مما دعا الملك إلى أن يبث العراقيل في طريق وزارة ثروت مما بدا معه واضحًا في رفضه لانعقاد مجلس الوزارة لبضعة أسابيع وهو ما ترتب عليه ((تعطيل سير الأحكام الحكومية إلى حد خطير))[٤٣٣]، إلى درجة أن اتصل ثروت بالمندوب السامي ليخبره برغبته في تقديم استقالته.

فإذا استقالت وزارة ثروت وجاءت وزارة نسيم، كانت علاقة الملك بالأحرار الدستوريين تمر بمرحلة سيئة استمرت فيما بعد في فترة تولية وزارة يحيى إبراهيم فلم يتخذ الأحرار فيها من الملك موقفًا مجاملاً قط، أو التساهل في تأييد بعض مطامعه الدستورية، ومن هنا، يمكن تلخيص موقف الأحرار من القصر كما وصفه د. محمد حسين هيكل حينئذ بأنه على النحو التالي:

(كان الملك فؤاد ينظر إلى الأحرار الدستوريين كافة.. نظرة توجس وعدم رضا، ألم يتألف حزب الأحرار الدستوريين في سنة ١٩٢٢ من أعضاء لجنة الدستور التي حرصت على توسيع حقوق الأمة وتضييق

---

[٤٣١] بين ١٦ مارس/ ٢٤ ديسمبر ١١

[٤٣٢] يونان لبيب، تاريخ الوزارات ص ٢٢٨

[٤٣٣] السابق، ص ٢٤٨، أيضا: أحمد زكريا الشلق، الأحرار ص ٢٣٨/ ٢٤٠

حقوق العرش؟ ألم يعلن عدلي يكن ((باشا)) في الخطاب الذي ألقاه يوم تأليف الحزب أن من أغراضه المحافظة على سلطة الأمة وحقوق العرش؟ ألم تدافع جريدة الأحرار الدستوريين عن المشروع الذي وضعته لجنة الدستور دفاعًا حارًا مخافة أن ينتقص من سلطة الأمة فيه مما يزيد في حقوق العرش؟ أو ليس الأحرار الدستوريين هم الذين استقالوا من وزارة زيور ((باشا)) المنسوبة للقصر في سنة ١٩٢٥، وبعد قليل من هذه الاستقالة ألقى رئيسهم إذ ذاك عبد العزيز ((باشا)) فهمي خطابه الجريء يعارض فيه سلطة القصر معارضة عنيفة..))[٤٣٤].

وقد كان الطبيعي أن يكون موقف طه حسين مع كل هذا موقف حزب الأحرار في كثير من القضايا التي عرضت في هذا الوقت.. ففي الفترة التي كان يثار فيها الرأي حول مواد الدستور وحقوق العرش عام ١٩٢٢ راح طه حسين يكرر نغمة كررها كثيرًا وقتها من أن ((الأمة مصدر السلطان))[٤٣٥] مشيرًا في أكثر من موضع ومناسبة من أن القصر يركب رأسه، فقد كان يريد برلمانًا لا سلطة ولا حقوق له، ولم يكن يريد سيادة وطنية ولا مسئولية وزارية[٤٣٦].

وتمضي الحركة الوطنية وتؤلف لجنة الثلاثين لتكوين الدستور، ويرى حزب الأحرار أن هذه اللجنة ماضية في عملها حتى يصبح الدستور الديمقراطي من حقوق الشعب، ويظهر الخلاف حادًا بين القصر والوزارة بسبب هذه الجدية، وطه حسين في هذا الوقت، بالتبعية، ماض في تأييد الدستور الديمقراطي غير ملق بالاً إلى ((القصر ولا إلى صاحب القصر الذي أحسن لقاءه ومنحه كثيرًا من العطف والبر والتشجيع))[٤٣٧]، ويكتب طه حسين في الصحف حينئذ بما يعني عدم رضائه عن سياسة القصر، بل ويواصل هجومه العنيف عليه سواء فيما يتعلق بمواد الدستور، أو بقضية أثيرت حينئذ من تلقيب ملك مصر (ملك مصر والسودان)، وفيما يتعلق بمواد الدستور الخاصة بالسودان أو فيما يردد من طلب الإنجليز من الحكومة المصرية التعويضات التي تطلب منها، ثم موقف السلطان الغريب من هذا.

وتثار قضية الخلافة حين يتطلع إليها الملك فؤاد، ففي الوقت الذي

---

(٤٣٤) محمد حسين هيكل، ج٢ ص ٣٦
(٤٣٥) ما بعد الأيام، الزيات، ٢٢ يناير ٨٢ ج ٢
(٤٣٦) سوزان، ص ٥٣
(٤٣٧) الأيام، ج٣ ص ١٦٢، أيضا: سوزان ص ٥٧

يصرح فيه محمد محمود أحد قادة حزب الأحرار بأن الملك ((لا يجب أن يكون زعيمًا إسلاميًا))[٤٣٨] وهو ما يعني اتجاه حزب الأحرار ضد إرادة الملك، يتخذ طه حسين، من هنا، موقفًا مناهضًا للملك، فيكتب مقالاً طويلاً على أثر إلغاء الخلافة في تركيا وفصل السلطتين المدنية والدينية مؤكدًا على أن ((التطور السياسي للعالم الإسلامي سيقضي قريبًا أو بعيدًا بأن يذهب المسلمون طوعًا أو كرهًا مذهب الأوروبيين، فتصبح الخلافة عندهم سلطة دينية خالصة ليس بينها وبين الحياة السياسية والمدنية صلة وتصبح سلطة روحية كما يقول الأوروبيون))[٤٣٩] مرددًا أكثر من مرة نفس الرأي مصرًا عليه، مركزًا على ضرورة فصل السلطتين السياسية والدينية وإن لم يقلل من احترام الدين في قلوب المسلمين وعقولهم.

وقد وصل القصر إلى درجة من الغضب من طه حسين إلى درجة أن أسر ثروت إلى طه حسين بهذه الدرجة من الغضب والسخط الذي وصل القصر إليها، ناصحًا إياه أن يلطف من هذه الحدة ويستدرك منها[٤٤٠].

وقد كانت علاقة حزب الأحرار بوزارتي نسيم ويحيى إبراهيم خاصة علاقة سيئة يفسرها موقفهم من سلطة الملك في لجنة الدستور، ومن هنا، فإن هجوم طه حسين على وزارة ملكية، يعني، هجومه على الملك مباشرة وهو يعترف بهذا ولا يتردد على التصريح به في هذا الوقت، فيقول:

((تلكم نسيم اليوم، فأعلن في لفظ جريء واضح أنه كان يعتمد في وزارته الثانية على تأييد جلالة الملك وعلى تأييد الكثرة المطلقة)) .. (و) .. يجب أن نخاف ويجب أن نحذر، فإن الرجل الذي كاد يضحي بمصر لسلطان البلاد لم يفارق ملعب التمثيل فراقًا أبديًا))[٤٤١].

على أنه بسقوط وزارة نسيم وتولي سعد زغلول لوزارة شعبية (٢٨ يناير/ ٢٤ نوفمبر ٢٤) يلحظ تحول هام في علاقة طه حسين بالملك.. ففي الوقت الذي يهاجم فيه سعد زغلول كان يستدر عطف القصر ويتقرب منه بسبب العداء القديم بين سعد والملك.

كان موقف الأحرار، منذ البداية، معارضًا لحكومة سعد زغلول، فما كادت صحيفتهم ترحب بتولية سعد للحكم متفائلة بالوزارة الجديدة[٤٤٢] حتى

---

(٤٣٨) الشلق، الأحرار ص ١٨٦، أيضا انظر: F.O. 141/ 681. Mahmd. 23, 4, 1923

(٤٣٩) السياسة ٥ نوفمبر ٢٢

(٤٤٠) الأيام ج٣ ص ١٦٣، ١٦٤

(٤٤١) السياسة ٢٧ مايو ٢٣

(٤٤٢) السياسة ٢٨ يناير ٢٨

بدأت هجومها في افتقاد برنامج للإصلاح الاقتصادي والذي يحقق التوازن بين عناصر الاقتصاد المصري وذهبت تحاج سعدًا بأن الحكومة قد صارت في يده، وأنه كان يتعلل وهو في المعارضة بأنها لم تكن في يده(٤٤٣)، وبدأت ((السياسة))، لسان حال حزب الأحرار، في هجوم عنيف على الوزارة السعدية في وقت كان لابد فيه أن تقترب من القصر، الذي كان بدوره يضيق ذرعًا بالوزارة الجديدة التي كانت تحرص على برلمان منتخب انتخابًا سليمًا، ومن هنا، فحين استشرى الخلاف بين سعد والملك حول مسألة دستورية، تتالى هجوم حزب الأحرار في عنف شديد ضد هذه الوزارة.

وكانت هذه هي الفترة التي قدم فيها طه حسين للنيابة مع كل من الدكتور حافظ عفيفي وتوفيق دياب، كما توالت ملاحقات الحكومة لصحيفة (السياسة) ومحرريها حتى حكم بالغرامة على محمد حسين هيكل(٤٤٤)، كما حوكم طه حسين وقدم إلى النيابة وحقق معه في ٧ يونيو سنة ٢٤ بسبب عديد من المقالات التي راح يهاجم فيها سعد زغلول وإن حرص في بعضها على عدم ترك توقيعه مما دفع بالوزارة القائمة إلى تقديمه للنيابة(٤٤٥).

وتزخر مقالاته في الفترة التالية بهجومه العنيف على سعد المقترن بدفاعه عن العرش إعلاء لشأنه والتقرب إليه، فهو يذكر فضل الملك فؤاد على الجامعة حين يقارن بين سعد والملك(٤٤٦)، وهو يشير إلى أن أصحاب سعد هم أعداء العرش مضيفًا بأن ((أمثال صاحب الجلالة الملك فؤاد قد طبع في نفوس رعيته عميقًا، فليس يخلو منه قلب إلا قلب مريض أو نفس معتلة، ولا عجب ولا غرابة، فالمصريون مدينون له ولأبيه إسماعيل وبجده العظيم محمد علي، لا نقول بما وصلوا إليه من رقي بعد انحطاط وما ظفروا به من عزة بعد ذلة، بل نقول أنهم مدينون لهؤلاء..))(٤٤٧).

وقد كان واضحًا أن الهجوم على الوفد، وهو أهم أهداف حزب الأحرار، يصحبه هدف آخر من أهداف الحزب، وهو التقرب من القصر، فبمراجعة مقالات طه حسين حينئذ نرى أن الهجوم على سعد تركز في محورين اثنين: المحور الأول، هو ديكتاتورية سعد وطغيانه، وهو ما يرتبط

---

(٤٤٣) السياسة ٣١ يناير، ١٨ فبراير ٢٤، أيضا: الشلق، حزب الأحرار ص ٢٤٥
(444) الشلق، الأحرار ص ٢٤٦
(445) المحفوظات، السابق، ملف طه حسين.
(446) الاتحاد ٢٥/٣/١٧
(447) السابق ٢٥/٣/١٩، وأيضا انظر: أنور الجندي، الصحافة السياسية ص ٤١٠، ٤١١.

بالمحور الآخر، من أن سعدًا كان ضد الملك فؤاد.

فعلى الرغم من أن خلاف سعد والملك كان يدور حول نقطة دستورية هامة في الظاهر، وفي الباطن من جانب سعد على محاولة السيطرة على جموح الملك وسلطته التي يراد لها أن تكون سلطة مطلقة، فإن الهجوم على سعد من جانب طه حسين، على الأقل، كان يقصد به التقرب من الملك فؤاد أكثر من الاحتجاج على مسلك وزارة سعد، وهو المستغرب تمامًا من جانب طه حسين الذي كان يحرص أشد الحرص على مواجهة سياسة الأتوقراطية منذ عاد من أوروبا.

وما يؤكد هذا موقفه بعد قليل من حزب (الاتحاد)، فعلى الرغم من أن حزب الأحرار الذي انتمى إليه قد أيد نشأة هذا الحزب تأييدًا كاملاً، بل وقبل رئيس حزب الأحرار عبد العزيز فهمي حينئذ العضوية الشرفية التي عرضها حزب الاتحاد عليه وأعلن وجود حزب الوفد مؤكدًا أن وجوده لا يمس مطلقًا الحزب الدستوري في خطبته التي ألقاها بدار الحزب[٤٤٨].. فإن انضمام طه حسين إلى هيئة الحزب الجديد إنما كان على وجه الترجيح بقصد مداهنة الملك والتقرب من القصر الذي تتفق جميع المصادر في هذا الوقت على أنه كان الوحيد وراء إنشاء الحزب ورعايته[٤٤٩].

على أن شهر العسل بين طه حسين والملك الذي ظهر في تأييد الملك في وزارة الشعب (وزارة السعديين) أوشك على الانتهاء بمجيء وزارة ملكية جديدة بتولية زيور الوزارة بعد إقالة سعد زغلول في ٢٤ نوفمبر ٢٤.

ومن هذا الوقت وحتى قرابة ربع قرن من الزمان بعد ذلك، عادت القطيعة بين طه حسين والقصر، وعاد طه حسين إلى هجومه على صاحب القصر إما أثناء تواجد الوزارات الملكية (وزارة زيور- وزارة صدقي) وإما في عديد من المواقف التي كان لابد لطه حسين فيها أن يدفع ثمنًا باهظًا لموقفه المعارض للقصر.

وقد كان أهم المواقف التي ظهر فيها عداء طه حسين للقصر في وزارة زيور أزمة (الإسلام وأصول الحكم)، ففي الوقت الذي اتخذ الملك فيه موقفًا معارضًا من الكتاب وصاحبه ومؤيديه وصل إلى درجة إقالة عبد

---

(448) السياسة ١٥/٢/١٥، أيضا: الشلق، الأحرار ص ٢٤٩.

(449) انظر ملف حزب الاتحاد: FO: 141/ 819, Unionist Thanly, FO B, 1925
أيضا: محمد حسين هيكل ص ١٨٨، أحمد شفيق ص ٥، ٢٨، ٢٩، علوبة ص ٣٦٤، عبد الخالق لاشين، سعد زغلول ج٢ ص ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، الرافعي، في أعقاب الثورة ج١ ص ٢١٣/ ٢١٥.

العزيز فهمي من وزارة الحقانية في الوزارة كان لابد أن يزيد الكتاب من حدة القطيعة بين الأحرار والملك، لقد كان مؤلف الكتاب ينتمي إلى عائلة عرفت بمعارضتها للقصر رغم أن الكتاب لم يتضمن أي هجوم مباشر عليه، إلى جانب أن الملك كان مهتمًا بالخلافة الذي كان الملك قد عاد للحديث عنها بشغف خاص في صيف ١٩٢٥[٤٥٠].

وعلى هذا النحو، وجد طه حسين نفسه مضطرًا للدفاع عن الكتاب وصاحبه لأسباب كثيرة، منها، ارتباطه بعائلة الشيخ صاحب الكتاب، وثانيها، لاتجاه طه حسين الغربي الذي يتعارض دائمًا مع تطلع الملك وطموحه إلى الزعامة الدينية، ومنها، أيضًا، لارتباطه الحزبي مع الأحرار الدستوريين الذين وجدوا أنفسهم لا محالة مدافعين عن الكتاب، مدفوعين للهجوم، معرضين للإقالة من جانب الملك.

راح طه حسين يدافع عن الكتاب، وهو ما يعني أنه يهاجم الملك الذي رأى أن الدفاع عن الكتاب يطوي، لا محالة، نزوعًا للهجوم عليه.

وفي العام التالي مباشرة وجد طه حسين نفسه في أزمة لا تقل في ضراوتها عن أزمة (الإسلام وأصول الحكم)، وهي أزمة كتاب (في الشعر الجاهلي)، وعلى الرغم من أن موقف الملك من هذه الأزمة الأخيرة كان واضحًا لتداعي الأحداث وضراوتها، فإن مصادر عديدة تلقي ضبابًا كثيفًا على هذا الموقف.

لقد وجد نفسه في الضجة التي صحبت صدور كتابه في منتصف عام ٢٦، وما لبثت أن انتهت بعد عدة شهور بتدخل العديد من الأطراف التي يشك في أن الملك كان طرفًا أصيلاً فيها.

وهنا يثور السؤال: ما موقف الملك من طه حسين في هذه الأزمة؟

وهل سعى الملك إلى محاكمة صاحب الكتاب وفصله من الجامعة كما يردد في البرلمان، أو أن الملك آثر عدم التدخل مباشرة لهدف إنهاء الأزمة لصالح طه حسين؟

إنه مما يحيرنا أن نجد رأيين متعارضين لموقف الملك، فمن ناحية تؤكد قرينة طه حسين أن ((القصر كان معاديًا لنا))[٤٥١]، وتؤكد المصادر المعارضة أن ((الملك فؤاد سعى بنفسه إلى أن تنتهي المناقشات بعقوبة رادعة ضد طه حسين))[٤٥٢]، ومن ناحية أخرى، تذهب تقارير البوليس

---

[450] هيكل، ج١ ص ١٩٤، أيضا: الظواهري ص ٢١٣.

[451] سوزان ص ٧٩.

[452] آخر ساعة ٦٩/١٢/٣١.

السري إلى أن ((السراي كان لها يد في إسكات الضجة في البرلمان.. كما كان لها يد -أكيدة- في قرار النيابة بالحفظ لانعدام القصد الجنائي))[٤٥٣]، بحجة أن طه حسين كان عدوًا لدودًا للوفد حينئذ، بل إن طه حسين نفسه حين يهم بالسفر بعد ذلك بسنوات قليلة فإنه في معرض شكره لمن ساعده في هذه الأزمة لا ينسى أن يقول ((وسأشكر ما حييت.. صاحب عرش مصر))[٤٥٤]، ويؤكد هذا بعض المصادر التي تذهب إلى أن الملك لم يتدخل حينئذ ((لإشعال الحريق، وربما كان هذا الموقف سببًا في إطفائه)).

ونحن أمام رأيين متناقضين:

أحدهما، موقف الملك المعادي لطه حسين.

وثانيهما، موقف الملك المؤازر له في محنته.

ونعتقد أن الملك آثر الجانب الأول، أي، عداء طه حسين، والأسباب كثيرة لعل من أهمها:

- كان الملك يواجه عددًا كبيرًا جدًا من العرائض والتلغرافات الغاضبة المرسلة من شيوخ الدين، وجماهير الشعب[٤٥٥]، والمعروف أنه كان حريصًا على استمالتها.

- كان الملك يحمل لطه حسين موقفًا قديمًا، إذ كان هذا الأخير قلب له ظهر المجن من جديد بعد موقفه من مهاجمة سعد زغلول عام ٢٤، وما أعقبه من الانضمام إلى حزب الاتحاد ثم الخروج منه وقد كان ينتظر الانحياز له.

- وقبل هذا وذاك كان الملك لا يغفر له أفكاره التي تهدده، والتي كان -في رأيه- يتضمنها هذا الكتاب الجديد بما يعنيه من التمرد على القديم متمثلاً في هذا القديم السلطان وسلطته الشرقية، ويؤيد هذا ويرجحه قول شيخ الأزهر في هذا الوقت -الشيخ أبي الفضل الجيزاوي- أن الحملة التي كان يقوم بها الأزهر ضد طه حسين من الدستور وحديثه الدائم عن الحياة الديمقراطية بما يتنافى مع ما جبل عليه السلطان من نزعة شرقية في الحكم تجعله يعتقد أن هذه الأفكار الغربية لا تتواءم مع طريقته في ممارسة الحكم.

- وقد اتسم موقف الملك في هذا الأمر من حزب الأحرار بعدم الرضا، بل السخط الشديد على أثر اللغط الذي ارتفع في هذا الوقت في مجلس النواب حول مخصصاته مما أحرج القصر وأساء إليه إلى غير ذلك من

---

(453) البوليس السري ص ٨٢.

(454) في الصيف ص ٢٧.

(455) المحفوظات، السابق، تلغرافات عام ١٩٢٦.

البواعث التي كانت تهدد أوتوقراطية الملك.

ومن هنا، لم يكن غريبًا أن طه حسين حين يعين عميدًا لكلية الآداب فيما بعد، فإنه لا يجد من القصر الملكي أي تأييد، فعلى الرغم من أنه ينتخب عميدًا، وترفع نتيجة الانتخابات إلى وزير المعارف وترفض، فإن طه حسين لم يجد غير الاستقالة في ٤ يناير ٢٨ خوفًا من تدخل القصر الذي قد يضطره ،تحت الضغط ،إلى الاستقالة.

لقد كان القصر يتمتع بنفوذ كبير، إذ كان يتولى الحكم مشتركًا مع الوفد بين عامي ٢٦/ ٢٨، ومن هنا، كان عليه أن يفعل أي شيء ليحول بين طه حسين وبين الاحتفاظ بعمادة الآداب بأي شكل، فقد كان بمواقفه المناوئة للقصر لا يرتاح إليه.

ما كاد ينتخب طه حسين عميدًا لكلية الآداب عام ١٩٣٠ حتى طلب صدقي منه الاستقالة، التفرغ إلى صحيفة (الشعب) التي أنشأها بإيعاز من الملك كما هي الحال حين أنشأ من قبل صحيفة (الاتحاد) والحزب الذي انتمى إليها.

تؤكد الأسباب التي انتهت بطه حسين إلى الرفض، وانتهت بصدقي إلى النقل والفصل بعد ذلك من الجامعة، أن جميعها تجمع على أن الملك كان المحرك الأول فيها، فمن المستحيل أن نعتقد أن صدقي قام بهذه الإجراءات ضد طه حسين دون أخذ مشورة الملك وموافقته.

واعتقادنا مبني على عدة شواهد..

تؤكد المصادر على علم الملك بعد ذلك كله، فطه حسين يشير فيما بعد إلى أن الملك إنما كان وراء فصله من الجامعة حين ((أخرجني وأراد أن يضطرني إلى الجوع))[٤٥٦]، ومن ناحية أخرى تشير المصادر البريطانية إلى أن السبب يعود إلى أن طه حسين اعترض على خطاب وزير المعارف أمام الملك فؤاد عند زيارته للجامعة مما سبب حرجًا شديدًا للملك[٤٥٧]، ومن ناحية ثالثة، تذهب عديد من المصادر إلى أن كراهية الملك له إنما كانت تعود إلى واقعة قديمة، تلخص في أنه حين ذهب الملك لزيارة الجامعة هتف بعض الشباب لطه حسين ((حنق الملك وأوعز إلى صدقي ليفصل طه حسين))[٤٥٨]، وهو ما يمكن أن يلتقي مع رفض طه حسين الانضمام لحزب الشعب الذي هو، في النهاية حزب الملك، وهو ما يضعنا في نهاية الأمر

---

(456) روزاليوسف ٢٩ مارس ٥٤.

(457) كان ذلك في فبراير ٣٢ انظر Public - revord office: Marchj 3. 1932

(458) مجلة الثقافة.

أمام حقيقة واحدة، هي، أن ما حدث لطه حسين كان بعلم الملك وبمشورته.

ويمكن أن نستدل أكثر على طبيعة العلاقة بين الملك وطه حسين إذا وضعنا في الاعتبار عدة شواهد أخرى.

فمن ناحية كان الملك قد حقق خطوات بعيدة في المشاركة في الحكم والسيطرة على أجهزته الدستورية، بوزارتي صدقي الأولى والثانية (١٩/٦/٣٠- ٢٧/٩/٣٣) ووزارة سلفه عبد الفتاح يحيى (٩/٣٣- ١١/ ٣٣) بمبادرات ملكية صرفة، فالملك فؤاد دون أية سلطة دستورية أخرى، ودون أية قوى سياسية، ودون أي تأثير، قد انفرد باتخاذ القرار ثم بتنفيذه، وذلك رغم إرادة البرلمان الوفدي الذي كان قائمًا وبدون علم الإنجليز الذين اعتادوا على التدخل في مثل هذه المسألة.

وهذا يعني أن الهجوم على أية وزارة من هذه الوزارات التي جاءت برغبة الملك إنما كان هجومًا على الملك ذاته، وهو ما وجد طه حسين نفسه متردبًا فيه، فالفصل بين الوزارة القائمة وبين الإرادة الملكية القائمة وراء وجودها فصل مستحيل.

ومن ناحية أخرى كان الملك وراء قيام حزبي (الاتحاد والشعب)، إذ إن هذين الحزبين تشكلا بإيحاء من القصر ولم يخف هو ذلك، واستفادا من ناحية الوزارة القائمة، وقد كان وراء اشتراك عديد من الأعضاء شكلاً من أشكال التطلع إلى القصر والتحلق حوله.

وقد حدد طه حسين موقفه من الحزب الأول حين اتصل به ثم انفصل عنه ولما يمض وقتًا طويلاً، ثم حين رفض الانضمام أو المشاركة النهائية في الحزب الآخر بشكل قاطع مما زاد من حنق الملك وإغراء صدقي بأن يضيق الخناق على طه حسين بعد فصله من الجامعة.

لقد كان من أثر سيطرة الملك على الحكم بواسطة حزب الأقلية في الفترة بين عامي ٢٩/ ٣٤ أن وجد طه حسين نفسه أمام حتمية مهاجمة صدقي ومنددًا بطغيان الملك معًا، وفي الحالتين فإن هجومه على النظام كان هجومًا على الملك الذي سيطر على أداة الحكم حينئذ.

ومراجعة صحيفتي (كوكب الشرق) و (الوادي) ترينا هذا الهجوم الذي استهدف صدقي في الظاهر، واستهدف الملك وأوتوقراطيته في الباطن.

فما كادت الوزارة تفرج عن أحد المتهمين في القضية المعروفة بقضية (العامل..)[٤٥٩] بأمر ملكي في نهاية عام ٣٣ فكتب، أن صيغة هذا الإفراج

([459]) بعد أن أعلن عن إلقاء قنبلة على سور جمعية الحشرات الملكية قبض على إبراهيم الفلاح وأفرج عنه، وكان قد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة لمدة خمسة عشر عاما من ==

((ستفسد أكثر مما تصلح، وستغري الناس بالشر أكثر مما تنهاهم عنه، وسترغب الناس في الإثم أكثر مما ستنفرهم منه، ويكفي أنها ستشكك الناس تشكيكًا فظيعًا مخيفًا في هذا الذي تجري به ألسنة الوعاظ والأتقياء والمعلمين...))(٤٦٠).

وحين يصرح أحد وزراء حزب الشعب تصريحًا غريبًا يقول طه حسين أن ذلك ((نوع من الدعابة نتركه نحن للوزارة وأنصارها لأننا كما قلنا لا نريد أن نضع الحديث الملكي موضع المناقشة بين الأحزاب))(٤٦١).

وهو لا يكاد يجاوز التلميح إلى التصريح، فإذا اضطر إلى التعرض للحديث عن الملك، فهو لا يجاوز الحديث الحذر المتقرب منه، ففي (عريضة) يتحدث عن زيارة الملك لإقليم في مملكته فيقول: ((وقلوب المصريين جميعًا سواء في حب الملك، والإخلاص له، والالتفاف حول عرشه المفدى، وشخصه الكريم..))(٤٦٢) وهو في هذا لا يستطيع توجيه سهام النقد إلى الملك أو النيل من مكانته بشكل مباشر.

وفي نهاية وزارة عبد الفتاح يحيى، وكان قد قطع شوطًا بعيدًا في النيل من الوزارات الملكية يكتب إلى الملك في مقالاته إلى أن ينظر لشكاوى الكثيرين الذين ممن اختيروا في عهد صدقي أو سلفه أو أولئك الذين ((مضوا على أثره يحنثون بالأيمان التي أقسموها للدستور، ويتخذون الدستور شعارًا لأقبح أنواع الحكم لا يخافون شيئًا ولا يستحون من أحد)).. مؤكدًا على أن ((الشعب المصري يا مولاي يرفض كل الرفض ما يذيعه دعاة السوء من أن إرادتك السامية تناقض في هذه الظروف إرادة شعبك المخلص الأمين))(٤٦٣)، ولا يلبث في اليوم التالي أن يصرح موجهًا كلامه إلى الملك بأن ((جلالتكم تحرصون على نظام لا يحبه الشعب، وتؤيدون عهدًا قد كرهه الشعب، وتأبون أن تأذنوا بافتتاح عهد لا يريد الشعب به بديلاً))(٤٦٤).

وقد كان طه حسين في هذا لا يخفي حقيقة أن صدقي هو الملك وأن

محكمة جنايات مصر في تهم كثيرة، وقد تعرض القضاة في هذه القضية لضغوط كثيرة انتهت بصدور الأمر الملكي بالإفراج عنه.

(460) كوكب الشرق ١٣ أغسطس ٣٣.

(461) السابق ٢٥ أغسطس ٣٣.

(462) السابق ٢٠ أبريل ٣٣.

(463) السابق ١٢ نوفمبر ٣٤.

(464) السابق ١٣ نوفمبر ٣٤.

الملك هو صدقي، فهو لا يتعب من ترديد أن على الملك أن ((يكف هؤلاء الساعين عن سعيهم.. وأن المصريين يرغبون إلى جلالتكم في أن تتفضلوا فتأمروا بمحو آثار هذا التمرد على حقوق الشعب، ورفع أوزار هذا العدوان على سلطة الأمة وفي أن تتفضلوا فتأمروا برجوع الدستور الذي لم يلغه صدقي باشا لأنه لم يكن يملك إلغاءه، وفي أن تتفضلوا برفع هذا الظلم القائم الذي لم يستطع صدقي باشا، ولن يستطيع غيره أن يفرضه على الأمة شرعًا، لأن نظم الحكم لا تفرض على الشعوب))[٤٦٥].

وقد كان هجوم طه حسين على صدقي يعني الهجوم على الملك، خاصة وأنه أثناء غياب صدقي للعلاج زمنًا طويلاً في الخارج كان نفوذ القصر يستفحل، وبشهادة دار المندوب البريطاني في القاهرة أنه ((بعد غياب صدقي للعلاج فإن السلطة الوحيدة المؤثرة في الوزارة قد أصبحت في القصر)) ففي هذا الوقت كان يبرز رجل هو ناظر الخاصة الملكية - زكي الإبراشي- يتدخل في كل كبيرة وصغيرة إلى درجة أن كريم ثابت يذكر أن تأثيره بلغ درجة أن اتصالات الملك فؤاد بالوزارة كانت تتم عن طريق الإبراشي[٤٦٦]، فالإبراشي لم يكن ليدع، بإيحاء الملك ورغبته، أمرًا من الأمور إلا وكان له رأي فيها حتى دفع بطه حسين إلى الهجوم على الملك تلميحًا، وعلى وزير خاصته تصريحًا وجهارًا في كثير من المواقع على ما نتج من هذا من تدهور المسائل المالية والتصرفات المشبوهة[٤٦٧].

وبانتهاء وزارة عبد الفتاح يحيى يكون عصر القصر وأحزاب الأقلية قد انتهى، ليبدأ عصر آخر أعيدت فيه السلطة إلى حزب الأغلبية، وتحول فيه طه حسين، نهائيًا، إلى حزب الأغلبية مع ما ترتب عليه من موقفه الجديد من القصر الذي أضحى الآن يسير في الخط الحزبي ويحرص عليه إلى حد كبير.

فما موقف طه حسين، الجديد، من الملك؟

يمكن اعتبار الفترة التي يستكمل بها العقد الثالث دورته هي فترة التردد التي عانى فيها طه حسين كثيرًا بين الولاء للملك والولاء للحزب.

ويعود هذا أول ما يعود إلى أن حزب الوفد في صراعه الدائم ضد القصر من أجل تثبيت الدعائم الدستورية كان يدخل فترة تأييده والعمل على

---

(465) الوادي ١٣ نوفمبر ٣٢.

(466) الجمهورية ١١ يونيو ٥٥.

(467) الوادي ١٤/ ١١/ ٣٤، أيضا انظر: الجهاد ٣٥/٤/٢٤، ونشرت فيما بعد في كتابه (بين بين) ص ٥.

عدم إغضابه بإطلاق يده فيما يرى، فعدا الفترة التي تقع بين عامي ٤٢/ ٤٤ الذي حكم فيها القصر بتعضيد من الإنجليز، فإن الفترات السابقة واللاحقة شهدت سيطرة القصر على أحزاب الأقلية وعدم تعرض حزب الأغلبية لتصرفاته، بل إن وزارة الوفد الأخيرة لم تستطع الاستمرار في الحكم بدون مساندة القصر، ومن هنا، أرخت الحبل على الغارب للملك.. إلى جانب أنه بعقد معاهدة ٣٦ كانت البلاد تدخل مرحلة جديدة، فبعد أن كان الإنجليز يتدخلون بشكل مباشر في الحكم، وفرض ما يريدون فرضه، فإن الفرصة حانت أكثر لقوتين اثنتين تثنى لهما محاولة السيطرة والحكم كل بمفرده، فقد تدهورت العلاقة بين القصر والوفد، خاصة، تدهورًا حال مع سياسة الوفد الجديدة دون الوقوف دون إرادة القصر كما أعلنت بيانات حزب الوفد المتتالية، وتعدد المصادر أسبابًا كثيرة للخلاف بين الوفد والقصر، على أنها تتفق، جميعًا، على أن الخلاف الفعلي بدأ حين فرض القصر إرادته بإصدار أمر ملكي بتعيين علي ماهر رئيسًا للديوان الملكي اعتبارًا من ٢٠ أكتوبر ٣٧.

ولقد كان هذا أشبه بإعلان الحرب من جانب القصر على الوفد.

وعلى مدى يومين أخذت المظاهرات الموالية للقصر تجوب شوارع القاهرة لتهاجم معسكرات القمصان الزرق هاتفة بحياة الملك، في الوقت الذي بدأ فيه طلبة كليات الأزهر حركة عنيفة فتدفقت أمواج المظاهرات والتجمعات ضد وزارة الوفد في المحيط الجامعي وكليات الأزهر في أواخر أكتوبر عام ٣٧ حيث اصطدمت إحدى هذه المظاهرات المؤيدة للملك الهاتفة بحياته بالدكتور طه حسين، وقد كان عميدًا، بمكتبه.

ويذكر شاهد عيان أنه تصادف مجيء د. محمد حسين هيكل إلى الجامعة للقاء لطفي السيد ليحدثه في إحدى القضايا العامة، فما كاد الطلبة يرونه حتى حملوه على ظهورهم فألقى الدكتور هيكل كلمة بسيطة على أساس أنه زعيم المعارضة فقد كانت كل القوى تتحالف مع القصر ضد الملك[٤٦٨]، وقد استمر الطلبة يهتفون ((ليسقط النحاس عدو الملك ليسقط الدكتور طه حسين))[٤٦٩].

وقد حدث أن التهب حماس هذه المظاهرة فارتكبوا حماقة الاعتداء على مكتب طه حسين، وكادوا يهددون حياته لتخرج صحف الوفد في اليوم التالي وهي تتهم الدكتور هيكل بالتحريض على هذا العدوان المزعوم.

([468]) الجمهورية ١١/١٨/ ٦٧ مقالة حافظ محمود، وقد أكد الواقعة في لقاء لي معه.

([469]) دار الوثائق، محفظة ٦٤٤، رسالة خطية بتوقيع محيي الدين ناصف.

وتنقل لنا أحد تقارير البوليس السياسي التي أرسلت إلى الملك من أحد عملائه، على ما يبدو، صورة حية لما حدث في هذا اليوم، فهي تذكر أنه حين تمكنت قوة البوليس حينئذ من اختطاف طالب من الآداب وأوسعته ضربًا وأرسلت به إلى مكان معلوم، وخوطب طه حسين في إمكان قبوله، قال: ((ما دام متظاهرًا فليتحمل نتيجة عمله))، ثم إنه قدم طالبين من كليته لمجلس تأديب حكم عليهما بالرفت سنة[٤٧٠].

ومما سبق، يبدو جليًا موقف طه حسين من القصر الذي تؤيده كافة القوى السياسية المعارضة للوفد، وهو ما يتعارض مع موقفه السابق من ضرورة التقرب من القصر.

وهنا، نصل إلى فترة الأربعينيات، حيث أسهمت تطورات هامة دعت بطه حسين إلى أن يحث الخطى في اتجاه الملك وإن تخلل هذا فترات اطراد وتمهل سنبينها حال الوصول إليها.

بدأت الأربعينيات ولم يكن لطه حسين موقف مضاد من القصر، وهو موقف لم يكن نابعًا من قناعات ذاتية وحسب، وإنما من قناعات حزبية أيضًا.

أما عن الوفد، فقد كان موقفه من العرش وصاحبه في فترة الحرب العالمية الثانية مشوبًا بالاحترام والتأييد الكامل ولم يفكر في إشهار عدائه لذلك حتى في أحرج اللحظات.

وعلى هذا النحو، فإن الفترة التي تقع بين معاهدة ٣٦ وحتى نهاية العقد تميزت بالخلاف الحاد بين القصر والوفد، وبالنسبة لطه حسين تتصاعد حالة من التردد بين اثنين: إما محاولة إرضاء الملك وإما محاولة إرضاء الحزب.

وسوف نرى صورًا من صور هذا التردد في موقفين متناقضين، في هذه الفترة التي تصاعدت فيها أزمة حادة بين القصر والوفد.

الموقف الأول حاول فيه طه حسين رأب ذات البين مع الملك الجديد، وكما حاول ذلك من قبل حين أهدى الملك السابق بعض أعماله، كذلك، فإنه مع الملك الجديد بدأ بإرسال كتبه المنشورة حينئذ، فأرسل كتابه (على هامش السيرة) ممهورًا بإهدائه مشفوعًا بالثناء[٤٧١]، ففهم القصر المعني من وراء أول أعماله في هذا العهد، فرد عليه برد قصير يحمل الشكر والثناء.

---

(470) السابق، الرسالة.

(471) دار الوثائق، الصحافة والمطبوعات ١٨٩٣/ ١٩٥٢، رقم ٦٠٧ أرسل بالبريد في ٣٧/١٢/٧ كما لم يكن هذا هو الكتاب الوحيد.

ولا يمضي وقت طويل حتى يعلن عنه عقد القران الملكي، بين الملك فاروق وفريدة، فيكتب طه حسين، أو يستكتب، فنقرأ في صحيفة الأهرام مقالاً طويلاً بعنوان (تحية طه حسين بك بمناسبة القران الملكي) مليئًا بكلمات من أمثال (البهجة، الغبطة، السعيد)، وبعد أن يؤكد في مقدمة طويلة جدًا عن عجز الأدب في أن يوفي هذه المناسبة حقها يقول:

((على أن هناك حقيقة واقعة يستطيع الأدب أن يصورها وهو صادق ويستطيع التاريخ أن يسجلها وهو واثق بأنه يسجل الحق الذي لا يرتقي إليه الريب وهي أن سبعة عشر مليونًا من الناس هم أبناء مصر قد أجمعوا على الابتهاج الذي لا حد له والاغتباط الذي لا يبلغه الوصف لأن الله قد أسبغ على مليكهم فضلاً من نعمته وأتاح له حظًا من السعادة فهم يشاركونه في هذه النعمة ويستمتعون معه بهذه السعادة ويتمنون له ولأنفسهم المزيد.. (و) .. فالمصريون مجمعون على حب مليكهم لأنهم يرون فيه صورة بارعة لمصرهم الخالدة ورمزًا كريمًا لوطنهم العظيم .. (و) .. والمصريون يجمعون على حب مليكهم لأنهم يجدون في شبابه النضر بهجة طالما نازعتهم إليها نفوسهم وزينة طالما هامت بها قلوبهم. يظهر فتمتلئ به العيون وينطلق فتمتلئ به الأسماع. ويذكر فتمتلئ به القلوب والعقول، قد خلصوا لمليكهم وخلص لهم مليكهم..)[٤٧٢].

وعلى الرغم مما يقال من أن الأدب قد يغلو من حيث لا يريد صاحبه هذا الغلو، أو أن النص الأدبي لا يحمل بالضرورة إدانة، فإننا نرى العكس، فقد يدل النص الأدبي على ما لا يستطيع النص المباشر أو الخطبة الموجهة أن تدل..

وفي هذه الفترة التي يحاول كسب رضاء الملك وفي الباطن يحاول أن يتخذ موقفًا آخر مناهضًا للملك، ما كادت تعقد معاهدة ٣٦ حتى اتجهت الوزارة الوفدية خاصة بعد الحد من التدخل البريطاني، إلى العمل على الحد من نفوذ القصر.. ورأى أقطاب الوفد أن طريقهم إلى ذلك قد يكون إما بإنشاء وزارة لشئون القصر أو بدعم فرقة القمصان الزرقاء وتسخيرها لخدمة الوفد ولتكون سياجًا للوزارة في مواجهة القصر وإما بتحديد الحقوق الدستورية التي يمارسها الملك الشاب.. وقد كان هذا من شأنه السيطرة على الوفد في وقت يلغي فيه منصب رئيس الديوان الملكي.. في هذا الوقت فإن طه حسين يرى أن العرش فوق الأحزاب وأنه ((ليس لأحد ولا لفئة أن

([472]) الأهرام ٣٨/١/٢٤.

تحتكر ما للعرش وصاحبه في نفوس المصريين كلهم من محبة وولاء))(٤٧٣).

أما طه حسين، فإنه وقد كان مراقبًا للثقافة في وزارة المعارف بين عامي ٣٩/ ٤٢، ثم منتدبًا بجامعة الإسكندرية طيلة فترة الوزارة الوفدية، لم يظهر موقفًا مضادًا من الملك فإن كتاباته التالية في هذه الفترة تتعرض بشكل ما للقصر، كما أن كتاباته لم تقف منه موقفًا يحسب عليه رغم أن الخلافات الحادة بدأت تدب بين الملك وبين الوزارة الوفدية التي تولت بعد حادثة ٢ فبراير المشهورة بإرادة الإنجليز، فعدا مقالاته المتفرقة حول ضرورة الحرص على فهم الديمقراطية أو ذكر مشكلة التعليم الجامعي إلى غير هذا، لم نجد تصريحًا واحدًا يخالف رأي الوفديين الذين امتنعوا عن إعلان رأيهم في موقف مصر من الحرب، إلى معارضة الملك، الذي حاول عدم الزج بمصر إلى الحرب.

وقد يكون التفسير الوحيد لكتابه (أحلام شهرزاد) الذي ظهر في هذه الفترة -عام ٤٣- مهاجمًا فيه الملك والسادة الزعماء لاتخاذ قرار الحرب، هو أنه كان أادخل إلى فقدان الديمقراطية السياسية والتذكير بالدمار الذي لحق بالشعوب من جراء حرب لا مصلحة لمصر فيها أكثر من مهاجمة الملك كمسئول عن هذه الحرب أو لطغيانه بشكل مباشر فضلاً عن تبلور البعد الاجتماعي الذي شغف به طه حسين حينئذ من هذه الديمقراطية ((التي أخذت تلغي الفروق والامتيازات وتقرب ما بين الطبقات..))(٤٧٤).

ويؤكد هذا أن سياسة القصر التي كانت ترمي إلى تجنب مصر لويلات الحرب هي السياسة التي كان تبناها وينفذها بناء على إيعاز من الملك على ما يبدو لرئيس الوزراء حينئذ وهو علي ماهر، إلى جانب هذا، فإن طه حسين كان مستشارًا فنيًا لوزير المعارف ومديرًا لجامعة الإسكندرية في وزارة وفدية (٤٢/ ٤٤) بما لا يدع مجالاً للشك أن طه حسين لم يرد هجومًا ما على الملك للتواؤم مع سياسة الوفد التي كانت طيلة الحرب تتميز بالاحترام والتأييد الكاملين من ((العرش وصاحبه)).

على أن الملك الذي كان يضيق ذرعًا بسياسة النحاس ظل ينتهز الفرصة للخلاص منه حتى حانت له فأقال الوزارة، وراح يصب جام غضبه على عناصرها، فكان أن أصدر في الوزارة التالية لها أمرًا ملكيًا بإلغاء كافة الترقيات والعلاوات والمعاشات الاستثنائية التي تمت في فترة

([473]) الوفد المصري ٤٠/٨/٣، أيضا: عاصم الدسوقي، ص ٣٩/ ٤٥.

([474]) أحلام شهرزاد، ص ٧.

وجود وزارة النحاس، كما أصدر مرسومًا بإحالة عدد من وكلاء الوزارات ومن في درجتهم إلى المعاش فعمد أن يكون منهم طه حسين لعلاقته الوثيقة بحزب الوفد، ومن هنا، وجد طه حسين نفسه، من حزب الأغلبية خارج كرسي الحكم.

في هذه الفترة التي تقع بين وزارة وفدية (عام ٤٤) ووزارة وفدية أخرى (عام ٥٠) طرأت عدة عوامل أثرت في تحديد موقف طه حسين من الملك، ومن ثم رد فعل الملك منه، فمن ناحية لم يتعد موقفه من الملك ونظامه هذه المقالات الرمزية الموجهة إليه في شيء من الغموض ومن ناحية كان الملك يضيق أشد الضيق بما يكتبه طه حسين معتقدًا أنه يهاجمه، في الوقت الذي لم يستطع فيه طه حسيين أن يجد فرصة سياسية ليلعب دورًا حيويًا في علاقته من الملك وهو ما يعود إلى ضآلة الدور الذي كان يلعبه حزب الوفد حينئذ، إذ عرض على النحاس أن يشترك في الحكم مع أحزاب الأقلية غير أنه كان يعتذر في كل مرة (أعوام ٤٠/ ٤١، ٤٦/ ٤٨).

وسوف يتضاءل دور طه حسين السياسي في وقت لم تكن مقالاته لتخلو من هذه النبرة ضد الملك متوسلاً بكتاباته الأدبية، مركزًا فيها على اثنين:

- الإشارة إلى الطغيان والدفاع عن الديمقراطية.
- الضرب على وتر البعد الاجتماعي.

والجدير بالذكر أنه وإن كان الملك يشعر بالضيق الشديد لمن يشير إلى الطغيان أو يدافع عن مظاهر الحياة الدستورية فهذا ما يقلل من طبيعته كملك يريد أن يسيطر على كل شيء حينئذ، فقد كان المطلب الاجتماعي يثير لديه كوامن الخوف سيما وقد كان من يطالب بتطوير المجتمع والبحث عن قضاياه يوصم بالتطرف في هذا الوقت.. وهو ما يفسر ضيق الملك بما تحتويه كتابات طه حسين في فترة الأربعينيات سواء منذ روايته الأسطورية (أحلام شهرزاد) عام ٤٣ وحتى نماذجه النقدية (جنة الحيوان) عام ٥٠ ومرورًا بكل من (المعذبون في الأرض) ٤٦/ ٤٨، (شجرة البؤس) ٤٤، (ألوان) ٤٥/ ٤٨، (ما وراء النهر) ٤٦/٤٧، (القدر) ٤٧، (مرآة الضمير الحديث) ٤٨، (جنة الشوك) ٤٥.. إلى غير ذلك.

وعلى هذا النحو، كان موقف طه حسين من ناحية، وكراهية الملك له التي ورثها عن أبيه من ناحية أخرى كافيًا ليتخذ القصر ضده موقفًا حادًا في هذه الفترة، وهو ما يفسر سلسلة المضايقات التي أخذ الملك يضغط بها على طه حسين.

وتبدأ هذه المضايقات حين أقيل طه حسين على المعاش بمرسوم ملكي

لكونه كان أحد المشايعين لحزب الوفد، ثم سعى الملك للتضييق عليه أثناء تأدية وظيفته كمدير لجامعة الإسكندرية إذ عين مراقبًا من قبله أخذ يضايق طه حسين حتى صاح في وجهه في إحدى المرات، كما أمعنت الوزارة السعدية (وهي وزارة ملكية) في التضييق عليه أيضًا حتى اضطر إلى الاستقالة من جامعة الإسكندرية.

وقد أغلقت مجلة الكاتب في وقت كان الملك فيه وراء هذا الإغلاق وهو ما يبدو من ملابسات إغلاق المجلة، فمع أن طه حسين صرح بأن الحكومة أجبرته على تصفية أعمال دار النشر والمجلة[475]، وروت قرينته أن القصر كان السبب في توقف المجلة[476]، كما أن بعض الباحثين روى أن أصحاب دار النشر أنفسهم طالبوا إيقافها فبيعها الضئيل ((لا يفي بنفقات الإنتاج))، أي أنها مجرد (الخسائر المالية)[477].. فمن الأرجح أن يكون القصر السبب الرئيس وراء إيقاف المجلة على لسان الحكومة[478].

ويبدو أيضًا أن القصر كان وراء التدخل لمنعه ترشيح نفسه نقيبًا للصحفيين حين رشح لهذا المنصب من مجلس إدارة النقابة، ففي الوقت الذي قرر فيه الصحفيون انتخابه نقيبًا لهم على أثر انتهاء فترة رئاسة فكري أباظة، قرر الملك الاعتراض على هذا، كما هدد باتخاذ إجراءات عنيفة ضد النقابة في حالة إذا ما تم ذلك، وقد أبلغ هذا الإنذار لأعضاء النقابة ورئيسها بواسطة رئيس الوزراء في هذا الوقت – حسين سري- الذي راح يهتبل الفرصة للسخرية من طه حسين، سؤل عنه أجاب:(وهل هو من الصحفيين)، ولم يجد طه حسين غير الاعتذار عن الترشيح فانتخب أحمد أبو الفتح[479].

---

[475] Cachia Pierre Taha, his place in the Egyptian Literay renaissances, London.
أيضا: مقابلة خاصة معه في ١٩٨٤/٣/٢٨.

[476] سوزان ص ١٤٤، وقد أكدت على أن ظهور (الكاتب) لم يرق (للقصر).

[477] لويس عوض، الأهرام ١٢/٢٠/ ٦٨ مقال (الوزير) وهو ما يردده كثير من الباحثات من أمثال د. عواطف عبد الرحمن وسهام عبد الرازق.

[478] مجلة (المجلة) ١٥ تشرين الأول ٨٢ (مقالتان)، أيضا لقاء مع بيير كاكيا في ١٩٨٤/٣/١٨.

[479] ملف الانتخابات، نقابة الصحفيين،عام ٤٩، أيضا: الأهرام ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣/ ١٢/ ٤٩، أيضا: لقاء مع حافظ محمود نقيب الصحفيين السابق، أيضا: لقاء خاص مع الأستاذ مصطفى لطفي سكرتير صحفي مكتب حسين سري رئيس الوزراء في هذا الوقت، وهو يؤكد لي من واقع وجوده في هذا المكتب أن حسين سري تحمس جدا لموقف الملك وراح يهاجم طه حسين بعنف وهو يفسر بأن ثمة خلافًا عنيفًا كان بين حسين سري وطه حسين لكونهما من ==

وإذ حالت الفترة بين عامي ٤٢/ ٤٤ دون تحديد موقف واضح لطه حسين من القصر لوجوده في وزارة حزبية – الوفد- دخلت في خلاف مع الملك، فإن الفترة التالية بين عامي ٤٥/ ٤٩، وقد كان الوفد فيها بعيدًا عن كرسي الحكم بينما يمارس الحكم بعض أحزاب الأقلية.. كانت تحكم بتردد طه حسين في موقفه من الملك بكتاباته الرمزية، مما انتهى بالملك معه إلى تلمس أسلوب الوعيد مرجئًا التهديد إلى حين.

لقد تتالت محاولة الملك لاستمالة طه حسين، فأرسل إليه من حاول أن يضمه إلى القصر أو تأييده في أول وزارة ملكية تولت بعد سقوط وزارة ٤٢ فأحجم طه حسين، كما حاول في نهاية الأربعينيات استرضاءه فمنحه جائزة الملك فؤاد للأدب وعينه رئيسًا للجنة الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة ابن سينا، على أن هذا كان يتخلله غضب الملك منه حين ينشر بعض كتاباته الرمزية مثل هذه المقالة التي نشرها بعنوان (قلب مغلق) ووصل فيها إلى أقصى درجات الرمز الذي يغلو في الهجوم على الملك متخذًا لسان ابن المقفع، وقد بلغت كراهية الملك له أن طلب من رئيس الديوان، حينئذ، تبليغ الدار الذي كتب فيها – الهلال- غضب السراي الشديد[480].

على أن قمة غضب الملك من طه حسين يمكن أن نلمسها في التأكيد لمن حوله في إحدى المرات مشيرًا إليه ((أنتم لا تعرفون خطورة هذا الرجل، إنه الرئيس السري للشيوعية في مصر، والحكومة نفسها لا تعرف ذلك، ولكن أنا أؤكد لكم أن المعلومات التي عندي تثبت أنه الرئيس الأعلى للشيوعية عندنا))[481].

وعلى أية حال، فإن موقف طه حسين المعارض (بالرمز)، وموقف الملك الغاضب (بالفعل) دفع بطه حسين في نهاية الأربعينيات إلى شيء من التردد في هذا الموقف، وتحول التردد إلى التحول في موقفه من الملك خاصة حين نجحت وزارة الوفد في تولية مقاليد الحكم وأصبح فيها وزيرًا مسئولاً.

فلنر صفحة أخرى من علاقاته مع الملك..

في نفس يوم استقالة حسين سري في ١٢ يناير ١٩٥٠ عهد الملك إلى

بلدة واحدة –المنيا-.

(لقاء مصطفى لطفي بمبنى نقابة الصحفيين في ١٩٨٤/٨/١١).

([480]) تاريخ الفكر السياسي، دكتوراه مخطوطة بقاعة الرسائل بالقاهرة ص ٣٠٧، وهو ما ورد في كتاب كريم ثابت (الملك فاروق)، دار المعارف يوليو ٤٤.

([481]) محمد حسين هيكل ج٢ ص ٢٨٨.

مصطفى النحاس بتأليف آخر وزارة وفدية عرفت في تاريخ مصر الحديث.. وإذا كانت الوثائق البريطانية تؤكد في هذا الوقت على أن ((وجهة النظر البريطانية في ذلك أن يكون رئيس الوزراء الجديد (غير وفدي) ولكن يتمتع بثقة الوفد، على أساس أن تعيين وزارة وفدية سيكون من شأنه إغضاب القصر وبعض الدوائر السياسية الأخرى))[482].. فإن الزعيم الوفدي الجديد كان يدرك هذه الحقيقة، فلم يحاول تضييق الخناق على الملك بشأن استبداده واستفحال نفوذه أو الفساد المستشري.. إلى غير ذلك، من شأنه أن يغضب القصر، وإنما سعى الوزير الجديد إلى احتواء الملك ((ضمانًا لبقاء النظام وضمانًا لاستمرار الوفد في الحكم))[483].

هذا هو الأمر الأول الذي يجب التنبه له، ونحن نحاول رصد هذه العلاقة بين وزير في وزارة وفدية، وبين ملك يحاول الوفد كسبه إلى جانبه بأي ثمن.. ومع ذلك، فلنحاول التعرف على الظروف التي عين فيها طه حسين وزيرًا للمعارف في وزارة أغلبية قبل أن نصل إلى علاقته بالملك وموقفه منه في فترة تولية الوزارة.

تؤكد كل مصادر هذه الفترة أنه عند تشكيل الوزارة الجديدة والطلب من الملك للنظر في مشروع التشكيل الوزاري كما هو متبع دستوريًا، وقد سلم إياه بواسطة رئيس الديوان مصطفى النحاس.. حدث أنه حينما وصل الملك إلى اسم طه حسين وقيل أنه مرشح ليكون وزيرًا للمعارف بغت وصاح ((مستحيل.. مستحيل! فقال حسين سري: هل لمولانا اعتراض عليه؟ فقال: أنتم لا تعرفون خطورة هذا الرجل))[484]، وهنا تختلف الروايات، فبينما يقول كريم ثابت أنه السبب في إثناء الملك عن رفضه لتعيين طه حسين مؤكدًا أنه استطاع أن يضمه إلى التشكيل الوزاري، فإن حسين يوسف وكيل الديوان الملكي حينئذ يؤكد بشهادة شاهد عيان أن كريم ثابت لم يكن موجودًا وإنما الذي يعول عليه هو حسين سري فقط..

ومهما يكن، فقد كان الملك متشددًا جدًا في موقفه من طه حسين بحجة أن أفكاره متطرفة.. على أن غضب الملك ورفضه انتهيا أمام إصرار النحاس من أنه (مستعد أن يتنازل عن كل الوزراء إلا طه حسين)[485]،

([482]) يونان لبيب، الوزارات ص ٤٢١.

([483]) طارق البشري ص ٣٠٣.

([484]) كريم ثابت، الجمهورية ٢٦ يونيو ٥٥، أيضا: جمال سليم ص ٨٤/ ٨٥، حسين سري في محاكمات الثورة رقم ١٠ لسنة ٥٣، صلاح الشاهد ص ٧٣/ ١٥٦.

([485]) محاكمات الثورة، حسين سري ٥٣.

غير أن الملك ما لبث أن قبل طه حسين على مضض.

ولكي نعرف حجم السيطرة التي كان يتمتع بها الملك، لابد أن نعلم أنه في حفل حلف اليمين، حين يصل طه حسين وغيره من الوزراء إلى القصر، يقول الملك له أمام الجميع، وبلهجة عنيفة وعالية: ((يا حسين هذه تجربة لك هذه آخر مرة أمتحنك فيها وأنا مش عايز مبادئ هدامة، حسين هذه هي التجربة الأخيرة))[486]، فلا يكون على طه حسين أن يجرؤ بالرد على الملك، أو يتصدى لاستفزازه فيصمت.

ويتغاضى طه حسين عن موقف الملك الأوتوقراطي الذي لم يتردد أن يهدد بأمر ليس في حكم حوزته بحكم أنه ملك يلتزم بدستور وإرادة شعبية يكون قد بدأ تنازلاته كوزير، وهو موقف سيتكرر بصور أخرى عديدة كما سنرى.

والفترة التي تولى فيها طه حسين وزارة المعارف بين (١٢ يناير عام ٥٠ـ ٢٧ يناير ٥٢) يقف أمام فاروق أكثر من مرة، فلا يزيد في كل مرة منها على أن يتحدث حديثًا متواصلاً متنازلاً عن كبريائه كوزير في وزارة دستورية وكإنسان يعرف حقوقه وواجباته.

فلنر بعض صور هذا الموقف.

إن رصد كتابات طه حسين تضع بين أيدينا على قرابة عشرين مقالة، فقط هي كل ما كتبها أو كتبت عنه في هذه الفترة.. ثلاث منها خطب ألقيت في مناسبات أمام الملك، واثنتان تدوران حول قضية التعليم، وبقية المقالات تدور حول أشياء متنوعة في الفن والأدب.

فما كاد يأتي (العيد الفضي لجامعة الملك فؤاد) حتى يقف طه حسين أمام الملك يفيض في شكر الملك وتوجيه عبارات الثناء على والده حتى أنه يذكر ست مرات عبارة واحدة (والدك العظيم الأمير أحمد فؤاد). وعبارات الخطبة تضطرنا لإثبات بعضها هنا:

(وقد كان والدك العظيم ملهمًا يا مولاي، فإنه حين أنشأ هذه الجامعة لم ينشئ معهدًا من معاهد تحرير المصريين تحرير عقولهم وقلوبهم ودعائهم إلى الحرية الكاملة.

وإني أستأذن جلالتك في أن أترك التواضع دقيقة أو بعض دقيقة لأقول أن وزير المعارف الذي يشرف بالحديث الآن بين يدي جلالتك إنما هو الثمرة الأولى لغرس فؤاد الأول..).

([486]) طه حسين في أخبار ١١ يوليو ٥٥، وقد جاء هذا المشهد في كل من شهادة حسين سري، وصلاح شاهد ص ٧٤.

ويختم كلمته، فيقول:
(باسم هؤلاء جميعًا أتوجه إلى الله عز وجل أن يمنحك القوة والجلد وأن يتيح لك من الحياة الخصبة النابغة ما يملأ مصر والشرق العربي كله حياة ونورًا وأن يتيح لك يا مولاي أن تحيي الأعياد الفضية لجامعتك كما تحيي الآن العيد الفضي لجامعة والدك.. أطال الله بقاءك يا مولاي وجعل حياتك كلها عيدًا لعقول مصر وقلوبها وللشرق العربي كله).
وقد ران على وجه الملك فور سماعه هذه العبارات ((علامات الرضا والسرور إلى درجة أنه قبل أن ينهي طه حسين خطابه كان قد أعطى تعليماته بمنح الباشوية له، فبعد أن خاطبه في الحفل مضيقًا عبارة (باشا)، وأصدر القصر بعد يومين اثنين، بمنح الرتبة رسميًا وذلك في ٥٠/١٢/٣٠.
وهذا، يعني، أن طه حسين حصل على المنحة قبل زملائه في الوزارة بنحو عام كامل[487].
وما كادت تمضي أيام ثلاثة على هذه الخطبة حتى وقف طه حسين ثانية في أول مناسبة أتيحت له، وبعد منحه الباشوية بيوم واحد، وفي مناسبة افتتاح معهد (فؤاد الأول بالصحراء) ليمعن أكثر في دائرة التنازل، ويكرر عبارة (والدك العظيم) بشكل يكاد لا يخلو سطر واحد منها، فقال ضمن ما قال:
(منذ ثلاثة أيام كنا نحتفل بمأثرة جليلة من مآثر والدك العظيم، هي جامعة فؤاد الأول، وأمس كنا نحتفل بمأثرة عظيمة من مآثر جدك الكريم، هي الجمعية الجغرافية، ونحن اليوم نحتفل بهذه المأثرة الكبيرة من مآثر فؤاد نصر الله وجهه، وهو معهد الصحراء.
(وأنت أمامنا دائمًا يا مولاي في هذه الحفلات، تشرفها فتملأ قلوبنا غبطة ونفوسنا ابتهاجًا، ويرى الشعب عنايتك بالعلم والعلماء، كما كان يرى عناية أبيك بالعلم والعلماء، فيرى صورة جليلة رائعة من صور الوفاء والذي لا نظير له والذي لا حد له، أنت جدير أن تكون أستاذ شعبك في الخلق، في الخلق الذي يمس سيرة الفرد فيما بينه وبين الناس، وفي الخلق الذي يمس سيرة الشعب مع ملكه، وسيرة الملك مع شعبه.
(أنت تعلم الناس كيف يعني الأبناء لذكرى آبائهم، وتعلم الشعب كيف يقتدي الشعب بملكه فيبقى للملوك الصالحين المصلحين..
ويضيف:

([487]) الأهرام ٥٠/١٢/٣١، أيضا انظر من كتاب المذكرات كل من عبد الفتاح حسين ص ٢٩/ ٣٠، وصلاح الشاهد ١٥٧.

(هذا المعهد يا مولاي ثمرة إذن من ثمرات ذلك الملك السعيد الذي أشرف عليه والدك العظيم ولكنه ثمرة بدأها هو وأنضجتها أنت، فإذا وفيت لوالدك العظيم فشهدت هذا الحفل وأتممت ما بدا، فالشعب المصري كله يتعلم منك الوفاء)[488].

وقد بلغ من رضاء الملك بثناء طه حسين له أن صاح، في ابتسامة ساحرة، كما تقول سوزان، أشكرك يا باشا))[489].

غير أن هذا ما ينطوي على خطأ وقع فيه من شهد هذا الحفل أو من نقل عنهم، فإن لهجة طه حسين المتخاذلة جعلت كثيرًا من كتاب المذكرات التاريخية، بعد قرينته، يذكرون، أن الملك منح الباشوية لطه حسين بعد هذه الخطبة في معهد الصحراء[٤٩٠] خاصة وأن شكر الملك اقترن به لفظة (الباشا) مما جعل البعض يعتقد أن طه حسين منح هذه الرتبة حينئذ، والواقع أن رتبة الباشوية منحت لطه حسين قبل هذا بيوم بأمر الديوان الملكي.

ولا يكاد يمضي شهر واحد حتى يتكرر مشهد التخاذل من جديد، ففي احتفال الجامعة بعيد الميلاد الملكي، يحضر نائب الملك ليشهد توزيع الجوائز في هذه المناسبة، فيلقي طه حسين أمام النائب الملكي خطبة تحتوي على عبارات لا تقل مداهنة، وقد تزيد، عن العبارات التي سبق وأن ألقاها في حضرة الملك، وهو ما يضطرنا إلى اقتطاف جزء منها:

يقول (سيدي صاحب السعادة مندوب جلالة الملك المعظم/ في هذا اليوم السعيد الذي هو يوم الملك ويوم الشعب يحتفلان فيه بعيد الملك فاروق أعزه الله/ في هذا اليوم الذي أراد الله أن يضيف نعمة إلى نعمه وأن يضاعف آلاءه على جلالة الملك فأتاح له مصدرًا من مصادر الغبطة والسعادة والسرور له ولشعبه الذي يشعر بشعوره ويبتهج بابتهاجه ويسأل الله له اتصال السعادة له.. (و).

من حق الجامعين الإسكندريين جميعًا أن يبتهجوا ويفخروا ويفرحوا في هذا اليوم لأن كل واحد منهم فاروق فهم الفارقيون ومن حق الفارقيين أن يفرحوا ويفخروا ويبتهجوا بكل ما يسوقه الله إلى ملكهم من نعمة وسعادة وغبطة ابتهاج .. (و) .. أنا واثق أن علماءنا الشبان والكهول يسمعون ويفهمون عني ويستجيبون لهذا الدعاء.. أيد الله جلالة الملك وجعل أيامه

([488]) الأهرام ٥٠/١٢/٣١.

([489]) سوزان، ص ١٧٠.

([490]) صلاح الشاهد ص ١٥٧، أيضا: عبد الفتاح حسين ص ٣٠.

كلها أعيادًا لمصر)[٤٩١].

ولم تكن كلمات طه حسين أمام الملك فقط هي التي أكدت موقفه الضعيف، بل أكملت دائرة هذا الموقف الضعيف ما رددته المصادر من أنه قام بتقبيل يد الملك، والمرجح أن يكون حدث هذا في وقت افتتاح معهد الصحراء كما يؤكد شاهد عيان، على أنه ما كادت تمضي فترة وجوده في الوزارة، وكانت كتاباته الرمزية تضايق الملك حينئذ، حتى وجد نفسه وجهًا لوجه أمامه، وبين جمع كبير من الوزراء حاول أن يمد يده لمصافحة الملك الذي تجاهل اليد الممدودة إليه وذلك في حفل أقيم بمسجد الرفاعي في ٢٨ أبريل ١٩٥٢ في ذكرى وفاة الملك فؤاد[٤٩٢].

والسؤال الهام هنا هو:

هل كان طه حسين حقًا مضطرًا إلى هذا الموقف؟

وما المبرر للتناقض بين موقفه خارج الوزارة وداخلها؟

نظن أن طه حسين لم يكن مضطرًا إلى ذلك.. واعتقادنا مبني على الشواهد الآتية:

رأينا أن مواقف طه حسين من الملك، خاصة فترة الأربعينيات لم تكن طيبة كلها، وإنما حاول أن يجمع بين انتمائه الحزبي ودوافعه الشخصية.. أما انتماؤه الحزبي فكان يحتم عليه اتخاذ موقف من أحزاب الأقلية المؤيدة للقصر، والتي كان القصر يحكم فيها خاصة بعد سقوط وزارة الوفد عام ٤٤. وإصرار الملك على إخراجه من وزارة المعارف حيث كان مستشارًا فنيًا بها.. وهو في سبيل هذا كان متماسكًا إلى حد ما في علاقته بالملك الذي كان يكن له كراهية شديدة إلى درجة أنه حاول استمالته كما فعل والده من قبل.

وأما دوافعه الشخصية فقد حاول بها أن يظهر الود تجاه القصر فيما يرسل به من كتب وما يتجنب به الإساءة للقصر في بعض المقالات، أو فيما يبديه من صمت إزاء بعض القضايا التي كان يمكن أن يرسل فيها اللوم على سياسة الملك.. على أن كتاباته التي نحا فيها منحى اجتماعيًا كانت تخيف الملك ودفعت به دائمًا على أن يكون على مسافة بعيدة من القصر تحميه من الرياء له أو مداهنته.

قد حاول أن يجنب نفسه تلك السنوات التي سبقت تشكيل وزارة ٥٠، حتى إذا ما أصبح وزيرًا، مسئولاً، تحولت اللهجة من محايدة أو اجتماعية

([491]) المصري ١٢ فبراير ٥١.

([492]) لقاء خاص مع حسين يوسف في ٤/٧، ٨٤/٤/٩.

مشوبة بالرمز والتلميح إلى لهجة مادحة، حافلة بالثناء والتقديس، فهو لم يتوقف عن ترديد العبارة (مآثر فؤاد ونضر الله وجهه) إلى درجة أن أصبحت العبارة الشائعة، كما كان يخاطب فاروق دائمًا فينافقه (أستاذ شعبك في الخلق..) وجعل الشعب المصري يتعلم من الملك (الوفاء)، وهو في كل ذلك يخاطب علماء مصر محذرًا ((وويل لمن لم يستجب لدعاء الملك والوطن))!

وعلى هذا، فإن موقف طه حسين خارج الوزارة اختلف عنه داخلها.

كما أن طه حسين الذي كان قد اضطر، نظرًا للتقاليد الدستورية القائمة، أن يخطب أمام الملك، لم يكن عليه الإغراق في كلمات المديح والرياء، كان يمكن أن يكون حديثه تقريريًا، أو تغلب عليه السمة التجريدية يقتصر على الموقف وحسب، فالناس يعلمون، كما يقول هو، وفي معرض حديثه عن نفسه بعد قيام الثورة ((.. أن الوزراء ما كانوا ليخطبوا أمام فاروق ليعيبوه ويذموه، ويدلوا الناس ويدلوه على ما كان يتورط فيه من طغيان وما كان يقترف من آثام))، فإذا كان هذا صحيحًا، كان يمكن ألا يعرض نفسه لموقف يحسب عليه بما يمنح فيه الملك من كلمات الرياء، وما كان يقترف في المناسبة من موقف لا يمكن أن يبرر قط مدعمًا موقف الملك مبررًا له مسلكه.

لقد كانت حجة طه حسين فيما فعل أنه قد كسب بهذا الموقف لمصر وأهلها فائدة كبيرة مما أتاح ((لهم التعليم ويسر لهم أمره.. وأنشأ معاهد كثيرة في أنحاء العالم))[٤٩٣].

غير أن هذا لا يبرر له قط كل كلمات المديح التي منحها لملك فاسد في وزارة أغلبية، كان ينبغي لها أن تتصدى لميوله الأوتوقراطية ولا تكرس جهدها لتيسير مطالبه والخضوع لرغباته.

لقد وصل طه حسين في علاقته مع الملك إلى درجة أنه قبل يد الملك أو قيل أنه قبلها، ومهما يكن من حقيقة هذه الواقعة، فهي تدل، في جميع الحالات، على الموقف المشين الذي تردى فيه.

وهذا يرتبط بنقطة أخيرة.. أن موقفه من القصر لا يمكن أن يبرر أيضًا، إذ راح يفسر تهالكه على الملك على أنه تهالك على الرمز وإصراره عليه ((إن كلامي عنه لم يتجه إلى فاروق في نفسه قليل أو كثير وإنما اتجه كلامي إلى هذا الملك الذي صورته لنفسي وللناس تصويرًا وصنعته لنفسي

([493]) روزاليوسف ٢٩ مارس ٥٤، أيضا: الأخبار ١١ يونيو ٥٣.

وللناس صنعًا))[٤٩٤].

وهو حين يقول في موضع آخر((أنني حين خاطبت فاروق لم أخاطب شخصه ولكن خاطبت الملك أيًا كان اسمه، ولم أذكر صفاته ولكني ذكرت الصفات التي يجب أن تكون له))[٤٩٥]، فإنه يكون قد دافع عن نفسه بكلام مردود، فهل كان الملك أيًا كانت صفاته في هذه الأيام ينطبق عليه الرمز الصحيح للحاكم؟ وهل كانت صفات الملك تلك ما يجب أن يتحلق حولها الناس ويشيدون من أجلها بملكهم؟

لقد جسد الملك إهمال الدستور والاستبداد واستغلال النفوذ، وكان السبب في الفساد الذي استشرى في كل مرافق الدولة، فإذا هو رمز لكل التجاوزات غير الدستورية في دولة قامت على التقاليد الدستورية.

وهل كان الملك والحال هذه أن يصبح رمزًا للحاكم المثالي الذي يضع كل الأمور في نصابها الصحيح فيستحق صفات التقديس التي غالى طه حسين كثيرًا لإبرازها؟ وهو ما يمكن القول معه، وأنه، مهما يكن من مبررات طه حسين، وهي كلها مبررات ذهب إليها بعد انتهاء العهد الملكي وحاول أن يخلص بها، فإن موقفه منها كان مكرسًا لاستغلال النفوذ ومزينًا لطغيان الملك، وضرب كل الحريات وافتقاد كل القيم النبيلة التي كان هدف طه حسين أن يؤكدها دائمًا.

وعلى الرغم من أنه يمكن تفسير موقف طه حسين من خلال موقف الحزب الذي انتمى إليه، فإنه لا يمكن إغفال العامل الذاتي الذي دفع به دفعًا إلى هذا المصير.

لقد ظل طه حسين يحوم حول نار القصر لسنوات كثيرة، حتى إذا ما جاءت الأربعينيات ومضت سقط مع من سقط في نار القصر، وحين أبلغ بمكالمة تليفونية في أحد أيام يوليو ١٩٥٢، وكان بأوروبا، بأن الملكية سقطت وأن الثورة قامت، أصابته الدهشة التي خر على أثرها مغشيًا عليه، وحين أفاق، كانت مرحلة طويلة قد طويت من علاقته بالعصر الملكي.

لم يكن موقفه من البداية من القصر واضحًا بحيث يمكن أن نصفه بالعداء، وإنما تأرجح أول الأمر بين خيارين:

- إما اتجاه ذاتي.
- وإما اتجاه مؤسسة حزبية.

وما إن عاد من الخارج بعد ثورة ١٩ حتى تحدد موقفه الجديد في اتجاه

([494]) روزاليوسف ٢٩ مارس ٥٤.
([495]) الأخبار ١١ يونيو ٥٣.

حزبي تمثل في مناوءته الظاهرة أو الرامزة للوزارات الملكية خاصة بين السنوات (٢١/ ٢٤، ٢٤/ ٢٦، ٣٠/ ٣٤، ٣٤/ ٥٠) هي السنوات التي كانت تحكم فيها أحزاب الأقلية بمعاونة القصر ومباركته.

ويمكن أن نوجز أهم النتائج حول مواقف طه حسين من القصر فيما يلي: تداخل مع الاتجاه الحزبي الانتماء الشخصي، إذ يلاحظ أنه حاول التقرب من القصر من آن لآخر، سواء بمحاولة استجابته لرغبة الملك فؤاد (بين عامي ٢١/ ٢٢)، أو انضمامه لحزب الاتحاد عام ١٩٢٥، أو استمالة الملك فاروق فيما بعد، إما بإهدائه كتبه وإما بتوخي الخوض في الكتابة عنه أو عن نظامه في المناسبات الملكية أو في خطبه أمامه.

على أن شقة التردد زادت في الأربعينيات خاصة، ففي الوقت الذي حاول فيه استدرار رضاء الملك، استجلب غضبه بالكتابة الاجتماعية والرمزية.

ظلت علاقته بالقصر بين مد وجزر حتى مجيء آخر وزارة وفدية، واختيار طه حسين وزيرًا للمعارف فيها، فنفض أسباب العداء بينه وبين الملك، كما أنهى حالة التردد ليسقط بعدها في أحضان القصر زمنًا ظل فيه يكيل عبارات التقديس والمديح والثناء حتى تردد أنه قبل يد الملك أكثر من مرة، وأن الملك رفض أن يمد له يده في إحدى المناسبات الملكية.

اختفت في هذه الفترة - حين أصبح وزيرًا- من أحاديث طه حسين وكتاباته معاني الديمقراطية والقيم الدستورية ومحاربة الثيروقراطية وغيرها من القيم الفكرية التي ظل يذود عنها لسنوات طويلة سواء في حزب الأحرار أو حزب الوفد، ولم نعد نسمع الصوت القديم في مواجهة أوتوقراطية الملك أو فضائحه التي تزايدت يومًا بعد يوم.. إلى غير ذلك من مظاهر النظام المتآكل الذي سجل سقوط عديد من المثقفين المصريين في المرحلة التي انتهت بمجيء ثورة ٥٢.

الفصل الخامس

إسهامه الثقافي والفكري والعقائدي

- موقفه من الليبرالية.
- من قضايا الليبرالية.
(مسألة التعليم
(بين الليبرالية والإسلامية.
- موقفه من الأيديولوجية.
(سمات الشخصية المصرية
(في اتجاه الفكرة العربية
- من الفكر السياسي.
(نظام الحكم.
(الشريعة والقانون.
(الفكر الاقتصادي.
- نتائج أخيرة.

تحاول كتابات الفكر العربية أن ترصد في هذه الفترة عدة تيارات سياسية نشأت، في هذا المناخ نتيجة لتفاعل تم بين الثقافة السلفية - الإسلامية، وبين الثقافة الغربية- الأوروبية، وقد اتفقت جميعها على وضوح عدة تيارات مع بعض الاختلافات غير الجوهرية بينها، وقد تبلورت هذه التيارات في القرن العشرين على النحو التالي(٤٩٦):

أولاً: تيار حرص على الميل للغرب ميلاً تامًا، وإن حرص على عدم المساس بالدين.

ثانيًا: تيار حرص على الميل للغرب وإلى تراثه بكل ما فيه من سلبي وإيجابي.

---

(496) لتحديد اتجاهات الفكر العربي الحديث وتياراته هناك مراجع كثيرة، من أهمها: لمحمد جابر الأنصاري (تحولات الفكر والسياسة..) علي الدين هلال (التجديد في الفكر السياسي المصري)، ألبرت حوراني (الفكر العربي في عصر النهضة)، فاضل زكي محمد (الفكر العربي الإسلامي بين ماضيه وحاضره)، ندوة للجامعة الأمريكية (الفكر العربي في مائة سنة)، أنور عبد الملك (مصر مجتمع عسكري)، هشام شرابي (المثقفون العرب والغرب)، محمد محمد حسين (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر)، أيضا انظر:

Ahmed J.m., The intellectual orgins of Egyptian nationalism.

وأيضا انظر: Safrain, N., Smith ch.,

ثالثًا: تيار حرص على تجنب كل عقيدة لمعالجة المشاكل، بمعالجة أكثر عصرية، مع الميل لتطوير العقيدة.

وأولئك الأخيرون كانوا يؤمنون بإمكانية معايشة العصر داخل الإطار الوطني، ومواءمة الأساليب العصرية بالمتطلبات المحلية، وقد كانوا يجهدون لخلق صيغة فكرية جديدة فهم ((الليبراليون الحقيقيون))(٤٩٧).

ومع أن رواد الاتجاه الليبرالي برزوا بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، فقد كانت جذورهم الأولى تعود إلى عصر محمد عبده الذي ترك حوارييه، كما ترك مشايعين لفكره مع بعض التحفظات، وفي الوقت الذي ترك فيه محمد رشيد رضا (ممثلاً للاتجاه السلفي)، فإنه ترك لطفي السيد (الاتجاه الليبرالي).. غير أن جيل محمد حسين هيكل وطه حسين بعد ذلك لعب دورًا حيويًا في اطراد الخط الليبرالي وتبلوره داخل مصر.

وعلى هذا النحو، فإن طه حسين، مثل لطفي السيد، كان متأثرًا بتيار غربي خاص في التفكير يمكن أن يعرف بالتيار (الليبرالي)(٤٩٨)، الذي كان قد بلغ أقصاه في هذا الوقت في الفترة التي امتدت بين عامي (١٩٢٥-١٩٣٠)، ففي هذا الوقت عرف العالم العربي قمة الصراع الفكري بين تيارين.

---

(497) عفاف لطفي، ص ٣٢٨، أيضا: الفكر العربي في مائة سنة ص ٤٦٤.

(498) أحمد محمد عطية، القاموس السياسي والاقتصادي، ص ١٠٧٧، ١٠٧٨، أيضا: عبد العاطي محمد، ص ٢٧٣.

(الليبرالية السياسية والمدنية هي فلسفة تقوم على الإيمان بالتقدم واستقلال الفرد لذاته، وتنادى بحماية الحريات السياسية والمدنية، والليبرالية مذهب عرف بأوروبا منذ بداية القرن التاسع عشر، وقد عرف عند طه حسين خاصة بعدة عوامل تعد أساسا للمدنية الغربية التي كانت -النموذج- للفكرة وهي: المجتمع القومي، حكم الأمة لنفسها على ضوء مصلحتها الخاصة، وفصل الدين عن السياسة، والنظام الديمقراطي في الحكم، أي سيادة الإرادة العامة المتمثلة في مجالس وطنية منتجة ووزارات مسئولة أمام هذه المجالس واحترام الحقوق الفردية، وبنوع خاص حرية القول والنشر، ومتانة الفضائل السياسية.. وما تبع هذا من ضرورة التوحيد بين الأديان واحترام الحكومة الدستورية واحترام المرأة.. وما إلى ذلك مما كان له تأثير كبير في مفكر مثل طه حسين إلى الدرجة التي كان البحث فيها عن الأصول لديه بالعودة إلى التاريخ والقيم الإسلامية إنما كان للبحث عن القيم الليبرالية والإفادة من القيم الإيجابية في التراث لتأكيد القيم المعاصرة وبلورتها، وإذن، كان الهدف الرئيس لديه هو القيم الليبرالية أولاً وأخيرا..).

Donald E. Smith, Religion and Political Development, p.85- 90

أيضا انظر: علي الدين هلال ص ١٠٣، وحوراني ص ٣٨٧، تشارلز فرنكل، ترجمة د. نيقولا زيادة في كتاب (أزمة الإنسان الحديث) ص ٣٥٣، وإن كنا لا نجد تعريفًا شاملاً لمصطلح الليبرالية.

وهنا، نشير إلى ملاحظة هامة قبل أن نصل إلى صراع القديم والجديد في فكر طه حسين، فإذا كنا في رصد الليبرالية في مجتمع نواجه الصراع بين القديم والجديد، فإن القديم خاصة يحتاج إلى تفسير خاص، ونحن في هذا نوافق جاك برك على أن (القديم) ليس نقيض (الجديد) بمقدار ما قصد أن (العضوي) نقيض (النقدي)، وهو ما يسهل علينا فهم ثنائية القديم والجديد أو السلفية والليبرالية.

ويتمثل الصراع بين القديم والجديد لدى طه حسين في الاتجاه الأدبي خاصة في ممارساته الأدبية[٤٩٩]، كما يتمثل في الاتجاه الفكري والثقافي والديني للتباين بين ممارساته ومواقفه، على أنه يلاحظ، أنه وإن مثل أهم ممثلي الليبرالية وآخر رموزها الحية في الفكر النظامي، لم يكن ليضحي بالتراث من أجل المعاصرة، وإنما ينظر إلى الحاضر كما ينظر إلى الماضي، نظرة عقلية خالصة تقوم على الإفادة، وتقديم الأنفع وإيثاره بغض النظر عن قدسيته ومكانته المعروفة، وهو ما يميزه عن غيره بهذا الوعي، الذي يوضح أنه بالنسبة إلى طه حسين، فإن ثمة صراعًا كان يدور من أجل صيغة عملية، فالجديد والقديم عنده إنما كان يمثل الصراع بين عالمين عرفهما، وليس مرحلتين كما يرى البعض.

ويمكن تفسير جانب هذا الوعي إلى أن خلفيته الثقافية مختلفة كثيرًا عن معاصريه، ففي الوقت الذي كان فيه محمد حسين هيكل يتمتع بخلفية ثقافية تعود إلى الفكر الغربي منذ فترة مبكرة، كان لطه حسين خلفية دينية أكثر منها سلفية تقليدية، وقد تبدى هذا أكثر ما تبدى في موقفه الرافض من التيار الغربي الخالص الذي مثل أحد وجوهه إسماعيل مظهر، كما لم ينجز إلى التيار الديني الذي مثل أحد وجوهه حسن البنا، ومن هنا، يمكن القول أن

([499]) تبدأ معركة القديم والجديد حين أرسل مصطفى صادق الرافعي برسالة إلى صحيفة (السياسة) تحت عنوان(أسلوب في العتب)، ذهب فيه مذهب السلفيين من القدماء، فرد عليه طه حسين ممثلاً لمذهب جديد، وقد شارك في هذه المعركة التي استمرت بين (ديسمبر ١٩٢٢- فبراير ١٩٢٤) عدد كبير من الكتاب لعل أهمهم الأمير شكيب أرسلان وخليل السكاكيني وسلامة موسى، وقد أثمرت في النهاية عن عدد كبير من الكتب منها: حديث الأربعاء التي كانت النتيجة الهامة لخصت هذه المعركة من أن (هذا العصر الذي انحلت فيه الدولة الأموية، وقامت فيه الدولة العباسية، قد كان عصر شك ومجون)، ص ٧، كما يمكن في هذا رصد أعمال أخرى له منها (شوقي وحافظ) وخاصة فصله فيه (الأدب الجديد)، وكتابه (من بعيد) وفصليه الهامين فيه (بين العلم والدين) و (بين الجد والهزل)، وكتابه (تقليد وتجديد) نشر عام ١٩٧٨، كما صاغ رأيه في كتب أخرى منها (مستقبل الثقافة في مصر) و (ألوان) وغيرها.

موقفه من المؤسسات الدينية[٥٠٠] لم يكن عدائيًا، حتى في أحلك ساعاته في أزمة (الشعر الجاهلي) عام ١٩٢٦.

ويمكن أن نرى اتجاه طه حسين الليبرالي وممارساته في مسألتين اثنتين.

أولاً: التعليم.

ثانيًا: الصراع بين العلمانية والإسلامية.

لم توجد قيمة ليبرالية اهتم بها طه حسين مثل قيمة التعليم.. وهو ما يعود إلى أسباب شخصية وسياسية، فلم يكن رواد هذا التيار مثل لطفي السيد غير ((خلفاء لمحمد عبده والتنور الفرنسي والفكر البريطاني الليبرالي))، فبينما كان من المألوف لدى محمد عبده، ((أن الوسيلة الوحيدة الفعالة للنضج القومي والاستقلال الحقيقي إنما هي التربية))[٥٠١]، فقد راحت نظرية التعليم لديه تلتمس النظرة المثالية إلى درجة أن التربية، والتربية وحدها، كانت نافذة الأثر في تحقيق الإصلاح بتغيير الأحوال السيئة في المجتمع، وهو ما دفع به إلى انتقاد النظام القائم في عصره، وهو عين ما فعله لطفي السيد فيما بعد حين كان التعليم هو مفتاح فلسفته وجوهرها الحقيقي فراح يهتم بتعليم المرأة، وإعادة صياغة اللغة العربية ورفع مستواها عاليًا في التعليم والصحافة.. إلى غير ذلك مما يتأكد معه أن التيار الليبرالي حتى بداية القرن العشرين كان يولي للتعليم اهتمامًا كبيرًا.

وقد كان من الطبيعي وطه حسين من أهم وجوه هذه المدرسة أن يبدي اهتمامًا كبيرًا بالتعليم والتربية منذ عاد من البعثة عام ١٩١٩، فراح يمضي في خط صاعد بلغ أقصاه في أكثر من مرحلة موليًا فلسفة التعليم اهتمامًا غير عادي خاصة وقد تولى مناصب تعليمية هامة.

وإذا التقى طه حسين مع سابقيه في بعض الأفكار، فقد اتفق مع لطفي السيد إذ تبنى الأفكار الرئيسة له، إذ كان من ((أخلص تلاميذه))[٥٠٢]، وعلى هذا تميزت كل إسهاماته بهذا الطابع الذي يحتفي بالتعليم ويحث عليه.. فبينما كان وراء اهتمامه من وراء كتاب (الشعر الجاهلي) محاولته التأثير بالمعرفة الليبرالية في الأفهام القديمة، راح يدعو في (مستقبل الثقافة في مصر) إلى بعض الأفكار وصياغتها صياغة تتبنى القيم الليبرالية، ومن

---

(500) Vatikiotis, p. j. the Modern history of Egypt, 1929, p. 302

(501) حوراني ص ٢٢.

(502) El- Ahwany, A.F., Les penseurs contemporains, Revue du Cairo 31, 1953, p. 152- 155.

هنا، فإن الجديد عنده عرف بهذه القيم الانتقالية ((من عصر سلفي متخلف يسوده الجمود والسكون، إلى عصر متطور متقدم يشيع فيه الحركة والتجديد))[٥٠٣].

الحاصل أن طه حسين جعل التعليم الابتدائي إلزامًا عامًا، أما التعليم الثانوي، فأتاحه بكل نفقاته على أن يعلم الفقراء بالمجان، والمتفوقون بالمجان أيضًا، وقد كان أهم ما ورد في التعليم الثانوي أن الثقافة الثانوية العامة يجب أن تقوم على دراسة التراث القديم من خلال اللغات القديمة منها، كاللاتينية واليونانية، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح التعليم الثانوي بالمجان، وقد ساعد طه حسين في فلسفته التربوية أنه بينما كان له جملة أفكار نظرية واتته الظروف إلى أن يتولى عدة مناصب هامة مكنته من تحويل الفكر إلى فعل وعمل[٥٠٤].

وتتلخص فلسفة طه حسين التربوية في تعميم التعليم، إذ تحددت هذه الفلسفة حول الجديد مما هو آت من الغرب مستفيدًا كثيرًا بنظمه ومناهجه وأفكاره العامة.. وهذا لا يعني أنه خاصم الأزهر كرمز للقديم، وإنما حاول الاهتمام أكثر بالوسائل التربوية فيه، وإن التمس في هذا العنف ((المعتمد على السباب))[٥٠٥]، وهو لم يطلب إلغاء التعليم الديني كما اعتقد رجال القديم من الأزهريين حين طلب أن تكون الخطوة الهامة أن يكون ((توحيد التعليم في طور الصبا والشباب))[٥٠٦].

وتفسير هذا أنه كانت تغلب على جيله هذه الازدواجية التي توحي أنهم يعيشون في عالمين، وقد تمثل هو هذا الازدواج في مجال التعليم وجود مجالين من التعليم: الأزهر ووسائله الدينية ثم المدارس الأميرية الابتدائية وما شابهها من مدارس ثانوية وكليات جامعية ومدارس فنية مما حدا به على أن يثير معركة عاصفة على رجال الدين داعيًا إياهم إلى أمر هام

([503]) فؤاد زكريا، قيم النهضة الفكرية، مجلة الآداب ٧٤/٣.

([504]) .. تولى طه حسين أول منصب له في وزارة المعارف عام ١٩٤٢ في وزارة وفدية، فإذا بوزارة المعارف وفيها -نجيب الهلالي- تصدر قرارا ينصب على تكافؤ الفرص التعليمية، وما كادت تتحقق مجانية التعليم الابتدائي عام ١٩٤٤ حتى أعلنت مجانية التعليم الثانوي عام ١٩٥٠ إذ كانت الشروط التي تقدم بها طه حسين لدخول الوزارة كما قيل أن يكون التعليم الثانوي بالمجان، وكان قد أنشأ جمعية الإسكندرية مهتما بكثير من وسائل التعليم فيها (انظر: دار المحفوظات، السابق)، أيضا: عفاف لطفي، ص ٣٠٢.

([505]) وهو ما يبدو وخاصة في مرحلة متأخرة حين كتب (مستقبل الثقافة في مصر).
أيضا: رزق موسى، ص ٢٠٤/ ٢٢١.

([506]) نقد وإصلاح، ص ٢٤٢، ٢٤٣ وما بعده.

لخصه كما يلي:
توحيد التعليم الثانوي والابتدائي في الدولة كلها، على أن يفرغ التخصص في علوم الدين لمن يريد، وعلى ألا يكون في التخصص في علوم الدين مانع لصاحبه من المشاركة في حياة الناس العملية والعلمية(٥٠٧).
وموقف طه حسين في مجال التعليم خاصة يؤكد على أن ممارسته للقيم الليبرالية حين تصطدم بالقيم الدينية وتتعارض معها إنما كان يشوبه كثير من الشك الذي يخيم حول إمكانية تطبيق مبادئ الليبرالية الخالصة، وهو ما يمكن أن يحسب عليه في ممارساته، فقد كان يبدو أحيانًا علماني التفكير شرقي السلوك وإن لم يلتزم هذا في مجالات أخرى.
وقد أدرك طه حسين طبيعة العلاقة بين أثر التعليم وكثير من القيم الاجتماعية والسياسية منذ فترة مبكرة، ففي بعض المقالات المتناثرة قبل السفر إلى البعثة مباشرة عام ١٩١٥ نجده متبرمًا على الحكومة التي أضحت مدارسها ((معامل سياسية لإخراج الذين يشغلون المناصب العامة))(٥٠٨)، مستدركًا إلى الجامعة، منتقدًا نظام التعليم الذي يقوم عليه خصومها ((المتسرعين في أمرها))(٥٠٩).
ولا يكاد يعود من البعثة حتى يعود، ثانية، إلى مسألة التعليم، إذ كان يدرك أهميتها، وقد أبدى إدراكه لها حينئذ فقال ((لا أعرف بعد المسألة السياسية الكبرى مسألة يجب أن تعني بها مصر كمسألة التعليم(٥١٠)))، وهو سر ربطه بين التعليم والاستقلال الوطني فليس إلى الاستقلال سبيل إذا لم تكن مصر متعلمة(٥١١).
وإذ بدا اهتمامه واضحًا بمناهج التعليم فهو لا يتفاءل بسياسة مجلس الأمة التي تسعى إلى بناء وزارة المعارف، ذلك لأن وزارة المعارف تلك ستنهار قبل أن ينهار غيرها من أبنية الاستعمار(٥١٢)، وكان دائم التنقل بين وزارة المعارف والتعليم العام بها إلى الأزهر والتعليم الديني ومدرسة القضاء حينئذ مشيرًا إلى رجال المعارف الذين لا يستطيعون وضع نظم جديدة للتعليم غير النظم العتيقة، وهو يعبر عن ذلك قائلاً ((إن الرحى في

(507) السابق ص ٢٥٤.
(508) السفور ١٩١٥.
(509) السابق.
(510) السياسة ٢٣/٦/٧.
(511) السابق.
(512) السياسة ٢٣/٦/١٠.

وزارة المعارف تدور إلى الشمال لا إلى اليمين فنسمع بها جعجعة ولا نرى طحنًا.. قد ألفوا سياسة تعليمية خاصة وضعها دنلوب فليس من العسير عليهم بل ليس من المتاح لهم أن يتبدلوا عن هذه السياسة))[٥١٣].

فهو يربط إذن بين الاستقلال وبين التعليم وما يلزم هذا من مقضيات التحرر الخارجي كاهتمامه بالحرية والديمقراطية وما إلى ذلك منتقدًا في كثير من اللوم تلك اللجان التي تعقد بين الموظفين من آن لآخر دونما وعي بحاجة التعليم وضرورة تغييره))[٥١٤].

وقد عاد طه حسين بعد قرابة عشرين عامًا يردد نفس الأفكار في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) وخارجه في نهايات الثلاثينيات، مهتمًا بتغيير التربية المصرية ووضع برنامج تعليمي إصلاحي لها، مركزًا قبل هذا وذاك على الخط الغربي، فبعد أن يوضح في بداية الكتاب الذي خصص جزءًا كبيرًا منه لفلسفته الأولية من أن التعليم عندنا يجب أن يكون على ((النحو الأوروبي))[٥١٥] الخالص، فالتربية الابتدائية، وهي ((ركن أساسي من أركان الحياة الديمقراطية الصحيحة))[٥١٦]، يجب أن تكون عامة وإجبارية مفسرًا هذا بأن ((الدولة الديمقراطية ملزمة أن تنشر التعليم الأولي.. وتوكل بشئونه كلها))[٥١٧].

كما أنه بالنسبة إلى مدارس التعليم الثانوي أشار إلى ضرورة تبني الدولة لها لا الاعتراض على تنوعها.. أما المدارس الأميرية فإنه أشار إلى ضرورة انتشارها في البلاد في أسرع وقت ممكن، مؤكدًا أن التربية الثانوية يجب أن تكون في متناول جميع القادرين على دفع رسومها، أما مواد التعليم فقد أشار إلى تعديل بعض عناصرها بما لا يقضي على اللغة الأجنبية في وقت ينمي فيه اللغة العربية، حتى إذا ما وصل طه حسين إلى التعليم العالي فإنه بعد أن يستعرض أغراضه ومشكلاته ينتهي، إلى ضرورة استقلاله فلا يجب أن تخضع الجامعات لرقابة الحكومة المالية أو العلمية، وسوف تصبح الجامعة عبثًا كلها إذا لم تعرف الدولة للجامعة كما يقول: ((استقلالها العلمي الصحيح وإذا لم تحترم هذا الاستقلال كما تحترم

([513]) السياسة ٢٣/٧/٣١.

([514]) السياسة ٣١/٧/ ٢٣، ٥ أغسطس، ٢٦ أغسطس ٢٩ أغسطس، ٣١ أغسطس، ١ سبتمبر، ١، ٥، ٢٥، ٢٧ نوفمبر، ٣١ ديسمبر ٢٣.

([515]) مستقبل الثقافة ص ٣٦.

([516]) السابق ص ٧٧.

([517]) السابق ص ٦١.

استقلال القضاء))[518]، وهو ما أشار إليه إذا ما عاد إلى التعليم الديني في الأزهر، إذ يجب أن يتمتع بالحرية المطلقة لأنه يلعب دورًا كبيرًا في تكون الثقافة القومية لكثرة طلابه وخاصة اختلاطه بالوجدان الشعبي وإن حدد وظيفته في أن يكون معنيًا بالحياة الروحية فقط غير معني بالتربية العامة، وهنا كان لابد أن يصل طه حسين لهذه الثنائية التي كان يلقاها كل من يتناول التعليم الأزهري بين التعليم المدني والديني، وقد اتخذ رأيًا في هذا متسقًا تمام الاتساق مع فكره العام، فقال ((أنا مؤمن بأن من أيسر الأشياء أن يلائم الأزهر بين حياته الخاصة وبين حاجات الحياة العامة))[519].

وإذا كانت فلسفته في التعليم تقوم على (المجانية) في المقام الأول لإيمانه بأن التعليم مفتاح الحياة الديمقراطية السليمة[520]، فكان من الطبيعي أن يصطدم بالطرف الآخر الذي رأى ومن أبرزهم كان إسماعيل القباني الذي كان يعارض سياسة فتح باب التعليم على مصراعيه، وقد كانت حجة طه حسين في إطلاق التعليم ما لخصه في إحدى مناظراته مع خصمه، قال ((لو قال قائل أن الفلاح يعيش في أكواخ مهدمة بلا سقوف ولكنه ألف ذلك فيجب أن يبقى كما هو.. لو قال قائل هذا لأبى الأستاذ أن يعترف به فهذا شيء ما أظن أن أحدًا يرضى به ونحن نتحدث عن الديمقراطية وحقوق الإنسان، أفتظنون أن قال قائل أن المصريين تعودوا الجهل طويلاً فيجب أن نتركهم هكذا يخدعون في يسر وينساقون إلى ما يفرض عليهم، أفتظنون أنه يرضى أن تظل كثرة الشعب جاهلة لأنها تعودت عليه.. تلك فكرة ما أظنها تخطر إلا لرجل اعتقد أنه ليس خصمي الشريف، وإنما هو رجل أناني يحب أن تبقى الفروق بين الطبقات كما هي، وأن يظل التعليم لطبقة من الناس))[521].

ورغم أنه ظلت توجه إلى سياسة طه حسين التعليمية انتقادات كثيرة، فإنه تمكن من وضع أفكاره موضع التنفيذ، فقد شغل عديدًا من المناصب الرسمية إذ كان عميدًا لكلية الآداب بجامعة القاهرة، ومديرًا عامًا للثقافة بوزارة التربية والتعليم كما أصبح مستشارًا لوزير التربية بين عامي ٤٢/ ١٩٤٤، كما حاول في جامعة الإسكندرية التي أسسها ثم أصبح عميدًا لها أن يطبق فيها أفكاره التربوية بمنحها كثيرًا من الحرية الفكرية والسياسية

([518]) السابق ص ٣٣٦.

([519]) السابق ص ٣٥٦.

([520]) Jaque burque, culture, p. 113.

([521]) السياسة الأسبوعية ٣٩/٤/٢٢.

والعالمية، وقد أسهم هذا كله بتأثير الكثيرين به من تلامذته، ومن هنا، الافتتان بمنهجه التعليمي واقتفاء أثره[٥٢٢].

وبعد سقوط الوزارة الوفدية يظل يعرض لأفكاره في الصحف مدافعًا عنها في حماس كبير، متعرضًا لأكثر من هجوم، دافعًا إلى أكثر من مناظرة المجانية، وهو في رده على وكيل وزارة المعارف الذي اتهمه بالتجني على التعليم لفرض المجانية، يقول: ((.. إن أولئك الجناة - يقصد نفسه- الذين توسعوا في التعليم وفرضوا مجانية التعليم الابتدائي مستعدون اليوم كما كانوا مستعدين سنة ٤٤ للمضي في جنايتهم تلك التي تمر في أذواق قوم، ولكنها تحلو في أذواق الشعب كله، مستعدون للتوسع أكثر مما توسع هو وأصحابه مرات كثيرة، ومستعدون لفرض مجانية التعليم الثانوي والفني بعد أن فرضوا مجانية التعليم الابتدائي.. ومستعدون لأن في أيديهم عصا سحرية.. هي أنهم يحبون الشعب ويحبهم الشعب.. هم مستعدون لهذا كله والأكثر من هذا لا يحول بينهم وبين الوفاء وعدوا إلا أن وزارة المعارف ليست في أيديهم.. إن أولئك الجناة الذين يحبون التوسع في التعليم ويعطون العلم لأبناء الشعب لا يبيعونه إليهم بثمن بخس، دراهم معدودات كما يباع البصل والكرات))[٥٢٣].

وهو في موضع آخر يحدد دور الوزارات ومسئولية الوزراء فيقول ((إن الوزارات إنما أنشئت قبل كل شيء لتواجه المصاعب وتقهرها، وإن الوزراء إنما يقاس إحسانهم بمقدار تغلبهم على المصاعب[٥٢٤].. مشيرًا في هذا إلى أن مجانية التعليم لا يجب أن تقهرها مصاعب مما يؤكد على هذه المجانية بما يشيعه طورًا بأنها يجب أن تكون كالماء والهواء أو يقرنه طورًا آخر بالتعليم حين يرى أنه يجب أن يكون كالبصل والكرات.

وهو لم يصبح وزيرًا في وزارة الوفد الأخيرة إلا بعد أن اشترط على النحاس أن تعم (مجانية التعليم)، وقام في هذه الوزارة بعملية واسعة النطاق لتوسيع المدارس الحكومية على جميع مستوياتها فأنشأ جامعات ومعاهد عليا ومختلف أنواع المدارس الجديدة إذ جعل التعليم الثانوي بالمجان وعدل منهاج الدروس وفقًا للخطوط التي كان قد رسمها في كتابه عن التعليم[٥٢٥]،

([522]) محمد محمد حسين، ج٢، ص ٢١٣.

([523]) الأهرام ٤٩/١٠/٢٨.

([524]) الأهرام ٢٣/ ١/ ١٩٥٠.

([525]) حوراني ص ٤٠٠، وأيضا جلسة مجلس النواب في ١٩٥٠/١/٣١، لنرى فيه الرد على خطاب العرش الذي تكلم فيه فؤاد سراج الدين وطه حسين وجاء ذكر التعليم.

وهو في هذا كله ركز على هدفين اثنين، كما راح يردد، ضرورة ((نشر التعليم)) في جميع أرجاء مصر في أسرع وقت ممكن ثم إصلاح التعليم وترقيته وتنقيته))[٥٢٦].

ومن نافلة القول أن نعيد ما سبق أن ذكرناه من أن طه حسين في دعوته إلى التعليم إنما كان يصدر عن قيمة ليبرالية صريحة، كان هو نفسه يعد آخر ممثل لها على الصعيد الفكري، كما كان دائم الربط بين قيمة التعليم والنشأة الاجتماعية والطبقات الاجتماعية، وهو ما نجده بوضوح تام في نصوصه الإبداعية خاصة[٥٢٧]، فبعد أن تحدث عن قيمة التعليم في بعض المؤلفات الفكرية من أمثال (روح التربية) و(مستقبل الثقافة في مصر)، فإنه راح في (القصر المسحور) عام ١٩٣٣ يبدي كثيرًا من التخوف مما قد يجده من إرهاب من كونه عميدًا يخوض الكلام أو بالكلام في (الأديان والآلهة)، كما لم يكف في هذا الكتاب الذي يتحدث عن قضية فنية عن أن يذكر كثيرًا من المصطلحات التي تدل على معناها من أمثال (سيادة القانون) و(قوانين الجامعة)، كما راح في (أحلام شهرزاد) يشير إلى قيمة التعليم بشكل أوضح، إذ إن (فتنة) التي تثير حربًا بين الملوك المتنافسين على الفوز بها تتحداهم وتخذلهم جميعًا وبشيء واحد لخصه في عبارته (الفطنة والعلم الغزير)، أما في (شجرة البؤس)، فإنه جعل الخلاص في التعليم وبالتعليم، والتعليم (الجديد) بوجه خاص، ذلك الذي عرف منذ بداية هذا القرن في مصر ممثلاً لأوروبا وأفكارها، حتى إذا ما وصلنا إلى (المعذبون في الأرض) نجده يشير إلى قيمة التعليم حين يركز بشكل ما على قيمة الجهل ومسبباتها في المناخ المصري.. إلى غير أولئك من الإشارات التي ترى في التعليم الخلاص مما يعانيه الإنسان المصري في جميع الحالات.

وهذا كله يضعنا أمام سؤال هام:

هل كان تحمس طه حسين للتعليم وراءه خلاصه في ظروفه الشخصية والاجتماعية؟

وبشكل آخر: هل كان التعليم - وهو مرادف للوعي هنا- وراء إحساس المتعلمين المصريين بأنهم كلما ازدادوا ثقافة خضعت تضحياتهم لأحلامهم؟

وبشكل مباشر:

---

[526] روزاليوسف ١٩٥٢/١٠/٢٧.

[527] فضلاً عن مقالاته العديدة التي جمعت في مثل كتاب (جنة الحيوان) -انظر فيه مقالة (حديث الأوز) ص ١٥.

هل كان التعليم ذريعة للخلاص الاجتماعي؟

إن البعض يردد أن حرية التعليم ذريعة الخلاص، التي نادى بها طه حسين كانت وراء تحمسه الذي جعله يتنقل من طبقة إلى طبقة أخرى حتى إذا ما جاءت اللحظة المناسبة ((كان قد وقع في حب الطبقة المتوسطة التي ارتفع إليها، كما وقع في حب الذين عاونوه على التعليم على نشر أفكاره))(٥٢٨).

والواقع أنه رغم ما يقال من أن احتفاء طه حسين بالتعليم كانت النغمة التي تردد أنها مفتاح الكثير من الأحداث الإيجابية في حياته، فإنها، لا يمكن أن تكون، وحدها، كذلك، وليس التعليم وحده هو العامل الوحيد وراء اهتمامه به على هذا النحو، وإنما يمكن أن يعزى السبب الجوهري إلى عديد من المؤثرات الليبرالية التي وجدت طريقها إلى عقل الرجل ووجدانه في بداية حياته في أوروبا.

لقد بدأت حياة طه حسين العملية والعلمية بعد عودته من أوروبا مباشرة عام ١٩١٩ (علماني) التفكير والشعور، ومن هنا، كان التأثر الغربي وراء جزء كبير من تحمسه واستعداده لضرورة أن يكون التعليم حرًا، وهو تحمس واستعداد كان يجد له من طبيعته عونًا كبيرًا من ((الظمأ الشديد للمعرفة))(٥٢٩).

ومن يعود إلى مؤثرات أوروبا في القرن الماضي يجد أن التعليم كان من أبرز العناصر الفلسفية لدى كثير من مفكريه في هذا الوقت(٥٣٠)، وهو ما يؤكد على أن التعليم في حياة طه حسين كان وسيلة يستطيع بها الوصول إلى طبقة أعلى أو - حتى- التحرر من طبقة أدنى وحسب، إذ كان التعليم عنده يعني الوعي الذي يتسلح به الإنسان في مواجهة قوى الظلم، وهو في هذا يرى أنه يجب ((أن يعرف الشعب مواضع الظلم وإلى أن يحاسب الشعب هؤلاء الذين يظلمونه ويذلونه ويستأثرون بثمرات عمله))(٥٣١).

والمعرفة هنا لا تعني التعليم بقصد الخلاص الشخصي، وإنما الخلاص

---

(528) فتحي غانم، الفن في حياتنا ص ٥٤، ٥٥.

(529) هذا مذهبي، السابق ص ٣٩.

(530) جورج سباين، تطور الفكر السياسي ج٤، ص ٧٧٠ (.. لقد كان الأمر كذلك عند ((هلفتيوس)) و ((هولباخ)) بما يعني من انصراف السيادة الوطنية تغتصب مصالح طبقة حاكمة المطاف الخاص بالمصلحة العامة وتقسم المصالح بين الطبقات هو المصدر الرئيس للضعف. والعلاج، باختصار، هو التعليم الذي فيه وحدة تدفع هولباخ إلى أن ((يصنع معجزة الإصلاح))).

(531) مستقبل الثقافة، ص ٧٧ وما بعده (٣٧) شرابي ص ١٠٣.

الجماعي الوطني، الذي يفرض نفسه فرضًا منذ عصر رفاعة الطهطاوي، ويبشر بقدومه على العصر الذي خيم فيه الاستعمار وهيمنته أن يبحث الوجدان، وقد كان من الطبيعي أمام ربقة الاستعمار وهيمنته أن يبحث الوجدان الوطني خارج الوطن عن رموز للخلاص والتحرر، وقد حدث وأن التفت إلى المستعمر وحضارته، فوجد، ومنذ فترة مبكرة، أن الوجه الأكثر إغراء لأوروبا المعاصرة، وأوروبا المستعمرة في فكر المفكرين الليبراليين المصريين هو الوجه العصري، وقد تركز الاهتمام من المثقفين على عنصرين هامين لهذا الوجه من أهمها عنصر العلم.

وإذن، لم يكن العلم بالنسبة إليه يمثل الخلاص الفردي، وإنما يمثل الخلاص الوطني العام.

والانتقال من إسهامه الثقافي إلى إسهامه الإيديولوجي أمر لابد من التوقف عنده؟ لكون انتمائه إلى الليبرالية بعد الثلاثينيات أمر يشوبه كثير من الشك بما لا ينسجم مع موقف طه حسين خاصة.. إذ يعتقد أنه ارتد عن الليبرالية أو أقلع عنها تمامًا في غضون كتاباته الإسلامية، وتفصيل هذا أنه في النصف الأخير من العقد الثاني شهدت الليبرالية في مصر أوجها بتحدي رموزها ممثلة في كتابي (الإسلام وأصول الحكم) و (الشعر الجاهلي) الفكر السلفي مهما يكن من تأثير السياسة ودواعيها حتى إذا ما انصرم هذا العقد حتى كانت الليبرالية تلقى هزيمة نكراء أو هكذا كان يبدو في عديد من الكتابات التي آثرت الانصراف عن المبادئ إلى الإسلامية[٥٣٢] بعديد من رجال الفكر ممن آثروا الانحياز ومنذ البداية إلى النهج الغربي في التفكير، فعرفنا كتابات كثيرة لعل من أهمها كتاب طه حسين (على هامش السيرة) الذي ظهر الجزء الأول منه عام ١٩٣٣.

وما لبثت أن تتالت بقية أجزائه الثلاثة بين عامي ٣٧/ ١٩٣٨ إلى

([532]) لقد بدأ هيكل منذ عام ١٩٣٢ في إعداد دراسة منهجية يغلب عليها الطابع التاريخي عن حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- قام بنشرها على شكل فصول في (السياسة الأسبوعية)، قبل ظهورها في كتاب (حياة محمد) عام ١٩٣٥، ثم (منزل الوحي) عام ١٩٣٦، وما لبثت أن تتابعت الإسلاميات بظهور الجزء الأول من كتاب (على هامش السيرة) لطه حسين، ثم (محمد الرسول البشر) لتوفيق الحكيم عام ١٩٣٦، ثم بدايات (العبقريات) لعباس العقاد في عام ١٩٤٣ وتتالت الكتابات الإسلامية.. وتؤكد مصادر هذه الفترة أن طه حسين كان قد اتفق مع أحمد أمين وعبد الحميد العبادي على كتابة التاريخ الإسلامي حتى آخر عصر الدولة الأموية فيختص كل منهم بجانب (انظر مقدمة كتاب فجر الإسلام لأحمد أمين -المقدمة لطه حسين ص٥)، أيضا دراسة الإسلاميات في كتابنا (مشكلات في الفكر العربي)، دار الشروق، تحت الطبع.

جانب العديد من الكتابات التي ترصد، في النظر العابر، على أنها ارتداد عن الليبرالية وإبحار إلى ضفاف الإسلامية التي نمتها عديد من الأحداث المعاصرة لهذه الفترة.

فهل ارتد طه حسين، بالفعل، عن الليبرالية في الثلاثينيات؟

لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال قبل أن نلقي نظرة خاطفة على هذا العقد لنرى ملامح هذه الظاهرة ودواعيها قبل أن نصل إلى موقف طه حسين كأحد ممثلي الليبرالية.

ليس من شك أن عقد الثلاثينيات شهد شيئًا من الإحباط الذي أحس به المصريون بعد رحيل سعد زغلول ومجيء مصطفى النحاس الذي لم يكن ليستطيع أن يلعب دور سلفه سيما في ظروف تولي صدقي الوزارة برغبة ملكية يغذيها تشجيع بريطانيا، وعلى هذا النحو، لم يستطع صدقي، بكل إجراءات القمع غير فرض سطوة أخافت الجميع وجعلتهم يفكرون على المستوى السياسي في الخلاص في هذا المناخ الذي ركزت فيه الأزمة المالية الاهتمام على المتطلبات الأولية للطعام والكساء، واضعة مسألة الصراع من أجل السلطة في المقام الثاني عند رجل الشارع الذي كان ينظر إلى المشاحنات في هذا الوقت نظرة مريرة، فضلاً عن الأزمات الأخرى كأزمة الديموقراطيات في الغرب التي هزت ثقة الكثيرين في قيمة الديمقراطية الغربية، كما زاد الإعجاب ببعض الأفكار الوهابية في أوروبا نفسها وهو ما انعكس على بعض التنظيمات الوطنية.

وفي هذا الوقت اجتاح العالم الإسلامي - من وجهة نظر مؤرخ سلفي-[٥٣٣] موجة من الذعر، ومن الإحساس بالخطر الذي جاء من حملات التبشير سيما بعد أن توالت محاولات تفيد عزم فرنسا للقضاء على الإسلام وعلى اللغة العربية في شمال أفريقيا، وجرائمها وهو ما اشتركت فيه معها إيطاليا التي كانت تحتل جزءًا من الوطن العربي.. في وقت تزايد فيه الخطر اليهودي في فلسطين، وقد بدا حينئذ أن القضية الطائفية التي كانت قد أضرمت في سبيلها إلى الانتهاء، وكثرت الكتابات للتنبه إلى مؤتمر المبشرين الذي عقد في بيت المقدس، وتنشر مجلة (الرابطة الشرقية) حينئذ بيانات إلى العالم الإسلامي من المدافعين عن القضية البربرية في المغرب الأقصى في الوقت الذي تعلو فيه نبرة شوقي في رثاء عبد العزيز جاويش وعمر المختار.

([533]) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية ص ١٤٧- ١٥٨.

ومن هنا، تبلور في عقد الثلاثينيات وعي خاص يمكن أن نميز فيه بسهولة هذا الاتجاه إلى الإسلاميات، يكتب فيه ويصاغ أفكار إسلامية حتى لتصل إلى ستة أعمال هامة منها أجزاء طه حسين الإسلامية.

وهنا نصل إلى موقف طه حسين فنجد الكثير من الآراء التي تتباين في تفسير موقفه في السياق العام لاتجاه الظاهرة.

فلنشر إلى بعض هذه الآراء قبل أن ننتهي إلى أكثرها ترجيحًا في فهم موقف طه حسين.

فبينما يرى البعض أنه على غرار ما قام به الوطنيون الألمان في القرن التاسع عشر وهم يحاولون إحياء التاريخ الألماني القديم بهدف رفع معنويات الأمة الألمانية وإحياء ذكرى الأمجاد الماضية.. حاول طه حسين إحياء أمجاد الماضي، أي استعمال التاريخ استعمالاً سياسيًا، فإحياء الأدب القديم في كتابه (على هامش السيرة) يدفع الناس إلى قراءته أولاً، وإنعاش صورته في أذهانهم لبعثه ثانيًا، ومن هنا، يلقن الشباب خاصة درسًا سياسيًا هامًا.

ويقترب مارسيل كولمب من هذا الرأي ويتبناه حين يؤكد أن السبب يعود إلى أن طه حسين من بين دعاة التجديد شعر بأن عليه أن يقدم ((براهين جديدة على إخلاصه لعقيدته خاصة وقد اتهم في هذه العقيدة من قبل))[٥٣٤]، ويبدو أن طه حسين راح يلغو في هذا الموقف إلى درجة أن وصفه كاتب آخر - سميث- بأنه ارتد صراحة إلى الفكر الفلسفي، وبأنه دعا إلى التفكير المحافظ الذي ينتمي إلى الزمن الغابر، وهو السبب الوحيد لديه الذي دفع بطه حسين إلى هذا الموقف[٥٣٥].

وهنا، يفسر الموقف الجديد الذي أصبح فيه طه حسين من وجهة نظر كتابه، أنه راح يتنكر، كما اعتنق بسرعة، الأفكار الليبرالية، بل ويصل الأمر بهم إلى أن يروا في العشرينيات بأنها مرحلة تقدم تتميز بأسباب الوطنية والليبرالية والفكر الحر، ويؤيدها ويمثلها أناس يدافعون عن الثقافة الأوروبية ويعودوا في الوقت نفسه إلى الماضي الفرعوني كجزء من التراث المصري، كما تميزت الثلاثينيات، على، أنها، مرحلة تحول أطلق عليها مصطلح The Crisis of orientation ففي المرحلة الأخيرة رفضت الأفكار السابقة لتحل محلها نظريات إسلامية.

---

(534) مارسيل كولمب، ص ١٧٩.

(535) Smith, c.p.393.

غير أن سميث الذي يهاجم سلفه على هذا الخلط[٥٣٦] يرى أن طه حسين لم ينتبه إلى هذا الفصل أو تكريس الانشطار فيه، وهو ما أخطأ فيه ناديف سفران المؤرخ اليهودي الذي لم يستطع فهم هذا التداخل كما حاول تحليله، إذ يمكن لمن يدقق في هذه الفترة أن يرى بعض الفرعونية تتسلل في فترة الثلاثينيات، ليلحظ، أنه كما توجد الفكرة الليبرالية كذلك توجد الفكرة الإسلامية، وذلك يعد وضعًا طبيعيًا ينفي التراجع أو الارتداد ويضفي على التفسير العام سمة التطور والنضج.

وقد لاحظ هذا معاصر آخر له، إذ رأى في كتاباته الإسلامية موازنة بين (مرونته العلمية الشخصية والتصلب الذي تتصف به الأغلبية من الجماهير التي ترفض محاولات التجديد ممثلة في هذه الأساطير الميثولوجية حين يتناول فيها الأحداث الخاصة بالنبي ووحيه))[٥٣٧].

غير أن ألبرت حواني فسر هذا كله تفسيرًا موافقًا لطريقة طه حسين في كتاباته الإسلامية، فهذه الكتابات لن تعدو أن تكون ((محاولة لسرد قصة الإسلام سردًا جديدًا، بطريقة تستهوي الوجدان المصري الحديث، فهو يصور لنا النبي صلى الله عليه وسلم بطلاً بالمعنى الحديث، وعثمان رمزًا للضعف البشري، وعليًّا نموذجًا للحاكم المسلم المنصف، كما يصف لنا تاريخ الأمة في عهدها الأول كصراع الحقيقة والفضيلة ضد العالم، وكمسعى إلى إقامة حكم العدل في الأرض.. وسوف تؤكد كتابات طه حسين حتى الأربعينيات على الأقل، أن نظرته إلى الدين لم تكن، كما يؤكد حوراني، لتزيد عن ((بعث الطمأنينة في النفوس))[٥٣٨].

ويزيد هذا الرأي ثبوتًا عند آخر، أن الناس في عصر إسماعيل صدقي كانوا يحتاجون إلى شيء من الطمأنينة لما كان متفشيًا من إجراءات أوتوقراطية شديدة العنت إلى درجة أن سميث يرى في اتجاه طه حسين إلى الموضوعات المثيولوجية على أنه ((تكتيك رسم لتجنب القمع الرسمي))[٥٣٩].

وهذا الرأي الأخير اتفق فيه معه عفاف لطفي السيد من أن أساليب القمع التي أوجدها إسماعيل صدقي حينئذ خلقت الحاجة إلى معالجة جديدة للسياسات، وقد أحس طه حسين بطش صدقي حينما نقله دون مراعاة

---

(536) Smith, Ibid, p.383.

(537) بشر فارس الذي رأى في محاولة طه حسين (نوعا من اللعبة الخطرة).

(538) حوراني، ص ٣٩٨.

(539) Smith, p. 363.

لمكانته في منصبه الجامعي فمضى في هذا الاتجاه وأوغل فيه أكثر(٥٤٠).

ومهما يكن من أثر التفسير السياسي أو محاولة خلق (أيديولوجية) وطنية من جانب رواد الثلاثينيات من الليبراليين أو إرجاع الظاهرة إلى انكسار العقلانية وما إلى ذلك، فإن التفسيرات السابقة تغفل الكثير بالنسبة إلى رواد هذا الجيل وفترات التحول التي وجدوا فيها، إذ يؤكد البعض هذا التطور الذي يمر به تفكيره واهتماماته الثقافية، وخاصة موقفه من التراث الغربي وشعوره وأبناء جيله بضرورة الحاجة إلى مسألة مراجعة تدفع به إلى الوصول إلى الإسلاميات والبحث فيها، بوعي شديد، عن القيم التي يبحث عنها، وهو ما يمكن أن نفسر به موقف طه حسين في بعض نواحيه من هذه الحيرة التي مرت بجيله من إجراء تغيرات وتحولات مر بها أولئك.

وثمة وجه آخر يزيد معرفتنا بموقف طه حسين.. إذ كانت البيئة التي كتب فيها تمثل فراغًا ماديًا وذهنيًا أراد طه حسين أن يملأه ويشغله، إذ كانت هذه هي الفترة الأولى لإحالته إلى التقاعد، وقد أكد سكرتيره- فريد شحاتة- أنه- ((عندما بدأ ينشر أصول هذا الكتاب- على هامش السيرة-، ما كان يظن أنه سيحقق هذا القبول عند القراء، لكن الكتاب قد حققه، وبدأ طه حسين يشعر باغتباط وسرور مادي عوضًا عما ألم به بسبب التقاعد)).

وهذا وإن لم يرسم بداية لتفسير الظاهرة، فهو يمثل مؤشرًا هامًا لامتدادها، وأيضًا، لتطورها.

وهنا نكون قد أتينا على بعض الآراء التي يمكن أن تفسر ظاهرة الإسلاميات في فكر طه حسين، وبقي أن نحاول تفسير الظاهرة من جانبنا.

نعتقد أن طه حسين لم يرتد عن الليبرالية في الثلاثينيات، وإنما امتدت هذه الموجه إلى الأربعينيات وبعدها، فعلى الرغم من أنه أخرج في الثلاثينيات كتابات وكتبًا كثيرة، فإنه لا يشتم منها، قط، التراجع في انتمائه الليبرالي، وأقصى ما يمكن أن يقال أن هذه الفترة كانت بمثابة مراجعة هادئة أدت إليها الأحداث السياسية والفكرية وزادتها الظروف الشخصية له، فمضت الإسلاميات في خط توازٍ مع الخط الليبرالي ولم تسبقها قط.

ومما يؤكد على ثبات الخط الليبرالي وامتداده أن طه حسين يكاد يكون هو الكاتب الوحيد في نهاية العقد الذي أخرج كتابه (مستقبل الثقافة في مصر)، عام ١٩٣٨ وهو يعد أعلى موجه ليبرالية تصل إلى ذروتها في هذا التيار في حينها.

---

(540) عفاف لطفي، ص ٣٤٣.

واعتقادنا مبني على عدة تفسيرات لعل من أهمها، أنه، لا يمكن، بأية حال، إغفال التطور الفكري الذي مر به رواد هذا الجيل، من أبرزهم طه حسين، ففي الفترة الأولى بعد عودته من البعثة غلبت عليه سمة العقلانية العلمية، بينما قل غلواؤها في عقد الثلاثينيات.

لقد كان في البداية مؤمنًا أشد درجات الإيمان بقيمة العقل، وهو يفسر تقدم الغرب عن الشرق بسبب هام يراه في أن ((الشرق يذهب مذهبًا دينيًا قانعًا في فهم الطبيعة وتفسيرها.. في وقت يرى فيه اليونان تفوقوا على الأمم الشرقية المتحضرة في أمرين: أولهما العقل اليوناني الذي سلك في فهم الطبيعة وتفسيرها هذا المسلك الفلسفي الذي نشأت عنه الفلسفة اليونانية ثم الأوروبية الحديثة))(٥٤١)، وهو ما ينم على أن إحساسه بالعقلانية العلمانية وحدها كفيل بترقية الشرق العربي الحديث.

فلنترو أكثر عند منحنيات هذا الموقف..

وهذا الموقف الحاد يتبدى أكثر ما يتبدى منذ البداية في كتابه (في الشعر الجاهلي)، حيث أكد فيه على أن العلم يناقض الدين، بما يعني أن لكل من العلم والدين معياره الذي لا ينبغي أن يرى الواحد بالآخر فأكد على ذلك بقوله ((للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها))(٥٤٢)، وهذا يفسر أنه حين وقف ليحاكم لم يستطع أن يقلل من العلم وإنما راح يفرق بينه وبين الدين تفريقًا يظهر من عبارته التي جاء فيها أنه ((كمسلم لا يرتاب في وجود إبراهيم وإسماعيل وما يتصل بهما مما جاء في القرآن، ولكنه كعالم مضطر إلى أن يذعن لمناهج البحث فلا يسلم بالوجود العلمي كتاريخي إبراهيم وإسماعيل(٥٤٣).

وما كادت تمضي الثلاثينيات حتى كان موقفه دافعًا للكثيرين إلى التشكيك فيه، فهو حين اعترف من قبل بقيمة العقل وردد انتصار العلم إلى حد اليقين، عاد هنا إلى كتابة الميثولوجيا مبحرًا في التفسيرات الإسلامية الخالصة معترضًا على ما قد يضيق بما في الكتاب من أخبار وأحاديث، وقد راح يوضح موقفه صراحة في تقدمة كتاب (على هامش السيرة)، فرأى أن

---

(541) سابايارد، ص ٤٣١، قادة الفكر ص ٧- ١٦.

(542) في الشعر الجاهلي، ص ٢٦.

(543) قرار النيابة في كتاب الشعر الجاهلي.

هناك من نصبوا أنفسهم لحرب هذه الأخبار وتلك الأحاديث كما أوردها لمحوها من النفوس، وقد جاء رأيه في هذه القضية قائلاً: ((أحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء، وأن للناس ملكات أخرى أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل، ولم يرضها المنطق، ولم تستقم بها أساليب التفكير العلمي، فإن في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها، ما يحبب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها ويدفعهم إلى أن يتلمسوا عندها الترفيه عن النفس حين تشق عليهم الحياة، وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يقرها العلم وتستقيم بها مناهج البحث.

ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير، صارفة عن بواعث الشر، معينة على إنفاق الوقت واحتمال أثقال الحياة))[٥٤٤].

وقد راح يردد هذه النغمة كثيرًا في كتاباته المتفرقة في عقد الثلاثينيات، فهو يستحسن ((الإحسان كله إذا رفعنا الدين ونصوصه عن اضطراب العلم وتناقضه))[٥٤٥]، ويضيف ما سبق أن أوضحه أكثر من مرة من أن ((الخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن العلم والدين لا يتصلان بملكة واحدة من ملكات الإنسان، وإنما يتصل أحدهما بالشعور ويتصل الآخر بالعقل))[٥٤٦]، ومن هنا، استطاع أكثر من غيره التفرقة بين العالمين اللذين كانا يصطرعان في داخلة حينئذ، وهو ما ظهر في توفيقه بين بعض القضايا التي تلح عليه مثل إيمانه بحرية الفرد وبالسلطة الإلهية بواسطة الفلسفة الروحية الشرقية[٥٤٧].

إذن، فقد منحه التطور الفكري رؤية أشمل لدور الدين الذي لا يمكن تجاهله ودور العلم الذي لا يمكن تجاهله قط، فرأى أن لكل منهما حاله الذي يمضي فيه، إذ كان الدين في هذا الوقت يلعب دورًا لا يستهان به قط في الوجدان المصري.

وثمة تفسير آخر يؤكد على أن طه حسين لم يغفل الليبرالية، وهو أنه مع إغراقه في الكتابة الميثولوجية لم يتوقف منذ أزمة كتاب (في الشعر

([544]) على هامش السيرة، ج١ ص ك.
([545]) السياسة ١٩٣٣/٤/٢٧.
([546]) من بعيد ص ٢٢٧.
([547]) سابايارد ص ٤٤٤.

الجاهلي) عن ترديد الفكرة الليبرالية من آن لآخر، فهو لا يتوقف عن ذكر حقيقة وجوب إخضاع الحقيقة الدينية للبحث والنقاش، وأن تقف ((السياسة من رجال العلم ورجال الدين موقف الحيدة التامة))[548].

ويؤكد هذا أن طه حسين سواء قبل الإسلاميات أو بعدها لم يتوقف قط عن مهاجمة رجال الدين واتهامهم بالجمود وحمله حملة شعواء عليهم لأنهم يمنعون كل اجتهاد ولا يسعون إليه، وقد وصف الشيخ وصفًا يحمل فلسفته المميزة فقد قال: ((الشيخ يرسل الكلام إرسالاً في غير تحفظ ولا احتياط، لا لشيء إلا لأنه لم يتعلم كما يتعلم الناس وإنما عاش وما زال يعيش في القرون الوسطى، والناس يحيون في العصر الحديث))[549].

وقد ظل يهاجم رجال الدين طيلة حياته منطلقًا في هجومه من هذه النظرة التي تربط بالفكرة الليبرالية ومفكريها.

كما أن تتابع صدور كتبه والدلالات التي تحتويها تؤكد بقاء هذا الخط.. في كتابه (حافظ وشوقي)، وقد نشرت بعض أجزائه في صحيفة ((السياسة الأسبوعية)) في بداية الثلاثينيات، لا يمكن تفسير موقفه الحاد فيه من كتاباته عن شوقي إلا من خلال فكرة الصراع بين القديم والجديد، ليس مهاجمة الفكرة الإسلامية في هذا الوقت، فهو حين يجلس إلى الجماعة ليستمع إلى القصيدة التي يهنئ فيها مصطفى أتاتورك بالنصر الإسلامي يشغف بالقصيدة مثنيًا على صاحبها، حتى إذا ما خلا إلى نفسه كما يقول ((يتخذ رأيًا آخر... فإعجابنا الأول لم يكن إلا ظاهرة اجتماعية، وإن بين الذوق العام وذوقنا الخاص تناقضًا غير قليل هذه المرة، ذلك لأننا كنا أثناء هذه القراءة الثانية قد تخلصنا من فوز الترك، وتخلصنا من الجماعة التي كانت تحيط بنا، ولم نحكم إلا ذوقنا الشخصي))[550].

كما أنه في كتابه الآخر (على هامش السيرة)، يدرك تمامًا أن هناك قومًا سيضيقون بهذا الكتاب لأنهم -على حد قوله- محدثون يكبرون العقل، ولا يثقون إلا فيه.. فإن العقل ليس كل شيء، وهو ما يعني لديه أن العقل إذا اتهم بالقصور فلأنه لم تتح له فرصة للوصول إلى مناطق قد يصل إليها

---

(548) من بعيد، ص ٢٤٣- ٢٤٤، أيضا: نقد وإصلاح ص ٢٤٠.

(549) نقد وإصلاح ص ٢٥٥، وقد جاء قريبا من هذا في كتابه (مستقبل الثقافة...) ص ٣٥٢، حين قال :((الشر كل الشر أن يتحدث رجل الدين إلى الناس فلا يفهمون عنه لأنه قديم وهم محدثون وأن يتحدث الناس إلى رجل الدين فلا يفهم عنهم لأنهم محدثون وهو قديم))، أيضا: الجمهور ١٠، ١٠/١٧- ٢، ١٩٥٥/١١/٢٧.

(550) حافظ وشوقي ص ٣٦، وقد نشر الجزء الأخير منه في ١٠/٩/ ١٩٣٢.

الغير (أو الشعور)، وهذا ما يعني أنه لا يوجد مرحلتان - محافظة ومستنيرة- تتداخلان كما يزعم سفران فيما قبل، وإنما لوجود عالمين مختلفين في ذات الوقت[٥٥١]، في فكر طه حسين الذي أصبح ذوقه كما يصفه ((فيه أثر الأدب القديم، وفيه أثر الأدب الغربي الحديث))، وهو ما يترجم لنا من جديد طبيعة هذا الصراع بين القديم والجديد، السلفي والليبرالي.

أما الكتابان الآخران اللذان صدرا في منتصف العقد فإن ما فيهما يؤكد على اطراد طه حسين في طريق الوعي والنضج العربي، إن (أديب) تصوير لحالة المثقف الأعزل أمام السلطة الطاغية، والكتاب في جوهره الحقيقي يصور هذا الصراع الفكري بين الشرقية والغربية التي انتهى فيها بالانتصار للفكرة الغربية التي لم توجد في أعماق صاحبها، الشرقي، أدنى مقاومة لافتقادها إلى الفكرة الإسلامية بكل ما فيها من أصالة وصمود، فالصراع هذه المرة في ظاهره بين الفكرتين، وفي باطنه بين القديم والجديد، وإذا كان الجديد قد انتصر، فلأن القديم لم يستطع أن يتحصن بذاته كما ينبغي، وهو يدل في النهاية على انتصار قيمة العقل وغلبتها عما سواها.

وكما أن الخوف من الطغيان في (أديب) لم يرتد به عن الليبرالية كذلك، فإن الخوف في كتابه الآخر (من بعيد) لم يرتد به عن الليبرالية كرمز للفكر الجديد، وإنما كانت كل كتاباته في هذا الوقت تأكيدًا لغلبة صراع الطغيان ضد قيم الحرية والديمقراطية التي كانت من أظهر قيم الفكر العلماني فيما سبق، وهو ما نستطيع أن نستشمه من مقدمة هذا الكتاب الذي جاء فيه ((نحس بالتحسر على تلك العهود التي كنا فيها نفكر ونقول كما نريد أن نفكر ونقول، كنا نلقي ألوانًا من المقاومة فلا تزيدنا إلا طموحًا إلى الحرية وإمعانًا فيها، وكنا ننظر إلى الجهاد في سبيل الرأي، وحرية الرأي، على أنه حاجة من حاجات الحياة وضرورة من ضرورات الوجود الحر، فأين نحن من هذا الوجود))[٥٥٢].

فإذا جاوزنا أعماله الأدبية في هذا الوقت، وكلها تعالج قضايا أدبية

([551]) علي الدين هلال، التجديد في الفكر السياسي المصري ص ٤٣، أيضا انظر: I.I.Ibrahim, The Egyptian intellectuals- p. 19- 120.

([552]) من بعيد، ص ٥، ٦. Safrain, p. 141- 164, 209- 228.

لابد من إعادة النظر في أبحاث سفران عن العالم العربي خاصة بعدما تأكد أن أبحاث هذا المؤرخ اليهودي ممولة من وكالة المخابرات المركزية.

وفكرية[٥٥٣].. فإن كتابه إلهام (مستقبل الثقافة في مصر) إنما يمثل قمة الموجة الليبرالية، فعلى الرغم من أن الكتاب ينحو منحى الغرب في مسألة التعليم، فإنه يقدم قضية الحضارة برمتها، فبعد أن ينفي وجود أي فرق جوهري بين العقل الأوروبي والعقل المصري[٥٥٤]، فإنه يعود ليوضح العلاقة بيننا وبين أوروبا بعد معاهدة ٣٦ على أننا التزمنا بها أمام أوروبا -كما يرى- أن)) نذهب مذهبها في الحكم ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع، التزمنا هذا كله أمام أوروبا، وهل كان من إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزامًا صريحًا قاطعًا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع، والتزمنا هذا كله أمام أوروبا.. فلو هممنا الآن أن نعود أدراجنا وأن نحيي النظم العتيقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً))[٥٥٥].

وفي القول بضرورة أن نسير سيرة الأوروبيين في كل شيء لم يحاول أن يبحث عن جذور مصرية متميزة أو مختلفة عن الحضارة الغربية وإنما راح يؤكد تأثر العقل المصري في عصوره الأولى بالعقل الذي ينتمي إلى شعوب البحر الأبيض المتوسط محاولاً التدليل عليه.

كما لا تشير آخر أعماله في هذه الفترة (مع أبي العلاء في سجنه) ٣٥ إلى غلبة الاتجاه الوجداني الإسلامي المجرد، كما يعتقد، فعلى الرغم من أن طه حسين يقر في هذا العمل أن ((العقل مهما يكن جوهره ومهما تكن طبيعته إنساني؛ أي محدود، محدود الطاقة محدود المعرفة كغيره من ملكات الإنسان..))[٥٥٦] فإن هذا في حقيقته لون من ألوان الصراع بين القديم والجديد، القديم كما يراه أبي العلاء في العزلة التي أفضت به إلى الالتزام بالعقل الذي انتهى به إلى العزلة عن تذوق الحياة، والجديد، كما يراه طه حسين، متمثلاً في رفض العزلة، ومن هنا رفض التشاؤم، فقد راح يصوره على أنه لا مصدر له في حقيقة الأمر إلا العجز عن ذوق الحياة، والقصور

([553]) أخرج طه حسين عديدا من الكتب منها: من حديث الشعر والنثر عام ٣٥، القصر المسحور ٣٦، مع المتنبي ٣٦، الحب الضائع ٣٦/ ٣٨.. ويمكن أن نجد في ((القصر المسحور)) خاصة ما يمكن أن يشي بحالة من التراجع السياسي -لا الفكري- حتى يتكلم فيقول لشهرزاد (إني الآن عميد مسئول.. ولا شأن بالكلام في الأديان والآلهة وحسبي ما حدث لي قديما)) ص ١٢٠.

([554]) مستقبل الثقافة، ص ٣٠.

([555]) مع أبي العلاء، ص ٨٤.

([556]) السابق ص ١٣.

عن الشعور بما يمكن أن يكون فيها من جمال وبهجة(٥٥٧) وهو ما يعني في نهاية الأمر أن محنة أبي العلاء دفعت به إلى عدم المشاركة في الحياة الاجتماعية دعك من فهم قوانينها.

وإذن، يمكن الجزم بأن طه حسين لم يتراجع عن الفكرة الليبرالية وإن تميز موقفه بالتطور مع واقعه ومراجعة مفرداته على ضوء التطورات الجديدة.

لم يكن ظهور القومية في الغرب منفصلاً عن ظهور الليبرالية بل كانت مقترنة بها ماضية معها، ومن هنا، فإن تبلور الفكرة القومية في بداية القرن العشرين في مصر تواكب مع التيار الليبرالي الذي بدأ وتطور في نهاية القرن الماضي وحفر له مجرى عريضًا في بدايات هذا القرن مع أهم ممثليه طه حسين.

وعلى هذا النحو، لا تبدأ الدولة العصرية دون أن تنطلق من إيثار الطابع القومي والحرص عليه، وهنا لا يمكن أن نشير إلى طه حسين وموقفه من التأثير القومي قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة دون أن نمر بأسماء عديدة من رواد الإصلاح في مصر، من علي يوسف إلى عبد الله النديم إلى محمد فريد وجدي إلى أمين الرافعي وغيرهم(٥٥٨) حتى نصل إلى لطفي السيد الذي صاغ نظريته في القومية المصرية في صحيفة الجريدة الخاصة وقد شايعه طه حسين.

وقد كان يمكن أن نرصد لطه حسين موقفًا يعكس مشايعته للحزب الوطني في ميله للاتجاه الإسلامي فترة طويلة لولا أنه تحول بسرعة بعد انهيار الحزب الوطني ورحيل ممثليه خارج مصر إلى لطفي السيد، ومن هنا، تحول معه من جيل إسلامي إلى جيل تولى مع أقطاب حزب الأمة وممثليه.

ومهما يكن، فإنه لا يمكن أن نحاول رصد موقف طه حسين من

([557]) وراح يضرب طه حسين الأمثلة لقصور فهم أبي العلاء الذي (ذهب إلى تصوير عجز العقل عن فهم الحوادث التي تعرض للناس وتعليلها وتحليلها من جهة، وإلى إثبات أن هذه الحوادث التي لا تعلل ولا تحلل ولا تؤول تنتج في حياة الناس أشياء يراها العقل ظلما وجورا فينكرها وينبو عنها..) ص ١٨٢ وفي موضع آخر يقول (ينتهي به العقل إلى أن الجور واقع لا شك فيه، وإلى أن العدل أمل لا سبيل إليه، وإلى أن اليأس المريح على ما يشير من الآلام الممضة خير من الجهاد الذي لا يغني والمغامرة التي لا تجدي) ص ١٨ب٦.
وقد ردد طه حسين هذه النبرة في كثير من أعماله الأخرى حين ذكر أبي العلاء وتشاؤميته، انظر على سبيل المثال: ألوان ص ٢٢٧.

([558]) انظر شرحا وافيا لتطور القومية في مصر في كتاب فاروق أبو زيد ص ٦٣ وما بعده.

الشخصية المصرية دون أن نربط بينه وبين فكر لطفي السيد خاصة لعمق الصلة بينهما وتوثيقها.. فقد ركز لطفي السيد على الأرض ووحدة المصالح الاقتصادية تركيزًا كبيرًا في وقت استبعد فيه عامل اللغة والدين، والدين عنده خاصة لا يمكن أن يسحب من مقومات الوطنية ذلك لأن ((دار الإسلام ليست لمسلم بوطنه.. فوحدة الاعتقاد الديني ليست كافية لإقامة وحدة التضامن الوطني وخاصة إذا ضيعت فيها الحقوق وعطلت الحدود..))[٥٥٩]
وسار طه حسين على نهجه، فهو يرفض أن يكون الدين أو اللغة عنصرًا من عناصر القومية، يقول: ((إن الدين بعد أن ينزل به الوحي من السماء ويودعه نفوس الناس عن طريق الأنبياء والمبشرين - صلوات الله عليهم أجمعين- لا يكاد ينتقل من وطن إلى وطن، ومن بيئة إلى بيئة حتى يأخذ شكلاً خاصًا وصفة معينة هي بتلك البيئة أشبه، ولا تكاد تمر القرون حتى لا يبقى بينه وبين التشابه في أوطانه المختلفة إلا إنه نشأ من أصل واحد، أي لا يبقى بينه من التشابه إلا ما بين أمم الإنسان المختلفة من التشابه الفطري ووحدة النوع فمن هنا ظهر أن الدين على ما فيه من إصلاح للناس وإقامة لحضارتهم وعمرانهم لا يمكن أن يكون جامعة منضبطة للحياة الدنيوية الصالحة))[٥٦٠].

ولا يتغير هذا الرأي كثيرًا حتى يرحل إلى أوروبا ويعود منها، إذ يطالعنا مفهوم القومية كما عرفه عند لطفي السيد مضيقًا إليه كثيرًا من خطوط الليبرالية وسماتها، فهو في حين يرفض أن تكون اللغة والدين من مقومات القومية يراها - أي القومية- تقوم على عناصر بعينها ويحددها، فيقول أنها ((المنافع الاقتصادية والوحدات الجغرافية .. وعلى ألوان أخرى من المنافع تختلف قوة وضعفًا باختلاف الأقاليم والشعوب))[٥٦١].

وإذن، يتفق طه حسين من جانب كبير من فكره مع لطفي السيد، وإن كان يختلف معه في النظر إلى قيمة عامل الوحدة الجغرافية وما يطلق عليه (الأرض المشتركة) وهو ما يختلف قوة وضعفًا باختلاف الأقاليم والشعوب.

وإذن يتفق طه حسين من جانب كبير من فكره مع لطفي السيد وإن كان يختلف معه في النظر إلى قيمة عامل الوحدة الجغرافية أو ما يطلق عليه (الأرض المشتركة) وهو فهم مستقي في الأساس الأول من الفكر الليبرالي وقد بلغ إلى أقصاه في (مستقبل الثقافة..) إذ راح يردد في نهاية

---

(559) الجريدة ١٠ مارس ١٩٠٧ أيضا: ١١ مارس ١٩٠٧، ١٩١٣/١/١٦.
(560) الجريدة ١١ مارس ١٩١٣.
(561) السياسة ٣١/ ١٢/ ٢٣.

الثلاثينيات ما سبق أن ردده حين قال أن ((تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية ولا لتكوين الدول.. وأن نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية))[562]، وقد كانت المنافع العملية، دون شك هي العنصر الرئيس الذي فسر به قيام القومية المصرية وتطورها عبر التاريخ المصري القديم الذي يحدثنا كما يرى هو بأن ((مصر كانت في تلك العصور قوة أساسية من قوى التوازن السياسي والاقتصادي لا بالقياس إلى هذه البلاد وحدها بل القياس إلى بلاد أخرى كانت مهدًا لهذه الحضارة الأوروبية التي تريد أن نعرف ما يمكن أن يكون بينها وبيننا من صلة))[563].

ويربط طه حسين ربطًا وثيقًا بين القومية وبين (الاستقلال) فنحن نعيش في عصر من أخص ما يوصف به أن الحرية والاستقلال فيه ليسا غاية تقصد إليها الشعوب وتسعى إليها الأمم وإنما هي وسيلة إلى أغراض أرقى منها وأبقى))[564].

وقد تميزت القومية عند طه حسين باقترانها (بالمصرية) التي تعود بجذورها إلى مصر القديمة متوخيًا في العود إلى الوراء إلى تلمس هوية متصلة لا منفصلة، فمصر القديمة إنما هي كما يعرفها ((قد اتصلت بالعقل اليوناني اتصال تعاون وتوافق، وتبادل مستمر في الفن، والسياسة والاقتصاد))[565].

وهنا يصل إلى هدفه من أن مصر الحديثة إنما هي جزء من أوروبا ثقافيًا وهو ما يفهم من قوله ((أنا لا أريد بالطبع الشرق الجغرافي والغرب الجغرافي، وإنما أريد الشرق الثقافي والغرب الثقافي))[566]، وهو ما يعني تخليًا عن الهوية الشرقية بما لا يختلف مع فكره الأساسي الذي ينكر أن مصر بلد شرقي وإنما هي جزء من أوروبا في كل ألوان الحياة.

وعلى هذا النحو كان من الطبيعي أن يختلف مع اتجاه الجامعة الإسلامية في الفترة التي شهدت تطور الليبرالية إلى درجة أنه حين كانت تثار قضية الخلافة كان يؤكد أنه يجب أن تتحول الخلافة إلى منصب ديني

---

(562) مستقبل الثقافة ص ١٩/ ٢٠ وهو ما يدفع طه حسين إلى مهاجمة رجال الأزهر ممن لا يفهمون القومية والوطنية بمعناها الغربي، انظر سابايارد ٢٣.

(563) مستقبل الثقافة ١٥ وهو ما يردده في كثير من أعماله الأخرى منها العدوان ثلاثي.

(564) مستقبل الثقافة ص ٩، وأيضا: الجريدة ١١ مارس ٣١.

(565) السابق ص ١٦.

(566) السابق ص ١٣.

فقط، واشترط أنه في حالة الفصل بين السلطتين في تركيا - وقد كان النقاش على أشده- يجب اختيار الخلافة بالانتخاب بين أية جنسية.

وهنا يمكن فهم القومية المصرية عند طه حسين بأنها تحتوي المنافع الاقتصادية والتاريخ، ولا تغفل الاستقلال والثقافة، وتستبعد اللغة والدين وهي العناصر التي يمكن على ضوئها فهمه للقومية العربية وتحديد دوره فيها.

ثمة ملاحظات أولية لابد منها لفهم موقف طه حسين من القومية العربية.. منها أن فكره هنا لم يكن نابعًا من فراغ، فإلى جانب أن إسلامياته في الثلاثينيات دفعت أكثر من ذي قبل إلى الاحتفاء بالعربية والحرص على تأكيد أهميتها[٥٦٧] فإن حزب الوفد الذي أضحى مفكرًا من مفكريه كان قد اهتم في الوقت نفسه بالدعوة العربية رغم أن العربية لم تكن يومًا تشكل فكرًا أو عقيدة في أيديولوجية الوفد، وكان طه حسين في هذا قد عرف شيئًا من الانتماء الشرقي حين كان منتميًا إلى حزب الأحرار إذ اعتقدت قيادات هذا الحزب في العشرينيات، أن التيار القومي العربي جزء من تيار شرقي وأن البلاد العربية يمكن أن ترتبط مع مصر برباط الشرقية في إطار دولة شرقية كبرى، فانضم عدد من قيادات الحزب إلى (الرابطة الشرقية) وانخرطوا في الكتابة لها وكان يروج لها حينئذ طه حسين أحد من كتب في صحيفة الرابطة فيما بعد (عام ٣١) ونشر اتجاهاته العلمية على صفحاتها، وكانت الرابطة بمثابة البديل لهم عن الجامعة الإسلامية، والقوة التي يمكن أن تقف في وجه العرب مستقبلاً.

كما أن عامل الدين -كما رأينا- لم يكن ضمن العوامل التي تشكل القومية المصرية فقد مضى هذا الوقت الذي كانت تتحكم فيه الفكرة الميتافيزيقية التي كانت تقوم عليها الحكومة وهو هنا يتساءل ((أين هي الحكومة التي تستطيع أن تزعم أنها تقوم على الدين أو أنها تقوم لحماية الدين..))[٥٦٨].

كما أن اللغة العربية لا يشدد عليها كأساس لبناء الحياة الوطنية السليمة.

ويمكن أن نشدد على ملحوظة أخرى مؤداها أن الشعور القومي عنده

([567]) يلحظ أن طه حسين تحول باهتمامه في الثلاثينيات بالإسلاميات بما يتوازى مع معركة حول القومية العربية وتحديد موقفه منها، ويلتقي مع هذا أن مارسيل كولمب يرى أن هذا الشعور الإسلامي تحول إلى عقيدة أكيدة وعميقة حين لاحت بشائر العربية.

([568]) من بعيد ص ٢٣٠، أيضا: مستقبل الثقافة ص ١٩/ ٢٠.

لم يعرف غير مصر، في وقت حرص فيه دائمًا على عدم اعتبار مصر جزءًا من الشرق.. وإنما اعتبرها جزءًا من أوروبا وإن حاول أن يبين بالقرائن التاريخية أنه لم يكن بين مصر وجاراتها الأخريات في الشرق القريب أو البعيد أية صلات مستمرة أو منظمة من شأنها أن تؤثر في تفكيرها أو سياستها وفي نظمها الاقتصادية، ومن هنا، حاول مرة أخرى، أن يثبت دائمًا أن القضية المصرية تنتمي إلى العقل الأوروبي أكثر من انتمائها إلى العقل الشرقي، وهو حين يتحدث دائمًا عن الشرق الثقافي والغرب الثقافي فهو يخرج الجغرافيا من مجال تصوره إلى درجة أن يتخلى عن الهوية الشرقية التي تميزه عن الغرب ليتقمص الهوية الأوروبية وهو ما خرج بمصر كلية إلى العالم الغربي.

ويمكن أن يضاف إلى هذا كله ملحوظة أخرى تتلخص في أن الانتماء الغربي لم يحل بينه وبين الاعتراف بالرافد الغربي في الشخصية المصرية، فهو حين يهاجم أصحاب النزعة الفرعونية الذين أنكروا العصر العربي في تاريخ مصر وحضارتها يؤكد على أن عناصر الروح المصري ثلاثة أحدها هو ((العنصر العربي الذي يأتينا من اللغة ومن الدين ومن الحضارة.. وقد امتزج بهذه الحياة (المصرية) امتزاجًا مكونًا لها مقومًا لشخصيتها)) وقد تكرر هذا الدفاع عن العرب في أكثر من موضع[٥٦٩].

وقد دفع هذا البعض إلى أن يرى في موقف طه حسين من القومية العربية تناقضًا حادًا، وهو يناقض ما ذهب إليه من أن الثقافة المصرية الأوروبية واحدة لأن الحضارة اليونانية الرومانية عنصر من العناصر المكونة للعقل المصري والأوروبي على السواء.

وباختصار شديد، فإن اتجاه طه حسين إلى الفكرة العربية لم يجاوز بأية حال الثقافة واللغة وحسب، وهو ما سنراه خلال معاركه في القومية العربية مع الطرف الآخر.

فلنخرج من العرض النظري إلى الواقع الحي..

كانت أول المعارف حول العروبة بمفهومها السياسي في عام ١٩٣٣، فعلى أثر إحدى مقالاته إلى صحيفة كوكب الشرق التي ردد فيها أن المصريين قد خضعوا لضروب من البغض وألوان من العدوان جاءتهم من شعوب شتى من بينهم العرب، وحينئذ، هبت عليه عاصفة عاتية لم يقف

([569]) رد على توفيق الحكيم في عدد (الرسالة) ٣٣/٦/١٥ حين هاجم هذا الأخير العرب فقرن بين رأيه ورأي المستشرقين، قال ((وأحسبكم جميعا تظلمون العرب ظلما شديدا، وتقفون في أمرهم بغير الحق)).

فيها إلى جانب طه حسين غير ثلاثة أسماء تميزت بانتماءات إقليمية.

وفي هذه المعركة لم يستطع أن يخفي طه حسين رأيه في الخلاف السياسي حول القومية العربية من حيث عناصرها، فأكد أن العربية يدين لها أدبًا وثقافة ونهضة، وهكذا انتهت المعركة بعد قليل دون رد فعل عنيف من طه حسين.

على المعركة الثانية كانت أشد من سابقتها وأطول زمنًا، فقد بدأت قبل نشر كتابه (مستقبل الثقافة..) عام ٣٨ وانتهت به، وكان الطرف الآخر أمامه ساطع الحصري، وفي هذه المعركة بدا رأي طه حسين واضحًا في القومية العربية أكثر من ذي قبل، وقد جاءت الفرصة إليه ليسجل رأيه بصراحة شديدة حين سألته إحدى المجلات عن موقفه فقال:

((إن كنت تقصد بذلك تضامنًا ثقافيًا بين البلدان العربية فإن مصر مستعدة للدخول فيه، وأنا من أنصاره ودعاته وقد تباحثت مرارًا عديدة مع بعض - الأساتذة السوريين والعراقيين في شكل هذا التضامن ومعناه، وإني أنادي بتوحيد برامج التعليم في جميع الأقطار العربية وتسهيل التبادل الثقافي بينها، وإن كنت تقصد التعاون الاقتصادي فهو ممكن أيضًا ومفيد.

أما إذا كنت ترمي إلى أن مصر مستعدة للمساهمة في الوحدة العربية أو القومية العربية فأنت على خطأ فالمصري قبل كل شيء، وهو لن يتنازل عن (مصريته) مهما تغلبت الظروف.

الوحدة العربية كما يفهمها ذووها يجب أن تتحقق بشكل إمبراطورية جامعة أو اتحاد مشابه للاتحاد الأمريكي أو السويسري، ونحن لا نرضى بهذا أو بذلك.. لا تصدق ما يقوله بعض المصريين من أنهم يعملون للعروبة، فالفرعونية متأصلة في نفوسهم وستبقى كذلك بل يجب أن تبقى وأن تقوى.

فهل تريدون أن تتحقق الوحدة العربية؟

فعلى أي أساس علمي تنادون بها؟

تعالوا معي نستعرض الروابط التي تصل مصر بالأقطار الأخرى فأولها اللغة وثانيها الدين وثالثها أصل السكان ورابعها شكل بعض التقاليد الموروثة من حقبات تاريخية متشابهة.. أما الدين فلا يصلح لأن يتخذ أساسًا، وإلا أصبحت الوحدة المزعومة وحدة إسلامية لا وحدة قومية، وأصبحنا من جهة ندخل فيها شعوبًا غير عربية وكذلك أصل السكان فهو غير كاف لخلق الوحدة القومية العربية، فإن الأكثرية الساحقة من المصريين لا تمت بصلة إلى الدم العربي، بل تتصل مباشرة بالمصريين القدماء.

ولا أخالكم إلا معترضين معي بأن التقاليد العربية المنتشرة في مصر قليلة ضعيفة التأثير، متبعة بنوع خاص بين العشائر المنحدرة من أصل عربي صميم، وعلى كل حال فإن التقاليد مهما كانت متشابهة لقاصرة عن أن تخلق وحدها اتحادًا قوميًا.

فماذا بقى إذن من روابط مصر بجيرانها؟ التاريخ؟ اللغة؟

إن تاريخ مصر مستقل تمام الاستقلال عن أي بلد آخر، ومصر اليوم هي مصر بالأمس، أي مصر الفراعنة، المصري فرعوني، قبل أن يكون عربيًا، ولا تطلبوا من مصر أن تغير فرعونيتها أو أكثر فما تستطيع أن تعطي.

مصر لن تدخل في وحدة عربية ولا اتحاد عربي، سواء كانت مساوية فيه للأمم العربية الأخرى أو مسيطرة عليها، وسواء كانت عاصمة هذه الوحدة أو الاتحاد القاهرة أم دمشق أم بغداد))([570]).

ويضيف طه حسين إلى هذا الفهم للقومية العربية فهمًا آخر، يلخص في أن الصراع يدور حول هذه القضية بين أهل القديم - الداعين للوحدة- وأهل الحديث (يقصد نفسه) الداعين إلى الإقلاع عنها أو التحمس لها([571]).

والملاحظ أن طه حسين في الوقت الذي قال فيه بتوحيد برامج التعليم في الأقطار العربية وتسهيل التبادل الثقافي، واستحسن أن يكون هناك تعاون اقتصادي وحتى تحالف عسكري.. فإنه أعلن رأيه بوضوح تام ولم

([570]) المجلة الجديدة ديسمبر ٣٨.

([571]) الهلال العدد الممتاز ٣٨ يقول تحت عنوان (العقل العربي الحديث:

((ربما كان من الأمثلة الظريفة اللطيفة التي تبين الفرق بين العقل العربي القديم والعقل العربي الحديث في هذا العصر الذي تعين فيه مسألة الوحدة العربية أو الوحدة الإسلامية التي يكثر فيها الكلام وتشتد فيها الخصومة.. فأما أصحاب القديم فيفهمون هذه الوحدة كما فهمها القدماء في ظل سلطان عام شامل يبسط عليها جناحيه ويحوطها بقوته وبأسه، وليس هذا السلطان خلافة، وليس ملكًا له حظ من الطرافة، فقد عرف القدماء الإمبراطوريات واحتفظ بها المحدثون من الأوروبيين، وكذلك يخدع العقل القديم نفسه فيظن أنه أصبح حديثًا، أما أصحاب العقل الحديث فيفهمون هذه الوحدة على نحو ما تفهم عليه في البلاد المتحضرة الحديثة الأوروبية، يفهمونها على أنها لا تنفع ولا تفيد إلا إذا احتفظت بالقوميات والشخصيات الوطنية والحريات الكاملة لأعضائها والسيادة العامة لهم في حياتهم الداخلية والخارجية وقامت على الحلف الذي لا يفني أية أمة في أمة، ولا يخضع شعبا لشعب، وإنما يمكن الأمم من أن تتعاون على أساس ما يكون بين الأنداد من المساواة، فإذا قال صاحب العقل الحديث مقالته هذه ضاق به صاحب العقل القديم أشد الضيق، لأن عقله لم يتطور بعد، ولم يستطع أن يكون من أهل العصر الذي يعيش فيه وإنما هو محتفظ بكل مشخصات القرون الوسطى وهيهات لمشخصات القرون الوسطى أن تسيغ ما يقع في القرن العشرين)).

يحد عنه فيما بعد، فقال: (مصر لن تدخل في وحدة عربية، حتى ولا اتحاد عربي)، فكان واضحًا نفيه التام (لوحدة سياسية) بأية حال[٥٧٢].

وقد امتدت هذه المعركة للعام التالي (٣٩) ولم تفرز غير تأكيد لوجهة نظر طه حسين على تأكيد الوحدة العربية على أساس استقلال وطني، فإن الذي يؤدي إلى الوحدة هو وحدة الثقافة والاقتصاد وحسب[٥٧٣]، ولم ينس طه حسين في دفاعه عن فكرته، والهجوم الذي يصب عليه من كل جانب، أن يشير إلى نفسه، رغم أفكاره المنافية للوحدة العربية، على أنه ظل دائمًا مدافعًا عن العروبة من حيث ما قدم للثقافة العربية من جهد وتطوير.

وقد حاول أن ينقل بعض فصول كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) الذي لم يكن قد نشر بعد إلى الصحف ليرد على ساطع الحصري، وقد راح يردد فيما سبق أن العقل المصري منذ عصوره الأولى تأثر بالبحر المتوسط، وأن ((وحدة الدين، ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية ولا قوامًا لتكوين الدول))، ويفهم من هذا الكتاب أنه حين يشير إلى العرب تاريخًا يرى أنهم من الغزاة الدخلاء وأن مصر ((لم تهدأ ولم تطمئن إلا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة في ظل ابن طولون وفي ظل الدول المختلفة التي قامت بعده)).

وفي وقت يصور فيه الفتح اليوناني للبلاد على أنه مألوف ولا غرابة فيه فقد أصبحت مصر دولة يونانية أو كاليونانية، وهو قول مردود عليه بأن العرب وإن جاءوا بعد اليونان والرومان، وغيرهما، فإنهم لم يمروا مرورًا عابرًا كما جاء من قبلهم، وإنما غيروا في الهوية المصرية والتاريخ والثقافة بما يقضي المقارنة بينهم وبين غيرهم من حيث الغزو أو الفتح، وهذا نفسه لا يتناقض قط مع رأي طه حسين فيما بعد الذي أكد فيه على أن مصر لم تخرج عن عقليتها الأولى وتصبح أمة شرقية رغم أنها اتخذت الإسلام لها دينًا والعربية لها لغة وهو ما يقارن بأوروبا بعد انتشار المسيحية فيها.

وهذا يعني لديه أنه لا فرق بين العقل المصري والأوروبي، وبالتبعية، الأخذ بالحضارة الأوروبية قلبًا وقالبًا.

يستنتج من هذا، أن موقف طه حسين من قضية (الوحدة العربية) لم

---

(572) انظر رسالة ساطع الحصري إليه في الرسالة (١٢/١٩/ ٣٨، ١٢/٢٦/ ٣٨، المجلة الجديدة ١٢٣/ ٣٨، الرسالة ٣٩/٧/١٧، الرسالة من ٢٤/ ٧- ٢٨/ ٨/ ٣٩ أسبوعيا، الرسالة ٣٩/٨/١٤.

(573) ملف عروبة مصر (مركز الدراسات بالأهرام) ص ٥٣.

يكن منبت الصلة بما قبله قط، إذ تلوح دائمًا علاقة وثيقة بين انتمائه إلى (القومية المصرية) والدعوة إلى (القومية العربية) وشروط الانتماء لها، وهو ما ظل يؤكد عليه حتى فترة متأخرة من حياته[٥٧٤] فقد أكد:

((إننا متحدون مع العرب الآخرين بوسائل من أهمها اللغة والدين والثقافة والإيمان، ومع ذلك، فبالنسبة لنا، نحن جميع العرب، فإن الاتصالات مع أوروبا اتصالات تتصف بنفس الضرورة والأهمية)).

وهو رأي قد نختلف فيه الآن مع طه حسين كثيرًا ومهما يكن فإن (الانتماء الثقافي) أسهم فيه كثيرًا سواء في مجال التعليم أو الآثار أو الآداب لكنه لم يستطع أن يقر (الانتماء السياسي) على أي وجه وهو حين يتحدث عن العرب فإنه يقول (نحن) بما يعني الضمير الثقافي لا السياسي.

يمكن تحديد الفكر السياسي عند طه حسين من خلال رصد حركة الفكر العربي في فترة مبكرة، ومن خلال تيار ليبرالي تاريخي تعاكس مع التيار القائم طورًا واتفق معه طورًا آخر.. فقد بدا للمفكرين المصريين منذ النصف الأخير من القرن التاسع عشر صعوبة توافق حضارة العرب مع الإسلام وشرائعه، وقد تعددت ردود أفعال المفكرين العرب من أوروبا، غير أن أظهر هذه التيارات تمثلت في تيار الشيخ محمد عبده الذي بدا التناقض بين قوله من أن المدنية الحقيقية مطابقة للإسلام وبين رأي حلفائه الذين رأوا أن ((الإسلام الحقيقي مطابق للمدنية))[٥٧٥].

وإذن فمع التطور الزمني سادت خاصة في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى مباشرة الفكرة الإصلاحية التي رأت أن الإسلام بعد أن كان قطب الإصلاح ومركزه الرئيس تحولت الآن لتؤكد حقيقة أن الفكرة الإصلاحية في الإسلام فشلت في أن تصبح نقطة المركز وإنما أصبحت ((موضوع معارضة العناصر المجددة على الطريقة الغربية والعناصر العلمانية)).

وقد وجد طه حسين في التيار الأخير أساتذته وزملاءه في حزب الأمة وقد نما إليه هذا الاتجاه وبلغ أقصاه في فترة ما بين الحربين.

وسوف نحاول هنا التعرف على أهم عناصر هذا التيار في اتجاه الفكر السياسي في ثلاثة محاور:

أولاً: نظام الحكم.

([574]) وقد تردد هذا المعنى في فترات متأخرة من حياته خاصة في مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد في مصر ديسمبر ٥٧.

([575]) حوراني ص ١٩٩.

ثانيًا: الشريعة و القانون.
ثالثًا: الفكر الاقتصادي.

وفيما يتعلق **بنظام الحكم** فقد تفرع عنه سؤال هام يتعلق بالصراع بين الدين و الدولة وقد بلوره طه حسين في ضرورة استقلال الدولة عن الدين إذ راح يؤكد غلبة عنصر جديد يسهم في تكوين الدولة، قال((إن فكرة الوطنية وما يتصل بها من المنافع الاقتصادية والسياسية الخالصة قامت الآن في تدبير الدول وتدبير سياستها مقام فكرة الدولة أو مقام هذه النظريات الفلسفية الميتافيزيقية))(٥٧٦)، ومن هنا راح يطرح سؤالاً كان له ما يبرره على ضوء فهم طه حسين لوضع الدولة الجديد، سأل سؤالاً حول هذه الحكومة التي تستطيع الآن أن تزعم أنها تقوم على الدين أو أنها تقوم على حماية الدين.. ((ولا تستطيع الحكومة المصرية مثلاً أن تزعم أنها إنما تقوم على الإسلام وبالإسلام وللإسلام، كلا))(٥٧٧)، وهو ما يؤكد أن موقفه في فصل الدين عن الدولة إنما هو موقف ليبرالي خالص لازمه طيلة حياته.

وموقف استقلال الدولة عن الدين إنما هو نابع في المقام الأول عن تحديد الخصومة بين العلم والدين إذ إنهما كما يرى ((لا يتصلان بملكة واحدة من ملكات الإنسان وإنما يتصل أحدهما بالشعور ويتصل الآخر بالعقل))(٥٧٨).

وقد كان أبرز ما يميز موقفه من نظام الحكم كراهيته الشديدة للحكم المطلق والطغيان الفردي فيقول ((يحمد للديمقراطية الصحيحة التي تكفل للأفراد والجماعات من الحرية ما يتيح لهم أن يعتقدوا ويعلنوا ما يعتقدون في غير مضارة ولا تعرض لتحكم السلطان))(٥٧٩) وقد تخلل هذا الموقف كتاباته كلها بدون استثناء فقد كان يجيء الموقف بشكل مباشر أو بشكل عرضي بما يؤكد اهتمامًا بالظاهرة السلبية في الحكم(٥٨٠) وهذا هو السر في أنه لم يتعب قط من التحذير من الطغاة ((..إنهم يأمرون دون أن يعرفوا إلى أي حد تطيق الرعية))(٥٨١).

---

(576) من بعيد ص ٢٣.
(577) من بعيد ص ٢٣، وأيضا: الشاق، حزب الأمة ص ٢٨٧.
(578) من بعيد ص ٢٢٧، وانظر إلى مقالة (شك ويقين) في الكتاب.
(579) رحلة الربيع ص ٨٣.
(580) قادة الفكرة ص ١٢٣ أيضا: نفوس للبيع ص ١٥، ٤١، أيضا انظر: أحلام شهرزاد (كراهية الملوك هم الطغاة/ ١٥٣)، أيضا في رحلة الربيع، (النظام الديكتاتوري/ ٨٣).
(581) أحلام شهرزاد ص ٧٨، انظر أمثلة عديدة لطغيان الملوك ص ٦٤/٦٦/٦٧.

وتأسيسًا على هذا الموقف فإنه لم يكف عن تأكيد أن الحكم المقيد بدستور هو خير الأنظمة التي يجب الأخذ بها في ممارسة الحاكم لمسئولياته، ولهذا قال أنه ((حين نشأت الديموقراطية فقد عرف الإنسان أن سلطان الحاكم لا يتنزل من السماء وإنما يخرج من الأرض وأن بين الحاكم والمحكوم عقدًا اجتماعيًا تصوره القوانين المكتوبة والدساتير[٥٨٢]، فإذا تم تنصيب الحاكم بعقد يتفق عليه بين الحاكم والمحكوم لحلت قضايا البشرية وعمت قيم العدالة والإصلاح ولتم ((التوفيق بين الحاكم والمحكوم دون أن تضحي بإحداهما في سبيل الآخر))[٥٨٣]، وقد شدد على ضرورة العمل بالدستور حين يوضع وليس أن يمتدح بأنه ((أعظم الدساتير الأوروبية))[٥٨٤] وحسب.

وإذ راح يفصل بين الدين والدولة ويبغض الحكم الديكتاتوري فإن الخطوة التالية تتأكد في اعترافه بأن الحكم الديمقراطي المقيد بعقد خاص إنما هو نظام غربي خالص، وبالتبعية، فإن كل ما ينتمي للنظام الحديث وما يجب أن ينتمي إليه إنما هو ((أوروبي المصدر أوروبي الجوهر، أوروبي الشكل لم يعرف المسلمون شيئًا منه في العصور الوسطى وقبل هذا العصر الحديث))[٥٨٥].

وعلى هذا النحو فإن طه حسين كان يمضي في طريق مغاير لطريق الجيل السابق له من أن في الإسلام أصول الحكم النيابي، وهو ما فسر أنه حين راح يقارن بين النظامين الإسلامي والغربي لم يكن للأخذ بنظام الإسلام في الحكم ليدلل به على مميزات النظام الحديث للعالم وهو ما يفهم من قوله ((ويظن .. أن نظام الحكم أيام النبي وصاحبيه قد كان نظامًا ديموقراطيًا، وهذا تجوز في الألفاظ وخروج بها عن الدقائق من معانيها، وقد ينبغي أن نتبين معنى الديمقراطية بالدقة أن نقول أن نظام الحكم هذا كان أو لم يكن ديموقراطيًا))[٥٨٦].

وهو ما تتصارع حوله التفسيرات التي راح طه حسين يحسمها بمقولته الخاصة حول النظام الديمقراطي مما يشير إلى انحرافه في هذا الفهم الذي يبرره.

---

(582) رحلة الربيع ص ٨.

(583) السابق ص ٨٣.

(584) بين بين ص ١٠٥، ١٠٦.

(585) مستقبل الثقافة ص ٣٣.

(586) الفتنة الكبرى ج١ ص ٢٧/ ٢٨.

وهنا نصل إلى الصياغة الأخيرة عن نظام الحكم..

فقد رأى أن الحل الوحيد للإصلاح السياسي إنما يكون (باقتباس) النظم الغربية الليبرالية، وهذا (الاقتباس) لابد وأن يكون شاملاً وذلك لنهيئ المناخ الشعبي ليتمكن بوعي من الأخذ بهذه النظم.

وفي الطريق إلى ذلك انتهى إلى أن الإفادة بالفكر الغربي إنما تأتي عن طريقين:

- الطريق الأول: تطوير قيمة العقل والحث على الاجتهاد، فقد رأى أن الإسلام ترك للمسلمين ((حرية اختيار النظم السياسية التي تلائمهم، وحرية تطويرها حسب ما تقضي أحوالهم الاقتصادية والسياسية، وبذلك، بين أن الإسلام يوحي باقتباس النظم الديمقراطية الغربية، من غير أن تكون مبادئ هذه النظم فيه)).

- الطريق الثاني: يفسر موقفه من ضرورة اقتباس النظم الاقتصادية على شريطة أن يرافقها استيعاب الأصول والمبادئ الكامنة وراءها، وهو ما يبين دعوته إلى تبني العلم والآداب والفلسفة اليونانية واللاتينية، إذ أدرك أنها ينبوع الأسس الفلسفية التي بنى الغرب نظمه عليها[٥٨٧].

وقد يكون من قبيل التكرار، أن نقول أنه على العكس من كل ما يقال عن كتاباته الإسلامية، فإنه حين يعود إلى الأصول الأولى يكون الهدف عنده، هو رسم دائرة لنظام الحكم المتميز الذي يمكن أن نجد ملامحه في الإسلام، وإن كان هو بدوره في دائرة أوسع يؤكد على أن هذه الأشياء التي ترسم حدود النظام قديمًا لا تعدو أن تكون ظاهرة فرضتها ظروف نشأة الدولة الإسلامية الأولى، ومن هنا، فإن الأخذ بالنظام الغربي هو ضرورة تفرضها استحالة العودة إلى التجربة الإسلامية، الظاهرة التي لن تكرر لاستحالة ذلك في ظروف مغايرة.

وحين نصل إلى **القانون والشريعة** فسوف نجد لها عند طه حسين أهمية كبيرة تؤكدها عودته إليها في أعماله الفنية والفكرية، كما يؤكدها ربطه بينها وبين نظام الحكم ربطًا وثيقًا، فهو لا يمل في منتصف الثلاثينيات من ذكر الحكومات التي تسن القوانين ولا تخضع لها، والملوك الذين يشرعون في قوانين وانتهاك هذه القوانين[٥٨٨] وإن أخفى هذا بالرمز والتلغيز.

ومن هنا، فإن موقفه من القانون كان أكثر حسمًا ووضوحًا منذ فترة

---

(587) مستقبل الثقافة، ص ٢٠٧، ٢٢٤.

(588) القصر المسحور ص ١٢١/ ١٤٣.

مبكرة.. إذ اتجه إلى تبني القانون الغربي اتجاهًا تامًا وربما إلى تبنيه تمامًا، وهو ما يستنتج من قوله ((إن قضاة المسلمين القدماء لو نشروا في هذه الأيام لأنكروا من نظام المحاكم الشرعية شيئًا كثيرًا))[٥٨٩]، ومن هذا فإن ((إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات ليس إلا التزامًا صريحًا قاطعًا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع))[٥٩٠].

فمن المستحيل عنده، إذن، أن نحاول العود إلى التشريع إلى عصر الفراعنة أو - حتى- العصر الإسلامي الأول، وإنما هو اقتفاء أثر الغرب في قوانينه وتشريعاته المعاصرة.

وعلى عادته في نظام الحكم حين رأى أن إطلاق حرية العقل هي الطريق الوحيد للإفادة من الفكر الغربي، فإن النظر العقلية في موقفه من الشريعة كان وراء محاولة توفيقه بين الشريعة الإسلامية و (القانون الغربي) في بعض الأحيان، والواقع أنها لم تكن محاولة للتوفيق بقدر ما كانت البحث عن أصول المعاصرة في التاريخ، لقد أكد أن الشريعة الإسلامية متصلة ((بما كان للرومان من سياسة وفقه))[٥٩١]، ومن هنا، يمكن الموافقة على أن الشريعة الإسلامية لديه لم تكن مميزة لأنها منزلة، بل راح يؤكد اتصالها بالقانون الروماني، وهو عينه مصدر القوانين الأوروبية، وبذلك كان طه حسين يرى أن أصل الشريعة والقانون الغربي واحد، أي أنه ذهب إلى أن الحضارة الرومانية من العناصر المكونة للشخصية المصرية، مما يدفعنا إلى الاستنتاج أنه ((لم ير الشريعة الإسلامية أقرب إلى الهوية المصرية من القانون الروماني والأوروبي))[٥٩٢].

على أن هذه المحاولة لا يجب أن تخدعنا عن أن فكر طه لم يتلمس في التراث الشرقي مبادئ القانون الحديث، وإنما قصارى ما يمكن أن نقوله،

([589]) مستقبل الثقافة في مصر ص ٣٣.

([590]) السابق ص ٣٥، ولم يختف حلم الالتزام بالقانون الغربي ذي الأصول اليونانية والرومانية قط من خياله، فهو حين يقف أمام الإكروبول يقول ((في هذه القرون الثلاثة من الدهر وفي هذه الرقعة الضيقة من الأرض نظمت للقوانين ما يكون من الصلات بين الحاكمين والمحكومين، وردت القوانين إلى الشعب أمور الشعب وجعلت القوانين حكام الشعب خداما للشعب، وفرضت القوانين على حكام الشعب أن يؤدوا إلى الشعب حسابا دقيقًا)) رحلة الربيع ص ٩.

([591]) مستقبل الثقافة ص ٣٠.

([592]) سابايارد ص ٣٥٨.

أنه، تلمس فيه صياغة نظريته التي تسمح له بتأكيد أن الحضارة الغربية هي الحضارة الوحيدة التي يجب الأخذ بها، أما الحضارات الأخرى كلها، بدون تخصيص، فحسبنا أن نأخذ منها الوسيلة التي تقربنا من هدفنا، هدفنا القائم على مرمى حجر من الحضارة الغربية.

وعود على بدء، فإن طه حسين افترق عن غيره بأن اتخذ من القانون الغربي قانونًا عربيًا خالصًا، كما اتسق مع نفسه حين راح يوفق بين انتمائه العربي وإيمانه بالقانون الغربي وذلك من خلال نظرة عقلية.

وقد كان **الفكر الاقتصادي** من العناصر التي أولى لها اهتمامًا لابد من الإشارة إليه.. فقد أدرك أن الاستقلال الاقتصادي من أهم العناصر التي تصنع الدولة وتدعمها وتقربها إلى مصارف العالم الغربي المعاصر، ومن هنا، هاجم القلة الإقطاعية التي تزرع الفقر والحرمان حيث ((نعيم قد قسم للقلة وبؤس قد فرض على الكثرة))[٥٩٣]، كما هاجم بعنف حالة الرضاء التام التي تقترب من حالة الخضوع والاستسلام التي تميز بها الشرقيون[٥٩٤]، وقد اتخذ في موقفه من الإصلاح الوجهة الغربية التي تلمس منها أية وسيلة أخرى، فعرف التاريخ الإسلامي، فقد كان طه حسين ينطلق من خلفية تتميز فيها الخطوط الليبرالية وتسيطر على النسيج العام.

وهنا يمكن رصد أكثر من موقف من الدين له دلالة كبيرة.. فقد كان إصلاحه الذي يأخذ العبرة من التاريخ الإسلامي يتلمس فيه النظرة العقلية الغربية، فإعادة النظر في قانون الضرائب، على سبيل المثال، دفع به إلى تلمس خط معين لخصه حين قال أن ((أيسر المقارنة بين ما يدفعه سكان مصر من الضرائب وما يدفعه سكان البلاد الأوروبية الراقية يقنعنا بأن النظام الاجتماعي في مصر شديد الحاجة إلى الإصلاح والتقويم))[٥٩٥].

ومما يؤكد على استلهام الفكر الغربي في الإصلاح الاقتصادي أن طه حسين حمل على كثير من مظاهر التقارب وأراد محوه إذ إن التعطل على العمل كما يقول إنما ((لا يعالج بتضييق التعليم، ولا بإنشاء نظام الطبقات، ولا باحتكار العلم لطبقة قليلة وفرض الجهل على كثرة الشعب، وإنما يعالج بإصلاح النظام الاجتماعي نفسه، وجعله قادرًا على أن يتيح لأبناء الوطن جميعًا أن يعيشوا على أرض الوطن، وأن يعيشوا من كدهم وجهدهم

([593]) بين بين ص ٥٠.

([594]) يبدو هذا في كثير من أعماله منها: المعذبون في الأرض ص ٨٣، أيضا: القدر ص ٨.

([595]) سابايارد ص ٣٦٣.

وعملهم، لا أن يعيش بعضهم على حساب بعض))[596].

وبقدر اقتراب طه حسين في طريق الإصلاح الاقتصادي الغربي بقدر اعتقاده بقصور بعض مبادئ الدين عن التطور المعاصر، فهو في مرة يرفض الإحسان ويهاجمه بعنف شديد، إذ رأى الإحسان يمثل ((مظهرًا من مظاهر الاستعلاء، ولابد أن تقوم مقام هذه العواطف عواطف الإيمان بالمساواة والعدل بين أبناء الشعب))[597]، وهذا يرتبط بدعوته إلى الدولة أن تأخذ من الأغنياء بحد القسر ما لا يقدمونه بالملاينة إلى الفقراء، فبعد أن ضرب المثل بعمر في إحدى قصصه من أنه حين فرغت الخزائن في (عام الرمادة) كلف كل أسرة من الأغنياء بأن تطعم مثل عددها من الفقراء، منتهيًا من هذا كله إلى مبدأ يجعل للدولة به اليد العليا في المعاملات الاقتصادية، قال ((يجب أن تعلم الدولة، ويجب أن يعلم الموسرون، أن التصدق بالمال خير في أوقات الرخاء والدعة واللين، فإذا اشتدت الأزمة.. فالتصدق واجب يفرضه العدل، فإن لم ينهض به الأفراد من تلقاء أنفسهم، وجب على الدولة أن تأخذهم به أخذًا، يجب على الدولة أن تعلم أن الله قد أمر أئمة المسلمين في أوقات الرخاء والدعة أن يأخذوا من الأغنياء يردوا على الفقراء حتى لا يبقى بين الناس جائع أو محروم، فإذا جد الجد وألمت الكارثة، فحرام على الموسرين أن يطعموا وأن يشربوا وأن يكتسوا حتى يطعم الجائعون ويشرب الظامئون.. وعلى الدولة أن تقوم بهذا كله بسلطان القانون))[598].

وقد بلغ ضيق طه حسين بالنظام القائم إلى درجة الكفر به، ودعا إلى تغييره برمته، فهو في البحث عن نظام جديد يبحث عن تعميم التعليم اصطدم بالنظام الاقتصادي الذي لا يستطيع توفير عمل لكل من يتخرج، ومن هنا، تبقى ذريعة التجمد بإلغاء التعليم بالصورة التي عمل لها طه حسين، وهو ما يفهم منه غضبه حين قال ((لابد من تعديل النظام الاقتصادي بغية تأمين العمل للجميع))[599].

وإذن، فإن طه حسين أولى جهده للقيم التراثية التي لم تتطور بعد بحثًا عن تخفيف ربقة النظام الطبقي، وقد اتجه في هذا إلى الغرب ليتخذ أفكاره ويتلمس فيه الحلول الاقتصادية الناجعة التي لم يجدها في التراث، كما

([596]) السابق ص ٣٦٣.

([597]) السابق ص ٢٤٧/ ٢٤٨، أيضا: من لغو الصيف ص ١١٠.

([598]) المعذبون في الأرض ص ١٦٣/ ١٦٤.

([599]) مستقبل الثقافة ص ١٤٢.

وصل في الإلحاح على التغيير والعمل له إلى درجة تغيير النظام الحاكم كله.

ويمكن أن نوجز أهم النتائج التي أثيرت هنا على النحو التالي:

مثل طه حسين التيار الليبرالي في مصر في أكثر وجوهه حيوية من حيث كونه فلسفة ونظامًا متكاملاً في الحياة، وهو ما يبدو في تبنيه لكثير من قضايا الواقع في المجالات الثقافية والفكرية والعقائدية، ولعل أهم هذه القضايا تتمثل في مسألة (التعليم) وأيضًا في الفترة التي اصطرعت فيها الليبرالية بالفكرة الإسلامية في الثلاثينيات والتي بلغت أقصاها في انتصار النهج الغربي في التفكير في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) عام ١٩٣٨.

وحين كان يواجه التناقض الحاد بين الفكرة الليبرالية والفكرة الإسلامية كان يؤثر المنهج الغربي إما صراحة أو مواربة.. وهذا وراء موقفه الفكري في تأكيده على حقيقة أن الإسلام يوصي (باقتباس) النظم الغربية من غير أن تكون مبادئ هذه النظم فيه، وعلى مستوى آخر، فإن طه حسين يربط الهوية الشرقية بالغربية - على المستوى الثقافي- من باب تأكيد الأصول الأولى بقصد تبرير إضفاء هذا الاتجاه الليبرالي.

ويعتقد البعض أن إدخال طه حسين للعنصر الروحي في كتاباته متمثلاً في الكتابات الإسلامية يعد انحرافًا به عن الخط الليبرالي، وعند البعض الآخر، إمعانًا في تبني المنهج الإسلامي، غير أن تحري الطريقة التي يكتب بها طه حسين وأهدافها، يؤكد، أنه لم ينحرف عن الخط الليبرالي إلا بقدر، كما لم يغل في تلمس الدين وإنما كان (التطور) الذي لحق به منه من تجريد قناعات جديدة متسقة مع القناعات القديمة.. فهو في بحثه عن أصول العدالة والحرية لم يجدهما في الإسلام، كما لم يجد غضاضة في الاعتراف عن تخليه عن نظرية الجبر التاريخي التي تغلو في إكبار دور الجماعة والبيئة إلى البحث الفردي والاجتماعي معًا، وهو الفارق بين كتابه (ذكرى أبي العلاء) عام ١٤، وكتابه (قادة الفكر) عام ٢٥.

بل ويكاد يكون طه حسين المثقف الوحيد في تياره الذي تبنى هذا المنهج في التفكير حتى فترة متأخرة من حياته في نهاية الثلاثينيات من خلال (نظرية) جهد أن تكون مكتملة، ويؤكد هذا أن الانكسار الذي حدث عند بعض رواد جيله لم ينتقل إليه، وهو ما يتأكد من كتابيه الهامين في الثلاثينيات (من بعيد) عام ٣٥، و(مستقبل الثقافة في مصر) عام ٣٨ فقد حاول فيهما صياغة موقفه السياسي والفكري.

وإذن، مع التسليم باتجاهه الليبرالي يمكن تفسير كثير من مواقفه وإسهاماته.. فالشخصية المصرية تتوفر - بالمنطوق الجديد- بالمصالح

الاقتصادية والأرض والتاريخ والاستقلال وجغرافيا الثقافة وانتفاء عنصري الدين واللغة، وهو ما يصلح مدخلاً لفهم موقفه من (القومية العربية) التي يمكن أن تقام على المستوى (الثقافي) و (الاقتصادي) أما المستوى (السياسي) فقد رفضه تمامًا.

وإذا كان عقد الثلاثينيات هو العقد الذي شهد الصراع بين الليبرالية والإسلامية، فإن الأربعينيات كان العقد الذي انتهى فيه الصراع بين الفكرتين -الليبرالية والإسلامية- إلى التنبيه للتبعية الغربية التي كشفت عن نوايا الاستعمار، ومن هنا، حاول نقد ليبرالية الغرب ونظمه الحضارية، وإذا كان (مستقبل الثقافة) في مصر في نهاية الثلاثينيات مثل فكر طه حسين، فإن (المعذبون في الأرض) في منتصف الأربعينيات مثل فكر طه حسين الذي اصطرع فيه الطموح المصري بالجموح الغربي ليتولد لديه الأمل في المشروع الحضاري الليبرالي في جانبه الاجتماعي.

إن كتابات طه حسين الإسلامية في الأربعينيات تؤكد على هذا التصور القيمي والمنظور الاجتماعي والسياسي، إن الليبرالية لديه لم تتراجع -أو حتى- تتوقف، فبعد أن يستطرد طويلاً حول الحركة السياسية التي جاء بها الإسلام في جانب نظام الحكم، من أن هذه الفترة التي انتهت بقيمها الإلهية التي كان يعرف بها مجموعة من الصحابة ممن جبلوا على التقوى والإسراف في القسوة على النفس يصعب وجودهم في هذا العصر، يرى استحالة تكرار هذه التجربة، إلا أن هذا الضمير الديني ((ليس من الكفول ولا من المحتوم أن يرثه عنهم الأبناء)).

وكما انعكس هذا في الفكر الإيديولوجي، كذلك، انعكس في الثقافة والفكر السياسي سواء في نظام الحكم أو الشريعة أو القضايا الاقتصادية وما إلى ذلك..

الفصل السادس

طه حسين وإسهامه الاجتماعي

- المؤثرات الاجتماعية الأولى.
- إرهاصات التطور الاجتماعي.
- من التجديد إلى الإصلاح.
- المذهب الاجتماعي.
- سمة التفكير العملي.
- الرمز الاجتماعي.
- قضايا اجتماعية:
- قضية العدالة الاجتماعية.

(المرأة.

(رجل الدين.

(العودة للأصول.

- نتائج أخيرة.

تحددت الفترة التي تبدأ بالأربعينيات، خاصة، على أنها الفترة التي شهدت تحول طه حسين من التجديد الفكري إلى الإصلاح الاجتماعي، وبلوغه حده الأقصى في البحث عنه في إسلامياته.

وبعيدًا عن مناقشة البواعث التي دفعت بفكرة الإصلاح الاجتماعي إلى الظهور، فإن هذه الفكرة لم تكن وليدة ظروف الحرب العالمية الثانية وحدها، وإنما تعود إلى العقدين السابقين، فنحن إزاء إرهاصات متناثرة تؤكد اهتمامه بتطور المجتمع قبل سفره إلى البعثة وبعد عودته منها.

وعلى هذا النحو، سيكون علينا أن نقف في هذه الفترة الأولى من حياة طه حسين، لنرى فيها أكثر من بعد أساسي: ما يتصل بالمؤثرات الاجتماعية الأولى في حياته، أو ما يتصل بإرهاصات المشاركة في الحياة الاجتماعية قبل سفره.. وقد تبلور هذا كله في نظرية أو صيغة تحدد إيمانه بالاتجاه العلماني بعد سفره أثرت في كتاباته الاجتماعية التي وصلت إلى طور كبير من النضج في الأربعينيات خاصة.

لنعد إلى الفترة الأولى..

على الرغم من أن جهد طه حسين الاجتماعي لم يكن على المستوى الفكري، فلم يكن له إسهام علمي في قضية ما باستثناء مسألة ((التعليم))، فإن تكوينه المبكر ينم عن مؤثرات لعبت دورًا كبيرًا في الجانب الاجتماعي

الذي بدا في صورة المشاركة في الحياة السياسية حوله، أو في تضاعف مؤلفاته العديدة.. فعامل البيئة في (الأيام) ينم عن تجربة هامة لحياته في القرية سواء لملاحظاته عن المناسبات مثل المولد النبوي أو شم النسيم أو أخلاقيات رجال الدين المسلمين في كثير من أحوالهم، وهو ما يظهر في روايته (شجرة البؤس)، وأغلب أعماله الفنية مثل شخصيات (المعذبون في الأرض) التي تشبه شخصيات الحكايات الشعبية، بل وتشترك القصة في المجموعة الأخيرة في قصة الحكاية الشعبية ونهايتها إلى غير ذلك مما ترك آثارًا هامة في البيئة.

كما أن الدراسات الاجتماعية له في فترة مبكرة تترك ملامح كثيرة تؤكد طبيعة تأثره.. في دراستيه الجامعية بين مصر وفرنسا (ذكرى أبي العلاء) عام ١٩١٥ ثم (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) عام ١٩٢٥[٦٠٠]، في هذه الفترة يكون قد عرف بعدد كبير ممن اهتموا بالمجتمع وتطوره في الشرق أو الغرب.. فالشيخ محمد عبده، على سبيل المثال، يكاد يلتقي مع طه حسين في بعض الملامح والصفات التي تؤكد أن محمد عبده حرص على الإصلاح قبل مواجهة المستعمر، في وقت لم يغفل فيه الاهتمام اللغوي والاهتمام بالمعنى وإيراده وإبرازه في ألفاظ سهلة سلسلة يقرها اللسان العربي، وبهذا يوفر له معنى الإصلاح الذي يمكن أن يرقى بالمجتمع إلى درجة تؤهله لحمل السلاح، أما قاسم أمين فوجهة نظره تتلخص في تأكده من أن أسباب تدهور الأمة الإسلامية، يعود ليس إلى الإسلام، وإنما إلى الجهل العام المتفشي في الشعوب الإسلامية وتنكرها للعلم الذي هو أساس البشرية، ولما كان يرى أن الجهل يبدأ في العائلة، فإن نقطة البداية في الإصلاح لديه كانت في إصلاح العائلة، فقاسم أمين توجه مباشرة إلى البيئة الاجتماعية، واضعًا قضية المرأة في صميم المشكلة الاجتماعية.

هذا في الشرق، أما في الغرب، فقد عرف من أصحاب الاتجاهات الاجتماعية دور كاييم عالم الاجتماع المعروف، والذي كان قد أشرف على رسالته هناك من الناحية الفلسفية قبل رحيله بفترة وجيزة، وقد بلغ إعجاب طه حسين به إلى درجة ((توشك أن تبلغ حد الفتون))، ويؤكد الفصل الأخير من الجزء الثالث (الأيام)، أن طه حسين كان ((شديد التأثر بدروس دور كاييم في علم الاجتماع))، فهذا الفيلسوف صاحب فلسفة تقدر الجماعة، إذ يبحث مع مدرسته عن حلول القضايا القديمة المختلفة عن طريق التحليل

([600]) الأيام، ج٣ ص ١١، ١٢٨، أيضا ((الأب كمال قلته ص ١٣، المجمعيون، فصل خاص بطه حسين ٧٩/ ٨٣، رزق: دكتوراة غير منشورة ص ٢٠٤/ ٢٠٥.

الاجتماعي والبحث عن سر الحياة الاجتماعية والتأمل في تطورها باعتبارها مصدرًا ما في حياة الفرد من فكر وطموح، وما لبث أن تبدى تأثير تلميذه سلستان بوجليه بعد رحيله في طه حسين، إذ اقترح عليه موضوع (علم الاجتماع كما يتصوره أوجست كونت)(٦٠١)، كما امتد التأثير الاجتماعي إلى عدد كبير آخر: فإلى جانب دور كاييم وبوجليه عرف وتأثر بسان سيمون الذي أنفق عامًا كاملاً في دراسته وإن كان لم يتحدث عنه كثيرًا، ثم كل من مونتسكيو وإرنست رنان وهيبولت تين وغيرهم، ممن تأثر بهم في هذه الفترة، وغلب على فكرهم الإصلاح الاجتماعي المميز.

وعلى أية حال، فقد ربط طه حسين بين الفرد والبيئة ربطًا وثيقًا.. ففي (الأيام) نعرف أنه كان مشغولاً بكثير من القضايا التي آثارها المعتزلة في الإسلام كقضية (الجبر والاختيار)(٦٠٢)، وفي كتابه (قادة الفكر) نلاحظ ازدياد هذا الربط بين البيئة والفرد، أما في كتابه (مع أبي العلاء في سجنه)، نلحظ أنه في الوقت الذي تخفف فيه كثيرًا من هذه العلاقة، فإنه لم ينف تمامًا تلك الصلة بين الإنسان ومجتمعه، وهو ما قاله صراحة في كتاب آخر كتبه في وقت متأخر وهو (ما وراء النهار) إذ أكد فيه أن (هناك صلة متينة وثيقة بين أقوال الناس وأعمالهم، وبين البيئة التي يعيشون فيها، ويتأثرون بدقائقها في حياتهم اليومية)(٦٠٣)، ويذكر جاك برك في هذا المجال أن طه حسين عمد إلى أن يستخدم آيات القرآن الكريم التي ذكرها واستشهد بها لا تتناول بشكل عفوي بأية حال، وإنما يبرز الآيات التي تتضمن مضمونًا اجتماعيًا مهملاً عن غيرها من الآيات التي تتضمن مضمونًا إلهيًا أو غيبيًا(٦٠٤)، وهو

---

(601) الأيام ج٣ ص ١٢٨.

(602) الأيام ج٣ ص ٣٥ (يذكر طه حسين موعده مع سنتلانا أستاذه الفرنسي الذي دعاه ليحضر معه درسا من دروس الأزهر، يقول: قد أقبل الأستاذ إلى حيث كان ينتظره تلميذه أمام الرواق العباسي، وذهب مع الفتى إلى درس الشيخ سليم البشري رحمه الله.. وأخذ الشيخ يفسر آية كريمة من سورة الأنعام هي قول الله عز وجل: {ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون}. وفسر الشيخ.. وخاض في حديث الجبر والاختيار.. وجعل يرد على الجبريين ويدفع مقالتهم، ويأخذ الفتى في حوار الشيخ على عادة الأزهريين، فيسمع شيخ له ويرد عليه ردا لا يقنعه، ويأبى الفتى إلا اللجاج، فينهره الشيخ: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن الله أكبر على العلم والإيمان، حضرتك مسلم؟).

(603) ما وراء النهر ص ٢٠.

(604) ويضيف جاك برك: إن سورة (يس) لا تظهر ولا تكاد تظهر عنده، كما أن سورة (الشعراء) التي كان من المتوقع أن تظهر عند مفكر مثل طه حسين، يندر أن تظهر أيضا، بل وتختفي سورة (النمل) وسورة (الرحمن)، وهذه السورة الأخيرة تحتفظ بإيقاع مميز يؤثره طه ==

ما يفسر لنا اتجاهه المباشر في الثلاثينيات والأربعينيات في الخط الاجتماعي.

وإذن، يمكن تحديد المؤثرات الاجتماعية الأولى التي عرفها طه حسين في الفكرة (الراديكالية)، التي ذهبت في الاتجاه الاجتماعي إلى ضرورة الدعوة إلى إصلاح مباشر وحاد، يمس جذور المشاكل التي تواجهها الدولة))[٦٠٥]، دون الالتزام بالمادية التاريخية أو الخطوط الرأسمالية.. وبهذا المفهوم الذي يلتزم به فكر كتاب وفلاسفة القرن التاسع عشر مضيفًا إليه في حدود المجتمع الشرقي بعض الاجتهادات النابعة من البيئة يمكن رؤية خطوط تطور المجتمع في كتاباته سواء منذ الإرهاصات الأولى أو الدعوة إلى العدالة الاجتماعية والبحث عن رموز العدالة في التاريخ الإسلامي بعد ذلك، وتطبيقات هذا كله في عديد من القضايا التي سنفصل بعضها في مكانها من هذا الفصل.

ولنخرج من السرد النظري إلى آفاق التجربة الاجتماعية.

إن الفترة التي سبقت بعثته إلى أوروبا عام ١٩١٤، والتي أعقبتها، تصور لنا موقفه من بعض القضايا والرذائل الاجتماعية التي تمثل الإرهاصات الأولى في هذا الاتجاه، ففي الفترة الأولى مال إلى نقد المجتمع بعنف، فراح يدعو مرة إلى ضرورة الاحتفاظ بالزي الشرقي الذي يمثل كيان الشرق وكرامته، يقول ((مخطئ كل الخطأ صاحب الزي الشرقي الجميل يستبدله بالزي الغربي مرضاة لهوى كاذب، وشهوة خادعة، مخطئ لأنه ينزل عن كرامة الأمة في عاداتها وآدابها ليندمج في أمة أخرى من غير حق ولا داعية))، وهو لا يتحدث في هذا عمن يتخلى عن زيه في الداخل وإنما يضيف من يرتكب هذا في الخارج ((يقطع ما بينه وبين مصر، ويصل ما بينه وبين أوروبا، فيترك لنا أزياءنا ولغتنا وآدابنا، وينتحل مثلها من أزياء أوروبا ولغتها وآدابها، وربما عمد إلى لحيته فاتخذ منها شكلاً فرنساويًا، أو أتى عليها وعلى شاربه تقليدًا للإنجليز، كأن لم يكن

حسين ويحرص عليه بجرسه الموسيقي المميز.

أما السور التي تظهر عند طه حسين -يضيق جاك برك- ويستشهد بها بشكل متتابع ودائم فهي السورة الأولى (الطويلة)، تلك التي تتضمن خاصة الأخلاق والتنظيم الاجتماعي، فطه حسين، إذن، استخدم القرآن استخداما اجتماعيا، وهو ما يفسر إهماله للسور التي تهتم بالقيامة والأساطير والقصص.. إلخ.

(605) القاموس السياسي، ص ٥٥٦، أيضا يمكن العود إلى:

Larrousse, p. 990/ 99 Jaque berque, Cultures Ibid.

له بنا عهد طريف))[٦٠٦].

وراح في مرة أخرى ينتقد هذه المظاهر الاجتماعية السيئة في الموالد مثل مولد الحسين مما يخلو من عاطفة دينية صحيحة، فكل المظاهر التي يراها هي (وثنية صرفة) أو مظاهر لهو ومجون كما هو الحق الذي لا شك فيه، ((وإلا فإن حلقات الذكر التي قامت ليلة الأمس على نقر الدف وصوت المزمار.. لم تكن إسلامية، لا سيما إذا كان الغناء الذي يرقص عليه من أغاني النساء في الحانات والمراقص))[٦٠٧].

وهو لا يفوته في هذا كله أن يحاول تبرير هذه التصرفات، فهو دائم الربط بين الذوق المتدني وجمهور العامة، ممن يترددون على أماكن اللهو خاصة، فهذه هي الفترة التي راح يلوم فيها المصريين لحالهم الذي وصفه بأنه يكثر فيه الخمول ويشيع الكسل، وهو ما نلمح معه دعوة إلى التغيير في كل ما يكتب[٦٠٨].

والطريف أن طه حسين بعد أن رحل إلى فرنسا ثم عاد إلى مصر بعد البعثة تحول إلى بعض العادات التي دعا إلى الإقلاع عنها، فارتدى الملابس الأوروبية، وتزوج من أجنبية رغم أنه رفض هذه العادة الذميمة كما

([606]) الجريدة ١٩١٠/١٠/٣٠.

([607]) الجريدة ٣/ ١١/ ١٩١٠.

([608]) مصر الفتاة ١٩٠٩/٢/٢٨، ويقول:

كاتب نائم وذو الشعر لاه	وأديب سبته كأس الشمول
شاعر النيل لاعدتك العوادي	هل لهذا السكوت من تأويل؟
أسلموا دهرهم وعقوك يا نيل	فما إن لهم سوى التنكيل.
فض فأغرقهمو فأنت حليم	غض فأهلكهمو غير بخيل
وأيك أرشدهمو فلا من سميع	أصبحوا عن حقوقهم في قفول
ما يفيد الإرشاد قوما نياما	أصبحوا عن حقوقهم في قفول

وجاء في موضع آخر مصر الفتاة ١٩٠٩/٨/٢٦:

حسبكم يا بني الكنانة عجبا	كسل مخجل وفخر كثير
ليكن قولكم أقل من الفعل	فلن يبلغ الغلاء فخور
يا بني اسمعوا النصيحة مني	فهي إلا تنفعكمو لا تضير
أخلصوا تصدق الأماني وتنجح	إن مصر بالمخلصين نزور
اجمعوا إن أردتم السير للسؤدد	والمجد أمركم ثم سيروا
كنت أرجو لكم من المجد والسؤدد	لو أن عزمكم لا يخور

والجدير بالذكر أن هذه النبرة ترددت فيما بعد في صحيفة (السفور) عام ١٩١٥ حين كتب بعنوان (بعد الأوبة) في الفترة التي كانت الجامعة المصرية تمر بظروف مالية اضطرته للعودة، ومن هنا حاول، فيما يبدو، إسقاط أزمته على الناس في مصر، أولئك الذين لا يعرفون (من اللذات إلا ما يتملك مشاعرهم الظاهرة) وهو لم يقلع عن هذا فيما بعد.

سنرى، غير أن تحوله إلى القضايا الاجتماعية كان قد نضج وتطور فراح يشير إلى الجريمة، مبغضًا لها، غير متعاطف مع فاعلها، كما استنكر لدور العرافين الذي بلغ من السخرية منهم والتنديد بكل ما يزعمون به معرفتهم وتأثيرهم في الآخرين[٦٠٩]، كما راح يصور صورة للخيانة الزوجية بقصد تجسيدها، ومن هنا، التنفير منها[٦١٠]، كما لم يتوقف عن تقديم صورة سيئة للرشوة كإحدى الرذائل الاجتماعية واصفًا إياها من خلال الشخصيات الاجتماعية المطحونة، والتي تعاني كثيرًا من ربقة الحاجة ممثلين في طبقة الموظفين، مفصلاً في هذا الدوافع الحقيقية التي تدفع الأغنياء، على ثرائهم، إلى اهتبال الفرصة لاقتراف هذه الجريمة[٦١١].

شغل طه حسين في فترة العشرينيات بالتجربة الليبرالية التي بلغت أوجها في النصف الثاني منه، فإذا بنا أمام حلم الديمقراطية (نظام الأثينيين)، و(قادة الفكر)، وارتفع صوت العقل والجبر التاريخي في كتابيه (في الشعر الجاهلي) و (رسالة ابن خلدون)، كما أثيرت المعارك بين القديم والجديد على صحيفة (السياسة) فعرفت فيما بعد خلال كتاب (حديث الأربعاء)..

وعلى الرغم من أننا لا نعدم خطوطًا بيانية صاعدة حينئذ، فإن مشاركته الاجتماعية لم تجاوز أثر الضغط السياسي حوله، كأن يضيق بسياسة صدقي الداخلية، فيرثى إلى حال الشباب في (النوادي الليلية)[٦١٢] بشكل عابر، وقد استمرت هذه المباشرة الفكرية تؤثر في عقل طه حسين ما دام يعرف حزب الصفوة ويتعامل معهم، حتى إذا ما مضى العقد الثاني ورحل فيه عدد كبير من نظرائه وأساتذته في هذا الحزب حتى لم يتبق إلا محمد حسين هيكل على وجه التقريب، في وقت انصرم معه مضمون الحزب بأحلامه الديمقراطية، وآلت زعامة الحزب إلى محمد محمود، ومن هنا، لم يبق من حكم الصفوة الممتازة بالعقل والثقافة وبالحسب والمال إلا حكم الغطرسة الممتازة بالحسب والمال من دون العقل والثقافة[٦١٣].

وعلى هذا النحو، لم يكن هناك مناص من مواجهة الواقع الجديد، فقد كان تحت هيمنة صدقي وغلوائه التي أطاحت بكل أحلام الديمقراطية، وهنا

---

(609) دعاء الكروان.
(610) الحب الضائع.
(611) شجرة البؤس.
(612) سوزان، ص ٤٦.
(613) لويس عوض، أهرام ١٣/ ٦٨.

كان على طه حسين أن يعمل للتحول من عصر إلى عصر، وقد تمثل هذا التحول في مدارين:

- التحول من التجديد الفكري إلى الإصلاح الاجتماعي.
- التحول من حزب الأحرار إلى حزب الوفد.

ومما سبق، فقد تميز التحول من الفكرة إلى العمل الاجتماعي، ومن الكادر المثالي إلى الجماهير العريضة.

ومن نافلة القول أن نذكر أن مشاركة طه حسين في جانب تطور المجتمع ظل متسمًا دائمًا بالفكرة الليبرالية كما أسلفنا، إذ لم تكن الفكرة الإسلامية - فترة كتابة الإسلاميات- إلا كوسيلة أراد بها صاحبها تأكيد فكره الغربي، وليس استبدال الفكرة المعاصرة بفكرة أصولية، إذ لم يخطر بذهنه هذا.

وقد تحددت القضية الاجتماعية عند طه حسين في بداية الثلاثينيات فتبلورت في عصر صدقي، وما لبثت أن سرت في خطوط تمثلت في النظرة الواعية في الأربعينيات.

ويمكن القول هنا، أن اهتمام طه حسين بالقضايا الاجتماعية لم يكن اهتمامًا تفصيليًا واعيًا بجزئياتها بالقدر الكافي، وإنما تحددت مشاركته في القضايا الاجتماعية في الثلاثينيات حين مثلت موقفه من عملية تطوير المجتمع وفي وقت كانت البلاد تمر بأزمات خلقتها ممارسات صدقي بعد توليه الحكم مباشرة في يونيو ١٩٣٠.

وسوف نرى مشاهد من اهتمام طه حسين بالأزمات الاقتصادية والاجتماعية قبل أن ينصرف في منتصف العقد على وجه التقريب من السياسة إلى الجامعة، ومن هنا، يقل اهتمامه بالقضية الاجتماعية، بالقدر الذي يزيد به ثانية في الأربعينيات، فاهتمامه في بداية الثلاثينيات والأربعينيات مرجعه إلى تصاعد الضغط الاجتماعي والسياسي في كل من الفترتين.

والملاحظ أنه كلما زاد الضغط حوله زادت استجابته للمشاركة وإبداء الرأي.. فحين يسيطر مرض التيفوس على الفقراء المعذبين والأطباء والمصابين سواء بسواء يجد نفسه مدفوعًا دفعًا إلى رسم صورة صادقة له، يقول ((الشر أقوى من الأطباء، وإذا الأطباء أنفسهم يسقطون في شباك هذا الحمى.. ولا يستطيع المستشفى أن يفعل شيئًا.. والذين إليهم حماية صحة الشعب لا يفكرون في الشعب؟ كيف السبيل إلى ذلك والمصري قد تعود أن يجوع فيحتمل الجوع، وأن يظمأ فيحتمل الظمأ، وأن يعدم فيألف الإعدام، تقصير من أولي الأمر في ذات الشعب، وتقصير من الشعب في ذات نفسه،

والحمى تستفيد من تقصير أولي الأمر، ومن تقصير الشعب، فتفتك بالفقراء وفقر الأطباء))[٦١٤].

ويتلفت طه حسين حوله فيجد أن الفاقة تصل أقصاها، إلى درجة أن يبيع أحد الفقراء ابنته بالاتفاق مع أمها من أجل الحاجة، فيروعه الثمن، فالبيع يتم ((بثمن بخس دراهم معدودة.. ولكنه يحس على كل حال إذا قدرت فيه هذا الثمن مهما يكن بالقياس إلى عواطف الأمومة التي لم تمنع أمًا من أن تبيع ابنتها بالمال))[٦١٥]، مشيرًا إلى هذا المناخ الذي انتهت إليه البلاد، راسمًا مشهدًا حقيقيًا للطبقة المعدمة والحالة المتردية التي وصلت إليها حينئذ.

ولم تقتصر المشاهد على ما يجري في العاصمة، وإنما جاوزتها إلى تلك المصادمات التي تتم بين الحكومة طورًا، والعمال طورًا آخر لضيق ذات اليد، وتضييق الحكومة بالتحالف مع الأزمات الحادة حينئذ.. إن طه حسين يتأمل المشهد الذي اعتدت فيه الشرطة على الآلاف، مناجيًا جموع الشعب الفقير والبائسين من المعدمين والمحرومين.. ما أجدر الناس لو فكروا أن يجتهدوا في أن يهبط الإنصاف من الممتازين على غير الممتازين، كما تهبط الرحمة من السماء على الناس، ولكن الناس لا يفكرون، ولا يعتبرون، ولكن الممتازين لا يعطفون ولا ينفقون، وإذا الإنصاف يصعد من الطبقات الدنيا إلى الطبقات العليا فيرد الطبقات العليا فيرد المسرف عن إسرافه ويعيد الجائر عن جوره))[٦١٦].

وهو يتناول في مشهد آخر قضية المساواة التي تتمثل في فرض الضرائب على طبقة دون طبقة، ومن هنا تنتفي المساواة أمام القانون، غير أن الفلاحين - وهي الطبقة التي تحدث عنها بعد طبقة العمال- لا ينالون هذه المساواة ولا يعرفونها، فهم كما يراهم ((ليسوا سواء في الحقيقة الواقعة وإنما يتميزون فيما بينهم تمايزًا، أقل ما يوصف به أنه إثم ينكره القانون، وخزي يوصم به البلد الذي وقع فيه هذا الفقير الذي لا يملك من الأرض إلا قيراطين، والذي يفرض عليه القانون ضريبة عقارية، تظلمه الحكومة ظلمًا فاحشًا حين تكلفه أن يدفع ضريبة للخفر.. قل أن الدولة تظلم ظلمًا قبيحًا منكرًا بالقياس إلى الوزير الذي يمسه بهذا الظلم، ويخضعه لهذا الجور، ويضطره أن يأتي ما يستطيع أهله على الجوع والحرمان ليؤدي إلى الدولة

---

[614] كوكب الشرق ٣٣/٤/٣٣.
[615] كوكب الشرق ٣٣/٨/٢٢.
[616] السابق ٣٣/١٠/٢٤.

هذا المقدار الذي لا يجب عليه أن يؤديه ولا أن يؤدي نصفه، ولا ثلثه لو أن المساواة تراعى))[617].

وتصل الحاسة النقدية إلى درجة معينة، ففي حديثه عن المساواة يقارن دائمًا بين هذا الفلاح الفقير وبين (وزير الداخلية) الذي لا يؤدي (ضريبة الخفر) بما يتبع هذا في جانب من اليسر والرخاء وفي جانب البؤس والحرمان، ويبرع في رسم هذه الصورة بين الموسرين والمعسرين بقصد إبراز الحالة التي انتهى إليها الشعب في هذه الفترة الصعبة، إنه يردد هذه النغمة كثيرًا في هذه الفترة، إنه يشير على الحكومة التي يضعها في كف أمام الفقير، يقول ((رأت الحكومة فقيرًا فأبت إلا أن تكون غنية، ورأته معسرًا فأبت إلا أن تكون موسرة، ورأته مضطرًا إلى الجوع والحرمان، فأبت أن يغيب من الشرف ما يباح وما لا يباح))[618].

وقد تركزت كتاباته في هذه الفترة في هذا التناقض بين الطبقتين، إنه في مشهد آخر يرسم هذا الغلو في التفرقة بين الطبقتين، الموسرة والمعسرة، وهو يرسم المشهد ويتركه بعد ذلك ليدل على ما فيه من ظلم وإسراف شديدين، يقول:

(وأخذهم ما لذ وطاب وانتظارهم كئوس القهوة، لترشيح الرئيس لمجلس النواب.

....

(وفي أثناء هذا كله كان أهل القرية البائسة محزونين مكلومين وذهبت عنهم عقولهم، وهذه الحجوز التي بلغت أربعمائة وهذه القضايا التي بلغت ثلاثين ومائة وهؤلاء الأطفال والنساء الذين يملكهم الجوع).

ويجاوز الظلم الاجتماعي إلى لون آخر من الرذائل الاجتماعية متمثلاً في المحسوبية والفساد والمحاباة، فالموظفون وقد كانوا حينئذ طبقة معدمة ((يعيث بنفوس بعضهم التأسي والحزن والبؤس[619]، كما أن المعلمين العاملين بالدولة يضيقون بهذه المحاباة)) في تطبيق القوانين من الناحية الإدارية على أفراد الشعب))[620]، وهو في هذا كله يحمل حملة عنيفة على فساد الإدارة والاستبداد بحقوق الشعب[621]، ولا يتردد عن فضح كل

([617]) السابق ١٦/١٠/٣٣.

([618]) السابق ٢٣/ ٤/ ٣٣.

([619]) كوكب الشرق ١٦/٥/٣٣.

([620]) الثقافة ٧/ ١٠/ ٣٩.

([621]) كوكب الشرق ١٥/ ١٠/ ٣٣.

أساليب الرشوة التي راجت في هذا الوقت حتى أصبح شراء الضمائر سهلاً[٦٢٢].

وعلى هذا النحو، فإن دعوة الإصلاح الاجتماعي لم يكن لها صدى بين المسئولين، وهو ما دفع به في نهاية الثلاثينيات إلى السخرية من جهد المسئولين المزعوم في هذا المضمار، فهو لا يقوم إلا على (المواويل) والأغاني المبتذلة والزكاة التي يدعو إليها بتراخٍ شديد، يقول: يجب أن تأخذ الدولة أمرها بجد، فإنا لا نبلغ بعد أن نفكر ولا أن نقدر على هذا النحو، وإنما نحن نفكر ونقدر على قد حالنا المتواضعة لا على قد وطننا العظيم))[٦٢٣].

وعدا الفترة التي عمل فيها بالجامعة وابتعد عن السياسة بين (١٢/ ٣٤- ٥/ ٣٩)، فإن طه حسين يظل يدعو إلى دعوته إلى الإصلاح الاجتماعي مهاجمًا العديد من الرذائل الاجتماعية، ويظل يمضي على هذا المنوال حتى بعد سقوط وزارة صدقي فيرسل بالرسائل المفتوحة إلى الوزارة الجديدة مؤكدًا على أن الناس لا يزالون يحسون بالألم والظلم))، وعناوين مقالاته في هذا المضمار يمكن أن تدلنا على صدق هذا الاتجاه وطبيعته:

- أزمة.
- تنبيه.
- مساواة.
- ظلم.
- تضحية.
- قلق.
- المصري الغريب في مصر.
- يأس.
- مظلوم.
- دعاة الفساد.
- العدل.

وما كادت تبدأ الحرب العالمية الثانية حتى كانت قناعات طه حسين قد تبلورت على لهيب الحب ودويها، وتميز فكره الأساسي رويدًا رويدًا في قضيتين أساسيتين هما:

---

(622) السابق ٢١/ ٥/ ٣٣.

(623) الثقافة ٣١/ ٣/ ٣٩، أيضا: بين بين ص ٩٨.

أولاً: نضج الدعوة إلى العدل الاجتماعي.
ثانيًا: سمة التوجه إلى التراث الإسلامي للبحث عن المطلب الاجتماعي.

وسوف نرجئ قضية (العدالة الاجتماعية) لموضعها في الفصل لفترة تبلورها ونضجها، ونتوقف عند القضية الأخرى.

تنتهي الثلاثينيات بمشاهداتها المتوالية وكتاباتها التي جاءت كرد فعل غاضب لما حاق بالفئات الشعبية إلى درجة التفريط في الأولاد.. فإذا كانت بداية الأربعينيات قد تميزت بأن دخل طه حسيين إلى مرحلة جديدة كانت مصر تمور فيها، تميزت أيضًا، في تحول جديد نتيجة للحرب وما أعقبها من تطورات داخلية عنيفة دفعت بطه حسين إلى بلورة فكره في الإصلاح الاجتماعي بشكل أكثر وضوحًا وجلاء.

غير أنه لابد من إلمامة خاطفة عن المناخ الذي حاول فيه طه حسين ممارسة دوره الاجتماعي.. إذ مرت البلاد في سنوات الحرب العالمية الثانية بتطورات متتابعة، فإلى جانب سلبيات الحرب من اختلاط عدد كبير من الجنود الأجانب بالسكان واهتزاز القيم استفحل الغلاء وقلت الأقوات وزادت الحرب من ضراوتها فأعلنت الأحكام العرفية، وعاشت البلاد فترة اهتزاز اجتماعي حاد، وظهر وباء الملاريا بين عامي ٤٢/ ٤٤ فارتفعت الوفيات وزادت حالات سوء التغذية وتعرض المصابون لرداءة الجو بسبب سوء الكساد.. وزادت شراهة الوباء إلى درجة أن انمحت قرى كاملة في الوجه القبلي، كما ظهرت سلسلة طويلة من الفساد نتيجة لرداءة الأحكام العرفية والمحسوبيات والاستثناءات وفصل الموظفين وما إلى ذلك من العوامل التي دفعت إلى زيادة الضغط الاجتماعي والاقتصادي، ومن هنا تعمقت ظاهرة هامة في هذا الوقت تمثلت في محورين يمكن تلخيصهما كما يلي:

١- زيادة مخاوف الطبقة التي أثرت ثراء فاحشًا.
٢- زيادة ضيق الطبقات التي عانت من الفقر المدقع.

وقد زاد في هذا كله، حقيقة، أنه مقابل ذلك (الضمور والنمو الثقافي الشعبي، يمكننا تلمس سبب من أسباب التحلل الاقتصادي)، كان عامل نقيض آخر ينمو ويزدهر، وهو عامل (الوعي) الثقافي العام.. ومن خلال المقارنة بين الضمور المعيشي الاقتصادي ، الاجتماعي، بل الصراع الطبقي الذي شهدته مصر في الأربعينيات والخمسينيات، وعلى الأقل في

السنوات القليلة العنيفة بعد الحرب وقبل الثورة ٤٦/ ٥٢[٦٢٤].

وعلى هذا النحو، ففي الوقت الذي تدهورت فيه الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ارتفع الوعي في اتجاه صاعد.

فما موقف طه حسين من هذا كله؟

لا تكفي كتابات طه حسين في هذه الفترة لنجد فيها أصداءً لهذا الواقع، وإنما لنجد فيها وصفًا يدفع بنا دفعًا إلى الاحتجاج والغضب، كما يدفع بنا إلى البحث عن مخرج لهذه الكارثة التي عاشت فيها البلاد.

إن كل ما يكتبه في هذا الوقت، حتى ولو كان أدبًا خالصًا، إنما يعبر في المقام الأول عن شعوره الإصلاحي في فترة من أكثر فترات مصر اضطرابًا، وحيث وجد طبقتين، حيث بدا انتفاء العدالة الاجتماعية أمرًا واقعًا، وحيث مصر تمور بالظلم والوباء، وحيث مشكلة الفقر بأقصى درجاتها -الجوع- كانت تفرض نفسها فرضًا مريعًا، وقد راح في بداية هذه الفترة يضرب على وتر العدالة الاجتماعية المفقودة بين طبقتين، فمن الإجرام، كما يرى، أن ((يشبع قوم من أهل الوطن حين يجوع آخرون، وحين ينعم قوم من أهل الوطن حين يبتئس آخرون، وبأن من الحق عليهم جميعًا أن يبتغوا الوسيلة التي تمكن مصر من أن تطمئن إلى أن أبناءها يشبعون جميعًا إذا لم يكن بد من أن يكون بين أبنائها هذا التفاوت في الحظ من الغنى والفقر ومن البؤس والنعيم))[٦٢٥].

وطه حسين في هذه الفترة يقرأ ما يأتيه من خطابات ثم يكتب ما يعيشه كاتبه أمامه من الحاجة والعوز والجوع، وبعد أن يشير إلى مظاهر هذا الظلم الاجتماعي يطلب من الحكومة والبرلمان العناية بهذا العدد الكبير الذي يجد نفسه مضطرًا إلى أن يصبح ((بحكم الجوع والبؤس على أن يصبح عدوًا للنظام))[٦٢٦]، ولا تلبث أن تعود الحاسة النقدية أكثر حدة في الاتجاه النقدي، فيعود إلى تصوير الهوة الشاسعة بين الغنى والفقر، ففي مقالة بعنوان (حول الموائد) يعدد مظاهر الثراء الفادح، ثم يعدد مظاهر البؤس المدقع، يقول ((.. كل ذلك والفقراء يتضورون جوعًا وهؤلاء الأغنياء الآكلون الشاربون يتوجعون للفقراء ويتصعبون من شقاء الفقراء، ويعطفون على الفقراء، ويتحدثون عن الإنسانية التي تأمر بالإحسان

([624]) يوجد تحليل جيد للفترة عند د. الأنصاري (تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي، ص ١٥٧.

([625]) الثقافة ١/ ١٠/ ٤٠.

([626]) السابق.

بالفقراء والمقراء والنقراء، ولكن عطف بالكلام الطائر في الهواء، وكل ما يريده هؤلاء أن تكتب الصحف وأن تنشر الصحف وأن تذيع الصحف.. (و) .. إنهم يأكلون ويشربون وينامون ويشخرون فهل هذا هو العطف على الفقراء أيها الأغنياء؟ وهل ادعاؤكم أنكم متألمون من حالة الفقراء وأنتم لا تشعرون بحالة الفقراء مما يخفف ويل الفقراء؟))(٦٢٧).

وتتعدد مشاهد الدعوة إلى العدالة الاجتماعية في أعماله الفنية أيضًا وفي دلالتها.. في كتابيه عن (أبي العلاء المعري) الذي كتبهما بين عام ٣٩/ ٤٤ يركز على افتقاد الوعي لدى أبي العلاء مما انتهت به فلسفته إلى التشاؤم والعزوف عن الحياة إلى القصور في رؤية الجانب الاجتماعي كما ينبغي(٦٢٨).. أما في (أحلام شهرزاد) رغم أن هدفه الأول فيها كشف كراهية الملوك وطغيانهم وأنانيتهم، فإن أصداء عديدة في هذا العمل تشير إلى افتقاد العدالة الاجتماعية، فهذا الشعب لا يملك من إرم نفسه شيئًا في التغيير، وقد ترك شيئًا من هذا في روايته التي كتبها في هذه الفترة (دعاء الكروان) فراح يصور فيها حال الإنسان البائس في رؤية تقترب من (الواقعية) التي عرف بها الاتجاه الاشتراكي السائد حينئذ رغم، ما تحتويه، من رؤية رومانسية لا تخدعنا عن فحواها الاجتماعي، بالخط الاجتماعي وتكون هذه الفترة أيضًا التي يكتب فيها (شجرة البؤس)، متفردًا فيها، كسابقتها، بالخط الاجتماعي خاصة في إقليم من أقاليم مصر في القرن الماضي محاولاً أن يدين كثيرًا الرذائل الاجتماعية في عصره كاستنكار دور العرافات المخادعات، ويصور حالة المرأة المقهورة المغلوبة على أمرها، وهو في كل هذا لا يغفل رجل الدين السلبي الذي يتدخل أكثر من مرة في هذه الرواية في تحديد مصير هذه العائلة التعسة، وهو في كل هذا لم يغفل قضيته الأثيرة، الطبقية، ورسم التناقض بين الطبقات، على لسان إحدى الشخصيات فيها، يقول:

((أما أنا وأمثالي نرتشي لنعيش، هذه رشوتي قد أتاحت لي أن أقرضك ما تعين به أباك، وأن أعينه من غد، فأما غيرنا..ثم سكن قليلاً، ثم قال: فأما

---

(627) الأيام ١١، ١٢/ ١٠/ ٤١.

(628) مع أبي العلاء، ص ١٣ يقول (كنت أحدث أبا العلاء بأن تشاؤمه لا مصدر له في حقيقة الأمر إلا العجز عن ذوق الحياة،والقصور عن الشعور بما يمكن أن يكون فيها من جمال وبهجة)، ويقول في موضع آخر ص ١٨٦ بأن اشتراكية أي العلاء استمدها من الثورات ولكن (يحكم فيها عقله فينتهي به العقل إلى هذا اليأس المريح المؤلم الذي يكون للفلاسفة والشعراء، ينتهي به العقل إلى أن الجور واقع لا شك فيه، وأن العدل أمل لا سبيل إليه، وإلى أن اليأس المريح على ما يثير من الآلام الممضة خير من الجهاد الذي لا يغني).

رؤساؤنا وسادتنا فإن الحكومة تبسط لهم في الأجر، وتوسع عليهم في الرزق.. وهم مع ذلك يرتشون لا كما نرتشي))[٦٢٩].

ويكتب (جنة الشوك) فيتلمس الرمز يبطنه بما يريده من إصلاح.. وإن كان الإنصاف يقتضينا ذكر أنه بينما يركز على عديد من القضايا[٦٣٠]، فإن الطبقية فيه تستحوذ على مساحات شاسعة في الكتاب ضئيل الحجم، يقول فيها على سبيل المثال، حين يدور الحوار بين الطالب - الفتى- وأستاذه - الشيخ- ما يريده بالأسلوب الذي اختاره: فما يكاد الطالب يسأل في شيء من الإنكار بأنه لا يوجد أدق في تصوير البائسين وثراء المثرين والتفاوت المخزي بين الطبقات من هجاء (جوفينال)، فإن الشيخ يردد قائلاً: ((ألا أدلك على شيء هو أبرع وأبلغ وأدق تصويرًا لذلك من هجاء (جوفينال)؟! انظر إلى حياة المصريين))[٦٣١].

ويصل جهد طه حسين الإصلاحي أقصاه في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية إما جهرًا وإما رمزًا، ففي منتصف الأربعينيات يواصل دعوته إلى المساواة ورفع الظلم عن الطبقات الفقيرة بصراحة ووضوح، وهو في نفس الوقت يجاوز الجهر إلى الغموض، فروايته التي لم تكتمل، ما وراء النهر، تكشف رغم قدر الإبهام الكبير فيها عن نقد عنيف للنظام الاجتماعي القائم، وهو حين يحدثنا عن المكان الذي تدور فيه الأحداث والشخصيات التي تتواجد يكشف عن الهدف الإصلاحي الذي قصده، فالزمن الذي كتبت فيه القصة هو زمن نشرها بالفعل، وهو يصرح بهذا حين يقول ((قصتنا تحدث في العصر القديم وإنما نزعم أنها حدثت في العصر الذي نعيش فيه))[٦٣٢]، والمكان الذي كتبت فيه أيضًا هو مصر رغم ما يشوب حديثه من سخرية شديدة حين يقول ((ليست هذه القصة مصرية، لأن مكانها لا يوجد في أرض مصر))[٦٣٣]، أما الشخصيات فهي تلك الشخصيات المصرية دون شك، انظر إليه وهو يمعن في السخرية فيمعن في كشف اللغز الذي قصد أن يكون مباشرًا يقول في موضع آخر ((أهل مصر كلهم أخيار أبرار لا يحبون شيئًا كما يحبون العدل، ولا يبغضون شيئًا كما يبغضون الجور، ولا يؤثرون شيئًا كما يؤثرون زكاء القلب وصفاء

---

(629) شجرة البؤس ص ١١٦.
(630) جنة الشوك، الصفحات ١٥٤، ١٦٥، ١٦٦.
(631) السابق ص ٢٣، ٧١، ١٠٦.
(632) ما وراء النهر ص ٢٢.
(633) السابق ص ٢٣.

النفس.. ولا يرفعون أنفسهم عن شيء كما يرفعونها عن مفارقة الإثم أو مصاحبة الفساد.. ينئون عن السيئات أشد ما يكون النأي، ويتجافون عن الموبقات أشد ما يكون التجافي وينزهون أنفسهم عن الخطيئة أشد التنزيه، فلست ترى بينهم قويًا يستغل ضعيفًا ولا غنيًا يستذل فقيرًا ولا ناعمًا يستطيل على بائس ولا سعيدًا يستخف بشقي(٦٣٤)، إلى غير ذلك من الصفات التي تؤكد حال المصريين القلقة في هذه الفترة.

انظر إليه في موضع آخر حين يتحدث عن الفلاحين فيقول ((الفلاحون الذين يزرعون الأرض ويستغلونها ويستخلصون خيراتها لسادتهم، يقدمون إليه كل هذه الخيرات ويعيشون على ما يسَّاقط منها هنا وهناك على ما يتفضل به عليهم سادتهم من الفتات، لا يملكون شيئًا وليس لهم أمل في أن يملكوا شيئًا، لا يكادون يملكون أنفسهم وليس لهم أمل في أن يستقلوا بملك أنفسهم، هم أحرار في ظاهر الأمر يذهبون ويجيئون، ويستيقظون وينامون، ولكنهم رقيق في حقيقة الأمر))(٦٣٥).

على أنه يلاحظ هنا أن الدعوة إلى التغيير كانت أكثر تأكيدًا من سابقتها، فقد كان محصلة اهتمامه بالمعدمين رابطًا بينهم من ناحية وبين الموسرين، وبينهم وبين البيئة من ناحية أخرى إذ دعا وتنبأ في وقت واحد أنه لابد أن تهب رياح التمرد والثورة، فقد كان مؤمنًا أنه لابد أن تتغير الدنيا ويهب على ((هؤلاء البائسين.. ريح علمتهم أن لهم شرفًا تراق في سبيله الدماء، ويحتمل في سبيله العقاب والعذاب، لقد تغيرت الدنيا وفسد الناس، .. (و).. ولن أدهش إذا أنبئت غدًا، أو بعد غد بأن هؤلاء الناس يضيقون بخضوعهم لنا، وتسلطنا عليهم، ويرون أن لهم في أنفسهم حقوقًا يدافعون عنها، ويتكلفون في الدفاع عنها ما لم يتعودوا أن يتكلفوا..))(٦٣٦).

وفي العام الذي كتب روايته الناقصة (ما وراء النهر) عام ٤٩ أتم الجزء الأول من كتابه (الفتنة الكبرى)، فراح يرسم فيه نموذجًا لنظام الحكم، وصورًا للعوامل الاجتماعية مبينًا أثرها في حركة الأحداث التاريخية وتكوينها، كما راح يؤكد في هذا السياق أن عمر رغم كونه ليس صاحب اشتراكية أو شيوعية بالمعاني المعاصرة، فإنه كان ينتمي إلى هذه الأفكار لأنه حاول أن يحقق العدل الاجتماعي ((الذي تحاول بعض الديمقراطيات الحديثة أن تحققه محتفظة للمالكين بما يملكون وللأغنياء

---

(634) ما وراء النهر ص ٢٣.
(635) السابق ص ٣٢/ ٣٣.
(636) السابق ص ١٠٠.

بكثير مما يجمعون))[٦٣٧]، وهو ما يفسر اهتمامه الكبير بالبيئة الاجتماعية في التفسير التاريخي للكشف عن أثر البيئة في تكوين الأحداث رابطًا بينها وبين الدين من حيث إن الدين يمكن أن يمثل ثورة ضد الظلم الاجتماعي.

وتتتالى صور المساواة وانتفاؤها في أعماله الفنية.. فلابد أن يكون الناس ((سواء أمام القانون لا يمتاز منهم فرد عن فرد ولا تتفوق طبقة على طبقة، ولا يتفاوتون فيما بينهم إلا بالعمل الصالح والبلاء الحسن))[٦٣٨]، كما كان دائم التأكيد على حقيقة إنسانية تتلخص في أن ((حرية الضمير وحرية التفكير وحرية التغيير هي التي تجعل الإنسان إنسانًا))[٦٣٩]، وهو في كل هذا لا يغفل عن المقارنة بين محظور الاختيار، الحرية أم المساواة، متمنيًا، أن تمنح الديمقراطية لحيرة هذه العصر الحرية والمساواة معًا وليس أحدهما على حساب الآخر[٦٤٠].

ولما كان هذا العام هو عام الوباء، فقد أضاف إلى الجهل والفقر الوباء أيضًا.. ومن هنا، فإن المرض يزيد الهوة بين الطبقتين اتساعًا رحيبًا، وهو ما يبدو أكثر وضوحًا في كتاباته في هذه الفترة وأشهرها المقالة التي كتبها تحت عنوان (مصر بين النعيم والجحيم)، فيها يقول إلى صديقه في رسالة طويلة ضمن ما يقول ((أقم حيث أنت يا سيدي.. لا تبرح الأرض ولا تعبر البحر فإن من ورائه في مصر هولاً هائلاً، وشرًا مائلاً .. (و).. إن في مصر جحيمًا من الوباء والموت والفقر والجهل والمرض، وجحيمًا آخر من الحسد والحقد والبغض والموجدة .. (و) .. وهؤلاء هم أصحاب النعيم أما أصحاب الجحيم.. فهم الجائعون الضائعون، والبائسون اليائسون، والمأزومون المحرومون))[٦٤١].

ويصل مشهد التفاوت الطبقي إلى أقصاه في كتابه (المعذبون في الأرض).. و(الوعد الحق) ففي مقدمة الكتاب الأول يرسم صورة بليغة[٦٤٢] حين يقول ((...المصريين فريقان: أحدهما يصور الكثرة الكثيرة البائسة التي تتحرق شوقًا إلى العدل مصبحة وممسية فيما بين ذلك من آناء الليل

([637]) الفتنة الكبرى ج١ ص ١٥/ ٢٠.

([638]) رحلة الربيع ص ٨.

([639]) السابق ص ٩/ ١٠.

([640]) السابق ص ٨٣.

([641]) نفوس للبيع ص ٧٩/ ٨٥.

([642]) يكتب في المقدمة اهداءين، الأول (إلى الذين يرهقهم الشوق إلى العدل، وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل، إلى أولئك وهؤلاء جميعا، أسوق هذا الحديث) أما الإهداء الآخر (إلى الذين يجدون ما لا ينفقون، وإلى الذين لا يجدون ما ينفقون، يساق هذا الحديث) ص ٥.

وأطراف النهار، والآخر يصور القلة القليلة التي تشفق من العدل حين تستقبل ضوء النهار وتفزع من العدل حين تجنها ظلمة الليل، وكأن فريق الكثرة ذاك لا يجد ما ينفق في رزق نفسه وفي رزق من يعول .. (و) .. وكأن فريق القلة يرى بؤس الفريق الأول.. فلا يحفل بما يرى ولا يلتفت إليه..)[٦٤٣].

وعلى هذا، فإن الإحساس بالظلم الاجتماعي يمثل السمة الرئيسة لهذه المجموعة، لا سيما في قصة (صفاء) الذي يمثل حاجز المال فيها درجة عاتية من درجات الطبقة فمتى استطاع الفقير المعدم -على حد قوله- ((أن ينفذ من أسوار المال والثراء))[٦٤٤].

وفي (المعذبون في الأرض)، أكثر أعماله تعبيرًا عن السنوات التي كتبت فيها تزخر بالرموز الاجتماعية والدلالات التي توحي بالتمرد الشديد على العصر.. فصالح الفقير البائس يمكن أن يكون أي مصري في أي مكان من مصر[٦٤٥]، كما لا ينبغي للفقير أن يتطلع للحياة الكريمة، وأن يحس المشاعر الطبيعية حتى لو انتهى الأمر بالقضاء عليه[٦٤٦]، كما لا يكف عن ذكر مسببات الوضع الذي انتهت إليه البلاد، فهو يرى أن ((الضرائب قليلة جدًا، أقل مما ينبغي، المرتبات قليلة جدًا أقل ما ينبغي، والعدل يقتضي أن تضاعف الضرائب، وأن تضاعف المرتبات، وأن تكف الدولة عن الإسراف في الأموال العامة، وأن يكف الأغنياء عن الإسراف في أموالهم الخاصة وليس إلى الإصلاح الاجتماعي من سبيل إلا إذا وجدت الإدارة السياسية الصالحة[٦٤٧].

والصفحات الأخيرة من الكتاب زاخرة بالمعاني الاجتماعية التي ترسم خيوطًا دالة للمعايشة والتأمل والإسراع إلى التوجه والإرشاد.

ولا يمكن قراءة (المعذبون..) دون أن تقرأ (الوعد الحق) فكلاهما يكمل الآخر، وكلاهما صدر في وقت واحد، فقضية العدل الاجتماعي في (الوعد الحق) هي عند سلفه، والدعوة إلى العدل الاجتماعي تتكرر هنا وهناك، والتركيز على الهوة الشاسعة بين الطبقتين الهدف الأساسي في العملين.

---

(643) المعذبون، المقدمة ص ٦/ ٨.

(644) السابق ص ١٤٥.

(645) المعذبون ص ٢٤/ ٢٥.

(646) السابق ص ١٤٥/ ١٤٧/ ١٤٩.

(647) السابق ص ١٥٦.

نجد في (الوعد الحق) أولئك الذين ((يتحدثون فيما بينهم بأن الحرية والرق، والغنى والفقر، والقوة والضعف أعراض تزول ليس من شأنها أن تميز بعض الناس عن بعض، ولا أن تسود بعضهم على بعض، ولا أن تحكم بعضهم على بعض))[٦٤٨]، وفي (المعذبون ..) نلتقي مع أولئك الذين لا يجدون الخلاص مما هم فيه إلا ((أن يأتي العدل فيلقي بينهم وبين ضيفهم ستارًا، ولكن العدل كان بطيئًا مسرفًا في البطء، كأنه كان يمشي في القيد..))[٦٤٩]، وكما تكررت هناك لفظة مثل (المعذبون) تكررت هنا لفظة مثل (المستضعفون)، وكما تكررت هنا لفظة مثل (المترفين) تكررت في العمل الآخر لفظة مثل (الأغنياء والسراة)، وكما يصل إلى درجة تحذير المترفين فيسألهم ((إلى أي الطريقين يريد المترفون من المصريين أن يذهبوا: إلى طريق الموت أم إلى طريق الحياة؟))[٦٥٠] فهو في الموضع الآخر يؤكد فيما لا يخلو من مغزى أن ((الله وارث المستضعفين أرضه))[٦٥١].

وتملأ دعوة العدل الاجتماعي عليه نفسه حتى لا يكتب كلمة أو ينشر مقالاً حينئذ إلا ويأتي فيها تمثيل هذه العدالة والدعوة لها حتى يستفيد من كتاباته الإسلامية الجذابة المؤثرة لمحاولة أن يبث هذه الدعوة ويوفر لها الأسانيد اللازمة والمؤكدة لوجودها في التراث، بل وصل إلى درجة أن راح يصطنع الخيال في هذا الصدد فيصفها بأنها (غانية)، فهو في قصة خيالية طريفة تروي كيف أن رؤية أهل القرية في إحدى مدن الوادي اقتصرت كل يوم على هذه المخلوقات الجميلة التي تروح وتجيء في يسر وتصطنع الابتسام وتتميز بالخفة في صورة ((ساحرة باهرة، تحيط بها حالة من الفتنة الفاتنة وهي تظهر وتختفي عدة مرات حتى لتثير عجب (شيخ القرية) و (الباشا) حاكم القصر، ويشبع خيرها في الشوارع فإذا الجمع يتحدث هذا الحديث وأهل المصانع كلهم يتحدثون هذا الحديث والعاملون في الدواوين والمصارف والشركات.. والطرق والمواصلات يتحدثون هذا الحديث))[٦٥٢] ويتحير الجميع في تفسير ظاهرة (الغانيات) التي تمتلئ بها الأرض والسماء حتى يقول الشيخ أنه كلما سأل إحداهن أجابت أن اسمها

---

(648) الوعد الحق ص ١٨.
(649) المعذبون ص ٧.
(650) السابق ص ١٩٢.
(651) الوعد الحق ص ١٧٦.
(652) جنة الحيوان ص ١٣٤.

هو (العدالة الاجتماعية)[٦٥٣].

وتتتابع كتاباته التي تركز على الطبقية، فلا يجد في البلاد غير نعيم قد قسم للقلة وبؤس قد فرض على الكثرة[٦٥٤]، ولا يوجد غير ((البؤس والحرمان اللذين ينتهيان إلى الجوع والشقاء))[٦٥٥]، ثم ذلك ((الفساد الذي يحيط بمرافق الشعب كلها، ويتغلغل فيها كلها))[٦٥٦]، وهذه الأحاديث التي تلقى من المسئولين جزافًا في وقت كان الناس فيه يموتون مئات، ويمرضون مئات، يتخطفهم هذا الموت الطارئ.. وفي أثناء هذا كله كانت الملايين تنعم بالجهل.. وتنعم بفقرها))[٦٥٧].

على أن أكثر مقالاته تأثيرًا في جانب العدالة الاجتماعية نشرت تباعًا في عام واحد (٤٦).. أما إحداها[٦٥٨]راحت في عرض بسط أسباب ثورتي سبارتكوس في الغرب والزنج والقرامطة في الشرق تؤكد على حقيقة واحدة، هي أن ((الرق الاجتماعي لم يذهب بعد ولم ينقض عصره.. فهناك طبقات من الناس تسترق طبقات))، ويحاول الاجتهاد في تفسير أسباب هذه الثورات فيرى لأن الثروة إنما كانت في ((أيدي طائفة قليلة من الناس يمكن إحصاؤهم))، وقد استطاع أن يبسط حقيقة هامة هي أنه ما كادت هذه الثورات أن تحصل على الحرية أو على شيء من الحرية حتى اكتشفت أنها لم تحصل على العدل، فقد دفعت ثمن ثورتها من انتقاص قدر العدل الذي خرجوا من أجله.

وقد توقف فيما بعد كثيرًا عند هذا الصراع بين العدل والحرية لا سيما في هذه المقالة التي صدرت في نفس العام[٦٥٩] - ٤٦- وراح يستعرض فيها ذلك الصراع القائم في عصره بين الرأسمالية في الشرق والشيوعية في الغرب، مبينًا كيف أن الحرية يمكن أن توجد في معسكر، هو المعسكر الغربي، ولا توجد العدالة، وهو العكس مما يحدث في المعسكر الآخر، المعسكر الشيوعي، مستهدفًا في نهاية الأمر تصوير افتقاد العدالة

---

(653) السابق ص ١٣٥.

(654) بين بين ص ٥٠.

(655) السابق ص ٨٠.

(656) السابق ص ١٠٠.

(657) بين بين ص ١٠٠، أيضا: المصور ٢١/ ١١/ ٤٧.

(658) ثورتان، الكاتب مايو ٤٦، أيضا: كتاب (ألوان) ص ١٦٤.

(659) بين العدل والحرية، الكاتب يوليو ٤٦ أيضا كتاب (ألوان) ص ٢٣٣، وقد أعاد ذكر هذا الموضوع في عديد من كتبه التالية وكتاباته الجديدة لعل من أهمها مقالة (الأدب بين الاتصال والانفصال) في أغسطس ٤٦، أيضا ألوان ص ١٩٤/ ٢١٦.

الاجتماعية على المستوى العالمي انطلاقًا من المستوى المحلي الذي وجد نفسه مضطرًا إلى الصدور منه.

وقد حاول طه حسين في الفترة الأخيرة قبل توليته الوزارة بيومين أن يصل إلى تشخيص شخصي لافتقاد قيمة العدالة، فراح يؤكد أن أزمة الضمير أو (الأخلاق) التي تفتقد هي السبب في افتقاد هذه القيمة، فإذا صلحت أخلاقهم، صلحت سياستهم، انجلت عنها ظلمات الجهل والفقر والمرض[٦٦٠]، حتى إذا ما أعيته الرؤية وأضناه الواقع، فإنه لا يملك حين تصل الأخبار إليه في باريس أن في مصر انتخابات أن يتمنى أن يحيا (عصر الأحلام)، وهذا العالم يطرد منه الجهل والمرض، وتكون آخر تمنياته قبل أن يعود إلى مصر أن يحل على مصر ((عهد المساواة والتضامن الاجتماعي))[٦٦١]، بما يعني أن المطلب الاجتماعي لم يغب فترة من فكر طه حسين، الذي بدا أنه من أبرز مطالبه في هذا الوقت الذي كانت فيه الدعوات الاشتراكية تدعو إلى هذا المطلب وتعمل له في دأب حثيث.

وعلى أية حال، يمكن أن نفهم كتابات طه حسين وفكره الاجتماعي حينئذ حين نسرد بعض عناوين مقالاته في هذا الوقت على النحو التالي:

- إسراف.
- بؤس.
- حول الموائد.
- مصر المريضة.
- جوع وأحاديث.
- مصر بين النعيم والجحيم.
- إرهاق وإملاق.
- مشكلات مصر الاجتماعية.

على أنه لا يمكن تناول فكر طه حسين الاجتماعي في وقت نغفل فيه تصنيف هذا الفكر، وبشكل آخر، تحديد (مذهبه الاجتماعي) الذي يصبغ فكره بصبغة اشتراكية كما يرى أصحابها ومعتنقوها عندنا.

لقد تعددت الآراء التي تذهب بطه حسين إلى دائرة الفكر الاشتراكي وتنسبه إليه، فرأى البعض أن في كتاباته ((استهلالاً متأنيًا متمهلاً على استحياء))[٦٦٢]، بينما يذهب آخر إلى أن منهج طه حسين كمؤرخ ((يجمع

---

(660) المصري ١٠/ ١/ ١٩٥٠.

(661) الأهرام ١٩/ ٨/ ٤٩.

(662) فتحي عثمان ص ٧.

بين العوامل المختلفة الذاتية والخارجية في تفسير التاريخ))[٦٦٣]، كما ذهب البعض الثالث إلى أن طه حسين يعد ((أول مؤرخ عربي يقيم وزنًا للعامل الاقتصادي الاجتماعي في تفسير مواقف التاريخ الإسلامي))[٦٦٤]، بل وإلى درجة أنه تأثر ضمن من تأثر بكارل ماركس وشراحه، في وقت يرى فيه كاتب آخر إلى أن فكره ومواقفه العملية ((لم تخل من آثار الفكر الاشتراكي الخيالي))[٦٦٥]، مستدركًا هذا الكاتب إلى أن نظرية طه حسين في جوهرها إنما هي ((نظرية الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في الغرب))[٦٦٦]، ذاهبًا إلى أن عصره، بما فيه من عنف وإرهاق شديدين حال بينه وبين التصريح بالانتماء إلى المذهب الاشتراكي والجهر به.

وهنا نجدنا أمام آراء متفرقة وسؤال واحد:

هل كان طه حسين - حقًا- اشتراكيًا؟

ويزيد هذا السؤال تعقيدًا أنه قد اتهم فترة الأربعينيات خاصة إما (بالاشتراكية) من الملك ومن ورائه البوليس السياسي، وإما بانتمائه إلى طبقة (البرجوازية)، كما ألصقت به بعض الصحف التقدمية في هذا الوقت، ثم هذه الأفكار التي يطلقها عليه دعاة الاشتراكية في مصر.

والواقع أن الآراء التي وصفت طه حسين بأنه (اشتراكي) أو (مادي) وما إلى ذلك، تعود إلى كتاب عرفوا في مصر باعتناقهم المذهب الاشتراكي، وهو ما يدفعنا قبل أن نجيب عن مدى ارتباط طه حسين بالاشتراكية، أن نحاول، مراجعة، ما تضمنته أفكاره بشكل أدق عن الاشتراكية.

إن السمة الرئيسة لفكر طه حسين الاجتماعي إنما تركز على إبراز البون الشاسع بين الطبقتين: الغنية والفقيرة وما تفرع عن هذا من ضرورة رفع الظلم الاجتماعي، والتنبيه إلى بعض الرذائل الاجتماعية التي تحول دون حصول الفقير على متطلبات الحياة..

فإذا عدنا إلى أعماله سنجد هذه الأفكار تتناثر فيها، فأصداء المفارقة بين الغنى والفقر نجدها في رواية (دعاء الكروان)، (هنادي) الفقيرة المسلوبة تمثل الطبقة التي هزمت من طبقة (المهندس) الأفاق الثري، وهذا ما نجده أيضًا وبشكل ما فيما يمثله الدافع الذي دفع بطبقة الموظفين

---

(663) محمود أمين العالم ص ١٢٧.

(664) محمود إسماعيل، الطليعة ديسمبر ٧٧ ص ١٥٧.

(665) عبد العظيم أنيس، السابق ص ١٥٣.

(666) السابق ص ١٥٤.

المطحونة إلى الارتشاء فيما تمثله الطبقة الثرية التي لا تتردد في ممارسة رذيلة الرشوة بشكل مخيف..

أما في (ما وراء النهر)، نجد هذا التناقض الطبقي متمثلاً في الصراع بين القرية والربوة، بين البؤس والنعيم، بين المالكين والمملوكين.

أما في - المعذبون في الأرض- فيكفي أن ننظر إلى المقدمة لنرى هول التفرقة بين (الذين يجدون ما لا ينفقون.. والذين لا يجدون ما ينفقون).

وهو عين ما يذهب إليه القاص في (الوعد الحق) من عدم المساواة التي راح يؤكد خلالها على أن الدعوة إلى الحق إنما هي أساس من أسس الإسلام، بما يعني أن العدل الاجتماعي من أهم أبعاد الدين وأكثره أهمية.

- وإذا جاز لنا أن نعد كتابه (مع أبي العلاء في سجنه) الذي صدر عام ٣٩ هو أول عمل فكري متكامل، فإننا يمكن أن نستشم منه الحس الاجتماعي، فحين يعجب طه حسين من موقف أبي العلاء من مجتمعه، وهو موقف تشاؤمي سلبي، إنه يتساءل عن أبي العلاء، مفسرًا فلسفته، فيقول ((لم يستأثر زيد بالغنى ويضطر عمرو إلى الفقر؟ وكيف السبيل إلى دفع هذا الظلم ووضع العدل مكانه وتحقيق الإنصاف بين هذين الرجلين اللذين يظفر أحدهما بأكثر من حاجاته ويحرم الآخر أيسر هذه الحاجات؟، ولا يلبث أن يجيب على السؤال قائلاً سبيل ذلك تحقيق المساواة من غير شك، سبيل ذلك أن يؤخذ من الغني وأن يرد على الفقير، حتى لا تكون بينهما هذه الفروق التي تبيح لأحدهما أن يظلم الآخر ويستعلي عليه ويكره أحدهما الآخر على أن يبغض صاحبه ويضمر له الضغينة والموجدة))[٦٦٧].

... هذا معنى بسيط لفهمه للمساواة.

- وثمة معنى آخر لكلمة المساواة نجده حين يذكر الحال الذي ((يتحقق في غير إلغاء للملك ولا تحريم للغنى، والذي تحاول بعض الديموقراطيات الحديثة أن تحققه محتفظة للمالكين بما يملكون، وللأغنياء بكثير مما يجمعون.. وهو أن تكفل الدولة للناس حياتهم وصحتهم وحاجتهم وكرامتهم دون أن تضطرهم إلى أن يستذلوا أو يستغلوا، ودون أن تغريهم بالتبطل والفراغ، على أن هذا كله يأتي في عرض تفصيل آخر اشتراكية عمر فلا يفوته أن يوضح موقفه، فيقول ((ما أذكر الاشتراكية وما أذكر الشيوعية، فلم يكن عمر صاحب اشتراكية ولا شيوعية))[٦٦٨].

---

(667) مع أبي العلاء ص ١٨٣.

(668) الفتنة الكبرى، ج١ ص ١٩/ ٢٠، أيضا: المعذبون في الأرض ص ١٦٤.

.. هذا معنى آخر لفهم المساواة عنده، فهو لا يعترف، بأنه صاحب رأي اشتراكي أو حتى يقرن شخوصه بالاشتراكية أو الشيوعية وإن كان لا يفوته في تضاعيف الكتاب أن يذكر أنه يعتنق الفكر الذي يحقق المطلب الاجتماعي، فالكتاب مليء بألوان المساواة المثالية دونما تحديد.

- فلنأخذ مثلاً آخر يؤكد ما نذهب إليه، أنه حين حدد أسباب ثورتي الزنج والقرامطة يقول أن غايتهما واحدة هي (تحقيق العدل في الأرض بعد أن أفسدها الظلم والجور))[٦٦٩]، وفي الوقت الذي يضرب أمثلة الثورة الفرنسية أو الثورة الشيوعية لتقريب حالة الثورة الاجتماعية إلى الأذهان التي يشير إليها، فإنه لا يوجد شبه بين الثورة الشرقية هنا والثورة الغربية في أوروبا حتى من باب (التسمية)، وحين يضطر إلى ذكر أسباب الثورات هنا أو هناك فإنه يقول صراحة في نهاية مقاله الطويل ((ليس يرى كتابنا وشعراؤنا في أحداث التاريخ العربي القديم ما يستطيع أن يلهمهم))[٦٧٠].

الإلهام والعبرة هما الشيء الوحيد الذي يخرج به من دراسة الثورات القديمة منها أو الحديثة، بما يعني، أنه، في شخوصه إلى أوروبا، ومع إيثاره للنهضة الغربية في التفكير، لم يصل إلى درجة اعتناق المذهب الاشتراكي بشكل مطلق.

وهذا مثل ثالث لفهم معنى المساواة بعيدًا عن ذكر كلمة (اشتراكية) بالمعنى المعاصر.

أضيف إلى ذلك كله، أن طه حسين كان يفصل دائمًا في الحديث بين الاشتراكية المعاصرة كما يعرفها روادها وشارحوها واشتراكية العصور القديمة كما حاول أن يشير إليها في التاريخ العربي أو التاريخ الروماني، فهو حين يذكر ((اشتراكية)) أبي العلاء - على سبيل المثال- لا يتورع في القول صراحة أن اشتراكية أبي العلاء قديمًا ليست هي اشتراكية كارل ماركس قط، ويقول ((يبغي أن يفهم من اشتراكية أبي العلاء، ما يفهم من اشتراكية العصور القديمة، ومن اشتراكية الثائرين الساخطين في القرن الثالث والرابع للهجرة، وقد استبقى من هذه الفلسفة الشعور بالظلم في توزيع الثروة والإنكار لما يكون عليه من انقسام الناس إلى طبقات الأغنياء والفقراء))[٦٧١].

وهذا يلتقي مع فهمه للاشتراكية كما يحاول استخراجها من التاريخ

([669]) ألوان، السابق ص ١٨٣.

([670]) السابق ص ١٨٦/ ١٩٤.

([671]) مع أبي العلاء ص ١٨٤.

العربي، فهو لا يعود للتراث قط إلا بهدف العبرة والعظة، وقد يلتمس فيه ما يدفع ((إلى الجد ويثير النشاط))(٦٧٢)، وهو ما يؤكد ما سبق أن أشرنا إليه أن القديم عنده إنما هو وسيلة للإفادة من الحديث على أنه غاية، ومع أنه لا يعتنق الاشتراكية بمفهومها المعاصر، فهو يعتنق المعاني الإنسانية فيها.

على أنه من المفيد أن نذكر أن بحث طه حسين الدائم بين الحرية في المعسكر الرأسمالي في الغرب، وتوفر العدالة في المعسكر الشيوعي دفع به في بعض الأحيان إلى البحث عن رؤية ذاتية تعني له الخروج بفكرة جديدة فصلها في فقرة ننقلها هنا، يقول:

((إذا أمكن أن ينشأ مذهب ثالث بين هذين المذهبين يلائم بين الحرية والعدل من جهة وبين الدين من جهة أخرى، ويتخذ الدين أساسًا لحياة إنسانية جديدة ترتفع عن المادة وترقى إلى المثل العليا وتؤمن بأن في الإنسان قوة لا تستطيع أن تحيا ولا أن تثمر ولا أن تتيح للإنسان حظه في الرقي إلا إذا اتصلت بمصدرها القدسي الأول عن طريق الإيمان والثقة والأمل، أقول إذا أمكن أن ينشأ هذا المذهب، كان في نشوئه الخير كل الخير لأنه يصلح ما أفسدت الثورة فيرد إلى الدين مكانته في القلوب وسلطانه على النفوس، ويعصم الناس من المادية الجامحة ومن الإلحاد المتمرد، ويكفل لهم في الوقت نفسه سعيًا متصلاً لتحقيق العدل في الأرض))(٦٧٣).

وثمة ملاحظة أخيرة تفيدنا في هذا السياق، فمع أن خيوط الفكر الاجتماعي لدى طه حسين يمكن أن نجدها في المذهب (الاشتراكي) بمفهومه العلمي، فإنها تظل دائمًا الخيوط العامة التي تشترك مع أي مذهب اجتماعي آخر ينطلق إلى كرامة الإنسان وكيانه واحتياجاته بما فيها المذهب الاشتراكي، غير أن أوجه الخلاف بين فكره وفكر المذهب الاشتراكي، يظل عاملاً قائمًا في جميع الحالات.. فإذا كان الإنتاج الاشتراكي الآن يقوم على الملكية الاجتماعية(٦٧٤) فإن طه حسين لم يرفض، قط الملكية بشريطة أن يوجد (التضامن الاجتماعي) بين جميع الأفراد، فإذا لم يوجد، فهو يدعو، بشدة، إلى أن تعمل الحكومة على فرض الضرائب ما يعين لها أن تعين المنكوب(٦٧٥) وهو ما جاء في مواضع كثيرة من كتاباته.

كما أنه في دعواته المتكررة للتعريض ضد النظام القائم كما سنرى،

---

(672) الكاتب ٤٦/٥.

(673) الكاتب ٧/ ٤٦، ألوان ص ٢٤٦.

(674) دائرة المعارف الاشتراكية، ص ٢٥.

(675) المعذبون .. ص ١٨٢.

فيما بعد، لم يدع، كما هي الحال في الفلسفة الاشتراكية إلى إنشاء الطبقة العاملة، وهي القوة الملقى على عاتقها بناء الاشتراكية في ظل الرأسمالية حتى تمر خلال تدريب نضالي شاق ضد البرجوازية وتنظيم حزبها المستقل.

ويضاف إلى هذا، أنه، فضلاً عن دعوته المستمرة إلى العدالة الاجتماعية والعمل لها فإنه لم يعرف أنه دعا قط إلى قيام ((ثورة اشتراكية ومرحلة كاملة من الانتقال)) كما تدعو الفلسفة الاشتراكية وتعمل له في طريق تحقيق أفكارها المعاصرة.

ومعنى ذلك كله، أن طه حسين الابن المخلص لليبرالية، لم يتجاوز إطارها في دعوته إلى الإصلاح الاجتماعي، ولم يهتم بأن تنتمي دعوته إلى المذهب الاشتراكي أو غيره، وقصارى ما شغله بالنسبة إلى الاشتراكية تحقيق الحد الأدنى للعدالة، فاتفق معها في أنها تطرح الأفكار العامة للعدالة، واختلف معها في أنه لم يتلمس وسائلها التنظيمية وخطوطها من النهج الذي اختارته لنفسها.

وقد بلغ اهتمام طه حسين من رفض الانتماء لهذا المذهب أو ذاك أن قال في معرض حديثه للقارئ في سخرية شديدة ((إني من المحافظين المتشددين في المحافظة، ومن أصحاب اليمين الذين لا يضيقون بأحد كما يضيقون بأصحاب الشمال))[٦٧٦] ، وهو ما يؤكد حرصه.. على النزعة الإصلاحية رغم ما كان يعوقه من بطش السلطات به.

وقد يقال بعد هذا كله أن أفكار طه حسين في هذا الصدد كانت تلتقي مع أفكار المذهب الاشتراكي، ومع التسليم بأنها كانت تلتقي مع الأفكار العامة التي لا يخطئها الفهم في أية دعوة راديكالية للإصلاح، فإننا لا يمكن التسليم قط، بوجود صلة عملية في تنفيذ ((أسلوب الإنتاج الاشتراكي كما يعرف لدى أصحابه من الاشتراكيين..)).

ولتوضيح موقف طه حسين أكثر، فإنه يمكن الجزم أنه كان ينتمي إلى أصحاب اليسار ممن تمردوا على الواقع الجامد والقيم المتخلفة في المجتمع المتحول، ومصداقاً لهذا أنه لم يرفض أن يصنف في هذا التيار قط فحين اتهم من الصحف التقدمية في منتصف الأربعينيات بأنه مفكر برجوازي، قال في رسالة طويلة عن مذهبه السياسي والاجتماعي ((إني لا أحب الديمقراطية المحافظة ولا المعتدلة ولا أقنع بالاشتراكية الفاترة وإنما أياسر

[676] السابق ص ٨٩.

إلى أقصى ما أستطيع))[٦٧٧]، وهو عين ما قصده حين قال لمن سأله عن كتاباته ((إنكم تتياسرون وتظنون أني على يمينكم))[٦٧٨]، بما يمنح كلمة (أياسر) من معنى لا يدخل في إطار الاشتراكية بمعناها المحدد، وإنما، انطلاقًا من الواقع الذي عايشه، وإن كان حريصًا خاصة بعد أن شهد أزمة الليبرالية الغربية أن يصل إلى أقصاها من جهة اليسار، بما يؤكد، أن ليبرالية طه حسين لم تظل في إطارها المحدد في ذهنه وإنما تطورت لديه بما شهد وما عانى من ظروف خاصة بنا فانعكست في تمرده هذا الاجتهاد الخاص به.

ومما سبق ذكره، فإن كلمة (أياسر) هنا لا ينبغي أن تفهم على أنها اتجاه نحو الاشتراكية أو إغراق فيها، وإن كانت لا تلغي أنها كانت اتجاهًا نحو اليسارية وانحيازًا لها بما فيها من تمرد على الواقع والثورة على معطياته من التجمد والخضوع.

وهو ما يؤكده كتاباته كلها.

ويرتبط بهذا، ما تميز به طه حسين عن غيره من الكتاب المعاصرين له، من أنه كان (مفكرًا عمليًا).. استطاع أن يستثير الأفهام ويستثمر الخيال في إيقاظ الوعي الذي هو المحرك الأول للتغيير، ويذكر عنه أنه في الأعوام التي تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة حين كانت البلاد حبلى بالتغيرات قال للبعض: ((إنكم تتحدثون كثيرًا عن الثورة، وتكتبون عن ضرورة الثورة، ولكنكم لا تعرفون ولا تتقنون فن العمل الثوري.. وما أحوجكم إلى دراسة التكتيك الثوري والاستراتيجية الثورية))[٦٧٩].

إذن، فنحن أمام مفكر عملي، رغم ظروفه الشخصية والسياسية، فإنه لم يحجم صراحة عن أن يبين الهدف الحقيقي للمثقف في الفترة التي وجد فيها، وهو ما يدفعنا إلى تصور بعض الخطوط (العمل الثوري) كما ارتآه صاحبه.

- لقد كان من أبرز السمات في تكوين طه حسين حقًا أنه كان (مفكرًا عمليًا)، وهذه النزعة تميزت لديه منذ فترة مبكرة من حياته، كما تأكدت في كتاباته الأولى، فلم يختر للدراسة العليا فلسفة (ابن خلدون) عبثًا، كما تتوزع خطوط (حديث الأربعاء) في هذا الدافع، وهو ما نراه منذ الثلاثينيات أيضًا سواء في (مع أبي العلاء في سجنه) أو في (مرآة الضمير..) فهو يؤكد أن

---

[677] الفجر الجديد ١/١١/ ١٩٤٥.
[678] مجلة العربي، مارس ٨١.
[679] عدد الهلال، السابق ص ١٢٣ وما بعده، لمحمود أمين العالم.

تغيير القناع أو إلغائه بين الفكر والفعل عند المثقف عمل لا جدوى منه، فأبو العلاء ليس صاحب إصلاح عملي صراحة[٦٨٠].

.. وتتدرج النبرة العملية في أعماله حتى تصل إلى أقصاها في (المعذبون في الأرض) و(على هامش السيرة) و(دعاء الكروان) و(مستقبل الثقافة) و (الفتنة الكبرى).. فكلها تسعى لتأكيد طابع العملية، فلم يكتف بأن يدعو بالكلمة المجردة أو يغلو في الخيال وحسب وإنما أضاف لهذا وعيًا بالواقع ووسيلة لتغييره[٦٨١].

وقد كان من أثر الطابع الذي عرف به طه حسين أن تعددت الآراء بشأن منهجه الفكري، فرؤي فكره على أنه تابع للمذهب الاشتراكي كما رأينا من قبل، كما اتهم من قبل المحافظين منذ فترة مبكرة من كتاباته حين كتب على هامش السيرة أنه يتصف بنزعة (براجماتية)[٦٨٢]، كما وصف أيضًا من غير المحافظين بأنه ليس براجمانيًا ولكنه ((يربط بين الفكر والواقع، بين العقل والعمل))[٦٨٣].

وهو في جميع الحالات لا يجاوز الكاتب الذي يرفض أن يظل أسير الصور الأدبية والرومانسية في عصره.

- ويرتبط بسمة الإيجابية في التفكير سمة أخرى، ونقصد بها سمة التحريض ضد النظام، وهي سمة رغم تغلبها على فكره، فإن طه حسين قد حرص على أن ينفيها نظرًا لبطش السلطة وعنت المناخ القائم، وقد أشار إلى هذا في أهم كتبه (المعذبون في الأرض) فقال في مقدمته ((ليس في الكتاب سياسة أو شيء يشبه السياسة، وليس في الكتاب تحريض على النظام الاجتماعي ينكره القانون، وليس فيه إغراء بتلك المبادئ الهدامة))[٦٨٤]، مما يؤكد على أن الكتاب بما احتوى فيه كل هذه الأشياء حتى منع طبع الكتاب ونشره في حينه.

ونبرة التحريض نجدها في مواضع كثيرة أخرى لعل من أهمها أننا في

([680]) مع أبي العلاء ص ١٨٣.

([681]) يقول فيه (إن تغيير الأشياء لا يكون بالكلام الذي يقال عن إخلاص أو تكاف وعن تفكير واندفاع، وإنما يكون بالعمل الذي ينقل الأشياء من طور إلى طور).

([682]) يوسف نور ص ٣٦.

([683]) العالم ص ١٣٢، ويعلق على هذا على قول طه حسين (القديم لا ينبغي أن يهجر لأنه قديم، والجديد لا ينبغي أن يهجر لأنه جديد، والجديد لا ينبغي أن يطلب لأنه جديد وإنما يهجر القديم لأنه برئ من النفع، وخلا من الفائدة، فإذا كان نافعا مفيدا فليس الناس أقل حاجة إليه منهم إلى الجديد).

([684]) المعذبون ص ١٠.

نهايات بعض قصصه لا نجد بطلاً بالمعنى المألوف، وإنما وجدنا واقعًا مسرورًا يصدم القارئ بمدى مرارته، وفي الكلام المباشر لا نلتقي بالسرد والتصوير القصصي بالشكل الفني وحسب وإنما نجد ((استطرادات صريحة من خلال قصصه إلى الحاكم والمحكوم، فكثيرًا ما يغفل عن خط القصة ليترك هنا أو هناك عبارة دالة إلى حد كبير لما يريد أن ينبه إليه، وهذا التوصيف نجده خاصة في كتبه (ما وراء النهر)، و(جنة الحيوان)، و(المعذبون في الأرض) وغيرها.

فإذا جاوزنا الكلام المباشر إلى غير المباشر فسنجد كثيرًا من الإشارات التي تدعو إلى التحريض بسخرية ممضاة، كهذه العبارة التي أتت في سياق بعض كتبه، وجاء فيها محرضًا الشعب على واقع مخيم، يقول ((ما بال هذه الرعية لا ترفق بنفسها ولا تعني بأمرها والتفكر في مصالحها، وإنما ندعوها فتجيب، ونأمرها فتطيع، ونوجهها إلى حيث نشاء فتتجه إلى حين نشاء، لا يخطر لها أن تأبى إذا بلغها الدعاء، ولا أن تعصي إذا صدر إليها الأمر، ولا أن تمتنع إذا وجهت إلى حيث لا تحب؟))[٦٨٥].

ويمكن أن يضاف هذا التدخل الفني من آن لآخر، فكثيرًا ما كان يتدخل بضمير المتكلم في السرد الفني، فيقول على سبيل المثال ((لا أحاول أن أضع قصة فأخضعها لما ينبغي أن تخضع))[٦٨٦]، أو يقول في موضع آخر ((قد يظن القارئ أني قد أسرفت في البعد عن هذه الأسرة[٦٨٧]، وهو ما يكرره كثيرًا في عمليه (المعذبون..) و (ما وراء النهر)، وهو ما يؤكد ما نذهب إليه من أنه لم يرد أن يكتب قصة تقليدية يرتفع فيها الخيال سامقًا وينخفض فيها العمل هابطًا، وأن يسلي القارئ أو يزجي قراءه، وإنما أراد أن يوقظ الأفهام من آن لآخر ليؤكد من أن الخيال الذي يقصه يمكن أن يصل إلى آماد بعيدة من الواقع حتى ليستحيل الواقع، لفرض غرابته، إلى خيال يراه في كل مكان، فينتفي الحاجز المصمت بين الواقع والخيال، وهو ما حاول طه حسين دائمًا أن يحرص عليه.

وقد كان واعيًا إلى درجة بعيدة إلى هذا التحريض، ففي الوقت الذي أكد فيه على أن كتابه (المعذبون..) صدر مع غيره من كتب ((كانت تريد أن تبصر المصريين بحقائق أمورهم، وأن تعظ منهم الطغاة البغاة، وتعزي

---

(685) أحلام شهرزاد ص ٦٨.
(686) المعذبون ص ٢٢.
(687) السابق ص ٨٧.

منهم البائسين واليائسين))[٦٨٨]، فإنه يقول بعد قليل أن الكتاب ليس له هذا التحريض الذي يزلزل الكيان الاجتماعي حتى ليتآمر على قصصه البوليس السياسي وقوات الأمن ووراءهما كل من يهمه القضاء على من يبحث عن العدالة.

وتكتمل دائرة العمل الثوري عند طه حسين حين يعرف أنه لم يستخدم اللفظ الصريح والفكرة الواضحة فحسب، وإنما أضاف إليهما الرمز واللغز.. فبقدر ما نلحظ هذه الميكانيكية العملية في أعماقه، وهذه التحريضية الواضحة لديه، بقدر ما نلحظ الشكل الذي راح يستخدم فيه الغموض ليدلل على فكرته ويعمل لتغيير المجتمع من الجذور.

فلنقف قليلاً عند بعض ملامح الرمز الاجتماعي.

على الرغم من أن الرمز عرف على المستوى التراثي استجابة للفترة التي عاشها وعاناها.. فإنه عرف على المستوى الاجتماعي لديه، استجابة ليس للتغييرات الحادة التي عرفت في عقد الأربعينيات وإنما، أيضًا، لاهتمام صاحبه بتلمس هذا الرمز وتوظيفه في إطاره الفني بحثًا عن تأثيره السياسي في المقام الأول.

ولا يجب أن نعتقد كما يرى البعض أن لجوء طه حسين للرمز كان وراءه دافع فني آخر وقد يكون هو الأقوى من الدافع السياسي الذي صرح به.. ذلك أن الرمز الذي استخدمه في إبراز فكره الإصلاحي عبر أعماله الرمزية لم يكن إلا رمزًا مفضوحًا. ومعنى هذا أن الرمز عنده كما يزعم البعض لم يتلمس القضايا الاجتماعية السياسية ولم يعبر عنها وإنما هدف إلى الناحية (الفنية) لممارسة التجريب فيها.

والواقع أن هذا الرأي يتعارض مع فكر طه حسين وفهمه لدور الكاتب في مجتمع يعاني دورة التحول ووطأة الظروف الصعبة، فكتاباته في الأربعينيات، خاصة، تعبر قبل كل شيء عن المشاركة السياسية والاجتماعية، ومحاولة الخروج به من الضغوط السياسية التي وجد نفسه فيها، ومن هنا، فإن الرمز عنده، سواء تمثل في التراث أو استخدام الأسطورة فقد كان له هدف واحد، هو، التصدي لقضايا المجتمع الأساسية ومحاولة الاشتراك فيه بالإدراك الواعي.

واعتقادنا هنا مبني على عدة شواهد:

١- ليس من شك أن طه حسين الكاتب العملي، كان يكتب الرمز وهو

([688]) المعذبون ص ٩.

مدرك تمام الإدراك أنه يستطيع به التعبير عما يجول بخاطره وما يدور حوله من أجل التغيير وليس من أجل الاستثمار الفني وحده وهو ما يفهم من رسالته التي أرسلها إلى توفيق الحكيم في صيف ٥١ حين قال وهو يقرأ قصصًا تمثيلية لكاتب بلجيكي، أن هذا المجلد الذي يقرأه ((هو إلى الرمز أقرب منه إلى التصريح وهو إلى حرية التعبير أقرب منه إلى المصانعة والتلطف وهو على ذلك أو من أجل ذلك عميق بعيد الغور يؤثر في النفوس أشد التأثير))[٦٨٩].. وإذن، فهو يفهم الرمز وتأثيره على الوجه الذي يستطيع به المشاركة، ثم التأثير، في القضايا.

٢- حين أشار إلى ظروفه السياسية أثناء كتابه (المعذبون في الأرض)، إنما كان ليؤكد هذا الوعي الذي دفع به إلى تلمس الرمز، يقول: ((وانظر إلى ما نشر صاحب هذا الكتاب في ((جنة الشوك))، ((جنة الحيوان))، ((مرآة الضمير الحديث))، ((أحلام شهرزاد))، فلن ترى فيها إلا رمزًا لمظاهر كنا نبغضها ولا نستطيع أن نتحدث عنها في صراحة أثناء تلك الأيام السود فكنا نؤثر الغموض على الوضوح والرمز والألغاز على التصريح، والإشارة والتلميح إلى تسمية الأشياء بأسمائها، وكانت حكومات ذلك العهد ورقابتها تقرأ فلا تفهم، تتخلى عن الكتاب وما يكتبون، وتخلي بين القراء وما يذاع فيهم من ذلك الأدب القديم))[٦٩٠]، وكما قد قال قبل هذا بقليل أن ذلك الأدب الجديد الذي ينزع هذا المنزع السياسي إنما كان قد أنشأته (حكومات الطغيان إنشاءً حين اضطرت الكتاب إلى العدول عن الصراحة))[٦٩١].

وعلى هذا النحو، فإن طه حسين بتكوينه الاجتماعي لم يكن ليهتم بالرمز الفني وحده، ولا يستطيع ذلك، وإلا، فما الفارق بينه وبين أي كاتب آخر، إذ لم يكن المجتمع المصري حينئذ يسمح برفاهية الرمز، كما لم يكن في حالة من الاستقلال السياسي أو الفكري فيسمح له الانشغال بغير الكاتب الذي يستخدم الرمز استخدامًا موجهًا إلى القضايا التي كانت تفرض نفسها فرضًا.

٣- ومما يؤكد هذا الاعتقاد أيضًا، أننا إذا دققنا النظر في أعمال طه حسين الرامزة، فسوق نرى أنها كتبت - جميعًا- في عقد الأربعينيات، حيث كانت البلاد في هذا العقد تموج بالتغيرات الحادة، ففي هذه السنوات كتب

---

(689) الأهرام ١٦/ ١١/ ٧٣.
(690) المعذبون ص ١٢.
(691) السابق ص ١١/ ١٢.

طه حسين جملة أعماله الاجتماعية ذات الخط الرمزي على النحو التالي:
- أحلام شهرزاد. (٤٢/ ١٩٤٣).
- جنة الشوك. (١٩٤٥).
- المعذبون في الأرض (٤٦/ ١٩٤٨).
- ما وراء النهر. (٤٦/ ٠٠).
- جنة الحيوان. (١٩٥٠).

فضلاً عن مقالات عديدة كتبت في هذه الفترة من أمثال (مرآة الضمير الحديث) و(الوعد الحق) وغيرهما، وهذا يؤكد في كثير من الترجيح أن كتاباته حينئذ اتسمت بالخط الاجتماعي وسارت فيه، تعبيرًا عن اضطرابات الفترة واستجابة لمتطلباتها.

وهنا نصل إلى بعض الأمثلة التي لابد أن نشير إليها في الرمز المباشر، والتي تحددت مساحاته حول فترة الأربعينيات.. (فأحلام شهرزاد) هي محاولة لاستخدام الأسطورة العربية بهدف التعبير عن قضايا كانت تحول دون تناولها ظروف الحرب العالمية بضغوطها السياسية، ومن هنا، استطاع بها التعبير عن كثير من القضايا التي أشرنا إليها من قبل مثل الطغيان الذي واجه الشعب، وافتقاد قيم الديمقراطية وقضية اضطرار مصر لدخول الحرب[٦٩٢]، كما أن (أرض الشوك) والمحاولة كلها تجربة ذاتية زاخرة بالدلالات بها الكثير من قضايا الظلم[٦٩٣] والبناء الاجتماعي[٦٩٤] ووسائل التملق[٦٩٥] والمحاباة[٦٩٦]، وما إلى ذلك من صنوف التغيير الاجتماعي الذي يتم في عصر تحول يقول عنه طه حسين أنه من عصور الانتقال التي تمتاز ((بما يكثر فيها.. من انحراف السيرة الفردية والاجتماعية))[٦٩٧].

([692]) تمثل مرحلة الرمز الذاتي -لا الاجتماعي- في كتابه (الأيام) حيث يبدو من السياق العام أن هذا الكتاب جاء نتيجة للمحنة الشرطية التي عرفها بعد أزمة (الشعر الجاهلي) سيما الجزء الأول من هذه السيرة الذاتية، ويمكن أن يذكر في هذه أعماله (أديب، رحلة الربيع، في الصيف) إذ كتبها جميعا وهو غاضب على أثر معركة سياسية واجتماعية وهو ما تؤكده كتاباته، ومن هنا، يمكن أن نلحظ في الرمز الذاتي في هذه الأعمال ويمكن أن يضاف إلى هذا (القصر المسحور) الذي تحدث فيه عن حرية الفنان ومداها.

([693]) المعذبون ، ص ٦٦، ٦٧، ٦٨.

([694]) جنة الشوك ص ٣٨، ٥٠، ٦٠، ٧٧، ٨١، ٨٧.

([695]) السابق ٩٧.

([696]) السابق ص ١٢٢.

([697]) السابق ص ٧ (انظر المقدمة).

وحين نصل إلى (المعذبون في الأرض) نشهد الرمز الذي يكاد لا تخلو منه قصة واحدة إلى درجة أنه يمكن أن تستبدل بعنوان أية قصة عنوانًا رمزيًا أكثر دلالة على هذا النحو:

فهرس	كلمة دالة
صالح	بؤس
قاسم	الحاجة
خديجة	الجهل
المعتزلة	الوباء
رفيق	التغيير
صفاء	الطبقية
خطر	الفقر
تضامن	الفقر
ثقل الغنى	الفقر
سخاء	الوباء
مصر العريضة	الوباء

ويصل طه حسين في تلمس الرمز والتعبير به إلى درجة بعيدة، فهو حين يتحدث من دلالة النموذج في القصة الثالثة، نلحظ أن الرمز يتوارى أمام كثافة الوضوح الذي يتميز به القاص، فهو يقتحم فكر القارئ ووجدانه حين يخرج من السرد الفني ليقول بغتة ((القارئ ليس في حاجة إلى أن أقص عليه هذه الخطوب، فأيسر شيء لديه أن ينظر إلى هذه الحياة الصاخبة من حوله، فيرى فيها أمونات وسكينات كثيرة لا يحصين بالمئات ولا بالألوف، وإنما يحصين بالألوف وقد يحصين بالملايين[٦٩٨])).

وهو ما يتأكد معه أنه مع بساطة الرمز يبدو الإلحاح قائمًا في توصيل الدلالة إلى القارئ بهذا الشكل المباشر.

ونستطيع أن نستخرج القوانين الداخلية لقصة واحد لنتأكد أنه يمكن تطبيقها على قصصه كلها فضلاً عن أعماله كلها.

ويصل الرمز إلى أقصاه في عمله (ما وراء النهر)، فيثري هذا العمل بالرموز التي تثري الفكرة، فمنذ الاسم نلحظ تركيز الرمز حول هذا المجهول الذي يكتب عنه القاص، ويتدرج الرمز لنلحظ التفاوت الطبقي الحاد في كل فصول العمل، وهو هدف القصة الأول، وحين تصل إلى نهاية

([698]) المعذبون في الأرض، ص ١٣٥.

المرحلة في كتاب آخر (جنة الحيوان) نكون قد وصلنا إلى لون جديد من ألوان الرمز السياسي والاجتماعي، فهذا رجل مسئول ماكر يشبه الثعبان بما عرف به الثعبان من مكر ومراوغة، وذلك رجل ثعلب بما تحتوي طباعه من خلال الثعلب وحرصه.. إلى غير أولئك من الرموز الحيوانية التي توقف عندها كثيرًا.

وعلى الرغم من أن الكثيرين اختلفوا في فهم دلالة الرمز، هل مقصود به شخص بعينه، أو هو رمز لشخص غير محدد؟ فإننا، نعتقد، أن الرمز قصد به المستويين معًا، وإن كان المستوى الأول والطبيعي للرمز عند طه حسين يتحدد حول شخص معين مثل (العشماوي) على سبيل المثال الذي أكدت كل الظروف السياسية حينئذ أنه هو المقصود بالرمز الأول، فمع أنه في كل مجتمع يوجد الرجل/ الثعلب، فإن ثعالب مصر وثعابينها الكثيرة كانت هي المقصودة دون شك.

ويأتي بعد ذلك أن هذا الرمز في المستوى الأول، المباشر، يمكن أن يمتد ليصل إلى المستوى الآخر، غير المباشر، الذي يرى في الرمز دلالات إنسانية عامة.

ومما يؤخذ على طه حسين في هذا الصدد أنه قصد أن يكون الرمز مباشرًا في المستوى الأول، فهو في أعماله الرامزة خاصة كان من الوضوح بحيث لم يكن يغفل ذلك، وقد أشار إلى ذلك صراحة حين قال في إحدى قصصه الرامزة مخاطبًا القارئ بشكل مباغت ((ما قصصت عليك هذا كله لأرفه عليك بروائع التاريخ، أو لأطرفك بهذه النوادر البارعة.. فلسنا في وقت ترفيه ولا إطراف ولا ترويح، وإنما نحن نحيا في أيام سود))(٦٩٩).

وهنا يمكن القول أن طه حسين تلمس الرمز السياسي والاجتماعي خاصة، واستطاع من خلال النقد المباشر وغير المباشر التركيز على قضية العدالة الاجتماعية، فأصبح كاتبًا فاعلاً، ليس على المستوى الإنساني فقط، وإنما على المستوى المحلي.

وهو ما يؤكد انحيازه للمجتمع..

تفرغ الآن إلى ثلاث قضايا اجتماعية أولاها أكثر من غيرها عناية خاصة، وقضية (المرأة) أول ما اهتم به طه حسين لموقفه المتمرد في كثير من الأمور.. فموقفه من المرأة هنا اتفق فيه خاصة مع فكر قاسم أمين في

---

(699) السابق ص ١٦٢/ ١٦٣.

وقت اختلف فيه مع فكر عبد العزيز جاويش الذي انتمى إليه في الحزب الوطني حينئذ، فبعد أن تحدث طويلاً في عدة مقالات[٧٠٠] عن المرأة وحريتها من وجهة نظر الإسلام انتهى إلى نتيجة مؤداها أن ((العلم الصحيح يؤيد الحرية ويمقت الرق))، وهو ما يفهم منه أنه لم يؤيد الحجاب لأنه عنده نوع من الرق والاستعباد الذي لا يزال قائمًا، وقد استطرد من هذا إلى أن ((رقي المسلمين رهين بأن يرجعوا إلى أصول دينهم الذي أهملوه..))[٧٠١].

ويلحظ أن موقف طه حسين تركز على محورين اثنين:

أولاً: حرية المرأة.

ثانيًا: تربية المرأة.

أما بالنسبة إلى حرية المرأة، فقد راح يؤكد أن الإسلام ((لم يأخذ بحجاب ولا نقاب))[٧٠٢]، متعمدًا ترديد هذه العبارة في كتاباته التالية بشكل حرفي أو بتورية، وهو ما يؤكد أنه لم يلتزم التفسير الظاهري للآية القرآنية التي نزلت من أجل حجاب زوجات الرسول - صلى الله عليه وسلم- (فاسئلوهن من وراء حجاب)، إذ إن التفسير الصحيح للآية يؤكد على أن الذي خصص بها زوجات الرسول - صلى الله عليه وسلم- على أثر حادثة وقعت، فحضت الآية على عدم الدخول إلى نسائه أو التحدث إليهم بالكلية، فإذا كان لابد من الحديث فلابد أن يكون من وراء حجاب، وعلى هذا النحو، فإن موقف طه حسين هنا يبدو متحررًا بالنسبة إلى عصره.

لقد كانت المعركة ضد الحجاب في هذا الوقت على أشدها بين أنصار الحجاب وأعدائه..

أما موضوع (الزواج)، فقد كان رأي طه حسين فيه صريحًا في هذا الوقت إذ رفض تمامًا الزواج من (أجنبيات) مسهبًا في التحمس لوجهة

([700]) الهداية، يناير ١٩١١ مقالة (كلمات في المرأة)، وأيضا: السيد تقي الدين ج١ ص ٣٩/ ٤٤، أيضا: أنور الجندي، السابق ص ٤٩.

([701]) الهداية، السابق.

([702]) لخص حكمة الإسلام في المرأة وحريتها، فقال:
(لا فرق بين المرأة والرجل في الحرية، وكلاهما مأمور بمكارم الأخلاق منهي عن مساوئها، محظور عليه أن يتعرض لمظان الشبه، فالمرأة لا تخلو بالأجنبي ولا تسافر وحدها، ولا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى، ولها بعد ذلك أن تفعل ما تشاء في غير إثم ولا لغو. لها أن ترفع النقاب وتطرح الحجاب، وتتمتع بلذات الحياة كما يتمتع الرجل ، وليس عليها إلا أن تقوم بما أخذت به من الواجب لنفسها وزوجها والنوع الإنساني كافة) الهداية، ١٩١١/١، أيضا يمكن العودة إلى سورة الأحزاب/ ٥٣، وابن كثير، تفسير القرآن ج٦، ص ٤٤٠/ ٤٤٦.

نظره والدفاع عنها إلى حد كبير، وهو ما يؤكد أن موقف طه حسين لم يكن ليزيد على موقف سلفي ممن كثروا في هذا الوقت، وهذا لا يضيف لفكره أية قيمة في وقته.

ومن الطريف أن طه حسين في موقفه هذا لم يدع إلى زواج المسلم من (كتابية)، مشددًا على تقليد الأجانب الذي أصبح ((محببًا إلى نفوسنا، مستحسنًا منها.. فنحن نقلدهم في الحسن والقبيح، ونقفو أثرهم في النافع والضار، وليس لنا من قوة الأنفس والأخلاق ما يكفينا شر التقليد))[٧٠٣]، وقد أعقب الدفاع عن حرية المرأة الدفاع عن تربيتها التربية الصحيحة، فتعليمها هو أكبر ضمان أكيد للحصول على حقوقها، إذ يظل التعليم الضمان الوحيد لتأكيد فهمها لأسباب وجودها، ثم لفهمها كجزء من القاعدة الاجتماعية في أي مجتمع.

على أن موقفه من التربية خاصة تبلور بعد عودته من البعثة..

فبعد أن عاد من الغرب حتى زاد تحمسه لحقوق المرأة وخاض معركة تربيته والدفاع عن هذا الرأي، فالتعليم لازم للتقدم والرقي، وقد زاد هذا الرأي ترديدًا في فترة الثلاثينيات حين كان يحيا فترة تربص الأعداء به، وكراهيتهم له بشكل ملحوظ، وتسقط أفكاره لمحاربته بها، إذ أخذ يولي اهتمامًا كبيرًا لتربية المرأة، فنادى ((بحث المرأة في التعليم حتى أكبر الدرجات العلمية))، في الوقت الذي شارك فيه في ضرورة ((إباحة التعليم العالي للفتاة العربية))[٧٠٤].

وقد تمثلت ثمرة كفاحه حين قبلت كلية الآداب عددًا من الفتيات لأول مرة في تاريخ الكلية، كما لم يتردد في تقديم الفتاة الجامعية إلى الجمهور لأول مرة في حفل أقيم خصيصًا لهذه المناسبة في (الاتحاد النسائي)، والأكثر من هذا، أنه أتاح لبعض الفتيات فرصة السفر والدراسة في باريس.

وقد واجه طه حسين الكثير من المتاعب لموقفه من المرأة.. فحين اشتد الجدل حول اختلاط الطالبات بالطلبة في الجامعة، ووجهت إليه اتهامات مدبرة من إسماعيل صدقي ورجاله إذ اتهم ((بالاختلاط الجنسي في معاهد

---

(703) ويضيف .. (يجب علينا أن نحتاط كل الاحتياط في استعمال هذا الحكم، أي إباحة تزوج المسلم بالكتابية، ولست أرى علي من بأس إن قلت أنه الآن حرام ممقوت.. ماذا تكون نتيجة هذا الزواج؟ لا شيء إلا أن يصبح الرجل وبيته وأبناؤه وبناته أوروبيين في كل شيء اللهم إلا أفرادا أفذاذًا) الهداية، السابق.

(704) الجمهورية ٢٦/ ٣/ ٥٤.

التعليم))[٧٠٥]، بل إن كلية الآداب تسمى في هذه الفترة بكلية (العواهر)، كما يعاب عليه أنه قبل ثلاثمائة طالبة وهو عميد للكلية، كما أثيرت ضده أكثر من مظاهرة من جراء دفاعه عن قضية تعليم المرأة واحترام حقوقها التي تساوي عنده حقوق الرجل ((عقلاً وقلبًا وشعورًا وضميرًا، فهي تفكر كما يفكر الرجل، وهي تشعر كما يشعر.. وهي تحب الخير كما يحب))[٧٠٦].

والملاحظ هنا أنه بينما دعا إلى حرية المرأة وتعليمها في بداية هذا القرن (١٩١١)، فإن نفس الدعوة تكررت، بشكل يكاد يكون بحروفها وألفاظها، بعد ذلك بقرابة نصف قرن، إذ إنه راح يردد نفس الأفكار عن المرأة ويتحمس لها كثيرًا.

وتحمس طه حسين لتربية المرأة وتعليمها بلغ به أنه كان يذهب إلى مدرج الكلية وتصحبه زوجته ليدخلا في نقاش مع الطالبات لتغيير بعض العادات القديمة، وموقف طه حسين ((المتحرر من تعليم المرأة كان وراءه التفسير الذي يمكن الخروج به من احتفاله بتخرج الطبقة الأولى من الفتيات من كليتي الآداب والحقوق وظفرهن بدرجة الليسانس، وهذا الحماس الشديد نجده في مقالته التي وضع لها عنوان (فوز)، إذ رأى في هذا الفوز ((حدثًا خطيرًا في حياتنا المصرية والعقلية والاجتماعية، وأي فوز عظيم هذا الفوز لأنصار الرقي والنهضة وأصحاب تحرير المرأة والتسوية بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات، أي أمل عظيم وسط هذا الحادث أمام المصريين في أن يروا أنفسهم كغيرهم من الأمم الراقية لا يحتفي فيها بالعلم فريق دون فريق، ولا يحتكر الثقافة فيهم جنس دون جنس، ولا يحتفظ فيهم الرجل بما كان يحتفظ به من أسباب القوة والعصر والسلطان))[٧٠٧].

ويفهم من دعوته الملحة إلى مساواة الرجل بالمرأة أن يجعل من المرأة ((ندًا للرجل))، ومن هنا ربط مشكلة المرأة بالتخلف وتدهور المجتمع، فالإصلاح الاجتماعي لديه حين يتحدث عن المرأة إنما هو الإصلاح في مجالاته العامة الخاصة، وهو ما يفهم من قوله ((حققوا العدل بين الناس في الغنى والفقر وفي الاستمتاع بلذات الحياة والاحتمال لآلامها ومشقاتها وفي الاستمتاع بالحق والنهوض بالواجبات وأنشئوا للحكم وتحقيق العدل ونشر التعليم والعناية بالصحة العامة ـ أدوات صالحة مستقيمة، وثقوا بأن هذا كله

([705]) مضبطة مجلس النواب جلسة ٣/٧/ ٣٢، وقد تعرض لهجوم الرافعي العنيف من جراء سياسة التعليم في مقالته (شيطان وشيطانة)، وحي القلم (١٨٩/ ١٩٧).

([706]) الجمهورية، ٢٦/ ٣/ ٥٤.

([707]) كوكب الشرق ٢٦/ ٧/ ٣٣.

سيصلح شئون الرجال والنساء جميعًا.. لأن الرجال والنساء يشقون جميعًا شقاءً مشتركًا بحياة قوامها البؤس والضنك والعلل والأمراض))[٧٠٨].

وتصل سعادة طه حسين بتعلم المرأة إلى درجة أن يصرح معها بمناسبة تخرج المرأة في الجامعة لأول مرة، أنه لو عاش قاسم أمين إلى هذه الأيام لوجد في هذا الفوز ((عزاء عما لقي في حياته من أذى وما احتمل في دعوته من مكروه))[٧٠٩].

والأكثر من هذا كله، أن طه حسين جاوز تحمسه لتعليم المرأة إلى اتخاذ موقف إيجابي آخر تلخص في تحمسه لحقوق المرأة السياسية، فهو لا يساوي بين المرأة والرجل في المشاعر العامة وحسب، وإنما يضيف أحقيتها للمشاركة في السياسة، يقول: ((لست أعرف أن الاستمتاع بالحق السياسي يتجاوز طاقة المرأة.. ولست أعرف في استمتاعها بالحق السياسي فسادًا في الأرض))[٧١٠].

ولا يمكن أن نشير إلى موقفه من المرأة دون أن نشير إلى هذا في مؤلفاته، فالأفكار والشخصيات والأحداث ترتبط بالمرأة بأبعاد اجتماعية ملحوظة، فهناك جميع وجوه المرأة سواء أكانت الأم الصعيدية أو الغازية أو اللعوب.. إلى غير ذلك[٧١١] من صور المرأة، وتلتقي الشخصية مع الحدث الاجتماعي، فهو لا يتردد في التنديد بجريمة (هتك العرض) في أكثر من موضع في أعماله[٧١٢]، كما يتناول الجنس تناولاً هادئًا بغرض الإصلاح وفي ألفاظ محتشمة، ليس فيها الإثارة، ولا يبقى منها غير الفكرة التي أرادها.

وهنا نصل إلى قضية ثانية...

ومن أهم القضايا التي أولاها طه حسين اهتمامًا فرض عليه فرضًا كانت قضية (رجل الدين)، ورجل الدين.. هو مصطلح أطلق على رجال الدين المعروفين في الكتاتيب أو المتخرجين في الأزهر، والذي أطلق عليهم لفظة (المشايخ) في أعماله[٧١٣].

---

(708) من لغو الصيف ص ١٥٧.

(709) كوكب الشرق، السابق.

(710) الجمهورية ٢٦/ ٣/ ٥٤، أيضا: المصري ٢٦/ ٤٩.

(711) طه حسين، عدد الهلال، ص ٢١٤- ٣٨.

(712) في دعاء الكروان، وما وراء النهر، والمعذبون في الأرض.

(713) الظواهري، ص ٤٥، أيضا انظر: مجتمع علماء الأزهر للدكتور عاصم دسوقي، ص ١٠.

ورجل الدين مفهوم له معنى خاص به في عالم طه حسين، حيث أشار إلى نماذج عديدة من رجال الدين سواء في (الأيام) أو (شجرة البؤس) و (أديب) و (في الصيف)، كما أثيرت قضية رجل الدين سواء في (الأيام) في الضجة التي عرفها كتاب (في الشعر الجاهلي)، وقد انتهى هذا كله بمفهوم خاص يجاوز به عديدًا من سمات رجال الدين المعروفين، فهم عنده يجاوزون أولئك الذين يقومون بإلقاء الدرس بشكل منتظم بالجامع الأزهر، إلى الذين عرفوا خارج الأزهر:

- إما نالوا قسطًا غير محدد من العلم وكانوا يعرفون بالمشايخ.
- أو الذين يعرفون في كتاتيب مصر وقراها.
- أو أولئك الذين نالوا قسطًا متباينًا من العلم.

غير أننا يمكن أن نطوي كل هذه الظلال لنعيد توزيعها في نوعين من رجال الدين كما يراهم في التحديد الأخير، على النحو التالي:

- إما رجل دين جاهل أو غير جاهل.
- إما رجل دين واع مستنير الفكر والوجدان.

وهنا، سنحاول الإشارة إلى ملامح رجل الدين السلبي لنصل منها إلى ملامح رجل الدين الإيجابي عنده، وسوف نكشف من نماذج رجل الدين غير الفعال هذه النماذج:

هناك الحاج الذي (كان الناس مجمعين على وصفه بالبخل والشح، والذي كان متصلاً بشيخ من كبار أهل الطرق، والذي كان يزدري العلماء جميعًا، لأنهم يأخذون علمهم من الكتب لا عن الشيوخ))[٧١٤]، وهناك شيخ آخر ((كان الناس مجمعين على أنه أكل أموال اليتامى، وأثرى على حساب الضعفاء))[٧١٥]، ثم كان هناك من لا يقرأ أو يكتب ولكنه كان ((يجمع الناس إلى الذكر، أو يفتيهم في أمور دينهم ودنياهم))[٧١٦]، وهناك أمثلة كثيرة لرجل الدين السلبي تصل إلى العشرة أو تزيد..

وكما التقى طه حسيين بكثير من أنماط رجل الدين، الجاهل والسيئ، كذلك، التقى بكثير من أنماط رجل الدين الواعي والمستنير، فعلى الرغم مما يردد من أنه لا علاقة كبيرة بينهما - طه وعبده- وأن ثمة ما يشوبه الغموض أو عدم الارتياح يسيطر على هذه العلاقة، فإن الذي لا شك فيه هو

([714]) الأيام، ج١، ص ٨٥.

([715]) السابق.

([716]) السابق ص ٨٦، أيضا: انظر نماذج عديدة لرجل الدين السلبي في ص ٨٨/ ٩٦، ١١٠، الأيام، ج٢ ص ٤٦/ ٤٧، ٧٧، ١٣٣، ج٣ مواضع متفرقة وخاصة في الفصل السادس.

أن محمد عبده كان قد ترك في أعماق الصبي ثم، الفتى ثم، أستاذ الجامعة أثرًا لا يمحى.

إن طه حسين لم يسمع من الشيخ محمد عبده سوى درسين اثنين فقط، ألقاهما هذا الأخير في شتاء ١٩٠٥، ومع ذلك فإنه لا يخلو من دلالة كبيرة أن نجد ذكر الشيخ محمد عبده في (الأيام) قرابة ثلاثين مرة، إما معجبًا به وإما مثنيًا عليه، أو ذاكرًا له فضل أحد تلاميذه النابهين هنا وهناك، على أنه يجب التشديد على أن تأثير محمد عبده عند طه حسين كان يقترن عنده دائمًا بتطلعه إلى الجديد وتمرده على القوالب التقليدية في الأزهر، وهو ما يؤكد أن تأثير الإمام لم يكن مباشرة، وإنما كان تأثير في معنى التعبير وضرورته[٧١٧].

على أن المهم هنا، أنه برصد الصور الإيجابية والسلبية لهذه الشخصية - رجل الدين- يمكن فهم الكيفية التي رسم بها ملامحها، فهو يعلو أحيانًا في درجة السلبية بشكل يصل في بعض الأحيان إلى درجة السخرية الشديدة، والتي توحي بتأكيد الدلالة في الجانب السلبي خاصة، إذ يلاحظ أنه في الوقت الذي يرسم فيه الصورة السلبية، فإنه يرد بها في تواز مع الصورة الإيجابية لرجل الدين أن تؤكد الصورة الإيجابية وتشير إليها.

وعلى أية حال، فإن قضية رجل الدين عنده ترسم خطوط الفكر الليبرالي في إطاره الغربي، ممتزجًا بالرغبة في الإصلاح الذي يتواءم مع

([717]) .. وعلى سبيل المثال، فحين يأتي اسم محمد عبده في اللوحة الثامنة -جزء أول- فإنه يأتي في عرض الحديث عن الطلبة من رواد الأزهر الذين (يضيقون بكتب الأزهر ضيقًا شديدا، فيتأثرون بذلك برأي أستاذهم -الإمام- ضمن كتب الأزهر ومناهجه، وكانوا يسمعون من الأستاذ الإمام حين يشهدون دروسه أو حين يزورونه في داره أسماء كتب قيمة في النحو والبلاغة والتوحيد والأدب أيضا وكانت هذا الكتب القيمة بغيضة إلى شيوخ الأزهر لأنهم لم يألفوها، وربما اشتد بغضهم لهذه الكتب لأن الأستاذ الإمام قد دل عليها ونوه بها)، الأيام ج٢ ص ٦٤.

وفي موضع آخر، حين يتحدث الناس عن المدرسة التي أنشأها الشيخ رشيد رضا بعد وفاة الإمام لإرشاد المسلمين إلى دينهم الصحيح يضيف.

(وقد ضاق المجددون من أبناء الأزهر بهذه المدرسة أشد الضيق، وسخطوا عليها أشد السخط)، الأيام ج٣، ص ١٢.

وهو في موضع ثالث حين يذكر عبد العزيز جاويش يقول عنه (أنه كان يمقت من الشيخ رضا ممالأته للخديو وانحرافه عن طريق الإمام) السابق، ص ٢٤.

ومن هنا، يبدو أن تأثير الشيخ الإمام في أعماقه لم يكن تأثيرا مباشرا، فهو لم يعتنق مبادئه أو سار على دربه على الأقل في فترة متأخرة من حياته، وإنما كان تأثيرا في معنى التغيير وضرورته، وهو يلتقي في حقيقة الأمر مع طبيعته التواقة إلى التغيير المتمردة على التقليد.

(انظر كتابنا طه حسين المثقف وثورة يوليو).

البيئة المصرية.

وهو ما يصل بنا إلى القضية الثالثة..

إذ يلاحظ أن البحث عن حلول للقضية الاجتماعية عند طه حسين دفعت به إلى العودة إلى الأصول للبحث فيها عن حلول، أو لأخذ العبرة منها، وبمراجعة أعماله يتأكد لنا هذا الروح الإسلامي الذي كان قد تسرب في كتاباته هادئًا منسابًا أول الأمر في كتابيه (الأيام) و (أديب) ثم في إسلامياته منذ الثلاثينيات خاصة، وما لبث أن تسارع وتهدر خاصة في فترة الأربعينيات، إذ يندر أن نفقد هذه الروح قط، فنحن أمام هذه المؤثرات في (دعاء الكروان) و(شجرة البؤس) و(صوت أبي العلاء) و(جنة الشوك) و(آراء حرة) و(ما وراء النهر) و(الفتنة الكبرى) و(المعذبون في الأرض) و(الوعد الحق) وفي أغلب مقالاته التي كتبها في العقد الرابع.

وهنا يفرض السؤال نفسه:

هل عاد طه حسين إلى الإسلام بقصد البحث فيه عن (نظرية) اجتماعية، أو بقصد استلهام العظة؟

وهل كان الإسلام في كتاباته هدفًا من أهدافه في البحث عن صيغة اجتماعية معاصرة، أو كان وسيلة يؤكد بها صحة المنهج الليبرالي في التفكير؟

نعتقد أن نظرة طه حسين إلى الدين لم تتغير قط طيلة حياته سواء في العشرينيات أو الثلاثينيات أو الأربعينيات وما بعد ذلك.

وبشكل واضح، لقد ظل الفكر الاجتماعي عند طه حسين مع تطور الزمن وحدوث الطفرة الاجتماعية في الأربعينيات كما هو، ليبراليًا، في جوهره، سواء في التعرض للنظام القائم بشكل مباشر أو في العود للتراث الإسلامي بقصد البحث فيه عن وسيلة يستطيع بها تمرير فكره الغربي - وهذا يلتقي مع الرأي العام القائل أن طه حسين لم يتعد في محاولاته في سرد تاريخ الإسلام الشكل الذي يرضي الحاسة الشعبية، كما يمكن التدليل به ومنه في الوقت نفسه على ضرورة الأخذ بالنظم الغربية كما يفهم من كتاباته الإسلامية.

فلنحاول الإجابة عن السؤال الذي طرحناه آنفًا من خلال النصوص..

قد يكون من المفيد أن نشير على أن التشدد الفكري عند طه حسين في العشرينيات بدأ يقلل من غلوائه رويدًا رويدًا منذ الثلاثينيات، وهو ما تمثل في تقليله من دور الجبر التاريخي، ونضج رؤيته المتغيرة حول دور العقل ومكانته، وقد ظهر هذا الفهم الجديد في موقفين اثنين.

أحدهما، حين رأى ضرورة اقتباس الحضارة الأوروبية كاملة غير

منقوصة، بخيرها وشرها، يقول: ((يجب مجاراة الأوروبيين في سيرتهم التي انتهت بهم إلى الرقي والتفوق))[٧١٨]، وهو ما يعني استحالة تجاهل التجربة الغربية وهو ما أسهبنا فيه في غير هذا الموضع.

وثانيهما: الاجتماعي خاصة، فقد ظهر أكثر وضوحًا في الأربعينيات، فالتجربة الإسلامية في العصر الزاهر كانت تجربة مفيدة أشاد بها كثيرًا رغم إخفاقها، فقد كان لابد لها أن تخفق في رأيه لأنها ((أجريت في غير العصر الذي كان يمكن أن تجرى فيه))[٧١٩].

وهو يجاوز مسألة الخلافة إلى مسألة العدالة الاجتماعية، إذ يؤكد المطلب الاجتماعي، المثالي، الذي طبق في العصر الزاهر للإسلام يستحيل تحقيقه في هذا العصر لأكثر من سبب لعل من أهم هذه الأسباب أن الضمير الديني الذي أتاح لأولئك المصلحين الأوائل إجراء إصلاحاتهم ليس من المفروض أن يرثه الأحفاد، يقول((ليس من المكفول ولا من المحتوم أن يرثه منهم الأبناء والحفدة، فالذين اتصلوا برسول الله- صلى الله عليه وسلم- اتصالاً قريباً، تعلموا منه وتأدبوا بأدبه، خليقون أن يتأثروا في سيرته وأن يتمثلوه كلما عملوا أو قالوا أو فكروا، فأما الأجيال التي تأتي بعدهم من الأبناء والحفدة فقد يتأثرون بهم وقد لا يتأثرون)) [٧٢٠] ، فإذا خلص إلى النتيجة، استحالة عودة النظام الإسلامي في عصره الزاهر، فإنه يتوقف عند السبب الرئيس في هذا، فإن أولئك الخلف للحكام لم يتصلوا بالنبي قليلاً أو كثيراً أو يتأثروا بفلسفته أو مبادئه التأثير المباشر ((فليس غريبًا ألا يتاح لضمائرهم الدينية من اليقظة والقوة والحياة ما أتيح لخاصة النبي وصفوة أصحابه الأقربين))، فلا يكفي أن يكون للحاكم الضمير الحي والتضامن مع المحكوم، وإنما ((يجب أن يكون لرعيته حظ من هذا الضمير الحي اليقظ، ومن حب العدل وإيثار المعروف))[٧٢١].

وهي كلها شروط لا توجد لتقادم العهد وتطور الأزمنة.

وعلى هذا النحو، فإن تجربة طه حسين الإسلامية هنا تؤكد على أنه لم يعد إلى الأصول لاقتفاء أثر التجربة الإسلامية والإفادة منها واستلهامها، وإنما ليؤكد حقيقة أن الإسلام مع نبله وقيمه ومثاليته، لن يعود إلى صفائه الأول وعصره الذهبي لا يريد رجالاً كالرجال ولا ناسًا كالناس بل يحتاج

([718]) مستقبل الثقافة ص ٤٨.

([719]) الفتنة الكبرى ص ٥.

([720]) السابق ص ٣٨.

([721]) السابق ص ٣٨.

إلى أولي العزم وأين هم في نظره))[722]، ولأن حال العالم الإسلامي الآن متخلف، فإنه لا يمكن قط اللحاق بركب الحضارة والتقدم وفرض تجربة اجتماعية جديدة، وإذن، لا بديل قط، عن اتباع التجربة الليبرالية المتقدمة.

هذه الفكرة تمثل الخط الأول والرئيس في كتاباته الإسلامية والاجتماعية خاصة في الأربعينيات، وهو لا يتوقف عن الإسهاب فيها كثيرًا.. فالماضي لديه لا يعدو أن يعني شيئًا واحدًا هو على حد قوله ((الفخر بالقديم ونلتمس فيه العبرة والعظة أيضًا، وقد نلتمس فيه ما يدفعنا إلى الجد ويثير فينا النشاط ويعزينا عن بعض ما نلقى بما لا يلائم كرامتنا ولا يوافق مجدنا القديم))[723]، ومن هنا، فإن الماضي لديه لا يشكل إحياء هذه الحركة الاجتماعية القديمة أو التعصب إلى ما فيها من أحداث تنتمي إلى الوجدان العربي، وإنما لا تعدو محاولته أن تكون ((تاريخًا حافلاً عظيم الغناء))[724]، كما أن هذا التاريخ وعصوره إن صحت ((كانت لنا عزاء، وهي إن لم تصح أتاحت لنا أن نحلم))[725].

ويؤكد هذا ما يلحظ حين يتحدث طه حسين طويلاً عن الصراع بين العدل والحرية في العصر الحديث فإنه لا يذكر قط تجربة الإسلام كتجربة رائدة لابد أن يستفاد بها، وحتى إذا ما برقت هذه التجربة في خياله في نهاية المقالة الطويلة، فإنه لا يذكر غير رائدها (عمر) ذاكرًا معه كلمات الشاعر الذي رثاه بنظم ذي مغزى بما يعني استحالة تكرار التجربة الأصولية، فقد قال هذا الشاعر:

عليك سلام الله من إمام وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق.
فمن يسع أو يركب جناحي نعامة ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق.
قضيت أمورًا ثم غادرت بعدها بوائق في أكمامها لم تفتق[726].

وإذن، فإن التاريخ، والتاريخ الإسلامي الذي يعود إليه طه حسين من آن لآخر لا يعدو لديه أن يقصد العظة أو العبرة، وأيضًا لا يزيد على أن يكون وسيلة - كما يقول- لكي ((ننسى العصر الذي نعيش فيه، وإلى أحاديث القدماء لنتسلى عن سيرة المحدثين)) وحسب.

وهو، ما يعني، أيضًا، هو، العزاء الذي يفر فيه مما يلاقي من عنت

([722]) يوسف نور الدين ص ٣٥٧.
([723]) مقال (ثورتان) الكاتب مايو ٤٦.
([724]) السابق ص ١٦٧.
([725]) المعذبون في الأرض ص ١٧٩.
([726]) مقالة (العدالة والحرية) الكاتب ٧/ ٤٦.

وإرهاق وإملاق وغير ذلك من الرذائل الاجتماعية التي أصبحت سمة مميزة للتاريخ المصري في هذا الوقت.

ولعل هذا هو السبب الذي دفع بجاك برك[٧٢٧] حين حاول تحديد فكر طه حسين في دوائر ثلاث، أن يرسم الخطوط الدائرة بالترتيب التتابعي، فبينما مثلت الدائرة الأولى التقاليد والعادات التي تلخص المحلية وتنحصر فيها، ومثلت الدائرة الثالثة السمات العالمية الإنسانية، فإن الدائرة الوسطى بينهما مثلت المساحة الشاسعة للفكر الإسلامي، وهو ما يتأكد معه أن دائرة الفكر الإسلامي مع سموها ونبل مبادئها، فإنها في حالة البحث عن صيغة إنسانية للفكر العربي لا ترقى إلى الدائرة العالمية، قط، وإنما لها دائرتها التي تدور فيها، كما أن للفكر الإنساني دائرته التي يدور فيها.

قد تحتوي الدائرة العالمية الدائرة الإسلامية، غير أن الدائرة الإسلامية لا تحتوي التجربة العالمية التي جاءت نتاج حضارة الغرب ومنهجه الحديث.

ويمكن أن نعرض النتائج التي أثيرت هنا على النحو التالي:

يلاحظ أن طه حسين في الفترة التي سبقت سفره إلى باريس كان محافظًا وعصريًا معًا، محافظًا في بعض الأفكار التي تبناها كالزواج من أجنبيات، وكالحفاظ على الزي الشرقي، وعصريًا في بعض القضايا الأخرى كقضية المرأة التي دعا فيها إلى حرية المرأة وحسن تربيتها، غير أنه بعد أن عاد من البعثة ارتد عن بعض هذه الأفكار الاجتماعية، فتزوج من أجنبية، وارتدى الزي الغربي، أي، تبنى الليبرالية، في مظاهرها..

في الفترة الأولى، بعد عودته من أوروبا، بدت آثار الليبرالية في اتجاهه الفكري، وإن لم يول القضية الاجتماعية اهتمامًا كبيرًا في العشرينيات، وما لبث أن توازى تطوره السياسي مع تطوره الاجتماعي، مما بدا معه واضحًا أن المؤثرات الاجتماعية كانت نتاجًا من التطورات في الجانب السياسي الذي غذته مواقف شخصية من سياسة صدقي بشكل شخصي، ففي الفترة التي شهدت تضييق إسماعيل صدقي عليه، شهدت انتقاله من طور التجديد الفكري إلى طور التجديد في المجتمع وإن اتخذ تطوره الإصلاحي أول الأمر اتجاه رد الفعل لما يحدث على الساحة السياسية.

على أن القضية الاجتماعية شهدت في الأربعينيات طفرة عالية، فقد

Jacque berque, Ibid. (727)

كان لابد لطه حسين أن يتواءم مع الحركة الشعبية التي صهرتها الحرب العالمية الثانية، ويتواءم مع الحركة الاشتراكية التي شهدت أوج تطورها في هذه الفترة وإن لم يتخذ طه حسين إطارًا مذهبيًا خاصًا به.

يلاحظ أن السنوات التي شارك فيها طه حسين في القضايا الاجتماعية كانت هي السنوات التي شهدت انعزاله السياسي، بمعنى أنه لم يكن منتميًا لحركة الحزب الذي يحظى بأغلبية في الحياة السياسية، ومن هنا، نفهم كيف كان تطور طه حسين الاجتماعي ناميًا في فترة الثلاثينيات أثناء وجود إسماعيل صدقي، ثم كيف تسارعت حركة طه حسين الاجتماعية في الاتجاه الآخر، في فترة تولي وزارات الأقلية نهاية الأربعينيات.

ويرتبط بهذا أن كتابات طه حسين الاجتماعية في فترة الثلاثينيات كانت في كثير من جوانبها رد فعل لضغط إسماعيل صدقي، ومن هنا، فهي لم تعد أن تكون مشاركة برد الفعل وليس اقتناعًا واعيًا بالقضايا الاجتماعية وجذورها، وقد امتزج رد الفعل في الفترة الثانية - الأربعينيات- بالمسحة الروحية بما يعني أن طه حسين حاول في هذه الفترة الغوص في محيط التاريخ الإسلامي للخروج منه بصيغة اجتماعية جديدة للمطلب الاجتماعي المعاصر له، غير أن هذه المحاولة كانت تدرك تمامًا أن أية نظرية للشعب عن الحلول الاجتماعية ورفع الظلم عن الطبقات الاجتماعية الفقيرة لن توجد في الماضي الإسلامي، وإنما في الحاضر الغربي، ولأن طه حسين كان ليبراليًا مخلصًا، فإن محاولته للعود إلى التاريخ اقتصرت على العظة، أي الوسيلة، التي يمكن بها الوصول إلى الغاية، التي لا تخرج في نهاية الأمر على النهج الليبرالي وإن كانت قد جاوزته في تعاملها مع قضايا البيئة المصرية.

إن محاولة طه حسين في البحث عن صيغة جديدة لقضايا المجتمع خاصة القضية الاجتماعية، لم تستهدف القوالب الغربية فتضع هموم المجتمع فيها، وإنما حاولت الإفادة من أية نظرية، بما يعني تكوين صيغة مصرية للقضية الاجتماعية بالشكل الذي يمكن أن تكون صيغة مصرية وعالمية في الوقت نفسه.. وهذا يفسر أنه لم ينتم صراحة للمذهب الاشتراكي، كما لم يحبذ صراحة أيًا من المذهبين: الرأسمالية أو الاشتراكية، وقد كانت وسيلته لاستكمال مظاهر البحث عن رؤية اجتماعية سمة التفكير العملي، كما لم يعدم أية وسيلة إلا واستعان بها في التغيير الاجتماعي حتى ولو كان (الرمز)، فراح يستلهم الرمز المباشر وغير المباشر ليستكمل الرؤية.

وعلى الرغم من أننا لا نعدم خيوطًا اجتماعية واضحة لطه حسين

طيلة الأربعينيات وقبل ذلك بقليل، فإنه يمكن القول، صراحة، أن جهده في الناحية الفكرية كان أكثر منه في الناحية الاجتماعية، فما فعله في الجانب الاجتماعي كان رد فعل المرحلة، كما أن الجانب الاقتصادي لم يحظ منه باهتمام كبير، وهو ما يمكن التسليم معه، أن أعمال طه حسين تفتقد هذه المعرفة التفصيلية بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية، وتحدد خطوطها العامة، والبحث لها عن حلول يمكن معها القول أن طه حسين صاحب نظرية في القضية الاجتماعية أو في تطور المجتمع يمكن التعويل معها على التغيير.

خاتمة

ولد طه حسين بإحدى قرى محافظة المنيا لأسرة تنتمي إلى الطبقات الفقيرة، فعانى من الفقر والمرض، وأصيب بالآفة التي أودت ببصره، ووجه كغيره من أبناء طبقته إلى الإلمام بمبادئ العلوم الدينية والعربية قبل أن يرسل للأزهر.

وقد كان يمكن لطه حسين أن يتخرج في الأزهر لولا أنه في السنة الأخيرة فيه، عام ١٩٠٨، تبرم بنظام الأزهر واتجه إلى الجامعة المصرية القديمة فحضر دروسها حتى حصل منها على رسالة مكنته من السفر في بعثة أربع سنوات إلى باريس.

وحين عاد إلى مصر عام ١٩١٩، ليعين بالجامعة المصرية، كانت البلاد تمر بفترة الثورة التي انحاز فيها إلى حزب الأحرار الدستوريين المناوئ لحزب الأغلبية، وما لبث أن تحول بعد ذلك إلى حزب الأغلبية الذي عرف سعد زغلول زعيمًا له.

وبين عودة طه حسين وسقوط آخر وزارة وفدية كان وزيرًا فيها تحددت أسباب انتمائه الحزبي في أكثر من اتجاه، منها، تأثير الروابط الأسرية التي كانت تربط بين عائلته وبين عائلة آل عبد الرازق، وتبني ريادات حزب الأحرار له بواسطة ريادته الفكرية وطرحها أمام الفكر الليبرالي في هذه الفترة، كما كان طه حسين بطموحه تواقًا للمشاركة السياسية والعمل السياسي، فقدم طلبًا إلى مجلس إدارة الجامعة الذي هو موظف فيها للتصريح له بالكتابة في صحيفة (السياسة).

ولعل من أهم الأسباب التي دفعت به إلى المشاركة السياسية محنة فقد البصر، والتي عانى منها منذ فترة مبكرة فدفعت به إلى ((خصلة التصميم على اقتحام العقبات))، فوجد نفسه - كما يؤكد هو- ((أخاصم السياسة)).

وقد يكون الإنسان بغير آفة ومع هذا يتمتع بهذه الخصال التي تدفع به إلى المشاركة والإصلاح، غير أنه مع الآفة تزيد درجة حساسيته وتدفعه دفعًا إلى شيء من (المغامرة) رغم إدراكه لها، والتي يمكن أن يفسر بها كثيرًا من مواقفه مثل تصميمه على نشر كتابه (في الشعر الجاهلي)، رغم إدراكه سلفًا عظم الضجة التي سيثيرها، ولا يخطئ قارئ (الأيام)، هذا الإحساس الحاد الذي يريد به صاحبه أن يثبت وجوده لنفسه حتى لنرى، وكأن العاهة هي التي تعبر عن نفسها كما يؤكد جاك برك.

ويشير برك حين يحاول تفسير مواقف طه حسين إلى أن ((المحن كانت أساسية في حياته))، متوقفًا في هذا عند محنة فقدان البصر مشددًا

عندها على أنها أول هذه المحن التي ألمت به فدفعته دفعًا إلى الاستجابة للتحدي القدري الذي فرض عليه.

وفترة تحول طه حسين من حزب الأقلية إلى حزب الأغلبية يشير إلى بعض الملاحظات، لعل من أهمها موقف صدقي منه الذي لم يكن هو الموقف الوحيد الذي دفعه إلى التحول، وإنما أدت ظروفه الخاصة فيها لعل منها التضييق المادي الذي فرض عليه فدفع به إلى حث الخطى في طريق التحول إلى درجة أنه قيل أن (كوكب الشرق)، الصحيفة الناطقة بلسان الوفد دفعت له مبلغًا كبيرًا يعد ((أكبر رقم حصل عليه صحفي في هذا الوقت))، كما كان طه حسين يدرك بحاسته أن حزب الأقلية كان في طور الضعف بوفاة رواده الفكريين وتسلط رواده السياسيين المتبقين حين تولوا الحكم.

ومن هنا، يمكن القول أن طه حسين في فترة انتمائه إلى حزب الأقلية كان مكرسًا فكره لخدمة علاقاته، وفي الفترة الأخرى كان مكرسًا علاقاته وظروفه الشخصية في خدمة أفكاره، غير أنه يحمد له في الحالين أنه لم يدافع عن حكومة رجعية يمكن أن تمثل قيدًا على مقدرات الشعب وقضاياه.

وربما كانت الملاحظة العامة في هذا الصدد أنه في انتمائه إلى الأحزاب لم يجاوز الانتماء الفكري إلى الانتماء (الوظيفي) قط، وهو ما اتسق مع تحوله السياسي (الأحرار الدستوريين/ الوفد) أو تحوله الفكري (السياسة/ الفكر الاجتماعي).

وإذا كان القصر والإنجليز هما الضلعان الآخران اللذان يمثلان مع الأحزاب مثلث الحكم في مصر خاصة الفترة التي سبقت دستور ٢٣، فقد كان موقف طه حسين منهما مرتبطاً أشد الارتباط بموقفه الحزبي، وأخص ما يتميز به موقفه من القصر، حينئذ، أنه في السنوات التي تولت الحكم فيها الوزارات الملكية كان يوجه نقده إلى القصر بإيعاز من موقف حزبي خاص في الفترة الأولى.

غير أنه لم يستطع الاستمرار فدفع إلى دائرة التردد سيما في نهاية الأربعينيات..

ففي الوقت الذي كان فيه يوجه سهامه إلى عنت الملوك وكراهيتهم للحكم النيابي في كتابه (أحلام شهر زاد)، كان لا يستطيع الهجوم على القصر هجوماً مباشراً ملتزماً بخط حزب الوفد، الذي كان يبدى للملك الاحترام والتأييد الكاملين ولم يفكر في إشهار عدائه للملك حينئذ، وحين كان يكتب مقالة عنيفة ضد الملك ومساوئه، فإنه لم يغفل أن يغلفها بأسلوب رمزي لا يستطيع الملك بها الجزم بنية صاحبها.

غير أنه ما كادت الأربعينيات تصل إلى نهايتها، ويختار طه حسين

وزيراً في وزارة وفدية حتى أسلمه التردد إلى السقوط في شباك الملك، فتقتصر خطبه وكلماته على التركيز على القصر فقط بعبارات التقديس والثناء، حتى يردد غير مرة أنه قبل يد الملك، وغير مرة أن الملك رفض ترك يده ليقبلها طه حسين.

ولأن تسلط قوى الاحتلال وتدخلها في شئون الحكم لم ينقطع قبل دستور ٢٣ وبعده، فقد حاولنا رصد موقف طه حسين المعادي للإنجليز، وقد بلغ درجة العداء قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها درجة كبيرة، وإن بدا أقل غلوًا بين الحربين العظميين، نظرًا، لأن معاهدة ١٩٣٦ قللت كثيرًا من حدة الكفاح الوطني، غير أنه مع نهاية الأربعينيات واكتشاف خداع قوى الاحتلال ومماطلتها دفع بطه حسين إلى زيادة العداء مع الإنجليز وإن ارتبط وعيه هذه المرة بوعيه الاجتماعي.

إن طه حسين الذي عرف كآخر ممثلي الاتجاه الليبرالي في الثلاثينيات كان آخر مدافع عن الحضارة الأوروبية في هذه الفترة معاد لها في فترة الأربعينيات خاصة، فبعد أن خيل إليه أن الفكر الليبرالي هو الفكر المثالي لإجراء التغيير الاجتماعي خاصة، عاد أمام تعنت الإنجليز وإصرارهم بعد الحرب العالمية الثانية على التواجد العسكري (بالقواعد)، وأمام استفحال الواقع الاجتماعي.. عاد إلى إنكار قيم الغرب مؤمنًا أن وسائل حضارته لم تستطع أن تجد حلاً لما يعاني منه الناس في كل مكان.

وهنا الفرق بين كتاب مثل (مستقبل الثقافة في مصر) الذي دافع فيه عن الحضارة الغربية ودعا إلى احتذاء قيمها، وبين كتاب آخر مثل (المعذبون في الأرض) الذي هاجم فيه الحضارة الغربية وكفر بقيمها.

غير أنه من الخطأ الفادح أن نعتقد أن طه حسين تخلى عن الليبرالية بدءًا من الثلاثينيات، وإنما ظل ليبراليًا في منهجه الفكري والاجتماعي بوجه خاص.

فعلى الجانب الفكري، بدت ليبراليته في قضايا كثيرة كقضية التعليم، وقضية الصراع بين الفكرة الليبرالية والفكرة الإسلامية، وإن آثر تطويع الفكر الليبرالي في كثير من الأمور على خدمة قضايا التغيير والإصلاح في بيئة شرقية إسلامية، كما أكدت الليبرالية الإطار المرجعي للأيديولوجية القومية سواء تمثل هذا في القومية المصرية أو الاتجاه إلى الفكرة العربية.

أما في جانب الفكر السياسي، فقد أبدى موقفًا محددًا في تأكيد استقلال الدين عن الدولة وكراهيته للحكم المطلق مؤثرًا الدستور مدافعًا عنه مؤكدًا في نهاية الأمر أن العود للأصول الإسلامية إنما يكون بهدف (العظة) لا النقل لاستحالة تكرار التجربة الإسلامية، وهو ما ارتبط إلى حد كبير

بموقفه من الشريعة والقانون، إذ تبنى صراحة القانون الغربي، وهو ما حاول خلاله تأكيد كثير من الأفكار مثل أن يكون الخلاص من الفقر والحرمان بالإصلاح للمسار الاقتصادي، وذلك، بالمساواة في دفع الضرائب لا الاعتماد على مبدأ (الإحسان) كفكرة دينية، داعيًا في هذا كله إلى عدم الأخذ بهذا المبدأ.

والجدير بالذكر هنا هو جهده المستمر للعودة إلى الأصول، فهو في الفكر السياسي يرجع دائمًا إلى أصول يونانية لتأكيد حقيقة هامة، هي، أن أصل الفكر واحد، وما نجده في الحضارة الغربية الآن لا يعدو أن يكون حلقة من حلقات تطور الفكر القديم الذي ترتبط مصر به دون شك، وهو ما يميز طه حسين خاصة في مجال البحث عن حلول لقضايانا المعاصرة.

وعلى الجانب الاجتماعي فإن طه حسين في ضوء المؤثرات الاجتماعية الغربية أو إرهاصات التغيير التي نادى بها بدا ليبراليًا صرفًا، سواء في دعوته الحثيثة لكشف البون الشاسع ين الفقر والغنى، أو في تلمسه للرمز الاجتماعي كوسيلة للتغير، أو - حتى- في التعرض للقضايا الاجتماعية كقضية المرأة أو موقف رجل الدين أو كيفية العود للأصول الإسلامية للبحث فيها عن قيم غربية تستهدف قبل كل شيء البحث عن إجابات معاصرة للمطلب الاجتماعي.

وقد تميز عقد الأربعينيات بالتركيز على القضايا الاجتماعية حتى أن المدقق في أعماله الإبداعية الرمزية من أمثال (ما وراء النهر) و(المعذبون في الأرض).. وغيرهما، يجد معنى تحريضيًا، وأيضًا شيئًا أشبه (بإنذار) موجه للقوى الإقطاعية.

على أن أكثر الأشياء دلالة بالنسبة إليه، فهو وإن نجح في وضع صيغة فكرية للقضايا الثقافية والحضارية، فإنه في الجانب الاقتصادي لم يستطع أن يصل إلى هذه الصيغة نظرًا لافتقاده إلى المعرفة التفصيلية للقضايا الاجتماعية التي عاصرها.

غير أن موقفه السياسي قبل إقالة وزارة الوفد الأخيرة اختلف عنه بعد ذلك، فبمجرد أن قامت ثورة ٥٢ حتى استمر تأييد طه حسين لها ولرجالاتها دون تحفظات، فهو تارة يبارك الجيش فيما فعل (الأهرام ٨/٢/ ٥٢)، وهو تارة أخرى يؤيد أن تتحرك الثورة ((لتحمي نفسها من جموح بعض الأقلام حتى تطمئن إلى بلوغ غاياتها)) (روزاليوسف ١٨/ ٥/ ٥٣)، وفي تارة ثالثة لا يتردد في توجيه الشكر المباشر، ولمرات معدودة ((لحكومة الرئيس جمال عبد الناصر، مهنئًا إياه بنجاته من محاولة الإخوان لاغتياله، مسميًا هذه المحاولة ((بالشر العظيم)) (الجمهورية ٣٠/ ٣/ ٥٤).

ويتوالى تأييد الثورة في كل مراحل تطورها، فإذا ذكر العهد السابق ذكر النفاق، وذكر سأم مصر من هذا ((النفاق للملوك وحواشي الملوك))، متناولاً بالقدح العنيف هذه الأنساب الكثيرة التي كانت تتردد للأسرة المالكة دون توجيه نقد واحد للقوى الجديدة.

ويتسق موقف طه حسين حينئذ في الهجوم المباشر على الإنجليز، فهو لا يتوقف في كل مناسبة ذكر فيها عداءه للقوى البريطانية عن الهجوم عليهم متهمًا إياهم بالحمق وسياستهم بالتهويش (الجمهورية ١/ ١٠/ ٥٤ والأعوام التالية) وما أكثر المناسبات التي عمد فيها إلى الهجوم ومسايرة الجو العام الذي يعيشه.

وهنا، لا نجد له موقفًا سياسيًا أو نقديًا خاصًا ضد الثورة أو ضد النظام والمؤسسات التي أقامتها، كما لا نجد لعلاقته بالقوى الجديدة أي رد فعل يشتم منه التصريح بموقف أو التلميح برد فعل، وقصارى ما وجدناه عديدًا من المقالات في الأدب أو معارك الأدب والفكر والثقافة وما إلى ذلك وقد فصلنا هذا كله في كتابنا (طه حسين- المثقف وثورة يوليو).

ومما سبق، يمكن القول أنه منذ استقالت آخر وزارة وفدية في ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ وكان طه حسين وزيرًا فيها، فإنه لم يلعب أي دور في الحياة السياسية المصرية زهاء عشرين عامًا أو نيف حتى رحيله في ٢٨ أكتوبر عام ١٩٧٣.

المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق

(أ) غير المنشورة:

- دار المحفوظات العمومية بالقلعة:

محفظة رقم ١٤٠/ ١١١/ ١٢/ ٤٢ وتحتوي على ملف خاص (لطه حسين) من جزءين اثنين.

- دار الوثائق التاريخية بالقلعة:

- محفظة رقم ٦٤٤ وتحمل اسم طه حسين.
- محفظة ديوان جلالة الملك، رقم ٦ تلغرفات.
- محافظ الأحزاب السياسية وتحتوي على ثلاث محافظ، الأولى عن الحزب الوطني وحزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين والهيئة السعدية.. إلخ، محفظة خاصة بحزب الاتحاد، محفظة خاصة بحزب الشعب وحزب الفلاح والحزب الوطني وحزب الاتحاد.

- أرشيف جامعة القاهرة:

ويحتوي على محاضر جلسات محافظ من أهمها:
- محفظة رقم ٢: محاضر جلسات ٢٠ يناير ١٩١٥.
- محفظة رقم ٢: محاضر جلسات عام ١٩٢٢.
- محفظة رقم ٢: محاضر جلسات ١٩١٤.
- محفظة رقم ٣: محاضر جلسات ١٩١٤.

- مجموعة وثائق الخارجية البريطانية Foreign Office

وهي عبارة عن مطبوعات سرية مودعة بدار الوثائق العامة Public Record Office في New Gardens بالقرب من لندن، وقد استعنا بمجموعتين هما:

- مجموعة F.O.407 بعنوان respecting the affairs of Egypt and the Sudan.

وقد استخدمنا الرقم ٢٠٣ وهي في عام ١٩٢٦ الذي كتب فيه نيفن هندرسون تقريره عن أزمة كتاب (في الشعر الجاهلي).

- مجموعة ملفات لموضوع وأشخاص، واستفدت منها بملف واحد هو،

ملف الاتحاد ١٤١/ ٨١٩/ ١٧٦١٢.

(ب) منشورة:

- جمهورية مصر: القضية المصرية ١٨٨٢/ ١٩٥٤.
- طه حسين: قرار النيابة في الشعر الجاهلي، بدون.
- مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة، مؤسسة الأهرام: ٥٠ عامًا على ثورة ١٩١٩، القاهرة ٦٩.
- مضابط مجلس الشيوخ: جلسات يوم ٦ يونيو ١٩٢٧، ويوم ٢١ مايو ١٩٢٨.
- مضابط مجلس النواب: جلسات يوم ١٣/ ١٩٢٦/٩، ١٣/ ١٢/ ٢٦، ٥/ ٥/ ١٩٣٠، ٧/ ٣/ ٣٢، ١٦/ ٣/ ٣٢، ٢٨/ ٣/ ٣٢، ٣١/ ٣/ ١٩٥٠، ١٢/ ٣/ ١٩٥٠، ٢٧/ ٣/ ١٩٥٠.
- محاكمات الثورة: القاهرة ٥٤، ج٣.

ثانيًا: مذكرات وذكريات

(أ) غير منشورة:

- مذكرات سعد زغلول، وقد استعنا بالكراسة التي تحمل رقم ٤٧ في صفحة ٢٧٧، أيضًا الكراسة رقم ٥٣ في صفحة ٣٠٠٧، وهي مودعة بدار الوثائق القومية.
- مذكرات عبد الرحمن فهمي، وهي تقع في ست محافظ من القطع الكبير، في الدار السابقة.
- ذكريات علي علوبة بعنوان (ذكريات اجتماعية وسياسية)، وتقع في محفظة واحدة تضم مجلدين، ومودعة بالدار السابقة أيضًا.

(ب) منشورة:

- إبراهيم فرج: ذكرياتي السياسية، دار المأمون للنشر، إعداد حسنين كروم، الجيزة ١٩٨٤.
- جلال الدين الحمامصي: معركة نزاهة الحكم ٤٢ القاهرة ١٩٥٧.
- سوزان طه حسين، معك، القاهرة ٧٤.
- مذكرات في السياسة المصرية: محمد حسين هيكل، دار المعارف.

ج١ - ١٩٥١.

ج٢- ١٩٧٧

ج ٣- ١٩٧٧

- أحمد لطفي السيد: قصة حياتي، الهلال، بدون.
- حسن البنا: مذكرات الداعي والداعية، دار الشباب، القاهرة، بدون.
- صلاح الشاهد: ذكرياتي في عهدين، دار المعارف ط ٢/ ١٩٧٦.
- فاطمة اليوسف: ذكريات، روزاليوسف ١٩٥٣.
- عبد الرحمن الرافعي، مذكراتي، دار الهلال، القاهرة ١٩٥٢.
- علي عبد الرازق (أعداد) آثار مصطفى عبد الرازق، القاهرة ١٩٥٧.
- قلليني فهمي: مذكرات قلليني فهمي، مطبعة مصر ١٩٣٤.
- ذكريات كريم ثابت: بعنوان (أسرار السياسة المصرية) نشرت في صحيفة الجمهورية ١١- ٢٩ يونيو ١٩٥٥.
- محمد زكي عبد القادر: أقدام على الطريق، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٧.
- فضلاً من أعداد ضخمة من الدوريات والصحف.

ثالثًا: المؤلفات والدراسات

(أ) العربية:

أحمد عبد الرحيم مصطفى :تاريخ مصر السياسي من الاحتلال إلى المعاهدة، القاهرة ١٩٦٧.

: حركة التجديد في العالم العربي الحديث، القاهرة ١٩٧١.

: العلاقات المصرية البريطانية ٣٦/ ١٩٥٢، القاهرة ١٩٦٨.

المجمعيون : مجمع اللغة العربية في ثلاثين عامًا، القاهرة ١٩٦٦.

أحمد شفيق : الحوليات السياسية، التمهيد، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٣٥، ج١.

أحمد بدير : الأمير أحمد فؤاد ونشأة الجامعة المصرية، القاهرة ١٩٥١.

أحمد زكريا :حزب الأمة ودوره لي السياسة المصرية، القاهرة ١٩٧٩.

السيد تقي الدين : طه حسين وآثاره وأفكاره، القاهرة ١٩٧٨.

ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨/ ١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، بيروت ١٩٦٨.

أنور الجندي : المرأة في حياة كتابنا المعاصرين، القاهرة ١٩٥٥.

: نزعات التجديد في الأدب العربي المعاصر، القاهرة ١٩٥٧.

:المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر في مائة عام (١٨٤٠- ١٩٤٠)، القاهرة ١٩٦١.

: المعارك الأدبية، القاهرة ١٩٦٦.

: المساجلات والمعارك الأدبية في مجال الفكر والتاريخ والحضارة، القاهرة ١٩٧٢.

: معارك الفكر العربي المعاصر، القاهرة، دون.

: الصحافة السياسية في مصر منذ نشأتها إلى الحرب العالمية الثانية، القاهرة ١٩٦٢.

: طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام القاهرة ١٩٧٦.

: عبد العزيز جاويش، القاهرة ١٩٦٥.

إبراهيم عبده : جريدة الأهرام، تاريخ مصر في ٧٥ سنة، القاهرة ١٩٥١.
أنور عبد الملك : الفكر العربي في معركة النهضة، ترجمة بدر الدين عردوكي، بيروت ١٩٧٨.
: المجتمع المصري والجيش، ترجمة محمود حداد، وميخائيل خوري، بيروت ١٩٧٤.
: نهضة مصر، القاهرة ١٩٨٤.
إقبال علي شاه : فؤاد الأول، القاهرة ١٩٣٩، ترجمة محمد عبد الحميد.
إيلز ليكتنسادتر : الإسلام والعصر الحديث، ترجمة عبد الحميد سليم، القاهرة، ١٩٨٣.
بوتومور : الصفوة والمجتمع دراسة في علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، القاهرة ١٩٧٨.
تشارلز آدمز : الإسلام والتجديد في مصر، ترجمة عباس محمود، القاهرة ١٩٣٥.
جابر عصفور : المرايا المتجاورة، دراسة في نقد طه حسين، القاهرة، ١٩٨٣.
جورج سباين : تطور الفكر السياسي، ج٢، ترجمة حسن جلال العروسي، القاهرة ٦٩.
جمال سليم : البوليس السري يحكم مصر ١٩١٠/ ١٩٥٢، القاهرة.
جابر الأنصاري : تحولات الفكر والسياسة في المشرق العربي ١٩٣٠/١٩٧٠، الكويت١٩٨٠.
حسن يوسف :القصر ودوره في السياسة المصرية، القاهرة ١٩٨٢.
حمدي السكوت ود. مارسدن جونز : إعلام الأدب المعاصر، الجامعة الأمريكية، القاهرة، ط٢/ ١٩٨٢.
رجاء النقاش : أدباء معاصرون، القاهرة ٦٧.
رشيدة مهران : طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية، القاهرة ١٩٧٩.
: آراء وأحاديث في الوطنية والتربية، القاهرة ١٩٤٤.
سامي الكيالي : مع طه حسين، الجزء الأول، القاهرة ٥٢ مع طه حسين، الجزء الثاني، القاهرة ٦٨.

سامح كريم : معارك طه حسين الأدبية والفكرية، بيروت ٦٨.
: ماذا يبقى من طه حسين، القاهرة ٧٧.
: إسلاميات، القاهرة ١٩٧٣.

سهير القلماوي : ذكرى طه حسين، القاهرة ١٩٧٤.

شهدي عطية الشافعي : تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢- ١٩٥٦، القاهرة ١٩٥٧.

طارق البشري : الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥/ ١٩٥٢، القاهرة ٨٣.

طه حسين : تجديد ذكرى أبي العلاء، القاهرة، ط ٧/ ١٩٦٨.
: آلهة اليونان، القاهرة ١٩١٩.
: صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان، القاهرة ١٩٢٠.
: نظام الأثينيين، القاهرة ١٩٢٠.
: فلسفة ابن خلدون السياسية والاجتماعية، القاهرة ١٩٢٥.
: قادة الفكر، القاهرة، ط ٩ بدون.
: حديث الأربعاء، القاهرة.
الجزء الأول ط ١٢/ ٧٦.
الجزء الثاني ط ١٢/ ٧٦
الجزء الثالث ط١٢/ ٧٧
: في الشعر الجاهلي، القاهرة ١٩٢٦.
: الأيام، القاهرة.
الجزء الأول، ط ٥٥، ٧٧.
الجزء الثاني، ط٢٦، ٧٧.
الجزء الثالث، ط٤، ١٩٧٨.
: في الصيف، القاهرة ١٩٣٣.
: حافظ وشوقي، القاهرة ١٩٣٣.
: على هامش السيرة، القاهرة
الجزء الأول، ١٩٥٤.
الجزء الثاني، ١٩٥٠.
الجزء الثالث، ط٩، ١٩٦٨.
: أديب، القاهرة، ط٧، ١٩٧١.
: القصر المسحور، القاهرة ١٩٣٦.

: من بعيد، القاهرة ١٩٣٦.
: من حيث الشعر والنثر، القاهرة ١٩٣٥.
: دعاء الكروان: القاهرة ١٩٤١.
: مع المتنبي، القاهرة ١٩٧٦.
: مستقبل الثقافة في مصر، القاهرة، ١٩٣٨.
: مع أبي العلاء في سجنه، القاهرة ط٢ بدون.
: الحب الضائع، القاهرة ١٩٧٧.
: أحلام شهرزاد، القاهرة ١٩٤٣.
: صوت باريس، القاهرة ١٩٧٦.
: شجرة البؤس، القاهرة ط ١٢ بدون.
: ما وراء النهر، القاهرة ط٧ بدون.
صوت أبي العلاء، القاهرة ١٩٤٤.
: جنة الشوك، ط٧، القاهرة بدون.
: فصول في الأدب والنقد، القاهرة، ١٩٤٥.
: فولتير: زاديج والقدر، القاهرة ١٩٤٧.
: المعذبون في الأرض، القاهرة، بدون.
: الفتنة الكبرى، القاهرة.
: الجزء الأول، ١٩٦٨.
الجزء الثاني، ١٩٦٩.
: رحلة الربيع، القاهرة ١٩٤٨.
: مرآة الضمير الحديث، القاهرة ١٩٤٨.
: الوعد الحق، القاهرة ١٩٤٩.
: جنة الحيوان، بيروت، ط١/١٩٧٧.
: بين بين، بيروت، ط٩/ ١٩٧٩.
: ألوان: القاهرة ١٩٥٢.
: من هناك، القاهرة ١٩٥٢.
: خصام ونقد، بيروت، ١٩٥٠.
: نقد وإصلاح، بيروت، ط٧/ ١٩٧٩.
: من لغو الصيف، بيروت، ١٩٧٨، ط٥.
: تقليد وتجديد، بيروت، ١٩٨١.
: خواطر، بيروت ١٩٧٩.
: آراء حرة (بالاشتراك)، القاهرة ١٩٤٥.
: هؤلاء هم الإخوان (بالاشتراك)، القاهرة، بدون.

: العدوان الثلاثي على مصر (بالاشتراك) القاهرة ١٩٥٦.
: هذا مذهبي (بالاشتراك)، القاهرة، الهلال، بدون.
عاصم الدسوقي : مصر في الحرب العالمية الثانية، ١٩٣٩/ ١٩٤٥، القاهرة ١٩٧٦.
عبد الله العروي : الأيديولوجية العربية المعاصرة، بيروت ١٩٧٠.
عبد المنعم إبراهيم الجميعي : طه حسين والجامعة المصرية، القاهرة ١٩٨١، مجمع اللغة العربية، دراسة تاريخية، القاهرة ١٩٨٣.
عبد الخالق لاشين : سعد زغلول ودوره في الحياة السياسية المصرية.
الجزء الأول، القاهرة ٧١.
الجزء الثاني، بيروت ١٩٧٥.
عبد الرحمن الرافعي : ثورة ١٩١٩، تاريخ مصر القومي من ١٩١٤، ١٩٢١، جزءان ط٢ القاهرة ١٩٥٥.
: في أعقاب الثورة المصرية، القاهرة
الجزء الأول، القاهرة ١٩٤٧.
الجزء الثاني، القاهرة ط٢/ ١٩٥٥.
الجزء الثالث، القاهرة ط١/ ١٩٥١.
: مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ط١، القاهرة ١٩٥٧.
عبد العزيز شرف : طه حسين وزوال المجتمع المتخلف القاهرة ١٩٧٧.
عبد العظيم رمضان : تطور الحركة القومية في مصر ١٩١٨/ ١٩٣٦، القاهرة ط٣، ١٩٨٣.
: تطور الحركة الوطنية في مصر، جزءان بيروت ١٩٧٣.
عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية في مصر، ج٦، ط٢/ ١٩٦١.
عبد المجيد عبد السلام المحتسب : طه حسين مفكرًا، عمان ١٩٧٨.
عبد العاطي محمد : الفكر السياسي للإمام محمد عبده، القاهرة ١٩٧٨.
عبد الرحمن بدوي : على طه حسين في عيد ميلاده، ط٩/ ١٩٧٠.
عفاف لطفي السيد : تجربة مصر الليبرالية ١٩١٩/ ١٩٣٦، القاهرة ١٩٨١.
علي الدين هلال : التجديد في الفكر السياسي المصري، القاهرة ١٩٧٥.

: السياسة والحكم في مصر، القاهرة ١٩٧٧.
فاروق أبو زيد : أزمة الفكر القومي في الصحافة المصرية، القاهرة ١٩٧٧.
فتحي غانم : الفن في حياتنا، القاهرة ١٩٦٦.
فتحي عثمان : التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير، الكويت ١٩٦٠.
فخر الدين الظواهري : السياسة والأزهر، القاهرة ١٩٤٥.
الفكر العربي في مائة سنة : تحت إشراف الجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٧٥.
كريم ثابت : الملك فاروق، القاهرة ١٩٤٤.
لويس عوض : الثورة والأدب، القاهرة ١٩٧١.
لطفي السيد : قصة حياتي، القاهرة، بدون.
ليفين (ز. ك) : الفكر السياسي والاجتماعي الحديث في لبنان وسوريا ومصر، ترجمة بشير السباعي، بيروت ١٩٧٨.
مارسيل كولمب : تطور مصر ١٩٢٤/ ١٩٥٠، ترجمة زهير الشايب، القاهرة ١٩٧٢.
مجيد خدوري : الاتجاهات السياسية في العالم العربي، دور الأفكار والمثل العليا في السياسة، بيروت ١٩٧٢.
محمد أبو الحسن : طه حسين وديمقراطية التعليم، القاهرة ١٩٥١.
محمد زكي عبد القادر : محنة الدستور ١٩٢٣/ ١٩٥٢، القاهرة ١٩٥٥.
محسن محمد : الشيطان، تاريخ مصر بالوثائق السرية، القاهرة، ١٩٨٢.
محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية، ج١، القاهرة ١٩٥٢.
محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المصري الحديث، جزءان، القاهرة.
محمد فريد وجدي : نقد كتاب في الشعر الجاهلي، القاهرة ١٩٢٦.
محمد كامل سليم : ثورة ١٩١٩ كما عشتها وعرفتها ج١.
: صراع سعد في أوروبا ج٢.
: أزمة الوفد الكبرى ج٣.
: كتاب اليوم، القاهرة، مايو - يونيو ١٩٧٥، مارس

١٩٧٦.
مصطفى صادق الرافعي : تحت راية القرآن، القاهرة.
الأب كمال قلته : طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه، القاهرة ١٩٧٠.
غالي شكري : السقوط والازدهار في الفكر المصري الحديث، بيروت ١٩٨٠.
هشام شرابي : المثقفون العرب والغرب، بيروت ١٩٧٠.
نازك سابايارد : الرحالة العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، بيروت ١٩٧٩.
نبيه بيومي عبد الله : الفكرة العربية في مصر، القاهرة ١٩٧٥.
نجاح عمر : طه حسين أيام ومعارك، بيروت ١٩٧٥.
يونان لبيب رزق : الحياة الحزبية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني ١٨٨٢/ ١٩١٤، القاهرة ١٩٧٠.
: تاريخ الوزارات المصرية ١٨٧٨/ ١٩٥٣، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة ١٩٧٥ (بإشراف حسن يوسف).
: الأحزاب المصرية قبل ثورة، ١٩٥٢، القاهرة ١٩٧٧.
يوسف نور عوض : الرؤية الحضارية والنقدية في أدب طه حسين، القاهرة ١٩٧٩.

رابعًا: رسائل جامعية

رزق مرسي أبو العباس : التيار الإسلامي في أدب طه حسين، رسالة دكتوراه في جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، قسم النقد، ١٩٧٩.

محمد نجيب التلاوي : طه حسين في مسيرة القصة العربية، رسالة ماجستير في كلية آداب المنيا، قسم اللغة العربية، ١٩٨٢.

أحمد زكريا الشلق :حزب الأحرار الدستوريين، رسالة دكتوراه في جامعة عين شمس، قسم التاريخ ١٩٨٢.

محمد فريد حشيش : حزب الوفد ٣٦/ ١٩٥٢، رسالة ماجستير في كلية الآداب جامعة عين شمس، ١٩٧٠.

عبد الله العزباوي : حزب الوفد، رسالة ماجستير، في كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٧٠.

زكريا سليمان بيومي الحزب الوطني، رسالة ماجستير، في كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٦٧.

Ibrahim, Ibrahim. The Egyptian intellectuals between tradition and modesrity a study of some important trends in Egyptian thought 1922- 1952 (Unpublished ph. D. Dissertation, submitted to the university of Oxford, 1967).

خامسًا: قواميس وموسوعات

- القاموس السياسي والاقتصادي، القاهرة ط٣/ ١٩٦٨.
- الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة ٦٥.
- دائرة المعارف الاشتراكية، القاهرة.
- الموسوعة السياسية، بيروت ط١/ ٧٤.
- Grand Iarousse (Encyclopediaue) Paris, 1961.

سادسًا: لقاءات شخصية

(أ) العربية:

- لقاء مع بيير كاكيا في فندق شبرد في ٢٧/ ٣/ ٨٤، ٢٨/ ٣/ ١٩٨٤.
- لقاءات عديدة مع الأستاذ حسن يوسف بمكتبه بجريدة الأهرام في ١٣/ ٦/ ١٩٨٣، ٧/ ٤- ٩/ ٤/ ١٩٨٤.
- لقاءات مع الأستاذ حافظ محمود بالقسم الأدبي بجريدة الأهرام في ٢٤/ ٣/ ١٩٨٢، ٣٠/ ٤/ ١٩٨٤.
- لقاءات عديدة مع د. محمد حسين الزيات في منزل سيادته في ٦ يناير ١٩٨٠، ٤/ ٣/ ١٩٨٤.
- لقاء مع د. إبراهيم بيومي مدكور، بمبنى مجمع اللغة العربية بالجيزة، في ٣٠/ ٥/ ١٩٨٢.
- لقاء مع الأستاذ إبراهيم الإبياري، بمنزل سيادته في ١٣/ ٨/ ١٩٨٠.
- لقاء مع الأستاذ المرحوم: محمد زكي عبد القادر، بمنزل سيادته في ٢٣/ ٩/ ١٩٨٠.

(ب) الأفرنجية:

- Adems, charles C. Islam and modernism in Egypt, London, 1933, pp. 253- 259.
انظر ص ٢٤٧- ٢٥٢ من الترجمة العربية للكتاب الذي نشر في القاهرة عام ١٩٣٣، والعبارة مأخوذة من الترجمة العربية ومراجعة على النص الإنجليزي.
- Ahmed, J.U.: The intellectual origins of Egyptian nationalism, (London; Oxford University Presse), 1960.
- Berque, J.: Taha Hussein, au dela du nil, gallimard, Paris, 1977.
-------: Hisloir sociale de L,islam contemprain (Extrain de plannuaire de college de francais 76. annee).
--------:Cultures, titre e part, volume II No.
- Dunne, H.J.: Society and politico in moderns, Egyptian literature, Middle East Journal, 2, 1984.
- Morriaon, S.A.: Arab nationalism and islam, middle east journal, 2, 1948.

- Kitchen, H.A.: Al Ahram (Lavraie promesse, revue du caire, 129, 1950.
- Perlmann, M.: The Egyptian elections, middle Eastern Affair, I, 1950.
- Ziaden, N.: Recent books on interpretation of Islam, middle East journal, 5, 1951.
- Vragg, K,: Then on now in Egypt the reflections of ahmed amin, 1886- 1954, middle East journal, e, - 955.
- Vatiliotis, P.I.: The modern history of Egypt, London, 1909.
- smith, D.E.: Religion and political development (Boston: Little brown and co., 1976.
- Smith, ch: The shift of Egyptian intellectuals to Islamie Subyects in the 1950.
-----: The «crisis of orientation» the shift of Egyptian intellectuals to Islamic subjects in the 1930,s Int. J. middle east stud. (4) 1973.
- Cachia, p.: Taha Hussayn, his place in the Egyptian Literary Renaissance, Landon, 1956.
- Lamourette, V.: La vie et L,oeuvre de Teha Husayn, Paris, umin- de Paris, 1971.
- Colombe, M.: l, evolution de L,Egypte 1924- 1950, Paris, 1951.
- Makaruis R.: La jeunesse intellectuelle d,Egypte au lendemain de la deuxieme guerre modiale, Paris, 1960.
Sibb H.A.P.: Studies on the civilization of the Islam Cambridge, (mass) 1951.
- Sefrain, N.: Egypt in Search of Political community Cambridge, (mass), 1961.
- Wiet, c: botes et critque: Taha Hussein, reuve de Caito, 1, 4, 1933.
- Guichard, L.: Sur le «Le Livre des Jours» Refue de Caire, 425, 1940.

- Fares, B.: Le mouvement litteraire en Egypte, Revue du caire, 45, pp. 1942.
- Teymour M.: Taha Hussein, revue du Caire, 31, 1953..
- Extrait de L,annuaire du college de france (76, Annee cours de 1976- 1977), 1, 2, 3.

المفكر والأمير

الجزء الثاني

مقدمة

تعد، هذه المحاولة، استكمالاً لجهود سابقة كثيرة لفهم موقف طه حسين من ثورة يوليو1952.

ولا يعني أن التركيز على طه حسين في دراسة مستقلة هو التركيز على شخص بعينه (وإن كانت هذه الشخصية تغري كثيرا بتناولها)، إذ يعد الاهتمام بها من قبيل تمثل (النموذج) الدلالي الذي يمكن معه، وفي ضوء رموز علمية كثيرة، فهم قانون يفسر الكثير من مواقف المثقفين الآخرين إزاء السلطة.

غير أنه مع طه حسين، بوجه خاص، يتحدد موقفي ويتأكد في الإحساس بالود الشديد الذي أحسست به تجاه هذه الشخصية العنيدة قبل أن يذهب صاحبها إلى السوربون عام ١٩١٤ وبعد أن يعود إلى مصر عام ١٩١٩ ليشارك في هذه الثورة، ثم مشاركته الصادة في كافة مناحي الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية.

ورغم أن حياة طه حسين بعد ثورة ١٩٥٢ تخلو من الممارسة السياسية التي أبدى فيها كثيرا من التمرد، فإن حياته، بعد هذه الثورة، تغلو في الاستجابة المباشرة للنظام،

وإن كانت تتميز بصور للعلاقة بين المثقف وثورة يوليو في صورة المثقف المهادن، المتهاون.

وثمة استطراد هنا لابد منه:

إن موقفي من طه حسين هو موقف الود الشديد، وموقفي من ثورة ١٩٥٢ هو موقف الود كذلك.

فأنا ابن من أبناء هذه الثورة بحكم أنني كنت قد بلغت الخامسة من عمري حين قامت الثورة، وكنت أشهد بعيوني وكياني كله غضب بلادي على العدوان الثلاثي في ١٩٥٦ ولما أجاوز التاسعة من عمري، ثم عرفت انتصارات الخمسينيات، ورددت أغاني الثورة، وآمنت بمشروعها، ثم عرفت هزائم الستينيات، وعددت انتكاساتها، وابتلعت غصات لا حصر لها من المرارة في هزيمة ١٩٦٧ بوجه خاص، ثم تجرعت المزيد من هذه المرارة في القوات المسلحة حين شهدت، مجندا، انسحاب الجيش المصري وهزيمته بلا معركة، واستنزاف الخزانة المصرية والأمل العظيم في عام ١٩٦٩، وعشت سنوات كان يقال فيها- ذرا للرماد أو خداعا- أنها أعوام الحسم حتى وقفنا على حافة النصر والهزيمة في ١٩٧٣ حين ارتديت ملابسي المدنية وتركت(

الكاكي) لجيل بعدي لم يشهد هذا الكم الهائل من الفرح والمرارة.

وأعتذر لهذا الاستطراد، وهو استطراد مرتبط، أشد الارتباط، بمنهجي، في هذه الدراسة، فأنا أحمل ودا لطه حسين، ولكني أحمل ودا للحق والحيدة كذلك، وأحمل تقديرا للفترة الناصرية وشغفًا بمشروع عبد الناصر العظيم، ولكني، أملك - فيما أزعم- تقديرا لمصر وشغفًا بالقيم العربية المتجذرة في الوجدان الإسلامي.

وهذا يفسر أنني كنت أبرر لطه حسين كثيرا من سقطات المثقف في عصر غير العصر، وأناس لا يمت إليهم بصفة الفكر والتكوين، وكنت أردد كلمات البعض حول المثقفين مفسرا موقف طه حسين المتخاذل من ثورة ١٩٥٢ في أنه كان موقفًا منطقيا مع نفسه، كما يجب ألا نغفل عامل السن.. أقول أنني كنت أبرر لطه حسين تهادنه أو تهاونه إزاء سلطة الثورة، غير أنني كنت أعود، كل مرة، واجما حزينًا.

إن طه حسين الذي عرفته في الفترة الليبرالية ليس هو الذي عرفته في الفترة الناصرية.

وبعد أن كان ذئبا تتحاشاه الأغنام، تحول حملاً تتخطاه الإبل.

وفي جميع الحالات، لم أستطع لفترة تزيد على عشر سنوات أن أستمر في أن أبرر لطه حسين استجاباته إزاء النظام في الخمسينيات والستينيات.

وكما لا يصح أن نصدق دعوى توفيق الحكيم من حالة (فقدان الوعي) ، كذلك، لا يجب أن نصدق أن طه حسين - سواء قال هذا أو قاله غيره- عانى من حالة فقدان الوعي هذه.

إنه ارتداد من موقف التمرد إلى موقف المؤيد، فالمهادن، وهو موقف لم ينج منه أحد قط من التيار الليبرالي الذي كان ينتمي إليه طه حسين اللهم إلا أفراد قلائل يمكن أن يعدوا على أصابع اليد الواحدة، ولهذا، لم أنس أن أرصد لطه حسين موقفه المتمرد قبل ثورة ١٩٥٢، ثم موقفه المهادن للثورة بعد قيامها.

بقي أن أشير إلى بعض المؤثرات في موقفي وفي مقدمتها هذه السنوات الطويلة في ضوء البحث والتحري والمناقشة، ففي هذه السنوات التي قضيتها أبحث عن تفسير

لسقوط طه حسين بعد ثورة يوليو عثرت على عدة ملفات عنه في دار الوثائق المصرية تحت رقم (١٦٤٤) ، ولما عدت إليها بعد عدة أشهر اكتشفت ضياعها، وحمدت الله أنني كنت قد نقلتها (طبق الأصل) حينئذ، كذلك، فإن حواراتي المستمرة أفادتني كثيرا، وخاصةً مع كل من حسن يوسف رئيس الديوان الملكي بالنيابة، وأحمد سعيد المسئول عن موجة (صوت العرب) في الفترة الناصرية، وبيير كاكيا أحد أصدقاء طه حسين وأحد تلامذته في الأربعينيات، وغيرهم، كذلك، استفدت كثيرا بطرح الموضوع في سمنار كلية البنات- جامعة عين شمس- في شتاء ١٩٨٩، أيضا، من هذه المناقشات أفدت منها أثناء مناقشة لرسالتي لنيل الدكتوراه حول المثقفين، فطه حسين مازال يثير، شأن كل مثقف كبير، كثيرا من الجدل.

بقي أن أشير إلى بعض المراجع التي استفدت منها، إذ سعيت هنا إلى ترتيب بعض المراجع في نهاية كل قسم، وإعطاء كل واحد فيها رقما، وعند الكتابة أشرت إلى الرقم برقمين، أحدهما، رقم الصفحة، والآخر، رقم المرجع للطبعة المذكورة.

وهي طريقة آثرت اللجوء إليها لتسهيل القراءة، وتيسيرا للفهم.

فأرجو أن أكون قد وفقت فيما سعيت إليه.

د.مصطفى عبد الغني

يونيو ١٩٨٩

الفصل الأول

طه حسين متمردا

لا شك أن صفة التمرد أهم الصفات التي يمكن أن نفسر بها طبيعة طه حسين.

فإذا قلنا: طه حسين، لذكرنا، على الفور، الثورة والتمرد.

بل هي الصفة التي يجمع نقاده وكتابه جميعا على أنها تقبع وراء ردود أفعاله إزاء العالم الخارجي.

وحين أراد جاك بيرك أن يفسر شخصية طه حسين في دراسته الهامة حول رواية (ما وراء النهر) فإنه، رأى أن هذه الصفة، التمرد- هي أهم ما دفع بصاحب العاهة(١٧/١)، ليتحدى العالم كله، فخرج من قمقم الذات المغلق إلى آفاق الحياة الرحبة.

وطه حسين نفسه لا يرى وراء شخصيته العنيدة، المندفعة، غير صفة التمرد، فهذه الصفة هي التي دفعت إلى اقتحام الصعب، وليجد نفسه -على حد قوله- يخاصم السياسة(٤٢/٢).

إذن، فهذا أول تفسير لموقف طه حسين السياسي إزاء الكثير من رموز السلطة في عصره (سواء أكانت سلطة اجتماعية أو فكرية أو سياسية)، وهي هذه الصفة التي قدر لها أن تكون وراء سعي ((بروميثيوس)) الدائم إلى سرقة النار من أجل الآخرين، وكثيرا ما تحدث طه حسين عن سارق النار في كثير من الإعجاب والتقدير حتى يحسبه قارئه أنه سارق النار في العصر الحديث.

ونستطيع أن نعثر على جذور هذه الصفة، التي طبعت حياته كلها بطابعها الخاص طيلة النصف الأول من القرن العشرين.. نستطيع العثور عليها واضحة في أعماله كلها، لا سيما سيرته الملحوظة (الأيام)، فهو كثيرا ما يردد فيها قصص الغضب والإصرار، وهو كثيرا ما يردد فيها ألفاظًا تأتي بذاتها، ولا تلبث أن تختفي لتعاود السرد من جديد. ومن هذه الألفاظ العبارة التي يقول فيها من آن لآخر: ((الفتى لم يكن يعرف رفقًا ولا لينًا)) (١٧٢/٣)، وهذا يعني أن طه حسين كان بالفعل إنسانًا متمردا (كثيرا ما ردد هذا في أعماله)، وفارسا صنديدا (كثيرا ما ردد هذا عند أحد أقرانه د. حسين فوزي).

وهذا يشير إلى شيء بديهي في مثل شخصية طه حسين، هو، أن عناده تمثل في رفضه ((الجبرية)) التي حاولت أن تصوغ حياته كلها لهذه الظروف التي وجد نفسه فيها، وهو ما تنبه إليه الكثيرون في جيله مثل محمود تيمور الذي راح يشير إليه في كثير من العجب والإعجاب (٤).

وقد يكون من المفيد أن نشير إلي بدهية نلتقي بها في هذا البحث، هي، أن موقف طه حسين المتمرد في الثلاثينيات والأربعينيات لم يكن غير موقف ينم عن تطور فكري تمر به بلادنا، وهو يتمثل في دواعي التجديد الفكري الذي دعا إليه كثير من المثقفين حينئذ، والمعارك السياسية التي آثر أن يكون فارسها المغوار، وهو ما يمكن أن يوافق عليه البعض من أن التجديد الظاهري في المشاعر الدينية وفي الحماس الديني عند الشعوب العربية منذ القرن الماضي ليس غير تعبير عن المشاعر القوية التي تنطلق وتتطور في هذا الوقت(١٩/٥).

معنى هذا، أن موقف طه حسين الذي اتسم بالتمرد في النصف الأول من هذا القرن كان يشير إلى موقف جماعي، ليس هو موقف الجماهير العربية في مصر، وهو ما

يستوجب منا التأكيد على أن الاقتراب من (النموذج) ليس غير اقتراب من خيوط النسيج القومي ضد القوى المتمثلة في الحكومات الرجعية (والملك الذي تحالف معها).

وإذن، نستطيع أن نجد في تمرد طه حسين موقفًا جماعيا للشعور القومي حين تحدى الاستهتار بالمشاعر العربية في مصر أو محاولة حجب ضوء الشمس عن الوجدان اليقظ المتأهب للخلاص حينئذ.

فلنعد مرة أخرى (للنموذج) لنتعرف على الدور الذي لعبه طه حسين، هذا المثقف الليبرالي ذو الميول الوفدية.

وسوف نختار لندلل على هذا عدة صور لنعرف من خلالها ملامح التمرد، في النصف الأول من هذا القرن، قبل أن نرتد إلي نقيضها، في النصف الثاني منه.

طه حسين وسعد زغلول

نستطيع أن نحدد ملامح الصورة الأولى في الفترة التي تقع بين عامي ١٩٢٥/١٩١٩، ففي هذه الفترة كان طه حسين قد عاد من السوربون بعد بعثته الدراسية (١٩١٩)، وقدر له أن يشارك في أحداث الثورة ولكن في الجانب الآخر، في معسكر حزب الأحرار الدستوريين، المعسكر الذي كان قد

خرج على حزب الوفد -الأغلبية- إبان الثورة.

وقد أسهمت الصحف من الجانبين في توسيع الهوة بينهما.

لنقترب أكثر، من طبيعة الصراع..

في هذه الفترة ارتفع صوت المعارضة -حزب الأحرار الدستوريين- عاليا ضد حكومة الأغلبية التي كانت يتربع على قمتها زعيم حزب الوفد- سعد زغلول- في الحكومة التي شكلت بعد الانتخابات الدستورية.

ولأن طه حسين كان من أبرز كتاب الحزب المعارض لحكومة سعد زغلول، لم يتردد إزاء ممارسات الحكومة المتردية في أن يصوب عشرات السهام إلى حيث يقف الزعيم.

لم يكن طه حسين الآن غير أستاذ في الجامعة في وقت كان سعد زغلول فيه في مقعد رئيس الوزراء.

وقد شهدت هذه الفترة عشرات من مقالات طه حسين النارية العاتبة ضد الوزارة القائمة في مصر، وهي وزارة سعد زغلول (٦/٤٤)، وقد وصل هذا الهجوم إلى قمته عام ١٩٢٤، فقد كان هذا العام أكثر الأعوام التي شهدت تصاعد

هجوم طه حسين من حزب الأحرار في صحف السياسة والاستقلال والأهرام.. إلى غير ذلك.

ونستطيع أن نستعيد فقرة بسيطة من مقالات طه حسين العنيفة لندلل بها على هذا العنف، ففي مقال له بعنوان (ويل للحرية من سعد) يقول:

- (كان سعد محاربا لأمته فأصبح الآن محاربا للحرية من حيث هي حرية، وأصبح الآن محاربا لكل هذا النصر الحديث.

سعد وكيل الأمة في كل شيء- حتى في قراءة الصحف.

أيتها الأمة المصرية. طيبي نفسا. وقري عينًا. اهدئي واطمئني، فقد قيض الله رجلاً يريحك في كل شيء. لا تطالبي بالاستقلال فسعد يطالب به. لا تعشقي الحرية فسعد يعشقها. لا تؤمني بالله فسعد يؤمن به. ولا تقرئي الصحف فسعد يقرأها)(٧).

لنذكر (مرة أخرى) أن طه حسين أستاذ الجامعة بينما سعد زغلول رئيس الوزراء، وزعيم حزب الأغلبية في ذلك الوقت.

وهذا مجرد مثال واحد من أمثلة عديدة..

وتتوالى كتابات طه حسين، وتصل إلى أقصاها في النصف الثاني من عام ١٩٢٤، أغلبها بدون توقيع، وبعضها بتوقيع (ساخط)، وكلها لا تترك هينة في شخصية سعد أو في شخصية أي مسئول في حكومته إلا وتصيبها ويفيض الكيل ويكون على سعد أن يطالب -بشكل رسمي- من النائب العام التحقيق مع صاحب هذه المقالات بتهمة إهانة رئيس الوزراء.

ونقترب،أكثر، من محضر المحاكمة..

يفتتح المحضر في يوم ١٧ يونيو ١٩٢٤ بناء على استدعاء رئيس النيابة، ويستدعي طه حسين فيوجه إليه اتهام ((إهانة حضرة صاحب الدولة)) والاتهام موجه بالطبع من سعد زغلول.

ويبدأ المحقق مع طه حسين فيلقي عليه هذا السؤال:

- علمت النيابة أنك ممن يكتبون في جريدة السياسة، ولك في تلك الصحيفة مقالات بإنشائك وإملائك، فهل هذا صحيح؟

ويكون على طه حسين أن يجيب:

- لا أجيب.

ولعدة ساعات يلقي المحقق على طه حسين أسئلة عديدة، ويظل يتوعد المتهم على هذه الاتهامات التي يسميها (جرائم) فيرفض طه حسين الإجابة، ويعود وكيل النيابة ليناور (في حالة عدم الإجابة تعتبر القرائن الكبرى على إجرامك) فلا يزيد طه حسين على القول في هدوء عجيب وصبر طويل:

- لا أجيب.

ويعود المحقق في محاولة أخرى في قراءة عنوانات مقالاته الكثيرة التي نشرت بدون توقيع ليعترف صاحبها بها دون جدوى، وفي كل مرة لا يزيد على أن يقول (لا أجيب)(٩).

ويستمر النائب العام في إحراج المتهم، فيضيف إلى (الجرائم) التي يعاقب عليها القانون بسبب هذه المقالات العنيفة. ويضيف تهمة أخرى، هي، (إهانة الوزارة والحكومة) ليضطرب المتهم ويرهب فلا يجيب.

ويتبع النائب العام أسلوبا آخر لعله يظفر من المتهم برد آخر، فهو يقول أنه يعرف أنه -أي طه حسين- هو

كاتب هذه المقالات، فهو يكتب في صحيفة السياسة بشكل مستمر، كما أن دراسة أسلوب المقالات تؤكد أنه أسلوب المتهم، والنيابة قد عادت إلى أوراق طه حسين الوظيفية في وزارة المعارف(وكانت الجماعة تابعة لها) فتأكد لها أن طه حسين طلب بشكل رسمي أن يكتب في جريدة (السياسة) بوجه خاص فأذن له مجلس إدارة الجامعة الذي قال بشكل رسمي (إن المجلس لا يرى الحجر.. وأن من يريد الكتابة في المسائل السياسية والعلمية فيكتب ما يريد) (٨).

غير أن هذا السهم أيضا، يطيش أمام عناد طه حسين وصلابته.. ولأن النيابة تفشل في تضييق الخناق عليه، أو انتزاع منه ما يمكن به أن يضع بطه حسين في موقف حرج، فلا يجد وكيل النيابة أمامه غير إخلاء سبيله، ثم يرسل بعد أن يرحل إلى سكرتير الجامعة المصرية ليأخذ عليه إقرارا بعدم الكتابة في الموضوعات السياسية(٨).

ويكون هذا الموقف هو نهاية اتهام رئيس الوزراء لأستاذ الجامعة، الغضب، فالاتهام، فالإفراج عنه ثانية..

طه حسين وإسماعيل صدقي

حاول سعد زغلول اتخاذ عدة إجراءات انتقامية من

خصومه في وزارته التي أطلق عليها (وزارة الشعب) (٩)، ولكنه لم يستطع أن ينال من طه حسين الأعزل، الذي استطاع مراوغة وكيل النيابة بالاتفاق مع محاميه.

لقد استطاع المثقف أن يتحدى السلطة وينال منها.

وإذا كان قد استطاع الفرار من تهمة إهانة رئيس الوزراء في العشرينيات، فإنه استطاع -كذلك- الفرار من مثل هذه التهمة في الثلاثينيات، وإن زادت أسلحة المعركة، واستخدم فيها كثير من الأسلحة غير المشروعة..

وهو ما حدث في معركته الثانية مع إسماعيل صدقي.

كان طه حسين في المرة الأولى أستاذًا للتاريخ القديم بكلية الآداب، أما الآن، أصبح عميدا لها، ومن هنا، لم يتردد النظام في محاولة الإفادة منه لتأمين الحكم، والقضاء على الخصوم، وهو ما تم حين حاول صدقي استمالته ليكون رئيسا لتحرير جريدة النظام القائم (الشعب)، وهي الصحيفة التي كانت تعبر عن فكر صدقي وأحلام القصر ورغباته: (٥٩/١٠) فرفض.

وبينما رفض طه حسين التعاون مع حكومة مضادة للمد الشعبي، ومكممة للحريات، لم يتردد في أن يواصل

هجومه عليها ليل نهار إلى الدرجة التي اهتبل صدقي الفرصة فيها، وسعى إلى خصمه، ليحاول إدانته على بعض تصريحاته للصحف وكتاباته المتوالية في الهجوم على الوزارة القائمة وعلى رئيسها بعد نقله من الجامعة.

كان الذريعة التي اتخذها صدقي تتمثل في مقالتين عنيفتين كتبهما طه حسين ونشرهما بجريدة الجهاد اليومي يومي ١٨، ١٩ مارس ١٩٣٢ لاحتوائهما على إهانة محققة.

وقبل أن نشير إلى التحقيقات مع عميد الجامعة، قد يكون من المفيد أن نشير إلى بعض ما جاء في تصريحات أو كتابات طه حسين التي دفعت بصدقي إلى اتهامه بتهمة الإهانة، فثمة حديث (١١)، كان طه حسين قد اتهم فيه بعدم اللباقة في الرد فيه على رئيس الوزراء، ثم أضاف إلى هذا تنديده بهجوم أحد الوزراء عليه بشكل حاد ((الاعتداء على كرامة أستاذ أقل ما يوصف به أنه أرفع من أن تصيبه همزات الوزير)).

كان الوزير المقصود هو وزير المعارف، الذي دفع من قبل رئيس الوزراء للهجوم على طه حسين وإهانته لقاء ما اقترفه في التعامل مع صدقي (١٢).

وتصل سخرية طه حسين واستهانته بوزير المعارف (دفع به بأمر رئيس الوزراء) إلى درجة أن طه حسين يقول في أحد مقالاته أنه كان يقهقه لتصريحات هذا الوزير كلما تذكر تصرف هذا الوزير، وراح يكشف جهرا ما عرض عليه سرا للنيل من المتهم والتحقيق، ثم راح يفند اتهامات الوزير من أن طه حسين كان يحصل على مصروفات مالية كثيرة باسم ترجمة الأعمال أو الصرف على بعض المؤتمرات، متحديا أن يكون هناك من يقوم بعمله الكبير سواء في حضور المؤتمرات أو ترجمة ما يترجم.. وما إلى ذلك.

ولم يشغله الموقف الشخصي عن الموقف العام، فإنه كثيرا ما ندد بهذه الأحزاب أو الجماعات التي تأتلف ضد الشعب، وحين ذكر حزب (الشعب) تحديدا راح يقول: ((إنما هي جماعات تتألف من أفراد لهم مآرب ومنافع يتحقق بعضها من تولي مناصب الحكم، ويتحقق بعضها الآخر من الاتصال بالذين يتولون مناصب الحكم))، ويدلل على هذا من أن حزب (الشعب) هو الذي يعضد ويدعو لرئيس الوزارة ((لأن حزب الشعب إنما وجد برئيس الوزراء، ولم يوجد

رئيس الوزراء بحزب الشعب))، ويخلص من هذا كله إلى أن رئيس الوزراء هو الذي عليه وحده يقع ما يتردى إليه الشعب سواء من الإنجليز أو الحكومات الرجعية التي تترى، وقد ختم مقالته بفقرة لاذعة يقول فيها:

((ماذا أقول؟ لو سار رئيس الوزراء هذه السيرة المألوفة في البلاد الدستورية لما أقام في الحكم شهرا)).

هذه عينة من أحاديث طه حسين ومقالاته العنيفة، وهو ما يجب الإسراع عنده بالإشارة على أن هذا الموقف من المثقف لم يرتبط بالضرورة بالحزب الذي ينتمي إليه، وإنما كان لوعي حاد تميز به عن غيره، فإذا أضيف الوعي إلى العناد، فإن حاصل الاثنين يكون هذه الشخصية التي يدين لها صاحبها بكل شيء.

كانت هذه الفترة التي فصل فيها صدقي طه حسين، بل دفع العديد من النواب بمجلس النواب إلى إثارة قضية (الشعر الجاهلي) من جديد، بعد أن كانت قد طويت صفحتها في نهاية العشرينيات، وذلك بقصد تأليب الرأي العام ضده وزيادة الضغط عليه في وقت، كان وعي طه حسين يدفع به إلى الانتقال من حزب الأحرار الدستوريين إلى حزب الوفد.

وهنا نعود ثانية إلى التحقيق الذي فتح بناء على طلب وزير المعارف، فيفتح المحضر، ويبدأ التحقيق مع أستاذ الجامعة المنقول إلى وزارة المعارف، وهو ما نصل إليه الآن.

يستمر التحقيق مرات عديدة (أيام ١٩، ٢١، ٢٢ مارس ١٩٣٢)، وفي كل مرة، يرفض المتهم -طه حسين- مبدأ التحقيق معه، وذلك على حد قوله.

((لأن تصرف الوزير بنقلي من الجامعة خطأ يخالف ما بين الجامعة القديمة والحكومة من التعاقد الذي نص فيه على أني أعين أستاذًا في كلية الآداب وقد طلبت إلى الجامعة أن تتخذ الإجراء لإعادتي إلى منصبي فيها)) (١٣).

وعلى هذا النحو، ينسف طه حسين التحقيق من أساسه، وإذا كان ولابد من التحقيق، فإن ثمة شرطًا واحدا لابد من أن يراعى، هو، أن يعود أستاذًا في الجامعة وأن -على حد قوله- ((يحقق معي على هذا النحو وبهذه الصفة وأمام الهيئات التي تملك سؤال الأساتذة والتحقيق معهم)).

وهذا الإصرار في رفض التحقيق معه يذكرنا بالموقف القديم الذي وقفه في نيابة سعد في العشرينيات، وهاهو

الموقف يعود مرة أخرى في الثلاثينيات، إذ إن التحقيق الذي يجري معه، مجرد التحقيق، غير وارد في غيبة الأصول التي يقوم عليها.

وتبدأ مناورات المحقق ومحاولته سلب أي اعتراف منه..

يؤكد له المحقق أن كونه موظفًا الآن في وزارة المعارف، وبعيدا عن الجامعة يمنح وزير المعارف حق سؤاله، يرد طه حسين في إصرار: ((هذا رأي الوزير لا رأيي)).

ولعدة أيام يطوي محضر ويفتح محضر جديد دون أن يتوقف المحقق عن توجيه الأسئلة، ودون أن يتوقف طه حسين عن رفض الإجابة.. فالسؤال قائم على باطل..

والإجابة مشروطة بتخطي هذا الباطل ليكون التحقيق مشروعا.

ويصل المحضر تلو المحضر إلى إسماعيل صدقي، ويسقط في يده، ولا يجد أمامه غير أن يقبل التحدي، ويفصل رئيس الوزراء عميد الجامعة المتمرد، ويظل طه حسين طيلة العامين التاليين (٣٣/ ٣٤) بدون عمل، غير أنه يظل رغم

محاصرته المادية والمعنوية، يوجه سهام نقده العنيف إلى رئيس الوزراء، وفي عديد من الصحف.

كانت تغلب على مقالات هذه الفترة -رغم النقل والفصل والتشريد- درجة من الحدة والعنف لا يمكن إغفالها، وهي تعد من أرقى مقالات (الأدب السياسي) في تاريخنا الحديث حتى الآن، وقد تميزت هذه المقالات بلفظة واحدة كان يؤثرها في العنوان مثل (سياسة/ مصادرة/ بلاغ/ غيوم/ غرور/ معارضة/ خطبة/ معاذير) إلى غير ذلك من العنوانات التي كان يسيل تحتها أعنف (أدبيات) الفكر السياسي وأشرسها.

ولا يكون على العميد المفصول غير الانتظار حتى تسقط وزارة صدقي، وتأتي وزارة أخرى تتعاطف مع الوفد فيعود إلى الجامعة ثانية..

طه حسين والقصر

كان بين طه حسين وبين أصحاب (الهلال) أكثر من هذه العلاقة التي يمنحها العمل في مجال واحد، كما كان بينه وبين مجلة (الهلال) خاصة أكثر من هذه العلاقة بين كاتب وبين المجلة التي يؤثرها عن غيرها.

أما ما بينه وبين أصحاب الهلال فقد تبدى في شيء كثير من الود الذي يقترب من النفوس فيحولها إلى أرواح عذبة مؤتلفة وهو ما ظهر في أكثر من مرة: فقد قام، عن طيب خاطر، بنقد كتاب إميل زيدان (قادة الفكر البشري) - فبراير ١٩٢٥، وهو ما فعله في شيء من الرضا مع فكري أباظة حين أهداه كتابه (الضاحك الباكي) مؤكدا في صحيفة الوادي أن ما يفعله الآن بمثابة (أديبا يجامل أديبا، وصديقًا يعرف للحق صديقه)) وبلغ من تقدير طه حسين لفكري أباظة أن راح -أثناء تجميع بعض مقالاته في الجزء الثالث من حديث الأربعاء- يحرص أن يتضمن هذا الجزء تلك المقالة، وهو ما فعله بشكل ما مع عديد من أصحاب الدار وكتابها ومن أظهرهم جورجي زيدان حين كتب عنه في بداية الستينيات في شيء شديد من الرضا (الأدب ١٩٦٣/١).

أما الهلال -المجلة- فقد خصها بكثير من مقالاته في الثلاثينيات والأربعينيات وإلى وقت قريب قبل رحيله، غير أن الأربعينيات كانت أكثر الأعوام لفتًا للنظر في علاقة طه حسين بهذه المجلة، وهو ما يعود إلى طبيعة هذه الأحداث

التي كانت تمر بها مصر في هذه الحقبة.

وإذا أردنا أن نختار عاما حافلاً بالنسبة لطه حسين وللهلال، فسوف يكون عام ١٩٤٧ أكثر هذه الأعوام لفتًا للنظر، ففي هذا العام كانت مصر ما زالت تعاني من القهر السياسي والاجتماعي عقب الحرب العالمية الثانية، وخاصة، أن وباء الكوليرا كان يهاجم مصر هجوما عنيفًا في وقت كان الإنجليز ما زالوا يماطلون في الاستقلال التام، وكانوا يراوغون للحصول على حلف يكونون فيه الطرف القوي، غير أن أكثر هذه الأخطار حينئذ تمثلت في سلطة الملك (الأوتوقراطية) التي كان يسعى دائما للسيطرة بها على كل شيء.

ولنتوقف، أكثر، عند صور من استبداد القصر قبل أن نصل إلى الأزمة التي أثارها على أثر بعض مقالات طه حسين.

عقب الحرب العالمية الثانية تزايد نفوذ القصر في الوقت الذي كان ينحسر فيه نفوذ الإنجليز، ومن هنا، فبعد أن كانت مقاليد الحكم في يد قوى الاحتلال في العشرينيات تنحت الآن لتخلي الأمر للملك الذي حاول الاستحواذ على

مساحات نفوذ كبيرة من خلالها، ودارس تاريخ هذه الفترة يلحظ كيف أن الملك كن يهتبل الفرصة -أية فرصة- للسيطرة على كل شيء: الحركات القضائية من فصل وتعيين، حركات المديرين، ومن إليهم من وزراء الداخلية خاصة ممن يحتاج الأمر بشأنهم إلى صدور مرسوم.

وهذا يفسر كيف أن رجلاً قويا مثل إسماعيل صدقي في وزارته الثالثة (١٩٤٦/ ١٩٤٨) راح يمالئ الملك ويطامن من غضبه ويحقق رغباته غير المشروعة، وعلى سبيل المثال، فإن صدقي لم يحرك ساكنًا لسعي الملك في كل مرة في الطريق المضاد للحياة النيابية وزيادة سلطته، حتى أن سياسيا ومثقفًا كبيرا مثل د. محمد حسين هيكل أكد (في مذكراته) أنه قد أصبحت وزارات كاملة تتبع القصر بتعيين شبه رسمي (١٤، ٢٨٠)، كما أن حسن يوسف نائب الديوان الملكي يذكر الكثير من صور ولع الملك بفرض سيطرته على كل ما من شأنه أن يقوي قبضته الاستبدادية على أجهزة الحكم وتنظيماته التشريعية، كما أن مراجعة وثائق عابدين تؤكد لنا في كثير من الموضوعات أن الملك ما كان يترك كبيرة أو صغيرة إلا ويتدخل فيها.

وبدهي أنه كلما كانت إرادة الحكومة ضعيفة زادت شهوة الملك للسيطرة والاستحواذ على مساحات شاسعة من المناصب والأجهزة الرسمية.

فأين كان طه حسين من هذا كله؟

وبشكل أدق: ما هو موقف طه حسين من القصر؟

في هذه الفترة تحدد موقف طه حسين -حسب انتمائه للوفد- في أمرين:

- إما محاولة إرضاء الملك.
- وإما محاولة إرضاء الحزب.

غير أنه حاول أن يرتبط بموقف الوفد الذي كان آخذًا -حينئذ- في الإقبال على الملك، وهو موقف تأرجح بين الصمت مرة والرمز مرة أخرى، ولأن طه حسين كان متمردا بطبيعته، فقد بدأ ارتباطه بالموقف الآخر -الرمز- أكثر من سواه.

وقد تغير موقف طه حسين في أكثر من مرة في عقد الأربعينيات، غير أن موقفه الأخير وارتباطه بالقصر تمخض عن عدة خيارات تالية لم تختلف كثيرا عن سابقتها.

كان عليه أن يواجه الملك وفي الوقت نفسه يهادنه..

وتعددت الاستجابات: الصمت، التردد، الرمز.

وتحددت في ثلاثة طرق:

إما مهادنة الملك، ومن هنا، التزم الصمت.

وإما موقف التردد ومن هنا آثر أن يرسل إليه كتبه في بعض الأحيان، فيلتزم بعدم إعلان موقف محدد منه.

وبالعودة إلى مراجعة هذه المواقف نرى أن مهادنة الملك تبلورت إلى مصانعته، ولم يتردد أن يمارس هذا خلال إلقاء أكثر من خطبة اضطر إليها، فوقف ليمدح الملك أو أباه في مناسبة عقد القران الملكي أو العيد الفضي لجامعة الملك فؤاد أو افتتاح معهد الصحراء.. إلخ (١٥).

ويمضي في هذا السياق ما تشير إليه بعض وثائق دار الوثائق المصرية من أن طه حسين أرسل بأكثر من إهداء بكتبه إلى الملك وراح الملك يبادله -الرد- بالفعل.

أما عن استخدام الرمز والتلغيز، فقد زخرت به مقالات هذه الفترة وبعض الكتب التي كان قد نشرها -منذ البداية- متفرقة.

وقد كانت هذه هي الفترة التي زخر فيها كتاب جديد في فن (الأبيجراما) وهو، (جنة الشوك) عام ١٩٤٥ بكثير

من الرمز ضد الملك، كذلك واصل ذلك الاتجاه في كتب أخرى من أمثال: مرآة الضمير الحديث ١٩٤٨، وبين بين ١٩٥٢، والمعذبون في الأرض ١٩٤٩، وروايته الناقصة ما وراء النهر وفولتير: زاديج والقدر ١٩٤٧ وبعض المقالات الأخرى التي أعاد نشرها في كتاب (ألوان).

غير أن كتابات مجلة (الهلال) كانت أكثر هذه الكتابات التي تحث على الرمز، وتدفع إلى الغضب وتدعو إليه.

ويبدو أن هذه الكتابات التي نشرت في الهلال كانت من القوة بحيث أن طه حسين راح يجمعها في نفس العام لضمها في كتاب واحد ينشر تحت عنوان (نفوس للبيع) أو - عنوان تال- مرآة الضمير الحديث.

وهنا نصل إلى طبيعة كتابات طه حسين ضد القصر.

ومن المفيد أن نشير -كذلك- إلى أنه ليس الضغط الشعبي -وحده- كان دافعا لطه حسين ليتخذ هذا الموقف، وإنما كانت ظروفه الخاصة أيضا تدفعه إلى مثل هذه (التقية) التي كان يضطر إليها، فمنذ عام ١٩٤٤ (بعد إقالة وزارة الوفد) وجد طه حسين نفسه مقالاً، وبعد أن كان مستشارا فنيا بوزارة المعارف أصبح الآن لا يعمل في أي منصب رسمي،

وبقيت له الكتابة، وقدر كبير من الذكاء والوعي ليمارس بهما دوره هنا.

فلنعد إلى مقالاته التي نشرت في (الهلال) ونشرت في كتاب حينئذ.

إننا في هذا الكتاب نستطيع أن نرصد صورا كثيرة من الرمز المباشر ضد القصر، وهي درجة وصلت من الكشف والمباشرة حتى دفعت بالملك إلى الثورة ضده، ثم يحول هذه الثورة إلى غضب يصبه صبا على أصحاب الهلال.

ومع أن هذه المقالات تزخر بالحديث عن الفقر والشقاء والوباء والألم الإنساني، فإن مقالته التي نشرت خاصة بالهلال بعنوان (قلب مغلق) في فبراير ١٩٤٧ (١٦) تعد من أهم هذه المقالات قاطبة التي أضاف فيها إلى كل هذه المعاني - الرمز الذي حاول من خلاله النيل من القصر ومحاولة الحد من سلطاته المطلقة في وقت يغلق فيه الملك على قلبه/ حصنه كل الدروب.

وقبل أن نصل إلى موقف الملك من طه حسين حينئذ، قد يكون من المفيد أن نشير الآن، إلى أهم ما جاء في هذه المقالة (قلب مغلق) لتدارك السبب الذي من أجله وصل

القصر فيه إلى درجة عالية من الغضب.

كان أول ما يلاحظ في عدد الهلال الذي نشرت به هذه المقالة أنه كان ذا غلاف أحمر وإن تماوجت فيه درجات اللون الأخضر وقد توسطته صورة الملك وهو يرتدي الزي العربي، وتحت الصورة التي تغطي مساحة الغلاف كله هذه العبارة (فاروق الملك العربي/ بمناسبة المهرجان السابع والعشرين لميلاده السعيد)، وحين نقلب في العدد نجد مقالة طه حسين تبدأ ببنط كبير وبفقرة ذات بنط أكبر قليلاً من الجمع العادي للمقالة.

العبارة تقول:

((إن حصنك يا سيدي ليس إلا قلبك المقفل الذي لا تصل إليه رحمة حين يحتاج الناس إلى الرحمة، ولا رفق حين يحتاج الناس إلى الرفق)).

وتتوالى سطور المقالة الساخطة في شيء من الهدوء المصطنع، الملغزة في شيء من المباشرة الشديدة، وتتوالى السطور في ضمير المخاطب، حيث يتجه الحديث بشكل مباشر إلى الملك:

(لا تغضب، فلم أرد إلى إغضابك، ولو قد أردت إليه

لما استطعته ولا قدرت عليه).

ولأن الكاتب يعلم أن المخاطب/ الملك لا يهمه من أمره شيئًا، فإن الكاتب يؤثر أن يتجه إلى الشعب ليبثه ما يحس به، إنه يتجه إليه وكأنه يوجه خطابه إلى الناس حتى يكشفوا هذه الأستار البالية والتي ما تزال تحجب شيئًا من ضوء الحقيقة، يقول:

((فما ينبغي أن يظل الناس من أمرك في هذه الحيرة المتصلة، يرونك واحدا منهم ويقدرون أنك متضامن معهم في حمل أثقال الحياة والنهوض بأعبائها، حتى إذا جد الجد، افتقدوك فلم يجدوك، وإذا أنت سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، ووجد عنده الحزن واليأس وخيبة الأمل وكذب الرجاء.. أنت شريكهم في العيش الرضي والحياة المقبلة، وأنت أبعد الناس عنهم حين يغلظ العيش، ويعظم البأس، وتدبر الحياة، تسرع إليهم حين ينعموك لتشارك في نعيمهم..إلخ)).

وينتقل طه حسين من هذا كله إلى حصنه أو قلبه سيان، وهو حصن (أو قلب) مغلق عن أوجاع الناس وهمومهم، يضيف:

((إن حصنك هذا المؤشب يا سيدي، ليس إلا قلبك القفل الذي لا ينفذ إليه شعور بالتضامن أو حاجة إلى التعاون، والذي لا تصل إليه رحمة حين يحتاج الناس إلى الرحمة، ولا رفق حين يحتاج الناس إلى الرفق، ولا رثاء حين يحتاج الناس الرثاء، إنه قلب قد صور من صخر مجوف..إلخ)).

وبعد أن يسهب طه حسين طويلاً في هذه المقالة، واصفًا قلبه بأنه رشيق أنيق ((قفل من ذهب نضار)) ومن هنا فإنه لا يرى أبعد منه، ولا يسمح بمغادرته قط، لن يسمح له برؤية الأحداث الآتية، فمهما يكن من حظه من الجمال والصلاة فإنه:

((لن يستطيع أن يقاوم الأحداث، ولا أن يثبت للخطوب، ولا أن يحتفظ بهذا القفل الذهبي المرصع...)).

ومن هنا، فإن طه حسين يكون صريحا غاية الصراحة حين يحذر محدثه بما سوف تأتي به الأيام بما فيها من حوادث وخطوب، لنستمع إلى حدس طه حسين مرة أخرى:

ثم يصيح طه حسين محذرا من هذه الساعة الآتية لا محالة:

((هذه الساعة آتية عليك وعلى قلبك فذاهبة بك وبقلبك إلى حيث يذهب الناس ثم لا يرجعون.. صدقني إن من الخير الكثير لك ولغيرك أن تصدع قلبك قبل أن تصدعه الأحداث، وأن تفتح قلبك قبل أن تفتحه الخطوب، وأن تشعر من حولك من الناس بأنك تجد بعض ما يجدون، وتعتقد مثل ما يعتقدون، إنك مثلهم قد خلقت من تراب وستعود إلى التراب، وإن الذين يستوون قبل أن يدخلوا الحياة ويستوون بعد أن يخرجوا من الحياة ليسوا في حاجة إلى أن يتمايز بعضهم من بعض، ويبغي بعضهم على بعض، في هذه الطريق القصيرة التي يسلكونها بين المهود واللحود)).

ويعجب المرء من هذا التلغيز الواضح لدى طه حسين، وهذا الوضوح في الرمز في هذه السنوات التي سبقت ثورة ١٩٥٢، فلم تكن هذه السطور إلا تحذيرا للملك من هذا المصير التعس الذي لاقاه بعد ذلك بسنوات قليلة.

وتنتهي مقالة طه حسين، ويبدأ غضب القصر، إذ سرعان ما تبدأ وفود القصر تصل إلى دار الهلال، غاضبة عاصفة بكل ما من شأنه أن يدافع عن صاحب المقالة، فقد فطن الملك مما أراد أن يقوله طه حسين، وهو وإن بدا في

شكل غامض، فإن غموضه كان كفيلاً بتحريك الأفهام لدى شعب يئن تحت سطوة الملك وأجهزته الفاسدة.

ولدينا أكثر من رواية لرد الفعل لدى أصحاب الهلال في هذا الوقت (على سبيل المثال عاد طه حسين إلى الحادثة لأكثر من مرة مع د. محمد الدسوقي في كتابه عنه، ومع الأستاذ سامح كريم في حواره معه لمجلة الإذاعة الذي نشر فيما بعد)...

وتفصيل ذلك كله أن أصحاب الهلال وجدوا أن الأزمة التي نشبت حينئذ بين الملك والمجلة تعود إلى طه حسين،ومن هنا، رأوا أن غضبة القصر لابد أن تواجه بالحكمة، ومن هنا، فقد توجه اثنان من أصحاب دار الهلال في هذا الوقت وهما إميل زيدان وفكري أباظة إلى حيث يقطن طه حسين ليقابلاه، فلما تم اللقاء، قال أصحاب الهلال لطه حسين في وضوح شديد:

- إن السراي فهمت أن الملك هو المقصود في المقال.

فقال طه حسين في مراوغة:

- ليس في المقال تعريض بالملك ولا أعنيه بما كتبت.

وتشير كثير من المصادر الحية إلى أن طه حسين كان

كلما تذكر هذا الحديث، فإنه يصمت قليلاً قبل أن يقول - فجأة- كأنه نسي شيئًا:

- الله يشهد أنني عندما كتبت المقال لم أفكر في أحد إلا في الملك، ولم أقصد أحدا سوى ذاته.

على أية حال، فإن رسالة الملك إلى أصحاب دار الهلال كانت واضحة وصريحة: (يجب ألا يكتب طه حسين أو يستكتب قط في دار الهلال)، ورغم أن صاحبي الدار أبلغاه بهذه الرغبة رغم وجود عقد بين الكاتب والمجلة، فإنه يبدو أن أيا منهما لم يلتزم بذلك، إذ سرعان ما نعثر في العدد التالي مباشرة (مارس ١٩٤٧) على مقالة أخرى عليها توقيع طه حسين وتحمل عنوان (من بعيد) تحوم حول أفكار العميد من بعيد، وإن كانت تقترب من الرمز والإشارة الصريحة كشأنه في هذه الفترة.

ولم تمض سنوات الأربعينيات حتى كانت الخمسينيات تحمل تحقيق نذير طه حسين، إذ سرعان ما قامت ثورة ١٩٥٢، وأجبرت هذا القلب الذي صور من صخر صلب صلد مصمت) على أن يفتح وتذهب به الرياح.

ولم يكن طه حسين إلا واحدا من هؤلاء الذين أسهموا

في صنع هذه الرياح وإفساح المناخ لها حتى تعصف بمثل هذه القلب الفاسد أو هذه القلوب الفاسدة حينئذ، وما أكثرها..

غير أنه، مع ثورة يوليو، لم يكن كما كان قبل الثورة، لقد كان طه حسين ضد طه حسين.

الهوامش

(١) Berque, J. Taha Hussien, Au dela Du nil, Galhimard, 1977.

(٢) هذا مذهبي (بالاشتراك) طه حسين، القاهرة، الهلال، بدون.

(٣) الأيام، طه حسين، دار المعارف، ج٢، ١٩٧٧.

(٤) Teymour, M.Taha Hussien. Revue du caire, 31, 1953, pp. 127- 133.

(٥) - Raoul, M. La Jeunesse intellectuelle d,Egypt au Len demain de la Deuxieme Cuerre Monrial. Paris 1960.

(٦) مصطفى عبد الغني، طه حسين والسياسة، دار المستقبل العربي ١٩٨٧.

كانت في الأصل رسالة ماجستير قدمت إلى جامعة عين شمس، كلية الآداب، بعنوان (طه حسين ودوره في السياسة المصرية).

(٧) الاستقلال ١٠/ ١١/ ١٩٢١.

(٨) رقم ٦.

(٩) مذكرات سعد زغلول (غير منشورة)، وقد استعنا

بالكراسة التي تحمل رقم ٤٧ في صفحة ٢٧٧.

(١٠) رقم ٦.

(١١) الجهاد ١٨/ ٣/ ١٩٣٢.

(١٢) الجهاد ١٩/ ٣/ ١٩٣٢.

(١٣) دار المحفوظات العمومية بالقلعة، محفظة رقم ١٤٠/ ١١١/ ١٢/ ٤٢ ملف (طه حسين) في جزئين، أيضا رقم (٩).

(١٤) محمد حسين هيكل، مذكرات، دار المعارف، ج٢.

(١٥) الأهرام.

(١٦) مجلة الهلال ١٩٤٧/٢، ص ٤٥.

الفصل الثاني

طه حسين مهادنًا

من التمرد إلى التأييد

وهانحن الآن نرتد إلى النصف الثاني من القرن العشرين، لنرى، إلى أي مدى تحول المثقف (المتمرد) إلى المثقف (المؤيد)..

فما كادت ثورة ٢٣ يوليو تعلن صباح هذا اليوم حتى كان طه حسين يتحول إلى نمط آخر لا ينتمي إلى تكوينه الذاتي وما جبلت عليه طبيعته..

كان طه حسين هو (المتمرد)، ومن هنا كان قمينًا أن يكون الفارس المغوار في مواجهة قوى السلطة الغاشمة، أما الآن، فإنه لم يعد كذلك، لقد تحول إلى شيء آخر، إلى شيء (ضد) القيم الأولى له.

لقد أصبح طه حسين (ضد) طه حسين.

وهو ما سنحاول أن نتتبعه خلال عدة صور أخرى متوالية طيلة الفترة التي تبدأ من يوم الثورة -٢٣ يوليو- وحتى بداية السبعينيات حيث كان طه حسين يتهيأ للرحيل،

فعاش في فترات غيبوبة، وعزلة اختارها لنفسه بعيدا عن العالم.

فقدان الوعي

بعد أن سقطت آخر وزارة وفدية، وكان طه حسين وزيرا للمعارف فيها (في ٢٦ يناير ١٩٥٢) رحل إلى إيطاليا، وفي هذه الفترة، أعلنت ثورة ١٩٥٢، وتقول قرينة طه حسين أنه حين بلغ سمعه نبأ قيام الثورة في مصر، أصابته دهشة شديدة، أسلمته إلى حالة من فقدان الوعي، فسقط مغشيا عليه.

وكانت الفترة التي فقد وعيه فيها إيذانًا بتحويله من عصر إلى عصر.

لقد كانت هذه الفترة -على حد قوله لتوفيق الحكيم حين كتب له من إيطاليا- ((تنشر فيها مصر من تاريخها كتابات وتطوي كتابا)) (١)، إذ كان منتميا لعصر يميل فيه بالولاء لسياسة حزب الوفد، وهو الآن في عصر آخر، لا يعرف فيه أحدا قط، ومن هنا، فإن صعوبة استيعاب هذا الحدث المفاجئ كان كفيلاً للسقوط في دائرة فقدان الوعي.

ولم يكن فقدان الوعي هنا سيكولوجيا فقط، وإنما كان

يعني فقدانًا للوعي بشكل ذاتي وشخصي.

لقد كانت فترة فقدان الوعي، هي الفترة التي تحول فيها من قناعات معينة إلى قناعات أخرى مغايرة، ومن ثم، كان لابد وأن يصحب التغيير المفاجئ اضطراب لازمه طيلة حياته بعد ذلك.

وهذه الفترة التي فقد الوعي فيها كافية ليتحول من تمرده القديم وعلى القديم إلى تأييده للجديد وللجديد.

لقد طوى تاريخه السياسي ومواقفه الرائعة في العصر الذي تنتمي إليه إلى عصر يتوارى فيه ضباط القيادة في رداء من التواضع، ويصمتون كثيرا إلى درجة أن الساسة والمثقفين من العهد القديم لم يعرفوا ماذا يريد هؤلاء الشباب.

من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين

وقد يكون من السابق لأوانه أن نتوقف عند فترة التحولات فنشير إلى أن طه حسين (وقد أصبح الآن شيخًا) تحول إلى موقف التأييد المطلق لرجالات العهد الجديد، ثم نحاول تفسير هذا التحويل من العصر الليبرالي إلى العصر الناصري، غير أننا نستطيع أن نسترشد ببعض المعالم التي تعيننا على فهم طبيعة هذا التحول وضرورته.

وسوف يكون سبيلنا إلى هذا يمر بمرحلتين:

- المرحلة السياسية.
- المرحلة الاجتماعية.

وهبوطًا إلى تكوين طه حسين الفكري، فإن طبيعته في هذا الوقت تشير إلى أنه تحول من أقصى اليسار الذي كان قد وصل إليه في نهاية الأربعينيات إلى أقصى اليمين بعد ثورة يوليو.

وهذا يعني تحولاً من التأييد الشديد إلى التأييد المطلق.

والواقع أن هذا التحول يبدو من اليسار إلى اليمين في الظاهر، لكنه يخفي تحولاً من اليسار إلى اليسار في الباطن، فلا يمكن أن نرى في موقف طه حسين، وبخاصة الفترة الأولى من قيام الثورة، غير تحول من اليسار إلى اليسار، إذ إن ما أعلنته الثورة، والطريقة التي جاءت بها، كانت تشير إلى أنه يمكن أن نعثر في حركتها على تغير راديكالي يكمل المسيرات الثورية التي بلغت أقصاها في السنوات التي سبقتها.

وهذا يتواءم تماما مع توجهات المثقفين والسياسيين حينئذ..

ونستطيع فهم هذا التحول من تأكيدات طه حسين نفسه، فعلى المستوى السياسي، حين سأله البعض عن سبب تحوله من حزب الأحرار إلى حزب الوفد في بداية الثلاثينيات، فقال أنه:

((جرت العادة على أن يتغير الناس كلما تزيد بهم السن، فينتقلون من الشمال إلى اليمين، وينتقلون من الثورة إلى الاعتدال، أما أنا فقد انتقلت من اليمين إلى الشمال، لقد وجدت حزب الأحرار والدستوريين والسعديين قد ائتلفا وكنت أفهم أني أكتب معهما ثم بغى الأحرار على السعديين، هنالك تحولت إلى الوفد)).

هذه هي الفترة التي سجلت تحولات طه حسين من أقصى اليمين الرجعي إلى أقصى اليسار الوفدي، وقد كان الوفد حينئذ يقود حركة اليسار بناء على تبنيه لقضايا الجماهير وسيطرته على أغلبيتها.. ومع ذلك، فإن طه حسين يعود في الخمسينيات ليفعل فعلاً مغايرا، يؤيد حين كان التأييد معيار الولاء الوحيد.

والواقع أن هذا التطور جهة اليمين كان في الاتجاه السياسي فقط، فبعد أن راحت سكرة الحركة في أيامها

الأولى، راح يؤيد رجالات الثورة ولما يتبين وجه الحكام الجدد، وراح يتعصب لهم ويدافع عنهم حتى بعد أن أسفر وجههم، وقد تأكد على مدى الممارسات الطويلة -على أقل في فترة محددة -أن هذا الوجه- وجه الثورة- يحتاج إلى التأني في التأييد، أو على الأقل، الصمت، لئلا تستفحل الأمور ويكون شاهدا عليها أو قائما فيها.

لقد كان اتجاهه إلى اليسار مستمرا، وفي الفترة الأولى، أما اتجاهه إلى اليمين، فقد استمر أكثر بعد أن راحت (السكرة) وتبين في الثورة ما لم يتبين أول قيامها.

وإذا كان هذا هو الموقف السياسي، ففي الموقف الاجتماعي غدا الخطأ أكثر.

فبينما آثر اليمين، أي تأييد الحكم القائم ومهادنته، فإنه على المستوى الاجتماعي والفكري كان أكثر يسارية، وأكثر وعيا، وحين قال عن نفسه في هذا الوقت (لا أحب الديمقراطية المحافظة ولا المعتدلة ولا أقنع بالاشتراكية الفاترة) (٣)، فإن ذلك كان ينطبق، بوجه خاص، على العهد الماضي، أما الحاضر، فقد أصبح يؤثر ديموقراطية الحكام أيا كانت، ويقنع باشتراكية يعلنون عنها مهما تكن طبيعتها.

وهو ما يختلف فيه كثيرا في الموقف الاجتماعي..

لقد كان هنا أكثر ميلاً إلى التمرد، وهو ما ينطبق على مقولته التي يضيف فيها إلى ما يسبق فيقول: (وإنما أياسر إلى أقصى ما أستطيع) (٤).

إنها المياسرة في الجانب الاجتماعي ولما يمض كثير على الثورة.. وعلى هذا النحو، فإن أحداث الثورة الأولى تؤكد هذا الموقف الرجعي في السياسي، التقدمي في الفكر، وبخاصة، الفكر الاجتماعي.

صاحب الفكر الراديكالي

في رصد موقف طه حسين من النظام الجديد سوف نجد ملامح الفكر الاجتماعي، إذ إن تأييد المثقف للسلطة لم يكن ليأتي من فراغ، وإنما الإنصاف يفرض علينا إلى أن نشير إلى أن طه حسين بفكره الراديكالي التقى بالوجه الجديد للثورة، على الأقل في الفترة الأولى، إذ كانت للثورة توجهات راديكالية أول قيامها كما كان لطه حسين توجهات اجتماعية قبل ذلك.

وقد كان هذا من البواعث التي أسرعت بطه حسين إلى تأييد الثورة، على الأقل في الفترة الأولى من قيامها.

وبالعود إلى الفكر الاجتماعي عند طه حسين قبل ثورة يوليو، سنجد أنه كان يتميز بالانحياز إلى الجماهير الشعبية الكادحة، وبخاصة، في عقد الأربعينيات، ويمكن أن نشير في هذا إلى دوريات هذه الفترة وكتبها، وهي كثيرة، (لنذكر: جنة الشوك ١٩٤٥، مرآة الضمير الحديث ١٩٤٨، الوعد الحق ١٩٤٩، الفتنة الكبرى بجزئيها ١٩٤٧، دعاء الكروان ١٩٤٢، أحلام شهرزاد ١٩٤٣، شجرة البؤس ١٩٤٤، ألوان: المقالات التي نشرت بين عامي ٤٥/ ١٩٤٨ قبل أن تنشر في كتاب).

ونستطيع أن نشير بشكل ملحوظ إلى روايتيه (ما وراء النهر) و (المعذبون في الأرض) حيث أغضب بهما طه حسين السراي على درجة نستطيع أن نفسر عندها حنق الملك الشديد من طه حسين، هذا الحنق الذي كان يغذيه - فضلاً عن التوجه الاجتماعي- تقارير البوليس السياسي.

ورصد كتابات طه حسين في الفترة الأولى بعد قيام الثورة يؤكد الاتجاه الاجتماعي، وعلى سبيل المثال، ففي مقالة هامة حول التبرع لمعونة الشتاء للمحتاجين نجده يستعيد -بشكل لا واع- دعوته الاجتماعية القديمة ضد الأصوات

الكثيرة التي علت -خاصة من مثقفي الليبراليين- مطالبة بالإصلاح، وكما حارب (الإحسان) في الأربعينيات ودعوة إقامة (الموائد) للفقراء، فإنه يرفض مثل هذه الدعوات التي يبدو فيها الاستعلاء، ولابد أن يقوم مقام هذه العواطف عواطف الإيمان بالمساواة والعدل بين أبناء الشعب)).

وعلى هذا النحو، يكتب طه حسين في الأهرام (٦/ ١٢/ ١٩٥٢) فيقول:

- كان ينبغي أن يكون المصريون جميعا بمأمن من العاديات لا يحتاج بعضهم إلى صدقة بعض لأنهم جميعا أبناء مصر لهم جميعا أرضها الخصبة وجوها الصحو وشمسها المشرقة وسماؤها الصافية ونهرها الذي يحمل إليها الخير في كل آن من آناء الليل والنهار، ولكن فكر الحياة الاجتماعية قد انتهى عصره إلى هذه الحال المؤلفة المخزية)).

وهذا الموقف الاجتماعي من طه حسين تعمق كثيرا طيلة الخمسينيات والستينيات حتى أن جاك بيرك يرى أن رصد الآيات القرآنية التي يستخدمها طه حسين في كتاباته يشير إلى أنها تتضمن مضمونًا اجتماعيا فهو لا يستخدم الآيات التي تستخدم مضمونًا إلهيا أو غيبيا (١١/ ٣١)،

وحين يرصد الدوائر التي تحوط بمركز التكوين يؤكد أن أول الدوائر التي تحيط بالذات إنما هي دائرة التقاليد الفردية والعادات الاجتماعية بما يقطع بولع طه حسين بالجانب الاجتماعي قبل أن يصل للجانب الإنساني (١٢/ ٣٠).

معنى ذلك، أن طه حسين كان تأييده للثورة أولاً نابعا من طبيعة الفكر الراديكالي الذي سعى إليه، وهذا الموقف اتفق فيه معه عدد كبير من المثقفين، فمن المعروف أنه أيد الثورة فور قيامها: عبد الرزاق السنهوري، ومحمد حسين هيكل، ود. محمد مندور وأحمد أبو الفتح، وسلامة موسى وراشد الراوي، وإحسان عبد القدوس، وسيد قطب، والشيخ حسن الباقوري وغيرهم.

غير أن هذا الموقف تغير لدى الكثيرين أيضا من التأييد المطلق فالتأييد المشروط فالمعارضة بفعل مواقف الثورة حينئذ، وقد كان من أبرزها هذه القوانين (الثورة) التي حاولت القضاء على بنية العهد (القديم) كله فألغت الأحزاب وأسقطت الدستور وفرضت الرقابة على الصحف وألقت بعشرات من المثقفين في السجون، إذ إن اتجاه الثورة في هذه الفترة كانت تستوجب (الإجراءات الثورية) وليست

(القانونية).

بين الوفد وثورة يوليو

قامت ثورة يوليو فبادر السياسيون والمثقفون بتأييدها دون تحفظات، عدا مثقفي (الحزب الشيوعي المصري) و (طليعة العمال) الذين كانوا يمرون بفترة عدم وضوح رؤية في علاقتهم بالحركة الجديدة، فإن مثقفي (حدتو) ساروا في ركاب هؤلاء الذين كانوا قد أيدوا الثورة فور قيامها تأييدا مطلقًا، سواء هؤلاء الذين ذهبوا إلى ثكنات مصطفى كامل على حد قول إبراهيم عبد الهادي (٥)، أو الذين هبطوا إلى الشوارع لحراسة المؤسسات الهامة لحماية الثورة (٦).

وتؤكد مصادر هذه الفترة على أن طه حسين (الليبرالي ذا الميول الوفدية) انحاز لضباط (الحركة) الجدد في وقت لم يبد فيه أي عداء ظاهري للوفد.

وفي الفترة التي اضطربت فيه العلاقة بين الثورة والوفد كان طه حسين -بشهادة الكثيرين- كثير الالتقاء بزعماء الثورة وبخاصة جمال عبد الناصر، كما كان ينقل إليهم (أي لرجال الوفد) حديثًا ظل يردده طويلاً دون أن يغير مضمونه قط، وهو ((أن رجال الثورة الجدد يقدرون جهاد

الوفد وجهاد النحاس (باشا)، ولكن يجب أن نلاحظ أنهم شبان ويجب أن نتمشى قليلاً مع أهدافهم ونجري حركة التطهير في الذين عليهم مآخذ أو مسائل تمس نزاهتهم (٧/ ١١٠).

إذن، كان يحث الغاضبين على الهدوء والتريث، كما كان يسعى بينهم لإقناعهم لتطبيق خطط الثورة ومنها (التطهير)، وهي خطة، كان الهدف منها الإيقاع بين الأحزاب ومنهم الوفديون في هذا الوقت، وبخاصة، وأن العلاقة بين الضباط والوفديين كانت غاية في السوء.

ولم يعرف لطه حسين موقف إيجابي مع قيادة الوفد التي كان ينتمي إليها بعلاقة سياسية، دعك من علاقة الصداقة التي كانت تؤكد معرفة طه حسين بقادة الوفد وعلى رأسهم مصطفى النحاس الذي كان قد أصر، قبل ذلك بسنتين، على أن يكون طه حسين ضمن وزارته (آخر وزارة وفدية)، بل إن النحاس كان قد خير الملك بين الوزارة وطه حسين.

على أية حال، فإن هذا الدور الجديد الذي آثره طه حسين في إبان الخلاف بين الوفد والثورة، هيأ له أن يلتقي بالنحاس ويحاول ثنيه عن رد الفعل العنيف مع الضباط، بل الثابت أنه سعى إلى النحاس واستطاع في فترة من الفترات

أن يكتب بيان التنحي عن رئاسة حزب الأغلبية وانتزاع توقيع النحاس على هذا التنحي.

وكان على طه حسين أن يمضي أكثر في طريق الحركة الجديدة.

الثورة واحتواء المثقفين

بعد فترة وجيزة لم يسلك النظام الجديد أي رد فعل مغاير تجاه المثقفين، بل راح يتعامل معهم بحذر، ويحاول احتواءهم بوضعهم في مناصب (إدارية) ولجان (فنية) بعيدا عن مراكز صنع القرار السياسي.

وهذه هي الفترة التي سعت فيها الثورة للاستفادة من أولئك المثقفين من أمثال طه حسين، فوجد طه حسين نفسه في أكثر من لجنة.

وقد بلغ الحذر بالثورة إلى درجة أنها لم تتخذ موقفًا إيجابيا مع المثقفين من النظام القديم، وعلى سبيل المثال، فهي لم تنجز لطه حسين حين دخل معركة حول التعليم مع إسماعيل القباني، إذ بدأ ميلها إلى وزيرها واضحا، فراحت الصحف تتهكم على فلسفة طه حسين في التعليم، ولا بأس من ترك طه حسين في هذه الفترة يتحدث عن هذه الفلسفة

بينما لم يتخذ أي مسئول أي رد فعل إيجابي، وكثيرا ما قرأنا مقالات طه حسين الضافية عن التعليم دون أن نرى مسئولاً يحرك ساكنًا لها، بل اكتفت الثورة بالصمت إزاء الدعوات التي كانت تأتي من الرموز التي تنتمي إلى العهد (البائد)، حتى ولو كانت هذه الرموز تؤيدها.

على أن النظام الجديد لم يلبث أن اتبع سياسة أكثر مرونة مع هؤلاء المثقفين، وإن ظلت تتوخى (الاحتواء) ومحاولة الإفادة من هذه العناصر دون التورط معها في إجراء يحد من السلطة أو يضيف أعباء لا تتمشى مع توجهات الثورة.

وتزخر صحف هذه الفترة بأخبار طه حسين برموز الحركة الجديدة ورئيسها محمد نجيب، كما أن الفترة التي أعقبت أزمة مارس تكثر فيها لقاءات طه حسين (في الصحف) تتعاقب مع جمال عبد الناصر.

ولجمال عبد الناصر مكانة أثيرة لدى طه حسين، فهو كثيرا ما يؤكد لخاصته ولنفسه أن ثمة علاقة طيبة كانت قد نشأت بينه وبين قائد الثورة جمال عبد الناصر، وقد بلغت هذه العلاقة إلى درجة أنه كان يناديه قائلاً (يا جمال) بدون

ألقاب قط، وقد أسهم عبد الناصر -بذكاء شديد من جانبه- إلى تشجيع هذه العلاقة ومحاولة الإفادة منها، وعلى سبيل المثال، فإن طه حسين يذكر في لحظات التأثر في تأبين عبد الناصر عام ١٩٧٣ أن عبد الناصر أهدى له قلادة في عام ١٩٦٤ بل ويضيف:

((ولم يكن إهداء هذه القلادة للأفراد والمواطنين مألوفًا من قبل إلا لمن نهضوا بمنصب رئيس الوزراء)).

وتتعدد المرات التي يؤكد فيها طه حسين العلاقة الخاصة بينه وبين عبد الناصر، وهي علاقة كان عبد الناصر يستثمرها جيدا، ويعرف كيف يستفيد منها، ففي إحدى المرات، وقد قرر منع تحويل بدل السفر إلى الخارج، اللهم إلا في مكان محدد جدا وبشروط، وكان طه حسين ضمن الذين انطبق عليهم قرار المنع في وقت قد تعود فيه -مع قرينته- السفر كل عام إلى إيطاليا، ومن هنا، لم يجد طه حسين أمامه غير عبد الناصر يخرجه من هذه الورطة، ويذكر طه حسين نفسه أن عبد الناصر ما كان يعرف حتى تصرف على الفور بما يسمح له بتحقيق حلمه السنوي للسفر إلى الخارج، بل ((واعتذر عما حدث وقال أن كل شيء

جاهز ومرتب للسفر كما يريد العميد)) (٤٩/٨).

وقد بلغت العلاقة بين طه حسين وعبد الناصر إلى درجة بعيدة (لاحظ أن طه حسين كان صديقًا ومقربا من مصطفى النحاس) .. وقد يكون من المفيد هنا أن نسمع شهادة العميد في هذا الصدد، يقول:

- وأشهد أني عرفت الرئيس عبد الناصر أوائل الثورة واتصلت بيني وبينه مودة كانت في غاية الإخاء وفي غاية المتانة، وله علي فضل لا أنساه .. (و) .. فكان صديقًا صادقًا، وأخًا حميما، وكان برا عطوفًا. (٩/ ٤٧).

ولا شك أن علاقة العميد والزعيم في فترتها الأولى لم تكن لتشوبها شائبة، فعبد الناصر -بالفعل- كان يميل بذكاء شديد للمثقفين، وكثيرا ما طلب أن يعلن عن كل لقاء مع أحدهم في الصحف، ويذكر كامل الشناوي أن عبد الناصر طلب في أول قيام الثورة أن يرى طه حسين (٣٨/١٠)، وذهب إليه طه حسين -بالفعل- غير أن هذا اللقاء -الذي تكرر كثيرا فيما بعد- كان من أول البواعث التي دفعت بطه حسين إلى السير أكثر في تأييد الثورة، وفي مسايرتها، ولم يكن الأمر أمر صداقة تقوم وتستمر مع المثقفين وقائد

الثورة، وإنما هي -من جانب الزعيم- سياسة الاحتواء، وهي من جانب العميد- سياسة إعلان الولاء.

ولم يكن جمال عبد الناصر ليريد غير الولاء.

فلنر صورة أخرى من صور هذه العلاقة بين جمال عبد الناصر وطه حسين.

قانون تطوير الأزهر

نستطيع أن نذكر (في معرض سياسة الاحتواء)، كيف أن الثورة راحت تستميل المثقفين إليها أول قيامها، وبعد أن حدث الصدام بينها وبينهم عقب أزمة ١٩٥٤، وعقب انتصار جمال عبد الناصر في هذه الأزمة راحت الثورة تمثل بأعدائها من السياسيين والمثقفين سواء بسواء..

كان أهم مظاهر هذا الانتقام إصدار قانون للعزل السياسي صدر في ١٥ إبريل ١٩٥٤، ونص على تطبيق سياسة العزل لمدة عشر سنوات على كل من سبق أن تولى الوزارة في الفترة إلى ٦ فبراير ١٩٥٢ وكان منتميا إلى أحزاب في مقدمتها حزب الوفد.

ورغم أن هذا القانون تم تطبيقه بحرمان ٣٨ وزيرا من الحقوق السياسية من بينهم ٢٢ وزيرا وفديا.. فإن اسم

طه حسين لم يكن ضمن المطبق عليهم هذا القانون، مع أنه كان وزيرا في وزارة الوفد الأخيرة.

وتؤكد مراجعة الدوريات من هذا التاريخ حتى رحيله، أن الثورة سمحت لطه حسين بالتعبير عن رأيه الفكري أو الاجتماعي (وكثيرا كانت تقر ذلك ما دام بعيدا عن الرأي السياسي)، بل إن الدولة -ممثلة في شخص الرئيس جمال عبد الناصر- استفادت من كثير من أفكاره التي يعبر بها عن توجه الدولة، وعلى سبيل المثال، فقد كان لطه حسين دور معروف وراء قانون تطوير الأزهر، فحين ألغت الدولة القضاء الشرعي كتب بالجمهورية مقالة طالب فيها أن تكون (الخطوة التالية) القضاء على ثنائية التعليم، وما كان يلتقي بعبد الناصر ويعودان للتحاور في هذا الأمر حتى أصدر عبد الناصر، بعد ذلك مباشرة، قانون تطوير الأزهر.

ونستطيع أن نشير إلى كثير من المواقف التي منحت فيها الدولة طه حسين تشريفًا معنويا كأن تمنحه وساما -على سبيل المثال- دون أن تمنحه الدولة منصبا سياسيا، أو منصبا ثقافيا من شأنه أن يكون له تأثير سياسي (١٤/ ١٣١) يذكر.

وبدهي، أن احتواء طه حسين وصل إلى أقصاه إلى

درجة أنه كان يعلن عن تأييده للنظام تأييدا مطلقًا في كل أحاديثه، ويحث المثقفين أن يحتذوا أثره في هذا الصدد.

التأييد التام للثورة

وإذا اتخذ موقف طه حسين موقفًا محددا من الثورة، فقد توزع في عدة استجابات يمكن تلخيصها على النحو الآتي:

- تأييد ممارسات الثورة وإجراءاتها.
- محاربة معاركها الداخلية والخارجية.
- مهادنة النظام وعدم مراجعته قط.

وعلى سبيل المثال، التزم طه حسين (حالة) الرضا التام عن إجراءات الثورة الانتقامية من خصومها، والاعتداء على القيم (الديمقراطية) في مظاهرها العامة في الفترة الأولى التي شارك فيها خاصة.

فلنعد مرة أخرى إلى البدايات..

قبل أن يمضي شهر واحد على قيام الثورة حتى كان طه حسين يكتب لبعض أصدقائه في مصر رسالة يعلم أنها سوف تنشر، عبر فيها عن موقفه الأول من الثورة، والرسالة التي يريد إبلاغها لأصحابها، جاء فيها:

(إن مصر قد وجدت نفسها ولم يخطئها التوفيق ولم تحد عن قصد السبيل).

وعمد في هذه الرسالة أن يتحدث عن مساوئ العهد الماضي فقال في نبرة لا تخلو من رياء (بارك الله للجيش فيما فعل، وبارك الله فيما يفعل وبارك لمصر في الجيش) (١).

إلى غير ذلك من الألفاظ التي يلحظ معها إيثار طه حسين لجانب الحكم الجديد ولما يظهر منه ما يطمئن.

ويصل الخطاب، وينشر بالفعل، ويقرأ الناس صبيحة ٢ أغسطس ١٩٥٢ في صحيفة الأهرام، وفي مكان لا تخطئه عين، تأييد طه حسين وتعميده لهذه الثورة بما جاءت به وبما سوف تجيء.

ولا يكاد يصل إلى مصر حتى يواصل سيل الكتابات المؤيدة بدون تحفظ، المؤكدة بدون مواراة، فالموقف الذي التزم به لم يعد مندوحة من الإعلان عنه والغلو فيه.

إن طه حسين في هذه الفترة يرتدي أكثر من قناع، إنه يرتدي قناع العراف في أحد المرات حين يسأل فيها عن الثورة وأثرها في الحياة العقلية، فيقول:

- سيكون للثورة أثرها في تطور الحياة العقلية، ليس في ذلك شك.. ولكن بعد أن يمضي وقت كاف تصل فيه الثورة إلى غاياتها، ويشعر فيه الشعب بحقائق هذه الأشياء، وتتأثر بها حياته تأثرا صادقًا.

ولا يلبث أن يضيف بلهجته الواثقة المؤيدة للعهد الجديد، بما يذكرنا بنفس اللهجة الواثقة المؤكدة للعهد القديم لا سيما في الأربعينيات أثناء الثناء على مليكه، فالثورة القائمة في مصر الآن هي:

- صورة صادقة لنفس الشعب المصري، فكل مصري يعلم أن هذا الشعب لم يكن راضيا عن حاله ولا مطمئنًا عليها (١٥/ ٢٢).

ومصر الآن عنده، ولما يمض على مجيئه إليها زمن قصير، هي (مصر الرائعة)، عاقدا المقارنة بين مصرين، مصر السابقة، ومصر الرائعة، يقول:

- مصر حين تركتها في أوائل يونيو الماضي وبين مصر التي وصلت إلي أبنائها أواخر يوليو الماضي، إن ذلك الخطر لم يعد مقصورا على الشعب، وإنما أخذت السلطات تشاركه فيه مقدما بهذه المشاركة (١٦/ ٢٠).

وهذه هي الفترة التي كانت الرقابة فيها مفروضة على الصحف، والعديد من المثقفين، من شتى التيارات، يدخلون السجون، ومع ذلك، فإن طه حسين حين يسأل حول حرية النقد يرد بسرعة على من يسأله (أنها موجودة) ولا يرى في مصر غير أنها (قائد الديمقراطية)، ويذهب إلى درجة أنه يحرض الثورة على المثقفين ويبيح لها التنكيل بهم، وحين يضيق عليه سائله الخناق، فهل من الحق توجيه النقد للثورة، يقول:

(من حقها ومن الواجب عليها -أي الدولة- أن تحمي نفسها من جموح بعض الأقلام حتى تطمئن إلى بلوغ غايتها ما دامت مستعدة لقبول النقد) (١٦).

وطه حسين في هذا كله لا يغفل الحذر ولا يتدخل في القضايا التي احتدم حولها هذا الصراع بين معسكر الثورة والمثقفين، فهو في الوقت الذي يحتدم فيه هذا الصراع يؤثر الأدب والكتابة، اللهم إلا إذا اضطر مرغما للكتابة في السياسة (١٧)، وحين يرسل من باريس ليعبر عما يجول بخاطره عما حدث لمصر بعد الثورة يرسم صورتين يناقض بعضهما البعض الآخر، ويشير كلاهما إلى الحذر في الكتابة

والتأني في التصوير..

إن طه حسين مرة يقرر أن مصر ((قد وجدت نفسها ولم يخطئها التوفيق ولم تحد عن قصد السبيل وإنما ملكت أمرها وضبطت نفسها ومضت في طريقها إلى الإصلاح))، ولا يلبث أن يذكر العهد (البائد) فيجيء بصورة أخرى مناقضة لسابقتها، يقول عنه ((كنا ننكر بقلوبنا وكنا ننكر بألسنتنا حين يلقى بعضنا بعضا ثم لا نستطيع أن نتجاوز ذلك على الجهر بالدعوة إلى الحق))، ويصل من هذا كله الدعوة للجيش (بارك الله للجيش) (١٨).

الأكثر من ذلك كله أن طه حسين حرص على أن يكون ملكيا أكثر من الملك، ففي وقت لم تكن الثورة ولا أصحاب الثورة يطلقون فيه على ما قاموا به غير (الحركة المباركة) أو الانقلاب أو (النهضة)، فإن طه حسين ينشر مقالاً بعنوان (روح الثورة) يدعو فيه بشكل صريح وجهور إلى تغيير الاسم، فليست هي حركة ولا نهضة وإنما هي (ثورة) وهو ما يجب أن يطلق على الحركة (الثورة) (١٩).

ويشارك طه حسين في الأحداث التي تمر بها البلاد بطبيعته التي تؤثر التأييد أو الصمت الذي يعني الرضا، فهو

يدعو إلى الجمهورية حين يبدو من رجال الثورة أنهم يريدون الجمهورية، ويدعو إلى المناقشة حين يرى أن أصحابها يدعون في الندوات إلى مناقشة هذا الأمر (أنا أميل شخصيا إلى الجمهورية الأوروبية التي لا يحكم فيها الرئيس، وإنما هو رمز للدولة ليس غير) (٢٠)، وحين تعلو نبرة الغضب على حل الأحزاب ويتم القبض على العديد من المثقفين والسياسيين يسمع صوت طه حسين مؤكدا على أن الثورة تسعى إلى (تحرير العقل) (٢١)، وحين يطلب منه المحاضرة في الجامعة الأمريكية يختار عنوانًا معينًا هو (حياتنا الأدبية والفنية على ضوء العهد الجديد واتجاهاته) مشيدا فيه بمحمد نجيب الذي كان القائد حينئذ، وبالثورة التي (منحت المصريين أبوابا واسعة الأمان) (٢٢)، وبهذا العهد الجديد الذي تؤلف فيه القلوب وتطمأن الأفهام.

وحين يسافر في سفريته السنوية إلى باريس، يرسل من هناك إلى جريدة الثورة ((الجمهورية)) وقد أصبح لامعا فيها، وتحت عنوان (من بعيد.. ثورتنا)، مشيدا بالثورة التي رغم أنها -على حد قوله- ما تزال في طور الطفولة، فإنها (أخذت تحدث في حياتنا المصرية آثارا خطيرة)، ولا يلبث

بعد قليل أن يبذل النصح للمثقفين ليخلصوا النصح للثورة (٢٣).

ولا ينسى طه حسين في كل مرة يرسل فيها من باريس مشيدا (بثورتنا) أن يرسل كذلك أمارات الشكر لـ (حكومة الرئيس جمال عبد الناصر) (٢٤)، في وقت كانت مصر فيه تعيش في أجواء انتقامية ضد مثقفيها المعترضين، والذين كانوا قد دخلوا معركة غير متكافئة تحت راية (الديمقراطية) ضد الجيش الذي كان يرفع راية (الثورة)!!

وبشكل عام، فإن أزمة مارس ١٩٥٤ افتقدت صوت طه حسين، فلم يعرف له أي رأي فيها، ففي حين كانت الفترة التالية تشهد عديدا من حركات التنكيل بالمثقفين من شتى الفئات كان طه حسين يتحدث عن حرية النقد وحرية الحركة حديثًا مستريح البال، فحين سأله مندوب مجلة (روزاليوسف) هذا السؤال:

- ينادي البعض بضرورة إطلاق الحريات العامة كافة أثناء فترة الانتقال لتدعيم الأسس الديمقراطية، فما رأيك؟

فيجيب:

- لست أعلم أن حرية النقد محدودة إذا قصد بالنقد إلى

الإصلاح والتوجيه، وما أكثر ما ننقد الوزراء وقادة الثورة فما نمنع من هذا النقد. وما ينبغي أن ننسى أننا نعيش الآن في ظل ثورة من حقها ومن الواجب عليها أن تحمي نفسها (١٦).

وعلى هذا النحو، يقول طه حسين رأيه في الدستور حين يعرض للرأي العام، فلا يرى فيه غير عمل إنساني، فالأعمال الإنسانية ليست مبرأة من الخطأ (٢٥)، ويدعو في صراحة إلى إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية، ويزدرد أفكارا كثيرة عن التأييد المطلق الذي يتحول إلى (مسايرة) كاملة للنظام حتى أنه يعود إلى الكتابة بشكل منتظم في ذكرى الثورة كل عام تحت عنوان (يوم الثورة).

ولنضرب مثلاً واحدا لهذا الانتظام الذي حرص عليه.

ففي العام العاشر للثورة (يوليو ١٩٦٢) يشيد بالتربية السياسية التي حرصت عليها الثورة، يقول:

ليس من الغلو ولا من الإسراف أن أقول أن مصر مدينة بهذه التربية السياسية للثورة ولرئيس الجمهورية خاصة.

وطيلة سنوات الثورة، فإن طه حسين يردد بالعقل

اللاواعي، عديدا من العبارات التي كان يرددها أمام الملك، فيرى أن الملك (مربي الشعب)، ومن هذا ما يكتبه وهو كثير، فهو يستعيد العبارة القديمة حين يكتب عن جمال عبد الناصر فتأتي نفس العبارة وبالحرف الواحد حين يصيح مخاطبا عبد الناصر قائلاً له: (أنت مربي الشعب حقًا) (٢٦).

الأدب.. لا الثورة

يلاحظ أن طه حسين رغم كتاباته السياسية الكثيرة حول تأييد الثورة، فإنه لم يحاول أن يضم كل هذه المقالات، أو بعضها، في كتاب واحد، في وقت راح يجمع فيه العديد من مقالاته الأدبية بوجه خاص منذ أواخر عام ١٩٥٣ لا سيما تلك التي نشرها بجريدة الجمهورية ليضمها في كتاب بل في كتب صدرت عنه تباعا، مثل كتاب (خصام ونقد) عام ١٩٥٥، وكتاب (في أدبنا المعاصر) عام ١٩٥٨، بدأ يجتر أمجاده القديمة، فتصدر له الكتب على التوالي من جماع المقالات الأدبية القديمة، كذلك، من أمثال: (من لغو الصيف إلى جد الشتاء) وكتاب (خواطر) وكتاب (كلمات) وكتاب (تقليد وتجديد) ثم أعاد نشر كتابه (الأيام) الجزء الثالث لأول مرة عام ١٩٦٧ باسم ((مذكرات طه حسين))، وكانت قد

نشرت تباعا من قبل.

وقد يكون من المفيد الإشارة إلى أن هذا الكتاب -الأيام- بجزئه الثالث، كان قد نشر في مجلة (آخر ساعة) في الفترة بين (٣٠/ ٥- ٢٩/ ٦/ ١٩٥٥) وبانتظام أسبوعيا.. هذا الكتاب، رغم ما يحتويه من التشريحة الزمنية المعاصرة، ففيه بعض الأحداث، عن الثورة، وكتب في زمن الثورة، رغم ذلك، فإننا نفتقد فيه أية إشارة -ولو عابرة- للجو السياسي بعد ثورة يوليو، على العكس مما نجده في جزئيه الأولين من الأيام أيضا، حيث نستطيع أن نرصد من هذين الجزئين -لو أحسنا التاريخ والفهم العلمي- حركة التاريخ وملابسات الحركة الوطنية وتحولات المثقفين وما إلى ذلك في الفترة التي تقع بين الثورتين (ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢).

ضد الإخوان المسلمين

بيد أن ثمة كتابين يخرجان في الظاهر من الخط الأدبي إلى الخط السياسي، غير أن حظهما من التصريح (أو التلميح) يفتقد تماما في هذا الوقت.

الكتاب الأول هو (هؤلاء هم الإخوان)، ويتضمن مقالة

سياسية لطه حسين كتبها ضد الإخوان إبان محنتهم.

والكتاب لم يكن من نشر طه حسين، وإنما كانت الدولة تقوم إبان أزمتها مع الإخوان بعد عام ١٩٥٤ بجمع عدة مقالات ثم ضمها في كتاب واحد ضمن حملتها العنيفة على الإخوان المسلمين، وكان اسم طه حسين هو أول الأسماء في هذا الكتاب، وكان لطه حسين مقالتان عن الإخوان وهذا لم يكن مصادفة.

الكتاب الآخر، هو بعنوان (العدوان الثلاثي على مصر) ولم يكن في قصة نشره وإخراجه للناس ليزيد عن الكتاب الأول إبان العدوان الثلاثي على مصر.

ويجب الإسراع هنا بالقول أن هذين الكتابين يدخلان - مهما يكن طريقة إخراجهما- من باب الدافع الذاتي ويدخلان إلى باب التأييد وأسلوب المهادنة، فكتابة ما بهما -من الأصل- كان بقصد الوقوف إلى معسكر النظام، حتى ولو اتفقت الغاية عند كل منهما.

فبدهي أن الكتاب الأول بوجه خاص عن الإخوان كان بقصد محاربة معارك النظام وليس تأييده فقط.. بدليل أن الترتيب العشوائي الذي نجده على غلاف كتاب الإخوان -

على سبيل المثال- يرينا أن اسم طه حسين أول هذه الأسماء ويطرز جنبا إلى جنب مع أسماء أخرى لا يخلو ذكرها من معنى: محمد التابعي، علي أمين، كامل الشناوي، ناصر الدين النشاشيبي، جلال الحمامصي وغيرهم، بما يشير أن طه حسين وقد أصبح الآن مسايرا للنظام، فإنه قد وضع (بدون تدبير) في خانة المثقف (المهادن) ...

كان تصنيف طه حسين ضمن هذه الأسماء يأتي تصنيفًا عفويا، أو هو من قريب التصنيف الطبيعي الذي نتج عن انتخاب الواقع السياسي لا صحافة من بين المثقفين والمؤثرين في الرأي العام.

وهو ما يقترب بنا، أكثر، من موقف طه حسين من الإخوان.

فتى السوربون الليبرالي

إن موقف طه حسين من الإخوان بوجه خاص، ورجال الدين بوجه عام، يعود بجذوره إلى العشرينيات، بعد أن عاد طه حسين من السوربون فتى متحمسا، كأن يؤمن بالفكر الليبرالي، ويقسم أن ثمة فارقًا أكيدا بين الدولة والدين، وقد أغضب منه حينئذ: اثنين: الملك ورجال الدين، لا سيما

حين نشر كتابه (في الشعر الجاهلي).

ومن حاصل المعارك التي عاشها واكتوى بنارها في الثلاثينيات زاد بغض طه حسين لرجال الدين، غير أن هذا البغض الآن -في الخمسينيات- كان يجد له مناخًا صالحا، لا ليهاجم ممثلي الدين وحسب من الإخوان، وإنما -كذلك- ليرضي الحكام الجدد الذين كانوا قد دخلوا صراعا حادا بين إصرارهم على الحكم وإصرار الإخوان على سلب الحكم منهم.

ونكاد نجزم أن السبب الرئيس الآن لتوجه طه حسين إلى الإخوان وشنه عليهم هجوما عنيفًا كان لموالاته للسلطة وإيثاره رضاها أكثر من بغضه لهم وحنقه عليهم.

فعلى أثر حادث المنشية في ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤، وفيها اتهم الإخوان باغتيال عبد الناصر، سعى النظام للقضاء على الإخوان سياسيا وفكريا ومن أساليبه المؤكدة الاستعانة بممثلي الدين والمثقفين في خوض هذه الحركة، أي حاول رجال الثورة محاربة الإخوان بسلاحهم.

وقد وجدت الأقلام ساحة واسعة في (أخبار اليوم) ليهاجموا الإخوان بشكل حاد، وفر لهم النظام المناخ، ومنحهم

سيوفًا حادة في مقابل رجال أشباح، لم يوجدوا إلا داخل السجون.

لقد وفرت الساحة، وأعدت السيوف، واختير الفريق المنتصر سلفًا، لسبب واحد، هو، أنه الفريق الوحيد القوي في ساحة اللعب.

ويمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك، فنرى أصحاب مدرسة (أخبار اليوم) ونستطيع أن نضم إليهم بعض المثقفين الذين كانوا يكتبون أو يستكتبون (سيان) في (الجمهورية)، صحيفة النظام.

إن هؤلاء وأولئك كانت بينهم وبين النظام صفقة غير مكتوبة، وغير معلنة، هدفها العام القضاء على الخصم...

ولم يكن الخصم ظاهرا في المساحة الشاسعة.

لذلك، كان الانتصار باهرا وقاضيا.

ولنعد إلى محاولة اغتيال عبد الناصر، فما كاد يمضي يوم أو يومان، حتى كانت تلقى الخطب العصماء، ويعلن بعض مثقفي التيار الإسلامي المنشق عن الإخوان تأييدهم للنظام ففي جامع (شركس) وقف محمد الغزالي ليهاجم الإخوان، كما وقف بجانبه الشيخ الباقوري -الذي كان يؤثر

الآن جانب السلطان- يهاجم كذلك هؤلاء الخارجين على النظام (الثورة).

في هذا الوقت، تنشر جريدة (الجمهورية) بقلم أحد كبار محرريها -طه حسين- مقالاً بعنوان (فتنة) يهاجم فيه (مؤامرات) الإخوان التي لا تخلو من العنف والشعوذة والغدر، والمقالة طويلة، لا تخلو كلمة منها من التعاطف الشديد مع عبد الناصر ونظامه، والبغض الشديد للإخوان ولمؤامراتهم البشعة، ونستطيع أن نعرف درجة البغض للإخوان والرضا لعبد الناصر في هذه الفقرة التي نقرأها في نهاية المقال، يقول:

- أما بعد، فإني أجدد التهنئة مخلصا لرئيس الوزراء (هو جمال عبد الناصر) ولمصر العزيزة بالنجاة من هذا الشر العظيم (٢٧).

وتتوالى كتابات طه حسين بعد ذلك، فيكتب عدة مقالات لعل من أهمها مقالة بعنوان (رخص الحياة) يقارن فيها بين هؤلاء الذين ترخص الحياة لديهم وأصحاب هذه الثورة التي قامت منذ عامين بواسطة الجيش الذي يملك على حد قوله:

((من وسائل البأس والبطش ما يغري بإزهاق النفوس وسفك الدماء ولكنه يملك نفسه ويملك يده فلا يزهق نفسا ولا يسفك دما ولا يأتي من الشدة إلا من يمكن تداركه)) (٢٨).

ولا يلبث بعد قليل أن يرسم صورة أخرى، مناقضة للإخوان حين يقول:

هذا عن الإخوان، فماذا عن الملك...

انقلاب على الملك بعد أن كان مؤيدا له

إن موقفه من الملك هو موقف المؤيد للثورة، ومن هنا، المنقلب على ملكه الذي كان مؤيدا له من قبل تأييدا مطلقًا.

من المؤكد أن علاقته بالملك قد دفعته، كأكثر معاصريه إلى الهجوم على العهد (البائد) كما كان يطلق عليه حينئذ أشد الهجوم.

ولا بأس من أن نشير إلى أن علاقته بالملك كانت علاقة وثيقة قبل أن نصل إلى رأيه الآن، الذي يعلنه للأبد أن رحل الملك بدون عودة.

لقد كان أكثر المادحين للملك فاروق لا سيما في بداية الخمسينيات حين قدر له أن يصبح وزيرا في آخر وزارة

وفدية، ولا نريد أن نعود إلى كثير من الخطب التي ألقاها أمامه (يوجد تفصيل مسهب في كتابنا: طه والسياسة)، وحسبنا أن نشير إلى أن الملك لفرط فرحه من لهجة التعظيم والثناء التي أطلقها طه حسين في حضرته ما لبث أن صاح في إحدى المرات -كما تؤكد قرينة طه حسين- قائلاً (أشكرك يا باشا) بما يعني أن الملك أنعم على وزيره بلقب (الباشوية)، كذلك، فإن العديد من المصادر الحية تؤكد على أن طه حسين أقدم على (تقبيل) يد الملك رغم أن أكثر من ثلاثة وزراء في وزارة الوفد الأخيرة رفضوا هذا التشريف.

على أية حال، فإن طه حسين قلب الآن ظهر المجن لمليكه القديم وعهده (البائد)، وراح في أكثر مقالاته أو أحاديثه الجديدة يهاجم الملك وعهده وحاشيته، ذلك العهد، الذي سام مصر النفاق للملوك وحواشي الملوك والمتصلين بهم، ولم يلبث أن هاجم الألقاب الكثيرة للملوك منذ عصر محمد علي ذاكرا العديد من هذه الألقاب (٢٠) ليدل بها على هذا العهد.

ورغم أن إسراف طه حسين في النفاق للعهد القديم ومليكه يقابله -من طه حسين- إنكار بعد ذلك، فإنه حاول

الارتداد على ذلك حين أنكر ما فعله قبلاً، مبررا هذا بأنه لم يكن يقول للملك ما قاله أو يقبل يده إلا لتحقيق أحلامه في التعليم.

ورغم أن كثيرين من ممثلي العهد القديم راحوا يذكرون مواقف طه حسين المستهجنة من الملك، فإنه أحدهم -حسن يوسف رئيس الديوان الملكي بالنيابة- راح يعدد لي الكثير من المواقف التي تؤكد على تهافت طه حسين، وإن لم يلبث أن حاول أن يبرر له ذلك، بأنه كان مضطرا إلى ذلك في إطار الظروف التي عاش فيها، ولما كان الملك يملك من المنح والمنع ما يستطيع به أن ينال من أي إنسان (هكذا يقول) فإن طه حسين، لم يزد على أن يكون (إنسانًا).

والإنسان دائما -كما يردد- ضعيف..

والواقع، أننا نستطيع أن نذهب بعيدا مع من يبرر هذا الموقف لطه حسين، غير أن درجة النفاق حين تصل إلى طور التنازل عن كرامة الإنسان أو على قدر كبير منها (فضلاً عن الإنسان المثقف)، فإنها لا تستطيع أن تهب لنا راحة الغفران.

كان يمكن أن يغفر لطه حسين خطبة أمام الملك لو أن

ذلك ظل في إطار مقبول، أو أمر اضطراري، لكن أن تزداد درجة الزلفى إلى أقصاها في وقت يستطيع فيه صاحبها أن يتفاداها، فإن ذلك لا يمكن أن يبرر بأية حال.

وقد تصل هذه العلاقة بين المثقف والحاكم إلى درجة من الزلفى يمكن عندها تحديد السرف أو الاعتدال، غير أن الإغراق في إهانة الذات تحت أية حجة، مهما تكن، لا يصبح مقبولاً قط.

كما لا نستطيع -في هذا السياق- أن نقبل رأي المثقف الذي يقدم الكثير من التنازلات، وبعد أن يمضي عصر التنازلات يعود، ليؤكد، في براءة الأطفال، أنه كان فاقدا الوعي.

ففقدان الوعي في أي عصر لا يمكن أن يشفع له خاصة حين يجيء صاحبه بعد انقضاء هذا العصر ليشير إلى أن (الوعي المفقود) أصبح الآن (وعيا عائدا) .. وأمامنا الأمثلة التي لا تنتهي (أبرزها توفيق الحكيم صانع الأقنعة).

ولنعد إلى طه حسين مرة أخرى، إذ حاول أن ينفي رأي خصومه حين اتهم -في عهد الثورة- وأثناء المحاكمات التي أقامها النظام لخصومه- كمحكمتي الشعب والثورة-

فقال رادا على من اتهمه بكل هذا النفاق قولاً يشبه رد صاحب (عودة الوعي).

ولن نشير إلى الاتهامات التي وجهت إليه في عديد من الصحف في السنوات الأولى من الثورة، أو تلك التي راح عديد من المحامين في محكمة الثورة يرددونها ضد طه حسين، ولكننا -إمعانًا في توخي الحيدة- سوف نورد بعض دفاع طه حسين على تهالكه على الملك وعصره.

يقول طه حسين يبرر أو يحاول أن يبرر تهاونه المهين لملك فاسد:

١- إن الوزراء ما كانوا ليخطبون أمام فاروق ليعيبوه ويذموه، ويدلوا الناس ويدلوه على ما كان يتورط فيه من طغيان.

٢- أنه فعل ما فعل للملك ليكسب بهذا الموقف لمصر وأهلها فائدة كبيرة مما أتاح لهم التعليم ويسر لهم أمره.

٣- إن كلامي عنه لم يتجه إلى فاروق في نفسه قليلاً أو كثيرا وإنما اتجه كلامي إلى هذا الملك الذي صورته لنفسي وللناس تصويرا.

هذه عينة من دفاع طه حسين وردت في صحف

الأخبار والمصري، ورددها في روزاليوسف (٣١) ليبرر به تهاونه وتهادنه مع النظام السابق الذي ما إن سعى لمهاجمته حتى كان قد انقلب عليه أو استخدم كل ما لديه من سهام للنيل منه.

وهذه العينة من الدفاع لا تبرر لمثقف كبير مثل طه حسين هذا الموقف، وبخاصة أنه كان يملك قدرا هائلاً -كما أشرنا سلفًا- من التمرد لا يمكن أن يهبط به صاحبه على أن يصبح متهاونًا ومتهادنًا مع نظام جديد، وقد أسهبنا في هذه القضية في كتابنا سالف الإشارة إليه بما يكفي لنتوقف هنا.

ولنصل الآن إلى صورة أخرى...

طه حسين والقوى الأجنبية

وما يقال عن موقفه من العهد (البائد) أو (العدوان الثلاثي) يمكن أن يقال كذلك عن موقفه من القوى الأجنبية، وبوجه خاص، من الخطر الأمريكي، الذي راح يسعى للسيطرة على مقدرات الشعوب العربية وفي مقدمتها مصر.

ويمكن أن نرى هجومه الدائب والمستمر ضد الإنجليز، فهذا يأتي في السياق الوطني الذي التزم به منذ حقبة طويلة وحتى هجومه العنيف على الإنجليز في السنتين

الأوليين للثورة ٥٢/ ١٩٥٣ وحتى اتفاقية الجلاء أو حرب ١٩٥٦ (٣١)، غير أن موقفه من الخطر الأمريكي كان محيرا تماما، وإن بدا متسقًا مع موقف النظام مع سياسة الولايات المتحدة الأمريكية.

كما لا يبرر إلا في هذا السياق.

ويجب المسارعة بالقول هنا أن هذا الموقف من طه حسين لم يكن متسقًا مع موقف النظام وحسب، فمن الإنصاف لطه حسين أن نقرر أنه كان ينطلق -كذلك- من سماحة فكرية تجعله يدعو دائما للانفتاح على الثقافات العالمية، ومنها الثقافة الأمريكية بالطبع.

إنه لم يستطع أن يربط بين الثقافة الأمريكية وأطماع الأمريكيين، وهي أطماع إمبريالية لم تكن لتخفى حينئذ على من يراقب الساحة الدولية، ومع أن طه حسين كان لديه من (الوعي)، في السابق، للفصل، بين الحضارة الفرنسية والاستعمار الفرنسي، في الأربعينيات، فإن هذا الوعي (الحالي) لم يعد قائما بعد الثورة.

وهنا يقام العامل الأول ويسقط العامل الآخر...

أن تغفل عن خطر عدوك في وقت تحسين النية فيه،

فإن هذا إغفال لطبيعة هذه القوى الصاعدة والتي كانت في طريقها لترفع ذيلها الطويل بعد أن قطع ذيل الإمبراطورية الإنجليزية أمام إصرار الشعوب الحرة.

ورغم صعوبة هذا الاقتناع، فإننا لا نملك أنفسنا من القول بأن طه حسين في سعيه لتأييد الثقافة الأمريكية (دون خطرها) إنما كان يؤيد توجهات ثورة يوليو في هذا الوقت، حيث كان ضابط (القيادة) في سكرة الاهتمام الأمريكي بالثورة، وفكرة قبول تعهدات الأمريكيين بالقضاء على العهد القديم لإفساح طريق جديد أمام العهد الجديد من أجل الإصلاح والاستقلال السياسي.

وهذا الموقف المؤيد لاتجاه الثورة (والمتضمن قبول الخطر الأمريكي) يؤكده عامل آخر، يمكن الإشارة إليه، وهو يتمثل في خوف طه حسين من (الحكومة العسكرية)، فمن العدل أن نذكر هنا الاثنين: الرغبة في تأييد النظام والخوف منه في آن واحد، ومن حاصل العاملين (الرغبة والخوف) نستطيع أن نصل إلى تفسير واضح لتأييد الولايات المتحدة في هذا الوقت.

ومع أن العنصرين (الرغبة والخوف) يمثلان عنصرا

واحدا في حالة التفاعل على الطريقة الكيميائية في تفسير موقف المثقف، فمن الأفضل أن نقف برهة أمام عنصر الخوف قبل أن يذوب في حامض الواقع.

حلف بغداد

لأن طه حسين كان مؤيدا للنظام الجديد، فقد كان لابد أن يحارب في معاركه مرة بعد مرة.

ومن هذه المعارك التي اضطر إليها المعركة حول (حلف بغداد).

لقد قامت، منذ فترة مبكرة، هذه المعركة بين الثورة وأعدائها في الخارج، ففي أوائل عام ١٩٥٥ اشتد النزاع بين جمال عبد الناصر في مصر ونوري السعيد في العراق، وكل النزاع يتمثل أساسا في (حلف بغداد) هذا الحلف التي أرادت القوى الغربية فرضه على مصر وجرها إليه لتدور في فلك الغرب، وقد نجحت في استمالة نوري السعيد إليه أكبر قوة عربية خارج مصر.

كان عبد الناصر معارضا لهذا الحلف بينما نوري السعيد مؤيدا له.

في هذه الفترة طلب صلاح سالم من المسئول عن

إذاعة (صوت العرب) أن تشترك هذه الإذاعة ذات الترددات البعيدة في أنحاء الوطن العربي، وأن يكون ذلك خلال الاستفادة بالمثقفين المرموقين لزيادة كفة الإعلام المصري في هذا الصراع، والتأثير به في هذا المعترك.

وبالفعل، بادر أحمد سعيد -بأمر من صلاح سالم- بإحضار طه حسين (مع غيره) إلى صوت العرب، وبالفعل، جاء طه حسين ليلقي عدة أحاديث (وليس تعليقات) تهاجم نوري السعيد وحلفه في حماس شديد.

ومراجعة أحاديث طه حسين في إذاعة ((صوت العرب))، ترينا أن طه حسين ردد في أحاديثه أفكار جمال عبد الناصر في هذا حول وظيفة هذا الحلف، الذي يمكن أن يجزئ العالم العربي إلى شظايا، وفي الوقت نفسه يعمل على عزل مصر عن العالم العربي وهو ما تريده قوى الاستعمار الغربي..

وقد كان هذا يعني -ما زال التحليل لطه حسين- أن تترك مصر وحدها أمام القوى المعادية لها وفي صفوفها إسرائيل.

ولم يكن طه حسين وحده في هذه المعركة، وإنما كان

معه كذلك، عدد آخر من المثقفين الذين قبلوا (التعاون) (٣٢) مع الثورة مع أمثال عباس العقاد وفكري أباظة ومحمد عوض وأحمد بهاء الدين وغيرهم.

لم يكن التعاون مع الثورة حينئذ عيبا ((انظر ردنا على خالد محمد خالد في عدد الإذاعة والتليفزيون في ٨ يوليو ١٩٨٩))، لكنه كان أمرا واقعا انصاع إليه طه حسين دون أن يلجأ أحمد سعيد إلى الحكومة العسكرية ليعلن رفض هذا المثقف أو ذاك، ولم يكن التعاون مع الثورة تعارضا مع أفكاره حينئذ، فقد كان مؤيدا صريح التأييد للعهد الجديد، متعاونًا ومهادنًا إلى أبعد الحدود.

ونستطيع أن نعثر على عديد من أفكار طه حسين وأحاديثه في صوت العرب بوجه خاص، وهي كلها لا تتردد عن محاربة معارك الثورة أو التعاون معها، وهو ما يمكن العثور أيضا (ويحتاج إلى دراسة مقارنة) في الندوات التي كانت تقام من آن لآخر ويدعو فيها المثقفين ويرصد فيها هذا الرأي أو ذاك.

إن أصول الخوف لدى المثقف المصري يعود ليخترق السنين إلى الوراء، وهو خوف يتوالى، وبدرجات متفاوتة في

أعماق كل مصري يسكن هذا الوادي حيث (المركزية) تطبع كل شيء بطابعها.

ويمكن العود إلى كثير من التفاصيل عند كارل فتفوجل في أطروحته عن النمط الآسيوي في الإنتاج (*).

ولنأخذ مثلين من التاريخ لندلل بهما -عرضا- على عقدة الخوف...

ففي العصر الفرعوني (**) كان النهر هو الحياة، وكان صاحب النهر هو الإله - الإنسان، أي الملك، ومن كان يملك النهر كان يملك -بهذا المنطق- الحياة.

ومن هنا، فإن السيطرة على النهر تستلزم قوة، والقوة تنسج شبكة واسعة من العلاقات التي تشير في نهاية الأمر إلى العلاقة بين الاثنين: الحاكم والمحكوم.

وتتوالى الحقب، ويتبلور الموروث القمعي لدى المحكوم فيما يمارسه الحاكم، الإله ضده، سواء أكان في العصر الفرعوني أو العصور الأجنبية الأخرى التي توالى فيها شرائح التاريخ المصري.

أما في العصر العثماني -هذا هو المثل الآخر- فإن المثقف كان ما يزال يحمل في داخله موروثًا قمعيا حيث

علاقات سياسية واقتصادية وفكرية معينة تحتم على المثقف أن يظل في الحجم الذي وضع فيه، وهو الحجم الذي يعود إلى اعتقاد العثمانيين أن عالمهم أفضل العوالم، إذ عملوا على منح عمليات القهر والإرهاب، التي وجهوها ضد المسحوقين من الأتراك ومن العرب ومن الفئات الأخرى، طابعا شرعيا.

وعلى هذا النحو، تكونت العلاقة بين السلطة وبين المثقفين، لقد كان على هؤلاء أن يندمجوا في النظام القائم، وكذلك أن يدافعوا عنه ويجعلوا من أصواتهم وأقلامهم أدوات تكريس له.

لقد أصبح المثقف من جديد يحمل موروثًا قمعيا يمتد من العصر الفرعوني، ويمر بعديد من العصور حتى وصل إلى العصر الحديث.

وقد استطاع طه حسين أن يتمرد على هذا (الموروث القمعي) إلى حد كبير في النصف الأول من هذا القرن حيث كانت الحكومة (دستورية)، أما حين استبدل (بالإجراءات الدستورية) هذه (الإجراءات الثورية = العسكرية) على يد قادة يوليو، فإذا بالمثقف لا يجد مندوحة من السقوط إلى سفح التأييد فقاعه البعيدة.

وربما كان أبلغ وصف للتعامل مع الحكم العسكري هو الوصف الذي أطلقه طه حسين نفسه في معرض تحذير بعض المتمردين في هذا البعض من الوقوف في مواجهة هذا الحكم العسكري، لقد قال طه حسين هذه العبارة (من أحمق الحمق أن نتحامق على حمقى)، ومن هنا آثر عدم (التحامق) وإنما أن يكون مرنًا، ويتلمس -كما نصح مصطفى النحاس إبان صراعه مع ضابط القيادة- (الملاينة) في التعامل معهم.

على أن هذه المرونة أو تلك الملاينة هما اللتان أسقطتا طه حسين إلى فقدان الوعي، وهذه المساحة بين الوعي وفقدانه تفسر المعركة التي نشبت حينئذ بينه -كأحد المثقفين الرواد- وبين بعض مثقفي الجيل التالي له مباشرة مثل عبد الرحمن الشرقاوي الذي رأى في طه حسين تقاعسا في فهم ما يحدث من الجانب الأمريكي الماكر، متهما إياه بأنه ((يمتدح بعض المشروعات الثقافية في وقت كان يراها غيره غطاء لأهداف سياسية استعمارية)) (٣٤).

وهو في النهاية فقدان للوعي بين عدد كبير من ممثلي هذا الجيل.

والآن، هذا هو المثقف.

فبعد أن كان متمردا معارضا أصبح مؤيدا مهادنًا.

في المرة الأولى كان طه حسين.

وفي المرة الأخرى كان (ضدا) طه حسين.

لقد رضي أن يتحول من المثقف (العضوي) بتعبير جرامشي، التابع لطبقة اجتماعية سابقة على الثورة إلى مثقف من نوع المثقف (التقليدي)، الذي ترك تراث طبقته السابقة ومعتقداتها ليتعاون (هذا هو اللفظ الأثير للنظام الجديد) .. مع ثورة يوليو.

وقد نجح النظام الجديد، دون جهد كبير، في السيطرة على طه حسين وإدماج فكره في (الأيديولوجية) الجديدة له، وذلك من خلال استمالته مرة، وتحقيق أحلامه الاقتصادية مرة أخرى، فأصبحت مصلحته تتوافق مع مصالح الطبقة المسيطرة، وتحول -دون أن يشعر، أو حتى يشعر- إلى مثقف السلطة.

وليس معنى ذلك أن فكر طه حسين كان يختلف عن فكر النظام الجديد، وإنما كان يتفق معه (مثل أغلب المثقفين

حينئذ) لا سيما في الفترة الأولى منه، إذ إن راديكالية طه حسين دفعت به إلى أن يقف في صف الثورة سواء في الجانب السياسي أو الاجتماعي، غير أن طبيعة العلاقة الحادة بين النظام الجديد (والسياسيين) والمثقفين من النظام الجديد خاصة، دفعت بالثورة إلى عدة ممارسات كانت كافية ليختلف فيها الطرفان.

وفي الوقت الذي شهدت السنتان الأوليان مراحل الصراع بين العسكريين والمثقفين، فإن الصراع بالنسبة لطه حسين لم يكن أكثر من سطح نهر لم يؤثر موجاته فيه ولا في المصير الذي انتهى إليه، ففي الوقت الذي اتخذ فيه المثقفون موقفًا حادا مع الثورة، فإن طه حسين لم يكن قط في المعسكر المعادي للعهد الجديد بل أصبح من أقطابه ومن أكثر المدافعين عنه.

وعلى هذا النحو، فإن طه حسين لعب دور (موظفي الدولة) الذين يستطيعون أن يدافعوا عن النظام ويحاربوا معاركه، وعدا فكره الاجتماعي الذي لم يستطع أن يعمقه حينئذ، نجحت الدولة في استيعابه و(كسبه أيديولوجيا).

وبدلاً من أن يوالي طه حسين أفكاره السياسية مع

الدولة أو ضدها، أصبح يردد فكرها بل ينتج أيديولوجيتها.

وفي ضوء هذا، لم يكن من المصادفة أن نجد طه حسين يقف جنبا إلى جنب مع المدرسة الانتهازية التي مثلها أحسن تمثيل ((حينئذ)) الأخوان أمين في (أخبار اليوم)، فلم نعثر على كتابات طه حسين، اللهم إلا، في صحيفة ((أخبار اليوم))، ومجلاتها: آخر ساعة والجيل.. كما لم نعثر على كتاباته إلا في صحيفة (الجمهورية) صحيفة النظام والمعبرة عن سياسته، ولا مانع بعد ذلك من الكتابه -لاسيما بعد أزمة ١٩٥٤- في صحف النظام ومجلاته: أخبار اليوم، الأهرام، الرسالة الجديدة، روزاليوسف، مجلة اللغة العربية، مجلة الإذاعة والتليفزيون، مجلة الثقافة.. إلخ.

وظلت مواقف كثيرة تفتقر إلى رأي طه حسين، اللهم إلا إذا كان فيها محاربا بسيف النظام، ومعبرا عن أفكاره.

إن طه حسين لم يتحدث، قط، عن جوهر أزمة ١٩٥٤التي آثر أن يتحدى المثقفون فيها (تحت راية الديمقراطية) العسكريين تحت راية (الثورة)، وهو، تحد وهمي.

وطه حسين لم يرفع صوته للتعبير عن حملات

التعذيب في المعتقلات، والتي راح ضحيتها الكثير من المناضلين داخل السجون، سواء من التيار اليساري أو التيار الإسلامي.

وطه حسين لم يتحدث، قط، عن تجربة مصر الاشتراكية، والتي كانت في الستينيات قد دخلت مرحلة التنفيذ والتجريب، الصواب والخطأ.

وطه حسين لم يعلن رأيه قط في قضية مثل تحديد الملكية أو تأميم وسائل الإنتاج رغم أفكاره الراديكالية القديمة، بل راح في عديد من القضايا التي تبنتها الدولة يؤيدها أكثر من أصحابها مثل قضية الإصلاح الزراعي.

وطه حسين لم يناقش -كتابيا- قضية اتجاه النظام الجديد إلى سياسة عدم الانحياز، كما عاصرها وعرفها، وهي سياسة تحدد خطى مصر في هذا العالم.

وطه حسين لم يبد رأيه في أزمة مثل (أهل الثقة وأهل الخبرة)، والتي استمرت طيلة الخمسينيات وامتدت آثارها إلى الستينيات، بل وحتى الآن، وما تمخض عنها من إيثار الكليات العملية والتقنية على حساب الكليات الإنسانية والأدبية، والآثار التي يتأثر بها الإنسان المصري إزاء

ممارسة هذه السياسة.

وطه حسين لم يبد رأيه بصراحة في أزمة مثل (هزيمة ١٩٦٧) وبخاصة أنه شاهدها وتأثر بها وأحس - مثلنا- بالمرارة لفقد أجزاء هامة من أوطاننا العربية تحت ربقة العدو الصهيوني.

كل هذا، وغيره لم يشر إليه طه حسين أو-حتى- يقترب منه قط. ومن هنا، فإنه لم يعد يدافع عن القضايا التي وهب حياته لها، ومن هنا أصبح طه حسين (ضد) طه حسين.

[وثائق]

صورة: من التحقيق مع طه حسين بعد إهانة سعد زغلول

فتح المحضر في يوم ٧ يونيه ١٩٢٤، مصر -الساعة ١٠ أفر نكي صباحا حضر طه أفندي حسين لسبب تحديدنا هذا اليوم للتحقيق ونبهنا عليه بالحضور في هذا الميعاد.

وقد حضر معه الأستاذ كامل أفندي حسين ومحمد أفندي عزيز أباظة وسألنا طه أفندي حسين فأجاب:

اسمي طه حسين سني ٣٥ سنة أستاذ بالجامعة المصرية، وساكن بشارع رمسيس بمصر الجديدة.

- علمت النيابة أنك ممن يكتبون في جريدة السياسة ولك في تلك الصحيفة مقالات بإنشائك وإملائك فهل هذا صحيح.

- لا أجيب..

- أنت ملزم بالإجابة لأنه في تلك الصحيفة أو الجريدة مقالات مشتملة على جرائم والنيابة جارية التحقيق فيها فيجب عليك أن تجاوب لأن عدم إجابتك يعتبر من القرائن الكبرى على إجرامك.

- لا أجيب.

- كتبت في جريدة السياسة المقالات الآتية:

(لمن الحكم اليوم لماذا نهدد سعد باشا إذًا، عدلت خطبة العرش، جريدة الانتخاب وحيدة الحكومة، العهد يعد الصحف، هلموا يا أنصار الحرية، القصور أم التقصير، سياسة الحكومة الاقتصادية ووكلاء الوزارات البرلمانيون- وزارة الشهادات لا وزارة الشعب- فترة الفوضى، تبذير الحكومة الحاضرة، خطبة العرش وتدخل الإنجليز فيها، التعيينات القضائية خصم بين رجال العدل، عبث بالحرية يوم عيد الحرية، الوفاء بالعدل، خطاب العرش والسودان، تقدير،

يعبثون بالروح الدستورية بتهديد الوزارة بالاستقالة، فلتحيا الحرية، ثروت أسعد، موت ضعيف)...

فهل أنت المنشئ لتلك المقالات أو الوحدات منها أو لبعضها؟

- لا أجيبك.

- بلغ النيابة أنك تكتب بعض تلك المقالات وفيها جرائم قذف وإهانة وعدم إجابتك يعتبر دليلاً على إجرامك.

- لا أجيبك ولا عندي غير هذا الجواب ولن يكون عندي غير هذا الجواب.

- وكيف لا تجاوب وأنت متهم.

- لا أجيبك.

- ألم يكن لك أي علاقة بجريدة السياسة.

- لا أجيبك.

- هذه طريقة ليس من صالحك التمادي فيها وأنت ملزم قانونًا بالجواب.

- لا أجيبك.

- ما هو السبب الذي يجعلك لا تجيب؟

- لا أجيبك.

- عدم إجابتك تدل على أنك المنشئ لتلك المقالات أو بعضها وكلها فيها جرائم قذف وإهانة للوزارة والحركة.

- لا أجيبك.

- عدم إجابتك دليل على ثبوت التهمة عليك وأنت تختفي وتتوارى من عقاب القانون فهل لم تنشئ ولم تمل شيئًا من تلك المقالات.

- لا أجيبك.

- تمت أقواله.

وقفل المحضر على ذلك في تاريخه حيث كانت الساعة ١١ أفرنكي صباحا.

الكاتب	رئيس النيابة
هذه الصورة طبق الأصل	رئيس القسم الجنائي
محمد صالح	(إمضاء)
(إمضاء)	

وقد جاء هذا الخطاب إلى (حضرة المعالي النائب العام).

نرسل لمعاليكم صورة طبق الأصل من محضر تحقيق النيابة المؤرخ ٧ يونيو ١٩٢٤ ضد الشيخ طه حسين

المدرس بالجامعة المصرية في القضية المتعلقة بإهانة حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا.. وصورة طبق الأصل أيضا من محضر انتقال النيابة لوزارة المعارف العمومية المؤرخ ٢٩ يونيو ١٩٢٤ في أثناء تحقيق القضية المذكورة.

من إطلاع معاليكم على صورة محضر تحقيق ٧ يونيو ١٩٢٤ تجدون أن الشيخ طه حسين لم يجاوب على أي سؤال من الأسئلة التي وجهتها النيابة إليه وأصر على عدم الإجابة حتى لا تصل النيابة إلى الحقيقة.

وقد ظهر من محضر انتقال النيابة إلى وزارة المعارف أن الشيخ طه حسين قدم طلبا إلى مجلس إدارة الجامعة المصرية التي هو موظف فيها للتصريح إليه بأن يشترك في تحرير جريدة السياسة، وقد صدر القرار من مجلس الإدارة بأن المجلس لا يرى الحجر على أي من حضرات المدرسين أن يكتب في الصحف وغيرها بالمسائل السياسية والعلمية كما تريد.

وحيث إن عدم إجابة الشيخ طه حسين النيابة على ما سألته عنه من أنه ممن يكتبون في جريدة السياسة مع ما

ظهر على أنه يكتب بالفعل في تلك الجريدة وأنه يخفي هذه الحقيقة على المحقق.

وحيث إن هذا لا يليق صدوره من موظف لذلك.

نقدم لمعاليكم هذا التقرير مع تلك الأوراق لمخابرة وزارة المعارف للنظر في أمره..

القاهرة في ٧ يوليو ١٩٢٤ الموافق ٤ ذي الحجة سنة ١٣٤٢.

رئيس نيابة مصر

(إمضاء)

عرض على معالي الباشا

ختم النائب العمومي

٢٧٣/ ٨ يوليو ٢٤.

وقد جاء في مذكرة مجلس إدارة الجامعة في ١١ أكتوبر ٢٢.

(لا يرى المجلس الحجر على أي من حضراتهم أن يكتب في الصحف وغيرها في المسائل السياسية والعلمية كما يريد ما دام هو حرا مختارا في انتساب الموضوع والزمن الذي يكتب فيه).

في ٦ يوليو ١٩٢٤

وقد ورد في الملف الخاص بطه حسين رسالة إليه لوكيل الجامعة المصرية حيث يطلب طه حسين الإذن، فجاء قرار وكيل الجامعة:

(إني أرى أن مصلحة الجامعة لا تتفق مع اشتغال أساتذتها رسميا في التحرير السياسي لجرائد الأحزاب ومنها جريدة السياسة، وأرى أن يتفرغ أساتذة الجامعة لما تعلموه من علم وأدب لتكون الجامعة لخدمة العلم).

١١ أكتوبر ١٩٢٢ الإمضاء

كامل إبراهيم

وقد أرسل وزير المعارف العمومية (محمد سعيد) خطابا إلى سكرتير الجامعة المصرية بتفهيم طه حسين بعدم العمل في جريدة السياسة و(أخذ كتاب عنه ومن كل موظف بالجامعة بما يفيد إطلاعه على النصوص المتقدم ذكرها ووجوب اتباعها).

ويضيف...

(هذا وإنا لا نرى مانعا من أن يكتب من يريد منهم في المواضيع العلمية). في ١٣/ ٨/ ٢٤.

في أكتوبر ١٩٢٥ يرسل وزير المعارف العمومية إلى وزير المالية يشير إلى أن يتولى طه حسين منصب أستاذ آداب اللغة العربية وترشيحه لهذه الوظيفة.

وقد تم هذا بالفعل مع معافاته من الكشف الطبي.

صورة: من التحقيقات مع طه حسين بعد إهانة إسماعيل صدقي

تحقيقات ٣٢

محضر:

فتح المحضر بمكتب بوزارة المعارف يوم السبت ١٩ مارس ٣٢ الساعة ١ بعد الظهر.

بمعرفتنا نحن محمد العشماوي سكرتير عام وزارة المعارف..

بناء على تكليف معالي الوزير لنا باستجواب حضرة الدكتور طه حسين عن الحديثين اللذين نشرا له بجريدة (الجهاد) بعدديهما الصادرين في يومي الجمعة ١٨ مارس ١٩٣٢ والسبت ١٩ مارس ١٩٣٢.

والمتضمنين عبارات جارحة ولهيئة صاحب المعالي

وزير المعالي بصدد الإجابة التي ألقاها معاليه بمجلس النواب بخصوص موضوع نقله إلى وزارة المعارف.

وبصدد الاطلاع على صيغة الحديثين المذكورين استدعينا الدكتور طه حسين وأردنا أن نوجه إليه أسئلة تتناول العبارات التي وردت بها الحديث فأجاب بما يأتي:

((كتبت إلى مدير الجامعة وأخبرت حضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء في حديثي معه وأخبرني وزير المعارف حيث لقيته بعد هذا بأني أعتقد أن تصرف الوزير بنقلي من الجامعة خطأ يخالف ما بين الجامعة القديمة والحكومة من التعاقد الذي نص فيه على أني أعين أستاذًا في كلية الآداب وقد طلبت إلى الجامعة أن تتخذ الإجراء لإعادتي إلى منصبي فيها وأن تنفذ هذا، والوزير ليس إلا احترامي لسلطان الحكومة فحسب، وإذن، فلست أرى أن لوزارة المعارف أن تحقق معي في أي شيء وإنما الشرط لكل تحقيق أقبله راضيا هو أن أعود أستاذًا في الجامعة وأن يحقق معي على هذا النحو وبهذه الصفة وأمام الهيئات التي تملك سؤال الأساتذة -والتحقيق معهم.

س: ولكن الوزير بنقلكم من الجامعة قد تصرف في

حدود سلطته وبذلك أصبحتم موظفًا بوزارة المعارف مما يجعل لها الحق في التحقيق معكم على ما تعده خروجا عن واجبات المرؤوس نحو رئيسه.

هذا رأي الوزير لا رأيي وأرجو ألا تكلف نفسك عناء السؤال فلن أجيب على شيء بعد إلا بالشرط الذي قدمته.

(وأمضى هذه الأقوال بتوقيع عليها بختمه).

السكرتير العام   ختم

(توقيع)

وأقفل المحضر على ذلك حين كانت الساعة ١,٢٠.

فتح محضر الساعة التاسعة من صباح الأحد ٢٠ مارس ١٩٣٢ وجهت فيه صيغ من أحاديث طه حسين في الجهاد.

وفي محضر الاثنين ٢١ مارس ١٩٣٢ أرسل إلى طه حسين للحضور لكنه (فاعتذر عن الحضور ولما اتصلت به أصر على أنه لن يجيب طلب الحضور للتحقيق معه لأن موقفه من التحقيق لم يتغير وليس لديه ما يضيفه على ما ذكره في المحضر الأول).

فأرسلنا إليه كتابا رسميا للحضور أمامنا اليوم الساعة

الحادية عشرة صباحا لاستيفاء التحقيق في الحديثين السابقين الإشارة إليهما..

وقد تسلم الكتاب فعلاً وفي الساعة الحادية عشرة والدقيقة الأربعين تلقينا منه الكتاب الآتي صورته:

(أتشرف بأن أعيد لكم ما قلته يوم السبت الماضي من أني أعتقد أن تصرف وزير المعارف حين نقلني من الجامعة إلى الوزارة كان خطأ مخالفًا لنص العقد بين الجامعة المصرية القديمة والحكومة وقد سجلت هذا الرأي كتابة وأنبأت به حضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء ووزير المعارف مشافهة حين لقيته وإذا أنا مستعد لأي تحقيق بل أنا أطلب التحقيق في أشياء كثيرة ولكن بشرط أن يجري هذا التحقيق أمام الهيئات الجامعية التي تملك وحدها أن تحقق مع أستاذ مثلي في كلية الآداب).

وحين فتح المحضر في منتصف الساعة الثانية عشرة من ٢٢ مارس ١٩٣٢ وعرض على معالي الوزير فأثار أن يوجه إلى حضرته السؤالين التاليين:

١- سلوككم هذا يناقض ما صرحتم به لمعالي وزير المعارف عند مقابلتكم لمعاليه عقب حضوركم من ((أنك

ستكون موظفًا أمينًا وتؤدي واجبك بالأمة)).

٢- أنتم تتنصلون من الإجابة بدعوى طلب التحقيق أمام الهيئات الجامعية ولكن التحقيق الذي يجرى معكم الآن لا يتناول المخالفات المنسوبة إليكم عندما كنتم عميدا لكلية الآداب وإنما يتناول ما نشر من أحاديث ومن عبارات وأنت موظف تابع لوزارة المعارف فواجبك يحتم عليك الإجابة عن وجه ويوجه إليك من الأسئلة المتعلقة بموقفكم هذا وإلا يكون سلوككم متناقضا.

فأجاب طه حسين حين وجه إليه هذين السؤالين:

(أتشرف بأن أبلغكم أني لم أصرح لوزير المعارف بشيء مما ورد من الفقرة الأولى من كتابكم هذا، أما الفقرة الثانية فأنا مستعد لمناقشتها أمام الهيئات الجامعية المختصة لأني أعتقد كما أبلغتك غير مرة مشافهة وكتابة أن تصرف الوزير معي كان خطأ).

وقد فتح المحضر في يوم ٢٧ مارس ٣٢ وقد وجه فيه معالي الوزير أسئلة أخرى إلى طه حسين على لسان محققين لإحراجه، وكان رد طه حسين لم يزد، كما تكرر في أكثر من مرة، أنه مستعد للإجابة عن أي أسئلة بشرط أن يتم هذا

أمام الهيئات الجامعية المختصة.

مقالة: قلب مغلق

لا تغضب، فلم أرد إلى إغضابك، ولو قد أردت إليه لما استطعته، ولا قدرت عليه، فأنت رجل متئد رزين، شديد الوقار، عظيم الحلم، لا يشبه حلمك بالبرد مما كان يصنع أبو تمام، لأنه ليس حلما حضريا مترفًا، وإنما يشبه بثبات الصبر واستقرار الجبال كما كان يصنع الفرزدق لا لأنه حلم بدوي ساذج كحلم قيس بن عاصم أو الأحنف بن قيس أو معاوية بن أبي سفيان، بل لأنه حلم يأتي من هذا الحجاب الصفيق الذي ضرب بين قلبك وبين الأحداث والخطوب، فأنت رجل قد ألقيت بينك وبين حياة الناس أستار كثاف، وعشت أنت من دون هذه الأستار مشغولاً بنفسك عن كل شيء، ومنصرفًا على نفسك عن كل إنسان، يستطيع الناس من حولك أن يرضوا ويسخطوا، وأن يثوروا ويهدءوا، وأن يأمنوا ويخافوا، وأن يتجهوا إليك ليشركوك في رضائهم وسخطهم، وليقسموا لك حظًا من هدوئهم وثورتهم، ولينعموا معك بالأمن إن أُتيح لهم الأمن، وليستعينوا بك على الخوف، ولكنهم لن يبلغوا من ذلك شيئًا، لأنهم لن يستطيعوا أن

يتجاوزوا ما ألقي بينك وبينهم من حجب، ولا ما أسدل بينك وبينهم من أستار.

إنما أنت رجل محصن، لا يبلغه العدو ولا يصل إليه الصديق وأكاد أعتقد أن ليس لك عدو ولا صديق، شغلت بنفسك حتى يئس الناس منك، وأعرض الناس عنك، فلم يطمع فيك منهم طامع، ولو قد فعل لما نال منك شيئًا، ولم يعطف عليك منهم عاطف، ولو قد فعل لما نالك منه شيء، والناس مع ذلك لا يرون شيئًا من هذا الحصن المؤشب الذي حصنت فيه نفسك، ولا من هذه الحجب الصفاق التي قامت بينك وبينهم ولا من هذه الأستار الكثاف التي ألقيت عليك من دونهم، وإنما هم يرونك مصبحا وممسيا، ويلقونك غاديا ورائحا، يقولون لك فتسمع منهم وتقول لهم فيسمعون منك، يجاذبونك هذه الأطراف الرثة السخيفة التي يتجاذبها الناس حين يحيون في البيئة الواحدة، ويخضعون للنظام الواحد، ويشاركون في هذا العيش الذي يعيشه المختصون فأنت قريب منهم كأشد ما يكون القرب، تمد إليهم يدك ويمدون إليك أيديهم، ترد عليهم تحيتهم ويردون عليك تحيتك، وأنت بعيد عنهم كأقصى ما يكون البعد، تلقاهم وكأنك تحلم بلقائهم،

ويلقونك وكأنما يلقون ظلالك مستعارا، بينك وبينهم أسباب مصنوعة وصلات متكلفة لا تبلغ النفس ولا تتصل بالقلب، فهي لا تثير في عقلك تفكيرا ولا تثير في قلبك شعورا لمكان الحصن المؤشب الذي لا يرى ولمكان هذه الأستار والحجب الكثاف التي لا تحس، وما أدري، أحاولت قط أن تعرف أم حاولوا هم قط أن يعرفوا طبيعة هذا الحصن المؤشب ومادة هذه الحجب والأستار الكثاف، ولكن أنا قد حاولت، وكتب لمحاولتي النجاح والتوفيق،وأنا أكتب إليك لأعلمك من أمر هذا الحصن ما لم تعلم، وأعرفك من أمر هذه الحجب والأستار ما لم تعرف وما يعنيني أن تنتفع بهذا العلم أو لا تنتفع، وأن تستفيد من هذه المعرفة أو لا تستفيد، فلو قد أردت أن أنفعك أو أفيدك لخصصتك بهذا الكتاب من دون الناس، ولكنك ترى أني لم أرسله إليك، وإنما نشرته في مجلة لتقرأه أنت أو لا تقرأه، وليقرأه غيرك من الناس على كل حال، فمن حق الناس أن يعلموا أن بينك وبينهم حصنًا مؤشبا وحجبا صفاقًا وأستارا كثافًا، وأن ينظروا لأنفسهم أيطمعون فيك وينتظرون منك الخير فيجب عليهم أن يحتالوا في اقتحام هذا الحصن وإزالة هذه الحجب، وتمزيق هذه الأستار، أم

يستيئسون منك فيجب عليهم أن يخلوا بينك وبين هذه العزلة التي اخترتها أو اختارتك وأن يمضوا في طريقهم ويسعوا إلى غايتهم لا يشغلون أنفسهم بك كما أنك لا تشغل نفسك بهم.

فيما ينبغي أن يظل الناس من أمرك في هذه الحيرة المتصلة يرونك واحدا منهم ويقدرون أنك متضامن معهم في حمل أثقال الحياة والنهوض بأعبائها، حتى إذا جد الجد، افتقدوك فلم يجدوك وإذا أنت سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد عنده الحزن واليأس وخيبة الأمل وكذب الرجاء، إنهم ينظرون فيرون غنى موفورا، ونعمة واسعة، وعيشًا لينًا، وثراء عريضا، وإنهم يسمعون فيقع في آذانهم صوت عذب ممتلئ تشيع فيه القوة وتفيض منه الحرارة، ويحمل إلى قلوبهم ألفاظًا حلوة واثقة شائقة، فيها كثير من وعد، وفيها إحياء المطمع الميت، وإيقاظ المطموح النائم، وإشعار بأن الناس قد خلقوا للتعاون والتضامن وليظاهر بعضهم بعضا حين تنوب النوائب، وليشد بعضهم أزر بعض حين تدلهم الخطوب، ولكنهم يستقبلون من أمورهم ما يظلم وما يشرق وينهضون من أعمالهم بما يخف

وما يثقل، ويلتمسونك ليستعينوا بك على تبديد الظلمة، ويبتهجوا معك بجمال النور المشرف ويستمتعوا معك بحمل الأعباء الخفاف في فرح مرح ونشاط، ويجهدوا معك بحمل الأعباء الثقال في صبر وئيد، وحزم وثبات، يلتمسونك فلا يجدونك أو هم يجدونك حين تشر: النعماء، ويفقدونك حين تظلم البأساء أنت شريكهم في العيش الرضي والحياة المقبلة، وأنت أبعد الناس عنهم حين ينعمون لتشارك في تعميمهم على أن ذلك حق لك لا ينبغي لأحد أن يردك عنه أو أن يجادلك فيه، ولعلك تأخذ من هذا النعيم -إن أتيح- بحظ أعظم من حظوظهم ولعلك تنظر إليهم وهم يأخذون بحظوظهم المتواضعة الضئيلة، ساخطًا عليهم ضيقًا بهم، مزدريا لهم، ترى أنهم واغلون يشاركون فيما لا يحق لهم أن يشاركوا فيه، ويأخذون مما لا حق لهم ردا وأن تذودهم عن هذا الصفو إن استطعت لهم زيادا، وأنت على كل حال تنظر إليهم شزرا، وتقيم معهم على مضض، تستأثر من دونهم بالكثير وتحسدهم على ما يتاح لهم من القليل، فإذا أدبرت الدنيا وأظلمت الحياة واكتاب الأمل، وجد الجد، والتمس الناس المعين على ما يلم بهم من شقاء وبأس، أويت إلى

حصنك هذا المؤشب، وألقيت من دونك هذه الحجب الصفاق، وأسدلت بينك وبين الناس من الأستار الكثاف، ونعمت بعزلتك نعمة هادئة مطمئنة، لا ينغصها منظر البؤس ولا يكدرها صوت الشكاة ولا يشوبها تفكير في البائسين، سواء منهم من احتمل البؤس صامتًا صابرا جلدا، ومن احتمل البؤس صائحا صاخبا شاكيا إلى الله وإلى الناس.

ما طبيعة هذا الحصن المؤشب، وما مادة هذه الحجب والأستار وكيف السبيل إلى أن يخرجك الناس من عزلتك هذه الراضية، لتسعد معهم إذا سعدوا، وتشقى معهم إذا شقوا، وتشاركهم في استقبال الحياة حين تشرق وحين تظلم؟

هذه هي المسألة التي حاولت أن أجد لها حلاً، وأتيح لمحاولتي هذه شيء من التوفيق، إن حصنك هذا المؤشب يا سيدي، ليس إلا قلبك المقفل الذي لا ينفذ إليه شعور بالتضامن أو حاجة إلى التعاون والذي لا تصل إليه رحمة حين يحتاج الناس إلى الرحمة، ولا رفق حين يحتاج الناس إلى الرفق، ولا رثاء حين يحتاج الناس إلى رثاء، إنه قلب قد صور من صخر مجوف تستطيع أن تودعه كل ما شئت من أمل لا حد له وطمع لا ينتهي إلى غاية، وجشع بشع ليس له

قرار، وشهوات جامحة، مصمت من جميع جوانبه، لا ينفذ إلى داخله أيسر الضوء ولا أرق النسيم، ولا سبيل إلى تحطيمه لأنه أقسى وأصلب من أن تبلغ منه المعاول، فهو كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه نهر ويفيض على الناس برحمة أو يراد مودة أو إخاء، ولكن قلبك لا ينشق فتخرج منه قطرة تروي ظمأ أو تخفف من لوعة المكروب، قد صور من صخر صلب صلد مصمت من جميع جوانبه، ولم يكفك ما فطر عليه من صلابة وصلاده وإصمات، فوضعت عليه قفلاً لا أدري أقصدت به إلى الإغراق في التحفظ والاحتياط أم قصد به إلى التأنق والزينة وكيد الحسود، فهو قفل رشيق أنيق، تراه العين فتمتلئ النفس له إكبارا وإعظاما، ويمتلئ به إعجابا، وتتقطع الأفئدة له حسرات، قفل من ذهب نضار ترصعه ضروب الجوهر والأحجار الكريمة النادرة، قد صاغته لك الأيام في كرها والليالي في مرها، فأنت به معجب، وله مكبر، وعليه حريص، وأنت مفاخر حينًا تظهره حتى يملأ حسدا وحقدا، وأنت به ضنين تخفيه حينًا حتى تتقطع القلوب تشوقًا إليه وتفكرا فيه، وأنت في داخل هذا القلب الصلب الصلد المصمت

ذي القفل الذهبي المرصع، هادئ لا تحس اضطراب من حولك من الناس، وادع لا تسمع اصطخاب من حولك من البائسين، قد أغمضت عينيك فلا ترى ما يسوءك، وقد سددت أذنيك فلا تسمع إلا ما تحب، وأنت قد تفتح عينيك وأذنيك وترهف حسك، فترى وكأنك لا ترى، وتسمع وكأنك لا تسمع، وتجد غلاظ الحياة وقسوتها وكأنك لا تجد شيئًا، قد حصنت نفسك بهذا القلب الصخري الصلب الصلد الذي لا تعمل فيه المعاول ولا ينفذ منه الضوء أو النسيم، وقد وضعت عليه هذا القفل الذهبي المرصع لتملأ القلوب الأخرى، التي لم تصور من صخر، وإنما صورت من لحم ودم حزنًا ويأسا وحقدا وحسدا، وأنت تنظر إلى هذه القلوب التي يحرقها الحزب وتمزقها الحسرات في كثير جدا من التعالي والكبرياء وفي كثير جدا من الاحتقار والازدراء، ولعلك تنعم بما ترى من الشر، ولعلك تسعد بما ترى من البؤس، ولعلك تقول لنفسك حين تتحدث إلى نفسك وما أقل ما تتحدث إلف نفسك لقد صرف عني هذا الشر وعدل عني بهذا البؤس، وأريد أن أحيا هذه الحياة الحلوة التي تشنق حلاوتها مما يحيط بها من مرارة، اللينة التي يستخلص لينها مما

يحيط بها من شدة الناعمة التي يستصفى نعيمها مما يحيط بها من البأساء.

فلا نعم ما دام قد كتب لي النعيم، ولا سعد ما دامت قد أتيحت لي السعادة، وليبتئس غيري وليشق مادام كتب على غيري البؤس والشقاء.

حدثني، أليست هذه دخيلة نفسك حين تخلو إليها، إن خلوت إليها، وحين تشغل عنها بما تستمتع به من لذة تجمع من ثروة وبما تحقق من فوز؟

أليست هذه دخيلة نفسك التي لا تتحرج من أن تصارح بها حين يجري الحديث بينك وبين نظرائك، عما يملأ الأرض من بؤس وبغض وشقاء؟ بلى هذه دخيلة نفسك تخفيها كثيرا وتظهرها قليلاً وتشغل إلا عنها بلذتك وثروتك في أكثر الأحيان ولكن انظر، إنك ترى في الأرض أنهارا تجري وينابيع تفيض، وإنك تستغل هذه الأنهار الجارية وهذه الينابيع المتدفقة لتمعن في لذاتك وتزيد إلى ثرائك ثراء، فهل علمت كيف تفجرت هذه الأنهار؟ وهل علمت كيف انشقت الأرض عن هذه الينابيع؟ وهل علمت أن قلبك، مهما يكن حظه من الصلابة والصلادة ومن الإصمات والقسوة، لن

يستطيع أن يقاوم الأحداث، ولا أن يثبت للخطوب، ولا أن يحتفظ بهذا القفل الذهبي المرصع الذي علقته أو علقته لك الأيام عليه؟

إن الحوادث والخطوب تعبث بالقلوب مهما تكن قسوتها ومهما تكن أقفالها، وإن ساعة من الدهر تأتي على هذه القلوب الصلبة الصلدة المصمتة القاسية فتذيبه، أو تحيلها هباء تذروه الرياح انظر والإثم، ومن ضروب الطمع والمجتمع ومن خصال الأثرة والبخل، ما لا يحصى ولا يوصف، ثم أنت عليها هذه الساعة من ساعات الدهر فذهبت بها وبأصحابها، وهذه الساعة آتية عليك وعلى قلبك فذاهبة بك وبقلبك إلى حيث يذهب الناس ثم لا يرجعون.

صدقني إن من الخير لك ولمن حولك من الناس أن تحدث في قلبك هذا الصمت المقفل صدعا يسيرا ينفذ منه الضوء ليبدد بعض ما فيه من ظلمة، وينفذ منه النسيم ليطفئ بعض ما فيه من لظى وصدقني إن من الخير الكثير لك ولغيرك من الناس أن تدير مفتاحك الذهبي في قفلك هذا المرصع، وأن تفتح قلبك ولو قليلاً ليصل إليه بعض ما في هذا العالم يثير الرحمة، ويشيع الرفق، ويعطف بعض الناس

على بعض.

صدقني إن من الخير الكثير لك ولغيرك أن تصدع قلبك قبل أن تصدعه الأحداث، وأن تفتح قلبك قبل أن تفتحه الخطوب، وأن تشعر من حولك من الناس بأنك تجد بعض ما يجدون، وتعتقد مثل ما يعتقدون، إنك مثلهم قد خلقت من تراب وستعود إلى التراب، وإن الذين يستوون قبل أن يدخلوا الحياة ويستوون بعد أن يخرجوا من الحياة ليسوا في حاجة إلى أن يتمايز بعضهم من بعض، ويبغي بعضهم على بعض، في هذه الطريقة القصيرة التي يسلكونها بين المهود واللحود.

ثانيا: طه حسين ضد طه حسين:

(١) توفيق الحكيم ، وثائق من كواليس الآدباء، كتاب اليوم، القاهرة ١٩٧٧.

(٢) أنور الجندي، الصحافة السياسية في مصر منذ نشأتها إلى الحرب العالمية الثانية، القاهرة ١٩٦٢.

(٣) مجلة الفجر الجديد ١٩٤٥.

(٤) رقم (٣).

(٥) مذكرات إبراهيم عبد الهادي ١/ ١١/ ١٩٨٢ بصباح الخير.

(٦) طه حسين والسياسة، السابق.

(٧) إبراهيم فرج، ذكرياتي، دار المأمون، ط١/ ١٩٨٣.

(٨) محمود مراد، الحكيم ووعيه العائد، بدونه.

(٩) محمد الدسوقي، طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ط ٣/ ١٩٨٣.

(١٠) رقم (٨).

(١١) Berqpe, J. Ibid.

(١٢) رقم (١٠).

(١٣) Copeland, M. The game of Nations, London, 1969.

(١٤) Safrain, N, Egypt in search of political community Cambridge (vass) 1961.

(١٥) سامي الكيالي، مع طه حسين، دار المعارف، ١٩٦٨، ج٢.

(١٦) روزاليوسف، ١٨ مايو ١٩٥٣.

(١٧) الوادي ٢١/ ١١/ ١٩٥٢.

(١٨) الأهرام ٢/ ٨/ ١٩٥٢.

(٢٠) روزاليوسف ٢٢/ ١٢/ ١٩٥٢.

(٢١) الكتاب، يناير ١٩٥٣.

(٢٢) المصري ٣١/ ١/ ١٩٥٣.

(٢٣) الجمهورية ١٤/ ٧/ ١٩٥٤.

(٢٤) الجمهورية ٨/ ٨/ ١٩٥٤.

(٢٥) الجمهورية ١٤/ ٧/ ١٩٥٤.

(٢٦) الجمهورية ٩/ ٨/ ١٩٦٢.

(٢٧) الجمهورية ٣٠/ ١٠/ ١٩٥٤.

(٢٨) الجمهورية ١١، ١٣/ ١٤/ ١٩٥٤، أيضا: كتاب (هؤلاء هم الإخوان)، بدون، ص ١٢.

(٢٩) لقاء مع حسين يوسف رئيس الديوان الملكي السابق في ٧/ ٤/ ١٩٨٤، وهو ما يكرر في عديد من صفحات محكمة الشعب.

(٣٠) روزاليوسف ٢٩/ ٣/ ١٩٥٤.

(٣١) الجمهورية ٣/١١، ٥/ ٤، ١٣/ ٧/ ١٩٥٦، ١/ ١٠/ ١٩٥٤.

(٣٢) محضر نقاش مع أحمد سعيد في ١٢/ ١/ ١٩٨٧.

(٣٣) الأهرام ١١ فبراير ١٩٧٨.

(٣٤) الأهرام ٢٥ فبراير ١٩٨٧.

(*) يمكن العثور على ((نمط الإنتاج الآسيوي في كثير من

أدبيات الغرب، وعلى سبيل المثال، أنظر:

Ernest Hoffman, Les Formation Socio-economiques et la science historoique, Recherches Internationales, No. 57- 58.

(**) وهوفمان، يرى أن هذه المرحلة أتت بعد المجتمع المشاعي ((بين النهرين ومصر والهند لأول مرة في النصف الثاني للألف الرابع قبل الميلاد)) فتصبح مصر الفرعونية في مرحلة من مراحلها، صاحبة سلطة سائدة خاضعة لظروف ((المكان)) وطرح النهر في ديمومة الزمن.

الجزء الثالث

تحولات طه حسين

هذه التحولات

ما كدت أصل إلى الذكرى العاشرة لرحيل طه حسين، حتى كنت قد فرغت من قراءة كل ما كتبه عميد الأدب العربي أو كتب عنه في العربية، وفيما وقع بين يدي من الفرنسية أو الإنجليزية، فضلاً عن لقاء الكثيرين: تلامذته ومحبيه، أعدائه وشانئيه، أقاربه وعارفيه.

ولقد كانت دراستي الجامعية الصعبة التي انتهيت منها حول الفكر السياسي والاجتماعي عند طه حسين دافعا لي كيلا أعود من الطريق نفسه، ومن هنا، لم أستطع العود من هذا الطريق، ولو كنت أستطيع لما سلكته ثانية، ومع ذلك، فإن الطريق الجديد لم يكن هو الآخر غير ذي عوج، إذ كان كسابقه، مضطربا شديد الاضطراب، مختلطًا كثير الاختلاط، وهو شأن طه حسين دائما حين يقول أو يملي.

ولنترك الإجمال إلى التفصيل.

لقد عرفت طه حسين في جميع حالاته، شجاعته في

مقاومة سعد، جسارته في تحدي صدقي، ذكاءه في مواجهة السعديين بعد ذلك، غير أني لا أنسى دلالة التحولات التي كانت تمضي جنبا إلى جنب: تمرده السياسي وتمرده الفكري والإبداعي في آن واحد، وما زلت أذكر حيرتي الشديدة التي تبلورت إلى اقتناع تام بتوازي هذه التحولات في فترة الطفرة، وهبوطها دون التطور اليومي أو الزمني في فترة الهبوط والسقوط، كانت هذه التحولات التي شغلتني كثيرا سواء وأنا في قاعة القراءة في قسم الدوريات بدار الكتب، أو في إحدى الحجرات الصفراء، المزدحمة بالأوراق القديمة، حيث كان ملف طه حسين وأوراقه الخاصة القديمة تمثل لي ثروة ضخمة تعينني على فهم طه حسين وتطوره في خط صاعد.

وفي هذين المكانين، عرفت طه حسين مناضلاً متمردا إلى حد الشراسة، عنيدا عنيفًا إلى درجة التهور، وفي جميع الحالات، لم أكن لأستطيع أن أعزل ظاهرة دون ظاهرة في هذه التحولات، وهو ما يتأكد التي بين أيدينا الآن عند الحقبة التي تبدأ بالثلاثينيات، حيث شهدت طفرة التمرد السياسي والفكري عند طه حسين.

وفترة تحولات طه حسين وصعودها إلى قمة التطور هي فترة لا يستطيع الفكاك منها قط من يرصد تطور المثقفين في العصر الحديث، والتأني عندها يمنحنا افتراضا يتحول إلى يقين، مؤداه، أن فكر الكاتب مرتبط أشد الارتباط بموقفه السياسي وممارسته له.

إن عباس العقاد، على سبيل المثال، ارتبطت درجة تمرده القصوى كشاعر بدرجة تمرده السياسي، وهو ما يلاحظ عند كاتب معاصر آخر له هو د. محمد مندور إذ لوحظ أيضا أن تمرده على المستوى السياسي تواءم في كثير مع تمرده على المستوى الفكري والجمالي.

وما يمكن أن يقال عن العقاد ومندور يمكن أن يقال عن الكثيرين من أمثال رمسيس يونان وجورج حنين وفؤاد كامل وغيرهم في عقد الأربعينيات أولئك الذين توازى لديهم التمرد السيريالي بالتمرد السياسي سواء بسواء.

لقد كان طه حسين في فترة الصعود يتمثل كورنيليوس (عاش بين عام ٥٥/ ١٢٠م)، ومن أهم سمات هذا الكاتب موقفه العنيد ضد طغيان حكام روما وخاصة نيرون، ومن هنا، كان طه حسين يوقع كتاباته الأولى باسم (تاسيت)، وهو

اختصار لاسم هذا المؤرخ اللاتيني، كما كان يتمثل بروميثيوس، سارق النار، الذي عبر عنه في بداية العشرينيات -بالأهرام- حين وصفه، بأنه الذي يريد ((أن يخرج الناس من برد الباطل وظلمة الجهالة.. وإن كبير الآلهة هو الحكومة..)).

السياسة والفكر وجهان لعملة واحدة.

لقد كان طه حسين متمردا شديد التمرد على المستوى الفكري في الوقت الذي كان فيه متمردا أشد التمرد على المستوى السياسي.

ولنهبط أكثر إلى أرض الواقع السياسي والفكري خاصة منذ بداية الثلاثينيات.

فكما كان موقفه من إسماعيل صدقي حينئذ من العنف بحيث لا يمكن الفرار قط من تأكيد وصوله إلى ذروة المعارضة السياسية، كذلك كان هذا التمرد يمضي في صعود إلى حده الأقصى في جانب الإصلاح الاجتماعي والممارسة النقدية وصراعه بين القديم والجديد وما إلى ذلك من جملة التحولات التي كانت تشهدها مصر في هذا الوقت.

في الثلاثينيات، كان قد أنجز أجزاءه الثلاثة (حديث

الأربعاء) ونشر أغلبها في الشعر والسياسة، وأنهى كتابه الملحوظ في جزئه الثاني من (الأيام) بعد ذلك بقليل، وطبع كتابه المميز (في الصيف) و (حافظ وشوقي) ثم أجزاءه الثلاثة (على هامش السيرة) و(مستقبل الثقافة في مصر) و(مع أبي العلاء في سجنه) و(أديب) إلى آخر نتاج الثلاثينيات بعد ذلك.

وفي الثلاثينيات، أيضا، تضمنت هذه المقالات والكتب فصولاً متصلة عنيفة في هجومه الحاد على إسماعيل صدقي رئيس الوزراء وأعلى سلطة في الحكومة المصرية، ومن يراجع صحف هذا العقد مثل (الوادي)، و(كل شيء)، و(مجلتي)، و(الجهاد)، و(الحديث)، و(الهلال)، و(المصور) وغيرهم يلحظ هذا التمرد الغاضب الذي كان يسود به وجه صفحات كثيرة في هجاء الوزير الأول في مصر ووزرائه بشكل لا نعتقد أنه تكرر قط في تاريخ مصر المعاصر أو الحديث.

لقد كان يسمي أحد وزراء صدقي (بوزير التقليد)، ويسخر من آخر فيعنون مقاله بكلمة تشتق من اسمه (صبريات) ويحكم من توجيه سهامه الحمراء الملتهبة في

عنوانات مقالاته وخلال كلمة واحدة أو كلمتين: (خوف، عبث، إسراف، كتمان، تكذيب، تضليل، غضب؛ مأساة؛ إرهاق، إثم، أزمة، عهد الذل والهوان، إذلال الأدب ووزير التقاليد، مظلمة في القانون) .. إلى غير ذلك من الكلمات المسنونة المسمومة.

من هذه الثلاثينيات، نحاول نحن أن نقترب أكثر من تحولاته المتوالية..

كيف يمكن أن ترتبط العقيدة السياسية بالتكوين الفكري أو الاجتماعي؟

ولماذا يتوازى الموقف العقيدي بالموقف النقدي ويؤكده؟

لقد جهدنا لنجيب عن هذه الأسئلة من خلال رصد دوائر الفكر والسياسة وتماسهما في مركز واحد حتى ليصعب الفصل بينهما بأية حال.

-٢-

وعلى هذا النحو، فإنني حين خصصت فصلاً مطولاً عن علاقة طه حسين السياسي برئيس وزرائه -وهو موقف سياسي من مواقف- فإنني آثرت موقفه الفكري النقدي

والاجتماعي في بقية الفصول بالتوالي.

وما حاولت أن أركزه خلال هذا الموقف السياسي عدت إلى تقطيره خلال الموقف الفكري أو بقية المواقف التي كان لابد لطه حسين أن يواجهها أيضا، متوازنًا تماما مع موقفه السياسي.

ومن هنا، حاولت كشف الكثير من هذه التحولات التي اتسمت بالغموض رغم سعيه الدائم إلى أن يكون واضحا، فقد ركزت في فصل من الفصول على تحديد فكره من (عالم الدين) على ما يقال من كراهيته لعلماء الدين، فلا يمكن أن يوصم طه حسين بموقف عدائي لممثلي الدين، في وقت كان وعيه (الراديكالي) يحول دون سقوطه في هاوية التسرع والأحكام العجلى.

ويرتبط هذا بفصل آخر من قضية (القديم والجديد)، فلم يكن طه حسين ليستطيع -لو أراد- أن يخاص من دواعي الماضي، فكثيرا ما ذكر قول منصور فهمي، وقد كان صديقًا حميما له، وهو يقول لفريق من الطلاب قبل سفرهم أوروبا:

- تذكروا أن الماضي يصرخ في آذانكم، أنكم قد تستطيعون تغييره ولكنكم لا تستطيعون أبدا احتقاره أو

الازدراء به.

وعلى هذا، فإن قضية القديم والجديد، أو قضية (الأصالة والمعاصرة) إنما كانت من أهم قضايا طه حسين الذي أبدى فيها نصاعة في إيضاح الفكرة ووضوحا في تحديد مفرداتها، مما انتهى به منها إلى صيغة متماسكة.

ولأهمية قضية مثل قضية (النقد)، اتخذناها مثالاً تطبيقيا رأينا من خلاله موقف طه حسين بين العالمين: القديم والجديد، إذ كان واعيا لهذه القضية التي خصص لها أجزاءه الثلاثة (حديث الأربعاء) مركزا فيها على اللفظة والمعنى.. كما نجد توضيحا لقضية الصراع بين القديم في كتب صدرت في نفس الوقت مع اختلاف درجة التناول وطبيعته من أمثال (شوقي وحافظ) و(من بعيد) و(ألوان) وما إلى ذلك[١].

(([1]) لقد أصبح من البديهي الآن أن أغلب ما اجتهد فيه عميد الأدب العربي في مثل هذه القضية يمثل (المادة) الخام التي يحاول بها كتابنا المعاصرون الآن، ممن عنوا بالفكر بالاغتراف من هذه المادة الأولى، وأصبحت كل المحاولات تجتهد لتشكيل بنية الفكر العربي المعاصر تحاول العود إلى (تحولات) طه حسين الأولى والاغتراف منها لإحداث التكوينات التي يمكن بها الوصول إلى تحديد واضح للهوية ==

وقد انتهينا في فصل آخر إلى قضية، كان يمكن مع ثبوت يقينها الكاذب أن تغير، إن لم تشوه، فكر طه حسين، ومن هنا، أكدنا خلال الوثائق وكتابات السيرة الذاتية، على أهمية شخصية مثل شخصية (أديب) -وهو في الرواية التي تأخذ نفس الاسم- وقد انتهينا من ذلك إلى أن شخصية (أديب) ليست هي شخصية طه حسين، وإن لم يمنع هذا من التأكيد على أهمية الرواية التي نشرت قبل عام واحد من نشر

العربية.
ولعل د. زكي نجيب محمود كان من أهمهم.
وأميل إلى الجزم الآن، أن محاولات د. زكي نجيب في ثلاثيته المعروفة (تجديد الفكر العربي المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، ثقافتنا في مواجهة العصر).. للإجابة عن السؤال الذي طرح: (كيف السبيل إلى ثقافة موحدة متسقة يعيشها مثقف حي في عصرنا هذا، بحيث يندمج فيها المنقول والمعاش في نظرة واحدة؟).
نقول، إن محاولة د. زكي في إجابته هنا، هي، تعميق لمحاولة طه حسين الأولى في هذا الصدد.
بل ويمكن بعمل دراسة مقارنة التأكد من تشابه بصمة لغة هذا الكاتب المعاصر ولغة وأسلوب طه حسين، ويمكن أن نضيف أن تشابه الأسلوب فيما بينهما يعقب تشابه المعنى والمنحى.

كتابه الخطير (مستقبل الثقافة في مصر) حيث يتحدد وعي الكاتب -طه حسين- إزاء معاهدة ١٩٣٦ في اتجاه حزب الأغلبية، وحيث نرى في فنية الرواية والوقوف على الأطلال وتلمس الرسائل وتهادي الرحلة إلى الغرب، والصراع الرمزي في أعلى درجاته وحيث تتحول ((حميدة))، إلى ضحية الشرق الناهض في سياق المعاصرة، كما تتحول (إلين) إلى شخصية الغرب المتمثل في (باريس)، ومن هنا، تبرر تأرجح الضمير بين الحكي والغائب.

إن موقف (أديب) هنا، مهما يكن اسمه أو رسمه، رمز لموقف سياسي ورد فعل فكري حاد.

وكان لابد أن نؤكد هذا كله بمواقف عدة، تعكس بعض تحولات (سارق النار) وهي، كلها، مستقاة من الوثائق، ومع أنها قد تبدو وفي الوهلة الأولى لا تغادر المألوف أو تخرج عليه، فإنها تمثل في السياق الأخير دلالات موحية.

-٣-

فإذا فرغنا من فكرة الكتاب ومحتواه، انتهينا إلى الوثائق التي اعتمد البحث عليها في المقام الأول.

على الرغم من أن الاعتماد على نصوص طه حسين

جاء في المقام الأول، فإن الاعتماد على وثائق له أو عنه وصل إلى درجة لم نستطع التقليل منها قط، فهي صادرة من جهات رسمية في عصر طه حسين، ولها صفة الترجيح والثبوت على كل ما عداها.

-٤-

ويبقى أن نشير إلى بعض الملاحظات التي لا يمكن تجاهلها قط، منها، أن بعض فصول الكتاب كانت قد نشرت في صحف عديدة تراوحت بين (الأهرام) في أقصى اليمين وبين (الأهالي) في أقصى اليسار، كما أفدت من المناقشات التي كانت رد فعل لنشر الفصول، وأيضا تلك التي أذيع بعضها في المؤتمرات العلمية كما هي الحال في فصل الصراع بين القديم والجديد الذي سبق وأن تقدم به كاتبه إلى مهرجان طه حسين بجامعة المنيا (يناير ١٩٨٥).

وقد يكون من الصواب أن نشير إلى أن بعض الفصول هنا رفضت للنشر من بعض الصحف العربية ومجلاتها للكراهية الغامضة التي تغلف موقف طه حسين وصورته في الهلال الجغرافي الذي يقع في الجهة الشرقية من مصر وفي المغرب العربي أيضا.

رغم أنه بات من المفروغ منه الآن أن طه حسين لم يعد ملكًا لمصر وحدها، وإنما أصبح ملكًا للعالم بأسره.

ولا يجب أن يفوتنا هنا الإشارة إلى أن هذه الدراسة هي الجزء الثالث من ثلاثية خصصتها حول طه حسين، تحدد الجزء الأول منها تحت عنوان (طه حسين والسياسة)، ونشر بدار المستقبل العربي (١٩٨٧)، كما تحدد الجزء الثالث حول (طه حسين وثورة يوليو ١٩٥٢) وقد نشر بدار التراث ١٩٨٩.

وإذ حاولنا أن ندرس الجزء الأول لموقف طه حسين قبل ثورة ١٩٥٢ (وهو أطروحة جامعية)، فقد جهدنا أن ندرس الجزء الثاني لموقف المثقف من ثورة ١٩٥٢ (أي الحقبة التي تلت قيام الثورة المصرية الأخيرة) حتى رحيله عام ١٩٧٣، وقد كان من الطبيعي أن تتوقف الدراسة التي بين أيدينا الآن عند الحقبة التي تبدأ بالثلاثينيات، حيث شهدت طفرة التمرد السياسي والفكري عند طه حسين.

إن ظاهرة التحولات في فترة زمنية محددة هي كل ما اهتممنا به هنا.

فأرجو أن أكون قد وفقت..

الفصل الأول

تحولات السيرة

لم يكن طه حسين نبتًا بدون جذور، وإنما امتدت جذوره في تربة مصر وثراها إلى أعماق بعيدة، ومن هنا، فإن أية دراسة تنحو إلى البحث عن المناطق المجهولة في حياة طه حسين لابد وأن تمر بخطوط شخصيته ومصادر التكوين الأولى فيها.

وهو ما سنحاول أن نفعله الآن.

-١-

ولد طه حسين في الرابع عشر من شهر نوفمبر سنة ألف وثمانمائة وتسع وثمانين في ناحية صغيرة من نواحي مغاغة، تبعد عنها بكيلو مترا واحدا، وتعرف باسم (عزبة الكيلو)، تقع في محافظة المنيا بالصعيد الأوسط.

وقد كان طه الابن السابع بين ثلاثة عشر ولدا لأبيه، والابن الخامس بين أحد عشر ولدا لأمه.

كان الأب حسين علي موظفًا صغيرا في شركة السكر بالمنطقة، ومن هنا، أحيط بالابن منذ سن مبكرة علامات

الفقر والجهل مما كان له أثر كبير في فقد بصره وهو صبي صغير ضعيف ولما يجاوز السادسة عام ١٨٩٥ إذ ((أصابه المرض فأهمل أياما، ثم دعي الحلاق فعالجه علاجا ذهب بعينيه))، وفقدان البصر إلى الأبد مثل محنة كبيرة أثرت تأثيرا ملموسا في حياته، سواء في الفترة الأولى منها كما يحدثنا في أيامه-الجزء الأول- أو في الفترة التالية كما نراها في تضاعيف كتبه وتفاصيل حياته.

وفي عام ١٨٩٨ ولما يبلغ التاسعة كان قد أتم حفظ القرآن الكريم، وألم بمبادئ العلوم العربية، ليرسل بعدها إلى القاهرة لطلب العلم، حيث ينتهي في الخط الذي رسمه الأب وآمله إلى أن يصبح هناك شيخًا أزهريا.

وفي عام ١٩٠٢ انتسب إلى الأزهر وحضر دروس المبتدئين لمدة ثلاث سنوات سمع فيها آخر درسين ألقاهما الشيخ الإمام محمد عبده في عام ١٩٠٥.

وبين عامي (١٩٠٥-١٩٠٧) حضر دروس المتوسطين في الفقه والنحو، ليبدأ بعدها الدرس مع الطلبة المتقدمين، فحضر دروس الشيخ محمد بخيت الذي أصبح فيما بعد مفتيا للديار المصرية في الفقه الحنفي ودروس

الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوي في المنطق، ودروس البلاغة على الشيخ عبد الحكيم عطا.

وقد حدث حينئذ أن استاء منه الشيخ الأكبر للجامع، وهو الشيخ حسونة النواوي، فطرده لولا توسط لطفي السيد عنده فأعاده ثانية.

وهذا يرتبط إلى حد كبير بالوضع الذي عرف فيه طه حسين من التبرم في البيئة الأزهرية، لأسباب بعضها خاص كآفته، وبعضها عام كنظام التعليم بالأزهر، بما يعود لأساليب العلم وموضوعاته غير المطورة في هذا الجامع العتيد.

وعلى هذا النحو، كان عليه أن يتجه، داخل الجامع، إلى منابع أخرى للعلم وجد بعضها في دروس محمد عبده الأخيرة، ومنها دروس الشيخ المرصفي فضلاً عن المنابع الغربية التي عرفها خارج الجامع لا خارج مصر، مما تمثل في روح قاسم أمين الذي نادى بتحرير المرأة، فتحي زغلول الذي كان يترجم الكتب الغربية، وأيضا بما قدمته (الجريدة) في أول عهده بها من روح جديدة في السياسة والاجتماع.

على أن أكثر المنابع تأثيرا فيه كان قد التقى بها في عام ١٩٠٨ وهو عام افتتاح الجامعة المصرية التي اختلف

إليها في هذا الوقت، وفي الوقت الذي اختلف فيه إلى الجامعة وعرف أساتذتها من المستشرقين، لم ينقطع كلية عن دروس الأزهر، غير أن تردده عليه، هذه المرة، كان مقترنًا ببعض الدروس التي تروقه هو، وهو ما يضع أيدينا على أسباب اتجاه طه حسين في الجامعة، فالجامعة ((مدرسة كالمدارس، وأحس أن مزيتها الكبرى عنده أن الدروس التي ستلقى فيها لن تشبه دروس الأزهر من قريب أو بعيد، وأن الطلاب الذين سيختلفون إليها لن يكونوا من المعممين وحدهم، بل سيكون فيهم المطربشون، وعسى أن يكونوا أكثر عددا من أصحاب العمائم، لأن هؤلاء لن يعدلوا بعلمهم الأزهري علما آخر، ولن يشغلوا أنفسهم بهذه القشور التي كان يضيع فيها أبناء المدارس)) (الأيام ج٣ ص٤).

ويسمع طه حسين دروس الجامعة

فيسمع لأول مرة درسا في الحضارة الإسلامية لأحمد زكي.

ويدرس في الحضارة المصرية القديمة لأحمد زكي (باشا).

ودرس اجناتسو جديدي في أدب الجغرافيا والتاريخ.

ودرس اللغات السامية لليتمان.

وتاريخ الفلك عند العرب.

وتاريخ الأدب الغربي للنللينو.

ثم تاريخ الفلسفة الإسلامية للأستاذ المشهور سنتيللانا.

ثم تاريخ الشرق القديم لماسينون.

وبعد أن تعرف طه حسين على اللغة الفرنسية حضر دروس الأدب الفرنسي التي كان يلقيها لوي كليمان.

وأيضا استمع إلى دروس الجغرافيا التي كان يلقيها إسماعيل رأفت والذي كان يدرس لطلابه أفريقية العربية وبعض جزر المحيط.

وثمة موقف يلقي مزيدا من الضوء على فكر طه حسين في هذه الفترة، فقد حدث أن التقى مع سنتيللانا ليحضر معه دروس الشيخ الأكبر سليم البشري بالأزهر، فاشتبك مع الشيخ البشري الذي استمع إليه ورد عليه ردا غير مقنع على حد فهمه، ويأبى طه حسين إلا اللجاج حتى ينهره الشيخ في سخرية ممضة، ثم يحثه سنتيللانا على السكوت وهو ما يفيد أن طه حسين بعد تعرفه على الجامعة كان لا يزال يحمل روحا تنكر دروس الأزهر وتتمرد عليه

وهو ما سينعكس في مواقفه وكتاباته منه فيما بعد.

وفي عام ١٩١٢ تقدم طه حسين إلى امتحان العالمية في الأزهر، غير أن علاقاته بشيوخه حالت بينه وبين النجاح، فعملت لجنة الامتحان على إسقاطه، بناء على توجيه شيخ الأزهر كما يقول هو:

وقد نوقشت الرسالة بين يدي الجمهور في ٥ مايو عام ١٩١٤.

وقد أثارت أول رسالة علمية له بالجامعة ضجة كبيرة خارج الجامعة لولا أنها وئدت في المهد، فأحد أعضاء الجمعية التشريعية وجه سؤالاً في الجمعية التشريعية وطالب بحرمان الطالب طه حسين من حقوق الجامعيين لأنه ألف كتابا فيه كفر وإلحاد وهذه الرسالة عن أبي العلاء لولا أن رئيس الجمعية التشريعية -وكانت تقدم الأسئلة إليه أولاً، وهو حينئذ سعد زغلول- أحضر صاحب السؤال وأقنعه بضرورة العدول عن سؤاله لما يترتب عليه من ضرر سيمتد إلى الأزهر، ولن يقتصر على الجامعة فقط فانتهت الضجة من هذا الوقت (الأيام ج٣).

وفي عام ١٩١٤ قررت الجامعة إيفاده في بعثة إلى فرنسا

فالتحق هناك بجامعة مونبلييه ودرس علم النفس والأدب الفرنسي والتاريخ الحديث، غير أنه عاد إلى مصر في السنة التالية نظرا لظروف مالية كانت تعاني منها الجامعة المصرية، وما كادت الأزمة المالية تنفرج ثانية حتى عاد من جديد إلى فرنسا عام ١٩١٥ والتحق هناك بكلية الآداب بجامعة باريس، فدرس فيها التاريخ الحديث على سينويوس، وعلم الاجتماع على دور كايم، وحضر تحت إشرافه رسالته عن (فلسفة ابن خلدون)، وقد تولى الإشراف بعد دور كايم سلستان بوجليه، كما حضر دروس لتفسير القرآن الكريم على كازانوفا، وفي هذه الفترة بدأ دروس اللاتينية.

وفي عام ١٩١٧ عاش حدثين هامين في حياته:

الحدث الأول. حصوله على درجة الليسانس في الآداب من السوربون حيث سمع وعرف هذا العالم على درس بيزنطة والعصور الوسطى على شارل ديل وفي الأدب الفرنسي على لانسون، وفي ديكارت على ليفي بريل.

أما الحدث الثاني.. فهو اقترانه بالفرنسية (سوزان بريسو) التي يكون لها أبعد الأثر في حياته، إذ مكنته -كما

يقول- من دراسة اللاتينية، كما قرأت عليه كثيرا من عيون الأدب الفرنسي.

كما أن سوزان أعانته في عام ١٩١٨ في الحصول على درجة الدكتوراه في فلسفة ابن خلدون، لينتهي في العام التالي من دبلوم الدراسات العليا، وكان موضوع البحث هو:

La loi de lere Magesto sous Tibere.

وقد اضطره ذلك إلى قراءة كتاب القانون المدني الروماني وكتاب القانون -الجنائي الروماني، والعود إلى الأصول في اللاتينية.

وفي أكتوبر من عام ١٩١٩ عاد إلى مصر ليعين مباشرة أستاذًا في الجامعة المصرية كأستاذ للتاريخ القديم (اليوناني الروماني) ((بشرط أن يكون تحت تصرف الجامعة يمكنها أن تكافئه بأي عمل كان يتفق مع معلوماته))، ودخل بعدها في منازعات كثيرة مع مجلس الإدارة بسبب طلبه لزيادة مرتبه وتخصيص مبلغ لمرافق، وكاد يستقيل لولا أنه قدم اعتذارا للجامعة.

وقد استمر في هذا المنصب حتى تولت الجامعة إدارة الجامعة في عام ١٩٢٥، ليعين أستاذًا لتاريخ الأدب.

وفي عام ١٩٢٦ أصدر كتابه (في الشعر الجاهلي)

الذي أثار ضجة هائلة تعود في أغلبها إلى عوامل سياسية.

إذ أصدر أحد النواب الوفديين استجوابا بشأن هذا الكتاب واختلاف أعضاء مجلس النواب حوله، ولما كانت الوزارة برياسة عدلي (باشا)، فقد هدد بالاستقالة إذا أضير طه حسين فسوي الأمر داخل المجلس، وقد أثيرت الضجة خارج المجلس حين رفع الأمر إلى رئيس النيابة لولا نزاهة رئيس النيابة، كما أثيرت القضية مرات فيما بعد لأسباب سياسية.

وفي عام ١٩٢٨ عين عميدا لكلية الآداب، غير أن الظروف السياسية اضطرته إلى الاستقالة بعد يوم من تعيينه، فعين يوم وقع فيه بعض الأوراق، حتى إذا ما كان المساء حتى قدم استقالته وأعيد العميد الفرنسي.

وفي عام ١٩٣٠ لم تكد الجامعة تختار طه حسين عميدا لها حتى قرر وزير المعارف في وزارة صدقي، لأسباب سنصل إليها، إلى نقل العميد الجديد إلى ديوان الوزارة -وزارة المعارف- في وظيفة مساعد مراقب التعليم الأول ليكون بعد ذلك مفتشًا أول للغة العربية، فكتب إلى الجامعة طالبا منها إجراءات لعودته.

غير أنه نتيجة لموقف محمد حلمي عيسى في ٣ مارس ١٩٣٢ نفذ النقل لكنه رفض العمل، ووجه هجوما عنيفًا في الصحف على الوزارة القائمة، كما حدثت ضجة في الصحف وداخل الجامعة.

وفي ١٩ مارس ١٩٣٢ فصل وأعيد إلى التقاعد فلزم بيته يكتب في جريدة السياسية اليومية، وتولى رئاسة تحريرها أثناء تغيب رئيس تحريرها -محمد حسين هيكل-، وهو الوقت الذي رفع فيه على الحكومة المصرية قضية طالب فيها، بإلزامها، بدفع مبلغ يصل إلى خمسة وعشرين ألفًا من الجنيهات مع المصاريف بطريقة التضامن.

وفي عام ١٩٣٣ اشترك في الكتابة في جريدة (كوكب الشرق) التي كان يصدرها وقتئذ حافظ عفيفي غير أنه ما لبث أن اختلف مع صاحب (كوكب الشرق) التي كان يصدرها حافظ عفيفي بسبب امتناعه عن دفع غرامة أحد الكتاب بعد أن حكم عليه وعلى الدكتور طه حسين وهيكل بغرامة مالية، فاستقال من (كوكب الشرق) ليشتري امتياز جريدة (الوادي)، وقد تولى الإشراف على تحريرها حتى ديسمبر ١٩٣٤.

وفي عام ١٩٣٤، في عهد وزارة نسيم أعيد إلى الجامعة أستاذًا في كلية الآداب ليستأنف دروسه في الكلية بعد انقطاع عنها منذ مارس ١٩٣٣ (قرابة ثلاث سنوات)، وليتنازل عن القضية التي كان قد رفعها على الحكومة السابقة في فبراير ١٩٣٥ ليصرف مرتبه ويعفى من رد المكافأة التي سبق واستلمها، وأن تضم إلى المعاش مدة انفصاله عن الجامعة لأسباب لا ترجع إليه.

في سنة ١٩٣٦ عين عميدا لكلية الآداب، وظل بمنصب العمادة حتى مايو ١٩٣٩، بعد أن أعيد انتخابه، غير أن حكومة محمد محمود لم ترض آنذاك عن إعادة تعيينه عميدا، فاضطر إلى الاستقالة من العمادة وظل أستاذًا بالكلية.

وفي أواخر عام ١٩٣٩ انتدب مراقبا للثقافة بوزارة المعارف مع بقائه أستاذًا في كلية الآداب، واستمر حتى فبراير عام ١٩٤٢ حين عاد الوفد إلى الحكم فعين مستشارا فنيا للوزارة حينئذ، لينتدب بعدها في عام ١٩٤٢ مديرا لجامعة الإسكندرية، واستمر في هذين المنصبين.

وفي ٦ أكتوبر عام ١٩٤٤ أحيل للمرة الثانية إلى التقاعد مع من أحيلوا.

وفي ١٣ يناير ١٩٥٠ عين وزيرا للمعارف في الوزارة الوفدية، وظل هذا المنصب حتى أقيلت وزارة مصطفى النحاس أثر حريق القاهرة في يناير ١٩٥٢، فأحيل إلى المعاش للمرة الثالثة.

وتعود هذه الفترة الأخيرة في حياة طه حسين إلى أنه حاول أن يضع الصيغة النهائية لأفكاره النظامية حول التعليم والفكر الاجتماعي والعمل السياسي في حيز التنفيذ.

على أن منصب الوزير كان آخر منصب في سلك الوظائف الرسمية والسياسية، فانصرف بعدها حتى وفاته ٢٨ أكتوبر عام ١٩٧٣ إلى الإنتاج الفكري والأدبي.

-٢-

اعتاد من تناول مصادر التكوين الفكري عند طه حسين إلى إرجاعه إلى المصادر الشائعة في عصره دون التوقف عند أهم هذه المصادر على الإطلاق، ونقصد بها البيئة المصرية الخالصة.

وقد فطن طه حسين إلى هذا المصدر خاصة.

ففي أولى دراساته حول أبي العلاء، كان منهجه يشير إلى أن الأديب ((ثمرة من ثمار عصره يعمل في إنضاجها

الزمان والمكان وظروف السياسة والاجتماع والاقتصاد))، كما يرى في دراسة أخرى أن شخصية الشاعر أو الكاتب ومزاجه وعواطفه وكل ما يكون نفسه ((لا يفيد إلا من حيث هو أثر من آثار العصر الذي عاش فيه والبيئة التي خضع لها، والأمة التي نجم منها)) (حديث الأربعاء ج٢ ص ٥٣)، إلى غير ذلك ما يؤكد على الأهمية التي يوليها إلى البيئة من حيث النطاق الجغرافي والعمق الزمني وهو ما كون حضارة عريقة مثل الحضارة المصرية بكل مكوناته.

وعلى هذا النحو، يمكن أن نرجع تكوين طه حسين الفكري والثقافي إلى عدة مصادر ليست منفصلة، وإنما، متصلة، متمازجة في النسيج العام لفكره.

ويمكن ترتيب هذه المصادر على النحو التالي:

(أ) المصدر المصري.

(ب) المصدر العربي الإسلامي.

(ج) المصدر الغربي.

(أ) في صعيد مصر، والبيئة الريفية المتميزة عاش طه حسين طفولته الأولى، لقد استمع بحكم وجوده وآفته إلى ((نساء القرى إذا خلون إلى أنفسهن أن يذكرن آلامهن

وموتاهن فيعددن))، وهو ما جعل الصبي يحفظ كثيرا جدا من الأغاني وكثيرا جدا من ((عبارات التعديد وكثيرا من جد القصص وهزله))، وهو في هذا كان كثير المراقبة لأهل الريف الذين كانوا -على حد قوله- ((مكرة أذكياء)) كما يقول في الجزء الأول من الأيام.

كما عرف في هذه البيئة القصص العربية التي كانت شائعة من أمثال (ألف ليلة وليلة) خاصة قصة (حسن البصري).

ومن المعروف أن (الليالي) صبغت بروح مصرية خالصة منذ القرن العاشر أو الحادي عشر الهجري، كما تحتوي على عديد من القصص التي تعود إلى تأثير البيئة المصرية إذ إن أكثر الزيادات بها تمت في مصر.

لقد عرف الصبي عادات لم تعرف قط إلا في مصر كان لها تأثير كبير فيه مثل رياح الخماسين التي كانت تسبق أيام شم النسيم حيث كان الناس ((إذا أظلهم يوم الجمعة أسرفوا في الأكل وفي ألوان خاصة من الطعام، حتى إذا كان يوم السبت أسرفوا في أكل البيض الملون، وكان الفقهاء قد استعدوا لهذا اليوم استعدادا خاصا، فاشتروا ورقًا أبيض

مصقولاً، وقطعوه قطعا صغارا دقاقًا)) إلى آخر السرد الذي يذهب إلى أن هذه الأوراق تشفى الرمد من العيون في موسم الخماسين وهو ما يردد في أيامه.

كما كان يرى في حالة النساء عجبا، فهن (يتلقين هذه الحجب مطمئنات إليها، ولكن ذلك لم يكن يمنعهن من اتقاء العفاريت يوم شم النسيم بشق البصل وتعليقه على أبواب الدور، وأكل الفول النابت دون غيره من ألوان الطعام في هذا اليوم إلى آخر عادات هذه البيئة المصرية الخالصة التي عرفناها في الأيام.

وأغلب مصادر طه حسين في كتاباته الفنية، ومعظم الشخصيات والأحداث التي رويت في قصصه -خاصة- يمكن بسهولة أن تمتد إلى مقابل لها من أشخاص وأحداث حقيقية مر بها في صباه وذكرها في الأيام، كالجد وسيدنا والعريف ومشايخ الطرق ومفتش الطرق ومفتش الزراعة والمأمور، إلى جانب أن أغلب تشبيهاته وشخوصه المستعارة التي وردت في أعماله السياسية يمكن أن نجدها -بالمقابل- تعود إلى رموز تضرب في أعماق الصبي وفي بيئته الأولى.

وإذا كان الصبي قد عرف في القرية لونًا مميزا للبيئة،

فإنه انتقل إلى المدينة ليرى لونًا آخر من الحياة، ففي مدرسة (الجريدة) خاصة تبلورت مكوناته الأولى عن الفكرة المصرية التي انتهت به إلى الفكرة القومية، والتي انعكس فيها إحساس لطفي السيد بالتاريخ المصري، وبالنتائج التي توصل إليها عن الآثار المصرية القديمة والتي احتفى بها لطفي السيد كثيرا (الجريدة ٨ ديسمبر عام ١٩١٢).

وفي الجامعة المصرية تعمق هذا الأثر، إذ استمع فيها إلى دروس الحضارة المصرية القديمة على أحمد زكي (بك)، لقد ((سمعه فلم تسعه الأرض على رحبها، سمع أشياء لم تكن تخطر له على بال، ولم يكن يتصور أنها قد كانت أو أن الناس يمكن أن يتحدثوا بمثلها)) (الجزء الثالث من الأيام).

وعلى هذا، تعمق هذا المفهوم وتبلور في فترة تالية في تكوينه متمثلاً في منهجه الثقافي في (مستقبل الثقافة في مصر) من الاحتفاء بالعنصر المصري، فمصر الجديدة لديه لم تكن لتقوم (إلا على مصر القديمة الخالدة)، وهو ما يطلق به إلى مرحلة أخرى من اتصال مكونات العقل المصري سواء بالشرق أو بالغرب أو بحوض البحر الأبيض مما

سنصل إليه فيما بعد.

(ب) والمصدر العربي الإسلامي، هو ثاني المصادر التي تمثل التكوين الفكري لطه حسين.

إذ نشأ في بيئة عرف فيها أخبار أبي زيد وخليفة دياب كما عرف أخبار عنترة والظاهر بيبرس، وأخبار الأنبياء والنساء والصالحين، وكتبا في الوعظ والسنن، فضلاً عن ((الأوراد والأدعية وأناشيد الصوفية)) كما حفظ في سن مبكرة جدا ((ألفية ابن مالك ومجموع المتون)) أو بعض أجزاء، وربما حفظ أيضا ((ألوانًا من أخبار الكرامات والمعجزات وأساور الصوفية))، والإلمام بشيء عن ((علم السحر والطلاسم))، وقد كان لميله إلى الأدب أثر واضح في شغفه بالقصص والحكايات وإقباله على دروس الأدب مثل كتاب (الكامل) للمبرد إلى غير ذلك من الكتابات الأدبية كما تؤكد لنا الأيام.

على أن القرآن الكريم كان أكثر ما أثر فيه، فما كاد يبلغ سن التاسعة حتى كان قد أتم حفظه، وهو ما يظهر واضحا في أسلوبه واستشهادات قصصه وفكره الاجتماعي.

وقد تعمق هذا الإحساس لديه أكثر حين أرسل إلى

الأزهر في عام ١٩٠٢ إذ التقى هناك بالعديد من المؤثرات التي عملت على إثراء تكوينه الفكري، فدرس النحو والفقه والمنطق على الشيخ محمد بخيت، وعرف ألوانًا من العلوم الأزهرية مثل المنطق والتوحيد وأصول الفقه فيما يعرف بكتب (سلم الثبوت) في أصول الفقه و(سلم العلوم) في المنطق، كما عرف المنطق في (إيساغوجي)، كما حضر شرح ابن عقيل للألفية وحصل على قدر غير قليل من البلاغة إلى غير ذلك من العلوم الإسلامية.

وعلى الرغم من أنه قضى في الأزهر زهاء أربع سنوات، فإنه قد مثلت هذه الفترة لديه أهم الفترات في تكوينه الفكري واللغوي خاصة، وقد كان عديد من مواقف طه حسين في السياسة، يمت بصلة ما إلى مواقفه في الأدب مما سنصل إليه، فهذه المواقف راجعة إلى تأثره بدروس الأدب على شيوخ الأزهر وخاصة الشيخ المرصفي، الذي يعد الأستاذ الثاني له في الأزهر بعد الإمام محمد عبده، كما يعتبره الأستاذ الثاني له خارج الأزهر بعد لطفي السيد، إذ أسهم الشيخ المرصفي في تحوله من الدراسة الدينية التقليدية إلى دراسة الأدب العربي القديم بمنهج جديد، وقد أسهم هذا

في تعرفه، بشكل واسع، على (ألف ليلة وليلة)، كما تعرف على ديوان (الحماسة) حيث كان يلتقي بدرس المرصفي مع بعض من كان يميل إلى هذا النهج.

وفي هذه الفترة تأثر بأحد كتاب العربية القدامى - الجاحظ- الذي كان يميل إلى ((الاستطراد الوضوح ويكثر من الترادف والتكرار وجمع النوادر المختلفة، وينزع إلى رسم المواقف وتحديد الشخصية من الخارج)) وهو ما اشترك فيه معه طه حسين خاصة في كتابته السياسية، فكثيرا ما كان يتداخل الأدب بالسياسة، فمقاله في الاتجاه السياسي يحفل بتكرار الكلمة وترادف الفكرة والاستطراد فيما يحتاج إلى عدم استطراد إلى غير ذلك من سمات صحاب الآفة.

على أن أكثر الأشياء تأثيرا فيه، كان -أولاً- موقفه من الشيخ محمد عبده وإعجابه به في أول الأمر.

ومما يدلل على هذا أنه ذكره في (الأيام) قرابة عشرين مرة، -وثانيا- الأثر الأزهري، الإسلامي، الذي ظهر واضحا في تكوينه.

إن موقفه من الإمام محمد عبده كان يرتبط بموقفه العام من البيئة العملية الضيقة وتبرمه بالتعليم الأزهري، أي

أن التمرد على نظام الأزهر كان الشيء الأساسي، وربما، الوحيد، الذي ربط طه حسين بفكر الإمام.

إن طه حسين لم يحضر للإمام دروسه التي أعلن فيها تمرده على التقاليد الأزهرية المتجمدة، اللهم إلا درسين تلقاهما طه حسين مع غيره في عام ١٩٠٢، ما لبث الشيخ محمد عبده بعدها أن استقال وترك الأزهر لموقف الخديو العنيف منه.

وعلى هذا يمكن التأكد من أن تأثر طه حسين به لم يجاوز هذه الروح المنفردة التي خلفها الإمام في كل من حوله ومن هنا لا يخالجنا أدنى شك في أن طه حسين عرف شيئًا من تعاليم الإمام وثورته على برامج الأزهر وتمرده عليها في ذلك الوقت هي التي شجعت طه حسين وأوحت إليه بالتشبث بالاستقلال الفكري، وهو ما يؤكده خلافه مع تلميذه رشيد رضا فيما بعد، الذي كان أشد محافظة من الإمام وأقل تسامحا منه.

أما الأثر الأزهري الإسلامي لديه فهو أبعد مما يعتد به إذ يبدو كما حاول أن يصوره في (الأيام) من مواقفه الحادة من شيوخه وهي كثيرة تزخر بها أجزاء (أيامه) الثلاثة، وهو

يبلور موقفًا ذاتيا من الفكر التقليدي حينئذ، إلى جانب أن طعم الثقافة الأزهرية يظهر نتيجة لحضوره ((الدرس من دروس الكلام، وهو -في الغالب- الدرس الذي يدور حول صفة الإرادة عند الله سبحانه وتعالى وتعلقها بأمره -عز وجل- والتلازم بين الأمر والإرادة على النحو المختلف فيه بين أهل السنة والمعتزلة)).

كما يبدو الأثر الإسلامي في استنكاره لموقف عديد من الشخصيات السلبية في أعماله الروائية والقصصية وهي كثيرة، وكذلك تمثل بيئته الجامعية فيما بعد.

وإذن، يمكن القول أن المصدر الإسلامي ترك فيه مؤثرات عديدة من بينها افتتانه بالاتجاه العقلي، وشغفه بالتمرد على الاتجاهات غير الفعالة في المجتمع.

على أن الفترة التي قضاها في الأزهر بين عامي (١٩٠٢- ١٩٠٨) كانت فترة تحول في حياته من الفكر العربي إلى الفكر الغربي، فهو يقول عنها:

((إن المدة التي قضيتها في الأزهر كانت فترة انتقال، فكان محمد عبده يفسر القرآن على طرق حديثة والشيخ المرصفي يعلمنا الأدب، وكلاهما يذم الطرق الأزهرية، وكان

قاسم أمين يقول بحرية المرأة وفتحي زغلول يترجم لنا كتبا قيمة، و(الجريدة) تنادي بمعايير جديدة في السياسة والاجتماع، فكنا في اضطراب ذهني لا نستقر، وشعرنا نحن تلاميذ الشيخ المرصفي أن طرق الأزهر عتيقة، كنا نتكلم ونتناقش عن الإصلاح الذي كان يقول به الشيخ محمد عبده وقد حضرت له محاضرتين.. وحدث أنه بينما كنا نقرأ (الكامل) للمبرد وردت هذه العبارة: ويا كفر الفقهاء به الحجاج قوله والناس يطوفون بقبر النبي ومنبره: (إنما يطوفون برمة وأعواد)، فقلت أنا: إنه لم يكفر وإن كان قد أساء الأدب، بلغ قولي هذا شيخ الجامع الأزهر، وسمعت أنه سيطردني فذهبت إلى (الجريدة) أريد كتابة مقال عن هذا الموضوع وهنا تقابلت مع الأستاذ لطفي السيد فرفض المقال، ولكنه عرض أن يتوسط لإرجاعي أنا وسائر من غضب عليهم إلى الأزهر.. وتبين بعد ذلك أن طردنا لم يتقرر، ولكن من ذلك الوقت شعرت أن الأزهر لم يعد يشبع ما في نفسي من الأغراض الأدبية فتركته والتحقت بالجامعة المصرية)) (الأيام ج٢ ص ١٧٥).

(ج) وقد كانت فترة التحول هذه هي التي عرفته على

الفكر الغربي، ففي بيئة (المطربشين) في المدينة قرأ الكثير من المثقفين الواعين بحضارة الغرب من أمثال فتحي زغلول الذي ترجم عن الفرنسية، كالسباعي الذي ترجم عن الإنجليزية وجورجي زيدان في الأدب والحضارة والكثير من العلمانيين من أمثال يعقوب صروف وشبيل الشميل وفرح أنطون فضلاً عن قراءاته لقاسم أمين.

كما كان له صلة مباشرة باثنين لعبا دورا كبيرا في حياته.

أحدهما، عبد العزيز جاويش الذي شجعه على الكتابة في صحف الحزب الوطني ثم شجعه للسفر إلى فرنسا للتعرف على ثقافتها وحضارتها.

وثانيهما، لطفي السيد وصحيفته (الجريدة) الذي شجعه في الكتابة في صحيفته، وقد كانت للصلة القوية بينهما أكبر الأثر في توجيه طه حسين إلى آراء فولتير ومونتسكيو، كما دفعه إلى تعلم الفرنسية مما أدخل به إلى البيئة الجامعية، ولعل الأستاذ ماسينون الفرنسي من أول هؤلاء الذين استمع إليهم، كما درس على لوي كليمان.

وإذا كانت ثقافته الفرنسية رافدا صغيرا حين كان

طالبا أزهريا -كما يقول الأب كمال قلته- ففي الجامعة بدأ هذا الرافد في النمو والاتساع حتى صار تيارا جارفًا أثناء الدراسة في فرنسا بين عامي ١٩١٤- ١٩١٨).

والفترة بين دراسته التقليدية ودراسته في فرنسا تداخلت فيها الثقافات أول الأمر، وما لبث أن تميز تأثير الثقافة الفرنسية أكثر، فما كان يصل إلى فرنسا حتى تعمق لديه المصدر الغربي: ففي الوقت الذي بدأ فيه دراسة العلوم الفرنسية كان يحضر في الكوليج دي فرانس دروس تفسير القرآن بالعربية على يد كازانوافا، كما أنه في الوقت الذي دافع فيه، في السوربون، عن ابن خلدون في رسالته الاجتماعية بمناهج مربية كان يعين تضمين شخصية تراثية مناهج حديثة، ثم ما لبث أن انحاز، نهائيا، إلى ثقافة الغرب، وهو ما ظهر فيما بعد في جملة الأفكار النظامية التي بلورها في (مستقبل الثقافة) وهو ما سنصل إليه في موضعه.

لقد صادق كثيرا من المفكرين المعاصرين من أمثال ماسينون وأندريه جيد وسارتر وربما كانت فرنسا وحبه الذي أسهم كثيرا في تعميق هذا المصدر، فهو (لم يقف عند حد الاستيعاب فقط من الأدب الفرنسي، بل وقف في كثير من

الأدباء الفرنسيين في مختلف عصور الأدب الفرنسي موقف الناقد المحلل لكثير من الإنتاج الفكري الفرنسي، كما حاول أن يؤرخ للأدب الفرنسي).

لقد عرف طه حسين منذ سافر إلى فرنسا وعاد منها عديدا من مصادر الثقافة التي أثرت في تكوينه منها الصحافة في فترة قوتها وضعفها هناك، إذ أتيح له ((أن يجد الصحافة في قوتها وضعفها معا نتيجة فرض الرقابة عليها)).

وامتدت حركة التأثر إلى المفكرين الفرنسيين من أمثال هيبولت تين الذي بدا تأثيره فيه من حيث تركيزه على الصلة الحتمية التي تنشأ بين العمل الأدبي والبيئة.

وسان بيف من حيث التعرف على سيكولوجية المبدع، وهي الصورة النفسية التي بدت في كثير من كتاباته الإبداعية.

وهناك ديكارت الذي كتب بمنهجه كتابه المعروف (في الشعر الجاهلي) والذي أثار ضجة كبيرة بين رجال الدين المحافظين بهدف سياسي.

وهناك (دور كاييم) الذي يقول عنه، أنه أحد أربعة أساتذة أوروبيين تأثرت بهم وقد بدأ هذا التأثر خاصة في

تبنيه للنزعة السوسيولوجية، وانحيازه لها، صحيح أنه درس على آخرين دروسا في التاريخ اليوناني وتاريخ الرومان والفلسفة واللاتيني وعلم الثورة البيزنطي والتاريخ الحديث والجغرافيا، غير أن دور كاييم ميزهم جميعا في التأثير فيه)).

(وفي موقفه من رجال الدين في عصره يمكن رصد رافد آخر من التأثير عرفه وهو يدرس في أوروبا)، وقد كان الغالب في هذا الوقت ((الذي يدرس في أوروبا، لا يجد غالبا إلا مؤلفات كانت ثمرة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومؤلفو هذين القرنين سادتهم روح علمانية، وهذه الروح تتمثل في أن عقولهم قد سيطر عليها الغضب على الكنيسة التي سامتها الهوان، وجعلت من نفسها سلطانًا يتحكم في تصرفاتهم ما بعد منها وما قرب من الناحية الدينية.. مما جعل مؤلفي هذين القرنين في (فرنسا)، بل في (أوروبا) عامة يسخطون كل السخط على الكنيسة، وذلك عندما أظلهم عصر النهضة وكان من حسنات هذا العصر على مفكري أوروبا التخلص من قيود الكنيسة)).

(وهو ما يظن أن عقل طه حسين المهيأ لهذه الأفكار

قد تشرب بها، وهو ما ظهر في عديد من أعماله التالية من أمثال (في الشعر الجاهلي) حين تصنع مجالاً ذكر فيه (القرآن والتوراة) متأثرا بما ساد الغرب من أفكار).

ويمكن لدارس الأدب المقارن أن يرصد علامات تأثر عامة بأدباء فرنسا كانت بين طه حسين وبين كل من بول فاليري، وفولتير، وأندريه جيد، وبودلير، وسارتر، وألبير كامي، وجول رومان، وموليير، وجيرودو، وقد تباينت هذه العلاقة بين المشاركة الوجدانية طورا والمقاومة الأدبية طورا آخر والتعريف في مستوى الترجمة الثالثة طورا ثالثًا مما كان له أثر كبير في سيطرة المصدر الفرنسي في فكره.

وهنا يلتقي طه حسين ود. محمد حسين هيكل بحكم ثقافتهما الفرنسية في معسكر يواجه معسكر آخر يضم الكثيرين من أمثال العقاد والمازني وهو الرأي الذي يذهب إلى انقسام إلى (لاتين وسكسونيين) وهو ما يلون كتابات كثيرين من أمثال تشارلز آدمز وجاك برك وغيرهم.

وجهد طه حسين سواء في كتاباته، وفي محاولته عام ١٩٣٥ وكان حينئذ عميدا لكلية الآداب في تجديد قسم الدراسات الفرنسية مما لا يحتاج معه إلى برهان لتأثير هذه

الثقافة فيه.

(وعلى أية حال، فليس هناك نظرية أو شخص بعينه يمكن أن نشير إليه ونقول أن هذا أو ذاك كان له الأثر في أدب طه حسين وإنما هي تيارات فكرية وحضارة غربية مدركة صبغت جميعها طه حسين بصبغة قوية، لأنه وجد انسجاما وقبولاً في طبعه وميوله وفنه.

وقد كان التيار الفرنسي يدين لتيار آخر أقوى منه يمتد إلى المنبع هو الثقافة الكلاسيكية، لقد بدأ طه حسين يدرس الثقافة اللاتينية في مارس عام ١٩١٦، درسها مع شارل بران الصحفي الشهير وأتم في عامين، كما يؤكد، دراسة اللاتينية لست سنوات كما كان المفروض أن يمضي فيها، ومحضر جلسة جامعة القاهرة يذكر لنا أنه في يناير ١٩٥١ سمح بالترخيص للشيخ طه حسين، بأخذ دروس خصوصية في اللغة اللاتينية، كما تشتري الجامعة له كتبا طلبها منه أستاذه كمراجع لبحثه ثم أعادها للجامعة عند عودته إلى مصر لأرشيف جامعة القاهرة.

لقد كانت حياة طه حسين في باريس مقسمة على هذا النحو:

((.. السربون وفيه كنت أحضر دروس القديم وتاريخ اليونان في جلوتز وتاريخ الرومان على بلوك والأدب الفرنسي على لانسون والفلسفة والاجتماع على دور كهايم وديكارت على ليفي برول واللاتيني على مارنا والثورة على أولار والبيزنطي على شارل والتاريخ الحديث على سينيوس والجغرافيا على دباجون وجالوا.

والمعهد الثاني هو الكوليج دي فرانس وكنت أحضر فيها درس القرآن الكريم على كازانوفا وعلم النفس على يد جانية، والمعهد الثالث مكتبة القديسة جنفيات وكانت تصحبني الآنسة.

البيت أعده المعهد الرابع، فقد كنا نجتمع في المساء الآنسة وأختها وأمها وأنا فتقرأ إحداهن رواية أو رواية تمثيلية أو قصة أدبية، فقرأنا تمثيل القرن الماضي وكثيرا من كتب أناتول فرانس وبورجيه وبريفو وكنا نقرؤها بانتظام بعد العشاء كل ليلة.

وفي عام ١٩١٧ استطاع الحصول على درجة الليسانس في الآداب وقد حصل في اللاتينية على ست عشرة درجة من عشرين)) (الأيام ج٢ ص ٢٥، ٥١).

وفي عام ١٩١٩ أعد طه حسين دبلوما في التاريخ الروماني، واضطر من أجل ذلك إلى قراءة كتاب القانون المدني الروماني من ثمانية أجزاء وكتاب القانون الجنائي الروماني في ثلاثة أجزاء وكلاهما من تأليف مومسن العالم الشهير في التاريخ الروماني، وكان عليه أن يأتي بالنصوص من أصلها اللاتيني ليكشف عن مدى علمه باللاتينية وقد حصل على درجة ممتاز في هذه الرسالة.

ومنذ عاد إلى مصر وعين أستاذًا للتاريخ الروماني حتى تاريخ وفاته لم يتوقف لحظة عن الدعوة لتدريس التاريخ اليوناني أو الذود عن فكرته لبناء نهضة فكرية من شروطها فهم التاريخ القديم الكلاسيكي.

ولم يتوقف في كتاباته قط من تأييد هذه الفكرة، فبعد أن نقل إلى العربية نماذج مختارة من الشعر التمثيلي، ثم قدم من الأدب التمثيلي في اليونان ألوانًا مختلفة من التراجيديا والدراما، كما كان أوضح ما قدم في هذا الاتجاه هو ترجمة كتاب (نظام الأثينيين) الذي اكتشف في مصر عام ١٩٨١ والذي كان قد وضعه أرسطو ونقل في حين اكتشافه إلى المتحف البريطاني في لندن وترجم إلى اللغات الأوروبية عدا

العربية التي قام مترجمه إليها طه حسين في تاريخ لا يخلو من دلالة في الناحية السياسية وهو عام ١٩٢١.

ولم يكن اختياره لأرسطو وترجمة كتابه (نظام الأثينيين) ثم ترجمة حياته في كتاب (قادة الفكرة) عام ١٩٢٥ ليخلو من دلالة أيضا، إذ استبدل طه حسين بالبعد الفلسفي العام الذي عرف به أرسطو والبعد السياسي كما أراد أن يقدمه هو، وهو الموقف الذي يمكن تفسير ترحيبه البالغ بظهور مسرحية توفيق الحكيم (براكا ومشكلة الحكم) لأنها، في رأيه، استوحى موضوعها من إحدى مسرحيات أرستوفان التي يسخر فيها من الديمقراطية والفلسفة معا.

وهو ما يؤكد أن احتفاء طه حسين بالثقافة الكلاسيكية في الغالب، إنما جاء من احتفائه بالمعاني السياسية فيها.. في وقت لا ينبغي فيه إغفال فلسفته الثقافية التي تجيء في المقام الثاني.

لقد تأثر طه حسين بالثقافة الكلاسيكية تأثيرا كبيرا إلى درجة أن رأى فيها بداية علمية تسهم في تطور النهضة العربية، كما فسر بها أن الحضارة العربية في مصر تلتقي مع الحضارة الغربية في أصول واحدة إلى الأصول

الكلاسيكية.

وهو ما يتنافى مع الفكرة القائلة أن الحضارة المعاصرة يمكن أن نجدها في الفكر الغربي وحسب في موضع انبهارنا بها ومن هنا، كان طه حسين يقتنع أنه في الوقت الذي ينجح فيه في تعميق روح الثقافة الكلاسيكية يكون قد أحدث ثورة في التعليم كما كان ينظر إليها في هذا الوقت.

وعلى أية حال، فإن الفترة التي بدأت من العشرينيات يمكن أن نعثر فيها على بدايات مشاركة طه حسين في السياسة.. فما كاد يعود من فرنسا ويعين في الجامعة المصرية في أكتوبر ١٩١٩ حتى شهد فترة جديدة من حياته.. لقد كان يكتب في التعليم والإصلاح في وقت لم يتوقف فيه عن النظر إلى الأحداث السياسية، وهو ما ظهر في كتابه خاصة، والأرجح أنه كان يكتب في السياسة بدون توقيع.

تؤكد قرينته أنه في بداية عام ١٩٢١، بدأت المشاركة في حياة مصر السياسية التي احتلت حيزا كبيرا في حياة طه حسين.

كما أن علاقاته الوثيقة بحزب الأحرار الدستوريين حتمت عليه أن يكتب في جريدته، ويتحدث باسمه.

كما شهد العام التالي عدة تطورات في هذا الاتجاه، من بينها، أنه مع بداية عام ١٩٢٢ (٧ يناير) شارك في عضوية الجامعة (أرشيف الجامعة)، وفي منتصفه شهدت محكمة مصر الابتدائية الشرعية في القاهرة محضر تغيير الاسم من (طاهر حسين علي إلى طه حسين علي).

كما طالب في نهاية هذا العام بمذكرة رسمية من مجلس إدارة الجامعة، بالكتابة في المسائل السياسية فسمح له.

وعلى هذا النحو، كان كل شيء يشير بتأهب طه حسين المشاركة في حياة مصر في أخصب فترة من فترات تطورها الفكري والسياسي.

الفصل الثاني

من سعد إلى صدقي

لا شك أن طه حسين بموقفه الحاد إزاء القادة السياسيين في عصره من أمثال سعد زغلول وإسماعيل صدقي ومصطفى النحاس.. وغيرهم يمكن أن يقدم لنا في التحليل الأخير، تفسيرا خاصا لتحوله الفكري في أخصب فترات مشاركته في الحياة السياسية.

ومثل أية مواجهة لها مقدمات، سوف نرصد البواعث الأولى التي أدت إليها، نحدد أقصى درجات تصاعدها لنرى، من هنا، أهم النتائج التي تؤدي إليها هذه المواجهة، ليس في العالم الخارجي وحسب، وإنما في الاتجاه الذاتي، اتجاه طه حسين وحسه السياسي.. على أن يكون منهج التناول هو تحليل الجزيئات كل على حدة قبل أن نصل إلى رؤية عامة للأحداث وبواعثها.

لنقف أولاً عند موقفه من سعد زغلول قبل أن نصل، ثانية، عبر تحولات شتى، إلى موقفه من إسماعيل صدقي.

لقد رأى طه حسين سعد زغلول في أول العشرينيات،

كما رأى إسماعيل صدقي في أول الثلاثينيات.. كلاهما في صورة (الطاغية)، وكلاهما يستأثر بالحكم عمن سواه، وكلاهما يرى في نفسه زعيما للأمة وقائدها وكادرها الوحيد، فما هي أهم البواعث التي أدت إلى هذه الرؤية وانتهت إليها؟!

كان يحمل طه حسين بالنسبة لسعد زغلول، ومن فترة مبكرة من حياته، كرها شديدا، فمن المعروف أن طه حسين في سنواته الأولى كان منتميا، فكريا، إلى الحزب الوطني، وكان وراء ذلك عبد العزيز جاويش الذي وصل بغضه لسعد زغلول أن كان الناس يتحدثون به، إذ هجاه في مقالاته الشهيرة، التي جعل عنوانها (ظلموك يا سعد) وهجاه هجاء منكرا في (بعض الشعر الذي ينشره لأنه كان أعنف من أن ينشر) كما أشار طه حسين في الأيام، ويبرز هذا أن طه حسين كان في هذه الفترة الأولى من حياته بعيدا عن الحركات السياسية، في الوقت الذي اتخذه فيه جاويش بمثابة الأب الروحي الذي شجعه على الكتابة، وبث فيه الفكرة الأولى للسفر إلى باريس ليتعلم هناك، فكان أولى به في هذه السن أن يتبع رأي أستاذه ويشغف به.

على أن هذا الموقف الخاص من سعد تعمق أكثر فيما بعد، حين اقترب الفتى منه أكثر، وكما كان موقف سعد دائم التقلب دائب التذبذب بالنسبة إليه، كذلك كانت طبيعة طه حسين دائمة الحيرة دائبة التغير مما ضاعف إحساس الفرقة فيما بينهما.

في البداية، كان طه حسين يحس بدين له لسعد حين قدم أحد أعضاء الجمعية التشريعية عام ١٩١٤ (أثناء حصوله على رسالة الدكتوراه في أبي العلاء) اقتراحا يطلب فيه أن تقطع الحكومة معونتها عن الجامعة لأنها (أخرجت ملحدا هو صاحب ذكرى أبي العلاء) وقد كان سعد رئيسا للجنة الاقتراحات بالجمعية، فلما عرض عليه هذا الاقتراح دعا المقترح وطلب إليه أن يعدل عن اقتراحه، واستطاع بالفعل أن يثنيه عن اقتراحه، وحين طلب لطفي السيد وكان بمثابة أستاذ له حينئذ أن يذهب ليشكر سعد أبى ولم يطاوعه.

وقد التقى طه حسين بسعد فيما بعد مرات قلائل تركت في نفسه أثرا سيئًا، ففي مرة حدثه في (فتور وضيق) وقد كانا يتحدثان في باريس عن القضية الوطنية، وفي مرة ثانية حين التقيا بعد عام، ((لم يلقه.. لقاء الهاش له المرحب به،

وإنما لقيه في شيء من الفتور، قال له وسمع منه، ولكنه لم يقل شيئًا ذا بال، ولم يسمع منه شيئًا ذا بال)) وذلك على حد قول طه حسين الذي فسر لنا هذا الموقف أنه حين وقف خطيبا في إحدى الحفلات زعم أن مصر مدينة لما فيها من اليقظة لثلاثة رجال، ولم يذكر أن سعدا من بين هؤلاء الثلاثة.

وقد كان اللقاء الأخير بينهما في دار الشاعر أحمد شوقي حين التقيا لقاء عابرا، فصافح بعضهما البعض دون أن يجاوز أحدهما هذا الموقف إلى سواه، وقد كان يمكن لطه حسين، إذ أراد، وبعد موقف سعد في الجمعية التشريعية وموقفه فيما بعد في مجلس النواب في أزمة (الشعر الجاهلي) وهو موقف حميد دون شك.. أن يذهب ليشكر سعدا كما أشير عليه، غير أنه أبى، كما أسلفنا، وأصر على الإباء، ولم يتردد حين ألح عليه أن يقول عن سعد زغلول بأنه ((أدى واجبه وكف سفيها أحمق من نوابه عن سفهه وحمقه)) في أكثر من مناسبة.

غير أنه يبدو من الواجب أن نتريث قليلاً عند موقف سعد زغلول بشكل خاص من أزمة الشعر الجاهلي قبل أن

نخاص إلى المؤثرات العامة؛ بقية المؤثرات التي أسهمت في استفحال القطيعة بين المثقف والزعيم، فبينما انحاز زغلول لطه حسين في الجمعية التشريعية قبل ذلك بسنوات، فقد انحاز ضده في هذه الأزمة في مجلس النواب، لا سيما وقد رأى المجلس ضرورة فصل مؤلف الكتاب من وظيفته وإحالته للنيابة العامة لتقديمه إلى المحاكمة في وقت رأت الحكومة فيه الاكتفاء بعدم توزيع الكتاب ومصادرة نسخه.

وقد كان سعد زغلول رئيسا للمجلس وعدلي رئيسا للحكومة، وقد وقف سعد في أول الأمر بتعنت أمام رئيس الحكومة بقصد إحراجه والنيل من مؤلف الكتاب، وقد دارت بينهما مناقشة حادة كادت تؤدي إلى طرح الثقة بالحكومة لولا تدخل البعض مقترحا تأجيل الجلسة حتى سوى الخلاف.

وعلى الرغم من أن التقارير البريطانية تفسر موقف سعد بأنه يعود إلى رغبته في أن يثبت لحكومة الأقلية الدستورية التي كان يرأسها عدلي، حينئذ، أنه قوي لدرجة أنه يتمكن معها من مواجهة الحكومة[1]، فإن طه حسين أسرها

([1]) Foreign office - Public Record, New
==

في نفسه، فأسهمت مع المؤثرات العامة في بلورة موقف طه حسين الخاص.

وقد أسرع بهذا الغضب وعداه مؤثرات عامة أخرى لعل من أهمها أن طه حسين كان ينتمي فكريا إلى حزب الأحرار الدستوريين في مواجهة حزب سعد -حزب الوفد- وقد أسهمت الظروف في توسيع الهوة بين الحزبين بمجرد أن أسفرت الانتخابات عن أغلبية وفدية وتشكيل وزارة برئاسة سعد زغلول في ٢٨ يناير ١٩٢٤.

ومصادر هذه الفترة تؤكد على انحراف وزارة سعد زغلول عن كثير من المبادئ التي نادت بها وهي خارج السلطة، إذ تورطت في ((اضطهاد الموظفين من خصومها السياسيين ومحاباة أنصارها فجعلت تفصل وتعين وترقى في أجهزة الدولة ما شاءت لها الحزبية.. بل إن سعدا اعترف بذلك في مذكراته متجاهلاً قوى المعارضة التي كان ينظر إليها على أنها طائفة هزيلة تكونت عمن تنكبوا حظيرة

2031 Hnob 1951/ مجموعة Gardens, Fo. 406 .1026 من تقرير هندرسون.

الوطنية)).

لقد اعترف زغلول في مذكراته، صراحة، أنه فكر في تشكيل وزارته في الانتقام من رجال الإدارة وهو ما أطلق عليه عبارة (تطهير الإدارة من الأدران) (كراسة ٤٧/ ٢٧٧).

ومن ناحية أخرى فقد أصدرت وزارة سعد ((كثيرا من الاستثناءات الصارخة التي كانت موضع محاسبة البرلمان من ناحية، ومثار هجوم الصحف المعارضة من ناحية ثانية)).

وبينما تلاحظ بعض المصادر أن وزارة سعد كانت تحتوي على عناصر غريبة، كما شجع الوفديون نظام الغنائم بالنسبة لمن يرعاهم الحزب، فإن المصادر الأخرى تعدد (المآخذ على وزارة سعد) فتذكر حقيقة خطيرة هي أنه لم ((تكن وزارة سعد واسعة الصدر بإزاء المعارضة البرلمانية، وكان يضيق صدرها أيضا بالصحف المعارضة، فتعقبتها، بالاضطهاد والتحقيق والمحاكمة، وأخات بينها وبين المظاهرات الصاخبة))، كما زادت التحقيقات مع الصحف المعارضة، ووجهت تهمة القذف في حق سعد زغلول،

والحض على كراهية النظام.

وفي تلك الفترة صادرت الحكومة بعض أعداد السياسة -جريدة الأحرار- يومي ١٠/ ١٢ يونيو ٢٤، وتقديم محرريها للمحاكمة من أمثال حافظ عفيفي وتوفيق دياب وحسين هيكل وطه حسين.

ومما سبق ذكره، فقد كان موقف طه حسين، بوجه خاص، من سعد يدفع به دفعا إلى مهاجمته، لقد انتهت صلته به، كما يقول في سيرته الذاتية، صلة ((يسيرة كل اليسر في ظاهرها، عسيرة أشد العسر في حقائقها ودخائلها))، وكان موقفه في حزب معارض يضطره إلى أن يهاجم ويغلو في الهجوم، إذ انتهى إلى أنه لا يجب أن يلتزم بموقف الحيدة فيما يدور حوله في ذلك الصراع بين الأقلية الديمقراطية والأغلبية الديماموجية، فشرع من ثم، يوجه سهامه على الزعيم، الطاغية، كما يظهر في ((أيامه)) فيما بعد.

وقد تبلور موقف طه حسين من كل ذلك في الصحف التي هاجم فيها سعد: السياسة، الاتحاد، الأهرام، الاستقلال.. إلى غير ذلك من الصحف التي كانت تتخذ موقف العداء من سعد ورجاله.

ويمكن رصد أول هجوم حاد في فترة مبكرة جدا، ففي ٢٥ يونيو عام ١٩٢١ يكتب في الأهرام مقالة بعنوان (الديمقراطية أم الطغيان)، موجزا فكرته في العنوان، في الفرق بين الديمقراطية والطغيان، بين عدلي وسعد، الأول يمثل العقل والاتزان والآخر يعرف الاستبداد والإسراف، إنه يقول بين أن يعدد طويلاً أوجه الخلاف بين القطبين:

((ثم وقع بينهما الانقسام، ووقع لمسألة شخصية لا يستطيع أحد مهما يبلغ من المهارة السياسية وقوة الحجة أن يجد بينها صيغة سياسية حقيقية، ولكن سعدا كان الزعيم فما كاد يعلن خلافه لخصومه، وانشقاقهم عليه حتى اجتمع عليه الجمهور فأيده ونصره، وعلى غيره منشقًا ووصف خصومه بالمروق، وليس ما يقع في مصر الآن من جدال ومناقشة، وليس ما وقع في مصر منذ أسابيع من اضطراب ومظاهرات إلا حربا بين مبدأين مختلفين: أحدهما مبدأ قيادة الجمهور إلى منفعته المحققة من طريق النظام والقانون أي من طريق الديمقراطية المعتدلة المنظمة، والآخر مبدأ الاستئثار بما للجمهور من قوة وسلطان، والاستبداد باسم هذا الجمهور وسلوك الطرق المعقولة وغير المعقولة إلى إكراه

الخصوم على الإذعان، أو كم أفواههم وعقد ألسنتهم)).

ولا يتورع في أن يواصل هجومه على سعد وهو بهذه القوة، ففي جريدة الاستقلال ٩، ١٠/ ١١/ ٢١ يكتب مقالين يحتويان على أعنف ما يمكن أن يوجه إلى زعيم أغلبية شعبية، في العنوان الذي اختاره ليومين متتاليين يمكن أن نجد هذه الجرأة، العنوان يقول (ويل للحرية من سعد)، يستطرد عبارات عنيفة نجدنا مضطرين إلى نقل بعضها:

((سعد باشا رجل حر، يعشق الحرية ويكلف بها، ويبذل فيها حياته وعقله وما أنعم الله به عليه من خير، ولكن ذلك لا يمنعه أن يكون عدو الحرية وقاتلها مرتين، لا نمزح ولا نتفكه ولا نختلق ولا نلقي بالقول جزافًا، إنما نقول حقا لا شك فيه)).

ويقول:

((كان سعد محاربا لأمته، فأصبح الآن محاربا للحرية من حيث هي حرية، وأصبح الآن محاربا لكل هذا النصر الحديث.

سعد وكيل الأمة في كل شيء، حتى في قراءة الصحف، أيتها الأمة المصرية، طيبي نفسا وقري عينًا،

اهدئي واطمئني فقد قيض الله رجلاً يريحك من كل شيء، لا تطالبي بالاستقلال فسعد يطالب به، لا تعشقي الحرية فسعد يعشقها، لا تؤمني بالله فسعد يؤمن به، ولا تقرئي الصحف فسعد يقرأها)).

وعلى هذه النغمة تتوالى مقالات طه حسين في جريدة السياسة لسنوات، كأعنف ما كتب في الأدب السياسي في العصر الحديث، أغلبها بدون توقيع، وبعضها بتوقيع ساخط غاضب يتحدى بعنف شديد في لهجة لاذعة إلى درجة أن يطلب سعد زغلول من النائب العام التحقيق من صاحب المقالات التي تنشر بدون توقيع -وهي في لهجتها وأسلوبها مقالات طه حسين- بتهمة (إهانة رئيس الوزراء).

وبالفعل يفتح محضر التحقيق في ٧ يونيو ١٩٢٤ وتوجه الأسئلة لطه حسين الذي يظل يردد، على مدى ساعة كاملة أمام المحقق عبارة لا يغيرها (لا أجيب).

وتواصل اللجنة بحثها في حياة طه حسين وكتاباته الأخرى لعلها توقعه في خطأ يحسب عليه، فلا تجد غير موافقة من الجامعة له يعود إلى حقبة بعيدة بعد أن طلب أن يكتب في الصحف ((انظر ملف طه حسين الخاص

بالمحفوظات)).

على أنه بتحليل مضمون مقالاته التي تحمل اسمه أو التي لا تحمل.. وحتى فترة استقالة سعد من رئاسة الوزارة في ١٣ نوفمبر ثم قبولها في نفس الشهر (١٩٢٤) بعد كارثة السردار، يمكن أن نعثر دائما على أسلوب طه حسين الساخر في الهجوم، بل امتد هذا الهجوم بعد رحيل سعد ووزارته إلى الوزارة التي أعقبته وزارة زيور -ولا نستطيع مقاومة إغراء نقل فقرة من مقالاته التي كانت تنشر حينئذ: يقول طه حسين في السياسة ٢٥ ديسمبر عام ١٩٢٤.

((وأقسم لقد بغى سعد وأصحابه على إخوانهم فأسرفوا في البغي، وأقسم لقد طغى سعد وأصحابه على إخوانهم، فأسرفوا في الطغيان)).

ويواصل قسمه وهو يدعو كل مصري أن ((ينهض لهذه الطائفة الباغية الطاغية فيردها إلى طورها وينزلها منزلتها ويأخذ بالإذعان لكلمة الحق والخضوع لأمر الجماعة والنزول عند إرادة الوطن)).

وهو بينما يذكر، في موضع آخر الجهاد ٢٥ يوليو ١٩٢٥، أصحاب سعد (بالأذناب)، فإنه يسخر من غروره

الذي هيأ له مكانة خاصة:

((إلى من أراد الاتحاد فليستظل بلوائي يجد ما يشاء من نعمة وثراء.. حتى كانت هذه الكارثة فأسلم سعد وولى مدبرا، وانزوى في طرف من أطراف الصحراء)).

وهو يتحين أية فرصة للنيل من سعد والوفديين، فهو في مقالة يرد فيها على من هاجمه، يقول وهو يشير إليه:

((لم لا يقاس بالأستاذ واحد من هؤلاء الأبطال وأنصاف الأبطال وأثلاث الأبطال وأرباعهم ففي البلد أبطال سيشل وفيه أبطال ألماظة وفيه أبطال المحاريق وفيه أبطال مصر النيل وفيه أبطال آخرين ملئوا الأرض ضجيجا وعجيجا وملئوا النفوس تهوينًا وتضليلاً.. وأفسدوا على الناس حياتهم وعقولهم وأعمالهم وآمالهم وشوهوا طريقتهم في فهم الأشياء والحكم عليها)).

وعلى هذا النوح، يتوالى هجوم طه على سعد والوفديين جميعا حتى نهاية العقد، حتى إذا ما أسلمته السياسة إلى الجامعة فأصبح عميدا لها، فإذا به أمام طاغية آخر، فتسلمه الجامعة إلى السياسة مرة أخرى، ويشغل طويلاً بالهجوم على صدقي الذي نقله من الجامعة إلى وزارة

المعارف، ليفصله فيما بعد، ويحاربه ويضطهده في كل مكان، فتمضي دورة تحديه للطاغية الجديد وينجلي عن تحول حاد في حياته، وإذا بنا في صبيحة أحد أيام مارس عام ١٩٣٣ أمام (عهد) عنوان مقالة في الصفحة الأولى، الجريدة الوفدية الأولى حينئذ، يشيد فيها بالوفد والوفديين جميعا.

وعلى هذا النحو، فإن تحديه لطاغية جديد في بداية الثلاثينيات، لا يسلمه إلى تيه الغضب وحسب، بل إلى أهم المراحل، ونقصد به التحول من الهجوم على الوفديين فيما قبل إلى الدفاع عن الوفديين، ومن هنا، الانحياز لمعسكر سعد، ولكن بعد رحيله بسنوات.

-٢-

على أن الفترة بين تاريخ الفصل من الوظيفة في مارس ٢٢ وحتى عودته إليها في ديسمبر ١٩٣٤، كانت هي أكثر الفترات صعوبة في حياة طه حسين، ففي تلك الفترة قبض فيها صدقي على زمام الحكم فعانى طه حسين الأمرين معا من هذا الطاغية ووزارته التي عصفت بكل القيم الدستورية.

فلنر أهم المؤثرات العامة والذاتية التي دفعت بطه

حسي، هذه المرة، إلى أن يستعيد المواجهة القديمة، قبل أن نصل إلى رد فعل المثقف ضد الطاغية أو رد فعل طه حسين الأعزل ضد إسماعيل صدقي المدجج بكل أسلحة أكبر مسئول في حكومة جاءت بناء على رغبة ملكية.

تتداخل الخطوط الحقيقية التي دفعت بطه حسين إلى مناهضة صدقي وتحديه بشكل سافر، إذ تتعدد المصادر وتتفاوت فيما بينها.

وتتعدد البواعث التي دفعت به إلى هذا الموقف على النحو التالي:

يرى البعض أنه طلب من طه حسين منح درجة الدكتوراه الفخرية من كلية الآداب، وقد كان عميدها المسئول، إلى بعض السياسيين، غير أن طه حسين يرفض أن يجيب (طلب الحكومة حفاظًا على كرامة العلم والدكتوراه) في السياسة حينئذ.

وتحدد الوثائق البريطانية السبب في أنه يعود إلى اعتراضه على خطاب وزير المعارف إلى الملك فؤاد عند زيارته للجامعة لتوزيع تلك الشهادات الجامعية على

أصحابها[1].

وقد يحدد السبب في اتهامه بأنه أغرى طلاب معهد التربية بالإضراب أو حثهم عليه بسبب تعديل الدراسة من سنتين إلى سنة.

وقد يحدد في رغبة قدمت إلى مجلس الجامعة بشأن خريجي كليتي العلوم والآداب، الذين لا عمل لهم أو أنه يجامل بعض الجنسيات في الجامعة دون بعضها الآخر، كما نعرف من السياسة ١٨/ ٣/ ١٩٣٢.

ويرجع البعض السبب في أن طه حسين وقد كان عميدا في الآداب، رفض التعاون مع وزارة صدقي منطلقًا من رفضه لهذه الرجعية الفكرية الواضحة التي كانت تتميز بها هذه الحكومة، إذ كانت قد أغلقت معهد التمثيل والرقص التوقيعي، وحاربت الاختلاط بين الشباب والفتيات في الجامعة حربا قاسية شعواء، وأثارت العديد من المعارك والحروب ضد حرية الفكر وضد التجديد الفكري بالذات.

Ibd. F.O. 407/ 214 from Sir Pecry Lordine (1) to Sir John Simon, March, 3.1932.

ويرصد بعض المصادر سببا آخر يعود إلى ديكتاتورية صدقي إذ هاجم طه الاعتداء على الدستور واستبداله بآخر، وكذلك لرغبة إسماعيل صدقي حينئذ مدفوعا من الملك فؤاد من الانتقام من طه حسين لموقفه المعادي للقصر.

على أن أكثر الأسباب ترجيحا في رأينا لنقل طه حسين ثم فصله يعود إلى رفض طه حسين لرغبة رئيس الحكومة في المشاركة في تحرير صحيفة حزبية (الشعب) الذي رأس أعضاءه وهو ما يجب أن نتوقف عنده أكثر حين نقرأ مرافعة محمد علي علوبة عنه في السياسة ٦/ ٦/ ١٩٣٤.

إن مرافعة محمد علي علوبة في القضية التي رفعها موكله -طه حسين- على الحكومة المصرية تؤيد هذا الرأي وتزكيه، إذ تبدأ محاولات استقطابه للكتابة في صحيفة الحكومة يوم اعتماده عميدا للآداب مباشرة، فيعرض عليه (أن تستقيل من الجامعة، وأن ترأس تحرير الشعب، وأنت حر في الأجر الذي تحبه).

وتتوالى محاولات صدقي التي لم تتوقف لحظة بواسطة عديد من الأطراف والوسطاء دون جدوى (إن

صدقي باشا يطلب أن تكتب مقالة افتتاحية وأن موضوع المقالة الافتتاحية لابد أن تكون بقلمك واسمك والموضوع يرى دولة صدقي باشا أن يكون أن وجود حزب الشعب ضروري لتحقيق المصالح المصرية.

ويرفض طه حسين، ويعود من يعرض عليه أن يكتب (بدون إمضاء) فيرفض ثانية، لأنه، على حد قول محاميه (لا يعرف المقالات المستترة).

ولما فشل صدقي باشا، لم يكن أمامه غير أن يقوم بإثارة أزمة الشعر الجاهلي بواسطة رجاله في مجلس النواب قبل أن يتخذ إجراءات أشد بأن يعمل على نقله إلى وزارة المعارف بقرار، ثم يلحقه بقرار آخر يقضي بفصله من وزارة المعارف أيضا.

وإذا كانت المؤثرات العامة فيما مضى دفعت بالمثقف إلى أن يأخذ موقف الصدام مع رئيس حزب الأغلبية -سعد- فإن المؤثرات العامة هذه المرة الأخيرة لم تكن كافية لتدفع به إلى أن يحدد موقفًا عدوانيا من رئيس حزب الحكومة -صدقي- فعلى الرغم من أن حزب الأحرار الدستوريين تحين الفرصة طويلاً لإعلان موقفه العدائي الصريح من وزارة

صدقي وما لبث أن سحب تأييده للوزارة وأصدر قراره في أكتوبر ١٩٣٠، أو حتى استقبال حزب صدقي الجديد (الشعب) بالدهشة وتشبيهه بحزب الاتحاد قبل ذلك إلى غيره من أوجه الخلاف بين الأحرار وصدقي.. على الرغم من هذا كله، فقد كان موقف طه حسين هنا لا يرتبط بحزب الأحرار.

ويمكن أن نلاحظ أن طه حسين كان يبتعد في هذا الوقت عن حزبه القديم في الوقت الذي كان فيه يغير قناعاته الفكرية بشكل عام.

وباختصار، إن هموم طه حسين كانت أقوى من المؤثرات العامة حوله والتي تلعب دورا غير مباشر في اتجاهه، إذ كانت المؤثرات السياسية تسير في نفس اتجاهه بغير تنسيق معه.. وقد مهد لهذا الاتجاه بواعث سابقة وأخرى كانت تدعو طه حسين إلى التنكب عن الطريق القديم، طريق الأحرار أو عدم السعي لتأييدهم على الأقل، فقد كان سخطه عنيفًا على وزارة محمد محمود (٢٨/ ٢٩) الذي لم يكن ليجد لها مزايا تسوغ قيام الحكم الديكتاتوري، ويستنكر أشد الاستنكار تعطيل الدستور الذي جاهدت الأمة

لإصداره مقررا أنها، هي، مصدر السلطة.. إلى جانب تغير الظروف في بداية الثلاثينيات عنها في بداية العشرينيات، فلم يكن ثروت وعدلي قد رحلا بعد، ولم يكن لطفي السيد، رغم شخصيته البارزة ليلعب دورا كبيرا في عصر صديقه إسماعيل صدقي، كما كانت ثمة أسباب مادية تحول بينه وبين الاستمرار في الحزب القديم إلى غير ذلك من الأسباب التي كانت تدفع به إلى الاتجاه إلى الأمام لا إلى الخلف وقد بدأ شراعه يتجه إلى رايات حزب الوفد وهو ما سنصل إليه فيما بعد.

على أية حال، لقد طفح الكيل هذه المرة، وأصبح طه حسين مهيئًا ليواجه، بمفرده، طاغية آخر، ربما أكثر طغيانًا من سعد وأبعد أثرا في الحياة الدستورية في هذا الوقت.. وإن كان ينبغي الإشارة إلى أن طه حسين في تحديه لسعد ارتدى ثوب المثقف بينما كان يمتهن السياسة وينحرف بها مما ينشأ اللبس بين المثقف والسياسي، فحين اختار طه حسين مواجهة سعد اختار أن يخلع رداء الجامعة ويرتدي رداء السياسة.

وبدأ طه حسين يهاجم غريمه في كل الصحف الوفدية التي كانت موجودة آنئذ بين عامي ٣١/ ٣٤ وقد كرس وقته

وجهده لهذا الهجوم، ولم يكن على صدقي أن يتريث كثيرا كسلفه -سعد- قبل أن يحاكم طه حسين، لقد بدأت المعركة حامية بينهما، لقد فصل طه حسين فهاجمه هذا الأخير حين أدلى بأحاديث عنيفة بالغة التعنيف في وزير المعارف الممثل لصدقي والمتصرف حسب رغبته، ونشر الهجوم على شكل حديثين في يومين متتاليين في جريدتي الجهاد والأهرام.

(Safrain, Egypt in search P.131)

ولم يكن ينشر الحديثين حتى فتح محضر التحقيق مع دكتور الجامعة المفصول، ويستدعي مرات كثيرة ليدلي بأقواله فيما نسب إليه، فيحضر مرة ويرفض مرات.

فماذا جاء في أحاديث طه حسين؟

وماذا دار في التحقيق؟

في حديثين متتالين في الجهاد (١٨- ١٩ مارس ١٩٣٢) رد الدكتور المفصول على كلام وزير المعارف بمجلس النواب متهما إياه بعديد من الاتهامات كتحريضه على الأحزاب، واتهامه بالاتصال ببعض الهيئات الأجنبية، فراح طه حسين، بغض وبدون حذر، يهاجم وزير المعارف ((الصدقي)) بعنف شديد، نؤثر أن ننقل بعض عباراته هنا، لنرى ذات اللهجة العنيفة التي دفعت إلى محاكمة صاحبها،

تقول:

((كنت أريد لوزير المعارف أن يسمو بنفسه عن المنزلة الخلقية التي تليق بمن كان قاضيا..

مع أن قواعد اللياقة الأولية كانت تقتضي أن يسألنا ولست أخفي عليك أني تلقيت تصريحات الوزير بقهقهة عالية، أنا لم أقبل ما عرضه الوزير..

((كنت أحب أن يرتفع السائل والمسئول عن هذه الصغائر.. وليس يسوءني أن يغضب حلمي باشا إذا رضي ليتمان أو سنوك وليصدقني حلمي باشا أن أعوانه ليسرفون في غشه وتضليله.. وأنت تستطيع أن تلتزم للوزير ما شئت من المعاذير عن هذا الكذب)).

إلى غير ذلك من الألفاظ العنيفة اللاذعة..

ويستدعى طه حسين للتحقيق فلم يزد على أن يقول عبارة واحدة لا يحضر بعدها إلى التحقيق رغم الإلحاح في حضوره، يقول من واقع ملف القضية الخاص به:

((لست أرى أن لوزارة المعارف أن تحقق معي في أي شيء وإنما الشرط لكل تحقيق أقبله راضيا هو أن أعود أستاذًا في الجامعة وأن يحقق معي على هذا النحو وبهذه

الصفة، وأمام الهيئات التي تملك سؤال الأساتذة والتحقيق معهم)).

ويذكرنا التحقيق بعبارة رددها قليلاً أثناء وزارة سعد، فقد أرسل إليه كثيرا للحضور لإكمال التحقيق، فلم يذهب، ولم يكن ليغير عبارته التي لم يغيرها قط (لن أجيب على شيء) وضرب بكل محاولات عودته لإدانته في التحقيق خارج الجامعة عرض الحائط.

وكانت آخر محاولة معه حين أرسلت إليه الأسئلة كتابة، فأجاب في رسالة خطية أرفقها مع الأسئلة وهو يعيد بها جميعا إلى لجنة التحقيق.

((أنا مستعد للمناقشة أمام الهيئة الجامعية المختصة لأني أعتقد كما أبلغتكم غير مرة مشافهة وكتابة أن تصرف الوزير معي كان خطأ)).

وهو ما يفهم منه رفض الأسئلة التي كانت ترسل إليه، وهي أسئلة كان يضعها وزير المعارف بنفسه للجنة التحقيق لعرضها على طه حسين ليجيب عنها.

ويلاحظ أن اللهجة التي تحدث بها طه حسين إلى وزير صدقي سواء على صفحات الصحف أو في محاضر

التحقيق كانت نفس اللهجة التي ظل يرددها قرابة ثلاث سنوات حين تصدى للهجوم على رئيس الوزراء مباشرة.

يتتالى هجوم طه حسين على صدقي، فيهاجمه حين ((ألغى دستورا وأقام دستورا، وأعرض عن كثرة ومال إلى قلة، وأهمل أمة واعتز بأجنبي)) ويهاجمه في شكل هجومه على وزرائه الذين رضوا أن يكونوا تابعين لرئيس مستبد.

وتتميز لهجة الهجوم بالسخرية الممضاة من رئيس الوزراء، أنه على سبيل المثال، حين يرسل صدقي إلى روما في إحدى سياحاته، وكان قد تنازل وهو ممثل مصر لإيطاليا على بعض المناطق المصرية، يكتب في الهجوم عليه مقالة طويلة تحت عنوان رحيل، جاء فيها:

((لن تجني مصر من رحلة رئيس الوزراء إلا خيرا. لئن فاتته مفاوضة الإنجليز. فسيفاوض الإيطاليين، أهدى إليهم جغبوب أمس لأنها لم تكن مصرية قط ويهدي إليه الإيطاليون إريتريا غدا لأنها لم تكن إيطالية قط))[1].

---

(1) انظر صحف: السياسة، الجهاد، كوكب الشرق في بداية الثلاثينيات.

وفي منتصف عام ١٩٣٢ كان يودع هيكل وهو يسافر إلى لبنان، فدعا في مقالة رئيس الوزراء، بأسلوب لاذع، أن يستقيل، فهو يقول (... إنما يستقيل رئيس الوزراء يوم يكره على الاستقالة إكراها)، ويضيف مفسرا أن (الوزراء إنما يطالبون بالاستقالة إذا كانوا قد نهضوا بالحكم وسيلة من وسائل الحياة العامة لا غاية تطلب لنفسها).

ولا يكاد يمضي عام ٢٣ حتى تزيد لهجة السخرية وتتضاعف في مواجهة رئيس الوزراء، إن أول كتاباته في كوكب الشرق تتحدث عن المناخ الذي تعيش فيه البلاد في ظل ديكتاتورية صدقي، يقول:

((الأيام التي قصت فيها الأجنحة، وشدت فيها الألسنة فلا تقول إلا بحساب، وعقلت فيها الأقلام فلا تجري بمقدار، وضيق فيها على الناس فهم مضطرون إلى أن يقولوا ويكتبوا، وإلى أن يقدروا فيطلبوا التنديد قبل أن ينشطوا لأمر من الأمور .. (و)..

كل شيء ضيق حولنا فقد استكشفت الوزارة منذ نهضت بالحكم أو منذ تقدمت أن تنهض بالحكم أن الدستور أوسع مما ينبغي فضيقته وبالغت في تضييقه.. لم تكد تعلن

إلينا هذا التضييق وتأخذنا بتصغير عقولنا وتصغير ألسنتنا والكبح في أحلامنا والحجر على آمالنا لتلائم حياتنا الدستور الجديد حتى استكشفت أن هذا الدستور الجديد هو نفسه يكفل لنا حريات أكثر مما ينبغي وإذا هي تضيق هذه الحريات بألوان التشريع مرة وبسلطانها الإداري مرة أخرى)).

والفترة الأخيرة من وزارة صدقي تتعهد وصول طه حسين إلى قمة الغضب، فهو لا يكف عن التطرق إلى كل ظاهرة في هذا العصر، وهو لا يكف عن مهاجمة كل مسئول في هذه الحكومة، التي تدين إلى الطاغية في كل شيء، إن تلك الحكومة سعت إلى ((تضييق التعليم ومراقبته والسيطرة المحرجة عليه في جميع فروعه وألوانه))، وهي ترتكب كل جريرة في حق الحرية، فهذا هو صحفي يسجن ويعذب طويلاً لأنه جرؤ على أن يقول كلمته (قضية توفيق دياب)، وها هو صدقي نفسه تحالف مع أعداء البلاد -الإنجليز- ليحكم ((بأمرهم في مصر وعلى أن يرعى مصالحهم، ولو عرض ذلك مصالح مصر للخطر والضياع، ومعنى ذلك أن بقاء صدقي باشا في الحكم خطر على حقوق مصر ومصالحها)).

كذلك يهاجم سياسة هذا الطاغية الذي وضع على الجامعة ((قيدا، عنيفًا، ثقيلاً))، ثم يوجه كلامه إلى بعض من يشاركه في الحديث فيما يجري في البلاد، ((ولكنه من صفة الأشياء أنها قد التوت في مصر، والمنهج الذي تجري عليه قد فسد واعوج))، وأن الأمور ستصبح كما هي ((حتى يولي الله أمور هذه الأمة قوما لا يتخذون الحكم وسيلة إلى التسلط والقهر)).

وحين يفكر رئيس حزب الأغلبية -النحاس- في زيارة للأقاليم ليتحدث إلى الناس، فإن عنت الحكومة يصل إلى درجة تضييق الحصار حول رئيس حزب الوفد، ومنعه من السفر، والضغط على أهل البلاد الذي يزمع السفر إليها كيلا يستقبلوه، في وقت لا يزال الإنجليز يسيرون دفة الحكم على هواهم.. حين حدث هذا تطالعنا نبرة طه حسين الغاضبة في عديد من المقالات التي كتبها في هذا الوقت، لعل آخرها تلك المقالة التي كتبت في مارس عام ٣٣ يردد فيها لهجته، فيقول في نهاية هجومه على الحكومة القائمة:

((.. الشيء الوحيد الذي لابد منه، لأي حل لابد أن ينظر فيه نظر جد وتفكير، هو أن يتنحى رئيس الوزراء عن

سياسة الدولة الآن)).

وتمضي الأيام، وتحتم الظروف السياسة على صدقي الاستقالة، فيتحدث طه حسين عن تلك الاستقالة التي طالما دعا إليها مشيرا إلى أن الملك سوف يقبلها، يقبل ((استقالة هذه الوزارة التي إذا آتت مصر بالهم والغم، ومن الحزن واليأس ألوانًا)).

تمضي وزارة صدقي وتخلفها وزارة تحمل اسم يحيى إبراهيم بالاسم، وتطوى أفكار صدقي ووزارته بالفعل، فيعاود طه حسين هجومه الساخر المرير عليها، وعلى صدقي الذي ما زال يحاول أن يلعب دورا برياسته أحد الأحزاب الملكية القائمة. وأول مقالة يكتبها بعد رحيل صدقي يؤكد أنه لا يزال قائما، انظر إليه وهو يكتب معلقًا على تصريح الرئيس الجديد، يقول:

((.. في هذا التصريح إنذار للمصريين بأن ليل صدقي باشا لم ينجل عن صبح مشرق، وإنما على ليل مظلم مثله، فمتى صرعته الآمال، ومن نفسه أن يكون حرا تحت هذه الشمس المشرقة فليكذب نفسه)).

-٣-

وثمة (ملاحظات يمكن الخروج بها من المواجهة بين طه حسين والطغيان في أية صورة من صوره، سواء في عصر سعد أو صدقي.. ويمكن ترتيبها على النحو التالي:

الملاحظة الأولى، أن أهم سمات طه حسين الخاصة، أثناء مواجهته للطغيان سواء في العشرينيات أو الثلاثينيات يمكن أن تبلور في العناد الحاد الذي يمكن أن نقول معه أنه يمثل قسما مشتركًا في فكره.

لقد كان تكوين سعد زغلول ومناوراته السياسية العنيفة تدفعان به إلى اتخاذ مواقف عنيفة من معاصريه ممن يتسمون بسمة المشاركة، إلى جانب اعتزازه الشديد بنفسه كزعيم لا يقبل المعارضة.

وهذا يفسر الكثير من المواقف التي اتخذها من طه حسين، ففي أزمة الشعر الجاهلي، على سبيل المثال، كان عليه في أول الأمر أن يستمع إلى ثورة الجماهير التي لا تنقطع، فلم يزد على أن يقول في إحدى المظاهرات، وهو يتهم صاحب هذه الأزمة بالجنون (فليشك من يشاء، ماذا علينا إذا لم تفهم البقر)).

وبقدر ما كان سعد أبيا صلبا كان طه حسين عنيدا صلبا، فبعد أن تم تسوية هذه الأزمة، وطلب البعض منه أن يذهب ليشكر سعد على أن جنبه تعقد الأزمة، طه أبى الذهاب إليه، وقال لمحدثه: ((ليشكر نفسه إن شاء)) وهو ما ردده في أكثر من مرة في كتاباته فيما بعد.

وقد يفهم اليوم أن موقف سعد أمام الجماهير كان لابد أن يكون كذلك، وهو زعيم الأغلبية، وقد يفهم أيضا، كما أكدت المصادر البريطانية، أن موقف سعد الحاد في مجلس النواب إنما يعود أساسا إلى ظروف السياسة أكثر من اتخاذ موقف العداء من صاحب (الشعر الجاهلي)، غير أن موقف سعد في وقتها إنما كان له الأثر البعيد بالنسبة لطه حسين الذي كان يحيا خلفية تدين سعد وتدفع به دفعا إلى أن يرى موقف الحيدة مما يدور حوله من عوامل سياسية وتطورات إنما هو (جبن ونفاق)، وهو ما يفسر موقفه الطبيعي من سعد في هذا الوقت العصيب بالنسبة إليه.

وقد تمثل هذا الموقف خاصة في رده على النائب العام بأنه لن يجيب عن أي سؤال يوجه إليه، كما تمثل في مقالاته العنيفة اللاذعة التي تدور كلها حول عناده من الزعيم كما

تبدو من عناوينها: (زعيم حزب لا زعيم أمة) و (ديمقراطية أم طغيان) و (بغاة) .. إلى غير هذه العناوين التي صب فيها جام غضبه وعناده.

وهو إذ توقف فترة عن تدوين اسمه تحت المقالات التي يدبجها ضد سعد، فإنه لم يلتزم بذلك الموقف طويلاً، وإنما عاد إليه خاصة بعد أن ترك سعد الوزارة مباشرة.

وهو الموقف الذي نجده فيما بعد في مواجهة صدقي، فمن يراجع قصة طلب رئيس الوزراء من طه حسين أن يشارك في جريدة (الشعب) يروعه أن صدقي أرسل إليه الكثير من الوسطاء دون استجابة، فيمن جاءه حسن حسني المحامي وكيل وزارة الشعب ووزير المواصلات ووزير المعارف ومدير الجامعة وغيرهم يثنونه عن صلابته للمشاركة في جريدة صدقي وهو صادر في رفضه حتى ينتهي به الأمل إلى مواجهة عسف الطاغية الذي لا يتورع عن فصله والتضييق عليه في مصادر رزقه، فإذا به يصب عليه جام غضبه بعنف وبعبارات لاذعة، وهو، ما تصوره عناوين مقالاته التي كتبها، والتي لا تجاوز كلمة واحدة في كل عنوان من أمثال (معارضة) و(خطأ) و (حصار) ،

(حملة خائبة) و (خطر) و (حمى) و (استحالة) و (خاتمة).

على أن في موقف طه حسين العنيد والعنيف هنا كان يتبلور موقف آخر تمثل في تحوله رويدا رويدا من الذات إلى العام، أي، في خروجه من حزب الأغلبية -الأحرار- إلى حزب الأغلبية الشعبية -الوفد- في وقت كان سعد فيه قد رحل، وكان مصطفى النحاس هو الفارس الجديد، المبعد، عن الحكم بعد مؤامرات الملك ضده.

وهذه الملاحظة الثانية تتمثل في أنه، أثناء هجومه العنيف على حزب الحكومة كان يحمل قدرا من الوعي مكنه من التحول إلى حزب الأغلبية، فما كاد يمضي قرابة عام على بدء المعركة بينه وبين صدقي حتى كانت صحيفة (كوكب الشرق) الوفدية، تفسح الصفحة الأولى فيها ليكتب طه حسين العديد من البرقيات والكتابات مهنئة إياه بعودته إلى الوفد مشاركًا فيه إذ أصبح كغيره وفديا (مع أن الوفدية كانت مصيره المحتوم)، ويكتب مصطفى النحاس بنفس العدد مهنئًا الكاتب الكبير، وتتتابع المؤشرات التي تؤكد انضمام طه حسين إلى الوفد والوفديين، ومن هذه الدلالات ما نطالعه في أحد صفحات الجريدة الوفدية من أن ((وزارة صاحب

الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا في داره)).

ومكث معه مدة طويلة ثم دعاه دولة الرئيس للرياضة في سيارته.

ومن هنا، ففي الوقت الذي نشهد فيه غضب طه حسين الشديد يتبلور في الهجوم على صدقي نلحظ اقتران هذا الغضب بشكل آخر في تأييد الوفد، لا سيما في الفترة التي كان يرحل فيها أقطاب حزب الوفد -النحاس ومكرم عبيد- إلى الصعيد في زيارات لتآلف الجماهير، وحيث كانت حكومة صدقي تضيق الخناق على الزعماء الوفديين، وفي هذه الفترة كتب طه حسين كثيرا من المقالات التي تؤكد على اتجاهه الجديد، أنه في مقال (راحة) على سبيل المثال يتحدث عن زيارة النحاس للصعيد وموقف الحكومة في هذه الزيارة ((لأن زعيمين من زعماء الشعب قد سعيا إليه يزورانه ويجددان العهد به: هما صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا ورئيس الوفد والأستاذ الكبير مكرم عبيد)).

((وتمتلئ صحف هذه الأيام بهذا الموقف المزدوج، الهجوم العنيف على رئيس الحكومة، والتأييد الكبير لرئيس

حزب الأغلبية خارج الحكومة.

هناك عديد من التفسيرات لهذا الموقف.

بعضها يرى أن طه حسين كان في موقفه منطلقًا من هذه الذكرى التي كانت تعود إلى طغيان حكم محمد محمود وسلطته الحديدية بين عام ٢٨/ ٢٩ وقد كان رئيس حزب الأحرار، إذ كان هذا يقترن في ذهنه بتلك الديكتاتورية التي كان يحكم بها صدقي، كما تذهب بعض التفسيرات إلى أنه كان من الفطنة بحيث أدرك أن وزن حزب (الشعب) الجديد لا يملك من النفوذ ما يمكنه به الاستعاضة عن حزب الأحرار الذي رحل عنه مفكروه وكوادره، وهذا، ليتفق مع التفسير الآخر، الذي يرى أن اتجاهه للوفد إنما كان يتحين الفرصة لينتقم من وزارة المعارف وديكتاتورها الذي تمكن من نقله وفصله، لاسيما وأن هذا يرتبط في ذهنه في تخلي حزب الأحرار في أزمة (الشعر الجاهلي) بعد فترة وجيزة من تأييده.

ومهما يكن من أسباب التحول، فإن التحول شابه الوعي في أعنف فترة من فترات حياته وأصعبها على الإطلاق.

وإذ تبدى عناده الشديد في مواجهة الطغيان سواء في صدقي أو سعد، وتبينه الاتجاه الصحيح في تيارات الفكر السياسي حينئذ فاختار الانحياز إلى الوفد فقد انعكس هذا كله في كتاباته الذاتية وهي الملحوظة الثالثة التي تبقى الإشارة إليها.

فمن الملاحظ أن الفترة التي تعرض فيها طه حسين لعنف سعد وصدقي وتحديه لهما على ما يمثلانه في عصر ما من قوة سياسية هادرة، هي الفترة التي كتب في كل منها أو في أعقابها كتاباته التي يغلب عليها الطابع الذاتي من أمثال: (الأيام- أديب) وهما كتابان يعدان من أدب السيرة الذاتية حيث تختلط خيوط الذات والخاص في الرمز الفني ودلالاته السياسية).

ففي (الأيام)، نجد إرهاصات الفترة الأولى، فترة معاناته الشديدة أثناء نشر كتاب (في الشعر الجاهلي) حيث ضيق عليه الخناق من كل صوب، فلم يكن أمامه غير أن يرسل بخطاب (توبة) إلى الصحف عن طريق مدير الجامعة (انظر الوثائق)، ثم ينصحه ثروت باشا بالرحيل إلى الخارج فيرحل، بالفعل، إلى فرنسا، ويكتب هناك في قرية صغيرة

(السافو العليا)، خلال تسعة أيام، كتابه: الأيام كما تشهد زوجته.

وعلى هذا النحو، دون مناداته الذاتية في (الأيام) في ظروف بالغة الصعوبة فجاءت بمثابة ((تعبير عن موقف نفسي خاص استتبع بالضرورة تداعي صور الطفولة وبواكير الصبا، فانتزعها من أعماق الذاكرة، وصورها بما يناسب الموقف النفسي))، وقد جاء هذا الكتاب، وكما يقر طه حسين بالفعل استجابة لهموم الثقافي التي كان يحس بها وقتذاك إبان الاضطهاد الذي وقع عليه أو الحصار الذي فرض عليه.

والواقع أن (الأيام) لم تكن رد فعل لجمود البيئة وهجوم رجال الدين وحسب، وإنما كان في المقام الأول رد فعل لتعنت الطغيان السياسي ضده، فما كاد يخلص من ربقة الطغيان في مصر، حتى وجد نفسه خارجها مضطرا إلى أن يعبر عن نفسه في هذه اللحظة النفسية، وهي لحظة لا يخطئ من يحسبها أنها إحساس من يحدث نفسه ((وقد خلا بها يناجيها ويسترجع ما فيها)).

وقد تبلور هذا الموقف الذاتي في الأيام من ضمير الغائب في نهاية العشرينيات إلى ضمير المتكلم في بداية

الثلاثينيات حين كتب (أديب) التي راح فيها يعكس الدلالة الذاتية في فترة مواجهة طغيان صدقي.

ولا يعنينا هنا التوقف عند شخصية (الفتى) في الأيام أو (صاحبنا) في أديب إلا بالقدر الذي يعيننا على تصور حجم الطغيان في دخيلة طه حسين، ولكن الذي يهمنا، هنا، أن ثمة تشابها مريعا بين ضمير (الأيام) و (أديب) فكلاهما عاش لحظة نفسية صعبة في مواجهة عاتية، وكلاهما عاش لحظة نفسية صعبة في مواجهة قوى عاتية، كلاهما يصدر من موقف المثقف في مواجهة السلطة أيا كان موقعها، سواء تمثلت في عنت القوى السياسية ضده وهو ما حدث في أزمة (الشعر الجاهلي) وتبلور في (الأيام)، أو كما حدث في فترة التحدي والتيه في بداية الثلاثينيات حتى كتابه (أديب) الذي يمكن أن يكون ((تصويرا لموقف السلطة من المفكر الحر حين لم تجد أمامها غير إحالته إلى (المعاش) ولأنها تصورت أن الفكر جهازا ماديا مرتبطًا بظروف تقيده بالعمل، نسيت أن إبعاده عن منبر الجامعة أتاح له أن يشع نوره عن طريق الصحافة)) (د. عبد الحميد يونس في كتاب طه حسين، الهلال، ص ٦٥).

لقد تمثل أديب -كما يذهب البعض- صورة حية لتوضيح موقفه من السلطة، الطاغية، التي أبعدته عن الجامعة، وحسب أنها قضت عليه.

وعلى هذا النحو، يمكن تفسير كثير من أعمال طه حسين الأدبية التي يتداخل فيها الرمز بالسياسة فبالدلالة الذاتية، وهو ما اعترف به في كتاباته، ولم ينكره قط.

الفصل الثالث

من القديم إلى الجديد

احتلت قضية النقد عند طه حسين مساحة شاسعة في مفهومه الحضاري العام بين القديم والجديد، ولأن هذا المفهوم رحب، فإن رصد النقد عنده دفع بنا، دون أن ندري، إلى اختراق هذا العالم، بما يمكن الخروج منه بأن طه حسين عرف (صيغة) خاصة تمثلت في الجانب النقدي منه بالقدر الذي تمثلت فيه بالجوانب الثقافية والفكرية والعقائدية والاجتماعية سواء بسواء.

وعلى هذا النحو، نعتذر منذ البداية ونحن عن ضالتنا، عما يسوقه البحث من مساحات فكرية شاسعة، نظن أن البحث يخطئ كثيرا لو تجاهلها، وهو ما يدفعنا منذ البداية إلى تحديد مفهومي القديم والجديد، ليس كمفهوم، وإنما كتطور، أفاد منه طه حسين كثيرا قبل أن يشهد مراحل الصراع بين قديم وجديد داخله، وينصهر في لهيب هذا الصراع، ليخرج في الولادة الثانية وقد حدد مفاهيمه.

لقد انتهى الصراع الفكري داخل طه حسين وخارجه

إلى موقف وسط بين القديم والجديد، وهذا ليس من قبيل إيراد النتائج قبل المقدمات، لكنه من قبيل تأكيد (حالة) سنحاول البرهنة عليها هنا.

إذا أردنا تحديدا تاريخًا معينًا لما يعرف بالصراع بين القديم والجديد، فستكون هذه الفترة هي التي يبدأ فيها التحول من العصور الوسطى إلى العصر الحديث (نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر)، وتمثل هذه الفترة الجدل الواسع الذي حدث في أكثر من دولة أوروبية وأطلق عليه هناك مصطلح La Querelle des encions de modernes.

ففي إنجلترا تمثل هذا الصراع على سبيل المثال في كتاب فكاهي كتبه سويفت بعنوان (معركة الكتب) يصور في جانب منه ذلك الصراع الذي هو دائر بين جماعتين، فإن جانبا قرر أن اليونانيين والرومان بلغوا في الثقافة، في عمومها وتفصيلاتها، شأوا عظيما لا سبيل إلى التفوق عليه، فقد كانوا عمالقة رسموا حدود ميادين الثقافة الإنسانية وضربوا لنا الأمثال التي لا نملك أمامها إلا أن نحاكيها عن بعد، وبدت الثقافة الكلاسيكية في نظر هؤلاء فردوسا إنسانيا، والزعم بأن بالإمكان ظهور مثلها ثانية على الأرض هو عين

الفسق والكفر المبين، بينما قرر جانب آخر، أن إنجازات الإغريق والرومان عظيمة جدا في الحقيقة، إلا أنها، ليست سوى أرقام على الأوروبيين المحدثين أن يحطموها، وأن الثقافة الجديدة بوسعها أن تكون ندا لها أو أفضل منها في المجالات إلى غير هذا من أقوال المحدثين حينئذ.

وإذا انتقلنا من إنجلترا إلى فرنسا، لرأينا ذات الصراع متمثلاً في كتاب أساسي هام، ألفه مونتسكيو بعنوان (الرسائل الفارسية)، وأشار فيه كيف أن الباريسيين تنازعوا في إحدى القهوات حول القديم في هيئة شاعر يوناني، فبينما يؤكد البعض أن هذا الشاعر هو شاعر عظيم، فإن البعض الآخر يؤكد العكس، ويصفه بالخسة والدناءة، وقد عبرت هذه المعركة عن الصراع بين القديم والجديد في القرن الثامن عشر بشكل قاطع.

والواقع أن هذا الصراع بين القديم والجديد كان يعكس في الوقت نفسه خصومة تنتهي بانتصار الجديد، فإذا تحلل قيود السلطة التقليدية نحو الدين، وإذا تقديس القدماء تحول إلى أثر بعيد العهد به، كما أصبح العقل البطل غير المتوج لكل الأبطال، واهتم الفكر الفرنسي، خاصة، بعديد من

القضايا الاجتماعية، بعد أن ظلت القضايا الفردية تتربع على عقل الإنسان الغربي زمنًا طويلاً، وقد نتج عن هذا الخلل عديد من القيود الأخرى، من أهمها، إعلان الثورة الخفية على رجال الدين ونفوذ الكنيسة والثراء الفاحش لرجالها، كما خرجت الكتابات من القضايا التقليدية إلى قضايا الجوع والفقر والضرائب والطبقية الصارخة، وانتهى الأمر بالتغيير في كل المجالات بدءا من انهيار الملكية حتى قضية اللغة اليومية للأفراد.

لقد انتصر الجديد وبدأ يعمق العديد من الرؤى التي بشر بها.

-٢-

وإذا كانت أهم إنجازات الصراع بين القديم والجديد في أوروبا في القرن الثامن عشر خاصة هو انتصار لحركة العقلانية، ومن هنا، تكون التيار الليبرالي وتطور، إذ كان هذا القرن بالنسبة للعرب ملائما كما يلاحظ عبد الله العروي في كتابه (الأيديولوجية العربية المعاصرة) فما كاد العرب يدخلون عالم العصر الحديث حتى أكدت خارطة التطور على التهاب طرفي الصراع بين القديم والجديد، ومن هنا، كان

لابد أن يتخلق الجديد من رحم القديم على صوب الألم الذي يلازم عملية الولادة ويؤدي إليها على غرار الصراع في الغرب.

وباختصار، يمكن تحديد خطين رئيسيين للصراع قبل الحرب العالمية الأولى:

دعا أحدهما للأخذ بأساليب الحضارة العربية.

وبينما دعا ثانيهما، بالأخذ بالتقاليد الإسلامية التراثية.

وبينما، برز خط ثالث حاول الجمع بين القديم والجديد وخاصة في الأسلوب.

وقد انتهت هذه التيارات المتصارعة إلى فشل تيار التوفيق الذي مثله محمد عبده لإيجاد صيغة توفيقية بين التيارين الآخرين: القديم والجديد[1].

حتى إذا ما انتهت الحرب العالمية الأولى عاد الصراع بين القديم والجديد على أشده، فقد بلغت المعركة بين الفريقين إلى ذروتها، فاتخذ كل منهما أقسى الألفاظ وأعنف الأساليب في مهاجمة الآخر، وكان من الطبيعي أن يهبط الصراع بين

Ibid, Safrain, H.Cambridge, 1061, p. 70. ([1])

المثقفين إلى الناس العاديين ليشاركوا، من هنا، في معركة القديم والجديد.

ويلاحظ المدقق في عقد العشرينيات زيادة حدة الصراع بين الطرفين، بين التيار القادم من أعماق التاريخ الإسلامي، والتيار القادم من تخوم الغرب المعاصر، وقد كانت الفترة التي تحدد بالنصف الثاني من عقد الثلاثينيات هي الفترة التي شهدت أوج الصراع بين التيارين في وقت كان تيار الجديد قد وصل إلى أقصاه أمام تيار القديم الذي كان يعاني من تضييق الجديد عليه ورفضه له.

وبعيدا عن مظاهر هذا الصراع الذي مثل فيه القديم التيار المهاجم لصاحب (الإسلام وأصول الحكم) أو لصاحب (في الأدب الجاهلي)، فإن الوثائق الشعبية، خاصة، يمكن أن تشي بطبيعة هذا الصراع وتصوره لنا.

إن ملف الملك (بدار الوثائق بالقلعة)، على سبيل المثال، يمكن أن يضع أيدينا على النبض العام، سواء رسالات المواطنين بشكل فردي أو بشكل جماعي، يكتب البعض للملك فيهيب به أن يهيب بالملك لكبح جماح (الستات) لأنهن على حد قوله (تلفوا)، ويرسل آخر آسفًا أن يتحول

قصر سعيد باشا بالقباري إلى ((مستشفى للعاهرات))، كما يحمل هذا الملف رسالة خطية يؤكد فيها صاحبها أن ترك الناس لتعاليم الدين يسبب وقوع الويلات، بينما يرسل أعضاء البرلمان بشكوى عاجلة إلى الملك يطلبون فيها ((إلغاء البغاء الرسمي)) الذي كان معترفًا به حينئذ، وفي وثائق الملك الخاصة نعثر على شكوى جماعية بدون توقيع توجه إلى عدد كبير من المسئولين سواء في الجانب الديني مثل شيخ الجامع الأزهر ووكيله وغيرهما، أو في الجانب السياسي كإبراهيم (باشا) عبد الهادي تحملهم هذه الرسالة مسئولية الدين ((الذي أصبح على جرف هار)).

وتزداد حدة الصراع في الثلاثينيات إلى درجة تجعل مؤرخًا كبيرا مثل Smith Ch. يعتقد بارتفاع تيار القديم إلى أقصاه، إذ يؤكد أنه في هذه المرحلة، ((رفضت الأفكار السابقة ليحل محلها نظريات إسلامية تمثلت في كتابي (على هامش السيرة) و(حياة محمد) بين عامي (٣٣/ ٣٥) كما أنها تجعل آخر يعتقد أن محاولات طه حسين بكتابته في الإسلاميات إنما كان بقصد ((إحياء أمجاد الماضي))، وهو ما يتنافى مع موقف طه حسين العقلاني الذي أكدت المراجعة

الفكرية لهذه الفترة لم يتراجع عنه قط.

ومعنى هذا، أن القرن الثامن عشر قد عاد إلى الانبعاث من جديد في الشرق، فيهاجم طه حسين (جمود الشيوخ) وإن لم يهاجم المؤسسات الدينية صراحة، كما تحدث قاسم أمين عن تحرر المرأة، كما أن حافظ إبراهيم عبر عن سفور المرأة في ثورة ١٩١٩، كما أثنى أحمد شوقي على فكر قاسم أمين وشجعه.. وعلى الجانب الآخر، كان الأزهر وممثلوه يعملون على إسقاط علي عبد الرازق من عالمية الأزهر وهو يؤدي إلى سقوط عبد العزيز فهمي رئيس حزب الأحرار الدستوريين الليبرالي، ويبدو هذا في مهاجمة الأزهر لصاحب كتاب (في الشعر الجاهلي)، أيضا يهاجم شكيب أرسلان خليل السكاكيني، ويظهر في هذه المعركة طه حسين كثيرا من العنف في معركته من أجل تطور اللغة كما سنصل في معركة القديم والجديد في موضعه، ويكتب مصطفى صادق الرافعي مقالاً لاذعا يعرض فيه بطه حسين وبصاحبة له من تلميذاته الجامعيات، شاركته في الدفاع عن اختلاط الجنسين، وظل يسوق الحديث في صورة قصة يروي فيها رؤيا رآها في منامه متخذًا لها عنوان (شيطان وشيطانة)

(وحي القلم ١٩٧/ ١٨٩١٣).

وعلى هذا النحو، يدور الصراع بين القديم والجديد على جميع المستويات، وتمثل كثيرا من الرموز؛ منها قضية المرأة، وقضية القبعة، والأزهر والأدب وخصوصا اللغة، وإذا كانت أغلب هذه القضايا تدور في محور الفكر، فسوف نكتفي منها هنا بالصراع النقدي بين القديم والجديد، بين الفكر السلفي الذي يؤثر الوراء بقضه وقضيضه، والفكر المتنور الذي ينظر للوراء ليتخذ منه ما يلائم العصر وإلى الحاضر ليأخذ منه ما يتمشى مع العصر، منطلقًا من إيمان مؤداه أن العيش في العالم المعاصر يقتضي الوعي به والتطور معه، وقد مثل هذا التيار الأخير طه حسين.

-٣-

لرصد خطوط القديم والجديد والفكر النقدي عند طه حسين لابد من التوقف عند المؤثرات الأولى من هذا الفكر، فلا يمكن أن نتعرف على خطوط الصراع بين النقيضين وما انتهى إليه دون أن نسأل عن بواعثه الأولى.

والمؤثرات الأولى عند طه حسين تمضي في الاتجاه الأفقي في تيارين:

- تيار إسلامي.
- تيار ليبرالي.

في التيار الأول يمكن تمييز عالم طه حسين ممثلاً في المؤثرات الإسلامية التي سيطرت على جزء كبير من كيانه.. فكتاباته النقدية الأولى في صحف مثل (العلم) و(الهداية) تؤكد على الخط القديم في الخط النقدي، ومحاولاته النقدية التي تناول فيها شعر حافظ ويمكن التأكد من أدواته النقدية ((قدم النقد الأدبي في الأدب العربي؛ إذ إنه رجع في نقده إلى الوراء يمتاح من كتب النقد القديمة ما راق عقليته التصنيفية الشارحة، لكي ينقض على مقتضاه شعر حافظ إبراهيم))، كما أن محاولاته التي تناول فيها نثر المنفلوطي تؤكد على غلبة الاتجاه القديم أيضا متمثلاً في الاتجاه اللغوي في نقده ((ذلك الاتجاه الذي يعنى ببيان الخطأ في استخدامه الألفاظ فحسب)).

وهذا الاتجاه اللغوي يظهر أكثر وضوحا بدءا من عام ١٩١٥، وهو العام الذي قدم فيه أطروحته الجامعية الأولى (تجديد ذكرى أبي العلاء) إلى الجامعة المصرية، إذ إنه فضلاً عن أن مادة البحث كانت استقصاء من المصادر

العربية القديمة، فإن صياغتها جمعت بين التأثر القديم والتأثر الجديد الذي يمضي في اتجاه القديم، وقد كان أبرز من أثر فيه قبل الشيخ سيد بن علي المرصفي أبا عمرو بن العلاء والفقهاء الآخرين للغة المتعصبين لكل ما هو قديم المؤثرين القرن الأول من أيام الدولة العباسية، ومن هنا كان تأثير المرصفي في طه حسين ماضيا في الاتجاه الكلاسي عامة واللغوي خاصة، ويمكن تمييز لغة طه حسين النقدية تلك في كتاباته التي ظهرت في نفس العام -١٩١٥- في صحيفة (السفور).

إن لهجة الإيثار التي يبدأ بها كتابه (تجديد ذكرى أبي العلاء) تؤكد عظم هذا التأثير، فأول سطور المقدمة تقول:

(أستاذنا الجليل سيد بن علي المرصفي أصح من عرفت بمصر فقها في اللغة، وأسلمهم ذوقًا في النقد، وأصدقهم رأيا في الأدب، وأكثرهم رواية للشعر ولا سيما شعر الجاهلية وصدر الإسلام.

كان يدرس الأدب في الأزهر الشريف، وبدأت أختلف إليه ولما أعد السادسة عشرة، فلزمته أربع سنين ما أذكر أني انقطعت عن درسه، أو تخلفت عن مجلسه، ولم يقف الأمر

بيني وبينه على ما يكونه بين الأستاذ والتلميذ من الصلة، بل نشأ بيننا نوع من المحبة يشوبها في نفسي الإجلال والإكبار).

ولا يلبث يتحدث عن تأثير هذه العلاقة حين يقول:

(حب الأستاذ ودرسه قد أثرا في نفسي تأثيرا شديدا، فصاغاها على مثاله، وكونا لها في الأدب والنقد ذوقًا على مثال ذوقه).

والقديم في أهم كتبه التالية (حديث الأربعاء) يحتل مكانة ملحوظة، فالقديم عنده هو ((أساس من أسس الثقافة))، ويحدد هذه الثقافة بأنها (القديمة) وإن تلمس هنا منهج الجديد في تأكيد القديم وتقديمه لصاحبه.. أما كتابه الآخر (في الشعر الجاهلي) فعلى الرغم من استخدامه لمنهج غربي في عرض فكرته، فإنه يلحظ هذا التقدم الذي أحرزه باستخدام منهج جديد في معالجة المادة القديمة ومحاولة إبرازها لأول مرة بهذا الشكل، إذ كان حرصه على الاهتمام بتاريخ الأدب العربي القديم واضحا في هذا المذهب الجديد.

كما يلاحظ أن الجزء الثاني من الأيام خاصة يزخر بهذا القلق الذي أحسه بين القديم والجديد، بما يعني أنه وإن

اقتفى أثر العقد اللفظي عند المرصفي، فلأنما كان يمثل هذا الشيخ امتدادا لتيار محمد عبده التجديدي وليس القديم بشكله التقليدي فقط، ومن هنا، فإن القديم عنده هو هذا الأدب الذي يدرسه الشيخ المرصفي الذي لا يعرف طه حسين، كما يقول شيئًا يدفع النفوس إلى هذه الحرية الآن ((كالأدب الذي يدرسه على نحو ما كان الشيخ المرصفي يدرسه لتلاميذه))، ولم يتحول طه حسين عن المرصفي -الذي مثل القديم- إلا بعد أن تحول عن خط الأستاذ الإمام خوفًا من القصر أو خشية من الأزهر.

وقد كان التراث العربي من الوضوح في فكر طه حسين خاصة في فترة مبكرة بحيث لا يمكن التقليل منه أو الزعم بتلاشيه في فترة بالية دخل فيها إلى الجديد من أبواب الجامعة المصرية، وعرف فيها فنونًا من ((العقد لم يكن لي بها عهد على حد قوله، ومراجعة كتبه تمنحنا قناعة ثقافة طه حسين الواسعة بالتراث العربي وهو ما يبدو خاصة كما يشير منهجه النقدي للشعر من معرفته بالنقد العربي القديم وقراءته لهم من أمثال الآمدي وابن طباطبا العلوي وابن وهب الكاتب والقاضي الجرجاني، كما عرف في النثر قدامة بن جعفر

والجاحظ، كما لم تكن دراساته لأبي العلاء وابن خلدون عبثًا قط، وهذه المؤثرات الأولى يمكن أن نلحظها بوضوح في (حديث الأربعاء) بأجزائه الثلاثة التي كتبت بين عامي ٢٥/ ٤٥)، وقبل هذا كله كان القرآن الكريم من المواد الأساسية في تكوينه الفكري، على أن الفترة التي قضاها في أوروبا بين عامي ١٤/ ١٩١٩ كانت كافية لإحداث تغيير في مفهومه النقدي الجديد.

وإذا كان طه حسين قد تأثر لفترة طويلة من حياته بالمرصفي، فإنه في الفترة التي سافر فيها إلى أوروبا تأكد لديه أن مذهب المرصفي يمكن أن يكون نافعا في حالة واحدة، هي، ما إذا أريد تكوين ملكة في الكتابة والتأليف الكلامي، أما ما عدا هذا، فإن هذا المذهب وحده لا يكفي لإجادة البحث، وهنا، يجب المسارعة بالقول أنه عرف الكثيرين في الغرب ممن تأثر بهم، إلى درجة أن هذا الجديد بدأ يسيطر على كيانه وإن لم يستطع تغيير المكونات الأولى فيه.

وهكذا، ولد الولادة الثانية..

ويصعب تحديد أي من المصادر الأولى في الغرب

التي أثرت فيه، وإن كان من المؤكد أن مفكري القرن الثامن عشر وكتابه ممن شهدوا صراع القديم والجديد وأسهموا فيه كانوا فرسان الكلمة عنده، وإن لم يحول هذا بينه وبين الإعجاب والتأثر أيضا بآخرين في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين.

لقد كان أول من تأثر بهم ديكارت، وقد بلغ من تأثر طه حسين به أن صرح بمنهجه في كتابه (في الشعر الجاهلي) فقال:

((أريد أن أقول أني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة، أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء)).

كما أن تأثره بدور كاييم بدا واضحا منذ البداية إلى درجة أن قيل عنه أنه ((نقل الفكر الدور كاييمي إلى ابن خلدون)) أثناء تقديمه أطروحته عنه في فرنسا، إلى جانب اهتمامه برينان وسانت بيف وتين حتى ردد أفكارهم صراحة في أعماله الكثيرة، مما كان له أثر كبير في منحه منهج النقد الطبيعي والنقد التجريبي اللذين كانا من سمات ناقدي القرن

التاسع عشر، ولا يمكن إغفال أسماء أخرى أسهمت في دفع عجلة التجديد لديه من أمثال برونتير وإميل فاجيه حول مفهوم الأدب الحر الذي يجب أن يكون من أهم مقومات الفنان ثم جول لومتر الذي اعتمد كليا على تأملاته والانعكاسات التي حدثت في فكره من خلال قراءاته مما حد من جموح النقد عند طه حسين إلى درجة بعيدة.

ولا يمكن إغفال أسماء أخرى أسهمت في تيار الجديد من أمثال أندريه جيد وبول فاليري وأوجست كونت وموتنسكيو وكورني وموباسان وروسو وغيرهم مما يمكن القول معه أن موجات التجديد جاءت على مراحل ومن شتى الجهات، دون تحديد جهة دون أخرى في تحمل الجزء الأكبر في تكوين تيار الجديد عنده.

ومع معرفة طه حسين المنهج الجديد، فإنه لم يغفل ثمرات المنهج القديم والإشارة إليه والاستعانة به، غير أن الجديد كان قد بدأ يسيطر على كيانه في المرحلة الجديدة، إذ يتلمس منهج ديكارت ويتأثر بدور كاييم، وراح يستشهد من آن لآخر بأسماء نقاد معروفين مثل سانت بيف وتين وغيرهما إلى درجة أن راح يصف أدبنا بالخلو من النقد

الصحيح خلوا تاما، وهو ما يفسر اندفاعه في تأكيد القديم حين وصل في تأييده إلى الغرب، وحضارته، وقد وصل هذا إلى أقصاه في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر).

ويؤكد احتفاءه بالجديد أنه راح يهدي كتبه حينئذ لممثلي الجديد في مصر، فهو أهدى كتابه (أحاديث الأربعاء) إلى لطفي السيد، كما أهدى كتابه (في الشعر الجاهلي) وفي طبعته الأولى إلى ثروت وهلم جرا.

القديم والجديد:

لم تكن المؤثرات التي لعبت دورا حيويا في تشكيل وجدانه النقدي غير العناصر التي تتكون منها أدواته في مواجهة أي نص.. وقد غلب على فلسفة طه حسين النقدية - تبعا للمؤثرات الأولى- دائرتان أو عالمان لخصا اتجاهه الفكري العام، إذ عاش طه حسين عالمين اصطرعا بداخله، فاحتفظ بالقديم كما هو، كما احتفظ بالجديد كما هو، ولم يكن تداخلهما إلا بقدر تداخل الدائرتين في مركز واحد مع احتفاظ كل دائرة بتكوينها القطبي، غير أنه من خلال حاصل الشكلين الجديدين -الماضي والحاضر- تشكلات رؤيته النقدية.

ومن هنا، سنحاول الوقوف عند مفاهيمه القديمة منها،

والجديدة، قبل أن نصل إلى ترقب رحلة الصراع بين المفهومين لينتج هذا الصراع الرؤية الأخيرة له.

إن مفهوم القديم عند طه حسين يستمد شرعيته من فلسفة التطور، وهذه الفلسفة توجد في أعمال كثيرة لعل من أهمها مقالاته (حديث الأربعاء) التي جمعت في ثلاثة أجزاء فيما بعد، إذ نشبت بينه وبين مصطفى صادق الرافعي منذ بداية العشرينيات معركة عرفت باسم (القديم والجديد)، استطاع خلالها طه حسين أن يبث أفكاره حول تفسير المفهومين، فالقديم عنده مستمد أهميته من حيث هو ((أساس الثقافة العربية، فهو إذن مقوم لشخصيتنا، عميق لقوميتنا)) على أن تبعيته للقديم لا يحوله إلى (تابو) محرم يفرض علينا فرضا، وإنما لأنه ((صالح ليكون أساسا من أسس الثقافة الحديثة))، وهنا، يربط الثقافة العربية بالثقافة الحديثة نفيا لصفة الجمود الذي ينطلق منها أنصار القديم وحسب، فالقديم عنده حي لا يموت أبدا، فهو، فضلاً عن ذلك، يطوي اللغة العربية كما يطوي القرآن الكريم ويتميز فيه عمود الشعر الغربي، وهو لا يفتأ يضيف على عوامل الثبات عامل التطور الذي يتميز به قديمنا فيرى أن العناصر التقليدية في

أدبنا شديدة القوة.

وعلى هذا النحو، فالقديم يحمل صفة تميز، ليس لكونه قديما موروثًا، وإنما، لأنه يطوي في داخله كنوز الجدة والتطور، ومن هذه الزاوية، يرى أن ضرورة العيش في هذا العصر استلهام التاريخ ونتائجه ((لا حياة لمصر إلا إذا عنيت بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلامي)).

ومن هذا المنظور، راح يستخدم فكره النقدي في نبش القديم واستخراج الكنوز التي يندر أن نجدها في أية حضارة، فرأى في الشاعر الجاهلي لبيدا، وهو شاعر غير معروف، أنه، يسلك إلى تصوير عواطفه ((نفس الطريق التي يسلكها الشعراء المحدثون: طريق التصوير القوي المؤثر الذي يثير في نفسك الإعجاب لأنه يؤثر في عقلك وحسك وشعورك معا)).

ويرى أن هذا الشعر الجاهلي يمكن إذا استوعب بالمناهج الحديثة والذوق المعاصر أن يسهم في ((إحياء النفوس في الأدب الحديث))، كما يعدو ضاحكًا أو ساخرا ممن يزعم اختفاء وحدة القصيدة عند الشعراء القدامى ((فما سمعت من خصوم الشعر القديم حديثهم عن وحدة القصيدة

عند المحدثين وتفككها عند القدامى إلا ضحكت وأغرقت في الضحك، وحين يصل بنا إلى طرفة، يبدي إعجابه الشديد بفلسفة هذا الشاعر القديم لأنها ((ساذجة تمثل حياة ساذجة، ولأن الشاعر قد صورها فأجاد تصويرها))، وهو لا يتعب من ترديد من آن لآخر بأن ((في الشعر القديم جمالاً وروعة وغناء ومتاعا، لا للقدماء وحدهم بل للمحدثين مهما يبعد بهم العهد)).

وعلى هذا المنوال، يمضي الفكر النقدي عند طه حسين فيرى أن زهيرا يستوجب الشكر لأنه يخلق البيئة ويهيئ الجو، كما مس فنونًا أخرى من الشعر في مقدمات قصائده، فأحس بها، بل عالجها فأحسن علاجها، فضلاً عن أنه فتح للشعراء العرب الباب في الغزل والحنين، وفتح لهم أبوابا من الوصف والتصوير، وسن لهم سننًا من المدح والغناء، وهذه النبرة تعجب بالقديم، الذي يتمشى مع العصر ويتواءم معه، نجدها في عديد من كتبه النقدية.

على أن هذا الجموح إلى القديم عنده لم يكن مطلقًا، إذ يلاحظ أنه في معركته مع مصطفى صادق الرافعي آثر الموقف الوسط بين القديم والجديد أو على حد قوله ((القصد

أساس الخير في كل شيء))، وراح يشرح مذهبه في الوسطية هذه في عبارته:

((لسنا أبناء القرن الخامس للهجرة، ولسنا أبناء القرن السادس عشر للهجرة، وإنما نحن أبناء القرن الرابع عشر للهجرة، بيننا وبين الماضي أسباب متصلة، وبيننا وبين المستقبل أسباب ستصل، فمالنا لا نحتفظ بهذه المكانة التي وضعتنا فيها الطبيعة، فلا نسرف في التقدم، ولا نسرف في التأخر؟! لا أمقت القديم ولا آنف من الحديث، وإنما أرى أني وسط بين القديم والحديث، وأرى أن لغتي يجب أن تكون مرآة صادقة لنفسي، ولن تكون لغتي مرآة صادقة لنفسي إذا كانت قديمة جدا أو حديثة جدا، وإنما هي مرآة صادقة لنفسي إذا كانت مثلي وسطًا بين القديم والحديث)).

وهذا يعني أنه كان يرى في الجديد العنصر الآخر الذي يسهم مع العنصر الأول -القديم- في استمرار الحياة وتطورها في الاتجاه الصحيح، فلولا هذا العنصر الجديد لما أعطى للأدب العربي فرصة الهروب من الجمود وعصمه من الجدب بل منحه عنصر (الثبات والاستقرار).

وعلى هذا النحو، ظهر رويدا رويدا ملامح الجديد عند

طه حسين، وهي تتحدد حول عناصر كثيرة لعل من أهمها هذا التوفيق المحسوب الذي يجد أبا نواس وفق إليه حين نجح في ((التوفيق بين الشعر وبين الحياة الحاضرة، بحيث يكون الشعر مرآة صافية تتمثل منها الحياة، ومعنى ذلك، العدول عن طريق القدماء، لأن هذه الطريق كانت تلائم القدماء))، كما أن التطور في اللغة هو مقياس هذا التطور، وإن كنا سنقف عند اللغة وقفة أطول في موضعه.

ويأتي في هذا أن الاعتراف بالحديث من أهم العناصر التي تحدد وجود الجديد ليس (قبوله) فقط، هو ما يفسره قوله أن ((الحديث مقبول بطبعه، لأنه الحياة، ولكن الاعتراف به شاق، لأننا فطرنا على المحافظة والاتصال بالنفس الموروثة)).

ومن هنا، فقد حرص طه حسين كثيرا على القديم لأنه عماد الشخصية العربية، كما حرص على الجديد، لأنه الذي يطور هذه الشخصية ويعظمها في الأخطار.

فلنخط خطوة أبعد في طريق الصراع بين العالمين.

الصراع بين العالمين:

إن طرح التناقض بين العالمين على هذا النحو، إنما

يسلمنا طبيعة الصراع وحتميته التي تميز طه حسين فيه بموقف محدد.

وإذا كان محمد عبده فشل قبل ذلك في إيجاد صيغة توفيقية تجمع بين أصول اللاهوت الإسلامي والعالم الغربي، فإن طه حسين راح يفصل أيضا بين اللاهوت من جهة وبين العلم من جهة أخرى، غير أنه فيما يتعلق بالنقد، لم يفصل بين الجانبين، بين القديم والجديد.

ومع أن طه حسين حاول التوصل إلى صيغة في أكثر من مجال حضاري، غير أن الصيغة النقدية هنا، هي، التي تهمنا، في المقام الأول.. فقد استطاع منذ سنواته الأولى بالأزهر أن يحدد بدء موضوع الصراع، فيميزه، وهو ينهي جزءه الثاني من الأيام بجملة تقول (فلندعه كما كان موضوعا للصراع بين القديم والجديد)..

ومن هنا، شغل بالصيغة النقدية جزءا كبيرا من حياته.

إن قارئ الأيام يشهد، منذ البداية بذور الصراع بين أصحاب (العمائم) من جهة، وبين أصحاب (الطرابيش) من جهة أخرى، إذ لاحظ أن إصرار بعض الشيوخ على تعليم الكتب الجديدة بحلوها ومرها إنما هو أثر من آثار القديم،

وهو ما يختلف عنده حين يفهم موضوع القديم، لقد كان موضوع القديم في هذا الوقت المبكر يعني، إلى جانب الاحتفاء باللفظة القديمة والأسلوب المرصفي، الموقف العصري والالتزام بالقضايا الوطنية، ومن هنا، تفهم تطور علاقاته بأستاذه الأثير المرصفي، الذي كان امتدادا، طبيعيا، للتجديد في اتجاه محمد عبده، وهو ما يفهم به أيضا تردده الذي لم يطل بين عبد العزيز جاويش في مرة وبين لطفي السيد صاحب (الجريدة) مرة أخرى قيد له في نهاية الأمر أن يكتشف في نفسه كما يقول هو: ((ميلاً خفيا إلى أن يقرب من أصحاب الطرابيش)).

وإذا أردنا تتبع الاتجاه الجديد في إيثار الجديد مع اختيار أفضل ما في القديم سنجده، في أول كتبه الجامعية (تجديد ذكرى أبي العلاء)، ففي هذا الكتاب استخدم في تناول شخصية عربية مناهج غربية بشكل ملحوظ، وهو ما يمكن به فهم موقفه في كتابه (حديث الأربعاء) الذي راح فيه يخلط المناهج الغربية بالدراسات الشخصية العربية ممثلة في شعراء القرن الثاني والثالث الهجري، فضلاً عن استخدامه فيه منهج ابن خلدون التاريخي في دراسة التاريخ الأدبي،

كما أن منهجه الديكارتي في كتاب (في الشعر الجاهلي) كان من الوضوح بحيث لا يمكن التقليل منه حين استخدم على مادة عربية عضوية[1]، وقد فعل هذا أيضا في كتبه الإسلامية خاصة منذ كتابه (على هامش السيرة) إلى الدرجة التي دفعت البعض لأن يرى أن طه حسين حاول أن يوازن في إسلامياته بين المنهج العلمي، الغربي، وبين إصراره على تطبيقه رغم ما واجه من اعتراضات سلفية كثيرة للجوئه إلى الميثولوجيا، وهو في سبيل هذا حاول أن يحدث توازنًا بين التجديد و (التصلب) في فرض التجديد على موضوعات تخص النبي ﷺ والوحي وما إلى ذلك[2].

وموقفه النقدي أيضا يبدو واضحا في موقفه من الأجيال، سواء الأجيال السابقة عليه من أمثال أحمد شوقي، حافظ إبراهيم، أو المعاصرين له من أمثال المازني والرافعي هيكل، أو الجيل الثالث له كالرومانسيين من جماعة أبوللو،

---

(1) The Middle East Journal (1950), pp. 157, (1073), p. 383.

(2) Bisher fro&s (1942) Reurve du Cairo (Aout3, p. 359.

أو -حتى- الجيل اللاحق له من أمثال علي محمود طه وفوزي معلوف وغيرهما، فقد بدأ موقفه النقدي دائما في انحيازه إلى الجديد الذي يتمشى بروح العصر إلى درجة أنه في الفترة الأخيرة من حياته اتخذ موقفًا متطورا جدا من جماعة الشعر الحر في مواجهة موقف عزيز أباظة المتعنت ضدهم.

ولن نتوقف عن تكرار مذهبه النقدي دائما حين نشير أن انحيازه للجديد لم يقلل من قيمة القديم، كما أن انحيازه للجديد لم يتعارض قط مع تأكيده للقديم وإيثاره له، وهي رؤية تتمثل أكثر ما تتمثل في كتاباته النقدية كما سنرى.

مشاهد من الصراع:

قضية اللغة:

إن النظرة النقدية في اللغة كانت تعود إلى قناعة خاصة به، وقد ظهرت في خلافاته النقدية حول القديم والجديد مع مصطفى صادق الرافعي بوجه خاص إلى درجة أنه خصص فصلاً كاملاً للغة فيها، وعلى هيئة سقراط راح يحاور خصومه ومحاوريه بإلقاء الأسئلة:

لمن هي؟

من وضعها؟

من الذي ينتفع بها ويصرفها في أغراضه؟

ويتولى الإجابة بنفسه، بضرورة إخضاع اللغة للمجتمع، فاللغة، عنده، ((ليست من وحي السماء، وإنما هي من ظواهر الاجتماع الإنساني، لم يضعها فرد بعينه ولا جماعة بعينها، وإنما اشتركت في وضعها الأمة التي تتكلمها، دون أن تعلم متى وضعتها، ودون أن تستطيع أن تعين لكل فرد من أفرادها أو جماعة من جماعاتها حظًا من ألفاظها وأساليبها، وإذا كان الأمر كذلك فلابد أن تلاحظ في اللغة: ألفاظها ومعانيها وأساليبها شيئين مختلفين، كلاهما يجعل تجدد اللغة أمرا محتوما: الأول أن لنفسية الأمة وحاجاتها والظروف التي تحيط بها أثرا قويا في تكوين اللغة .. (و) .. وأن -الثاني- الأفراد يتكلمون اللغة ويصرفونها في أعراضهم وحاجتهم، ومهما يكن سلطان الجماعة على الفرد ومهما يكن سلطان الفرد للجماعة وفناء شخصيته في مجموعها، فله حظ من الشخصية يمتاز به عن غيره من الناس))، ومعنى هذا، أن اللغة عند طه حسين هي ألفاظ ومعان تستوجب حتمية التطور الاجتماعي وتحديدها كي

يستطيع الفرد في المجتمع التطور بها ومعها.

وكما نرى، فليس التجديد المطلق هو ما قصده طه حسين، وإنما هو التجديد الذي يعصم اللغة من الجمود إلى التطور، فليس من الجديد عنده اشتقاق اللغة وتغييرها وتعدي الأفعال بالحروف التي لا تلائمها وأن نقلب ضروب المجاز بما يسيء إلى اللغة ويشوهها بما لا يعد تجديدا وتشويها للغة، كما أنه ليس بجديد أن تتخلف اللغة أمامنا فنحجم عن تطويرها بما يلائم ظروفنا وحاجاتنا اليومية.

ومن هنا، كان من البدهي أن طريقة التجديد تكون هي الطريقة التي تمنحها التطور وتعصمها التشويه، وهو يعني أن طه حسين سمح بالتطور المشروط من الداخل، فلا يجب مثلاً أن نغير الألفاظ التي توجد في المعاجم إلى ألفاظ غريبة عنا، كما لا يحظر دخول بعض القصص التمثيلية بحجة أن العرب لم يعرفوا مثل هذا الفن ضمن فنونهم، وقد لخص رأيه فقال:

((لنا أن نخضع هذه اللغة لما نشعر ولما نجد، وأن نمنحها من المرونة ما يمكنها من أن تكون أداة صالحة لوصف ما نشعر وما نجد، وعلى هذا النحو وحده نستطيع أن

ننصف أنفسنا وأن ننصف اللغة، ننصف أنفسنا فلا نحرمها التعبير عما تجد، ولا نضطرها إلى النفاق والكذب في هذا التعبير، وننصف اللغة فلا نضطرها إلى الانحطاط والجمود)).

ولقد كان أسلوب طه حسين نفسه مثالاً فريدا لما يريد أن تكون اللغة، ففي الفقرة الأولى من كتاباته نلحظ أن أسلوبه المحافظ يغلب عليه، ولا يلبث أن يستبدل المحافظة بالبساطة في كتابه (تجديد ذكرى)..

فاللغة عنده،على العكس من معاصريه، تختفي فيها الحذلقة اللفظية، إذ كان حريصا على الدخول في موضوعه مباشرة حريصا على إفهام قارئه لما يريد، وفي (حديث الأربعاء) نشهد هذه الوسطية النقدية في أسلوبه، فلغة النقد عنده واضحة، مباشرة، لا يدخلها الغموض رغم أن موضوعها في الغالب كان الشعر الجاهلي، ومن يقرأ ترجمته (الأيام)، يلحظ هذه السيرة الرصينة السلسة.

وقد كان من أثر لغته البسيطة الرصينة معا أن راح جاك برك يشير إليها حين قرن بينها منذ أول صفحات (الأيام) وبين القصيدة الجاهلية، فالصفحة الأولى -كما يؤكد

بِرك- مطابقة لهذه الترجمة لسير الشعر الجاهلي وبشكل دقيق[1]، ومع أن جاك بِرك يحاول أن يربط بين هذه اللغة وبين أبيات المعلقة الثامنة، وهو ما يحوي مبالغة كبيرة، فإن هذا يترك في دخيلة القارئ أثرا مؤداه أن أسلوب طه حسين جديد، فهو مقبول من القراء أثير لديهم، وهذا هو المقياس الأول للجدة.

ويمضي في اتجاه التجديد والوعي به أن طه حسين لم يقتصر على تفهم العربية وحدها، بل راح يدعو أيضا إلى أهمية اللغة الأجنبية، حريصا فيما يكتبه على (دقة النقد اللفظي) كما يبدو في كتابه (تجديد ذكرى أبي العلاء ص ٧).

وفي سبيل تبسيط اللغة وتراثها راح يستعمل الكثير من العبارات الفرنسية، كما عرف الكثير من المفردات الأخرى التي كانت مقتصرة على الأدب الفرنسي إلى نظيرتها في العربية، ويظهر اهتمام طه حسين أصلاً بقضية الشكل في العمل الأدبي من وقوفه طويلاً أمام الأخطاء اللغوية، ولم

---

(1) Ibid, Jacque Berque, Au rela Nil (1977), p. 34.

تمنعه علاقاته الخاصة بالبعض من أن يرصد هذه الأخطاء كما فعل بالنسبة لتوفيق الحكيم ومحمد حسين هيكل وأحمد أمين وغيرهم كثير.

ويمضي في هذا الاتجاه أيضا موقفه من قضية الفصحى والعامية اليوم، فلم يعرف له أنه أيد كتاب العامية أو شجعهم بأية حال، بل إن موقفه العنيف لاتخاذ لغة الإبداع الوحيدة دفع به إلى اتهام الذين يكتبون العامية (حديث الأربعاء) بأنهم ((لا يفعلون ذلك، إلا لأنهم يجهلون اللغة الفصحى)).

ومعنى هذا أن طه حسين يرى، في الأساس الأول، أن اللغة إحدى سمات شخصيتنا، الدالة علينا، وهو في الوقت الذي يرفض فيه الخروج من إطار الفصحى إلى العامية، لا يأنف من الدعوة لاستخراج الألفاظ العربية الفصحى التي ((جلاها الاستعمال وصقلتها الألسنة))، وهو موقف إذا أضيفت دعوته إلى استعارة الكتاب للفظة وحسن اختيارهم من اللغات الأوروبية من صفات وأساليب ومعاني دون أن يفسد هذا جمال اللغة.. لتأكد لنا حرصه على اللغة التي لا ينحرف بها إلى الماضي، لا يندفع بها إلى المستقبل.

الشكل والمضمون:

وقضية اللغة مرتبطة بقضية أرحب، هي، قضية الشكل والمضمون التي أولاها طه حسين أهمية خاصة.

واهتمامه بالشكل يترجم العالمين اللذين عرفهما أول الأمر، التراث والمعاصرة، أو القديم والجديد، ولا يلبث أن يصل في النقيضين إلى صيغة واحدة، إذ بدا في البداية أنه انحاز إلى الشكل انحيازا كاملاً حين درس على يد الشيخ المرصفي.

إن الدرس عند المرصفي كان يعني أكثر ما يعني بهذه المفردات اللغوية:

- نقد الشاعر.
- نقد الراوي.
- التعرف على جمالية النص.
- شرح المعنى جملة وتفصيلاً.
- وقفة عند الوزن والقافية.
- العناية بالكلمة وسط إخوانها.
- المقارنة بين الذوق المرهف القديم وغلاظة الذوق المعاصر.

وهذا يعني أن جل مذهبه النقدي، قبل البعثة، كان يتحدد في المقام الأول حول الشكل واللفظة وموقعها وما إلى ذلك.

غير أن هذا تغير إلى حد كبير حين عاد من أوروبا، فأضاف إلى الشكل المضمون، فلم يكن الشكل غير مضمون مضافًا إليهما في الغالب الناحية الجمالية الشمولية، وإن ظل المضمون عنده لا يحظى بنفس قدر اهتمام الشكل.

على أنه يلاحظ، (أنه بعد عودته من فرنسا مباشرة ظهر إلى جانب الاهتمام بالشكل الاهتمام بالمضمون)، إذ بدأ يهتم أكثر بالشاعر، وبعصره، ثم بدأ يبحث عن صلة هذا الشاعر بالعصر الذي وجد فيه، وعلى هذا النحو تحددت طريقته ((في جانب علمي يتصل بفحص النصوص الأدبية وفقهها وتحقيقها واستنباط دلالاتها مع دقة التفسير، والتعليل، والتحليل، ومعرفة الظروف التي أحاطت بها، والمؤثرات المختلفة التي أثرت في منشئيها، وبيئاتهم وعصورهم.. وجانب فني يتصل بنقد النصوص، وتصوير شخصيات أصحابها، وما تحدث في نفس قارئها من لذة، وهو الجانب الذي يحيل التاريخ الأدبي إلى عمل ممتع)).

ومهما يكن، فإن هذا لا يتعارض مع الصيغة التراثية

التي انتهى إليها فقط، وإنما يتمشى أيضا مع ثقافته التراثية التي لا ترضى بالقديم وحده، وإنما تضيف إليه الجديد لتعصمه من عوامل الجمود، فقد كان طه حسين واعيا تماما لذلك.

غير أن هذا الموقف الواعي من الشكل هو الذي جعله يأبى إهدار الشكل من أجل المعنى، أو إهدار المضمون من أجل الشكل، سواء أكان من انطلاقه من الحديث عن اللفظة والمعنى، أو القديم، أو الثابت والمتطور، على أنه يلاحظ أننا إذا ما حاولنا أن ندقق في ميل طه حسين الأخيرة: هل إلى الشكل؟ أم إلى المضمون؟ لرأينا أن ميله للشكل كان يستحوذ على جزء كبير من كيانه، وهو ما يظهر في دراساته الكثيرة منها دراساته عن أبي تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز وشوقي وحافظ وغيرهم.

وباختصار، فإن هذا الموقف ظل ثابتًا في فكر طه حسين وكيانه حتى بداية الخمسينيات حين دخل معاركه مع أنصار المضمون، إذ كان فهمه لقضية الشكل والمضمون ما زال يتحدد حول إطار القديم -أي الشكل- فاللغة عنده صورة الأدب والمعاني مادته، وأنهما شيئان لا يفترقان بالإضافة إلى

عنصر الجمال الذي يلازمهما.

وقد تميز طه حسين بالموقف التجديدي في إطار التراث إلى درجة أن راح البعض يطلق عليه رائد ((الكلاسيكية العربية الحديثة)).

ولن نكف عن التكرار أن (صيغة) طه حسين التي ستواجهنا دائما غلب عليها الاهتمام بالشكل سواء في مفردات اللغة أو في مكانة اللفظة في السياق الفني، وما إلى ذلك، على العكس من الفترة الثانية التي عاد فيها من أوروبا فقد بدا الاهتمام بالمعنى يتزايد، وإن كان التحليل الأخير يؤكد غلبة الجمالية الفنية.

على أنه ما يبدو من احتفائه بالشكل لا ينبغي أن يرى على أنه عدم حسم لقضية الشكل والمضمون، وإنما هو احتفاء بالشكل في إطار المضمون، الذي يتحول بدوره على شكل لما في نظرة صاحبه من وسطية جمالية تميزه.

فلنقف عند بعض الأمثلة الجمالية الأخرى.

حرية الفنان:

(من أهم القضايا التي كان أثر الجديد فيها واضحا هي قضية حرية الفنان)، وقضية حرية الفنان عند طه حسين

خاصة لها شقين في كتابه الملحوظ (حافظ وشوقي):

- في الشق الآخر من القضية يطرح قضية حرية الفنان فجاء تصوره على شكل سؤال على النحو التالي:

هل يملك الفنان هذه الحرية التي تبيح له ألا يحفل إلا بنفسه وبالجمال حيث هو جمال، سواء أوافق في ذلك ما ألف الناس من أخلاق ونظام ودين، أم لم يوافقه؟

وقد طرح طه حسين السؤال دون أن يترك إجابة شافية عنه في موضعه، وإن كانت الإجابة تفهم من كتاباته التالية حين (راح يؤكد أن الأديب هو مرآة المجتمع، فهو حر فيما يريد أن يقوله دون أن يخشى أي محظور يواجهه)، وهو في هذا لم يلتزم هو، شخصيا، بقضية تقييد الفن بأية حال، بل إنه كثيرا ما جاء عند طه حسين الجموح في المضمون على حساب الفن وطبيعته، وهو ما يؤكد تحرر طه حسين تماما من هذه القضية.

- في الشق الآخر من القضية يطرح قضية حرية الفنان في استحياء شخصيات من التاريخ أو التراث، فيختلق لها الصفات ويخلق لها الحوادث دون قيود أو تحفظ، وقد خصص كتابا كاملاً للإجابة عن هذا السؤال وهو كتاب

(القصر المسحور)، فأجمل إجابته في نهاية الكتاب حين قال بوضوح:

((إن من حق الأديب أن ينشئ أشخاصه كما يريد هو لا كما يريدون هم، بل إن من الحق على الأديب أن يتلقى أشخاصه كما يؤديهم إليه فنه، لا يغير من صورهم التي تُلقى عليهم ولا يبدل، ولو حاول ذلك لما استطاعه ولما وجد إليه سبيلاً، ولمن شاء أن ينكر عليه أو على فنه هذه الصورة كلها أو بعضها، وأن يعيب عليه فنه أو على فنه ما يكون فيها من ضعف أو نقص أو تشويه، وما ينبغي لهذه الأشخاص نفسها أن تثور على منشئها أو تمكر به أو تكيد له أو تتألب عليه، أو تبغي له سوءا أو تستنزل عليه عقابا، فإن فعلت فهي طاغية يجب أن ترد عن طغيانها، وباغية يجب أن تصد عن بغيها، وجامحة يجب أن يجمح جماحها، ومنشئها وحده هو القادر على ذلك، وسبيله إليه ترقية فنه وتجديده، واصطناع الأناة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير جميعا .. (و) .. ولما كنا نحرص على أن نمنحه المعونة على ما يريد من الرقي الفني و..)).

(ويبدو أن طه حسين في الحالين -حرية الكاتب في

التعبير أو استحياء النماذج- أطلق حرية الكاتب تماما في الحدود التي يرسمها له الفن دون تحفظ، وهو يظهر من تجاربه الفنية في شخصيات (المعذبون في الأرض)، فهو هنا يضرب بكل القيود التي يضعها النقاد، وهو يردد في السياق الفني من آن لآخر عبارات متمردة من قبيل ((يجب أن تكون الحرية هي الأساس الصحيح للصلة بين القارئ وبيني))، وهو كثيرا ما يخرج عن السياق الفني لقصته لينبئ للقارئ، شيئًا هاما أو ليكسر حدة المألوف مما يترك بدهية أنه لم يحفل بأي قيود يمكن أن تكون حائلاً بينه وبين حريته التي تطلق لأفكاره العنان في فترة زمنية يستوجب فيها أن تكون قضايانا القومية هي المعول الأول في أية عملية فنية).

الجمالية الفنية:

فإذا خلينا قضية حرية الفنان إلى قضية جمالية أخرى يمكن أن يطلق عليها، الجمالية الفنية Aesthetiso فإننا سنصل إلى طرح سؤاله في كتابه (حافظ وشوقي) والذي يقول فيه:

(هل يستطيع الفن أن يتخذ الشر موضوعا ويستخلص منه صورا فنية جميلة؟ وبعبارة أدق وأوضح هل في الشر

جمال يصلح موضوعا للفن؟).

وهنا، فإن طه حسين ترك القضية في أيدي القراء والفنيين دون أن يترك إجابة شافية عنها، وهو ما يشير إلى جهده التنظيري الذي اختلط كثيرا بجهد أكبر واهتمام أوسع كثيرا بالناحية التطبيقية التي أولع بها إلى حد بعيد.

ويبدو أنه من المفيد أن نشير للقضيتين الفنيتين التاليتين هنا، والتي حددهما على هذا النحو:

- المثل الأعلى للشعر.
- الذوق الأدبي.

وهو يخلص في القضية الأولى إلى أن الناس يرون جمال القطعة الأدبية أو النص من:

(هذا الروح الخالد الذي يتردد في طبقات الإنسانية كلها، فيحل في كل جيل منها بمقدار، وهو يتشكل في كل جيل بالشكل الذي يلائمه، ويتصور في كل بيئة بالصورة التي تناسبها، وهو من هذه الناحية مصدر وحدة وفرقة للإنسانية: مصدر وحدة لأنه واحد يجمع الناس مهما اختلفوا على الإعجاب والشعور باللذة القوية، ومصدر فرقة لأن له من أشكال الأجيال والبيئات المختلفة ما ينوعه ويخيل إليك

أنها كثيرة، نعم العربي والفرنسي والإنجليزي يشعرون جميعا باللذة حين يقرءون خصومة أخيل وأجاممنون لا يحول اختلافهم الجنسي بينهم وبين هذا الإعجاب وهذا الشعور باللذة، ولكنهم على اشتراكهم في الإعجاب واللذة يختلفون في تذوقهم).

وعلى هذا الشكل، يصبح الجمال وحده وأشكالاً وحده في جوهره، وأشكالاً متعددة البيئات والأجيال، ومن هنا، يصبح المثل الأعلى للشعر في كل جيل غير الجيل الآخر، وفي كل بيئة غير البيئة المخالفة، ومن هنا، راح طه حسين يحدد المثل الأعلى على أنه:

(هو الكلام الموسيقي الذي يحقق الجمال الخالد في شكل يلائم ذوق العصر الذي قيل فيه، ويتصل بنفوس الناس الذين ينشد بينهم، ويمكنهم من أن يذوقوا هذا الجمال حقًا فيأخذوا نصيبهم النفسي من الخلود).

وهذا الجمال عنده مرتبط بدرجة عالية من درجات الصدق، فليس المهم هو مطابقة التوصيف الفني بالحاضر بقدر ما يهم الصدق في ((تصوير المثل العليا فيما ينشئ))، وبهذا المعيار يكون طه حسين متفقًا مع القديم إلى حد كبير.

ومهما يكن، فإن هذا يفسر من وجهة نظره أن المثل الأعلى يتحقق لفتاوت الأمم والأجيال والبيئات، ومن هنا يصل طه حسين إلى قضيته التالية حول (التذوق الفني) في السياق الذي حدده في ترتيب القضايا.

وهو يحدد رأيه بشكل مباشر في هذه القضية، فيرى أن هناك ذوقين فنيين، لكل واحد منا حظ منهما تختلف قوة وضعفًا، ويتفاوت سعة وضيقًا باختلاف ما لشخصيته من القوة والظهور، كما نتفق -كما يرى طه حسين- على أن هناك ذوقًا فنيا عاما يشترك فيه أبناء الجيل الواحد في البيئة الواحدة في البلد الواحد، لأنهم يتأثرون بظروف مشتركة تطبعهم جميعا بطابع عام يجمعهم ويؤلف بينهم، وهذا الذوق يتسع ويضيق ويقوى ويضعف، فأهل مصر كما يرى يشتركون اشتراكًا قويا، وهذا الاشتراك هو الذي يجمعهم على الإعجاب، ببعض الآثار الفنية دون بعض، وهم يشاركون فيه إلى حد ما جيرانهم؛ أهل الشام وفلسطين، ويشاركون فيه إلى حد أضعف جيرانهم من أهل أفريقيا الشمالية، ومن هنا يعجبون مع أولئك وهؤلاء ببعض الآثار، ويعجبون مع أولئك دون هؤلاء ببعضها الآخر، ويعجبون

وحدهم بطائفة من الآثار الفنية، وكنا نتفق على أن هذا الذوق يضيق أحيانًا ويتأثر في ضيقه هذا بالظروف التي تحيط بالطبقات والجماعات.

ولم يؤثر طه حسين في مواصلة توضيح رأيه في التذوق الفني، وإنما تحول، كما لاحظ د. عز الدين إسماعيل، وهو تحول يستبدل فيه بالجهد التنظيري إلى الجهد التطبيقي، فلم يعرف أنه عاد على هذه القضايا الفكرية بعدها.

وهذا يستوجب منا الالتفاتة إلى طه حسين التطبيقي.

النقد التطبيقي:

الملاحظة الهامة التي تفرض نفسها هنا، أن الجزء الكبير من نقد طه حسين يغلب عليه النقد التطبيقي، بينما النقد النظري يشغل مساحة ضئيلة في محاولته النقدية، على العكس من كاتب معاصر له مثل عباس العقاد، الذي يعرف له محاولات نقدية على المستوى النظري تشغل جزءا كبيرا من إنتاجه.

بل إن هذه المساحة الضئيلة التي تحددت حول النقد النظري عند طه حسين إنما اكتفى فيها صاحبها، ليس إلى تحديد القضايا، وتوصيفها وتحليلها، وإنما اقتصرت على

طرح القضية على شكل أسئلة، وترك هذه الأسئلة لغيره ليسهب فيها ما شاء له الإسهاب، فما هي أهم ملامح هذا النقد التطبيقي؟

ولماذا يغلب على النظرة النقدية عند طه حسين؟

سوف نجيب عن هذه الأسئلة بتتبع خطه النقدي منذ بداياته النقدية.

إن الجانب النظري يتناثر في كتاباته على مساحات بعيدة، إذ يحتل التنظير حيزا من بداياته النقدية قبل أن يسافر أوروبا، حتى إذا ما عاد، فإن هذه العناصر التنظيرية كادت تختفي تماما عنده، اللهم إلا بعض البريق الخافت من آن لآخر.

وترينا الفترة الأولى أنه يكتب في صحف ((البيان)) و((الهداية)) و ((الجريدة)) مقالات يغلب عليها السمة التنظيرية، مثل مقالة (النقد -حقيقته- أثره..) وهي مقالات يغلب عليها طابع القديم، إذ كانت عناصر التجديد في هذه الفترة غير واضحة، وهي فترة الشيخ المرصفي، حتى إذا ما بدأ الفترة الثانية بعودته من الخارج حتى ظهرت آثار الجديد، فزاد الأثر التطبيقي في وقت تضاءل فيه الأثر التنظيري أو

كاد، ومن مظاهر ذلك، أن بدأ الشكل الفني بجمالياته الشعورية يتخذ المرتبة التالية بعد أن كان يحتل المكانة الأولى.

لقد كشفت الكتابات الجديدة عن سبق عنصر (اللذة الفنية) عنصري شخصية الشاعر ووسيلة فهم عصره، وبدأنا نقرأ في الكتابات الجديدة أسماء من أمثال ديكارت وسانت بيف وتين وجول لومتر لتتلوها أسماء عربية مثل أبي عبيدة ويونس بن حبيب وأبي عمر الشيباني وغيرهم، فلم يكن التجديد قاصرا على الآثار الغربية، بل كان القديم أيضا يتخذ شكل الجديد ليطل برأسه، والغالب أنه كان يستعين بالمناهج الغربية والقيم المعرفية في نقد الكتابات العربية خاصة.

وإذا بدأ تلازم الشكل التنظيري بوجوده في مصر قبل أن يغادرها إلى الغرب، كما بدأ ظهور الشكل التطبيقي بعد أن عاد من الغرب ومارس حياته الفكرية والأدبية هنا، فإن هذا لا يرتبط بهذا الخروج أو الرجوع بقدر ما يرتبط بطبيعة المرحلة التي كانت تستلزم منه أن يعايش النقد التطبيقي لما له من أثر كبير في هذه المرحلة.

لقد كانت الظروف التي وجد نفسه فيها تبعد به عن

النقد التنظيري إلى نقد آخر أقرب للأفهام وتطوير الإنتاج الإبداعي المعاصر له أو السابق عليه، ويؤكد هذا ما تميزت به كتاباته النقدية حينئذ من إيثاره للقديم وإنكاره للذات النقدية كلما تناول العمل النقدي.

أما عن إيثاره للقديم، فهذا يبدو أنه في الوقت الذي يتسال فيه الجديد متمثلاً في روح المعنى، فإن المصطلحات التي استخدمها كلها كانت مصطلحات تراثية تنحصر في رشاقة اللفظة والجزالة والمتانة وما إلى ذلك من الألفاظ التي استخدمها ((كالرصانة الملائمة بين اللفظ والمعنى واعتدال الأسلوب وحسن الانسجام وموقع الكلمة وملائمتها لأخواتها ومناسبة الشعر لنظيره)) .. إلى غير ذلك من المصطلحات التي يسهل ردها إلى مصادرها التراثية وهو ما بدا واضحا في مؤتمر طه حسين (يناير ٨٣).

كما كان طه حسين حريصا دائما على التقليل من الجانب النقدي أمام القارئ.. فإنكار الذات النقدية سمة حرص عليها دائما، فما يكاد يلقي بفكرة جديدة، أو رأي مميز في النص حتى يرتدي مسوح التواضع، ويردد بأنه ((لست بحمد الله فنيا، ولست بحمد الله من حماة النظم الاجتماعية)) كما

جاء في كتابه (حافظ وشوقي)، وبعد أن يظل في موضع آخر في نقد شاعر بعينه، فإنه لا يلبث أن يضيف في (حديث الأربعاء) ((لا أحاول أن أضع للنقد قواعد وأصولاً معينة، وإنما أحاول أن أفهم معك معنى النقد، وما يرمي إليه الناقد)).

وهذا وغيره يشير إلى أنه وإن كان النقد التطبيقي في غزارته الملحوظة هنا يؤكد على وجود الجديد، فإنه كان يعكس، في الاتجاه الآخر، طبيعة صاحبه التي لا تولع بالتنظير، وهذا يعود، فيما نعتقد إلى طبيعة المرحلة التي تستوجب -كما أشرنا- من الناقد إلى أن يكون (موسوعيا) أكثر من أن يكون (واقعيا) في عديد من المراحل.

النزعة الانطباعية:

ويمضي في هذا السياق، أن طه حسين آثر عدم الانحياز لمدرسة نقدية بعينها، بل اتسم نقده بالنزعة الانطباعية العجلى، فالقضايا الفنية ترى في أغلبها من نتاج فكر جديد آت من الغرب، كما أن الحكم الناقد فيها نابع من اثنين:

- إما أحكام تعود إلى ناقدي القرن الثامن عشر والقرن

التاسع عشر بل والعشرين أيضا، وهي أحكام، منتقاة في الغالب من أولئك النقاد الذين كانوا يرون أن الفن للفن، والفن هو الحياة وليس وسيلة لها، كما أنه ليس وسيلة لإرضاء سلطان أو لإشباع رغبات العوام، وتلك هي المزايا التي كان يحرص دائما طه حسين التواجد في إطارها.

- كما أن الحكم فيها يعود إلى نماذج غريبة استعاض بها وهو يحلل قضاياه النقدية خاصة النظرية منها لعمق الصلة التي تربط هذا الموقف ونظيره هناك من أمثال بودلير أو فيكتور هوجو وغيرهما مما يخلص بنا لهذا المنهج الانطباعي في النقد من أنه من أثر الفكر الغربي، وقد اقتضت الظروف المختلفة في الشرق الانتقاء منه والإفادة به.

فإذا أردنا أمثلة حية سنجدها دون شك في هذه القطع النقدية التي تتناثر خاصة في جزئه الثالث من (حديث الأربعاء)، ففيها تناول طه حسين بالنقد أعمال شعراء كثيرين من أمثال علي محمود طه وإبراهيم ناجي وأبي الوفا وأبي ماضي وغيرهم وذلك في رؤية نقدية تغلب عليها ذوقه الخاص بدون تناول البناء الدرامي والصور والأخيلة والانتقاء إلى غير ذلك من عناصر البناء الحديثة في الشعر

العربي.

إن مراجعة مقالته خاصة عن علي محمود طه (الملاح التائه) ترينا أن الناقد لم يخلص إلى أي مقياس نقدي وإنما طبق فيه ((منهجه الأبوي الذي يقوم على طريقة الممازجة بين طريقة العرب القديمة والذوق الحديث، فالمهندس عنده جزل اللفظ، جيد اختيار الكلام، يأخذ بالنفس لملائمته بين اللفظ والموسيقا وعنده موسيقا حلوة لا تظهر بها في شعر المحدثين وهو مصدر للطبيعة وصلة الإنسان بها إلى غير ذلك مما لا يتناول البناء الفني بشكل فني رصين)).

وهو ما يمكن القول معه بانطباعية طه حسين التي تتفاوت في أعماله من التأثر بالغرب أو امتزاج الجديد بالقديم، (وربما يدل أسلوبه في سيرته (الأيام) أكثر على صدق تصوير هذا المذهب الانطباعي، إذ يصف أحداث حياته كما يشعر بها نتيجة لإدراكه السمعي لها) ((كما فسر د. مجدي وهبة في معجمه لمصطلحات الأدب ص ٢٤٠ - ٢٤٢))، وهو ما نجده في كثير من أعماله النقدية الأخرى من أمثال (حديث الأربعاء) و (فصول في الأدب والنقد) و(في الشعر الجاهلي) و(أديب) وغير ذلك.

وبعد، فإن رصد الفكر النقدي عند طه حسين يؤكد دائما وجوده بين القديم والجديد، لم يؤثر الجموح إلى القديم، كما لم يؤثر الجموح إلى الجديد، وإنما ظل دائما كما يقول ((نستمد الحياة من قديمنا على أن نضيف إليه من الحديث ما يتيح له الخصب والإثمار)).

الفصل الرابع

من عالم الدين وضده

لعل موقف طه حسين من الدين وممثليه (علماء الدين) يعد من أهم القضايا التي لا ترتبط به وحده، وإنما، ترتبط، بأي كاتب أو مفكر يحاول أن يلعب دورا تنويريا مختلفًا فتتباين في تفسير موقفه الآراء وهو يدخل المنطقة الخطرة في عالمنا العربي.

على أن مع طه حسين، خاصة، تكتسب القضية أبعادا هامة، فطه حسين هو صاحب أزمة (في الشعر الجاهلي) أشهر الأزمات التي هزت الأوساط الدينية في مصر وفي العالم العربي في العشرينيات، إن لم تكن أشهرها جميعا، فتعرض للهجوم من كل جانب لا سيما من جانب الأزهريين، فكان يضحي بالجانب العلمي من أجل المفهوم الخاطئ للجانب الديني في ذهن البعض.

ومن هنا، فإن حيز الاهتمام بالدين تضاءل، إلى حد ما، في أعماله التالية سواء في (الأيام) الأجزاء الثلاثة التي كتبت بين عامي (٢٧/ ٥٥) أو في (شجرة البؤس) التي

كتبت عام (٤٤)، أوفي إسلامياته في الفترة التي تمتد بين الثلاثينيات والأربعينيات حتى إذا انحصرت موجة الإسلاميات ((رأينا)) من حاول أن يكفر الرجل مرة ومن يدافع عنها ويرى فيها (ثورة اجتماعية) مرة أخرى.

ومن هنا، فإن السؤال المحوري يتبلور على النحو التالي:

ما هو موقف طه حسين الحقيقي من الدين؟

وبشكل أدق، ما هي صورة علماء الدين في فكر طه حسين وممارسته؟

إن أمامنا وثيقتين يمكن أن تجيبا عن هذا السؤال.

إحداهما كتبها طه حسين في أوائل عام ١٩٢٦ أو منتصفه، وثانيهما في نفس الفترة ولكن لتمتد فترة كتابتها إلى منتصف الخمسينيات وهي (الأيام).

ولنقف قليلاً عند الوثيقة الأولى، قبل أن نخلص إلى الثانية.

لقد كانت معركة الشعر الجاهلي على أشدها إذ واجه دكتور الجامعة، الكفيف، اتهامه بالكفر من كل جانب (البرلمان، الجامعة، الأزهر، الصحافة، الشارع) بينما الملك

يلتزم الصمت ولا يتخذ أي موقف علني إزاء المذكرات وخطابات الاحتجاج التي ترد إليه من جميع الاتجاهات، في وقت يصر فيه حزب الأغلبية -الوفدية- في مجلس النواب على محاكمته وإلغاء وظيفته من الجامعة.

والأكثر من هذا أن الحزب الذي ينتمي إليه -الأحرار- والذي كان يتبنى طه حسين فكره في فترة مبكرة يلتزم الصمت بعد فترة قصيرة من اشتعال المعركة، إذ كانت الضربات التي وجهت إليه منذ قرابة العام، منذ تأييده (لعلي عبد الرازق) في قضية (الإسلام وأصول الحكم) من العنف بحيث آثر الانسحاب وترك طه حسين يواجه مصيره بمفرده.

في هذا الوقت، لا يجد طه حسين أمامه غير أن يضمن فكره خطابا، تحول فيما بعد إلى وثيقة، وأرسل به إلى مدير الجامعة، ليتولى هذا الأخير، إرساله إلى الصحف لنشره على الملأ.

ما هو أهم ما تضمنه الخطاب، لنفتح قوسين ونسجل:

((أؤكد.. أني لم أرد إهانة الدين ولم أخرج عليه، وما كان لي أن أفعل ذلك وأنا مسلم وأومن به وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر..)).

إلى آخر هذه الوثيقة التي كانت يمكن أن تكون كافية لتخرج به من زمرة الكافرين، وتحسب له أو عليه لولا مفهوم الجماهير الذي التصق بـ طه حسين الذي غزته النيات السيئة لكثير من معاصريه، ولولا أنها كتبت في ظروف بالغة الصعوبة لما أثارته أزمة الشعر الجاهلي فضلاً عما شاب أعماله التالية، وهذا كله ما يدفع بنا، هنا، إلى إعادة طرح سؤال حول موقفه من الدين ورموزه الحية -ورجاله-.

على أن ثمة ملاحظتين هامتين لابد من الإشارة إليهما قبل كل شيء:

(أ) الملاحظة الأولى: أننا سوف نقتصر في تفسيرنا لموقف طه حسين على وثيقة منشورة هامة هي كتاب (الأيام) لأسباب عديدة، منها، أن الجزئين الأولين يحتويان على فترة كبيرة من حياته قبل دخوله إلى الجامعة المصرية قوامها تسعة عشر عاما، وهي الفترة التي عرف فيها شيوخ الدين من الأزهر، وترك لنا فيهم رأيه بصراحة بعد أن عرج على شيوخ الكتاتيب في القرية وشيوخ الطرق وما إلى ذلك من الشيوخ الذين كانوا- حينئذ -معلما هاما من معالم الحياة في مصر.

ويحتوي هذان الجزآن أيضا على ثلاثة أعوام أو أربعة على وجه التقريب بعد دخوله الجامعة، وهي فترة لم تنقطع فيها صلته تماما برجال الدين وممثليه، وهي فترة لقائه بأساتذته من الغربيين مما يتيح له فرص المغالاة عند عقد المقارنة.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن الجزء الأول كتب في نهاية عام ٢٦، العام الذي لقي فيه الأمرين من الأزهريين بسبب أزمة (الشعر الجاهلي)، ومن هنا يصور لنا بشكل ما ردود فعل طه حسين في تجربة صاغها أو صاغته بشكل جاد.

أما الجزء الثالث، الذي نشر في عام ١٩٥٥ احتوى على العديد من زوايا الرؤية بالنسبة لطه حسين بعد أن دخل مرحلة جديدة من حياته نضجت فيها أفكاره وتفتحت آراؤه حول رجال الدين لاسيما وقد عرف التعليم الغربي وعايش الحياة الفكرية والسياسية زهاء ربع قرن فيما بعد.

ومع أننا لن نفضل أعمالاً أخرى يمكن خلالها رصد رؤية طه حسين من رجال الدين في عصره، وهناك أعمال أخرى وإن كانت لا تضارع الأيام مادة وفكرا من أمثال

(شجرة البؤس)، و (أديب)، و(الصيف)، (فإن تركيزنا على الأيام جاء من قناعتنا أن هذه السيرة الذاتية إنما أودع فيها صاحبها من نجوى الذات في لحظات تحول حادة في حياته.. ما يمكننا أن نخاص، مباشرة، إلى المعاني الحقيقية في أعماق صاحبها وتلك ميزة لا تتوفر لغير هذا العمل).

(ب) هذه إحدى الملاحظتين، أما الملحوظة الأخرى، فهي تنحصر حول تحديد شخصية رجل الدين.

من هو رجل الدين قبل أن نصل إلى المفهوم الخاص له في عالم طه حسين ودلالاته؟

إن رجل الدين هو أحد ((شيوخ الأزهر الذين كانوا وما يزالون يقومون بإلقاء الدروس في المعرفة الدينية (الدين الإسلامي) على الدارسين (المنضمون إلى الحلقات أو الجالسون بالمدرجات فيما بعد) منذ بدأ التدريس بالجامع الأزهر، وكذلك المتخرجين الذي يحصلون على شهادة (الإجازة ثم العالمية) تثبت حضورهم الدروس المقررة)) (انظر مذكرات الظواهري، ومجتمع علماء الأزهر أحمد شوقي).

فإذا عدنا إلى رجل الدين عند طه حسين سنرى أن

رجل الدين ينطلق لديه من هذا المفهوم ليصل إلى مفهوم أوسع، فالمفهوم عنده يجاوز أولئك الذين يقومون بإلقاء الدرس بشكل منتظم بالجامع الأزهر -الجامعة الأزهرية- على الذين عرفوا خارج الأزهر:

- إما نالوا قسطًا غير محدود من العلم وكانوا يعرفون بالمشايخ.

- أو الذين يعرفون في كتاتيب مصر وقراها.، وهم كثيرون.

- أو أولئك الذين نالوا قسطًا متباينًا من العلم سواء كانوا في أول درجات الخط المتصل من أمثال المعلمين الأزهريين الذين نالوا شهادة معترفًا بها وإن كانوا لا يعملون بالضرورة تحت أعمدة الأزهر المعترف بها أو بقربها.

وعلى هذا النحو، يمكن أن نطوي كل هذه الظلال، لنعيد توزيعها في محورين اثنين على النحو التالي:

* إما رجل جاهل أو غير جاهل (سيئ السيرة).

* إما رجل دين واعٍ مستنير الفكر والوجدان.

وسوف نفصل ملامح كل منهما في كتابات طه حسين قبل أن نصل إلى تفسير موقفه الخاص، وخاصة أن طه

حسين، نفسه، عرف الأزهر في وقت تميز عن غيره، من معاصريه، بالخلفية الدينية قبل أن ينهل من ثقافة الغرب وفكره.

وبهذا نكون قد وصلنا إلى أهم نقاط بحثنا، وهي التوقف عند ملامح رجل الدين، الأول، السلبي.

-١-

إننا في ((أيام)) طه حسين، خاصة، أمام مستويات متعددة لوجه واحد، يمكن رصد الملامح العامة فيها لرجل الدين غير الفعال، وسوف نكشف عن هذه الملامح على الوجه التالي:

(أ) هناك الحاج.. الخياط الذي (كان الناس مجمعين على وصفه بالبخل والشح، والذي كان متصلاً بشيخ من كبار أهل الطرق، والذي كان يزدري العلماء جميعا، لأنهم يأخذون علمهم من الكتب لا عن الشيوخ، والذي كان يرى أن العلم الصحيح إنما هو العلم اللدني الذي يهبط على قلبك من عند الله دون أن تحتاج إلى كتاب، بل دون أن تقرأ أو تكتب).

(ب) وهناك شيخ.. حمار -بفتح الحاء- كان في عمله (ينقل للناس بضائعهم وأمتعتهم، ثم أصبح تاجرا، واقتصرت

حمره على نقل تجارته، والذي كان الناس مجمعين على أنه أكل أموال اليتامى، وأثرى على حساب الضعفاء.. والذي كان يكره الصلاة في المسجد الجامع، لأنه كان يكره الإمام ومن إليه من العلماء).

(ج) ثم هناك الشيخ.. الذي (لم يكن يقرأ ولا يكتب ولا يحسن قراءة الفاتحة، ولكنه كان شاذليا من أصحاب الطريق، كان يجمع الناس إلى الذكر، أو يفتيهم في أمور دينهم ودنياهم).

(د) وأيضا هناك سيدنا.. الذي يفهم القرآن كما يفهم (الفقهاء الذين كانوا يقرءون القرآن ويقرئونه الناس).

إن سيدنا حين سأله الصبي -أي طه حسين- ما معنى قول الله -تعالى- ((وخلقكم أطوارا))، فأجاب هادئًا مطمئنًا: ((خلقكم كالثيران لا تفعلون شيئًا)).

(هـ) وكان هناك شيخ الطريق.. الذي يقبل ليزور أبا الصبي يصحب معه جيشًا ضخما يصل إلى المائة فيثقل ومن معه على أسرة الصبي (التي كانت تعيش من سعة، ولكنها كانت فقيرة على كل حال)، إذ كانت زيارة الشيخ (تستهلك كثيرا من القمح والسمن والعسل وما إلى ذلك).

ومن هنا، فقد كانت الأسرة (تكرهه كرها شديدا لأنه يكلفها ما يكلفها من المال والمشقة) والأوصاف لا تنتهي.

(و) كما لم يغفل أن يذكر فقهاء من أمثال أولئك الذين استعدوا للخماسين وزوابعها بأن (اشتروا ورقًا أبيض صقيلاً، وقطعوه قطعا صغارا دقاقًا، وكتبوا على كل قطعة (أ ل م ص) ثم يطوون هذه القطع ويملئون بها جيوبهم، حتى إذا كان يوم السبت ألموا بالدور التي كانوا يتصلون بها، ففرقوا هذه القطع من الورق على أهلها وطلبوا إلى كل واحد أن تبلع منها أربعا قبل أن يلم بطعام أوشراب، وكانوا يزعمون أن ابتلاع هذه القطع من الورق يصرف عنهم ما تأتي به -الخماسين- من المكروه.. ويصرف عنهم ما تأتي به -الخماسين- من المكروه، ويصرف عنهم الرمد بنوع خاص، وكان الناس يصدقونهم ويبتلعون هذا الورق ويؤدون إلى الفقهاء ثمنه بيضا أحمر وأصفر).

(ز) وهذا هو الحاج علي.. الذي كان (يتكلف الورع، ويظهر ذلك إلى أقصى ما يظهر الناس تكلفهم وتصنعهم)، وهو مع ذلك لا يحتفظ بعد الدرس من (لفظ، ولا يتحرج من كلمة نابية، ولا يتردد في أن يجري على لسانه المنطلق دائما

وبصوته المرتفع دائما أشنع الألفاظ، وأشدها إغراقًا في البذاءة، وأدلها على أبشع المعاني وأقبح الصور).

(ح) ثم هو أمام شيوخه في الأزهر الذين اتهمه أحدهم في عقله عند إحدى مناطق الجدل الذي طال، فنهره قائلاً (فإنك لا تحسنه وإنما تحسن هذه القشور التي تقبل عليها في الضحى، فأما اللباب فلم تخلق له ولم يخلق لك).

وهناك شيخ آخر لم يجد أمام مجادلة الجالس أمامه غير أن يفعل كسلفه وينهره (اسكت يا بني).

وهنا يجب المسارعة بالقول أن طه حسين كان في سن مبكرة من حياته وطبيعته التي عرفت اللجاج لظروف نفسية وصحية غير أن الشيوخ إزاءه لم يتحلوا بسعة صدر يتمكنوا بها من استيعاب الفتى لا استبعاده من حظيرة الدين.

(ط) وقد كون في السنوات الأولى في الأزهر، أيضا، فكرة سيئة من أولئك الشيوخ، ومناخهم الذين عاشوا فيه، فهذا الشيخ (كان شديد الحقد على زملائه وأقرانه، شديد المكر بهم والكيد لهم)، كما كانت (النميمة والغيبة وأشنع ما كان يذكر من عيب الشيوخ).

وهو ما دفعه إلى أن يقول أنه (من أجل هذا كان

صاحبنا سيئ الرأي في العلماء والطلاب جميعا).

وهناك شخصيات أزهرية أخرى، عديدة، لن نشير إليها هنا رغم أن طه حسين كان قد أشار إليها وتهكم عليها كثيرا في جزئه الثالث (الأيام) من أمثال الشيخ الطنطاوي جوهري، والشيخ محمد المهدي والشيخ محمد الخضري.. وغيرهم.

وهو ما يعود إلى أن هذه الشخصيات لا تمثل مكانة دينية مميزة مع أنها من فئة خريجي الأزهر، فضلاً عن أن هناك من البواعث الذاتية (مثل كف البصر)، والنفسية (مثل الاضطراب النفسي) في هذه الفترة بالذات من حياته كانت قد حالت بينه وبين أية محاولة لاكتشاف جوانب الوعي الديني فيها.

غير أن المحط الرئيس بعد هذا كله أنهم لم يلعبوا، في رأيه على الأقل، هذا الدور الفعال لرجل الدين المتنور، وإنما انحصروا في دائرة العلم وتحصيله وحسب، وهذا لا يقلل منهم، وإنما يحمل اختلاف الرؤية بين صاحبنا الراوي والعلماء الجادين في مجال عملهم وتفرده.

ومن هنا، تخرج هذه الشخصيات من إطار هذه

الدراسة.

-٢-

وكما التقى طه حسين بكثير من أنماط رجل الدين، الجاهل أو السيئ، كذلك التقى بكثير من أنماط رجل الدين الواعي والمستنير، ومن هنا، فإننا بأسلوب المتابعة هنا سنحاول الإشارة إلى اثنين منهم قبل أن نصل إلى تعميق جاد وجديد لهذا الجانب الأخير في فكره.

أما أولهما، فهو الشيخ محمد عبده.

فعلى الرغم مما يردد أن علاقة كبيرة بينهما -طه وعبده- وإن ثمة ما يشوبه الغموض أو عدم الارتياح يسيطر على هذه العلاقة وهو ما يعود إلى اختلاف العصر والنشأة.. فإن الذي لا شك فيه هو أن محمد عبده كان قد ترك في أعماق الصبي ثم الفتى ثم دكتور الجامعة أثرا لا يمحى فيما يخص حركة التمرد العام على معطيات العصر الجامدة.

إن طه حسين لم يسمع من الشيخ محمد عبده سوى درسين اثنين فقط، ألقاهما الأخير في شتاء ١٩٠٥، ومع هذا، فإنه لا يخلو من دلالة كبيرة أن نجد ذكرا للشيخ محمد عبده في (الأيام) قرابة ثلاثين مرة، إما معجبا به أو مثنيا عليه، أو

ذاكرا له فضل أحد تلامذته النابهين هنا أو هناك.

لقد كان ذكر الإمام عبده يقترن عنده دائما بتطلعه إلى الجديد، وتمرده على القوالب التقليدية في الأزهر ورتابته العميقة، وعلى سبيل المثال، فحين ورد اسمه في اللوحة الثامنة -الجزء الأول- فإنه يأتي في عرض الحديث عن الطلبة من رواد الأزهر أولئك الذين:

((يضيقون بكتب الأزهر ضيقًا شديدا، يتأثرون في ذلك برأي أستاذهم -الإمام- ضمن كتب الأزهر ومناهجه، وكانوا يسمعون من الأستاذ الإمام حسين يشهدون دروسه أو حين يزورونه في داره أسماء كتب قيمة في النحو والبلاغة والتوحيد والأدب أيضا وكانت هذه الكتب القيمة بغيضة إلى شيوخ الأزهر لأنهم لم يألفوها، وربما اشتد بغضهم لهذه الكتب لأن الأستاذ الإمام قد دل عليها ونوه بها)).

وحين يردد اسمه، خاصة، في موضع التمرد على التقاليد الجامدة حوله، لا تخلو كلماته من دلالة كبيرة، فلنقرأ معا هذه العبارة التي كتبها حين تسامع الناس في قريته عن شذوذه وإغرابه في القول، يقول:

((تسامع هؤلاء الناس جميعا بمقالات هذا الصبي

وإنكاره لكثير مما يعرفون، واستهزائه بكرامات الأولياء، وتحرمه التوسل بهم وبالأنبياء، وقال بعضهم لبعض: إن هذا الصبي ضال مضال، قد ذهب إلى القاهرة فسمع مقالات الشيخ محمد عبده الضارة وآراءه الفاسدة المفسدة، ثم عاد بها إلى المدينة ليضل الناس)).

وفي موضع آخر، حين يتحدث عن المدرسة، التي أنشأها الشيخ رشيد رضا بعد وفاة الإمام لإرشاد المسلمين إلى دينهم الصحيح يضيف:

((وقد ضاق المجددون من أبناء الأزهر بهذه المدرسة أشد الضيق، وسخطوا عليها أشد السخط)).

وهو يذكر بعد قليل، وهو يذكر عبد العزيز جاويش أنه ((كان يمقت من الشيخ رشيد ممالآته للخديو وانحرافه عن طريق الإمام)).

ومن هنا، يبدو أن تأثير الشيخ الإمام في أعماق طه حسين لم يكن تأثيرا مباشرا، بمعنى أنه لم يعتنق مبادئه أو سار على دربه على الأقل في فترة متأخرة من حياته، وإنما كان تأثيرا في معنى التعبير وضرورته، وهو يلتقي في حقيقة الأمر مع طبيعته التواقة إلى التغيير المتمردة على التقليد.

وهو الذي دفع به إلى أن يميل إلى شيخ آخر.

وإذا كان الشيخ عبده هو أول أولئك الذين تمتعوا بدرجة عالية من التنور الفكري، فإن الشيخ سيد المرصفي ثانيهما، إذ يقعان كلاهما في خط متصل واحد، إذ كان الشيخ المرصفي (مقربا من الأستاذ الإمام)، ولأن (الأستاذ الإمام كان يحميه)، ومن هنا، فقد لازم طه حسين درس المرصفي ورافقه في عديد من المواقف.

وعلى هذا يمكن تفسير موقفه من المرصفي ومن درسه، إذ لم يكن للشيخ: ((حديث إلى تلاميذه إذا تجاوز درس الأدب إلا الأزهر وشيوخه وسوء مناهج التعليم فيه وكان الشيخ قاسيا إذا طرق هذا الموضوع، وكان نقده لاذعا وتشنيعه على أساتذته وزملائه أليما حقًا)).

وهذا الاكتشاف في رأي طه حسين يعود إلى قيمة الحرية التي عرفها في أدب المرصفي، فهو يقول بعد قليل حين يذكر هذا الشيخ:

((ما أعرف شيئًا يدفع النفوس، ولا سيما النفوس الناشئة، إلى الحرية والإسراف فيها أحيانًا كالأدب، وكالأدب الذي يدرس على نحو ما كان الشيخ المرصفي ((يدرسه

لتلاميذه)) وبقدر ما كان تمرد المرصفي واستنارته دافعين لطه حسين إلى الإعجاب، ومصاحبته إياه، بقدر ما كان تجرد المرصفي من فضيلة الجسارة والركون إلى الخوف دافعا ليقطع طه حسين علاقته بشيخه الذي طالما أعجب به، لا زهدا ولا نفورا كما يقول، وإنما لموقف شهده من أستاذه، وتفصيل هذا أن المرصفي قد بلغه أن شيخ الأزهر يحظر عليه كثير من سلوكياته التي عرف بها، فنهاه عنها، وحين انصاع الشيخ لتحذير رئيس الأزهر، وفاتحه طه حسين في الأمر، فلم يجد منه غير ازورارا عنه، بل وأسكته في شيء من الغلاظة صائغًا: (لاء لاء، عاوزين ناكل عيش).

ويلاحظ أن طه حسين حين يذكر هذه الواقعة يذكرها بألم شديد، ولا يتوالى عن ذكرها في نفس حالة الألم التي يتذكرها كلما تذكر خوف الشيخ وموقفه، ويمكن نقل فقرة له يقول فيها أن الفتى -يقصد نفسه- لم يعرف:

((أنه حزن منذ عرف الأزهر كما حزن حين سمع هذه الجملة من أستاذه، فانصرف عنه ومعه صديقاه وأن قلوبهم ليملأها حزن عميق)).

لقد كان هذا كفيلاً بالنسبة إليه بأن يمثل حدا فاصلاً

تحول بعده عن الأزهر وشيوخه، من المستنيرين، إلى شيوخ المدينة، المطربشين، خارج الأزهر، من أمثال عبد العزيز جاويش ولطفي السيد وعبد العزيز البشري وغيرهم.

وعلى هذا النحو، فإذا كان إعراض طه حسين عن رجل الدين في القرية يعود إلى جهله وتجمده، واستغلاله للإنسان، فإن إقباله على رجل الدين في المدينة، وربما رجل العلم في مرحلة تالية، يعود إلى جانب هام من جوانب التمرد فيه، وإلى تمرده على كل الأساليب القديمة، وهو الإحساس بقيمة الحرية التي عمل لها طويلاً.

-٣-

وعلى الرغم من أن المقابلة بين صورتي رجل الدين المتجمد والمستنير يمكن أن تضع بين أيدينا الذي كان وراء هجوم طه حسين على رجل الدين على شكل السخرية لما يمثله رجل الدين من وجه سلبي غير فعال، كما أسلفنا، فإن ثمة تفسيرات أخرى يمكن إضافتها في هذا السياق تضيء لنا جوانب فكر طه حسين في الدائرة الرئيسة، وهي من هنا تضيء المناطق البعيدة في هذا الفكر بما يتسق مع موضوعنا.

التفسير الأول:

لم يكن طه حسين ملحدا، كما أطلق عليه في كثير من كتاباته، أو كما عرف عنه البعض، وإنما كان، كغيره، من المفكرين الجادين، الذين تواجدوا في عصر كانت (موضة) الإلحاد تطلق على من يتجاسر على أن يرفع صوته لتحطيم أشباح المسرح، وتخريب أستار الظلام.

وهو ما دفع به إلى التصريح في منتصف عام ١٩٢٦ بأن ((في مصر شرا عظيما هو جمود الشيوخ) - ١٦/ ٧/ ١٩٢٦.

كما دفعه إلى الهجوم على رجال الدين في هذه الفترة في كتابه (في الصيف) (الذي كتب عام ١٩٢٨ ونشر عام ١٩٣٣).

قد يكون في هجوم طه حسين على الأزهر أسباب من بينها، طبيعته المتمردة، وحدته التي عرف بها، أو حتى وجوده في وقت تصادف فيه أن يكون أمام بعض الشيوخ الأزهريين، ممن يلقون بدروسهم إلى طلاب هم أكبر منه سنًا فأصبح (يحتقر العلم) كما يعترف هو، وهو ما حدث مع الشيخ ابن عابدين.

غير أن السبب الأول ظل دائما أن طه حسين كان يحمل قلبا مستنيرا، مثل كل مفكر هاله تيار التجمد الذي وجد الحياة الفكرية في مصر، في زمنه تسبح فيه كما نرى في كتاب الظواهري في الإشارة إليه.

لقد كان طه حسين، أكثر من غيره، ذا خلفية دينية، على العكس من محمد حسين هيكل، على سبيل المثال، الذي كانت خلفيته الثقافية تبدأ بالمدارس الدينية وتأثره بالفكر الوضعي ورواده في الغرب، واتجاه هذه الأخير يخالف تمام المخالفة اتجاه طه حسين.

وهو ما تبدى في اتجاه كل منهما في كتابة الإسلاميات في بداية الثلاثينيات.

فبينما فسر هيكل التاريخ الإسلامي تفسيرا نفسيا وإلهيا.

فإن طه حسين راح يفسر التاريخ تفسيرا اجتماعيا ويستخرج معاني العدالة والمساواة إلى غير ذلك من القيم الإنسانية[1].

---

(1) Smith, G. The Shift of Egyptian Intellectuals
==

ولجاك برك ملحوظة هامة في هذا الصدد، إذ يلاحظ أن طه حسين حين كان يستشهد بالقرآن إنما كان يتلمس الآيات التي تحمل معاني اجتماعية -لا إلهية- إذ كان يميل دائما إلى السور الطويلة، المدنية، التي تتضمن قيم الأخلاق والاجتماع والاقتصاد(١).

التفسير الثاني:

وهذا يفسر في الوقت نفسه درجة الخلاف بينه وبين عبده، والذي يمكن للباحث أن يلمسها في مرحلة متوسطة ومتأخرة من فكر طه حسين .. فإذا كان هذا الأخير قد تأثر بالأستاذ الإمام، فإن تأثره، إذن، لم يأت في حدود العقيدة وحسب أو محاولة البحث عن براهين لتأكيد تطابق المدينة الغربية الحديثة مع مدينة الإسلام وحضارته أو حتى الانشغال بالدفاع عن الإسلام ضد موجة الهجوم العاتية عليه من قبل المستشرقين، وإنما كان تأثيره مختلفًا ومحاولاته في

---

to Islamic Subjects in the 1930.

(1) Berque, J. Thaha Hussein, Au dela du Nil, Paris, 1977. p. 250.

رد الفعل الحضاري مختلفة أيضا.

لقد كان تأثره في فترة مبكرة من حياته من نوع التمرد والثورة على برامج الأزهر التقليدية، فهذه الثورة في هذا العصر ((هي التي دفعت طه حسين للتجاسر بالنزوع إلى الاستقلال الفكري))[١].

وإذا كان هذا الموقف من التقاليد هو نفس موقف الإمام محمد عبده، فإنه كان الموقف الوحيد الذي تبعه فيه، وراح من هذه اللحظة يتبع طريقًا آخر، لقد كان عليه أن لا يحاول إثبات أن المدنية الغربية إنما تطابق الإسلام وإنما راح على ما حاوله جيله يؤكد أن الإسلام الحقيقي، والذي يمكن أن يعود بقيمه النبيلة إلى التراث الأصيل هو ما يمكن أن يضاهي، ربما، المدنية الغربية.

لقد كان هو الخلاف الفكري بين فكره وفكر الإمام عبده.

ولم يتأكد هذا الخلاف إلا بعد أن عرف طه حسين

---

(1) Adams c., Islam and Modernism in Egypt, London 33, p. 259.

الفكر الغربي.

لقد زادت درجة التأثير انحرافًا إلى الاتجاه الصحيح حين سافر إلى فرنسا، في بعثة، إذ كان (القرن الثامن عشر يلائم العرب تماما) فهذا العصر يقدم الشطر الأعظم من الحجج ضد الكنيسة وقبائحها)؛ لأنه يتيح تعزيز بعض الخرافات، لقد كانت أوروبا، حينئذ، تعيش فلسفة التنور ضد الكنيسة، وقد خرجت توا منتصرة على الإكليروس، فدخل في روع كل مفكرينا أن الغربيين يعيشون في حقيقة هامة، هي أن رجال الدين يمكن أن يشكلوا ، لو ظلوا في رداء الجمود والتخلف الذي عاشوا فيه طيلة قرون.. خطرا داهما على العقل البشري.

لقد كان طه حسين امتدادا لرفاعة الطهطاوي ومحمد عبده، ولكن في اتجاه التنور الذي عمقه التأثر بالغرب، اتجاه معرفة اليوفانيات والرومانيات، وتكوين فلسفته الجديدة عما كان مألوفًا منذ قرابة قرن من الزمان.

ومن هنا، يمكن القول أن طه حسين لم ينحرف وحسب كما فعل معاصروه من أمثال سلامة موسى ومحمود عزمي وحسين فوزي، ولم يكتف بأسباب الحضارة العربية ويتجه

إليها وحسب كما فعل الشيخ عبد العزيز جاويش ومصطفى صادق الرافعي وزكي مبارك، وإنما كان يحمل رؤية أبعد من هذا بكثير، لقد كان يرى، بوضوح، أن (الحضارة العربية الإسلامية لا غنى عنها للمفكر الشرقي بدون الافتقاد إلى الثقافة الغربية)[1].

ربما نضيف تفسيرات عديدة لموقف طه حسين من رجل الدين، غير أنه من المؤكد، أنه ليس من بينها، على الإطلاق، كراهية خاصة، أو موقف ذاتي، وإنما هي هموم المفكر حين يتصدى لإحدى ثالوث (التابو) في عالمنا الثالث.

وبهذا المقياس كان طه حسين مهموما جدا.

---

(1) Teymour, M. Reuve re Caire, 31, 1953, p. 127.

الفصل الخامس

من (أديب) إلى طه

يعتقد.. أن (أديب) هي ترجمة ذاتية له، تحدث فيها عن تجربته من خلال شخص(صاحبنا) الذي تحدث عنه.

وهذا غير صحيح على الإطلاق.

وهنا يتداعى السؤال:

فمن هو (أديب) طه حسين الذي يخطئه كل من يكتب عن الأديب الكبير حتى اليوم:

من هو (أديب) ؟

--١--

إن المراجعة الدقيقة لكتابات هذا العصر، كتابات طه حسين منها، أو كتابات غيره، أو بعض الوثائق التي عثرنا عليها في دار المحفوظات العمومية أو في أرشيف جامعة القاهرة ومحافظها، كل هذا، يمنحنا الإجابة عن هذا السؤال.

ولنبدأ من داخل النص.

إن (أديب)، باختصار، شاب مصري وصفه الكاتب صراحة بأنه (دميم الشكل نابي الصورة)، لكنه شديد الذكاء

جهير الصوت يلتقي بطه حسين في الجامعة المصرية، ويلازمه قرابة ثلاث سنوات قبل أن يزمع السفر إلى باريس في بعثة دراسية بسببها يطلق امرأته، وتتوالى رسائل (صاحبنا) إلى المؤلف منذ ركب البحر وحتى وصل إلى باريس وعاش فيها.

أما في باريس فقد كان، كعهده دائما، غريب الأطوار دائب الحركة، ينصرف حينًا إلى دروسه في السوربون وأحيانًا كثيرة إلى لهوه ومجونه، فتسلمه حياته المضطربة إلى الجنون أو إلى شيء أشبه بالجنون حين يهذي معتقدا أنه (ألمانيا) يحارب الحلفاء حتى تشتد به العلة، فيموت .. ويصف الراوي ـ وهو طه حسين ـ الأيام الأخيرة لهذا الأديب في باريس فيقول:

كان يتحدث إلي في أمر السوربون أو في أمر إلين فيستقيم الحديث استقامة حسنة، ولكنه لا يكاد يسمع في الجو أزيز الطيارة ـ وما كان أكثر ما يسمع أزيز الطيارات في باريس ـ حتى ينهض بل يثب ويهم بالخروج. فإذا سألته ما خطبه؟ أجاب: ألست تسمع أزيز هذه الطيارة؟ فإنه دعاء إلى الخروج.

وكان قد استقر في نفسه أن الصحف الفرنسية كلها مجمعة على مقته وبغضه والكيد له.

وكان يشتري منها أكثر ما يستطيع شراءه، وينفق في قراءتها أكثر وقته ليتبين هذا الكيد الذي تكيده له، وهذا المكر الخبيث الذي تمكره به، ولم يكن يلقي في ذلك جهدا كبيرا، فقد كان هو ألمانيا، وكان كل ما تذكره الصحف عن ألمانيا موجها إليه ومنصبا عليه انصبابا.

وكان يؤذيه من أمر هذه الصحف أنها لا تعرف له حبه لفرنسا ووفائه لباريس وإقامته فيها حين تفرق عنها الناس، ما أشد جحود الفرنسيين للجميل وكفرهم لصداقة الصديق!

تلك هي أهم ملامح (أديب) كما حاول أن يرسمها طه حسين في بداية الثلاثينيات، والنهاية التي انتهى إليها، وهي وإن كانت تحمل سلاسة أسلوبه ووعيه الذي يقترب من الواقعية، فإن الغموض يغلفها إلى درجة يخطئ الكثيرون في تبين حقيقة الصلة بين الكاتب والأديب، وبين تميز ما هو عام وما هو خاص.

غير أن تلك الحوادث التي رسمها الكاتب على شكل

(مناقشات ورحلات ورسائل) يمكن أن نجد لها أصداء أكثر دلالة في غيرها من الكتابات الأخرى المعاصرة.

يمكن أن نجد أول هذه الأصداء في كتابه (الأيام) الجزء الثالث، فبعد أن كتب طه حسين عن حياته في الجزء الأول، وعن القرية والأزهر في الجزء الثاني.

راح في الجزء الثالث والأخير يحدثنا عن حياته الجامعية فسفره إلى باريس وهناك، كما يقول (يصرف على الرسالة صرفًا عنيفًا. ويشغل عنها شغلاً متصلاً أكثر من شهرين فهذا رفيق مصري من رفاقه في الدرس، وصديق من أصدقائه قبل البعثة وبعدها، قد ألم به مرض عصبي خطير، وليس له في باريس من يرعاه أو يهتم لشأنه، وقد انتقلت إدارة البعثة الجامعية من باريس إلى لندن فلم يكن بد للفتى من أن يعنى بصديقه وزميله في الدرس ويقوم منه مقام مدير البعثة، وهو يعرض على الطبيب ويكتب في شأنه على مدير البعثة مرة وإلى الجامعة في القاهرة مرة أخرى وينفذ أمر الأطباء، فينقل صديقه من باريس إلى حيث يستطيع أن يعيش خارج المدينة في الهواء الطلق والحياة الهانئة، التي لا عجيج فيها ولا ضجيج، وهو مضطر إلى أن يزوره بين حين

وحين، وقد يدعوه فجأة صاحب الفندق الذي يعيش فيه المريض فيهرع إليه، ويسمع من أنباء صديقه ما يملأ قلبه لوعة وحزنًا، ويثير أمامه من المشكلات ما لا يعرف إلى النفوذ منه طريقًا.

وهو في أثناء هذا كله يتلقى الرسائل المناهضة من الجامعة ومن مدير البعثات، ويتلقى المال القليل لينفق منه على المريض الذي كان يسرف في الإنفاق، ولم تكن حاجاته تنقضي، ويتلقى في الوقت نفسه من الجامعة مطالبته بتأدية الحساب الدقيق عما أنفق.

ولا تنجلي عنه هذه الغمة حتى يتلقى أمر الجامعة بإعادة الصديق المريض إلى القاهرة (كما نعرف من الأيام الجزء الثالث).

وقبل ذلك بصفحات قليلة، كان طه حسين قد ذكر في معرض حديثه عن صعوبة تعليم اللاتينية أنه من مصريين آخرين صمموا على أن يقهروا هذه الصعوبة مستطردا:

(فأما أحدهم فقد جد وكد وتقدم للامتحان فأخفق، ثم أخذ يستعد ليؤدي الامتحان في العام المقبل، ولكن الأسباب تقطعت بينه وبين ذلك، أدركته العلة فاضطرب أمره، واختلط

عقله، ورد إلى مصر فأنفق فيها أياما كئيبة يائسة، فاستأثرت به رحمة الله فأراحه من أثقال الحياة).

-٣-

وهذه النهاية تتفق تمام الاتفاق مع نهاية (أديب) طه حسين، ففي آخر صفحات روايته (أديب) نقرأ هذه العبارة:

(مريضا لا تظهر عليه آثار المرض، ولكنه مؤمن كل الإيمان بأنه مريض، لا يشكو شيئًا لكنه واثق كل الثقة بأنه مريض، قد عرض على الأطباء فلم ينكروا من صحته شيئًا، ولكنه مقتنع أشد الاقتناع بأنه مريض وبأن الأطباء مخطئون.

ولا أكاد أتحدث إليه وأتبسط معه في الحديث حتى أستيقن أنه أيضا مريض وأن مرضه أخطر جدا مما يظن ومما كنت أقدره فقد انتهى إلى الجنون الذي كان يخشاه، أو إلى شيء قريب جدا من هذا الجنون).

ويستطرد طه حسين في حديث طويل حول مظاهر جنونه، فهو يتحدث إليه في أمر السوربون حيث كان يدرس، وفي أمر إلين الفتاة التي كان يحبها فإذا الحديث كما كان يقول في نهاية الرواية.

(.. يستقيم استقامة حسنة، ولكنه لا يكاد يسمع في الجو

أزيز الطيارة -وما كان أكثر ما يسمع أزيز الطيارات في باريس حتى ينهض بل يثب ويهم بالخروج، فإذا سألته ما خطبه؟ أجاب: ألست تسمع أزيز هذه الطيارة؟ فإنه دعاء إلى الخروج.

وكان قد استقر في نفسه أن الصحف الفرنسية كلها مجمعة على مقته وبغضه والكيد له، وكان يشتري منها أكثر ما يستطيع شراءه، وينفق في قراءتها أكثر وقته ليتبين هذا الكيد الذي تكيده له، وهذا المكر الخبيث الذي تمكره، ولم يكن يلقى في ذلك جهدا، فقد كان هو ألمانيا، وكان كل ما تذكره الصحف عن ألمانيا موجها إليه ومنصبا عليه انصبابا..).

وثمة أصداء أخرى تؤكد على أن أديب كان إنسانًا بعينه فسوزان قرينة طه حسين تتحدث عن هذه الفترة فتقول في كتابها الوحيد عن طه حسين بعنوان (معك) فتذكر صبيا ودودا لامعا تتعرف عليه كما تقول:

(في فترة خطوبتنا وزواجنا: شابا ودودا لامعا).

وهي حين تعود بذاكرتها إلى تلك الفترة منذ قرابة نصف القرن، تضيف:

(.. القصة غير كاملة عن عمد، فالصبي المسكين سقط مريضا، وكان لابد من ترحيله إلى الوطن، كان الزمن زمن حرب، وقد عرفنا أنه يعيش في قريته.. ولم نستطع أبدا أن نحصل أخبارا أخرى عنه).

-٤-

وقد يضاف إلى إشارات طه حسين الأكيدة العديدة عن شخصية (أديب) الحقيقية ما رواه أحد زملائه الاثنين (طه حسين وأديبه معا) وهو صبري السوربوني لأصدقائه عن حقيقة هذه الشخصية وهو ما ترجمه لنا في أكثر من موضع في كتبه والدوريات التي كتب فيها.

إن د. صبري السوربوني يقول في صحيفة (السياسة الأسبوعية) في ١٠ يناير ١٩١٣، وهو، عين ما ورد في كتابه (أدب وتاريخ واجتماع)، كلاما واحدا يتفق في اللفظة والمعنى الذي يؤدي إليه، يقول السوربوني:

(.. وإني لأذكر صديقًا كان زميل دراستي في باريس وكان خير مؤنس لي في وحشتها.. وكان على ذكاء عظيم، شديد الفطنة قوي الملاحظة كثير المطالعة والتأمل في وجوه الرجال، لا تفارق شفتيه ابتسامة، ولا يعرف الحزن إلى قلبه

سبيلاً، دار الفلك دورته وأصيب هذا الصديق بداء عضال في عقله فعاد إلى قريته في مصر ثم مات..).

والواقع، أن هذه الرواية لشاهد العيان لا نشك في صحتها، فالسوربوني درس مع طه حسين في معهد واحد، ونال هناك على دكتوراه الدولة، ويؤكد هذا أيضا، أن طه حسين ذكره في أكثر من موضع في (أيامه).

-٥-

وقد ظل طه حسين وفيا لذكرى صديقه (أديب) فترة طويلة إذ رفض في مرات عديدة الإفصاح عن اسمه الحقيقي، ففي منتصف الستينيات على سبيل المثال، قال لمن أصر على معرفة اسم (أديب)، قال بالحرف الواحد:

(إن صاحب الكتاب شخصية حقيقية لن يفيد ذكر اسمه بشيء.. ولا أنصح بنشره لأن أسرته ما زالت موجودة، لقد كان زميلي في الجامعة ثم في السوربون، وكان في غاية الذكاء والانتباه، وقد انتهى نفس النهاية التي صورتها في الكتاب).

((فؤاد دوارة. عشرة أدباء ص ٢٠)).

-٦-

وقد ثبت طه حسين في موقفه هذا طويلاً وأضاف إليه، فحين سئل لآخر مرة قبل وفاته بفترة وجيزة من صاحب مجلة (الرسالة الجديدة) ((٦/ ١٩٧٧)) عن (أديب)، من هو؟ كان لابد أن يجيب خشية اختلاط الأسماء، جاء السؤال: هل أديب هو محمود الزناتي أو شخص آخر؟

وجاءت إجابة طه حسين الحاسمة على الفور:

- هو المرحوم جلال شعيب من بني سويف، وعندما سافر في بعثة إلى فرنسا ألقى نفسه في تيار الحياة الأوروبية الحديثة، وأسرف على نفسه، وأصيب ببعض الأمراض التي أثرت على عقله.. وكان يرسل إلى أساتذته في السوربون خطابات يشكو فيها من أن الصحافة الفرنسية تشن عليه الحملات وتشتمه.

-٧-

(ويؤكد هذا)، وإن لم يكن في حاجة لتأكيد ما تخفيه محاضر الجامعة المصرية بخصوص طلبتها الذين كانوا يدرسون في فرنسا في هذا الوقت.

(إن محفظة رقم ٣ التي تحتوي على محضر مجلس

الإدارة عام ١٩١٩ جاء فيها:

(.. علم المجلس بعودة جلال أفندي شعيب، والذي كان طالبا بإرسالية الجامعة في فرنسا وأصيب باختلال في قواه العقلية بعد سقوطه مرتين في امتحان ليسانس الآداب واستقالته).

وقد علمت إرسالية الجامعة بما تم من حضور أهله إلى مصر وتولى شئونه الخاصة وبذلك تكون انتهت المهمة التي تكلفت بها الجامعة من مباشرة إعادة هذا الطالب إلى القطر المصري.

ولما كانت المادة الثامنة من لائحة الإرساليات تقضي باسترجاع أو شطب اسمه من أثر غيابه من الامتحان أكثر من فترة، فضلاً عن استقالته من عضوية الإرسالية، لذلك قرر المجلس اعتبار جلال أفندي شعيب منفصلاً عن سلك إرسالية الجامعة من تاريخ وصوله إلى القطر المصري، وهو يوم ٢٦ فبراير ١٩١٩).

-٨-

وهنا، نكون قد وصلنا إلى إجابة واضحة لسؤالنا الأساسي حول (أديب) طه حسين..؟

أن أديب أولاً، لم يكن طه حسين.

وأديب ثانيا، كان شخصية حقيقية عاش في فترة التحول الحضاري في بداية هذا القرن.

وأديب ثالثًا، هو الذي حاول طه حسين من خلاله أن يرصد لمراحل الصراع الحضاري بين الشرقي والغربي في فترة من أخطر فترات تحولها الحضاري سواء تمثل في فترة التحول كلها، أي منذ دخولنا لعالم العصر الحديث، أو في فترة كتابة هذه الرواية في فترة قريبة من معاهدة ١٩٣٦.

الفصل السادس

طه حسين والصهيونية

هناك رأي لجوبلز، مسئول الإعلام في حكومة هتلر، مؤداه، أنه كلما كانت الكذبة كبيرة أمكن تصديقها.

وما يقوله جوبلز يصح، بدرجة ما، على ما يوجه لطه حسين من اتهامات يعجب المرء لكونها توجه إلى طه حسين، لما بينهما -الاتهام والمتهم- من بون شاسع.

والقضية، أو الاتهام (واعجب ما شئت!) أن هناك علاقة (أو، على الأقل تورطًا) بين طه حسين والصهيونية وصلت إلى ذروتها في عقد الأربعينيات.

وكيلا تتحول القضية إلى حقيقة يمكن تصديقها (وهو ما يريده الجوبلزيون) لابد من تحديد أطرافها: الاتهام والادعاء والدفاع..

فما هي اتهامات طه حسين في هذه القضية؟

(١)

الاتهام:

يمكن إيجازه فيما يلي:

* أنه أشرف على رسالة اليهودي -إسرائيل لفنسون- وكان يطلق عليه لقب (أبو ذؤيب) عام ١٩٢٧، وقدم لها في كتاب، بل توسط له حتى يعمل في دار العلوم، وحين قامت إسرائيل عين في الجامعة العربية بالقدس.

* أنه ألقى محاضرة في مدرسة إسرائيلية بالإسكندرية عام ١٩٤٤ عن إسهامات اليهود في الأدب العربي بعد أن لبى الدعوة.

* أنه تولى رئاسة مجلة (الكاتب المصري) التي أنشأها أربعة أخوة من اليهود (آل هراري)، واستمر برئاستها بين عامي ٤٥/ ١٩٤٨ قبل حرب فلسطين بعدة أشهر.

* إنه لم يعثر في كتاباته على شيء عن القضية الفلسطينية: التأييد أو المساندة لاسيما إبان ممارسة الصهيونية الإرهاب والطرد.

ويلاحظ أن هذا الاتهام شارك فيه عدد كبير من أعداء طه حسين من إسماعيل مظهر في الأربعينيات حتى أنور الجندي في الثمانينيات، وبينهما تخبطت الآراء من جهل وسوء نية ما يدفع تلامذة طه حسين وأبناءه إلى الدفاع والغلو

فيه (وهل طه حسين في حاجة لدفاع)؟

فلنرجئ الدفاع لنتوقف هنيهة عند الادعاء.

ادعاء عمالة طه حسين الصهيونية.

الادعاء:

تتعدد دعاوى الادعاء وتتحدد عند عدد كبير من المصريين واليهود أنفسهم، بل وتشارك فيه بعض المؤسسات العلمية بحجة المنهج والحيدة.

وربما كان أبرز ممثلي الادعاء ضد طه حسين المفكر والمعروف إسماعيل مظهر الذي راح خلال جريدة (المقتطف) يوجه سهام النقد والاتهام لطه حسين (والمعروف أن لهذه الجريدة علاقاتها الوطيدة بالصهيونية منذ أوائل هذا القرن حين تركت حرية التعبير لهم بشكل واضح على صفحاتها).

وكما شارك في هذا الموقف جريدة (المقطم) (المعروفة بولائها للإنجليز).

بل إن ما يثير الحيرة الشديدة أن صحيفة يملكها يهودي هي (التسعيرة) راحت في عرض هجومها عليه تسأل كيف تثنى لصحيفة (الكاتب) التي رأس تحريرها طه حسين أن

تحصل على الورق رغم صدورها بعد القانون الذي صدر في أثناء الحرب الثانية والذي ينظم حصول الصحف السيارة القديمة فقط على الورق من وزارة التموين، من طه حسين، وهو موقف يظهر معارضة طه حسين للأزهر وممثليه من الوجوه السلفية وموقفه القديم منه، ويظهر ضيق الأزهر داخل الجامع وخارجه من موقف طه حسين منذ كتابه (في الشعر الجاهلي) عام ١٩٢٦.

هذا داخل مصر.

أما خارجها، فلا نريد الإسهاب في موقف إخواننا المشارقة -وفي أغلبهم- من عدم ميلهم لطه حسين لأنه مصري، أولاً، ولأنه ثانيا، ما زال يثير، رغم مضي خمسة عشر عاما على رحيله كثيرا من القضايا التنويرية التي يجب أن يستمر الاحتفاء بها إلى اليوم..

أما إخواننا المغاربة، وخاصة، في الجزائر، فما زال بينهم الكثير ممن يعتقد أن طه حسين كان من مؤيدي الفرنسيين إبان الحرب العالمية الثانية، في جانب احتلالهم للجزائر، وقد خبرت هذا الرأي عن قرب من أساتذة طه حسين الذي أكده كثيرا في كتاباته، أن الوعي يحتم على

المثقف المعاصر أن يفرق بين الفرنسيين كمحتلين برابرة، وبينهم كأصحاب حضارة ينتمون إلى هذه الحضارة الغربية التي نعيش فيها اليوم[1].

وإلى جانب هذا كله، فإن موقف الخصومة من طه حسين داخل مصر وخارجها حتى اليوم يشوبه -وما زال- قدر كبير من سوء الطوية أو الجهل أو التجاهل، يوجه الادعاء ضد مواقف طه حسين والاتهامات المتتالية عنه.

ولا نعرف أين نضع مؤسسة ضخمة مثل الجامعة الأمريكية (مركز الدراسات العربية) فيها بوجه خاص، ففي السلسلة التي صدرت عن (أعلام الأدب المعاصر في مصر) وفي الجزء الأول منها الذي حدد حول طه حسين، نلحظ عدم وجود عديد من كتابات طه حسين حول الصهيونية وقضية

([1]) من الإنصاف أن نذكر أن هذا الرأي -اتهام طه حسين- لا نجده بهذا القدر في قطر عربي مثل تونس، وعلى سبيل المثال، فقد أكد لي محمد مذالي -رئيس الوزراء في العهد البورقيبي- أن تونس تولي طه حسين عناية خاصة وإعزازا لا يشوبه فهم خاطئ لدور العميد.. وهو ما لا نجده أيضا في المغرب.. وربما وجدناه في الجزائر لظروف الأصولية الخاصة بها وملابسات تاريخها الحديث.

فلسطين.

ورغم أن هذا الجزء أعيد نشره وكتب تحت اسم طه حسين (طبعة جديدة مزيدة ومنقحة) وذكر داخله أنه أمكن استدراك عديد من المواد التي أغفلت من قبل (١٩٨٢)، فإن العجب العجاب يصل إلى أقصاه حين نرى أن كتابات طه حسين، وبوجه خاص حول قضية فلسطين، غائبة (وبلفظة أدق: مغيبة).

وسوف نذكر مقالة بعينها لندلل بها على ذلك، ففي صحيفة (كوكب الشرق) التي صدرت في ٢٨ أكتوبر ١٩٣٣ يكتب طه حسين تحت عنوان (فلسطين) عن هذا البلد العربي ومن مأساته ما لا يمكن تجاهله سواء للمساحة الضخمة التي خصصت للقضية، أو لأفكار طه حسين الواعية بالقضية العربية ومأساة فلسطين في فترة مبكرة.

وهو ما يقال على عدد كبير من المقالات التي أغفلت رأيه في هذه القضية فيما يبدو، وما يرجح هذا، أنها تتحلق جميعها حول نفي القضية التي راح يؤكدها -خطأ- العديد من أعداء طه حسين ومريدوه في حياته وبعد رحيله.

وما يقال عن طه حسين في هذه السلسلة يقال عن

الآخرين ممن خصصت لهم الأعداد التالية في كتاب (الأعلام) من أمثال العقاد والمازني.

وعلى أية حال، فإن الابتعاد عن دائرة الادعاء إلى أفق الدفاع (أو الدفوع كما يقول القانونيون) يغرينا بالوصول إلى الحلقة الأخيرة من هذه القضية.

ونقصد بها حلقة الدفاع عن طه حسين.

وهذا الدفاع لا يقصد به الانتصار لقضية لابد من الفوز بالحكم فيها لصالح الخصم ظالما كان أو مظلوما شأن عديد من المحامين اليوم، وإنما هو من قبل إحقاق الحق دون نازع أو قصد.

ورغم أن الحكم ضد طه حسين كان واجبا يحتمه علينا طبيعة البحث العلمي في غير هذا الموقف (انظر كتابنا: طه حسين وثورة يوليو، دار التراث الإسلامي، القاهرة ١٩٨٩)[١]، فإن الحكم لطه حسين، هنا، يظل، أيضا، واجبا

([1]) ((.. الأكثر من هذا دلالة أن دوائر الحكم في مصر - القصر الملكي ومعظم الأحزاب- لا تعرف بما فيه الكفاية عن الحركة الصهيونية، وكان النظر إليها في الفترة التي أعقبت الحرب مباشرة تتأثر بطابع إنساني، لم يكن له في ==

تحتمه علينا طبيعة البحث العلمي وضرورته.

وهو حكم يخلو من القصد أو النازع الشخصي، كما أسلفنا، ويغلو في الحيدة والبحث عن الإنصاف لوجه الحق والحقيقة التاريخية..

والآن، ما هي مفردات الحكم على طه حسين؟ أو الدفاع عنه..؟!

(٣)

الدفاع:

حقيقة الأمر مبرر.
وكانت معظم اليهود في مصر و (أصلان قطاوي) (باشا)، وهو أبرز قواد الجالية اليهودية في مصر، وكان عضوا في مجلس الشيوخ المصري، وكانت زوجته وصيفة شرف لملكة مصر، وكل من هذين الرجلين يصور الصهيونية على أساس أنها مجرد تنظيم ليهود لاجئين من جحيم النازي، يبحثون عن مأوى يستطيعون العيش فيه بسلام، ومن المحتمل أن كلاً من هذين الرجلين لم يكن لديه صورة حقيقية عن مطالب الحركة الصهيونية الجديدة)).
(انظر: محمد حسنين هيكل، ملفات السويس، مركز الأهرام للترجمة والنشر القاهرة، ص ١٠٢).

نستطيع أن نحدد اتهامات طه حسين في موقفه من الصهيونية في عديد من النقاط، يمكن تلخيصها جميعا في اثنين:

أولاً: موقفه من (الكاتب المصري).

ثانيا: موقفه من قضية فلسطين.

أما عن اتهام طه حسين بعلاقاته العربية بالصهيونية إبان توليه رئاسة مجلة (الكاتب المصري).. فإن ذلك غير صحيح، وهذا النفي يشير إليه طه حسين نفسه في مجمل دفاعه، أو تشير إليه كتاباته كرئيس تحرير لهذه المجلة، أو يشير إليه طبيعة المناخ السياسي الذي دفع إلى مثل هذا الاتهام دفعا.

أما عن طه حسين، فإنه لم يصمت، قط، إزاء هذا الاتهام، بل تصدى أكثر من مرة لهذا، وحين طلب منه الدفاع عن نفسه، فإنه اتجه إلى صحيفة (البلاغ الفلسطينية عدد ١٥٤ أكتوبر ١٩٤٥) وكتب خطابا طويلاً نشر بالفعل وجاء فيه:

((طلبوا إلي أن أكون مشيرهم في ذلك فقبلت بعد أن استقصيت وأحسنت الاستقصاء وتبينت أن الأمر لا يتصل

بالصهيونية من قريب أو بعيد)) البلاغ ١٥ أكتوبر ١٩٤٥)).

والذي يقترب أكثر من مجلة (الكاتب المصري) يقرأ في الافتتاحية والبرنامج الذي تعهد به طه حسين على نفسه وعلى غيره من كتاب المجلة ما يلي:

((لا تنحاز -أي المجلة- إلى طائفة، ولا تتعصب لمذهب، ولا تقيد نفسها إلا بحقوق مصر الأمم العربية) الكاتب أكتوبر ١٩٤٥).

بل إن مراجعة أعداد المجلة التي صدرت (٣٢ عددا) يتأكد لنا أن هذا العهد الذي أخذه طه حسين على نفسه وعلى ما يكتب في المجلة منذ اليوم الأول التزم به طيلة صدورها (بين أكتوبر ١٩٤٥- مايو ١٩٤٨)، فهي لم تكرس للصهيونية، ولم تدر في فلكها، ولم ينشر فيها ما يستشم منه أنه يعمل على تثبيت أقدام اليهود في فلسطين أو الدعاية لهم خارجها، بل على العكس من ذلك، فإن ما جاء فيها يشير إلى أنها حملت الإنجليز مغبة ما يحدث، وأرجعت سواء حال الفلسطينيين وبؤسهم إلى سياسة هؤلاء الإنجليز التي تنحاز للصهيونية صراحة.

إن صحف هذه الفترة تشير إلى الدور الإنجليزي ضد

العرب الفلسطينيين (لنذكر عنوانات صحف هذه الأيام فقط: تعطيل الإنجليز للصحف العربية في فلسطين/ هؤلاء الإنجليز.. لماذا لا ((يتشاطرون)) إلا على العرب وحدهم/ حقد الإنجليز على العرب وفظاعتهم/ الإنجليز عبيد اليهود/ لولا الجيش البريطاني.. إلخ)، وكثيرا ما نقرأ كتابات طه حسين تلوم الإنجليز وتشين سياستهم التي لا تخرج عن (الانتداب والوصاية والاستعمار).

وتمضي سياسة المجلة في هذا الاتجاه حين ترثى لسياسة الأمم العربية التي تترك فلسطين وحدها تواجه الغرب المدجج بالسلاح على أيدي الصهيونية، وهو ما يعني أن هذا العربي يترك الحبل على الغارب لهم، مما يزيد من هوة الخطر الذي يمثله هؤلاء الصهاينة.

بيد أننا نلاحظ أن اهتمام المجلة بالقضية الفلسطينية لم يصل إلى درجة اهتمامها بالثقافة والأدب العالمي، وهذا طبيعي جدا، إذ إن الشعار المعلن للمجلة كان هو أنها (مجلة أدبية شهرية).

ومن هنا فإنها ((لم تعط اهتماما أكبر بالقضية الفلسطينية فضلاً عن أن رئيس تحريرها ومعظم الذين كتبوا

فيها كانوا من أنصار القومية المصرية ولذلك شغلتهم قضايا مصر بالدرجة الأولى (سهام نصار، اليهود المصريون صحفهم ومجلاتهم ١٨٧٧- ١٩٥٠)، العربي للنشر، القاهرة، ص ٧٩).

وبدهي هنا، وهو ما يؤكده التعرف على طه حسين وفكره ومواقفه لسنوات طويلة، أنه لم يكن ليسعى إلى التعاون مع الصهيونية بأية حال، وإنما سعى بفكر متنور إلى الإفادة من هذه المجلة ليلعب دوره التنويري، وحتى على افتراض أن ((الأخوان هراري)) حاولوا الإفادة منه، فإنه لم يمض في هذا الطريق ولم يسع إليه.

والأرجح في ادعاءات من هذا النوع أنها لا تضع في الحسبان تكوين طه حسين ووعيه وصلابته في مجال الأدب والسياسة، فمثقف هذا تكوينه، لا يمكن أن يرضى أن يلعب دور الأداة مهما يكن الثمن الذي يعرض عليه.

ويظل التفسير الأرجح في الهجوم الحاد على طه حسين وعلى مجلته، هو، أن النوازع السياسية لعبت دورا كبيرا في توجيه هذا الاتهام.

فالمعروف أن طه حسين كان منتميا إلى حزب الوفد

الذي تولى الوزارة بين عامي ١٩٤٢/ ١٩٤٤، حتى إذا ما خرج هذا الحزب من السلطة عام ١٩٤٤، كان طه حسين قد أقيل مع إقالة الوزارة، بالتبعية.

ولأن الوزارة التي خلفت وزارة الوفد وزارة الوفد في هذا الوقت تشكلت من أعداء الوفد ورئيسه مصطفى النحاس (تشكلت الوزارة الجديدة من السعديين- الدستوريين- الكتلة)، فقد كان من الطبيعي أن يشهد أي تحرك لطه حسين (المنتمي للوفد) الشك والريبة بل وسوء النية والقصد.

ولندلل على هذا يمكن أن نشير إلى مثل واحد، فالوزارات التي تشكلت بعد إقالة الوفد (عام ١٩٤٤) حتى عاد إلى الوزارة الوفدية الثانية (١٩٥٠).

كان بها الكثير من خصوم طه حسين ممن بدءوا في مهاجمته وبذل جميع المحاولات لسد أبواب الرزق أمامه)) (سهام نصار، السابق، مقابلة مع لويس عوض ص ٧٧).

ويكفي أن نذكر في هذا الصدد أن الفترة التي عاصرت صدور مجلة الكاتب في إبان ازدهارها (بين عامي ٤٦/ ١٩٤٨)... هذه الفترة، شهدت مجيء وزارة إسماعيل صدقي الثالثة، والمعروف أن صدقي كان عدوا لدودا لطه

حسين في بداية الثلاثينيات حتى سعى إلى إخراجه من الوزارة ونبه على السفارات الأجنبية ألا تساعده قط.

وعلى هذا نستطيع أن نفسر كثيرا من الكتابات المهاجمة لطه حسين ومجلته (الكاتب المصري) خاصة من أولئك السعديين الذين جاءوا إلى الحكم وهدفهم الأول كان تدمير الوفد على جميع المستويات، وسعوا إلى التفرد بالحكم حتى أنهم حاولوا استبعاد الدستوريين أنفسهم بعد ذلك.

ومراجعة دوريات هذه الفترة، ممن شنت هجوما عاتيا على (الكاتب المصري) نستطيع أن نتيقن أن أكثرها كان ينتمي للسعديين والسياسة الجديدة.

هذا عن (الكاتب...) فماذا عن موقفه من قضية فلسطين؟

(٤)

على العكس مما يردد كثير من الكتاب المعاصرين (أنور الجندي، ورجاء النقاش، وعبد المجيد المحتسب وغيرهم...) فإن في كتابات طه حسين الكثير عن قضية فلسطين، فمن الملاحظ أن عددا كبيرا ممن يهاجمون طه حسين أو يدافعون عنه، إنما يقعون في خطأ أن طه حسين

تجاهل قضية فلسطين (حيث لا نجد في كتاباته شيئًا عن فلسطين) كما يقال.

ويترتب على هذا كما يقولون أنه يرتبط في هذا بأواصر خفية، أو ظاهرة، بالصهيونية، أما المدافعون عنه - وعلى رأسهم رجاء النقاش فيرتبط موقفه بافتقاده المادة، ومن هنا، يقع في حيرة الوسيلة التي يريد تأكيد بها الغاية التي يسعى للبرهنة عليها، وهي، أن طه حسين لم يرتبط بالصهيونية بأية حال.

والواقع، أن افتقاد رأي طه حسين في قضية فلسطين (وهو رأي سعى إلى التعميم عليه عديد من المصادر، كما رأينا)، يظل المسئول عن عدم فهم هذا الموقف.

فمن المؤكد أن إحساسه بالقضية الفلسطينية كان يخضع -كأبناء جيله- إلى مؤثر هام، هو، أن وعيه بهذه القضية لم يحل دون إيمانه القوي ((بالمواطنة)).

ولم يكن ليعتقد أي من أبناء هذا الجيل أن اليهود لهم أحلام توسعية سعت إليها الصهيونية بعد ذلك وغذتها بكثير من الأفكار السياسية.

كان اليهودي في مصر كأي مواطن لا يحمل الريب

ولا يقترن تصرفه بما يمكن أن يشين البلاد، كما أن الإحساس بالصهيونية، وخطورة المشكلة الفلسطينية لم يكن قد وصل إلى شكله الذي ينذر بخطر مبين قط، اللهم إلا، بعد إعلان دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، ومن هنا، فإن الإحساس بالخطر الصهيوني لم يكن قد اكتملت دائرته إلى هذا الشكل[١].

([1]) وهو ما يظهر منذ فترة مبكرة، منذ تشكيك البعض في مجلة (الكاتب المصري) قبل صدورها، فحين تتشكك مجلة (آخر ساعة) في موقفه خلال هذه المجلة يدور هذا الحوار معه:

(- ماذا ترى في مسألة فلسطين؟

- أرى أنها مشكلة أنشأها الظلم ويجب أن يمحوها العدل، والعدل أن فلسطين قطر عربي يجب أن يصبح دولة عربية عضوا في جامعة الدول العربية كمصر والعراق وغيرها من الدول المشتركة في هذه الجامعة، وكل حل غير هذا ظلم يجب أن تقاومه الحكومات والشعوب العربية بكل ما تملك من قوة.

- ما رأيك في بيع أراضي فلسطين لليهود؟

- أرى أنه خطر يجب أن تتعاون الدول العربية على تمكين عرب فلسطين من مقاومته..و ..).

(مجلة آخر ساعة، العدد ٥٧٥/ ١٤، أكتوبر ١٩٤٥).

==

كان إحساس طه حسين بفلسطين العربية إحساسا ناضجا، وكثيرا ما كان يذهب إلى فلسطين لقضاء أجازة يروح فيها عن نفسه وعن أسرته، وأوراقه الرسمية ما زالت حتى اليوم تحمل (مذكرة) تقدم بها إلى وزير المعارف العمومية في النصف الثاني من عام ١٩٤٢، يقول فيها أنه يريد (أجازة) (سأقضيها في فلسطين) (انظر دار الوثائق، محفظة رقم ١٤٠/ ١١١/ ١٢/ ٤٢).

الأكثر من هذا أن طه حسين كان واعيا بما يمكن أن تؤول إليه قضية فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية، فحين سأله مندوب مجلة Images du Monde - نوفمبر ١٩٤٥- عن قضية فلسطين، قال بسرعة:

- (انتهت الحرب بالقنبلة الذرية.. لكنها تركت قنبلة زمنية هي فلسطين).

وهو ما تحفظه ذاكرة قرينته فتذكره بعد ذلك بزمن طويل.

وعلى أية حال، فإنه يمكن تحديد موقف طه حسين،

وهو ما تؤكده وتشير إليه مقالاته في أعداد ((الكاتب)) نفسها.

من خلال ملاحظتين هامتين:

أولاً: تعاطفه مع أهل فلسطين.

ثانيا: فلسطين في (الكاتب).

أما تعاطفه العام مع أهل فلسطين، فهو يظهر أكثر ما يظهر في مقالاته المبكرة ونخص منها الآن هذه المقالة التي وضع لها عنوانًا هو (فلسطين) ونشرت في جريدة (كوكب الشرق) في ٢٨ أكتوبر ١٩٣٣.

ثم مقالاته التالية في نفس الجريدة في نفس العام وفيه الحقبة التالية.

إن تعاطفه الشديد مع ما يحدث لأهل فلسطين من الإنجليز والصهاينة في هذا الوقت المبكر يدفع به ليكتب قائلاً:

(.. إن الذين يشهدون هذه المشاهد المؤلمة ثم لا يتألمون، ويتلقون هذه الأنباء المحزنة، ثم لا يحزنون.. ليسوا من الناس الذين يستحقون هذا الاسم، وإنما هم قوم قست قلوبهم فهي كالحجارة وأشد قسوة، فكيف وبيننا وبين إخواننا من أهل فلسطين صلة الجوار في الدار والاشتراك في اللغة والدين، والاشتراك في المثل الأعلى، والاشتراك فيما نلقى

جميعا من الظلم وما نحتمل جميعا من العسف، وما نسام جميعا من هذا الظلم المخزي).

وبعد أن يقارن طويلاً بين ما يلاقيه الفلسطينيون هناك من عسف وإرهاق على أيدي الصهاينة والإنجليز، وما يلاقيه المصريون هنا على أيدي الإنجليز وعملائهم، يصل إلى بدهية هي أن الظالم هنا وهناك هو الأوروبيون، يضيف:

(إن الأوروبيين ليعلمون حق العلم أن أهل الشرق قد استيقظوا بعد نوم، وتنبهوا بعد غفلة، ونشطوا بعد فتور).

ويصل طه حسين إلى ذروة الوعي بما يحدث للفلسطينيين في أرضهم من ظلم وتقتيل، يقول في نهاية مقالته الطويلة:

في ذمة الله شهداء فلسطين، وفي ذمة الله صرعى فلسطين، وفي ذمة الله آلام العرب في فلسطين، فليس شيء مهما يكن، وليس ألم مهما يعظم بكثير في سبيل الوطن، وفي سبيل الحرية والعزة والكرامة والاستقلال).

ولا يمضي عام حتى يعود إلى (فلسطين) بمقالة طويلة -تحت هذا الاسم- ليتحدث طويلاً عما يلاقيه هذا البلد الشقيق من ويلات، وهو لا يني يهاجم الإنجليز لما يفعلونه

من إنصاف اليهود على العرب ويتعجب من أن (الإنجليز يريدون فلسطين لأنفسهم، وهم يتخذون الصهيونية سبيلاً إلى ما يريدون) مرجحا أن الإنجليز لا يهمهم (أن يقيموا بالصهيونية أنفسهم في سبيل الظفر بفلسطين) كوكب الشرق ٨ يناير ١٩٣٤.

وهو خلال هذه الفترة المبكرة لا يني يتحدث عن فلسطين حديث المراقب الواعي، ويشد انتباهه كثير من الظواهر التي تشير إلى ظلم أهل فلسطين، نختار منها هنا الضجة التي أثارها المجاهد الفلسطيني المعروف محمد على الطاهر، ففي مقالته بعنوان (غريب) يتحدث عن مأساة هذا المجاهد الذي كان قائما في مصر منذ زمن بعيد، فلما تناهى إليه أن أمه مريضة فحاول الذهاب إلى حيث تقيم في فلسطين لم يؤذن له، ويضيف طه حسين متعجبا:

(فما استفتح الباب لم يفتح له، لما ألح في الاستفتاح لم يحفل به، ولما غلا في الإلحاح لم يلتفت إليه، ثم يحمل له البرق فجيعته في أمة فيحاول العود لكن قلب السجان مغلق دائما كباب السجن، فلن يخرج هذا الصديق الحزين البائس من مصر، ولن يرى أمه ميتة كما أنه لم يرها مريضة).

وتتحول قضية فلسطين في كتاباته إلى دعوة ليثور أهل الشرق على هؤلاء الذين يصنعون القضية -الإنجليز- وهؤلاء الذين يهتبلون الفرصة -الصهاينة- ومن هنا، يصيح:

(ما أجدر الشرقيين أن يتفكروا في هذا وأن يرحموا أخاهم هذا الغريب وأن يرحموا أنفسهم فكلهم غريب كهذا الرجل وأن يفكروا لأنفسهم في شيء من العزة والكرامة يطلقهم من هذه السجون الواسعة الهائلة التي يخيم عليها الظلام).

وقد تحول وعيه بالقضية الفلسطينية إلى وعي عام، يلخص قضية (الغريب) سواء أكان مصريا في مصر أو فلسطينيا في فلسطين يضيف:

(الظروف القاسية والخطوب العاتية، والأيام السود تأبى إلا أن يكون المصري غريبا في مصر فكيف بالرجل من أهل فلسطين، إذا أقام على شواطئ النيل).

هذا عن تعاطفه مع أهل فلسطين، فماذا عن موقع فلسطين: الواقع والجغرافيا في مجلة (الكاتب المصري).

وبالعودة، من جديد، لمراجعة أعداد مجلة (الكاتب

المصري) يبدو لنا:

* أنه لم يتناول قضية فلسطين تناولاً مفصلاً.

* أنه لم يهاجم الغرب، كمسئول، عن القضية.

* لم يتخذ من القضية موقفًا حاسما.

ولكل هذه المواقف مبرراتها التي تضيف إلى موقف طه حسين ولا تنال منه.

وببساطة شديدة، فإن مجلة الكاتب لم تكن مجلة سياسية قط، إنما كانت -كما لاحظنا- أدبية في المقام الأول، والأقرب إلى تفسير موقفه عنا أنه كان موقفًا (حياديا)، وإذا كان الأدب -في العالم الثالث لا يعرف الحيادية، فهي تعني البعد عن القضايا الاجتماعية والسياسية الملحة -فمن أن يقال أن موقفه هذا، الحيادي، كان يتخذ وهو يرسل بسهام النقد الشديد على قوى الإنجليز، فهم السبب وراء خلق هذه المشكلة وتعميقها لهدف ذاتي، ومع هذا، فهي لم تجن (سوى الحوادث الدامية).

ولا يعني هذا الموقف الميل إلى الكفة الأخرى، كفة الحياد (الصمت)، وإنما كان هذا الموقف يعني -إلى جانب لوم الإنجليز- إدانة لما يفعله اليهود في فلسطين من إرهاب

وعنف أمام السكان الأصليين، ومع أنه يصف في افتتاحية أحد أعداد مجلة (الكاتب) -يونيو ١٩٤٦- أحد المشاهد البائسة ليهود يهاجرون إلى فلسطين مارين بالإسكندرية التي (كانت السفينة تحمل ألفًا أو نحو ألف من ضعاف اليهود المهاجرين من الأطفال والصبية الذين لم يبلغوا الحلم).. فإن هذا الوصف كان من منطلق إنساني بحت وليس انحيازا صهيونيا بأية حال.

إن هذا الموقف لم يمنعه من أن يقول، وهو بصدد أولئك المهاجرين، أن (أهل فلسطين لم يستأمروا في إيواء هؤلاء البائسين) ويضيف بسرعة في الفقرة التالية (ولكن في الأرض أوطانًا كثيرة أقدر على إيوائهم من فلسطين).

معنى هذا كله، أنه لا يمكن أن توجد علاقة من نوع ما (تورطًا أو تعمدا) بين طه حسين والصهيونية، ففي هذا الوقت من الأربعينيات قبل النكبة -١٩٤٨- لم يكن النشاط اليهودي في مصر مدعاة للشك، كما لم تكن المشكلة الصهيونية التي تجسدت في الأحلام الوهمية في فلسطين قد أعلنت عن نفسها بالشكل الذي بدت به خاصة بعد عام النكبة وصعودا من بداية الخمسينيات.

إن مفهوم الصهيونية لم يكن حينئذ بالشكل الذي عرف به فيما بعد، وشهادة بيير كاكيا Pierre cachia أحد الباحثين اليهود من أصل مالطي)) ويؤكد مثل هذا الرأي (لقاء معه في شتاء ١٩٤٨)، فاليهودي المصري في هذا الوقت المبكر كان يشعر قبل كل شيء بأنه مصري ولم تكن تحول عقيدته دون الانتماء للوطن.

ومما يؤكد على هذا -يستطرد كاكيا- أن يعقوب صنوع في موقفه من النظام المصري والخديو/ الحاكم، لم يكن ليخطر بباله، قط، أنه يهودي، وإنما كانت اليهودية في هذا الوقت قطبا مميزا في دائرة المواطنة التي تحتوي أصحاب عقائد متباينة، مما يؤكد أن هذا المفهوم للصهيونية، كما نعرفه الآن، لم يكن ليطرأ قط، في هذه الفترة المبكرة، على أذهان المصريين.

لم يكن يهود ١٩٤٨ قد كشروا عن أنيابهم، وكشفوا عن أقنعة التواطؤ المريعة التي كانت بينهم وبين الإنجليز، ثم بينهم وبين الأمريكان فيما بعد.

لم يكن اليهود قد وصلوا إلى دير ياسين ونسف المساكن الآمنة وبقر البطون والتطاول على الأرامل والشيوخ

والتهديد والوعيد والإرهاب.. إلخ إلخ.

ورغم أن طه حسين سعى لتأكيد قيمة المواطنة وتحرير العقل المصري من غيبات طويلة، فإنه لم يكن ليخطر، على باله، قط، أن ثمة علاقة يمكن أن تقوم بينه وبين الصهيونية.

كما لم يكن ليخطر، على باله قط، أنه سيأتي من يضعه في دائرة الاتهام، ليأتي بعدها من يحاول الدفاع عنه..

وهل طه حسين في حاجة إلى دفاع؟.

وثائق غير منشورة

كتاب طه حسين إلى لطفي السيد

عقب هجوم الصحف والمؤسسات الحزبية

عليه واتهامه بالكفر

حضرة صاحب العزة الأستاذ الجليل مدير الجامعة المصرية

أتشرف بأن أرفع إلى عزتكم ما يأتي:

كثر اللغط حول الكتاب الذي أصدرته منذ حين باسم (في الشعر الجاهلي) وقيل أني تعمدت فيه إهانة الدين والخروج عليه وأني أعلم الإلحاد في الجامعة وأنا أؤكد لعزتكم أني لم أرد إهانة الدين ولم أخرج عليه، وما كان لي أن أفعل ذلك وأنا مسلم أومن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، وأنا الذي جاهد ما استطاع في تقوية التعليم الديني في وزارة المعارف حين كلفت العمل في لجنة هذا التعليم.

يشهد بذلك معالي وزير المعارف وأعوانه الذين شاركوا في هذا العمل وأؤكد لعزتكم أن دروسي في الجامعة

خلت خلوا تاما من التعرض للديانات لأني أعرف أن الجامعة لم تنشأ لمثل هذا العمل.

وأنا أرجو أن تتفضلوا فتبلغوا هذا البيان من تشاءون وتنشروه حيث تشاءون وأن تقبلوا تحياتي الخالصة وإجلالي العظيم.

في ١٢ مايو ١٩٢٦.

الختم

طه حسين

قرار

وزير المعارف العمومية.

نظرا لخلو وظيفة عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية.

وبعد الاطلاع على المادة ١٠ من قانون رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٧، الصادر بإعادة تنظيم الجامعة المصرية.

وبعد الاطلاع على رأي مجلس كلية الآداب المبلغ لنا بخطاب الجامعة المؤرخ في ١٤ ديسمبر ١٩٢٧.

قررنا بما هو آت

مادة (١)

يعين الدكتور طه حسين الأستاذ بكلية الآداب عميدا للكلية المذكورة.

مادة (٢)

على مدير الجامعة المصرية تنفيذ هذا القرار.

وزير المعارف

(توقيع)

يسلم إلى سعادة مدير الجامعة بعد ظهر ٣ يناير ١٩٢٨.

حضرة صاحب المعالي وزير المعارف العمومية.

والآن وقد تم تعيين العميد لكلية الآداب وانتهت هذه القصة لم أرها والتي لقيت فيها من الضغن ما لم أستوجبه ولا أراه يلائم كرامتي، أتشرف بأن أرفع إلى معاليكم أصدق الشكر وأخلصه لما تفضلتم به علي من عطف وثقة، وأرجو من معاليكم أن تتفضلوا بنقلي إلى عمل آخر في غير كلية الآداب التي أصبحت أجد مشقة كبيرة في البقاء فيها.

وتفضلوا بقبول تحيتي الصادقة وإجلالي العظيم،،

٩ يناير ١٩٢٨

طه حسين

(ختم)

وزارة المعارف العمومية

إدارة المستخدمين

قرار وزاري رقم ٣٧٦٢ بتاريخ ٣/ ١٩٣٢/٣

وزير المعارف العمومية.

بعد الاطلاع على المادة ١٦ من القانون رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٧ بإعادة تنظيم الجامعة المصرية.

قرر ما هو آت

مادة ١- ينقل حضرة الدكتور طه حسين الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية وعميد الكلية إلى ديوان الوزارة ويقيد على وظيفة مساعد مراقب التعليم الأولى ليكون فيما بعد مفتشًا أول للغة العربية في محل حضرة محمد حسنين الغمراوي بك عند إحالته إلى المعاش في ٢١ مايو سنة ١٩٣٢.

مادة ٢- يتسلم الدكتور طه حسين أعماله بالوزارة من يوم السبت ٥ مارس سنة ١٩٣٢ الجاري ويعهد إلى حضرته بحث مناهج تعليم اللغة العربية والكتب المقررة لتدريسها ويقدم تقريرا بعد ذلك بما يراه من وجوه التعديل.

مادة ٣- على مدير الجامعة ووكيل وزارة المعارف

تنفيذ هذا القرار.

وزير المعارف

توقيع

(حلمي عيسى)

صورة مرسلة إلى قسم التعيينات

١٧/ ٣/ ١٩٣٢.

حضرة صاحب المعالي مدير الجامعة المصرية

أتشرف بأن أبلغ معاليكم بصفتكم مديرا للجامعة المصرية أن القرار الذي صدر بشأني يوم الخميس ٣ مارس يخالف شروط العقد الذي تم بين الجامعة المصرية القديمة والحكومة والذي تعهدت فيه الحكومة بأن أبقى أستاذًا في كلية الآداب وسأنفذ الأمر الصادر احتراما لسلطان الحكومة ولكني أرجو:

أولاً: أن تعلم الجامعة أن ليس في هذا نزول ما عن الحق الذي التزمته الحكومة.

ثانيا: أن تتخذ الجامعة ما ترى من الإجراءات لاحترام هذا العقد.

وتفضلوا بقبول احترامي العظيم،،

طه حسين

٥ مارس ١٩٣٢.

مجلس الوزراء

قرار

بعد سماع البيانات التي أدلى بها حضرة صاحب العزة وزير المعارف العمومية بشأن الدكتور طه حسين الذي فصل من خدمة الحكومة بقرار مجلس الوزراء في ٣٠ مارس ١٩٣٢.

قرر مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة في ١٢ ديسمبر ١٩٣٤ إعادة الدكتور طه حسين إلى الخدمة بدرجته التي كان بها وماهيته التي كان يتناولها قبل فصله على أن يتنازل عن القضية المرفوعة منه ضد الحكومة وأن يوكل لمجلس الوزراء التصرف في الموضوع بما يراه.

رئيس مجلس الوزراء.

(محمد توفيق نسيم)

نمرة ١٥٠- ١٣/ ١٣

مرسل إلى وزارة المعارف العمومية لتنفيذه

اطلعت على هذا القرار وأقبل ما جاء فيه خاصا بالقضية المرفوعة مني على الحكومة.

(ختم طه حسين)

١٥ ديسمبر ١٩٣٤

سيدي صاحب المقام الرفيع[١].

تعود الناس منذ عهد بعيد أن يكتبوا إليك وأن يكتبوا عنك، أكثرهم يحمد ويثني وأقلهم ينقد ويعيب.. ولكنني أريد أن أكتب إليك على نحو جديد لم يصطنعه الناس فيما كتبوا إليك أو كتبوا عنك إلى الآن.. أكتب إليك في المنفعة العامة التي تمس حياتنا في الغد والتي سيكون لها أكبر الأثر في تكوين الأجيال المقبلة..

أنت رئيس الحكومة القائمة، وأنت زعيم الكثرة التي ستكون إليها أمور مصر دهرا طويلاً إن شاء الله، وأنت بعد هذا وذاك أقدر الناس على أن تسمع لي، وتقبل مني، وتفكر فيما أرفع إليك من رأي فتقبله عن رضا ومودة، أو ترده عن

([1]) الخطاب موجه إلى مصطفى النحاس، وكتب ولم يرسل بالفعل بسبب إقالة الملك له...

اقتناع ومودة أيضا،.. وإني لأذكر أني تشرفت بزيارتك بعد رجوعك فائزا بإلغاء الامتيازات وإنزال مصر منزلتها الكريمة بين الأمم الحرة المستقلة في عصبة الأمم.. ولست أخفي عليك أني خرجت من عندك راضيا كل الرضا، قد امتلأت نفسي رجاء، وفتحت لي آمالاً عراضا، وكنت أتحدث إلى نفسي واثقًا بأننا.. سنبدأ في إقامة حياتنا الجديدة في العمل الصادق النافع على أساس متين.

والموضوع الذي أريد أن أرفعه إليك أدير فيه الحديث هو مستقبل الثقافة في مصر، والتي ردت إليها الحرية بإحياء الدستور وأعيدت إليها الحرية بإحياء الدستور وأعيدت إليها الكرامة بتحقيق الاستقلال..

أوائل يوليو ١٩٣٧

طه حسين

مرسوم

بتعيين مستشار فني لوزارة المعارف العمومية

نحن فاروق الأول ملك مصر.

بناء على ما عرض علينا وزير المعارف العمومية وموافقة رأي مجلس الوزراء رسمنا بما هو آت.

المادة الأولى

عين الدكتور طه حسين بك المراقب العام للثقافة العامة بوزارة المعارف العمومية مستشارا للوزارة المذكورة.

المادة الثانية

على وزير المعارف العمومية تنفيذ هذا المرسوم

صدر بقصر عابدين في غرة جمادى الأول سنة ١٣٦١ (١٦ مارس سنة ١٩٤٢).

فاروق

بأمر حضرة صاحب الجلالة

رئيس مجلس الوزراء

(مصطفى النحاس)

وزير المعارف العمومية

(أحمد نجيب الهلالي)

نمرة ١٥٠- ١٣/ ١٤٧٩

مرسل إلى وزارة المعارف العمومية لتنفيذه

رئيس مجلس الوزراء

(مصطفى النحاس)

طبق الأصل

المصادر والمراجع

*** وثائق:**

- محفظة رقم ١٤٠/ ١١١/ ٤٢ وتحتوي على ملف خاص بطه حسين (غير منشور) بدار المحفوظات.
- محفظة رقم ٦٤٤ وتحمل اسم طه حسين -ومحفظة ديوان جلالة الملك ٦ تلغرافات فضلاً عن بعض محافظ الأحزاب السياسية (دار الوثائق) (غير منشورة).
- محاضر جلسات جامعة القاهرة (محفظة رقم ٢، ٣) (غير منشورة).
- مجموعات وثائق وزارة الخارجية البريطانية (غير منشورة أيضا).
- طه حسين: قرار النيابة في الشعر الجاهلي، بدون.
- مضابط مجلس الشيوخ عامي ٢٧، ١٩٢٨.
- مضابط مجلس النواب أعوام ٢٦، ٣٠، ٣١، ١٩٥٠.

*** دراسات:**

- ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة

(١٨٩٨/ ١٩٣٩)، بيروت ١٩٦٨.

- إبراهيم عبده: جريدة الأهرام، القاهرة ١٩٥١.

- المجمعيون: مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما، القاهرة ١٩٦٦.

- حسن يوسف: القصر ودوره في السياسة المصرية، القاهرة ١٩٨٢.

- طه حسين: حديث الأربعاء، القاهرة.

ج١ ط ١٢/ ١٩٧٦.

ج٢ ط١٢/ ١٩٧٦.

ج٣ ط ١٠/ ١٩٧٦.

: في الشعر الجاهلي، القاهرة ١٩٢٦.

: الأيام، القاهرة.

ج١ ط55/ ١٩٧٧.

ج٢ ط٢٦/ ١٩٧٧.

ج٣ ط٤/ ١٩٧٨.

: في الصيف القاهرة ١٩٣٣.

: حافظ وشوقي، القاهرة ١٩٣٣.

: على هامش السيرة، القاهرة.

ج١، ١٩٥٤.
ج٢، ١٩٥٠.
: أديب، القاهرة، ط ٧/ ١٩٧٧.
: من بعيد، القاهرة ١٩١٦.
: مستقبل الثقافة في مصر ١٩٢٨.
- عبد الله العروي: الأيديولوجية العربية المعاصرة، بيروت ١٩٧٠.
- عبد الرحمن الرافعي: ثورة ١٩١٩، جزآن.
: في أعقاب الثورة ج ١/ ١٩٤٧.
: مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ط ١/ ١٩٥٧.
- عفاف لطفي السيد: تجربة مصر الليبرالية ١٩/ ١٩٢٦، القاهرة ١٩٨١.
- فخر الدين الظواهري: السياسة والأزهر، القاهرة ١٩٤٥.
- مجيد خدوري: الاتجاهات السياسية في العالم العربي، بيروت ١٩٧٢.
- يونان لبيب رزق: تاريخ الوزارات المصرية ١٨٧٨٩/ ١٩٥٣، القاهرة ١٩٧٥.

* مذكرات وذكريات:

* دوريات وصحف:

* رسائل جامعية:

* لقاءات شخصية:

* مراجع أجنبية:

- Adams, Charles C., Islam and modernism in Egypt, 1933.

- Adams Pellat (Langue et Litterature Arabe, 1970.

- Foreign Office, Public Record, New Garden, F.O., 407, مجموعـة 203/ Hnob 19512/ 1926. من تقرير هندرسون

- Ibid, F.I. 407/ 214 from Sir perey Lord to Sir John Simon Maref. 3, 19.

- Safrain, N. Cambridge, 1961.

- The Middle East Ournal (1950).

- Berque, Joque, Au dela Nil (1977).

الجزء الرابع

مـــــــــلاحق

أولاً- وثائق دار الوثائق

حضرة صاحب المعالي وزير المعارف العمومية.

الآن وقد تم تعيين العميد لكلية الآداب وانتهت هذه القصة التي لم أرها والتي لقيت فيها من الضغن ما لم أستوجبه ولا أراه يلائم كرامتي، أتشرف بأن أرفع إلى معاليكم أصدق الشكر وأخلصه لما تفضلتم به علي من عطف وثقة، وأرجو من معاليكم أن تتفضلوا بنقلي إلى عمل آخر في غير كلية الآداب التي أصبحت أجد مشقة كبيرة في البقاء فيها.

وتفضلوا بقبول تحيتي الصادقة وإجلالي العظيم..

٩ يناير ١٩٢٨

طه حسين

(ختم)

حضرة صاحب المعالي مدير جامعة المصرية

أتشرف بأن أبلغ معاليكم بصفتكم مديرا للجامعة المصرية أن القرار الذي صدر بشأني يوم الخميس ٣ مارس يخالف شروط العقد الذي تم بين الجامعة المصرية القديمة والحكومة والذي تعهدت فيه الحكومة بأن أبقى أستاذًا في كلية الآداب وسأنفذ الأمر الصادر احتراما لسلطان الحكومة لكني أرجو:

أولاً: أن تعلم الجامعة أن ليس في هذا نزول ما عن الحق الذي التزمته الحكومة.

ثانيا: أن تتخذ الجامعة ما ترى من الإجراءات لاحترام هذا العقد.

وتفضلوا بقبول احترامي العظيم،،

طه حسين

٥ مارس ١٩٣٢.

محكمة استئناف مصر الأهلية - الدائرة المدنية والتجارية.

في ١٠ فبراير ١٩٣٥

استئناف مقيد بالجدول العمومي برقم ٩٤١ - ٥١ ق.

المرفوع من الدكتور طه حسين ضد.

١- حضرة صاحب الدولة عبد الفتاح يحيى بصفته رئيسا لمجلس الوزراء ونائبا عن الحكومة المصرية.

٢- وحضرة صاحب المعالي محمد حلمي عيسى باشا بصفته وزيرا بوزارة المعارف العمومية.

بأن (يقضي له بإلزام المدعي عليهما بأن يدفعا له بطريق التضامن مبلغ ٢٥٠٠٠ مع المصاريف والأتعاب والنفاذ المعجل بلا كفالة).

وبعد إصرار الحاضر عن الحكومة بعدم اختصاص المحاكم وحكم المحكمة بقبول هذا الدفع من الحكومة (وبعدم اختصاص المحاكم الأهلية بنظر الدعوى).. إلخ وحضور المستأنف شخصيا وتنازله عن القضية (حكمت المحكمة حضوريا بإثبات تنازل المستأنف عن استئنافه وألزمته بالمصاريف).

صدر الحكم علنًا بجلسة الأحد ١٠ فبراير ١٩٣٥.

خطاب في ٢٤ فبراير ١٩٣٥

في خطاب إلى

حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء

قرر مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة في ٢٧ فبراير ١٩٣٥ صرف مرتب تسعة شهور للدكتور طه حسين مع إعفائه من رد المكافأة التي استلمها. وقد أبلغت وزارة المعارف العمومية هذا القرار.

رئيس مجلس الوزراء.

(توقيع)

مذكرة مرفوعة إلى مجلس الوزراء في ١٣ مايو ١٩٣٥

نمرة ١٥٠- ض/ ٦٨

إلى وزارة المالية

قرر مجلس الوزراء في ١٥ مايو ١٩٣٥ أن تحسب في المعاش مدة الانفصال للموظفين الذين سبق فصلهم لأسباب سياسية ثم أعيدوا إلى الخدمة في عهد هذه الوزارة مع التجاوز عن الاحتياطي الخاص لهذه الفترة وأن تحسب في أقدميتهم المدد التي قضوها في درجاتهم قبل فصلهم من الخدمة.

وقد أبلغنا جميع الوزارات هذا القرار

رئيس مجلس الوزراء

إمضاء: محمد توفيق نسيم

كان طه حسين فصل من وظيفته في مارس ١٩٣٢ وعاد إليها في ديسمبر ١٩٣٤.

الجامعة المصرية

قلم المستخدمين

: ٩/ ٥/ ٣٦

حضرة صاحب المعالي وزير المعارف العمومية

أتشرف إبلاغ معاليكم أن كلية الآداب أوضحت بخطابها المؤرخ في ٥ مايو سنة ١٩٣٦ رقم ٣٦ أن مجلسها المنعقد في ٥ مايو ١٩٣٦ قرر ترشيح حضرات الأستاذة المذكورين بعد تعيين أحدهم عميدا للكلية:

١- صاحب العزة الدكتور طه حسين بك نال ١٠ أصوات.

٢- حضرة الأستاذ مصطفى عامر أفندي نال ١٠ أصوات.

٣- حضرة الشيخ مصطفى عبد الرازق نال ٩ أصوات.

فطبقًا للمادة العاشرة من القانون رقم ٤٢ لسنة ٢٧ المعدل بالقانون رقم ٢٠ لسنة ١٩٣٣ وبالمرسوم رقم ٩٦ لسنة ١٩٣٥ بإعادة تنظيم الجامعة المصرية نعرض الأمر على معاليكم لتعيين أحدهم عميدا لكلية الآداب.

وتفضلوا معاليكم بقبول فائق الاحترام،،

مدير الجامعة المصرية

(توقيع) لطفي السيد.

يعين الدكتور طه حسين بك عميدا للكلية

توقيع

علي ماهر/ رئيس مجلس الوزراء.

٢٧/ ٥/ ١٩٣٦.

حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء

أتشرف بأن أخطر رفعتكم أن وظيفة وزارة المعارف معطلة منذ مدة طويلة بندب حضرة وكيلها لوزارة العدل وذلك بسبب عدم إمكاني التعاون معه ولاختلافه مع كبار الموظفين بالوزارة اختلافًا ترتب عليه الإضرار بالعمل.

وبما أنه لا يمكن إبقاء وزارة المعارف من غير موظف كبير يشرف على شئونها الفنية وقد أدرجت في الميزانية لهذا الإشراف وظيفة مستشار فني بدرجة وكيل وزارة.

لذلك أرجو من رفعتكم أن أعرض على مجلس الوزراء إحالة حضرة وكيل المعارف على المعاش وتعيين الدكتور طه حسين بك مستشارا فنيا للوزارة منذ الآن بدرجة وكيل وزارة على أن يقبض مرتبه من درجة الوكيل التي تخلو بإحالة شاغلها على المعاش وعند اعتماد الميزانية يعين وكيل المعارف ويربط مرتب الدكتور طه حسين بك عندئذ على الوظيفة الجديدة المنشأة في الميزانية.

وتفضلوا رفعتكم بقبول عظيم الاحترام،،

أحمد نجيب الهلالي.

وزير المعارف العمومية

القاهرة في ١٦ مايو ١٩٤٢

نمرة ١٥٠- ١٣/ ١٤٧٩

إلى وزارة المعارف العمومية

وافق مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة في ١٦ مايو ١٩٤٢ على ما جاء في هذا الكتاب..

ومع صورة من لك من المرسومين الصادرين:

الأول- بإحالة عبد الرازق أحمد السنهوري بك على المعاش.

والثاني- بتعيين الدكتور طه حسين بك مستشارا فنيا لوزارة المعارف.

رئيس مجلس الوزراء.

(مصطفى النحاس)

حضرة صاحب المعالي مدير الجامعة المصرية

أتشرف بأن أرفع إلى معاليكم أني في العام الماضي طلبت إلى حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب أن يرفع إلى السلطات المختصة استقالتي من منصب الأستاذ في الجامعة لأني أنكرت من أمور البيئة الجامعية في كلية الآداب ما لا أحب أن أذكره ولكنه لم يرفع استقالتي إلى هذه

السلطات ومن حيث إن ما أنكرته من الجامعة في كليتنا لم يصلح وإنما ازداد فسادا إلى فساد وأصبح من المستحيل أن أعمل في بيئة كبيئتنا هذه.

فإني أرفع إلى معاليكم استقالتي محددة راجيا أن تتفضلوا فتأمروا باتخاذ ما يلزم من إجراء لقبولها مع ملاحظة أني لن أقبل في هذه الاستقالة مراجعة مهما يكن مصدرها.

وأنا أرجو أن تتفضلوا فتقبلوا أصدق تحياتي

وأخلص احترامي،،

طه حسين

(ختم)

١٢ مايو ١٩٤٢.

بتعيين مستشار فني لوزارة المعارف العمومية

نحن فاروق الأول ملك مصر

بناء على ما عرض علينا وزير المعارف العمومية وموافقة رأى مجلس الوزراء.

مرسوم بما هو آت

المادة الأولى

عين الدكتور طه حسين بك المراقب العالم للثقافة العامة بوزارة المعارف العمومية مستشارا للوزارة المذكورة.

المادة الثانية

على وزير المعارف العمومية تنفيذ هذا المرسوم

صدر بقصر عابدين في غرة جمادى الأول سنة ١٣٦١ (١٦ مارس سنة ١٩٤٢).

فاروق

بأمر حضرة صاحب الجلالة

رئيس مجلس الوزراء

(مصطفى النحاس)

وزر المعارف العمومية

(أحمد نجيب الهلالي)

نمرة ١٥٠- ١٣/ ١٤٧٩

مرسل إلى وزارة المعارف العمومية لتنفيذه

رئيس مجلس الوزراء

(مصطفى النحاس)

مجلس الوزراء

قرار

قرر مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة في ٦ ديسمبر سنة ١٩٤٢ ندب حضرة الدكتور طه حسين بك المستشار الفني لوزارة المعارف العمومية مديرا لجامعة فاروق الأول، علاوة على أعمال وظيفته إلى أن يعين مديرا آخر للجامعة المذكورة.

رئيس مجلس الوزراء

(توقيع) مصطفى النحاس

صورة طبق الأصل،،

السكرتير العام

لمجلس الوزراء

(ختم)

نمرة ٤٧- ٩/ ٢٧

مرسل إلى وزارة المعارف العمومية،،

رئيس مجلس الوزراء

(إمضاء)

بإحالة وكلاء وزارات ومن في درجتهم إلى المعاش

نحن فاروق الأول ملك مصر

بناء على ما عرضه علينا رئيس مجلس الوزراء ووزارة الأشغال العمومية والعدل والمعارف العمومية والشئون الاجتماعية والدفاع الوطني وموافقة رأى ذلك المجلس.

رسمنا بما هو آت

(المادة الأولى)

يحال إلى المعاش كل من:

أحمد راغب بك	وكيل وزارة الأشغال العمومية.
محمود شاكر عبد اللطيف بك	وكيل وزارة العدل.
عبد اللطيف محمود بك	وكيل وزارة الشئون الاجتماعية.
اللواء ((شرف)) أحمد الصاوي باشا	وكيل وزارة الدفاع الوطني للشئون العسكرية.
الدكتور طه حسين بك	المستشار الفني لوزارة

المعارف العمومية

الأستاذ حسن سرور السكرتير العام لمجلس الوزراء.

(المادة الثانية)

على مجلس الوزراء ووزراء الأشغال العمومية والعدل والمعارف العمومية والشئون الاجتماعية والدفاع الوطني تنفيذ هذا المرسوم كل منهم فيما يخصه.

صدر بقصر عابدين في ٢٩ شوال سنة ١٣٦٣ (١٦ أكتوبر سنة ١٩٤٤).

فاروق

بأمر حضرة صاحب الجلالة

وزير العدل	وزير الأشغال العمومية	رئيس مجلس الوزراء
حافظ رمضان	محمود غالب	أحمد ماهر
وزير الدفاع الوطني	وزير الشئون الاجتماعية	وزير المعارف العمومية
السيد سليم	محمد حسنين هيكل	محمد حسين هيكل

رئيس مجلس الوزراء

أحمد ماهر

نمرة ١٠٥- ٢/ ٢٠٥

مرسل إلى وزارة المعارف العمومية لتنفيذه..

رئيس مجلس الوزراء

قرار

قرر مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة في ٦ ديسمبر سنة ١٩٤٢ ندب حضرة الدكتور طه حسين بك المستشار الفني لوزارة المعارف العمومية مديرا لجامعة فاروق الأول، علاوة على أعمال وظيفته إلى أن يعين مديرا آخر للجامعة المذكورة.

رئيس مجلس الوزراء

(توقيع) مصطفى النحاس

صورة طبق الأصل..

السكرتير العام

لمجلس الوزراء

(ختم)

نمرة ٤٧-٩/ ٢٧

مرسل إلى وزارة المعارف العمومية،،

رئيس مجلس الوزراء

(إمضاء)

بتعيين مستشار فني لوزارة المعارف العمومية

نحن فاروق الأول ملك مصر

بناء على ما عرض علينا وزير المعارف العمومية وموافقة رأي مجلس الوزراء.

رسمنا بما هو آت

المادة الأولى

عين الدكتور طه حسين بك المراقب العام للثقافة العامة بوزارة المعارف العمومية مستشارا للوزارة المذكورة.

المادة الثانية

على وزير المعارف العمومية تنفيذ هذا المرسوم.

صدر بقصر عابدين في غرة جمادى الأولى سنة ١٣٦١ (١٦ مارس سنة ١٩٤٢).

فاروق

بأمر حضرة صاحب الجلالة

رئيس مجلس الوزراء

(مصطفى النحاس)

وزير المعارف العمومية

(أحمد نجيب الهلالي)

نمرة ١٥٠- ١٣/ ١٤٧

مرسل إلى وزارة المعارف العمومية لتنفيذه.

رئيس مجلس الوزراء

(مصطفى النحاس)

طبق الأصل.

حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء..

أتشرف بأن أخطر رفعتكم أن وظيفة وزارة المعارف معطلة منذ مدة طويلة بندب حضرة وكيلها لوزارة العدل وذلك بسبب عدم إمكاني التعاون معه ولاختلافه مع كبار الموظفين بالوزارة اختلافًا ترتب عليه الإضرار بالعمل.

وبما أنه لا يمكن إبقاء وزارة المعارف من غير موظف كبير يشرف على شئونها الفنية وقد أدرجت في الميزانية لهذا الإشراف وظيفة مستشار فني بدرجة وكيل وزارة.

لذلك أرجو من رفعتكم أن أعرض على مجلس الوزراء إحالة حضرة وكيل المعارف على المعاش وتعيين الدكتور طه حسين بك مستشارا فنيا للوزارة منذ الآن بدرجة وكيل وزارة على أن يقبض مرتبه من درجة الوكيل التي تخلو بإحالة شاغلها على المعاش وعند اعتماد الميزانية يعين وكيل المعارف ويربط مرتب الدكتور طه حسين بك عندئذ على الوظيفة الجديدة المنشأة في الميزانية.

وتفضلوا رفعتكم بقبول عظيم الاحترام

أحمد نجيب الهلالي

وزير المعارف العمومية

القاهرة في ١٦ مايو ١٩٤٢

نمرة ١٥٠-١٣/١٤٧٩

إلى وزارة المعارف العمومية

وافق مجلس الوزراء، بجلسته المنعقدة في ١٦ مايو ١٩٢٤ على ما جاء في هذا الكتاب.

ومعه صورة من كل من المرسومين الصادرين

الأول: بإحالة عبد الرازق أحمد السنهوري على المعاش.

والثاني: بتعيين الدكتور طه حسين بك مستشارا فنيا لوزارة المعارف.

رئيس مجلس الوزراء

(مصطفى النحاس)

طبق الأصل..

الجامعة المصرية

كلية الآداب

بشأن انتخاب عميد الكلية

٥/ ٥/ ٣٦

حضرة صاحب العزة سكرتير عام الجامعة المصرية

ردا على كتاب عزتكم رقم ٣ بتاريخ ٤ الجاري أتشرف بإبلاغ عزتكم بأن مجلس الكلية في جلسته المنعقدة في 5 مايو سنة ١٩٣٦ قرر ترشيح حضرات الأساتذة الدكتور طه حسين ومصطفى عامر ومصطفى عبد الرازق لعمادة الكلية.

وقد نال الأستاذ طه حسين بك عشرة أصوات والأستاذ مصطفى عامر عشرة أصوات والأستاذ مصطفى عبد الرازق تسعة أصوات.

وتفضلوا عزتكم بقبول فائق الاحترام،،

العميد بالنيابة

(توقيع) شفيق غربال

في ١٠ فبراير ١٩٣٥

استئناف مقيد بالجدول العمومي برقم ٩٤١- ٥١ ق المرفوع من الدكتور طه حسين ضد:

١- حضرة صاحب الدولة عبد الفتاح يحيى بصفته رئيسا لمجلس الوزراء ونائبا عن الحكومة المصرية.

٢- وحضرة صاحب المعالي محمد حلمي عيسى باشا بصفته وزيرا بوزارة المعارف العمومية.

بأن (يقضي له بإلزام المدعي عليهما بأن يدفعا له بطريق التضامن مبلغ ٢٥٠٠٠ من المصاريف والأتعاب والنفاذ المعجل بلا كفالة).

وبعد إصرار الحاضر عن الحكومة بعدم اختصاص المحاكم وحكم المحكمة بعدم اختصاص المحاكم وحكم المحكمة بقبول هذا الدفع من الحكومة (وبعدم اختصاص المحاكم الأهلية بنظر الدعوى).. إلخ وحضور المستأنف شخصيا وتنازله عن القضية (حكمت المحكمة حضوريا بإثبات تنازل المستأنف عن استئنافه وألزمته بالمصاريف).

صدر الحكم علنًا بجلسة الأحد ١٠ فبراير ١٩٣٥.

مجلس الوزراء

قرار

بعد سماع البيانات التي أدلى بها حضرة صاحب العزة وزير المعارف العمومية بشأن الدكتور طه حسين الذي فصل من خدمة الحكومة بقرار مجلس الوزراء في ٣٠ مارس ١٩٣٢.

قرر مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة في ١٢ ديسمبر ١٩٣٤ إعادة الدكتور طه حسين إلى الخدمة بدرجته التي كان بها وماهيته التي كان يتناولها قبل فصله على أن يتنازل عن القضية المرفوعة منه ضد الحكومة وأن يوكل لمجلس الوزراء التصرف في الموضوع بما يراه.

رئيس مجلس الوزراء

(محمد توفيق نسيم)

نمرة ١٠٥- ١٣/ ١٣

مرسل إلى وزارة المعارف العمومية لتنفيذه.

اطلعت على هذا القرار وأقبل ما جاء فيه خاصا بالقضية المرفوعة مني على الحكومة.

(ختم طه حسين)

١٥ ديسمبر ١٩٣٤.

حضرة صاحب المعالي مدير الجامعة المصرية

أتشرف بأن أبلغ معاليكم بصفتكم مديرا للجامعة المصرية أن القرار الذي صدر بشأني يوم الخميس ٣ مارس يخالف شروط العقد الذي تم بين الجامعة المصرية القديمة والحكومة والذي تعهدت فيه الحكومة بأن أبقى أستاذًا في كلية الآداب وسأنفذ الأمر الصادر احتراما لسلطان الحكومة ولكني أرجو.

أولاً: أن تعلم الجامعة أن ليس في هذا نزول ما عن الحق الذي التزمته الحكومة.

ثانيا: أن تتخذ الجامعة ما ترى من الإجراءات لاحترام هذا العقد.

وتفضلوا بقبول احترامي العظيم،،

طه حسين

٥ مارس ١٩٣٢

ثانيا- وثائق من (جامعة القاهرة)

ثالثًا- وثائق (في الشعر الجاهلي)

تأليف

طه حسين

أستاذ الآداب العربية بكلية الآداب بالجامعات المصرية

إلى حضرة صاحب الدولة

عبد الخالق ثروت باشا

سيدي صاحب الدولة

كنت قبل اليوم أكتب في السياسة، وكنت أجد في ذكرك والإشادة بفضلك، راحة نفس تحب الحق، ورضا ضمير يحب الوفاء.

وقد انصرفت عن السياسة وفرغت للجامعة، وإذا أنا أراك في مجلسها كما كنت أراك من قبل، قوي الروح، ذكي القلب، بعيد النظر، موفقًا في تأييد المصالح العلمية توفيقك في تأييد المصالح السياسية.

فهل تأذن لي في أن أقدم إليك هذا الكتاب مع التحية الخالصة والإجلال العظيم؟

طه حسين

٢٢ مارس سنة ١٩٢٦

الكتاب الأول

-١-

تمهيد

هذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربي جديد، لم يألفه الناس عندنا من قبل، وأكاد أثق بأن فريقًا منهم سيلقونه ساخطين عليه، وبأن فريقًا آخر سيزورون عنه ازورارا، ولكني على سخط أولئك وازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث، أو بعبارة أصح أريد أن أقيده، فقد أذعته قبل اليوم حين تحدثت به إلى طلابي في الجامعة، وليس سرا ما تتحدث به إلى أكثر من مائتين.

ولقد اقتنعت بنتائج هذا البحث اقتناعا ما أعرف أني شعرت بمثله في تلك المواقف المختلفة التي وقفتها من تاريخ الأدب العربي، وهذا الاقتناع القوي هو الذي يحملني على تقييد هذا البحث ونشره في هذه الفصول، غير حافل بسخط الساخط ولا مكترث بازورار المزور، وأنا مطمئن إلى أن هذا البحث وإن أسخط قوما وشق على آخرين، فسيرضى هذه الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم في حقيقة الأمر

عدة المستقبل وقوام النهضة الحديثة وذخر الأدب الجديد.

ولقد تناول الناس منذ حين مسألة القديم والجديد، واشتد فيها اللجاج بينهم، وخيل إلى بعضهم أنه يستطيع أن يقضي فيها بين المختصمين، ولكني أعتقد أن المختصمين أنفسهم لم يتناولوا المسألة من جميع أطرافها، فهم لم يكادوا يتجاوزوا فنون الأدب التي يتعاطاها الناس من نثر وشعر، والأساليب التي تصطنع في هذه الفنون والمعاني، والألفاظ التي يعمد إليها الكاتب أو الشاعر حين يريد أن يتحدث إلى الناس بعواطف نفسه أو نتائج عقله، ولكن للمسألة وجها آخر لا يتناول الفن الكتابي أو الشعري، وإنما يتناول البحث العلمي عن الأدب وتاريخ فنونه.

نحن بين اثنتين: إما أن نقبل في الأدب وتاريخه ما قال القدماء، لا نتناول ذلك من النقد إلا بهذا المقدار اليسير الذي لا يخلو منه كل بحث والذي يتيح لنا أن نقول: أخطأ الأصمعي أو أصاب، ووفق أبو عبيدة أو لم يوفق، واهتدى الكسائي أو ضل الطريق، وإما أن نضع علم المتقدمين كله موضع البحث، لقد أنسيت، فلست أريد أن أقول البحث وإنما أريد أن أقول الشك، أريد ألا نقبل شيئًا مما قال القدماء في

الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت إن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان على الرجحان.

والفرق بين هذين المذهبين في البحث عظيم، فهو الفرق بين الإيمان الذي يبعث على الاطمئنان والرضا، والشك الذي يبعث على القلق والاضطراب وينتهي في كثير من الأحيان إلى الإنكار والجحود، المذهب الأول يدع كل شيء حيث تركه القدماء لا يناله بتغيير ولا تبديل ولا يمسه في جملته وتفصيله إلا مسا رقيقًا. أما المذهب الثاني فيقلب العلم القديم رأسا على عقب، وأخشى إن لم يمح أكثره أن يمحو منه شيئًا كثيرا.

ولندع هذا النحو من الكلام العام ولنوضح ما نريد أن نقوله بشيء من الأمثلة:

بين يدينا مسألة الشعر الجاهلي نريد أن ندرسها وننتهي فيها إلى الحق. فأما أنصار القديم فالطريق أمامهم واضحة معبدة، والأمر عليهم سهل يسير. أليس قد أجمع القدماء من علماء الأنصار في العراق والشام وفارس ومصر والأندلس على أن طائفة كثيرة من الشعراء قد عاشت قبل الإسلام وقالت كثيرا من الشعر؟ أليس قد أجمع هؤلاء العلماء

أنفسهم على أن لهؤلاء الشعراء أسماء معروفة محفوظة مضبوطة يتناقلها الناس ولا يكادون يختلفون فيها؟ أليس قد أجمع هؤلاء العلماء على أن لهؤلاء الشعراء مقدارا من القصائد والمقطوعات حفظه عنهم رواتهم وتناقله عنهم الناس، حتى جاء عصر التدوين فدون في الكتب وبقي منه ما شاء الله أن يبقى إلى أيامنا؟ وإذا كان العلماء قد أجمعوا على هذا كله فرووا لنا أسماء الشعراء وضبطوها ونقلوا إلينا آثار الشعراء وفسروها، فلم يبق إلا أن نأخذ عنهم ما قالوا راضين به مطمئنين إليه. فإذا لم يكن لأحدنا بد من أن يبحث وينقد ويحقق فهو يستطيع هذا دون أن يجاوز مذهب أنصار القديم. فالعلماء قد اختلفوا في الرواية بعض الاختلاف وتفاوتوا في الضبط بعض التفاوت فلنوازن بينهم ولنرجح رواية على رواية ولنؤثر ضبطًا على ضبط، ولنقل: أصاب البصريون وأخطأ الكوفيون، أو وفق المبرد ولم يوفق ثعلب. لنذهب في الأدب وفنونه مذهب الفقهاء في الفقه بعد أن أغلق باب الاجتهاد: هذا مذهب أنصار القديم، وهو المذهب الذائع في مصر، وهو المذهب الرسمي أيضا، مضت عليه مدارس الحكومة وكتبها ومناهجها على ما بينها من تفاوت واختلاف.

ولا ينبغي أن تخدعك هذه الألفاظ المستحدثة في الأدب، ولا هذا النحو من التأليف الذي يقسم التاريخ الأدبي إلى عصور، ويحاول أن يدخل فيه شيئًا من الترتيب والتنظيم، فذلك كله عناية بالقشور والأشكال لا يمس اللباب ولا الموضوع. فما زال العرب ينقسمون إلى بائدة وباقية، وإلى عاربة ومستعربة. وما زال أولئك من جرهم، وهؤلاء من ولد إسماعيل. وما زال امرؤ القيس صاحب ((قفا نبك..)) وطرفة صاحب ((لخولة أطلال..)) وعمرو بن كلثوم صاحب ((ألا هبي..)). وما زال كلام العرب في جاهليتها وإسلامها ينقسم إلى شعر ونثر. والنثر ينقسم إلى مرسل ومسجوع، إلى آخر هذا الكلام الكثير الذي يفرغه أنصار القديم فيما يضعون من كتب وما يلقون على التلاميذ والطلاب من دروس.

هم لم يغيروا في الأدب شيئًا. وما كان لهم أن يغيروا فيه شيئًا وقد أخذوا أنفسهم بالاطمئنان إلى ما قال القدماء وأغلقوا على أنفسهم في الأدب باب الاجتهاد كما أغلقه الفقهاء في الفقه والمتكلمون في الكلام.

وأما أنصار الجديد، فالطريق أمامهم معوجة ملتوية،

تقوم فيها عقاب لا تكاد تحصى، وهم لا يكادون يمضون إلا في أناة وريث هم إلى البطء أقرب منهم إلى السرعة. ذلك أنهم لا يأخذون أنفسهم بإيمان ولا اطمئنان، أو هم لم يرزقوا هذا الإيمان والاطمئنان. فقد خلق الله لهم عقولاً تجد من الشك لذة وفي القلق والاضطراب رضا. وهم لا يريدون أن يخطوا في تاريخ الأدب خطوة حتى يتبينوا موضعها. وسواء عليهم وافقوا القدماء وأنصار القديم أم كان بينهم وبينهم أشد الخلاف.

وهم لا يطمئنون إلى ما قال القدماء، وإنما يلقونه بالتحفظ والشك. ولعل أشد ما يملكهم الشك حين يجدون من القدماء ثقة واطمئنانًا. هم يريدون أن يدرسوا مسألة الشعر الجاهلي فيتجاهلون إجماع القدماء على ما أجمعوا عليه، ويتساءلون: أهناك شعر جاهلي؟ فإن كان هناك شعر جاهلي فما السبيل إلى معرفته؟ وما هو؟ وما مقداره؟ وبم يمتاز من غيره؟ ويمضون في طائفة من الأسئلة يحتاج حلها إلى رواية وأناة وإلى جهود الجماعات العلمية لا إلى جهود الأفراد. هم لا يعرفون أن العرب ينقسمون إلى باقية وبائدة، وعاربة ومستعربة، ولا أن أولئك من جرهم، وهؤلاء من ولد

إسماعيل، ولا أن امرأ القيس وطرفة وابن كلثوم قالوا هذه المطولات، ولكنهم يعرفون أن القدماء كانوا يرون ذلك. ويريدون أن يتبينوا أكان القدماء مصيبين أم مخطئين؟

والنتائج اللازمة لهذا المذهب الذي يذهبه المجتمعون عظيمة جليلة الخطر، فهي إلى الثورة الأدبية أقرب منها إلى أي شيء آخر. وحسبك أنهم يشكون فيما كان الناس يرونه يقينًا، وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنه حق لا شك فيه.

وليس حظ هذا المذهب منتهيا عند هذا الحد، بل هو يجاوزه إلى حدود أخرى أبعد منه مدا وأعظم أثرا. فهم قد ينتهون إلى تغيير التاريخ أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ. وهم قد ينتهون إلى الشك في أشياء لم يكن يباح الشك فيها. وهم بين اثنتين: إما أن يجحدوا أنفسهم ويجحدوا العلم وحقوقه فيريحوا ويستريحوا، وإما أن يعرفوا لأنفسهم حقها ويؤدوا للعلم واجبه، فيتعرضوا لما ينبغي أن يتعرض له العلماء من الأذى ويحتملوا ما ينبغي أن يحتمله العلماء من سخط الساخطين.

ولست أزعم أني من العلماء. ولست أتمدح بأني أحب أن أتعرض للأذى. وربما كان الحق أني أحب الحياة الهادئة

المطمئنة وأريد أن أتذوق لذات العيش في دعة ورضا. ولكني مع ذلك أحب أن أفكر، وأحب أن أبحث، وأحب أن أعلن إلى الناس ما أنتهي إليه بعد البحث والتفكير، ولا أكره أن آخذ نصيبي من رضا الناس عني أو سخطهم علي حين أعلن إليهم ما يحبون وما يكرهون. وإذن فلأعتمد على الله، ولأحدثك بما أحب أن أحدثك به في صراحة وأمانة وصدق، ولأجتنب في هذا الحديث هذه الطرق التي يسلكها المهرة من الكتاب ليدخلوا على الناس ما لم يألفوا في رفق وأناة وشيء من الاحتياط كثير.

وأول شيء أفجؤك به في هذا الحديث هو أني شككت في قيمة الشعر الجاهلي وألححت في الشك، أو قل ألح علي الشك، فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر، حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إلا يكن يقينًا فهو قريب من اليقين. ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منتحلة مختلفة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين. وأكاد لا أشك في أن ما بقي من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئًا ولا يدل على شيء،

ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي. وأنا أقدر النتائج الخطرة لهذه النظرية، ولكني مع ذلك لا أتردد في إثباتها وإذاعتها، ولا أضعف عن أن أعلن إليك وإلى غيرك من القراء أن ما تقرؤه على أنه شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء الناس في شيء، وإنما هو انتحال الرواة أو اختلاف الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين.

وأنا أزعم من هذا كله أن العصر الجاهلي القريب من الإسلام لم يضع، وإنا نستطيع أن تصوره تصورا واضحا قويا صحيحا. ولكن بشرط ألا نعتمد على الشعر، بل على القرآن من ناحية، والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى.

وستسألني كيف انتهى بي البحث إلى هذه النظرية الخطرة؟ ولست أكره أن أجيبك على هذا السؤال، بل أنا لا أكتب ما أكتب إلا لأجيبك عليه. ولأجل أن أجيبك عليه إجابة مقنعة يجب أن أتحدث إليك في طائفة مختلفة من المسائل. وسترى أن هذه الطائفة المختلفة من المسائل تنتهي كلها إلى نتيجة واحدة هي هذه النظرية التي ذكرتها منذ حين. يجب أن

أحدثك عن الحياة السياسية الداخلية للأمة العربية بعد ظهور الإسلام ووقوف حركة الفتح، وما بين هذه الحياة وبين الشعر من صلة. ويجب أن أحدثك عن حال أولئك الناس الذين غلبوا على أمرهم بعد الفتح في بلاد الفرس وفي الشام والجزيرة والعراق ومصر، وما بين هذه الحال وبين لغة العرب وآدابهم من صلة. ويجب أن أحدثك عن نشأة العلوم الدينية واللغوية وما بينها وبين اللغة والأدب من صلة. ثم يجب أن أحدثك عن اليهود في بلاد العرب قبل الإسلام وبعده، وما بين اليهود هؤلاء وبين الأدب العربي من صلة. ويجب أن أحدثك بعد هذا عن المسيحية وما كان لها من الانتشار في بلاد العرب قبل الإسلام وما أحدثت من تأثير في حياة العرب العقلية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية، وما بين هذا كله وبين الأدب العربي والشعر العربي من صلة. ثم يجب أن أحدثك عن مؤثرات سياسية خارجية عملت في حياة العرب قبل الإسلام وكان لها أثر قوي جدا في الشعر العربي الجاهلي وفي الشعر العربي الذي انتحل وأضيف إلى الجاهليين، وهذه المباحث التي أشرت إليها ستنتهي كلها إلى تلك النظرية التي قدمتها: وهي أن الكثرة

المطلقة مما نسميه الشعر الجاهلي ليست من الشعر الجاهلي في شيء.

ولكني مع ذلك لن أقف عند هذه المباحث، لأني لم أقف عندها فيما بيني وبين نفسي بل جاوزتها. وأريد أن أجاوزها معك إلى نحو آخر من البحث أظنه أقوى دلالة وأنهض حجة من المباحث الماضية كلها، ذلك هو البحث الفني واللغوي. فسينتهي بنا هذا البحث إلى أن هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس أو إلى الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء، ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن. نعم! وسينتهي بنا هذا البحث إلى نتيجة غريبة، وهي أنه لا ينبغي أن يستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث، وإنما ينبغي أن يستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله، أريد أن أقول أن هذه الأشعار لا تثبت شيئًا ولا تدل على شيء، ولا ينبغي أن تتخذ وسيلة إلى ما اتخذت إليه من علم بالقرآن والحديث. فهي إنما تكلفت واخترعت اختراعا ليستشهد به العلماء على ما كانوا يريدون أن يستشهدوا عليه.

فإذا انتهينا من هذه الطرق كلها إلى غاية واحدة هي هذه النظرية التي قدمتها، فسنجتهد أن نبحث عما يمكن أن يكون شعرا جاهليا حقًا. وأنا أعترف منذ الآن بأن هذا البحث عسير كل العسر، وبأني أشك شكًا شديدا في أنه قد ينتهي بنا إلى نتيجة مرضية. ومع ذلك فسنحاوله.

-٢-

منهج البحث

أحب أن أكون واضحا جليا وأن أقول للناس ما أريد أن أقول دون أن أضطرهم إلى أن يتأولوا ويتحملوا ويذهبوا مذاهب مختلفة في النقد والتفسير والكشف عن الأغراض التي أرمي إليها. أريد أن أريح الناس من هذا اللون من ألوان التعب، وأن أريح نفسي من الرد والدفع والمناقشة فيما لا يحتاج إلى مناقشة. أريد أن أقول أني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة. أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث. والناس جميعا يعلمون

أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما. والناس جميعا يعلمون أن هذا المنهج الذي سخط عليه أنصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر، قد كان من أخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثرا، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديدا، وأنه قد غير مذاهب الأدباء في أدبهم والفنانين في فنونهم، وأنه هو الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث.

فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء. ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل وخلصنا من كل هذه الأغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ أيدينا وأرجلنا ورؤوسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضا.

نعم! يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به، وأن ننسى ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين، يجب ألا نتقيد بشيء ولا نذعن لشيء إلا مناهج

البحث العلمي الصحيح. ذلك أنا إذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف، وسنغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين. وهل فعل القدماء غير هذا؟ وهل أفسد علم القدماء شيء غير هذا؟ كان القدماء عربا يتعصبون للعرب، أو كانوا عجما يتعصبون على العرب، فلم يبرأ علمهم من الفساد، لأن المتعصبين للعرب غلوا في تمجيدهم وإكبارهم فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم، ولأن المتعصبين على العرب غلوا في تحقيرهم وإصغارهم فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم أيضا.

كان القدماء مسلمين مخلصين في حب الإسلام، فأخضعوا كل شيء لهذا الإسلام وحبهم إياه، ولم يعرضوا لمبحث علمي ولا لفصل من فصول الأدب أو لون من ألوان الفن إلا من حيث أنه يؤيد الإسلام ويعزه ويعلي كلمته، فما لاءم مذهبهم هذا أخذوه، وما نافره انصرفوا عنه انصرافًا، أو كان القدماء غير مسلمين: يهودا أو نصارى أو مجوسا ملحدين أو مسلمين في قلوبهم مرض وفي نفوسهم زيغ، فتأثروا في حياتهم العلمية بمثل ما تأثر به المسلمون الصادقون: تعصبوا على الإسلام ونحوا في بحثهم العلمي

نحو الغض منه والتصغير من شأنه، فظلموا أنفسهم وظلموا الإسلام وأفسدوا العلم وجنوا على الأجيال المقبلة، ولو أن القدماء استطاعوا أن يفرقوا بين عقولهم وقلوبهم وأن يتناولوا العلم على نحو ما يتناوله المحدثون لا يتأثرون في ذلك بقومية ولا عصبية ولا دين ولا ما يتصل بهذا كله من الأهواء، لتركوا لنا أدبا غير الأدب الذي نجده بين أيدينا، ولأراحونا من هذا العناء الذي نتكلفه الآن، ولكن هذه طبيعة الإنسان لا سبيل إلى التخلص منها، وأنت تستطيع أن تقول هذا الذي تقوله في كل شيء.. فلو أن الفلاسفة ذهبوا في الفلسفة مذهب (ديكارت) منذ العصور الأولى، لما احتاج (ديكارت) إلى أن يستحدث منهجه الجديد. ولو أن المؤرخين ذهبوا في كتابة التاريخ منذ العصور الأولى مذهب (سليوبوس) لما احتاج (سينيوبوس) إلى أن يستحدث منهجه في التاريخ، وبعبارة أدنى إلى الإيجاز: لو أن الإنسان خلق كاملاً لما احتاج إلى أن يطمع في الكمال.

فلندع لوم القدماء على ما تأثروا به في حياتهم العلمية مما أفسد عليهم العلم. ولنجتهد في ألا نتأثر كما تأثروا وفي ألا تفسد العلم كما أفسدوه، لنجتهد في أن ندرس الأدب

العربي غير غافلين تمجيد العرب أو الغض منهم، ولا مكترثين بنصر الإسلام أو النعي عليه، ولا معنيين بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلمي والأدبي. ولا وجلين حين ينتهي بنا هذا البحث إلى ما تأباه القومية أو تنفر منه الأهواء السياسية أو تكرهه العاطفة الدينية، فإن نحن حررنا أنفسنا إلى هذا الحد فليس من شك في أننا سنصل ببحثنا العلمي إلى نتائج لم يصل إلى مثلها القدماء. وليس من شك في أننا سنلتقي أصدقاء سواء اتفقنا في الرأي أو اختلفنا فيه، فما كان اختلاف الرأي في العلم سببا من أسباب البغض، إنما الأهواء والعواطف هي التي تنتهي بالناس إلى ما يفسد عليهم الحياة من البغض والعداء.

فأنت ترى أن منهج (ديكارت) هذا ليس خصبا في العلم والفلسفة والأدب فحسب، وإنما هو خصب في الأخلاق والحياة الاجتماعية أيضا. وأنت ترى أن الأخذ بهذا المنهج ليس حتما على الذين يدرسون العالم ويكتبون فيه وحدهم، بل هو حتم على الذين يقرءون أيضا، وأنت ترى أني غير مسرف حين أطلب منذ الآن إلى الذين لا يستطيعون أن يبرءوا من القديم ويخلصوا من أغلال العواطف والأهواء

حين يقرءون العلم أو يكتبون فيه ألا يقرءوا هذه الفصول. فلن تفيدهم قراءتها إلا أن يكونوا أحرارا حقًا.

-٣-

مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس في القرآن

لا في الشعر الجاهلي

على أني أحب أن يطمئن الذين يكلفون بالأدب العربي القديم ويشفقون عليه ويجدون شيئًا من اللذة في أن يعتقدوا أن هناك شعرا جاهليا يمثل حياة جاهلية انقضى عصرها بظهور الإسلام، فلن يمحو هذا الكتاب ما يعتقدون، ولن يقطع السبيل بينهم وبين هذه الحياة الجاهلية يدرسونها ويجدون في درسها ما يبتغون من لذة علمية وفنية. بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا، فأزعم أني سأستكشف لهم طريقًا جديدة واضحة قصيرة سهلة يصلون منها إلى هذه الحياة الجاهلية، أو بعبارة أصح: يصلون منها إلى حياة جاهلية لم يعرفوها، إلى حياة جاهلية قيمة مشرقة ممتعة مخالفة كل المخالفة لهذه الحياة التي يجدونها في المطولات وغيرها مما ينسب إلى الشعراء الجاهليين. ذلك أني لا أنكر الحياة الجاهلية وإنما أنكر أن

يمثلها هذا الشعر الذي يسمونه الشعر الجاهلي. فإذا أردت أن أدرس الحياة الجاهلية فلست أسلك إليها طريق امرئ القيس والنابغة والأعشى وزهير، لأني لا أثق بما ينسب إليهم، وإنما أسلك إليها طريقًا أخرى، وأدرسها في نص لا سبيل إلى الشك في صحته، أدرسها في القرآن. فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي. ونص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه. أدرسها في القرآن، وأدرسها في شعر هؤلاء الشعراء الذين عاصروا النبي ﷺ وجادلوه، وفي شعر الشعراء الآخرين الذين جاءوا بعده ولم تكن نفوسهم قد طابت عن الآراء والحياة التي ألفها آباؤهم قبل ظهور الإسلام. بل أدرسها في الشعر الأموي نفسه. فلست أعرف أمة من الأمم القديمة استمسكت بمذهب المحافظة في الأدب ولم تجدد فيه إلا بمقدار الأمة العربية. فحياة العرب الجاهليين ظاهرة في شعر الفرزدق وجرير وذي الرمة والأخطل والراعي أكثر من ظهورها في هذا الشعر الذي ينسب إلى طرفة وعنترة والشماخ وبشر بن خازن.

قلت: إن القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية. وهذه القضية غريبة حين تسمعها، ولكنها بديهية حين تفكر فيها

قليلاً. فليس من اليسير أن نفهم أن الناس قد أعجبوا بالقرآن حين تليت عليهم آياته إلا أن تكون بينهم وبينه صلة هي هذه الصلة التي توجد بين الأثر الفني البديع وبين الذين يعجبون به حين يسمعونه أو ينظرون إليه. وليس من اليسير أن نفهم أن العرب قد قاوموا القرآن وناهضوه وجادلوا النبي ﷺ فيه إلا أن يكونوا قد فهموه ووقفوا على أسراره ودقائقه. وليس من اليسير بل ليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديدا كله على العرب. فلو كان كذلك لما فهموه ولا وعوه، ولا آمن به بعضهم ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر. إنما كان القرآن جديدا في أسلوبه، جديدا فيما يدعو إليه. جديدا فيما شرع للناس من دين وقانون، ولكنه كان كتابا عربيا لغته هي اللغة العربية الأدبية التي كان يصطنعها الناس في عصره، أي في العصر الجاهلي، وفي القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من الوثنية، وفيه رد على اليهود، وفيه رد على النصارى، وفيه رد على الصابئة والمجوس، وهو لا يرد على يهود فلسطين، وعلى نصارى الروم، ومجوس الفرس، وصابئة الجزيرة وحدهم، وإنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم في البلاد العربية نفسها،

ولولا ذلك ما كانت له قيمة ولا خطر، ولما حفل به أحد من أولئك الذين عارضوه وأبدوه، وضحوا في سبيل تأييده ومعارضته بالأموال والحياة.

أفترى أحدا يحفل بي لو أني أخذت أهاجم البوذية أو غيرها من هذه الديانات التي لا يدينها أحد في مصر؟ ولكنني أغيظ النصارى حين أهاجم النصرانية، وأهيج اليهود حين أهاجم اليهودية، وأحفظ المسلمين حين أهاجم الإسلام، وأنا لا أكاد أعرض لواحد من هذه الأديان حتى أجد مقاومة الأفراد ثم الجماعات، ثم مقاومة الدولة نفسها تمثلها النيابة والقضاء. ذلك لأني أهاجم ديانات ممثلة في مصر يؤمن بها المصريون وتحميها الدولة المصرية، وكذلك كانت الحال حين ظهر الإسلام: هاجم الوثنية فعارضه الوثنيون، وهاجم اليهود فعارضه اليهود، وهاجم النصارى فعارضه النصارى، ولم تكن هذه المعارضة هينة ولا لينة، وإنما كانت تقدر بمقدار ما كان لأهلها من قوة ومنعة وبأس في الحياة الاجتماعية والسياسية. فأما وثنية قريش فقد أخرجت النبي ﷺ من مكة ونصبت له الحرب واضطرت أصحابه إلى الهجرة. وأما يهودية اليهود فقط ألبت عليه وجاهدته جهادا عقليا وجدليا، ثم

انتهت إلى الحرب والقتال. وأما نصرانية النصارى فلم تكن معارضتها للإسلام إبان حياة النبي ﷺ قوية قوة المعارضة الوثنية واليهودية. لماذا؟ لأن البيئة التي ظهر فيها النبي ﷺ لم تكن بيئة نصرانية، إنما كانت وثنية في مكة، يهودية في المدينة. ولو ظهر النبي ﷺ في الحيرة أو في نجران للقي من نصارى هاتين المدينتين مثل ما لقي من مشركي مكة ويهود المدينة.

وفي الحق أن الإسلام لم يكد يظهر على مشركي الحجاز ويهوده حتى استحال الجهاد بينه وبين النصارى من جدال ونضال بالحجة إلى اصطدام مسلح، أدرك النبي ﷺ أوله وانتهى به الخلفاء إلى أقصى حدوده.

فأنت ترى أن القرآن حين يتحدث عن الوثنيين واليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب النحل والديانات إنما يتحدث عن العرب وعن نحل وديانات ألفها العرب، فهو يبطل منها ما يبطل، ويؤيد منها ما يؤيد. وهو يلقى في ذلك المعارضة والتأييد بمقدار ما لهذه النحل والديانات من السلطان على نفوس الناس وإذن فما أبعد الفرق بين نتيجة البحث عن الحياة الجاهلية في هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين

والبحث عنها في القرآن!

فأما هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية، وإلا فأين تجد شيئًا من هذا في شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنترة! أَو ليس عجيبا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين!

وأما القرآن فيمثل لنا شيئًا آخر، يمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها إلى أن يجادلوا ما وسعهم الجدال، فإذا رأوا أنه قد أصبح قليل العناء لجئوا إلى الكيد، ثم إلى الاضطهاد، ثم إلى إعلان الحرب التي لا تبقي ولا تذر.

أفتظن أن قريشًا كانت تكيد لأبنائها وتضطهدهم وتذيقهم ألوان العذاب ثم تخرجهم من ديارهم ثم تنصب لهم الحرب وتضحي في سبيلها بثروتها وقوتها وحياتها لو لم يكن لها من الدين إلا ما يمثله هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين؟ كلا! كانت قريش متدينة قوية الإيمان بدينها. ولهذا الدين وللإيمان بهذا الدين جاهدت ما جاهدت وضحت ما ضحت. وقل مثل ذلك في اليهود، وقل مثله في غير

أولئك وهؤلاء من العرب الذين جاهدوا النبي ﷺ عن دينهم.

فالقرآن إذن أصدق تمثيلاً للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي. ولكن القرآن لا يمثل الحياة الدينية وحدها، وإنما يمثل شيئًا آخر غيرها لا نجده في هذا الشعر الجاهلي، يمثل حياة عقلية قوية، يمثل قدرة على الجدال والخصام أنفق القرآن في جهادها حظًا عظيما. أليس القرآن قد وصف أولئك الذين كانوا يجادلون النبي ﷺ بقوة الجدال والقدرة على الخصام والشدة في المحاورة! وفيم كانوا يجادلون ويخاصمون ويحاورون؟ في الدين وفيما يتصل بالدين من هذه المسائل المعضلة التي ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفقوا إلى حلها: في البعث، في الخلق، في إمكان الاتصال بين الله والناس، في المعجزة وما إلى ذلك.

أفتظن قوما يجادلون في هذه الأشياء جدالاً يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة، أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلاظة والخشونة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين! كلا! لم يكونوا جهالاً ولا أغبياء ولا غلاظًا ولا أصحاب حياة خشنة جافية، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين

ونعمة.

وهنا يجب أن نحتاط، فلم يكن العرب كلهم كذلك، ولا يمثلهم القرآن كلهم كذلك، وإنما كانوا كغيرهم من الأمم القديمة وككثير من الأمم الحديثة منقسمين إلى طبقتين: طبقة المستنيرين الذين يمتازون بالثروة والجاه والذكاء والعلم. وطبقة العامة الذين لا يكاد يكون لهم من هذا كله حظ.

القرآن شاهد بهذا، أليس يحدثنا عن أولئك المستضعفين الذين كفروا طاعة لسادتهم وزعمائهم لا جهادا في الرأي ولا اقتناعا بالحق، والذين سيقولون يوم يسألون: {ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا}. بلى! والقرآن يحدثنا عن جفوة الأعراب وغلظتهم وإمعانهم في الكفر والنفاق وقلة حظهم من العاطفة الرقيقة التي تحمل على الإيمان والتدين. أليس هو الذي يقول: {الأعراب أشد كفرا ونفاقًا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله}؟ أليس قد شرع للنبي ﷺ أن يتألف قلوب الأعراب بالمال؟ بلى. فالقرآن إذن يمثل الأمة العربية على أنها كانت كغيرها من الأمم القديمة، فيها الممتازون المستنيرون الذين كان النبي ﷺ يجادلهم ويجاهدهم، وفيها العامة الذين لم يكن لهم حظ من استنارة أو امتياز والذين

كانوا موضوع النزاع بين النبي ﷺ وخصومه والذين كان يتألفهم النبي ﷺ بالمال أحيانًا.

والقرآن لا يمثل الأمة العربية متدينة مستنيرة فحسب، بل هو يعطينا منها صورة أخرى يدهش لها الذين تعودوا أن يعتمدوا على هذا الشعر الجاهلي في درس الحياة العربية قبل الإسلام، فهم يعتقدون أن العرب كانوا قبل الإسلام أمة معتزلة تعيش في صحرائها لا تعرف العالم الخارجي ولا يعرفها العالم الخارجي، وهم يبنون على هذا قضايا ونظريات، فهم يقولون أن الشعر الجاهلي لم يتأثر بهذه المؤثرات الخارجية التي أثرت في الشعر الإسلامي: لم يتأثر بحضارة الفرس والروم، وأنى له ذلك! لقد كان يقال في صحراء لا صلة بينها وبين الأمم المتحضرة. كلا! القرآن يحدثنا بشيء غير هذا، القرآن يحدثنا بأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم بل كانوا على اتصال قوي قسمهم أحزابا وفرقهم شيعا. أليس القرآن يحدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفرس من حرب انقسمت فيها العرب إلى حزبين مختلفين: حزب يشايع أولئك. وحزب يناصر هؤلاء؟ أليس في القرآن سورة تسمى سورة الروم وتبتدئ

بهذه الآيات: {ألم. غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء}.

لم يكن العرب إذن كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلي معتزلين، فأنت ترى أن القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم، وهو يصف اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الأمم في الصورة المعروفة {لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف..} وكانت إحدى هاتين الرحلتين إلى الشام حيث الروم، والأخرى إلى اليمن حيث الحبشة أو الفرس.

وسيرة النبي ﷺ تحدثنا أن العرب تجاوزوا بوغاز باب المندوب إلى بلاد الحبشة، ألم يهاجر المهاجرون والأولون إلى هذه البلاد! وهذه السيرة نفسها تحدثنا بأنهم تجاوزوا الحيرة إلى بلاد الفرس، وبأنهم تجاوزوا الشام وفلسطين إلى مصر. فلم يكونوا إذن معتزلين، ولم يكونوا إذن بنجوة من تأثير الفرس والروم والحبش والهند وغيرهم من الأمم المجاورة لهم. لم يكونوا على غير دين ولم يكونوا جهالاً ولا غلاظًا ولم يكونوا في عزلة سياسية أو اقتصادية بالقياس إلى

الأمم الأخرى. كذلك يمثلهم القرآن.

وإذا كانوا أصحاب علم ودين، وأصحاب ثروة وقوة وبأس، وأصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة متأثرة بها مؤثرة فيها، فما أخلفهم أن يكونوا أمة متحضرة راقية لا أمة جاهلية همجية، وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدق أن القرآن قد ظهر في أمة جاهلة همجية.

أرأيت أن التماس الحياة العربية الجاهلية في القرآن أنفع وأجدى من التماسها في هذا الشعر العقيم الذي يسمونه الشعر الجاهلي! أرأيت أن هذا النحو من البحث يغير كل التغيير ما تعودنا أن نعرف من أمر الجاهليين!

- ٤ -

الشعر الجاهلي واللغة

على أن هناك شيئًا آخر يحظر علينا التسليم بصحة الكثرة المطلقة من هذا الشعر الجاهلي، ولعله أبلغ في إثبات ما نذهب إليه. فهذا الشعر الذي رأينا أنه يمثل الحياة الدينية والعقلية للعرب الجاهليين بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه. والأمر هنا

يحتاج إلى شيء من الروية والأناة. فنحن إذا ذكرنا اللغة العربية نريد بها معناها الدقيق المحدود الذي نجده في المعاجم حيث نبحث فيها عن لفظ اللغة ما معناه، نريد بها الألفاظ من حيث هي ألفاظ تدل على معانيها، تستعمل حقيقة مرة ومجازا مرة أخرى، وتتطور تطورا ملائما لمقتضيات الحياة التي يحياها أصحاب هذه اللغة.

نقول أن هذا الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية، ولنجتهد في تعرف اللغة الجاهلية هذه ما هي، أو ماذا كانت في العصر الذي يزعم الرواة أن شعرهم الجاهلي هذا قد قيل فيه. أما الرأي الذي اتفق عليه الرواة أو كادوا يتفقون عليه فهو أن العرب ينقسمون إلى قسمين: قحطانية منازلهم الأولى في اليمن، وعدنانية منازلهم الأولى في الحجاز.

وهم متفقون على أن القحطانية عرب منذ خلقهم الله فطروا على العربية فهم العاربة، وعلى أن العدنانية قد اكتسبوا العربية اكتسابا، كانوا يتكلمون لغة أخرى هي العبرانية أو الكلدانية، ثم تعلموا لغة (العرب العاربة) ولغة عدنان (وهي العرب المستعربة). وقد روي عن الثانية المستعارة. وهم متفقون على أن هذه العدنانية المستعربة إنما

يتصل نسبها بإسماعيل بن إبراهيم، وهم يروون حديثًا يتخذونه أساسا لكل هذه النظرية، خلاصته أن أول من تكلم بالعربية ونسي لغة أبيه إسماعيل بن إبراهيم.

على هذا كله يتفق الرواة، ولكنهم يتفقون على شيء آخر أيضا أثبته البحث الحديث، وهو أن هناك خلافًا قويا بين لغة حمير (وهي العرب العاربة) ولغة عدنان (وهي العرب المستعربة). وقد روي عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقول: ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا.

وفي الحق أن البحث الحديث قد أثبت خلافًا جوهريا بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد، ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من إثبات هذا الخلاف في اللفظ وفي قواعد النحو والتصريف أيضا. وإذن فلابد من حل هذه المسألة.

إذا كان أبناء إسماعيل قد تعلموا العربية من أولئك العرب الذين تسميهم العاربة فكيف بعد ما بين اللغة التي كان يصطنعها العرب العاربة واللغة التي كان يصطنعها العرب المستعربة، حتى استطاع أبو عمرو بن العلاء أن يقول أنهما

لغتان متمايزتان. واستطاع العلماء المحدثون أن يثبتوا هذا التمايز بالأدلة التي لا تقبل شكًا ولا جدالاً: والأمر لا يقف عند هذا الحد، فواضح جدا لكل من له إلمام بالبحث التاريخي عامة وبدرس الأساطير والأقاصيص خاصة أن هذه النظرية متكلفة مصطنعة في عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية.

للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها. ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعا من الحلية في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهود والقرآن والتوراة من جهة أخرى. وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويبثون فيه المستعمرات. فنحن نعلم أن حروبا عنيفة شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد، وانتهت بشيء من

المسالمة والملاينة ونوع من المحالفة والمهادنة. فليس يبعد أن يكون هذا الصلح الذي استقر بين المغيرين وأصحاب البلاد منشأ هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء أعمام، ولا سيما وقد رأى أولئك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئًا من التشابه غير قليل، فأولئك وهؤلاء ساميون.

ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أن ظهور الإسلام وما كان من الخصومة العنيفة بينه وبين وثنية العرب من غير أهل الكتاب، قد اقتضى أن تثبت الصلة الوثيقة المتينة بين الدين الجديد وبين الديانتين القديمتين: ديانة النصارى واليهود.

فأما الصلة الدينية فثابتة واضحة. فبين القرآن والتوراة والأناجيل اشتراك في الموضوع والصورة والغرض، كلها ترمي إلى التوحيد، وتعتمد على أساس واحد هو هذا الذي تشترك فيه الديانات السماوية السامية. ولكن هذه الصلة الدينية معنوية عقلية يحسن أن تؤيدها صلة أخرى مادية ملموسة أو كالملموسة بين العرب وأهل الكتاب. فما الذي يمنع أن تستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود؟

وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح. فقد كانت في أول هذا القرن قد انتهت إلى حظ من النهضة السياسية والاقتصادية ضمن لها السيادة في مكة وما حولها وبسط سلطانها المعنوي على جزء غير قليل من البلاد العربية الوثنية. وكان مصدر هذه النهضة وهذا السلطان أمرين: التجارة من جهة، والدين من جهة أخرى.

فأما التجارة فنحن نعلم أن قريشًا كانت تصطنعها في الشام ومصر وبلاد الفرس واليمن وبلاد الحبشة.

وأما الدين فهذه الكعبة التي كانت تجتمع حولها قريش ويحج إليها العرب المشركون في كل عام، والتي أخذت تبسط على نفوس هؤلاء العرب المشركين نوعا من السلطان قويا، والتي أخذ هؤلاء العرب المشركون يجعلون منها رمزا لدين قوي كأنه كان يريد أن يقف في سبيل انتشار اليهود من ناحية والمسيحية من ناحية أخرى. فنحن نلمح في الأساطير أن شيئًا من المنافسة الدينية كان قائما بين مكة ونجران. ونحن نلمح في الأساطير أيضا أن هذه المنافسة الدينية بين مكة وبين الكنيسة التي أنشأها الحبشة في صنعاء هي التي

دعت إلى حرب الفيل التي ذكرت في القرآن.

فقريش إذن كانت في هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية، ونهضة دينية وثنية. وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم في البلاد العربية.

وإذا كان هذا حقًا -ونحن نعتقد أنه حق فمن المعقول جدا أن تبحث هذه المدنية الجديدة لنفسها عن أصل تاريخي قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التي تتحدث عنها الأساطير. وإذن فليس ما يمنع قريشًا من أن تقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم. كما قبلت روما قبل ذلك ولأسباب مشابهة أسطورة أخرى صنعها لها اليونان تثبت أن روما متصلة بإينياس بن بريام صاحب طرواة.

أمر هذه القصة إذن واضح، فهي حديثة العهد ظهرت قبل الإسلام، واستغلها الإسلام لسبب ديني، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضا. وإذن فيستطيع التاريخ الأدبي واللغوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة

الفصحى. وإذن فنستطيع أن نقول أن الصلة بين اللغة العربية الفصحى التي كانت تتكلمها العدنانية واللغة التي كانت تتكلمها القحطانية في اليمن إنما هي كالصلة بين اللغة العربية وأي لغة أخرى من اللغات السامية المعروفة، وأن قصة (العاربة) و (المستعربة) وتعلم إسماعيل العربية من جرهم، كل ذلك حديث أساطير لا خطر له ولا غناء فيه.

والنتيجة لهذا البحث كله تردنا إلى الموضوع الذي ابتدأنا به منذ حين، وهو أن هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية ولا يمكن أن يكون صحيحا. ذلك لأننا نجد بين هؤلاء الشعراء الذين يضيفون إليهم شيئًا كثيرا من الشعر الجاهلي قوما ينتسبون إلى عرب اليمن إلى هذه القحطانية العاربة التي كانت تتكلم لغة غير لغة القرآن، والتي كان يقول عنها أبو عمرو بن العلاء: أن لغتها مخالفة للغة العرب، والتي أثبت البحث الحديث أن لها لغة أخرى غير اللغة العربية.

ولكننا حين نقرأ الشعر الذي يضاف إلى شعراء هذه القحطانية في الجاهلية لا نجد فرقًا قليلاً ولا كثيرا بينه وبين شعر العدنانية، نستغفر الله! بل نحن لا نجد فرقًا بين لغة هذا

الشعر ولغة القرآن. فكيف يمكن فهم ذلك أو تأويله؟ أمر ذلك يسير، وهو أن هذا الشعر الذي يضاف إلى القحطانية قبل الإسلام ليس من القحطانية في شيء، لم يقله شعراؤها وإنما حمل عليهم بعد الإسلام لأسباب مختلفة سنبينها حين نعرض لهذه الأسباب التي دعت إلى انتحال الشعر الجاهلي في الإسلام.

الشعر الجاهلي واللهجات

على أن الأمر يتجاوز هذا الشعر الجاهلي القحطاني إلى الشعر الجاهلي العدناني نفسه. فالرواة يحدثوننا أن الشعر تنقل في قبائل عدنان، كان في ربيعة ثم انتقل إلى قيس ثم إلى تميم. فظل فيها على ما بعد الإسلام أي إلى أيام بني أمية حين نبغ الفرزدق وجرير.

ونحن لا نستطيع أن نقبل هذا النوع من الكلام إلا باسمين، لأننا لا نعرف ما ربيعة وما قيس وما تميم معرفة علمية صحيحة، أي لأننا ننكر أو نشك في أقل تقدير شكًا قويا في قيمة هذه الأسماء التي تسمى بها القبائل، وفي قيمة الأنساب التي تصل بين الشعراء وبين أسماء هذه القبائل. ونعتقد أو نرجح أن هذا كله أقرب إلى الأساطير منه إلى

العلم اليقين.

ولكن مسألة النسب وقيمته مسألة لا تعنينا الآن، فلندعها إلى حيث نعرض لها إذا اقتضت مباحث هذا الكتاب أن نعرض لها. وقد بينا رأينا فيها بيانًا مجملاً في (ذكرى أبي العلاء). إنما المسألة التي تعنينا الآن وتحملنا على الشك في قيمة هذه النظرية (نظرية تنقل الشعر في قبائل عدنان قبل الإسلام) مسألة فنية خالصة. فالرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام فيقارب بين اللغات المختلفة ويزيل كثيرا من تباين اللهجات. وكان من المعقول أن تختلف لغات العرب العدنانية وتتباين لهجاتهم قبل ظهور الإسلام. ولا سيما إذا صحت النظرية التي أشرنا إليها آنفًا وهي نظرية العزلة العربية، وثبت أن العرب كانوا متقاطعين متنابذين، وأنه لم يكن بينهم من أسباب المواصلات المادية والمعنوية ما يمكن من توحيد اللهجات.

فإذا صح هذا كله، كان من المعقول جدا أن تكون لكل قبيلة من هذه القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها في الكلام، وأن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات في شعر

هذه القبائل الذي قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة. ولكننا لا نرى شيئًا من ذلك في الشعر الجاهلي. فأنت تستطيع أن تقرأ هذه المطولات أو المعلقات التي يتخذها أنصار القديم نموذجا للشعر الجاهلي الصحيح، فسترى أن فيها مطولة لامرئ القيس وهو من كندة أي من قحطان، وأخرى لزهير، وأخرى لعنترة، وثالثة للبيد، وكلهم من قيس، ثم قصيدة لطرفة، وقصيدة لعمرو بن كلثوم، وقصيدة أخرى للحارث بن حلزة وكلهم من ربيعة.

تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه أن يكون اختلافًا في اللهجة أو تباعدا في اللغة أو تباينًا في مذهب الكلام. البحر العروضي هو هو، وقواعد القافية هي هي. والألفاظ مستعملة في معانيها كما تجدها عند شعراء المسلمين، والمذهب الشعري هو هو.

كل شيء في هذه المطولات يدل على أن اختلاف القبائل لم يؤثر في شعر الشعراء تأثيرا ما. فنحن بين اثنتين: إما أن نؤمن بأنه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان في اللغة ولا في اللهجة ولا في المذهب الكلامي، وإما أن نعترف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه

القبائل وإنما حمل عليها حملاً بعد الإسلام. ونحن إلى الثانية أميل منا إلى الأولى. فالبرهان القاطع قائم على أن اختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس إلى عدنان وقحطان، يعترف القدماء أنفسهم بذلك كما رأيت أبا عمرو بن العلاء، ويثبته البحث الحديث.

وهناك شيء بعيد الأثر لو أن لدينا أو لدى غيرنا من الوقت ما يمكننا من استقصائه وتفصيل القول فيه، وهو أن القرآن الذي تلي بلغة واحدة ولهجة واحدة هي لغة قريش ولهجتها لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه وتباينت تباينًا كثيرا، وجد القراء والعلماء المتأخرون في ضبطه وتحقيقه وأقاموا له علما أو علوما خاصة. ولسنا نشير هنا إلى هذه القراءات التي تختلف فيما بينها اختلافًا كثيرا في ضبط الحركات سواء أكانت حركات بنية أو حركات إعراب. لسنا نشير إلى اختلاف القراء في نصب (الطير) في الآية: {يا جبال أوبي معه والطير} أو رفعها، ولا إلى اختلافهم في ضم الفاء أو فتحها في الآية: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم} ولا إلى اختلافهم في بناء الفعل للمجهول أو للمعلوم في الآية: {غلبت

الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون}. لا نشير إلى هذا النحو من اختلاف الروايات في القرآن فتلك مسألة معضلة نعرض لها ولما ينشأ عنها من النتائج إذا أتيح أن ندرس تاريخ القرآن. إنما نشير إلى اختلاف آخر في القراءات يقبله العقل، ويسبغه النقل، وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها وشفاهها لتقرأ القرآن كما كان يتلوه النبي ﷺ وعشيرته من قريش، فقرأته كما كانت تتكلم، فأمالت حيث لم تكن تميل قريش، ومدت حيث لم تكن تمد، وقصرت حيث لم تكن تقصر، وسكنت حيث لم تكن تسكن، وأدغمت أو أخفت أو نقلت حيث لم تكن تدغم ولا تخفي ولا تنقل، فهذا النوع من اختلاف اللهجات له أثره الطبيعي اللازم في الشعر في أوزانه وتقاطيعه وبحوره وقوافيه بوجه عام.

ولسنا نستطيع أن نفهم كيف استقامت أوزان الشعر وبحوره وقوافيه كما دونها الخليل لقبائل العرب كلها على ما كان بينها من تباين اللغات، واختلاف اللهجات. وإذا لم يكن نظم القرآن، وهو ليس شعرا ولا مقيدا بما يتقيد به الشعر، وهو مقيد بما تعلم من القيود، أن يستقيم لها! وكيف لم تحدث

هذه اللهجات المتباينة آثارها في وزن الشعر وتقطيعه الموسيقي، أي كيف لم توجد صلة واضحة بين هذا الاختلاف في اللهجة وبين الأوزان الشعرية التي كانت تصطنعها القبائل؟

ستقول: ولكن اختلاف اللهجات كان قائما بعد القرآن وليس من شك في أن قبائل العرب على اختلافها قد تعاطت الشعر بعد الإسلام ولم يظهر فيه اختلاف اللهجات، فكما استقامت بحوره وأوزانه على هذا الاختلاف بعد الإسلام، فليس ما يمنع أن تكون قد استقامت عليه في العصر الجاهلي.

ولست أنكر أن اختلاف اللهجات كان حقيقة واقعة بعد الإسلام، ولست أنكر أن الشعر قد استقام للقبائل كلها رغم هذا الاختلاف، ولكني أظن أنك تنسى شيئًا يحسن ألا تنساه، وهو أن القبائل بعد الإسلام قد اتخذت للأدب لغة غير لغتها، وتقيدت في الأدب بقيود لم تكن لتتقيد بها لو كتبت أو شعرت في لغتها الخاصة، أي أن الإسلام قد فرض على العرب جميعا لغة عامة واحدة هي لغة قريش، فليس غريبا أن تتقيد هذه القبائل بهذه اللغة الجديدة في شعرها ونثرها في أدبها

بوجه عام. فلم يكن التميمي أو القيسي حين يقول الشعر في الإسلام يقوله بلغة تميم أو قيس ولهجتها، وإنما كان يقوله بلغة قريش ولهجتها. ومثل ذلك واضح في غير اللغة العربية من اللغات القديمة والحديثة. كان للدوريين من اليونان شعرهم الدوري وأوزانهم الدورية، وكان لليونيين شعرهم اليوني وأوزانهم اليونية، ثم لما ظهرت أثينا على البلاد اليونانية عامة ذاع الشعر اليوني والأوزان اليونية والنثر الأتيكي. وأصبح الدوريون إذا نظموا أو نثروا يصطنعون ما كان يصطنع في أثينا من مناهج النظم والنثر. ويصطنعون اللغة اليونية التي هذبها مذهب الأثينيين في الكلام. فهم كانوا يعدلون عن لغتهم ولهجاتهم وأوزانهم وأساليبهم إلى لغة الأثينيين ولهجتهم وأوزانهم وأساليبهم. وكذلك فعل العرب بعد الإسلام: عدلوا في لغتهم الأدبية عن كل ما كانت تمتاز به لغتهم ولهجتهم الخاصة إلى لغة القرآن ولهجتها. والأمر كذلك في الأمم الحديثة الكبرى ذات الأقاليم النائية، والأطراف المتباعدة والتكوين الجنسي المعقد. ولست أضرب لذلك إلا مثلاً واحدا حيا هو مثل فرنسا، ففي فرنسا إلى جانب اللغة الفرنسية لغات إقليمية لها نحوها وقوامها الخاص

ولها شعرها، ومع ذلك فأهل الأقاليم إذا أرادوا أن يظهروا آثارا أدبية أو علمية قيمة يعدلون عن لغتهم الإقليمية إلى اللغة الفرنسية، وقليل جدا من بينهم من يذهب مذهب (ميسترال) فيكتب في لغته الإقليمية الخاصة.

وأنا أشعر بالحاجة إلى أن أضرب مثلاً آخر قد يدهش له الذين يدرسون الأدب العربي، لأنهم لم يتعودوا مثله من الباحثين عن تاريخ الأدب. ذلك أن في لغتنا المصرية العصرية لهجات مختلفة وأنحاء متباينة من أنحاء القول. فلأهل مصر العليا لهجاتهم، ولأهل مصر الوسطى لهجاتهم، ولأهل القاهرة لهجتهم، ولأهل مصر السفلى لهجاتهم. وهناك اتفاق مطرد بين هذه اللهجات وبين ما للمصريين من شعر في لغتهم العامية، فأهل مصر العليا يصطنعون أوزانًا لا يصطنعها أهل القاهرة ولا أهل الدلتا، وهؤلاء يصطنعون أوزانًا لا يصطنعها أهل مصر العليا. وهذا ملائم لطبيعة الأشياء. فما كان للشعر أن يخرج عما ألف أصحابه من لغة ولهجة في الكلام. ومع هذا كله فنحن حين ننظم الشعر الأدبي أو نكتب النثر الأدبي والعلمي نعدل عن لغتنا ولهجتنا الإقليمية إلى هذه اللغة واللهجة التي عدل إليها العرب بعد

الإسلام وهي لغة قريش ولهجة قريش، أي لغة القرآن ولهجته.

فالمسألة إذن هي أن نعلم: أسادت لغة قريش ولهجتها في البلاد العربية، وأخضعت العرب لسلطانها في الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده؟ أما نحن فنتوسط ونقول: أنها سادت قبيل الإسلام حين عظم شأن قريش وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية. ولكن سيادة لغة قريش قبيل الإسلام لم تكن شيئًا يذكر ولم تكد تتجاوز الحجاز. فلما جاء الإسلام عمت هذه السيادة وسار سلطان اللغة واللهجة مع السلطان الديني والسياسي جنبا لجنب.

وإذن فنحن إذا استطعنا أن نفسر اتفاق اللغة واللهجة في شعر أولئك الذين عاصروا النبي ﷺ من أهل الحجاز، فلن نستطيع أن نفسره في شعر الذين لم يعاصروه أو لم يجاوروه.

ولندع هذه المسالة الفنية الدقيقة التي نعترف بأنها في حاجة إلى تفصيل وتحقيق أوسع وأشمل مما يسمح لنا به المقام في هذا الفصل إلى مسألة أخرى ليست أقل منها

خطرا، وإن كان أنصار القديم سيجدون في فهمها شيئًا من العسر والمشقة، لأنهم لم يتعودوا مثل هذه الريبة في البحث العلمي. وهي أنا نلاحظ أن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلي مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث ونحوهما ومذاهبهما الكلامية.. ومن الغريب أنهم لا يكادون يجدون في ذلك مشقة ولا عسرا، حتى أنك لتحس كأن هذا الشعر الجاهلي إنما قد على قد القرآن والحديث كما يقد الثوب على قد لابسه لا يزيد ولا ينقص عما أراد طولاً وسعة، إذن فنحن نجهر بأن هذا ليس من طبيعة الأشياء، وأن هذه الدقة في الموازاة بين القرآن والحديث والشعر الجاهلي لا ينبغي أن تحمل على الاطمئنان إلا الذين رزقوا حظًا من السذاجة لم يتح لنا مثله. إنما يجب أن تحملنا هذه الدقة في الموازاة على الشك والحيرة وعلى أن نسأل أنفسنا: أليس يمكن ألا تكون هذه الدقة في الموازاة نتيجة من نتائج المصادفة، وإنما هي شيء تكلف وطلب وأنفق فيه أصحابه بياض الأيام وسواد الليالي؟ يجب أن نكون على حظ عظيم جدا من السذاجة لتصدق أن فلانًا أقبل على ابن عباس وقد أعد له طائفة من المسائل تتجاوز المائتين حول لغة القرآن فأخذ يلقي عليه

المسألة، فإذا أجاب عليها سأله: وهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ فيقول: نعم! قال امرؤ القيس أو قال عنترة أو قال غيرهما من الشعراء.. وينشد بيتًا لا شك إن كنت من أهل الفقه في أنه إنما وضع ليثبت صحة اللفظ الذي يستشهد عليه من ألفاظ القرآن!

وهنا نمس أمرا من هذه الأمور التي سيغضب لها أنصار الأدب القديم، ولكننا سنمضي في طريقنا كما بدأنا لا مواربين ولا مخادعين. أليس من الممكن أن تكون قصة ابن عباس ونافع بن الأزرق قد وضعت في تكلف وتصنع لغرض من هذه الأغراض المختلفة التي كانت تدعو إلى وضع الكلام وإنحاله، لإثبات أن ألفاظ القرآن كلها مطابقة للفصيح من لغة العرب، أو لإثبات أن عبد الله بن عباس كان من أقدر الناس على تأويل القرآن وتفسيره ومن أحفظهم لكلام العرب الجاهليين؟ وأنت تعلم أن ذاكرة ابن عباس كانت مضرب المثل في القرن الثاني والثالث للهجرة. وأنت تذكر قصته مع نافع بن الأزرق هذا، وعمر بن أبي ربيعة حين أنشده:* أمن آل نعم أنت غاد فمبكر* وأنت تعلم أن عبد الله بن عباس كان له مولى أخذ عنه العلم ونقله إلى الناس

ودرس على مولاه شيئًا كثيرا، وهو عكرمة، وأنت تعلم أن إثبات هذا الحفظ الكثير لعبد الله بن عباس لم يكن يخلو من فائدة سياسية، لأن ابن عباس روى أشياء كثيرة أو رويت عنه أشياء كثيرة تتبع الشيعة، ولأن ابن عباس أجاب نافع بن الأزرق حين قال له: ما رأيت أحفظ منك يا ابن عباس، بقوله: ما رأيت أحفظ من علي. وأنت تعلم أن هناك حديثًا ترويه الشيعة يجعل النبي ﷺ مدينة العلم، ويجعل عليا بابها.

بل أليس يمكن أن تكون قصة ابن عباس هذه قد وضعت في سذاجة وسهولة ويسر، لا لشيء إلا هذا الغرض التعليمي اليسير، وهو أن يسمع الطالب لفظًا من ألفاظ القرآن ويجد الشاهد عليه من غير مشقة ولا عناء، أراد أحد العلماء أن يفسر طائفة من ألفاظ القرآن فوضع هذه القصة واتخذها سبيلاً إلى ما أراد؟ ولعل لهذه القصة أصلاً يسيرا جدا، لعل نافعا سأل ابن عباس عن مسائل قليلة فزاد فيها هذا العالم ومدها حتى أصبحت رسالة مستقلة يتداولها الناس.

وهذا النحو من التكلف والانتحال للأغراض التعليمية الصرفة كان شائعا معروفًا في العصر العباسي ولا سيما في القرن الثالث والرابع. ولست أريد أن أطيل ولا أن أتعمق في

إثبات هذا، إنما أحيلك إلى كتاب ((الآمالي لأبي علي القالي)) وإلى ما يشبهه من الكتب فسترى طائفة من الأحاجي والأوصاف تنسب إلى الأعراب رجالاً ونساء شبابا وشيبا. سترى مثلاً بنات سبعا اجتمعن وتواصفن أفراس آبائهن، فتقول كل واحدة منهن في فرس أبيها كلاما غريبا ومسجوعا يأخذه أهل السذاجة على أنه قد قيل حقًا، في حين أنه لم يقل، وإنما كتبه معلم يريد أن يحفظ تلاميذه أوصاف الخيل وما يقال فيها، أو عالم يريد أن يتفيهق ويظهر كثرة ما وعي من العلم. وقل مثل ذلك في سبع بنات اجتمعن وتواصفن المثل الأعلى للزوج الذي تطمع فيه كل واحدة منهن، فأخذن يقلن كلاما مسجوعا في وصف الرجولة والفتوة والتعريض أو التلميح إلى ما تحب المرأة من الرجل.

ومثل هذا كثير شعرا ونثرا وسجعا، تجده في الآمالي والعقد الفريد وديوان المعاني لأبي هلال وغيرها من الكتب. وأكاد أعتقد أن هذا النحو من الانتحال هو أصل المقامات وما يشبهها من هذا النوع من أنواع الإنشاء.

ولكني بعدت عن الموضوع فيما يظهر، فلأعود إليه لأقول ما كنت أقول منذ حين، وهو أن من الحق علينا لأنفسنا

وللعلم أن نسأل: أليس هذا الشعر الجاهلي الذي ثبت أنه لا يمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا دياناتهم ولا حضاراتهم بل لا يمثل لغتهم، أليس هذا الشعر قد وضع وضعا وحمل على أصحابه حملاً بعد الإسلام؟ أما أنا فلا أكاد أشك الآن في هذا. لكننا محتاجون بعد أن ثبتت لنا هذه النظرية أن نتبين الأسباب المختلفة التي حملت الناس على وضع الشعر وانتحاله بعد الإسلام.

وثائق

د. طه حسين بجامعة القاهرة[1]

(1) هذه الوثائق سقطت فنيا من الجزء الثاني بالكتاب وأسرعنا بإلحاقها هنا للأهمية.